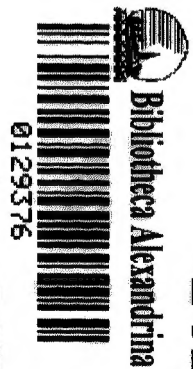


د. أسعد حومد

محنة العرب في الأندلس

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



محنت العرب في الأندلس

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية

للدراسات والبحوث

بناية برج الكارنتون - ساحة الجزيرة -

ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً - موكبال،

بيروت - ص. ب. : ٥٤٦٠ / ١١ بيروت

تلكس : LE/DIRKAY - ٤٠٠٦٧

الطبعة الثانية مزيّدة ومنقّحة

١٩٨٨

المركز العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم القيد :	946.8
رقم التسجيل :	ع ٢٠٩٩٥٩

د. أسعد حومد

محنة العرب في الأندلس



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

وصف ريشليو- كاردينال فرنسا ورئيس وزرائها في عهد لويس الثالث عشر - عمل اسبانيا في إبادة العنصر العربي الاسلامي في الأندلس، وطرد جميع من تبقى منهم فيها عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠م بأنه (أكثر ما عرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة والبربرية والجرأة).

والكاردينال ريشليو عاصر آخر فصل من فصول مأساة العرب ومحتهم في الأندلس، وعرف ما رافق عملية إخراجهم من اسبانيا من مأس لا يمكن أن يعبر عنها وصف.

والواقع أن محنة العرب في الأندلس من أكثر المحن في تاريخ الإنسانية إبلاماً وتأثيراً في النفوس، فقد روت كتب التاريخ الكثير عن قهر شعب لشعب، وعن استسلام الغالب لجميع أنواع الاضطهاد والعسف والوحشية في معاملة الشعب المغلوب من قتل وحرق وسبي وتخريب وهتك للأعراض. . . الخ، ولكن هذه الفظائع كانت ترتكب فقط في الفترة التي تلي التغلب في الميدان العسكري، وفي البلاد التي تفتح عنوة بقوة السلاح، فتستباح المدن حيناً من الزمن ثلاثة أيام أو أسبوعاً أو شهراً، تعود بعدها سيادة القانون إلى البلد، ويعود الأمن إلى النفوس التي بقيت على قيد الحياة، وتبدأ الحياة سيرها الطبيعي من جديد في ظل قانون الفاتحين.

لقد غزت قبائل البرابرة أوروبا، وحطمت الامبراطورية الرومانية، وأغرقت أوروبا في بحر من الدماء. وغزت قبائل التتر بلاد أواسط آسيا وغربها، وهدمت مدناً، وقتلت ملايين البشر، ولكن جميع ذلك لا يمكن أن يقاس في نظرنا بما ارتكبه الاسبان بحق العرب في الأندلس. فتلك القبائل المتوحشة، كانت تبالغ في استعمال

العنف لتوقع الرهبة في النفوس، وتدخل الوهن إلى قلوب من يفكرون بمقاومتها، أو اعتراض سبيلها، إلا أنها كانت تعامل المسالمين الذين خضعوا لها معاملة مقبولة، في الأعم الأغلب. كما أن أغلب العنف والقمع كان يجل بالمدن التي تقاوم. ثم إن المآسي ما كانت تدمر إلا فترة قصيرة نسبياً.

أما الاسبان فهم شعب عرف الحضارة، وله دين سهاوي يأمر بالخير والرأفة، والوفاء بالعهد، وقد دخلوا أكثر المدن الإسلامية صلحاً. وعقدوا مع الأندلسيين عهداً وميثاق، أقسم ملوكهم وكبار رجال دينهم على الوفاء بما تضمنته أبداً. ولكنهم خرقوا جميع هذه العهود، بعد أن وضع الشعب العربي سلاحه، وتجرد من أسباب الدفاع عن نفسه. وقد استسلم الاسبان إلى حركة قمع رهبية ضد هذا الشعب المسالم، الذي وثق بعهودهم وشرفهم ودينهم، وقبل الدخول في ذمتهم.

واستمر الاضطهاد متواصلًا، بدون هوادة أو تراخ، مدة مئة وعشرين عاماً، لم يتركوا خلالها صنفاً من أصناف العذاب والتنكيل والنهب والاستغلال إلا وصبوه على هذا الشعب المنكود الحظ. وكان من نتيجة ذلك كله أنه لم يبق في الأندلس كلها أحد من العرب في أواخر عام ١٦١٠ مع أن المؤرخين كانوا يقدرون عدد سكان الأندلس في عهد المنصورين أبي عامر (حوالي سنة ١٠٠٠م) بما يقارب الثلاثين مليوناً من الناس السعداء.

وأكثر ما في مأساة عرب الأندلس من إيلاام، هو أن الاسبان الذين اضطهدوهم، وأمعنوا في الاساءة إليهم، وتفنسوا في أساليب العنف والتعذيب والارهاب التي استعملوها معهم، كان أسلافهم في غالبيتهم العظمى من رعايا عرب الأندلس، وعاشوا في ظل الدولة العربية أحراراً مكرمين، ولاقوا من العرب أطياف معاملة، وأنبهها، وأعدلها، ونعموا بممارسة جميع حرياتهم على نحو لم يعهده في عهد أي من الحكومات التي تتالت على الأندلس قبل دخول العرب إلى الجزيرة الأيبيرية، كما لم تعهده أوروبا في ذلك الحين.

ونحن العرب لا نستطيع أن نفهم كيف يستطيع شعب أن يببّد شعباً آخر إبادة تامة، ويبحث جذوره حتى لا يبقى له في أرضه من باقية. فقد ألف العرب التسامح والاخاء والمحبة. وإننا نجد اليوم في أرضنا بقايا من جميع الأمم التي عاشت عليها، أو مرت بها، منذ ألوف السنين. فهناك في منطقة حمص ومعلولا - في سوريا - قرى سريانية، مازالت مقيمة على لغتها وأديانها، تتلو صلواتها بلغتها، وتتكلم فيها بينها

اللغة السريانية. ونجد في الجزيرة وشمال العراق بقايا الآشوريين والكلدانيين، وقد تحول أكثرهم الى النصرانية، وهم يتحدثون بلغاتهم، ويسمون بأسماء آبائهم، ويبارسون العادات التي ألفوها في مجتمعاتهم القديمة، كما يشاؤون. ونجد في مصر كثيراً من الأقباط مازالوا مقيمين على عاداتهم وتقاليدهم، يبارسون طقوس عبادتهم بالشكل الذي ألفوه منذ زمن بعيد، وربما وجد بينهم من يعرف اللغة القبطية القديمة.

وفي شمالي إفريقيا نجد البربر بقباثلهم المختلفة، وقد تحولوا إلى الإسلام، يقيمون على عاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم ولهجاتهم.

ونجد في بلادنا اليوم غير هؤلاء وهؤلاء من الأقليات العرقية أو الدينية بأعداد قليلة أو كثيرة عاشوا في الماضي، ويعيشون اليوم بأمن وسلام وإخاء مع اخوانهم العرب، في أرض واحدة لا يشعرون بفرقة ولا بتمييز في المعاملة، وشعار الجميع «الدين لله والوطن للجميع».

وقد كان من السهل أن تمحى آثار هذه الأقوام من أرضنا، وتغفى آثار وجودهم تماماً، لغة وديناً وعنصراً، لو كان العرب متعصبين عرقياً أو دينياً. فقد بلغت دولة العرب من القوة درجة تستطيع معها ألا تبقى في أرضها أثراً لشعب أولدين لا تريد وجوده. وكانت عقلية تلك العصور لا تستكبر مثل هذا العمل ولا تستكره لو أقدم العرب عليه.

ولكن الروح المتسامحة التي ألفها العرب قبل الإسلام، والتي تأصلت في طبيعتهم، تقبلت أحسن القبول تعاليم الدين الإسلامي في التسامح المفرط، وفي حسن معاملة أهل الذمة، والأمم المغلوبة، وفي التعايش السلمي مع جميع الأمم الراغبة في السلام.

ولو كانت عقلية العربي لا تقبل التسامح الديني والعنصري، لما استطاعت أن تفهم روح التسامح الإسلامي، ولتأولته، وأحرفته بحسب مستواها الفكري، ومفاهيمها الخاصة. ولما تمكنت من أن تصوغ نظرية كاملة في التسامح، مازالت تعتبر إلى اليوم - وبعد أربعة عشر قرناً - مثالا في الاخاء الانساني المستنير الواعي.

أخذ الفقهاء المسلمون قوله تعالى: (لا إكراه في الدين)، ففهموه في نطاقه الواسع البعيد، فلم يتأولوه، ولم يضعوا له حدوداً، لأن عقليتهم كانت منسجمة مع هذه الروح، ومتشعبة بها تشعباً تاماً، فتركوا الناس وما يعبدون، ولو كان حجارة

ونيراناً وأصناماً. وبالعفو والتسامح، فقالوا إن المسلمين ليس لهم أن يتدخلوا في شيء من شؤون أهل الذمة، وتركوا لهم مطلق الحرية في ممارسة عاداتهم وعباداتهم، كما تركوا لهم قياساً على ذلك إدارة شؤونهم الدينية، وجعلوا لهم استقلالاً ذاتياً تاماً.

وأخذوا قوله تعالى (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً) فأفاضوا في التوسع في مسألة الوفاء بالعهود والعقود والذمم، واعتبروا الإنسان الذي يقبل مهادنة المسلمين، ويدخل في عهدهم وذمتهم معاهداً لا يمكن أن تخفله ذمة، ولا ينقض له عهد من جانب المسلمين إطلاقاً، لأنه وثق بدين المسلمين وعهدهم وذمتهم، وألقى سلاحه، وأزال حصونه وقواعده، ودخل المسلمون أرضه، فلم تعد به قدرة على مباشرة القتال، بعد أن خرجت من يديه أسباب قوته.

حتى إن الفقهاء حددوا حق الإمام في نقض العهود، التي تم توقيعها بين المسلمين وبين الأمم الأخرى، التي قبلت مهادنة المسلمين، ودخلت في عهدهم. وقالوا إن من واجب الإمام أن يعيد كل شيء إلى ما كان عليه، قبل توقيع العهد، وقبل دخول المسلمين أرض المعاهدين. فيخرج الجيش الإسلامي خارج الأرض التي احتلها، ويعيد إلى الشعب ما أخذه من خيل وسلاح وأموال، وأن يرمم لهم ما خربه من حصونهم وقلاعهم، وأن يعطيهم مهلة كافية يستجمعون فيها قوتهم، ويتمون استعداداتهم. ثم إذا شاء المسلمون بعد ذلك القتال بأسره. فإذا لم يتم ذلك من جانب الإمام، فإن نقض العهد الذي تم يكون غير جائز إطلاقاً. وحق الإمام في نقض العهود التي تمت يمكن أن يلجأ إليه، إذا لم يكن هو قد أعطى موافقته على العهد صراحة أو ضمناً، خلال فترة معقولة من وقت علمه بعقده. ومن تصفح كتب التاريخ، وكتب الفقه الإسلامي، يجد أمثلة لا تحصى على روح التسامح والإخاء والوفاء بالعهد المتأصلة في نفوس العرب. وفي تعاليم دينهم.

وفي الأندلس لم يشذ العرب عن هذه القواعد المتسامحة في معاملتهم المستعربين الأسبان ورجال كنيستهم. فعاملوهم في أوسع حدودها ومفاهيمها، فازدهر مجتمعهم، وحسن حالهم، ولاقوا أرحم معاملة وأكرمها وأعد لها من جانب الحكام العرب، ومن جانب العرب المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم. وقد بلغ من حسن حالهم، أنهم طالبوا ملك قشتالة، الذي احتل طليطلة عام ١٠٨٥م بأن يحافظ لهم على الامتيازات التي كانت لهم تحت حكم العرب.

ولم يستطع الباحثون عن مثالب تشين الحكم العربي، تسجيل مخالفة جدية

واحدة خلال ثمانمئة سنة من حكم العرب، للمعاهدات التي عقدها العرب مع المدن الاسبانية أيام الفتح. فقد حافظ الحكام المسلمون على الوفاء بما تضمنته شروط المعاهدات، وكان أئمة المسلمين وفقهاؤهم حفظه أمناء يسهرون على حسن تنفيذها.

ولما تبدلت الأحوال، وأصبح الأسبان في مركز الغلبة والقوة، لم يميزوا المسلمين خيراً بخير، ولا وفاء بوفاء، وإنما غدروا بهم، وأسأؤوا معاملتهم أيما إساءة، ولم يفوا لهم بالعهود المقطوعة، التي أقسم على الوفاء بها ملوكهم وزعمائهم، وكبار رجال دينهم، فحولوا الجوامع الى كنائس خلافاً للعهود، ثم أجبروا المسلمين على التنصر بالقهر والعنف. وأخذوا يلاحقونهم أمام محاكم التفتيش بدعوى أنهم ما زالوا مقيمين على الإسلام. ثم أخذوا ينقبون عن أسرارهم، ويكشفون عن ضيائهم، ويكاثرون نفوسهم، ويحاسبونهم عليها. واعتبروا النظافة والطهارة والامتناع عن شرب الخمر، وعن أكل لحم الخنزير، قرائن على اقامتهم على الإسلام، وأخذوهم عليها. وأجبروهم على حضور القداس في الكنائس أيام الآحاد. وخربوا الحمامات، ومنعوا المسلمين من استعمال الحناء في تلوين أصابعهم. حتى إن الكاردينال جيفارا عذب المسلمين لاستعمالهم الحناء، وأجبرهم على حك أظافرهم لإزالة آثارها. وألزموا المسلمين بفتح بيوتهم أيام الأعياد ليراقبوا ما يجري داخلها، لكيلا يحتفل المسلمون بالأعياد الاسلامية، ثم أجبروهم على التخلي عن اسمائهم العربية، وألزموهم باتخاذ أسماء اسبانية، وجرموا عليهم استعمال اللغة العربية، ولبس الألبسة العربية، وأحرق الكاردينال خيمينس قرابة مليون كتاب عربي. هي عصارة حضارة العرب، وثقافتهم، وعلومهم في الأندلس، خلال ثمانمئة عام، وذلك في محاولة منه للقضاء على اللغة العربية، ولقطع صلة العرب بماضيهم الحضاري.

وسنوا القوانين الجائرة البالغة القسوة بحق العرب، وجعلوا عقوبة اتفه المخالفات الموت، والاسترقاق، والشغل في السفن مدى الحياة، ومصادرة الأموال.

وكان دور الكنيسة في هذه المأساة الانسانية، دور الموجه والمحرض والدافع الى ابادة العرب والى اضطهادهم وإلحاق الأذى بهم، فقد دفعت الكنيسة الملوك الاسبان الى خرق حرمة معاهدات الاستسلام التي كفلت للمسلمين حياتهم وأموالهم وحررياتهم في العبادة والتعبير والمعتقد والتراضي بحسب الشريعة الاسلامية. واستخدمت الكنيسة ديوان التحقيق (محاكم التفتيش) - آلة الاضطهاد

الجهنمية - في اضطهاد العرب، وفي حملهم على التنصر، فقتل منهم ألوفاً لا تحصى بحجج مختلفة. وقد أوردنا قصة رواها ضابط فرنسي كان في جيش نابليون في مدريد عام ١٨٠٩م، وكان له الفضل في كشف مصنع العذاب، في أحد أديرة ديوان التحقيق. وقد قص هذا الضابط ما رآه واخوانه من آلات العذاب، والأساليب الرهيبة التي يستعملها رجال الديوان من القسس، في التحقيق مع ضحاياهم. وذكر الضابط أنهم عشروا على لوائح باسماء الكثيرين من المشرين، حاكمهم الديوان واستصفى أموالهم، لا لجرم اقترفوه، وإنما طمعاً من رجاله في أموالهم.

وإذا كانت هذه هي المعاملة التي كان رجال ديوان التحقيق يعاملون بها اخوانهم الكاثوليك الاسبان لاستصفاء أموالهم في عام ١٨٠٩م، فكيف إذا كان أسلافهم من رجال الديوان يعاملون المسلمين قبل ثلاثة قرون؟ قبل أن تنتشر أفكار التحرر في العالم الغربي، وقبل أن تنصل العواطف، ويخف التعصب؟!

وأرسلت الكنيسة القسس يزعمون المسلمين في بيوتهم ومناطقهم، ويسئون الى دينهم ومعتقداتهم في محاولة منها لحملهم على الرضوخ والاستكانة والقبول بما يفرض عليهم، أولدفعهم الى الخروج والثورة على الظلم والطغيان، ليُتَحلَّ للسلطات الحاكمة دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

وكانت تصرفات القسس الشاذة السبب المباشر للعديد من الثورات التي قام بها الاندلسيون دفاعاً عن حقوقهم وأعراضهم ودينهم وحياتهم ولغتهم. وكان من نتيجة هذه الثورات القضاء على مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال، واسترقاق الوف الألوف منهم، واجبار الكثيرين على النزوح الى المغرب هرباً بدينهم وحياتهم وأعراضهم.

وقد اعترف الكاردينال خيمنس - معرّف الملكة ايزابييل - أنه هو الذي دفع أهل غرناطة الى الثورة عام ١٤٩٩م بتصرفاته الشاذة واللاإنسانية، ليتاح للملكين الاسبانيين اعتبارهم خارجين على القانون، وليضعهم أمام خيارين لا ثالث لهما «القتل ككافرين متمردين، أو العفو إذا قبلوا العماد والتنصر».

وساهم الفاتيكان هو الآخر في اضطهاد العرب، أودفع هو الى هذا الاضطهاد، وأصدر الأوامر العديدة الى ملوك اسبانيا لطرده المسلمين وإبادتهم. وأحل الملك من الوفاء بالقسم الذي أقسموه هم وأسلافهم على الوفاء للمسلمين بما تضمنته معاهدات التسليم.

ومنح الفاتيكان ديوان التحقيق سلطة محاكمة الأموات خلال خمس سنوات من تاريخ وفاتهم، لاثبات جرم الكفر عليهم، وإصدار الحكم بمصادرة أموالهم لصالح الكنيسة وديوان التحقيق.

اننا في عقليتنا العربية، لا نستطيع ان نفهم هذا الموقف غير الانساني، وغير العادل، من جانب الفاتيكان والقسس، ولا نستطيع أن نجد له تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ولا نستطيع ان نعتبره متفقاً مع روح الدين المسيحي السمح، الذي جاء الاسلام متمماً لأحكامه.

فالآديان كلها - في نظرنا - والساوية منها بصورة خاصة - تأمر بالخير والمحبة والاستقامة والوفاء بالعهود، والعطف على الضعفاء، والآديان كلها تكره الضرر والفسوق والظلم والقسوة والخديعة والنكث بالعهود.

واننا في عقليتنا العربية، نعتبر رجال الدين حماة للفضيلة والأخلاق والعدل، وحراساً مكلفين بالسهر على حسن تطبيق تعاليم الدين، وأوامر الأخلاق. وعلى ألا يقع على الضعفاء ظلم أو عسف.

وفي اعتقادنا أن رجال الكنيسة الاسبانية لو كانوا من العرب، لكان لهم موقف آخر يختلف عن المسلك الذي سار عليه رجال الدين الاسبان، ولما سمحوا للسلطات الحاكمة الاسبانية بأن تخرق حرمة المعاهدات، ولا ان تسيء الى شعب آمن، وثق بالحكام ودينهم وشرفهم، واستسلم لهم، حتى لو كان الشعب الذي وقع عليه الجور والاضطهاد شعباً غير عربي، فالعرب كانت لهم عقلية في التحرر والتسامح المفرط لم تعرفها الأمم الأخرى في القرون الغابرة.

على أن جميع هذه الأساليب الجائرة لم تحمل عرب الأندلس على التخلي عن دينهم ولغتهم وقوميتهم وعاداتهم، فمارسوا دينهم سرّاً، وأقاموا المساجد خفية، يجتمعون فيها ويقيمون الصلاة، وعلموا أطفالهم دينهم ولغتهم، ونشروهم على التقاليد العربية الكريمة، والأخلاق الاسلامية الحميدة، وكانوا يتهبون من أداء الواجبات التي تفرضها عليهم الكنيسة الكاثوليكية ما وسعهم ذلك. وكانوا لا يستدعون القسيسين الى بيوت مرضاهم الا بعد أن يكونوا قد فارقوا الحياة، أوفقدوا القدرة على النطق، لكيلا يتركوا للقسيسين مجالاً لتلقينهم شيئاً يتناقى مع مبادئ الاسلام قبل وفاتهم.

وكانوا إذا ما اضطروا الى عقد زواجهم في الكنيسة، عادوا الى بيوتهم فعدوه

حسب الشريعة الاسلامية، بعد أن يطهروا انفسهم وثيابهم، بما أصابها من ماء الكنيسة وزيتها.

كان الملوك ورجال الكنيسة يعتقدون أنهم سيقضون، على كل أثر للإسلام والعرب في شبه الجزيرة، بعد مرور جيل أو جيلين، وأن الآباء إذا لم يجعل العماد بالاكراه منهم مسيحيين صالحين، فإن الأبناء سيكونون كذلك. ولكنهم وجدوا بعد مرور أكثر من مئة عام، أن المسلمين العرب مازال أنسأهم عرباً مسلمين كما كان آباؤهم وأجدادهم من قبلهم. لذلك اعترفوا بفشلهم الذريع في القضاء على حيوية هذا الشعب العنيد، واعترفوا بأنهم لم يحققوا أي نجاح في جعله شعباً مسيحياً.

لذلك قرروا في عام ١٦٠٩م اخراج جميع من تبقى في اسبانيا من نسل العرب دون تمييز، وباشروا في ذلك. ولم يمض عام ١٦١٠م إلا وكان شبه الجزيرة الايبيرية خالياً من العرب تماماً.

ولكن التعصب الاسباني لم يستطع أن يجتث من أرض الأندلس أصول الحضارة الزاهرة التي خلقها العرب وخلفوها فيها، وهي حضارة ثمانمئة عام من العمل النير الدائب المستمر. وإذا كان السائحون في العالم يسافرون اليوم الى اسبانيا، فذلك لأنهم يريدون أن يروا ما خلفه العرب من جيل التراث. ولولا آثار العرب في قرطبة المتمثلة في مسجدھا الجامع العظيم، لما تجشم أحد المسير اليھا، ولو كان منها على مسيرة نصف ميل، على ما قاله القسيس (ماك كيب).

لقد هزت مأساة العرب في الأندلس كل نفس حرة منصفة من العالم، فكان الاوروبيون أول من نعى على الاسبان جهلهم، وتعصبهم، وقسوة قلوبهم، وغدرهم، ونكرانهم للجميل: لأن هؤلاء الأوروبيين كانوا أكثر الناس قرباً من حضارة العرب الزاهرة في الأندلس، وأكثرهم اغترافاً منها، وتقديراً للمعاملة الانسانية الرفيعة التي لقيها الاسبان من العرب.

ولعل أبلغ عبارة قيلت في إنصاف عرب الأندلس، وفي التشنيع على الطغیان الاسباني البربري، تلك الكلمة المنصفة التي قالھا الكاردينال ريشليو معلقاً بها على طرد الاسبان للعرب؛ وهي أن ما قام به الاسبان يعتبر (من أكثر ما عرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة والبربرية والطغیان).

ومن الغريب أن نجد في عصرنا الحاضر، عصر النور والحريات، أناساً من

المثقفين، ورجال الدين الاسبان، يحاولون الدفاع عن التصرفات الفاجرة الحمقاء التي صدرت عن اسلافهم، ويجدون لها الأسباب والمبررات، ويحاولون أن يضيفوا عليها صفة الشرعية، ويعتبرونها ضرورة ملحة، وحلاً لم يكن بد منه لتأمين وحدة الدين والقومية في اسبانيا.

وبعض الذين يستنكرون فعل الكنيسة والاسبان يحاولون بحث الأمر ومناقشته على أساس الضرر المادي الذي لحق بالاقتصاد الاسباني نتيجة لإخراج العرب، وعلى أساس التأخر والجمود اللذين أحدثتهما فقدان اليد العاملة العربية المتخصصة والنشطة في ميادين الصناعة والزراعة وال عمران، والصحة والثقافة . . .

ويحاول المتحمسون من رجال الكنيسة والاسبان المثقفين أن يردوا على هذه الأقوال بالبرهنة على أن اسبانيا لم تتضرر من خروج العرب، وأنه إذا كان قد حدث فيها ضرر، فقد كان ضرراً طفيفاً لا يمكن أن يقارن بالمنافع الكثيرة التي حققتها اسبانيا.

على أن هذه الأصوات النشاز لا يمكن أن تحجب الحقيقة عن أعين المنصفين في العالم، ولا يمكن أن تبرر في أعين الناس الجرائم الوحشية التي ارتكبت بحق العرب لاجتثاث أصولهم من شبه الجزيرة.

والقول بأن التدبير المتخذ بحق العرب كان ضرورياً لتحقيق وحدة الشعب الاسباني من الناحيتين القومية والدينية، هو قول ضعيف لا يمكن أن يقنع أحداً. وكان الأجدر بهؤلاء الاعتراف بجسأة بخطط أسلافهم المتعصبين، ورد ذلك الى الجهل والتعصب الدميم، وضيق الأفق، واستنكاره كما فعل غيرهم. لأن القول بأن القضاء على العنصر العربي كان ضرورة ملحة معناه اعطاء الحق لجميع الأمم والشعوب التي تعيش في أكنافها أقليات عنصرية ودينية، بأن تبيدها بحجة تحقيق الوحدة الداخلية.

وهؤلاء المتعصبون يعرفون أنه كان يعيش في ظل الحكم العربي في الأندلس كثير من الاسبان الذين بقوا اسباناً في دينهم ولغتهم وتقاليدهم، فهل كان يعتبر هؤلاء المتعصبون فعل العرب مشروعاً ومبرراً لو أنهم عمدوا الى إبادة العنصر الاسباني المسيحي من الأندلس العربية المسلمة، بحجة أن العرب يريدون تحقيق وحدة العنصر العربي المسلم في الأندلس؟ وفي يقيني أن عرب الأندلس لو أقدموا على فعل منكر مثل هذا لاستنكره عرب

اليوم قبل غيرهم ، لأنه يعتبر تلطيخاً لتاريخنا المشرق الجميل .
وهل يرى هؤلاء المتعصبون أن يقوم الانكليز الذين يحتلون جبل طارق اليوم
بإبادة الاسبان الموجودين في هذا الجيب المحتل لتحقيق وحدة شعبه ، لكيلا يصدر
صوت ينادي بخروج الانكليز منه وإعادةه الى الوحدة مع اسبانيا؟
لاشك في أن هؤلاء المتعصبين سيكونون أول الثائرين المشنعين على الانكليز
قسوتهم ووحشتهم لو أنهم عمدوا الى شيء من ذلك . ومن أبسط قواعد الانصاف
أن يعامل الإنسان الناس بما يجب أن يعاملوه به .
ويريد هؤلاء المتعصبون - في محاولتهم اليائسة للبحث عن اسباب ومبررات
مقبولة تخفف من أثر جريمة اجدادهم في إيذاء العرب واخراجهم من الأندلس - أن
ينسبوا الى عرب الأندلس ، تأمرهم على أمن اسبانيا ووحدتها مع المغاربة والأتراك
والفرنسيين . وقد سخر المؤرخ الاسباني (موديستولا فوينت) من هذه الأقوال ،
ونفاها ، وضرب الأمثلة على هدوء العرب واستقرارهم وبعدهم عن الإزعاج .

ولنفترض أنه كان هناك أناس قد اتصلوا بالمغرب ، وبأتراك الجزائر وبفرنسا ،
ليسهلوا لهم سبل الحرب من جحيم الحياة التي فرضت عليهم في اسبانيا ، فإن ذلك لا
يمكن أن يعتبر سبباً مبرراً لاضطهاد شعب بأكمله ، ولؤاخذة المجموع بما ارتكبه فرد
أو أفراد قلائل منه .

وإذا صرفنا النظر عن أسباب إقدام العرب على محاولة الهجرة من اسبانيا ، بعد
أن جعلت السلطات والكنيسة حياتهم لا تطاق ، وبعد ان شددت الأوامر بمنعهم من
الخروج منها ، وإذا تركنا رد السبب الى تصرف السلطات الاسبانية نفسها - كما بين
من الأحداث المذكورة في هذا الكتاب - فإننا نستطيع أن نقول إن العرب لم يعاقبوا
الاسبان المستعربين على عواطفهم نحو الاسبان في الممالك الشمالية ، ولم يتخذوا
بحقهم جميعاً تدابير قمع شاملة وجماعية ، بحجة أن بعضهم اتصل باسبان الشمال
وتآمر معهم على العرب .

لقد كان في سوريا والأناضول كثير من المسيحيين من عرب وسوريين ويونانيين
وأرمن ، وقد تعاون بعضهم تعاوناً وثيقاً مع الغزاة الصليبيين ، وحارب الكثير منهم في
صفوف الصليبيين ، ونكلوا بالمسلمين تنكيلاً شديداً ، ولكن المسلمين حينما انتصروا
على الصليبيين ، وطردوهم من بلادهم ، لم يفكروا بإبادة العناصر غير المسلمة من
أرضهم ، بحجة تعاونهم مع الصليبيين ، لأن العقاب في نظرهم لا يمكن أن يحل

بالمذنب وبالبريء على السواء، ولذلك فانهم بقوا حيث هم لم يمسسهم أذى ولا ضرر.

وفي معرض الاستهجان والنقد لتصرفات الاسبان، وفي موضوع الدفاع عنها، نجد اليوم أن موضوع النقد والنقاش، أصبح في أكثره يدور حول فائدة العرب الأندلسيين أو عدم فائدتهم في الوجود الاسباني، وحول الأثر الذي أحدثه اخراجهم من اسبانيا، فمن قائل إن خروجهم أدى الى بوار الأرض والصناعات، ومن قائل إنهم لم يحدثوا إلا أثراً ضعيفاً في الحياة الاقتصادية للبلاد، لا يمكن أن يقارن بالقوائد التي حققتها اسبانيا من وحدة الدين والقومية.

إن الموضوع في نظرنا أكثر من مسألة ضرر مادي، أو نفع مادي حدث لاسبانيا أو لم يحدث، إنها قصة مبدأ التسامح والتعايش والإخاء الانساني. وإنها قضية العرقان بالجميل، والتقييد بالعهود، والمواثيق، إنها قضية القهر والغدر، والاساءة والإيذاء للمسلمين والمستضعفين. ومن الواجب أن يعالج الموضوع من هذه الناحية، لا من ناحية ما أحدثه خروج العرب من ضرر مادي للأندلس. وفي رأينا أنه كان من الواجب أن يُعامل العرب معاملة انسانية حسنة، سواء أكان في وجودهم نفع لاسبانيا أم لم يكن فيه نفع. وسواء أحدث خروجهم ضرراً أم لم يحدث.

لقد أقام العرب في الأندلس ثمانئة عام، وارتبطوا بها، وأبدعوا فيها الكثير، فأصبحت لهم فيها حقوق. ثم غلبهم الاسبان. واتفقوا معهم على شروط، لم يلبث الاسبان أن داسوها، وكان في مقدمة من خرقتها الملكان اللذان وقعاها، وأفسسا على الوفاء بها، وكبير الكراذلة.

وتتالت بعد ذلك الاساءات بحق العرب واستمرت الى يوم اخراجهم.

لقد كانت هزيمة الأندلسيين أمام أعدائهم، وانهيار دولتهم، هما سبب بلائهم ومصدر شقائهم. وكانت الهزيمة وكان الانهيار نتيجة حتمية لخلافاتهم فيما بينهم، ولنزاعاتهم، ولعجزهم عن الاتحاد والتضامن أمام الأخطار المحدقة بهم، ولقصورهم عن معرفة أي الأخطار أقلها شراً واختياره.

لقد عانى الأندلسيون الكثير من النزاعات التي وقعت بينهم: بين العرب والبربر، وبين عرب الحجاز وعرب اليمن، وبين المولدين الأندلسيين، وبين سلطة الخلافة. وقد استمرت هذه النزاعات فيما بينهم حتى خلافة الناصر لدين الله. ولا شك في أن الأندلسيين قد أدركوا حقيقة ما جرته عليهم هذه النزاعات من بلاء

وكوارث . وكان من المفترض فيهم أن يتعظوا بما جرى . فقد رأوا كيف شجعت هذه الخلافات أعداءهم في الشمال ، فاستطالوا عليهم ، ووسعوا أرضهم على حسابهم ، وهم يدركون أن بلادهم لم تعرف الراحة والاستقرار إلا في عهد الخليفة الناصر وابنه المستنصر . فلما مات المستنصر كان من المفروض أن يلتف الأندلسيون جميعاً حول عرش ابنه القاصر هشام الثاني ، وأن يحافظوا على وحدتهم لكيلا تتجدد خلافاتهم ، فينتهزها عدوهم ، ويدكي نارها استعاراً ، ويقطف وحده ثمرات هذه الفوضى ، وذلك الاقتتال .

ولكن النزاع ما لبث أن تجدد بين جعفر المصحفي - وزير الخليفة القاصر والمشرف على إدارة الحكم - وبين المنصور محمد بن أبي عامر ، الرجل الطموح ، الذي استطاع أن يكسب ثقة (ضبح) والدة الخليفة هشام ، وأن يفوز في الصراع ويقضي على عدوه ومنافسه .

كان المنصور بلا شك رجلاً عظيماً ، حقق للأندلس ما لم يحقق في أي عهد آخر ، فكان عهده استمراراً - من الناحية الخارجية والداخلية - لعهد الخليفة الناصر ، فأذل أعداءه الأسبان في الشمال ، وفرض عليهم الجزية ، ووصل في فتوحاته في أراضيهم مناطق لم يصلها قبله أحد من القادة العرب .

ولكن مغامرة المنصور ، واعتدائه على السلطة الشرعية ، حركت أطماع المغامرين ، وحسد الحاسدين ، فتطلع كل واحد منهم الى تجربة حظه . وإذا كان هؤلاء المغامرون الطامعون لم يستطيعوا حراكاً في عهد المنصور ، بسبب حزمه وقدرته الفائقة ، وإدارته الحكيمة ، وانتصاراته الرائعة على الأسبان ، فانهم ما لبثوا أن تحركوا في عهد ابنه الثاني عبد الرحمن (ويعرف باسم سنجول) الذي أراد أن يلعب دور أبيه ، دون أن تكون له كفاءاته ومقدرته وهيئته على الجند ، فتحرك الطامعون واطاحوا البيت العامري ، وبالخليفة هشام الضعيف .

وهكذا تجددت الانقسامات ، وعمت الفوضى ، وأخذ كل فريق يستعين بالأسبان لتثبيت مركزه ، فخرج الأسبان من الجحور التي الجأهم إليها الناصر والمنصور ، وعادوا الكرة على المسلمين ، واسترجعوا منهم في وقت قصير ، وبدون قتال ، كل ما تعب الناصر والمنصور في استعادته منهم خلال ما يقارب ثلاثة أرباع القرن .

وبرزت الخلافات على نحو أوضح بين الأندلسيين بعد سقوط الخلافة الأموية ،

وقيام حكم ملوك الطوائف . وقد أدت هذه الخلافات بالامراء المسلمين جميعاً الى الخضوع للممالك الاسبانية ، والى دفع الجزية إليها . ولم ينته حكم ملوك الطوائف على أيدي المرابطين عام ١٠٩١م إلا بعد أن استولى الاسبان على كثير من عواصم الثغور الاسلامية ومنها طليطلة .

وفي عهد المرابطين استعادت الأندلس وحدتها ، وتحقق لها تعاون المغرب معها تعاوناً مثمراً وثيقاً ، ولكن الأندلسيين ما لبثوا أن تحركوا يحاولون التخلص من حكم المرابطين ، وكأنهم لم يكفهم ما حل بهم وبوطنهم من كوارث ، من جراء ضعفهم ، ونزاعاتهم ، واقتاتهم . فعادوا الى التآمر مع الاسبان على اخوانهم المرابطين الذين كان لهم الفضل في وقف اندفاع الاسبان .

وقد أدت مؤامرات الأندلسيين مع الاسبان الى سقوط العديد من عواصم الثغور في الشمال والشرق ومنها سرقسطة ، بيد أعدائهم الاسبان .

ولما ضعف أمر الموحدون (الذين خلفوا المرابطين في حكم المغرب والأندلس) تحرك الأندلسيون مرة أخرى يتنازعون ويتنافسون ، والعدو من فوقهم جميعاً يتلقف المدن والحصون ، فسقطت أكثر مدن الأندلس الكبرى في يديه ، ومنها قرطبة واشبيلية وماردة وبلنسية .

وانكمش العرب أخيراً في رقعة ضيقة في الجنوب الشرقي ، في مملكة غرناطة ، ولبثوا فيها قرنين ونصف تقريباً ، وهم يعملون متحدين متساكين ومتعاونين مع اخوانهم في المغرب ، فلم يجد العدو فيهم مطمعاً . ولكن النزاع في البيت النصري المالك ، نشب فجأة بين الملك أبي الحسن ، وبين ابنه أبي عبد الله الصغير ، وتطور النزاع الى انشقاق خطير في المملكة ، فكانت فيه نهايتها ، ونهاية الحكم العربي كله .

واننا لنشعر بالألم العميق حينما نذكر المأساة الأليمة التي حلت باخواننا عرب الأندلس ، الذين لم يتعظوا بما مر بهم من ألوف الدروس والعبر التي مرت بهم أنفسهم ، والدروس التي قرؤوها في كتب التاريخ ورواياته عن مساوئ الاختلافات والانقسامات والنزاعات الداخلية ، التي دمرت كثيراً من الأمم والشعوب ، التي شغلها الحقد على الأهل والأقارب والأخوة في الوطن ، فاندفعت تريد إرواء أحقادها ، وتستعين باعدائها ، غير مفكرة بما سيكون عليه حالها إذا أراد هذا العدو النصير ، أن يفتك بها .

وما هي إلا فترة وجيزة يستنفد فيها الجميع قواهم ، ويتلفون سلاحهم

وأموالهم ، فلا يحسون إلا والأعداء قد انقضوا عليهم وأفنؤهم جميعاً ، غير موفرين أحداً .

وإذا كانت أحداث التاريخ تروى لتكون عظة وذكرة للأحياء ، يتأملون دروسها ، ويستخلصون العبر منها ، فإن أمتنا اليوم أحق الناس بالتأمل فيما جرى على عرب الأندلس ، وكيف أبادهم أعداؤهم بسبب تفرقهم وتخاصمهم ، واجتثوا أصولهم وجذورهم من أرضهم ، حتى لم يتركوا لهم في دارهم من باقية .

فنحن نواجه اليوم في فلسطين ، وفيها حولها ، تهديداً خطيراً بدأ منذ مطلع هذا القرن بمد استعماري مدمر يرافقه مد استيطاني صهيوني اشد خطراً وتدميراً منه ، وقد تحالفا على أمتنا ، وتآزرا على قهرها وإذلالها ، وتمزيق أوصالها ، وقد استقر الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في أرض فلسطين ، وأخذ يتوسع ويتمكن ، وبني الحصون والقلاع ، وعرف أهم نقاط ضعفنا فاستفاد منها ، وبصورة خاصة خصومات حكامنا ومنازعاتهم فيما بينهم ، وحاربنا أكثر من مرة ، حتى انتزع فلسطين كلها منا ، وانتزع فوقها كثيراً مما حولها .

ولا شك في أن نجاح هذا العدو في قهرنا لم يكن مصادفة ، وعثرة حظ بالنسبة لنا ، وإنما كان بجهد وتخطيط ، ومعرفة بحقيقة حالنا ، وقد كانت عدته في نجاح غزوه أسباباً كثيرة من أهمها الأمور التالية :

١ - تجزئة الأرض العربية ، وإقامة كيانات اقليمية ، الغاية منها خلق مصالح خاصة ، للفتات الحاكمة ، تمنعها من التفكير الجدي في إعادة توحيد أجزاء الأمة العربية المبعثرة ، لكيلا يجرموا الخيرات التي يدرها الحكم على الحكام .

٢ - إثارة الخلافات بين الحكام العرب ، وإذكاء نار الحرب والأحقاد بينهم ، لاستنفاد ثرواتهم وقواهم في هذه المنازعات ، واشغالهم بخصومات بعضهم لبعضهم الآخر ، عن التفكير في أعدائهم الحقيقيين . ومنعهم من التقارب والتفاهم والتحالف في سبيل استرجاع الحقوق العربية السلية .

٣ - الإيحاء للمواطن العربي بأنه متخلف عقلياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، وأنه غير قادر على مجاراة ركب الحضارة الحديث ، وعاجز عن استيعاب العلم الحديث والسلاح المتطور الحديث . وبذلك يدخل اليأس الى قلب العربي ونفسه ، من إمكان التطور ، والانعقاد مما هو فيه ، فيبقى في طور البداوة الذي هو فيه عقلياً .

٤ - اقناع العربي بأن اليهودي إنسان متطور عقلياً وعسكرياً وعلمياً وتنظيماً، وأنه قادر على الابداع والأخذ بأسباب التطور العصري، وأنه يستحيل على الانسان العربي أن يلحق به أو أن يجاريه. والحرب اليوم لا تقوم بكثرة الرجال، وإنما تقوم بالسلاح المتطور، وبالعلماء، وبالنخبة الممتازة من الرجال المقاتلين القادرين على استيعاب السلاح، وحسن استخدامه بكفاءة في الحرب.

٥ - اقناع المواطن العربي أن اليهودي إنسان عملاق، قادر على سحق العربي في أية لحظة، وحيثما كان، سواء أكان ذلك في ميدان الحرب المكشوفة، أو في ميدان الحرب الخفية، التي تستطيع أن تتسرب فيها القوى الخفية الى أي مكان تريده، فنقتل وتنسف وتضرب، وتسخر من العربي في عمق أرضه، وفي عقرداره، ثم تعود سالمة غانمة.

وهذا كله يتم بفضل العقل المبدع، والتنظيم الدقيق، والانضباط الشديد، والتدريب الشاق المستمر، والكفاءة العالية.

٦ - تسخير اجهزة إعلام المستعمرين، وأعداء العرب في كل مكان، والأجهزة الصهيونية المسيطرة على المال والبنوك وكثير من فروع الاقتصاد في العالم، في الضرب على هذه الأوتار باستمرار، لاقناع العربي بتخلفه وعجزه عن مقارعة اليهودي في ميدان الحرب والتنظيم، وقصوره عن مجاراته في ميدان التكنولوجيا والعلم والتقدم العصري.

والغاية من وراء ذلك كله هي أن يستقر في نفس العربي اقتناعه بتفوق اليهودي عليه، وإذا ما استقر ذلك، استسلم العربي لليأس، والخضوع للقدر المحتوم، وقبل بوجود اليهودي معه في فلسطين. وحينئذ ينفتح الباب أمام المستعمرين وأصحاب المطامح في السيطرة على الأرض العربية وثرواتها، فيلجونها دون عناء.

هذا هو باختصار السلاح الذي استعمله أعداء العرب للسيطرة عليهم؛ ومن يتابع بامعان سير الحوادث في منطقتنا منذ الحرب العالمية الأولى، تتضح له هذه الحقائق بشكل لا يقبل الجدل.

أ - فقد استعمل الاستعمار البريطاني سلطته ليسهل هجرة اليهود من أنحاء العالم، ويسر لهم الاستقرار في المواقع الحساسة، ذات الأهمية البالغة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية في أرض فلسطين، وقدم لهم جميع التسهيلات الممكنة لانتزاع الأراضي من أيدي أصحابها العرب بالضغط والاكراه حيناً، وبالترغيب والاغراء أحياناً.

ومنحهم أراضي الدولة، التي تعتبر من الناحية القانونية ملكاً لشعب فلسطين، وليس للمتدب أن يتصرف بشيء منها، لأن يده على الأرض يد أمانة مؤقتة، لا تمنحه حق التصرف بها هبة وعطاء لأية جهة كانت.

ب - قدم الاستعمار البريطاني العون والحماية لليهود لاقامة المستعمرات الاستيطانية في المناطق التي نصحهم بالاقامة فيها، نظراً لأهميتها الاستراتيجية في المستقبل، وربط هذه المستعمرات بشبكة من الطرق والكهرباء والمياه، على حساب الحكومة المحلية، حتى أصبحت تلك المستوطنات، وما حولها من زراعات، من أهم وسائل الدعاية للمنجزات اليهودية. بينما فرض على المدن والقرى العربية البقاء حيث كانت، قلة ماء، وسوء انارة، وقلة اهتمام بالنظافة، وقلة مدارس، بالاضافة الى اذكاء نيران الخلافات بين الزعامات العربية المحلية، لكيلا تجتمع الكلمة على عمل اصلاحي مفيد، ينهض بالمناطق العربية، من جهة العمران والزراعة والنظافة والتعليم. وبذلك ظهر الفارق كبيراً بين المناطق الحديثة التي سكنها اليهود، وبين المناطق العربية التي ظلت كما كانت عليه أيام الحكم العثماني المتخلف.

واتخذ الاستعماريون واليهود ذلك الفارق وسيلة هامة من وسائل الدعاية، والحديث عن البون الشاسع بين العقل اليهودي الغربي المنظم المبدع، والتمرس، وبين العقل العربي المتواكل الفوضوي والمستخذي. حتى ان هذه الدعاية الخبيثة المضللة والجائرة، أثرت في نفوس بعض عرب فلسطين وبعض الزعامات العربية، فافتنعوا بوجود ذلك الفارق بين العربي واليهودي، وكان ذلك أول الخسران للقضية الفلسطينية.

ج - ولما كان اليهود قلة قليلة، تستقر في نقاط يحيط بها بحر واسع من العرب فقد نصحهم الاستعماريون الانكليز، بأن تكون مستعمراتهم متقاربة ومتصلة فيما بينها، ومحصنة تحصيناً قوياً لتستطيع الدفاع عن نفسها، والتعاون فيما بينها، على نحو فعال في صد أي هجوم عليها.

ونصح الاستعماريون اليهود بأن التهاون في رد أي اعتداء من قبل السكان العرب المجاورين على أية منشأة زراعية أو صناعية يهودية، أو أي إنسان يهودي من سكان المستعمرات، يمكن أن يُطِيعَ العرب ويشجعهم على الاستطالة على اليهود.

لذلك كان اليهود يردون - تحت حماية المستعمرين - رداً عنيفاً على كل

استفزاز، أو تعرض لمنشآتهم، أو اعتداء على أفرادهم من قبل جيرانهم العرب ليظهروا بأسهم وغماسكهم، وتشبثهم بأرضهم وقراهم ومنشآتهم .

وحينما كان العرب يحاولون الرد على الصهاينة، كان الاستعماريون يتدخلون لحماية اليهود، ولترك كفة اليهود أرجح من كفة العرب في ميزان الثأر والانتقام، ليبقى لذلك اثره في نفس العربي العادي .

د - وكان من الطبيعي أن تزدهر المناطق اليهودية، لما يتدفق عليها من مال من الخارج، ومن خيرات حملها المهاجرون من البلاد التي قدموا منها، ومن عون وارشادات الانكليز، ومن مجموع التسهيلات التي كان يلقاها اليهود على جميع الأصعدة والمستويات .

وبقيت المناطق العربية، خلال ذلك كله، متخلفة لأسباب كثيرة، منها محاربة الحكم الاستعماري لكل تقدم عربي، ومنها عرقلة كل مسعى عربي يقصد به وضع خطة للتقدم والتطور، على المدى البعيد، ومنها شراء بعض الضائير العربية بالمال والنساء للسير في المخطط الاستعماري الصهيوني، ومنها الدعاية المنظمة الخبيثة التي أشرنا إليها، والتي كان هدفها إدخال اليأس إلى قلوب العرب، وتثبيط همتهم في السعي للإصلاح والتقدم .

وأخيراً بالقوة المسلحة، إذ كان اليهود يفتعلون الأحداث لتصفية كل فرد أو جماعة من العرب يسمح لها وغيها وبعد نظرها بالاهتداء الى الطريق القويم . هـ - ثم قامت اسرائيل، فاسرعت الدول التي توارثت عبر أجيال كثيرة، كره العرب، والحدقد عليهم وعلى تاريخهم وحضارتهم ومثلهم العليا، الى الاعتراف باسرائيل، وتقديم الرجال والمال والسلاح للدفاع عنها، حتى أصبحت اسرائيل مستودعاً ضخماً للسلاح والمسلحين المدربين . بينما ضن هؤلاء الحاقدون على العرب بشيء منه، وذلك لكي يبقى اليهود في وضع المتفوق، ولتترسخ اقدام الصهيونية، وتضرب بجذورها في الأرض العربية .

واستشعرت اسرائيل القوة بهذا العون، فلم تعد تقبل بدولة تقوم ضمن حدود التقسيم التي رسمتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، ولم تعد تقبل بالتعايش مع العرب الموجودين ضمن حدودها، بحسب خطوط التقسيم، فاندفعت تضرب الجيوش العربية الواحد بعد الآخر، بينما بقي الآخرون حيث هم لا يتحركون . وكثيراً ما كان بعض الحكام العرب يشمت بالهزائم التي تلحق بالجيوش العربية الأخرى، حتى

أهين العرب جميعاً، وأهين الحكام وأهينت الجيوش .

وراح اليهود في نفس الوقت يعتدون على السكان العرب الأمنين، ويفتعلون المذابح الرهيبة، ويمتكون الأعراض، ويبقرون بطون النساء الحوامل، ويذبحون الأجنة والرضع والأطفال والشيوخ بعنف لا مثيل له في تاريخ البشرية، اللهم الا تاريخ بني اسرائيل اسلافهم .

وكانوا ينشرون انباء هذه الفظائع، ويهولون فيها، وغايتهم من ذلك ادخال الذعر الى جميع القلوب، وحمل الناس على الهجرة والرحيل، فكان لهم ما أرادوا، وخلت أرض فلسطين من سكانها، وتشرد الشعب الفلسطيني .

واستقدمت اسرائيل المتطوعين من كل مكان لإعمار الأرض وتوفير اليد العاملة والجنود للدفاع عنها .

و- وتمكنت اسرائيل أخيراً من اجبار الحكام العرب على عقد اتفاقات للهدنة، ابقت اسرائيل في المناطق التي انتزعتها من العرب، مما كان يقع خارج حدود التقسيم، وسلم إليها بعض الحكام العرب، تواطؤاً أجزاء أخرى من أرض فلسطين .

وأمنت اسرائيل داخل الحدود الجديدة، وراحت تحشد الرجال والسلاح فيها، ولما رأى يهود العالم أن ما كانوا يظنونونه حلماً غير قابل التحقيق، قد أصبح حقيقة واقعة، وأنهم قد أصبحت لهم دولة، توجهت انظارهم إليها، ونزح إليها كثير من المثقفين والتقنيين والعمال المهرة من يهود العالم . وتدفقت رؤوس الأموال من الصهيونية العالمية، ومن الشركات الاحتكارية، التي كانت تحلم بأن تفتح لها اسواق الشرق العربي وخبراته لاستثماراتها، فاقامت فروعا لصناعاتها في اسرائيل، بانتظار تمكن اسرائيل من اجبار العرب على الصلح معها، وفتح ابواب حدودهم للتعامل معها . وبذلك تحسنت حالة اسرائيل اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً، بينما سار العرب في تقدمهم سيراً بطيئاً .

وإذا أردنا ان نصف انفسنا وعدونا، لقلنا ان تقدم اسرائيل وتطورها، ليس لاسرائيل محلياً كبير فضل فيها، فالمهاجرون من انكلترا والمانيا والولايات المتحدة ومن بلاد أوروبا الغربية، ومن بلاد الكتلة الشيوعية، وغيرها إنما نشؤوا وتعلموا واختصوا، واتفقوا عملهم في البلاد التي قدموا منها . وإلى تلك البلاد يعود الفضل - لا الى اسرائيل - في ثقافتهم وتعلمهم، وانضباطهم ونظرتهم الى الاعمار والتطور، وحسن تدريبهم العسكري . وكل ما فعلته اسرائيل أنها أتاهها أناس من بلاد متطورة

فاستوعبتهم ، واستفادت منهم ، ثم أسلمت إليهم قيادها ، فأحسنوا التصرف في كثير من المجالات .

والعرب بلا شك قد حققوا كثيراً من التقدم منذ عهد الاستقلال حتى اليوم ، ولكن تقدمهم كان بطيئاً وناقصاً ، لأن ذلك التقدم كان مثقلاً بتركة الماضي الثقيلة ، ويتخلف دام قروناً ، ترشح اليينا من الحكم الأجنبي .

وبعد الاستقلال وصل الحكم الى أيدي أبناء الشعب ولكن الذين تسلموا القيادات لم يكونوا هم الاكتفا والأجدر في الشعب ، وكان يهيمهم أن لا يبرز من الشعب من يزاوهم ، ويفضح قصورهم ويتنزع السلطة من أيديهم ، فحكم ذلك الهاجس تصرفاتهم ومسيرتهم ، فأصبحوا يضيقون بكل منتقد ، ويحاربون كل نابغ بعيد النظر ، حتى اضطروا ألوف من الشباب العرب النابغين والمتخصصين في كثير من العلوم والمهن الى البقاء حيث هم خارج البلاد . ولو أنهم قدموا الى بلادهم ، وعملوا في نطاق اختصاصاتهم ، ووجدوا مجال العمل رحيباً أمامهم ، لأحدثوا ثورة ثقافية ، ولظهرت آثار التقدم والتطور في البلاد العربية في شتى المجالات .

صحيح إن المقارنة الاحصائية تظهر أن عدد المثقفين العرب اليوم والمخرجين من المعاهد العليا والجامعات هم أكبر بكثير من عدد أمثالهم ممن تخرجوا في أوائل الأربعينات ، وأن المستوى المعاشي للفرد العربي اليوم ، (أفضل بكثير مما كان عليه قبلاً ، وأن الاقتصاد تحسن ، وأن ثروات نفطية ومعدنية ضخمة ظهرت في بعض الأراضي العربية ، ولكن ذلك التقدم كان دون مستوى آمال المثقفين ، وكان دون مستوى ما حققته الأمم الأخرى . وربما كان لظهور بعض الأنظمة ، ولخوف أنظمة أخرى ، وقيام نزاعات حادة وتناقضات بين أكثر الأنظمة العربية ، أثر في ذلك القصور الذي أشرنا إليه .

ولو أنه كان من الممكن أن تتضافر جهود الدول العربية ، وتتعاون حكوماتها ، وأن تضع هذه الثروات الهائلة في خدمة المجتمع العربي كله ، لأحدث ذلك ثورة كبرى ، ولدفعت بالوطن العربي أشواطاً كبيرة في طريق التقدم والازدهار والرفي الحضاري ، ولأدى ذلك الى خلق جيل مثقف متطور ، في فكره ونظيرته للحياة ، ولأمكن الأمة العربية بهذا الجيل الواعي المؤمن أن توحد أقطارها المجزأة ، وأن تبني جيشاً عصرياً مزوداً بأحدث ما ابتدعه العلم من سلاح . ووجود هذا الجيل المثقف الحر الموحد ، وإقامة هذا الجيش العصري القوي ، وبناء الاقتصاد المزدهر المتطور ،

هي الشروط الثلاثة اللازمة والكافية للقضاء على الكيان الصهيوني الدخيل، واقتلاع جذوره من الأرض العربية الى الأبد.

ولم يكن ليغيب عن اسرائيل وحمايتها الاستعماريين، اخطار توافر ذلك للعرب، لذلك وقفوا بجهة واحدة يسدون الطريق أمام كل تقارب عربي، وأمام كل تطور عربي، وراحوا يهدمون بكيدهم ودسائسهم كل جسر يمتد ليصل بين قطرين عربيين، لكيلا يصل بهما إلى الوحدة، فيكون ذلك مشجعاً للعرب على السعي إلى الوحدة، ولكيلا يكون لذلك تأثير حسن على النفس العربية، التي اقنعتها الدعايات المسمومة، أن الأنانيات العربية، والروح الفردية المركبة في تكوينهم، لا تسمح لهم بأي تفاهم أو تقارب أو تحقيق أية وحدة.

وخلقوا تناقضات كبيرة بين رجال الحكم في الأقطار العربية، وخلقوا لهم مصالح خاصة أصبحوا يستमितون في الدفاع عنها، واغروا بعضهم بعض، حتى أصبح بينهم عداة لا يرجى معه صلح أو اتفاق. وقوى الاستعماريون اسرائيل، ونصحوها بضرب العرب كلما تجمع لديهم سلاح، أو أصبحت لديهم نواة جيش عصري، ليقضوا على كل أمل للعرب في التقدم والقوة، وليستهلكوا مال العرب وثرواتهم، فلا تصرف في سبيل تحقيق التطور الاقتصادي، وهما الشرطان الأولان لإقامة الجيش العصري. واندفع بعض الكتاب المشبوهين يغرون الحكام بتفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة من الرجال، ومعنى ذلك تحطيم أسس القانون في البلد، وإبعاد العلماء والمثقفين والأكفياء من الرجال عن مجالات العمل والابداع، وإحلال المحسوبين على الحكام محلهم في المراكز الهامة في الحكم والادارة والجيش، والاشراف على الانتاج والصناعات، تحت ستار الثقة بهم وباخلاصهم نحو الحكام.

وكانت نتيجة ذلك كله أن تضعف الاقتصاد، وانحد التطور، وساء الانتاج، وخربت الادارة وضعفت ثقة الناس بالحكم، وحدثت هوة عميقة بين الحاكم والمحكوم. وهاجرت الادمغة والأيدي الصناعات إلى البلاد الأجنبية هرباً من الطغيان، وقرراً من التمييز، وطلباً للأمن والحرية.

كما هاجرت رؤوس الأموال إلى الخارج، وخاف أهل الثروات النفطية، وملاك الثروات الهائلة على ثرواتهم أن تضيع إذا ماوظفت في الأقطار العربية، فأرسلوها إلى الخارج، وأخفوها في البنوك العالمية، فأقرضها من أودعت لديهم إلى اسرائيل وغير اسرائيل من أعداء العرب فتقووا بها، وزادوا بها تطورهم. وحرّم منها العرب. هذا

بالضبط ماأراده الأعداء بنا، حققناه نحن بجهلنا، وانجررنا إليه ، وأكثرنا لا يدري ، فتحقق فينا القول المأثور:

مايبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
وكان من نتيجة ذلك كله، حد من التطور العربي، وبطء في النمو
الاقتصادي، وزيادة في الخلاف بين الحكام، وضعف في البنية الاجتماعية للمجتمع
العربي، فزاد ذلك في يأس الإنسان من امكان تخطي الحواجز التي وضعت
لإعاقة سيره، وبدأ يميل إلى الاستسلام إلى العجز البادي له، وكأنها هوقدر محتوم لا
سبيل له إلى مقاومته والتحرر منه.

وقد ظهر ذلك في حرب حزيران ١٩٦٧، اذ تحللت في ساعات قليلة جيوش
كاملة العدد والعدة دون قتال يذكر، وهربت خلفه للعدومالديها من سلاح وعتاد
وتجهيزات وحصون، كلفت الأمة مليارات الدولارات خلال سنوات طويلة. ولوأن
هذه الجيوش قاتلت بها لديها من سلاح، وثبتت أمام العدو، لما وقع بها جزء من
الخسائر التي لحقت بها، وهي منسحبة هاربة بدون سلاح.

وركزت الدعايات الاستعمارية والصهيونية جهودها على تضخيم الانتصار
اليهودي، وعزوه إلى التنظيم الهائل، والقوة الخارقة التي لا تقهر، وإلى التضحيات
التي لا مثيل لها، وإلى الجهود المضيئة التي صرفها العدو في الاعداد والترقب والبحث
عن أفضل الطرق والظروف لضرب العرب، فكان له ماأراد. وهولت هذه الدعايات
علينا بعبقرية رجال اسرائيل، وضخمت قاماتهم، حتى أظهرت رجالنا أقرأماً
بجانبيهم.

وكان ذلك جزءاً من الخطة القديمة الرامية إلى بث الثقة في نفوس اليهود،
وإلى تثبيط همة العرب، وادخال مزيد من اليأس والقنوط إلى نفوسهم.

وقد نجحت هذه الخطة نجاحاً كبيراً لبعض الوقت، وانساق معها بعض القادة
والساسة العرب فاعترفوا بتخلف الانسان العربي وقصوره عن بلوغ ركب الحضارة
الحديثة، ووصفوه بأنه مازاك في عقلية البداوة وإن لبس ثياب المدينة، وركب السيارة
والطائرة، فالعربي لم يأخذ من مظاهر الحضارة العصرية إلا قشورها، أما التطور
الحقيقي فلم يبلغ أعماق نفسه، ولم يتأصل فيها.

ولم يقبل كثير من العرب بهذه النتيجة المخزية التي حلت بالعرب عام ١٩٦٧،
وتمردوا عليها، واستنكروا وقوعها، فلا يمكن أن ينحل جيش عربي كامل العدد

والعدة، بالشكل الذي انحلت به الجيوش عام ١٩٦٧، إلا لسبب جوهري، ولعلّه غياب القادة أولى الرجولة والعزم والرأي عن هذه الجيوش حينها وقعت المعركة، ووضع اناس في القيادات غير أكفيا، وغير قادرين على ادارة دفة القتال، لأن القادة قدروا أن أمثال هؤلاء العاجزين لا يشكلون خطراً على حكمهم.

فالعربي يعرف عنه بانه مقاتل شجاع، كان ذلك في الجاهلية، وكان ذلك في أيام دولته في ظل الاسلام وحتى في أيام الدولة العثمانية كان العربي مقاتلاً مشهوراً له بالجرأة والبأس، وكانت الدولة العثمانية تضع العرب في مقدمة جيوشها لفتح العالم. ولاننسى موقف اخواننا أبطال المغرب العربي الذين كانت تتدبرهم قيادات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، لاقتحام كل موقع استعصى اقتحامه على قواتها، مثل موقع دير كاسينو.

وقد جر التمرد على فشل عام ١٩٦٧، العرب الى حرب عام ١٩٧٣، وكانت بلا شك حرباً مجيدة ثبت فيها المقاتل العربي، وقاتل بجرأة وشراسة، وتحدى اليهودي في حصونه المنيعه، وتحدى الخوف وما اريد غرسه في نفسه من استسلام لليأس. وشهدنا في دمشق جماهير الشعب وهي تصعد أسطح المنازل، وتنزل إلى الشوارع لتشهد المعارك الجوية، ولتساهم بالقبض على طياري العدو الذين أسقطت طائراتهم، ولم يعبؤوا بالقنابل والصواريخ التي كانت تتساقط على المدينة، وتدمر الأبنية ولم يبد على أحد منهم خوف أو هلع.

لقد بثت عزائم المقاتلين واندفاعهم روح البطولة والتحدي في نفوس الشعب، فشحور بالعزة والفخار، ونفض عن نفسه روح الاستخذاء وعدم المبالاة، التي أرادت الدعاية الخبيثة خلال أعوام طويلة ادخالها إلى نفسه.

وأظهرت حرب عام ١٩٧٣، العربي على حقيقته مقاتلاً شجاعاً، وأظهرت اليهودي على حقيقته، دون مستوى الرجال جرأة وحماسة، لا يقاتل إلا من وراء حصن منيع، أو داخل آلة قوية تحميه، أو بسلاح يرمي عن مسافة لا تصل إليه فيها أسلحة العربي.

ولو تابع العرب الحرب أشهراً أخرى، وقاتلوا كما يقاتل اليوم بعضهم بعضاً في لبنان، أو كما قاتل رجال الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان في شهر آذار ١٩٧٨، وهم قلة قليلة، جيشاً ضخماً من اليهود مزوداً بأحدث سلاح، وأكمل عتاد، تدعّمه عشرات الطائرات من أحدث طراز، وثبتوا لهذا الجيش ثبات الجبال، وأنزلوا به

ضربات قاصصات، وأجبروه على التقدم مترنحاً، لا يعرف كيف يتصرف، وكيف ينهي هذه المعركة الخاسرة التي لم يكن يتوقعها، نقول لو أن العرب قاتلوا مثل هذا القتال العنيف الجريء، لأوقعوا باليهود خسائر كبيرة بالرجال والعتاد لن ينسوها أبداً الدهر. والتصرير بالنصر، والهزائم تجر الهزائم، وتكسر النفوس. ولكن حرب تشرين ١٩٧٣ لم يكن يراد منها أن تكون حرباً شاملة على اليهود، لاسترداد أرض فلسطين وما احتله اليهود في حرب عام ١٩٦٧، ولتدمير قواعد اليهود، واجتثاث جذورهم من الأرض العربية، فتعالت الأصوات التي كانت تريد حرباً محدودة، لا تتجاوز فيها الجيوش حدوداً معينة ليسمح الوضع القائم للدول الكبرى بالتدخل وجر الفريقين إلى مائدة المفاوضات.

وتمكنت هذه الأصوات في آخر الأمر من فرض وقف إطلاق النار على العرب. وكذلك سمح وقف إطلاق النار لليهود مرة أخرى، بالنقاط أنفاسهم، واستعادة قواهم، والعودة إلى جمع السلاح والعتاد والتزود بالحديث منها، وتنظيم أنفسهم من جديد، والعودة إلى التشدد، والتظاهر بالقوة والبأس، وعادوا يعلنون تشبهم بالأرض المحتلة، وعدم الرغبة في الجلاء عنها. وهكذا ظهرت إسرائيل أمام شعبها بمظهر القوة لتنسية حقيقة الكارثة التي حلت بها في الحرب، ولترفع من معنوياته المنهارة.

وقد أدى وقف إطلاق النار بالعرب إلى تبادل التهم بالتواطؤ مع اليهود: والأميركيين، والضلوع معهم في المخططات الرامية إلى الاعتراف بوجودهم، وانتهاء الحرب معهم، وإلى إنهاء عهد المقاطعة الاقتصادية لهم، وإلى فتح أبواب البلاد العربية أمام اليهود ومنتجاتهم، والتعامل معهم... الخ، وأسرع الاستعماريون إلى انقضاء إسرائيل من الهوة التي اردتها فيها حرب ١٩٧٣، وأرسلوا إليها السلاح والمتطوعة على عجل، وضغطوا على الحكام العرب وهددوهم إن هم استمروا في الحرب.

وحرك أعداء العرب نيران الخلافات الكامنة بين الزعامات العربية، في محاولة منهم لتمييق وحدة صفهم، ولاهائهم بأنفسهم، وحملهم على نسيان حرب تشرين ونتائجها المدمرة المخزية على إسرائيل، ولصرف انظارهم عن استغلال الوضع المتضعضع في إسرائيل لمخاطبة اليهودي وكشف الحقائق له، واستلام زمام المبادرة، في محاولة لضعاف ثقته بنفسه وبحكومته وبمستقبل وجودها، وهكذا برزت قضية

الصحراء الغربية ، فأشغلت المغرب العربي كله ، وخلقت عداء بين حكامه ، ووضعت الجميع على حافة الحرب .

وأشغلت قضية تحقيق الوحدة وعودة الحرية إلى نظام الحكم في مصر ، دول ليبيا والسودان ومصر وتونس ، وأثارت بينها عداء أدى إلى قيام مؤامرات لقلب أنظمة الحكم ، وإلى تهديد بالثأر والحرب ، وبذلك انشغلت مصر أكبر دول المواجهة مع إسرائيل ، يدفع المؤامرات عنها ، عن الحرب مع اليهود ؛ وقتل الملك فيصل أكبر زعيم عربي في الجزيرة ، وأبعدهم نظراً ، وأكثرهم نفوذاً ، وقد كان له الفضل الأكبر في دعم دول المواجهة ، ومدّها بالمال والسلاح ، ومباشرة حرب البترول ضد دول الغرب ، ونشبت خلافات عقائدية بين الحزبين الحاكمين في سوريا والعراق .

ووقعت فتنة خطيرة في لبنان ، جرت دول المنطقة كلها والعالم العربي معها إلى الاشتراك فيها ، وأشغلت قوات الثورة الفلسطينية ، بحرب مدمرة لالعلاقة لها بمهمتها الأساسية . وكان مثيرو هذه الفتنة يهدفون إلى قيام حرب طائفية دينية ، في لبنان وفي الشرق العربي كله ، تحمل أوروبا المسيحية على معاداة العرب والمسلمين ، انحيازاً إلى الطوائف ، الذين يريدون تمزيق وحدة لبنان ، وإقامة دولة عنصرية طائفية تعادي العرب وتتآمر عليهم . وبذلك تعود أوروبا إلى تأييد الصهيونية ، والتخلي عن التفاهم مع العرب ، وتأييد قضاياهم العادلة ، فتعود أوروبا إلى عهد جي موليه وايدن .

وقد أدت هذه الفوضى الشاملة ، الى تعالي بعض الأصوات القيادية العربية ، منادية بوضع حد للحروب بين العرب واليهود ، والاعتراف بدولة لاسرائيل بحجة :

١ - إن أميركا ودول العالم لا يسمحون بالقضاء على اليهود .
٢ - إن العرب غير قادرين من الناحية المادية على القضاء على الدولة اليهودية .

٣ - إن موارد البلاد العربية (وخصوصاً دول المواجهة) لا تسمح لها بمتابعة حالة الحرب فقد انهار الاقتصاد ، وخرب الانتاج ، ونضبت الموارد .

وهذا كلام ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، وهو كلام حق أريد به باطل .

١ - فنحن أولاً لانريد القضاء على اليهود كشعب وكدين ، وكمواطنين ، وإنما نريد القضاء على التهديد الخطير الذي يمثلته الحكم الصهيوني الفاشي المتزمت ،

على العرب وعلى القيم الأخلاقية، التي عملت الانسانية طويلا لارساء قواعدها، مثل المساواة، والاخاء الانساني، وحرية الرأي والمعتقد، وارساء قواعد العدل والمحبة.

وقصة رعاية العرب لليهود كمواطنين عبر التاريخ، قصة مثيرة ومشهورة، فلقد وجد العرب اليهود في الأراضي التي دخلوها في بلاد فارس وفي الامبراطورية الرومانية، وفي الأندلس في أسوأ حال من البؤس والسوء والذل والمهانة، وكانوا قد أخضعوا لقهر شديد عبر قرون طويلة، وذبحوا وشردوا مراراً، وأجبروا أكثر من مرة على ترك دينهم ومعتقداتهم، لاعتناق النصرانية أو المجوسية.

فجاء العرب ليرفعوا ذلك العسف عنهم، وليرفعوهم الى مستوى البشري في المعاملة، وهذه كتب التاريخ - وخصوصاً الغربية منها - أكبر شاهد على صحة هذا القول.

فالعرب لا يعرفون التعصب العرقي، كما لا يعرفون التعصب الديني، ولم يسبق لهم في تاريخهم الطويل ان اضطهدوا شعباً أو أمة أو مجموعة من الناس لمعتقداتهم الدينية، أو لأصولهم العرقية، وإنما بسطوا للناس حمايتهم، وأظلوهم بعطف انساني غلص،، أصيل، ولم يسمحوا لأحد أن يتعدى على أحد أو يطفئ عليه.

ولذلك فإن اليهود ليس لهم اليوم ان يخافوا قهراً من حكم عربي، وليس لهم أن ينفروا من وجودهم رعايا في دولة ديموقراطية مثل العرب، وليس هناك أحد في العالم يعتبر هذا التعايش في دولة ديموقراطية بين اليهود والعرب، تهديداً للعنصر اليهودي وإبادة له.

٢ - أما القول بأن العرب غير قادرين حالياً على تحطيم الدولة اليهودية العنصرية، فهو قول غير صحيح، فالعرب قوة كبيرة وشعب محارب، فإذا خلصت نوايا القادة وأخلصوا في اعداد الجيوش وتجهيزها، وأخلصوا في التفاهم فيما بينهم، وفي تحقيق الوحدة بين قواهم، وهي الوحدة التي يأمل الجميع بتحقيقها، وينادي الجميع بالعمل لأجلها، ولا يعرف أحد لماذا لم يتحقق شيء منها حتى اليوم.

نقول إذا خلصت النوايا، وجدّ العرب، فإن الدولة اليهودية تتفتت في أقل مما يتصوره الكثيرون، وحرب أبطال الثورة الفلسطينية ضد اليهود في آذار ١٩٧٨ في جنوب لبنان خير دليل على ان الانسان هو آلة الحرب الأولى، وهو وحده الذي يحقق

النصر مهما كانت معدات العدو وتجهيزاته .

٣ - وأخيراً نقول إنه بلا شك أن الأمة العربية قد لحقت بها أضرار بسبب الحروب مع اسرائيل خلال اربعين عاماً ، وأن وجود هذا الدخيل أدى الى انفاق مال كثير على المعدات والسلاح واعداد الجنود ، مما أدى الى تأخير النمو الاقتصادي والتقني في البلاد العربية .

ولكن العرب قوم مظلومون ، اعتدت عليهم الصهيونية ، وفرضت عليهم قيام دولة لها في فلسطين فرضاً ، ومن فرضت عليه الحرب لا بد له من مجابهتها ، بروحه وماله وبكل ما يستطيع ليرد الأذى عن نفسه وأهله وأرضه وليستنقذ حقه ، وكل الأمم تتعرض للمخاطر ، وكلها تتحمل التضحيات وتنفق الأموال ، فهذا هو قدرنا ولا خيار لنا في ذلك .

وإذا كانت اسرائيل وهي غاصبة معتدية ، وفيها شعب صغير مؤلف من أخطا من الناس ، تتحمل الكثير لصيانة بقائها في أرضنا ، فكيف بنا ونحن شعب كثير العدد ، أرضه واسعة ، وخيراته كثيرة ، وثرواته لا تنضب ، نضيق بجهد للقضاء على خطر محيت يهدد مصيرنا وكياننا ومستقبل شعبنا؟

وإذا أردنا أن نكون واقعيين ومنصفين لأنفسنا لقلنا إن حروبنا مع اسرائيل ليست هي وحدها سبب خراب اقتصادنا ، واستهلاك مواردها ، وضياع ثرواتها ، فهناك الى جانب الحرب أسباب أخرى كثيرة كان لها أثر في احداث ذلك الخراب والدمار والتخلف ، وسنشير الى بعض هذه الأسباب إشارة عابرة دون التعمق في بحثها ومعالجتها علماً بأن الحرب بيننا وبين اسرائيل ليست مستمرة لندعي بأن الحرب قد دمرتنا ومنعتنا من التفكير في أمور الإصلاح والتطور .

- فهناك الفساد والفوضى والارتشاء وعدم الانحلاص ، مما يبرهن عليه تكدر ثروات كبيرة جداً في أيدي أناس لا ينتظر أن يكون بين أيديهم مثلها .

- وهناك فقدان الانضباط ، وانعدام الحماسة .

- وهناك شعور الناس بعدم التساوي بين المواطنين ، في المسؤوليات والمغانم ، وفي الحقوق والواجبات .

- وهناك انعدام للتخطيط الصحيح .

- وهناك تبذير لأموال الأمة العربية على الصعيدين الرسمي الحكومي وعلى الصعيد الفردي الشخصي . فهناك تبذير للأموال العامة على حوك المؤامرات ، وشراء الضمائر

والذمم والصحف ووسائل الاعلام، ولاثارة القلاقل والفتن، وخلق المتاعب للخصوم من الحكام الآخرين .

- وهناك أيضاً إقامة أجهزة كثيرة لا لزوم لها، وهي تستهلك الكثير الكثير من المال .
- وهناك قتل للمؤسسات الاقتصادية العامة، بتسليمها الى أيدي المحسوسين والجهلة وقليل الخبرة والكفاءة، وبإدخال أعداد كبيرة من العمال والموظفين ممن لا عمل لهم، ولا حاجة لضرورات العمل اليهم، فساء الانتاج، واستهلك الأرباح، وضعف نشاط المخلصين من العمال لأنهم يرون أناساً يتقاضون رواتب وأجوراً ولا يعملون شيئاً.

هذا جانب مما يراه الرائي - للوهلة الأولى - سبباً لتضعضع اقتصادنا وتعثره .
ولكننا على كل حال، لا نرى أن حياتنا الاقتصادية هي على درجة كبيرة من السوء، كما يريد أن يصورها البعض، تحقيقاً لأغراضهم في جر الأمة العربية الى السلام مع اليهود .

فنحن نرى في البلاد المحيطة بإسرائيل والقريبة منها (مصر وسوريا والأردن والعراق والكويت والسعودية ولبنان) بذخاً غريباً، وهدرأ هائلا في الأموال في بناء القصور الفخمة، والمباني الضخمة، وشراء الأثاث الغالي الثمن النادر الوجود، والتأنق في المأكول والملبس والسيارات، وأجهزة التبريد والتدفئة، وكل ما تنتجه مصانع العالم من وسائل الرفاه، ونلاحظ ما ينفقه الأثرياء العرب من رسميين وأفراد على موائد القمار، وفي الأندية الليلية وعلى الغواني في بلاد الغرب، ونرى تبذيراً كبيراً لا حدود له يفوق التصور في نفقات الدولة على السيارات والرحلات، والحفلات والمراسم . . . الخ، فنقول إن كل ذلك لا يدل على اقتصاد خربته الحرب مع اسرائيل . وإنما يدل على عقول قاصرة عن الاصلاح، وضبط الأموال، وتقدير المسؤولية .

وليس من باب الصدف أن يقول (براون) رئيس أركان الحرب الأميركي، كلمة نقد لاذعة عن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة، معقل الصهيونية في العالم، مما هز كيانه اليهود الأميركيون خوفاً وفرعاً . لأن اليهود يريدون أن يبقى نفوذهم سراً مستتراً لا يظهر للشعوب التي يعيشون بينها .

واستمرار الحرب يفضح هذا النفوذ ويكشفه ولا يبقى مجالاً لاختفائه، وبذلك تتخلى شعوب العالم عن تأييد اليهود، وتتنكر لهم، وتسلمهم لمصيرهم المحتوم .

ولسوركزنا نحن دعايتنا على فضح النفوذ الصهيوني ، أمام شعوب العالم ،
لساعدنا المناضلين من أبناء الشعوب على التحرر من النفوذ الصهيوني ، ولكسبنا
حلفاء ، ولوفرنا على أنفسنا عداوة أناس لا سبب للعداوة بيننا وبينهم .

ولقد سبق لأمتنا أن تعرضت في حياتها الى مد صليبي مدمر دام مئتي عام ،
تصدت له أمتنا ، ومن ورائها أمم الاسلام ، بعزم ورجولة ، ولم ييخل فيها أحد
بتضحية مهما غلت ، ولم يضعف قائد ، ولم تفتر له همة ، ولم يفكر أحد في مهادنة الغزاة
ومساومتهم والاتفاق معهم للتمكين لهم .

واليوم وبعد ثلاثين سنة من قيام دولة اسرائيل ، يقف العرب لأول مرة على
طريق النضال الصحيح ، وقد اطرحت نفوسهم الخوف من العدو ، والرغبة من جيوشه
وسلاحه ، وقد تغلبوا على ترددهم ، واستشعروا القوة والعزم ، والقدرة على سحق
التحدي ، وهزم جيوش الدخلاء .

في مثل هذا الوقت الذي لاحت فيه بشائر النصر ، يريد بعض القادة العرب
وضع حد للحرب مع العدو ، وضمان أمنه واستقراره في أرضنا ، والاعتراف بوجوده ،
ومنحه وثيقة ميلاد شرعية نوقعها بأيدينا؟؟

ويحتج المتخاذلون ، في سعيهم الى الصلح ، بأن اسرائيل قوة عسكرية كبيرة لا
يستهان بها ، وأنها تمتلك سلاحاً نووياً رهيباً ، وأن وراءها الولايات المتحدة الأميركية
بآلتها الحربية الجهنمية الهائلة ، ترعى اسرائيل ، وتحافظ عليها ، وتمنع انهيارها . . .
ووراءها الدول الغربية كلها ، لا ترضى بالقضاء على اسرائيل ، ولا بتقويض دولتها .
كما أن المعسكر الشرقي الاشتراكي هو الآخر له مصالح واضحة في بقاء اسرائيل
ولذلك فانه هو الآخر يشارك الغرب رأيه في ضرورة المحافظة على وجود اسرائيل
وكيانها كدولة على قسم من أرض فلسطين .

وقد أدى الخوف الذي يحدثه وجود الولايات المتحدة خلف اسرائيل ببعض
لقادة السرب الى حد لجوئهم الى استطلاع رأي كيسنجر وزير خارجية الولايات
لمتحدة في موقف حكومته إذا قامت الجيوش العربية بالقضاء على الجيب الاسرائيلي
لذي تسرب غربي القناة في حرب ١٩٧٣ ، وكأنهم كانوا ينتظرون من كيسنجر
يهودي الصهيوني أن يجيبهم (أفضوا عليهم لا رحمهم الله) .

ويزعمون أنهم إنما تراجعوا عما اعتزموه من إبادة القوة اليهودية غربي القناة

حينما أبلغهم أن حكومته لا يمكن أن تقف مكتوفة اليدين، مع أنه كان في مستطاعهم ذلك القضاء.

ولا ندري متى كانت الجيوش تستأذن حلفاء الأعداء في القضاء على قوات حلفائهم في الحروب؟ ويقولون أيضاً في تبرير سعيهم الى السلام مع العدوان العرب لا يملكون سلاحاً نووياً، ولا يملكون صناعة حربية يمكن أن تسد حاجاتهم الى السلاح إذا ما نشبت حرب طويلة الأمد مع العدو الصهيوني، ولجأت الدول التي تمدنا عادة بالسلاح الى قطع إمدادها لنا من السلاح، كما كانت تفعل كلما خضنا حرباً مع اسرائيل.

ويقول الشعوب العربية للقادة العرب جميعاً رداً على ذلك: ولماذا يتعادون ويتقاطعون ولا يسعون الى التفاهم والاخاء الصحيح، والتعاون المخلص في سبيل إيجاد صناعات مشتركة تسد حاجة العرب جميعاً من السلاح وغير السلاح؟ ولماذا لا يسعون الى استعادة النوايا من العرب الذين استقروا في البلاد الأجنبية بعد أن أمموا دراساتهم وتفوقوا فيها، عن طريق اغرائهم بالعودة، والعمل على استيعابهم في مجالات اختصاصاتهم؟.

ولماذا لا يقيمون المعاهد التقنية العالية المتطورة لتخرج النوايا من المتفوقين فعلاً في دراساتهم في جميع نواحي العلوم والمعرفة والتقنية، لسد حاجات البلاد الى الفنيين المؤهلين وتهيئة العلماء المبدعين.

لقد نجحت الجامعة العربية في التقريب بين وجهات النظر العربية في بعض النواحي غير السياسية، فلماذا لا يُلجأ اليها لتتولى هي تأسيس المعاهد المذكورة، واستقدام العلماء من كل مكان - من عرب وأجانب - ولتضع أسساً ثابتة لقبول المتفوقين من الطلبة من الأقطار العربية على أن لا تكون هناك محاباة أو مراعاة في قبولهم، وأن لا يكون لغير الكفاءات الشخصية دور في انتقائهم واختيارهم.

إن الأمة العربية تبذر مليارات الدولارات كل عام في غير طاعة الله، وهي تنفق الملايين الكثيرة على دراسات طلابها في الخارج، ولا تفيد الأمة العربية في نهاية المطاف من دراساتهم شيئاً، لأن النوايا تغريهم الإقامة في الخارج، وتغريهم الحرية المتوافرة والأمن، والرواتب الضخمة والأعمال المؤمنة وتستهمهم الحياة نفسها فيبقون. ويعود جزء من الفاشلين الذين لا يقدمون شيئاً يذكر لأمتهم.

ولو وفرت الأمة العربية هذه الملايين الطائلة لأقامت عشرات المعاهد التي تخرج

ألوفاً من النوايع والفنيين والتقنيين والعلماء في كل باب تحتاجه البلاد . .

ومتى توافر لنا العدد الكافي من العلماء المؤهلين فعلاً، والرجال الصناع الأكفيا، لا يبقى بيننا وبين انتاج السلاح النووي الذي تخيفنا به اسرائيل اليوم، عقبة ما دام المال متوفراً لنا بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب .

ثم إن الشعوب العربية تعرف أن القضاء على اسرائيل يحتاج وقتاً، كما يحتاج الى مقومات وفرص لا بد من توافرها، وإن اسرائيل لم يمض على قيامها أكثر من ثلاثين سنة، بينما بقي الصليبيون في أرضنا مئتي عام، وقد أمضينا من هذه السنوات الثلاثين أكثر من نصفها في النضال ضد المستعمرين الذين كانوا يحتلون الأرض العربية، كما أمضينا جزءاً كبيراً منها في النضال ضد الفساد والتسلط والارهاب . .

وإن الأمة العربية تعرف أن توافر هذه المقومات والفرص ليس بالأمر الهين، ولن يكون رهن اليدين في وقت قريب، وإنما يحتاج إلى ظروف محلية وعالمية وعربية مواتية، فما علينا إلا أن نستمر في نضالنا ضد اسرائيل من جهة وأن نستمر في توفير الأسباب المؤاتية عربياً وننتظر الفرص الدولية ومتى تحقق للعرب الوحدة والقوة والعلم والتقنية، فلا بد من أن تلوح لهم الفرصة خلال ذلك لاسترجاع حقهم والقضاء على الدم الحبيث الذي يتهدد كيانه ومصيرهم بالفناء .

إن أرض فلسطين هي أرض العرب، وأرض الاسلام، وهي وديعة مقدسة في أيدي أجيالنا من عرب ومسلمين، ولا يملك أحد حق التفريط فيها، أو المساومة عليها، وقد سبق للقادة المسلمين «عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والمظفر قطز والظاهر بيبرس» أن خاضوا الحروب الطويلة، وبذلوا والشعوب العربية والاسلامية من التضحيات ما لا يدخل تحت حصر للقضاء على الدم الصليبي الحبيث الذي تسرب الى أرض فلسطين، وبدأ يهدد مقدسات العرب والمسلمين على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ الإسلامي . ولم يقبل أحد منهم بالاعتراف لهؤلاء الدخلاء بحق، ولم يرض أحد منهم أن يقرط في شبر من الأرض المقدسة يعطى للأعداء كسباً للسلام .

وكان هؤلاء القادة إذا ما أعجزتهم الظروف عن النصر يعقدون هدنة محددة المدة مع العدو، يستجمعون خلالها قواهم، ويعيدون تجهيز جيوشهم، ويعودون الى ساحة القتال .

والصليبيون أيضاً كانت غدهم أوروبا بقضها وقضيضها، وفرسانها

المشهورين ، وسلاحها وقادتها وكنيستها، كلهم كانوا يرددون الصليبيين لعلمهم
يستطيعون الابقاء على دولتهم متماسكة أمام الضغط الإسلامي المتواصل .
ولكن إرادة النضال ، وحاسة الايمان الصحيح ، وحب الاستشهاد في سبيل
الله ، والحق والوطن ، كل ذلك كان عند المسلمين والعرب الحافز الدافع لمواصلة
النضال ، حتى كتب لهم النصر النهائي .
فما بال بعض قادة العرب اليوم يظهرون العجز حينها لاحت بشائر النصر ،
واتضحت الرؤية أمام العرب لكسب المعركة ؟ .

إن جماهير المسلمين في العالم ، والجماهير العربية في جميع الأرض العربية ، لا
يمكن أن يعترفوا لاسرائيل بوجود مشروع على أي شبر من أرض فلسطين ، ولن
يقبلوا بتوقيع وثيقة الاعتراف بشرعيتها مهما كانت الظروف . أما الذين لا يجدون في
أنفسهم القدرة على متابعة النضال فما عليهم إلا أن يتنحوا عن مناصبهم لكي
يفسحوا المجال للرجال القادرين على حمل راية النضال .
﴿ فلا تنهوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتركم
أعمالكم ﴾ (سورة محمد - الآية ٣٥) .

صدق الله العظيم

د . أسعد حومد

القسم

١

الفتح

الفصل الأول

الفتح الاسلامي في شمالي إفريقيا

١ - فتح برقة :

استولى عمرو بن العاص على الاسكندرية في عام ٢٢هـ، وأخذ يتطلع الى الغرب ليضمه الى الدولة الاسلامية الفتية؛ وما هي الا فترة من الراحة، اخذ اهبطه فيها، وأكمل استعداداته، حتى ساربعدها الى ليبيا، بمحاذاة الساحل؛ ولم يلتق المسلمون في حملتهم هذه قتالا، ولا مقاومة يذكران. الى ان وصلوا برقة. فصالحهم أهلها على أن يدفعوا للمسلمين جزية سنوية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، يحملها اهلها الى الامير في مصر، لكيلا يدخل الجباة المسلمون ارضهم.

٢ - فتح طرابلس :

وبعد ذلك استمر عمرو بن العاص في زحفه حتى بلغ طرابلس. فحاصرها مدة شهر، وكان سور المدينة من جهة البحر ضعيفاً. الا أنه كان هناك اسطول بيزنطي (رومي) يحميها. ولما جاء الجزر، وانحسر الماء عن الشاطئ، ابتعدت السفن البيزنطية عن الميناء، فتسرب العرب الى المدينة من جهة البحر، وهاجموها مباغتة، فلم يشعر الحراس إلا والسيوف تأخذهم من كل جانب ففروا. وتمكن عدد منهم من الوصول الى السفن الراسية فاقلعت بهم مبتعدة عن الساحل، واستولى المسلمون على البلد.

ثم تابع عمرو بن العاص زحفه حتى بلغ مدينة صبره (وهي مدينة زراره اليوم)، وكان أهلها لا يتوقعون، هجومأ فاستسلموا للمسلمين. وبعد ان دانت ليبيا

للعرب، كتب عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة يخبره بها فتح الله عليه من البلاد، وإعلمه انه أصبح على مسيرة تسعة أيام من إفريقيا (ويقصد تونس) واستأذنه في متابعة فتوحاته نحو الغرب. ولكن عمر بن الخطاب خاف على المسلمين في تلك الأصقاع النائية، فرد عليه «ان إفريقية مفرقة فعد». فعاد عمرو الى مصر، واناب عنه في إمارة ليبيا أحد أقربائه، عقبة بن نافع الفهري.

٣ - ولاية عبد الله بن أبي السرح :

وبعد ان ولي عثمان بن عفان الخلافة، عزل عمرو بن العاص عن إمارة مصر، وجعل عليها أخاه من الرضاع عبد الله بن أبي السرح. وتطلع عبد الله الى إفريقيا، وأراد استئذان الخليفة في متابعة الفتح نحو الغرب، فلم يأذن له. تهيأ لما تهبه عمر بن الخطاب. فاكتفى عبد الله بالقيام بغارات على أراضي المغرب، واستولى على كثير من المغانم أرسل قسماً منها الى الخليفة. فلما رأى عثمان كثرة الغنائم أخذ يفكر في أهمية هذا الاقليم وغناه، واستشار الصحابة في أمر غزوه، فلم يشر عليه أحد منهم به. ولكن عثمان قدر أهمية فتح المغرب وضمه الى أرض الاسلام، فجهز جيشاً بلغت عدته ٤٨٠٠ رجل، كان بينهم كثير من أبناء الصحابة وسادة المسلمين، وفتح عثمان خزائن بيت المال، وجهز الجيش أحسن تجهيز، وعهد بقيادته الى مروان بن الحكم. ولما وصل الجيش الى مصر ضمه عبد الله بن أبي السرح الى جيش مصر الذي قدرت عدته بحوالي عشرة آلاف مقاتل، وسار بالجيش كله الى برقة (عام ٢٦هـ)، فانضم اليه أميرها عقبة بن نافع بمن عنده من الجند، وتحرك الجيش العربي، كله كتلة واحدة الى طرابلس، وكان الروم قد استرجعوها، ففتحها مرة أخرى وطرد الروم منها، وتابع زحفه الى حدود تونس.

٤ - انتصار العرب على البيزنطيين :

كان شمالي إفريقيا يخضع كله لبيزنطة (الروم)، وكان حاكم المقاطعة رجلاً تسميه الرواية الاسلامية (جريجير) ولعله محرف عن لفظة (Gregoire) فلما علم بوصول المسلمين الى حدود أرضه، جمع جيشاً كبيراً قدرته الروايات بمئة وعشرين

ألفاً من الروم والبربر، وهو جيش يفوق كثيراً عدد جيش المسلمين. ولكن قبل أن تنشب المعركة، وصل مدد للمسلمين من الخليفة بقيادة عبد الله بن الزبير. وأشار ابن الزبير على القائد العربي أن يقيم له كميناً من أبطال المسلمين، حتى إذا حمي وطيس المعركة يخرج الكمين، وينقض رجاله على العدو، فيوهن ذلك من عضده، ويضطره إلى الفرار. ونجحت الخطة نجاحاً كبيراً، وهزم المسلمون الروم هزيمة شنيعة، وقتل ابن الزبير جريبير. وقد قدر المؤرخون خمس الغنائم الذي أرسل إلى الخليفة بمليون دينار، وقدروا نصيب الفارس بثلاثة آلاف دينار، ونصيب الراجل بالف دينار. ولكن المسلمين لم يتوغلوا في أراضي المغرب. واكتفوا بمتابعة غاراتهم على ما حولهم، حتى مل الروم والبربر كثرة الغارات عليهم، وعرضوا على ابن أبي السرح أن يكف عنهم، فطلب منهم ٣٠٠ قنطار من الذهب، وأن يختار لهم أميراً منهم، فقبلوا الشرطين، وجمعوا له المال، وعين لهم أميراً عليهم من بينهم، وعاد إلى مفره في مصر.

ولكن بيزنطة استنكرت هذا الصلح، فجهزت أسطولاً قوياً بقيادة (بطريق) من قادتها، فوصل إلى قرطاجنة، وطرد الأمير البربري الذي عينه المسلمون، وأخذ ينظم أمور المغرب. وفي ذلك الحين كان العالم الإسلامي يعاني شر أزمة خطيرة هي أزمة مقتل عثمان بن عفان، والخلاف بين علي ومعاوية^(١).

٥ - ولاية معاوية بن حديج :

ولما انتهت الفتنة، واستقر الأمر لمعاوية، وصل حاكم افريقية البربري الذي طرده الروم، إلى دمشق وقابل الخليفة، وقص عليه حال الناس في افريقيا. واختار معاوية رجلاً سبق له أن اشترك في فتح الاسكندرية، هو معاوية بن حديج، فسيره مع القائد البربري على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل، ولما وصل الجيش إلى الاسكندرية مات القائد البربري، فتابع معاوية سيره إلى أن وصل تونس. ولما علم القائد البيزنطي (البطريق) بنبا مسير هذا الجيش استنجد بالقسطنطينية فأمده بثلاثين ألفاً من الرجال، انضمت اليهم جماعات من المحاربين البربر، ونشبت

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٦٩.

المعركة فانهمز الروم والبربر هزيمة منكرة، واستعاد العرب السيطرة على تونس، وعاد معاوية بن حديج الى دمشق.

٦ - ولاية عقبة بن نافع الفهري:

وبعد هذا الفتح المبين رأى الخليفة أن يفصل ولاية افريقيا عن حكم مصر. فاستشار عمرو بن العاص فيمن يوليه أمور افريقيا فأشار عليه بتولية عقبة بن نافع، الذي سبق له أن تولى حكم برقة. وكان عقبة من افاضل الصحابة علماً وأخلاقاً وورعاً وحسن رأي. فاستدعاه معاوية عام ٥٠هـ، وعهد اليه بولاية افريقيا، وجهز معه جيشاً من عشرة آلاف مقاتل فسار بهم الى أن وصل تونس، وقرر بناء حصن بعيد عن الساحل، يتخذ مقرّاً له، فاختر مكاناً في وادي القيروان، بنى عليه مدينة القيروان. وأخذ من مقره الجديد يسير البعوث الى البربر، ويدعوهم الى الاسلام. ولكن عقبة لم يستطع اتمام الخطة التي وضعها لنفسه لأن معاوية بن أبي سفيان عين والياً جديداً على مصر هو مسلمة بن مخلد، وبدا له أن ينهي استقلال حكم افريقيا، ويعيد ضمها الى والي مصر. فعزل مسلمة بن مخلد، عقبة بن نافع عن ولاية افريقيا، وعين مكانه مولاة أبا المهاجر، فتوجه هذا الى القيروان، ولم يرع حق عقبة ولا حرمة، فعاد عقبة الى دمشق، وشكا أمره الى الخليفة فوعده برده الى مكانه.

٧ - ولاية أبي المهاجر:

ولاحظ البربر هذا الاضطراب والتبدل في الحكم الاسلامي فجمعوا جموعهم بقيادة ملك منهم اسمه (كسيلة) وتقدموا لمهاجمة المسلمين. وكان أبو المهاجر رجلاً شجاعاً حازماً، فتقدم الى تلمسان والتقى بالبربر وهزمهم وأسر كسيلة فتظاهر هذا بالاسلام، فقبل منه أبو المهاجر اسلامه، واستبقاه في معسكره.

٨ - عودة عقبة بن نافع الى افريقيا:

ومات معاوية بن أبي سفيان دون أن يفي لعقبة بن نافع بما وعده به من رده الى

افريقية، فنفذ ابنه يزيد ذلك، ورد عقبة الى ما كان عليه، من حكم افريقيا مستقلاً عن مصر. ولما وصل عقبة القيروان تسلم الحكم، واستبقى أبا المهاجر في معسكره بعض الوقت. وبعد أن ثبت أقدامه رأى أن يخضع الشمال الافريقي كله، ليضع حداً لإغارات البربر، وتهديداتهم المستمرة. فجمع جيشه وأتاب في القيروان زهير بن قيس، واصطحب معه أبا المهاجر وكسيلة، واتجه بجيشه نحو الغرب فاستولى على ما تبقى من مناطق جبال الأطلس بدون قتال، واخضع قبائل البربر، وتابع سيره الى أن وصل الى طنجة. وكان حاكم المنطقة رجلاً يقال له الكونت جوليان (يوليان حسب الرواية الاسلامية)، وأدرك هذا عجزه عن مقاومة هذه القوة المندفعة، فعقد مع عقبة صلحاً على أن يؤدي له الجزية. ويقال إن عقبة فكر في فتح الجزيرة الإسبانية، ولكن يوليان ثناه عن عزمه هذا، وقال له إنه من الأفضل له ألا يغامر في اقتحام الأندلس قبل أن يطهر الأرض وراءه في إفريقيا، ويؤمن خطر البربر، فقبل عقبة هذه النصيحة، ووقف مع جيشه على شاطئ الأطلس وهي أول مرة في التاريخ العربي يصل فيها جيش عربي الى هذا المحيط. وخاض عقبة المحيط بجواده حتى بلغ الماء صبره فتوقف واتجه الى ربه بالشكر على ما فتح عليه، وقال عبارته المشهورة: (والله لولا هذا البحر أمامي يمنعني من السير لأوصلت اسمك الى أقصى المعمورة).

٩ - مقتل عقبة:

وعاد عقبة من غزوته هذه ظافراً محملاً بالغنائم. وتقول الروايات إن عقبة أساء معاملة كسيلة في اثناء العودة، وعلم البربر بذلك فأضرموا له الشر، وطووا نفوسهم على الانتقام من المسلمين، ولما قرب عقبة من القيروان سير جيشه أمامه إليها، وبقي في ثلاثمائة من أصحابه، فراسل كسيلة أتباعه البربر وأمرهم بمهاجمة المسلمين. وحينما أصبح عقبة قرب بسكرة - في الجزائر - هاجمته قوات كبيرة من البربر، وأحاطت بقوته الصغيرة. ولما شعر عقبة بخطر ما هو فيه، أطلق سراح أبي المهاجر وأمره بأن يسرع الى القيروان ليدبر أمرها مع زهير بن قيس مخافة أن يتوجه البربر، بعد القضاء على عقبة وأصحابه، الى القيروان، ويأخذوها على حين غرة من أهلها. ففرض أبو المهاجر النجاة بنفسه، وقال إنه يطلب الشهادة مع إخوانه. والتحم

المسلمون بالبربر، وقاتلوا قتال الياثس المستميت . فقتل عقبة وقتل أكثر المسلمين ، وأسر قليلون منهم وكان ذلك عام ٦٣هـ .

ولما علم نائب عقبة في القيروان بما حل بالمسلمين ، وبزحف كسيلة على القيروان ، أسرع يدعو الناس الى اتباع سبيل عقبة وإخوانه في الاستشهاد ، ولكن الأكثرية خافت العاقبة ، وآثرت السلامة ، فانسحب المسلمون من القيروان على عجل ، وبقي زهير بن قيس فراسله كسيلة ، واتفق معه على أن يسلمه القيروان بشرط ألا يؤذي مسلماً ، وأن يؤمن المسلمين الباقين في القيروان في دينهم ومعاشهم ، وانسحب زهير بمن معه الى برقة .

ثم اضطرب أمر المشرق مرة أخرى ، وحدث خلاف بين مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير ، فاهت الأحداث العاصمة الاسلامية عن أمر إفريقيا بعض الوقت . ولما استقر الأمر لعبد الملك بن مروان أخذ يفكر في أمر الفتح في إفريقيا ، واتصل عام ٧٩هـ بزهير بن قيس فطلب منه هذا إمداداً وأموالاً ليستأنف عملياته الحربية في الشمال الإفريقي ، فوعده بذلك ، وسير إليه جيشاً وإمدادات قوية ، فعاد زهير يزحف على القيروان والتقى بكسيلة قربها ودارت معركة عنيفة أسفرت عن مقتل كسيلة ، وعدد كبير من رجاله ، وانتصر المسلمون نصراً مبيناً .

١٠ - مقتل زهير :

ترك زهير نائباً عنه في القيروان ، وعاد الى برقة ، ولما وصلها كان هناك أسطول بيزنطي يغير عليها ، وبأسر عدداً غير قليل من المسلمين ، ولم تكن مع زهير قوة كبيرة ، ومع ذلك قرر خوض المعركة طلباً للشهادة ، وأوصى من ينجو من أصحابه بأن يسرع لابلاغ الخبر الى الخليفة في دمشق ، ولم تطل المعركة كثيراً فقد كانت القوى غير متكافئة ، وقتل زهير وأكثر أصحابه ، وأسرع من نجا منهم بالمسير الى دمشق .

١١ - ظهور الكاهنة :

وفي الوقت الذي قتل فيه زهير ، كان البربر يتجمعون بزعامه امرأة ، عرفت في كتب التاريخ باسم الكاهنة ، لما كانت تحتله لدى البربر من زعامة دينية ، وأقامت هذه

الكاهنة مقرها في جبال الأوراس ، وخضعت لها قبائل البربر في منطقة جبال أطلس وفيما وراءها من الصحراء ، واستشعر البربر القوة مرة أخرى فارتدوا عن الاسلام وعادوا الى ما كانوا عليه من وثنية ، وفي ذلك الحين تجمعت قوات كبيرة من الروم والبربر في قرطاجنة ، وأصبحت تهدد الوجود العربي في الشمال الافريقي تهديد خطيراً .

١٢ - ولاية حسان بن النعمان :

وأدرك عبد الملك بن مروان خطورة هذا التحدي ، فقرر العمل بسرعة ، وندب حسان بن النعمان الغساني ليقود جيشاً ضخماً قدرته الروايات بأربعين ألف مقاتل ، الى شالي إفريقيا ، فسار حسان في عام ٧٤هـ ، الى القيروان . وقدر أنه ما دام للروم موطئ قدم في إفريقيا فإن الفتح الاسلامي لن يكون في مأمن من الخطر ، وسيبقى البربر يأملون دائماً في أن يتمكنوا « بالتعاون مع الروم ، من إخراج المسلمين من إفريقيا كلها ، وسيكون هذا الأمل مبعث اضطراب دائم .

١٣ - الاستيلاء على قرطاجنة :

ففكر حسان بأن خير ما يفعله هو أن يستولي على مدينة قرطاجنة الحصينة ، التي يتخذها الروم مركزاً لهم ، وملجأ لاسطولهم . وأدرك أن مهمته هذه لن تكون سهلة فقرطاجنة مدينة عظيمة قوية التحصين ، لم يطمع أحد من القادة العرب من قبله في قهرها . ولكن عزمه ، وتصميم أصحابه كانا أقوى من أسوار قرطاجنة . فأعد الجيش لهذه المهمة الخطرة ، ولما اكتملت استعداداته ، زحف الى قرطاجنة ، وحاصرها وفكر في إمكان إخضاعها بالجوع والتضييق ، ولكنه تبين بعد قليل أن المدينة تتمون من البحر بواسطة الأسطول البيزنطي ، فقرر اقتحام الأسوار والاستيلاء عليها عنوة ، وفي ذات اليوم استطاع المسلمون اقتحام الأسوار ، ودخلوا البلد ، فنجوا من نجا والتحق بالأسطول ، ووقع بيد المسلمين عدد من الروم والبربر أسرى .

١٤ - هدم قرطاجنة :

وترك حسان مدينة قرطاجنة متوجهاً الى القيروان وترك فيها حامية اسلامية

صغيرة، ولكنه ما إن وصل القير وان حتى جاءته الأنباء بأن جوعاً من البربر اقتحمت أسوار قرطاجنة، واضطرت الحامية الاسلامية فيها الى الانسحاب، فعاد مسرعاً وطرد البربر منها، وأدرك أنه لن يتمكن المسلمون من الاحتفاظ بها، والدفاع عنها، فقرر هدمها وعفى أثرها.

١٥ - انتصار الكاهنة على حسان :

وتجمع البربر والروم من جديد قرب بنزرت، فأسرع إليهم حسان وكسرهم، ورأى أن يسير الى معقل الكاهنة زعيمة البربر في جبال الأوراس، وينهي أمرها قبل أن يستفحل، وقبل أن تقوم هي بمباغثة المسلمين في وقت لا يكونون فيه على استعداد، فلما اقترب من مقر الكاهنة هدمت الحصن الذي تقيم فيه، وهو حصن (باغاية)، وانسحبت الى الداخل فلاحقها حسان والتقى بجموعها على نهر يسمى بنهر تيني - حسب رواية ابن الأثير - واحتدم القتال وصبر البربر صبراً عجيماً، فانهزم المسلمون، وقتل منهم خلق كثير، وأسرع عدد كبير منهم، أطلقت الكاهنة سراهم فيها بعد، واستبقت واحداً منهم اتخذته ولداً، هو خالد بن يزيد القيسي .

وبعد هذا النصر قوي أمر الكاهنة، فبطرت واستبدت، ونخيل إليها أن المسلمين إنما يريدون الحصون والمدن فقررت تخريبها لكيلا يطمعوا فيها، ونفذت فكرتها هذه ففرع الناس من هذا التصرف الغريب .
أما حسان، فإنه انسحب الى برقة، واتخذها قاعدة لعملياته الحربية، وأخذ يستقصي أخبار الكاهنة وتحركاتها، وكان خالد بن يزيد القيسي، الذي استبقته الكاهنة لديها، يوافي حساناً بأخبارها فجمع حسان قواته من جديد. وتحرك نحو الكاهنة، التي يبدو أنها كانت على خلاف مع ولديها، مما دفع أحدهما الى الالتحاق بحسان.

١٦ - مقتل الكاهنة :

والتقى المسلمون بالبربر مرة أخرى، وكانت معركة رهيبة قتل فيها خلق كثير من الجانبين، ثم نصر الله المسلمين فانهزمت الكاهنة وجموعها، ولكن بعض المسلمين

تمكنوا من الظفر بها وقتلها، فتفرق جمعها في جميع الدروب. ورأى البربر إثر هذه المعركة، أن يعقدوا صلحاً مع المسلمين، فراسلوا حساناً في ذلك فقبل العرض، بشرط أن يقدم البربر ١٢٠٠ من رجالهم، يضمهم حسان إلى جيشه ليساعده في غزواته، وليتعلموا أمور الدين الاسلامي، فقبلوا بهذا الشرط، واختار حسان ابني الكاهنة لقيادة هذه القوة البربرية تألفاً لقلبيهما.

١٧ - تأسيس دار صنعة في تونس:

ورأى عبد الملك بن مروان أن يقيم المسلمون اسطولاً لهم في تونس يحمي شمالاً إفريقيا من غزوات البيزنطيين (الروم)، فأمر حساناً بإنشاء دار صنعة لصنع السفن للأسطول المقبل. وبذلك أصبح للمسلمين أسطولان يحميان الشواطئ الإسلامية، ويدفعان عنها الاساطيل المعادية في البحر الأبيض المتوسط.

١٨ - ولاية موسى بن نصير:

بقي حسان في مقره في القيروان إلى حوالي عام ٨٦هـ، ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة قدم عليه حسان بن النعمان بكثير من التحف والنفائس، ورغب إليه الوليد أن يعود إلى مقر عمله في إفريقيا، فاعتذر. فطلب الوليد من عامله على مصر - وهو عمه عبد العزيز بن مروان - أن يختار أميراً لإفريقيا فاختار مولاه موسى بن نصير، وسيره إلى القيروان في عام ٨٧هـ وبأمر موسى عمله بجدة وكفاءة.

ورأى موسى بشاقب نظره أن ادخال البربر في الإسلام: وترسيخ الدين في قلوبهم، يضفي قوة على قوته، ويحبه انتفاضاتهم فأخذ يرسل إليهم الفقهاء ليؤدوا مهمتهم، وتابع هوسيره في الشمال الافريقي متبعاً طريق عقبة بن نافع حتى أفضى به السير إلى ساحل المحيط الاطلسي. وتقول الروايات، إن اقليم سبته كان تابعاً لبيزنطة - مثله مثل الشمال الافريقي كله -، إلا أن حاكم هذا الاقليم وجد نفسه مضطراً إلى البحث عن قوة غربية يعتمد عليها، بعد ان انقطع اتصاله ببيزنطة اثر الفتح العربي، ولم يكن هناك اقرب اليه من اسبانيا، فدان بالولاء لحكامها القوط.

١٩ - ولاية طارق في سبتة وطنجة :

ثم عاد موسى بن نصير إلى القيروان، بعد أن عهد إلى مولاه طارق بن زياد بمتابعة العمليات في المنطقة، فتقدم حاكم سبتة يطلب تجديد الصلح مع المسلمين، على أن يدين لهم بالطاعة وأن يدفع لهم الجزية فقبل طارق منه ذلك. واتخذ طارق مدينة طنجة مقراً له ليصرف منها الأمور ويشرف على إدارة المنطقة. وتختلف الروايات في أصل طارق، فمنها ما يجعله من سبي فارس، ومنها ما يجعله بربرياً من نسل الفاندال الغربيين، أشقر اللون أزرق العينين. . وأياً ما كان أصله فقد حقق هذا البطل بشجاعته ويُعد نظره نصراً خلّد اسمه على مر الدهور.

الفصل الثاني

اسبانيا والفتح الاسلامي

٢٠ - اسبانيا قبل الفتح :

تعرضت الجزيرة الايبيرية الى العديد من موجات الغزو الخارجي ، الذي كان بعضه عابرا لم يستقر فيها ، بينما استقر بعضه الآخر فيها ، وترك آثاره في أرضها . وكان الفينيقيون من الأمم التي تطلعت الى هذه الجزيرة الغنية الخصيبة . فاغاروا عليها على دفعات متفرقة واستقروا في بعض سواحلها ، واقاموا فيها عددا من الحواضر منها قادس وقرطاجنة - وذلك بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر قبل الميلاد - . ولما سقطت الدولة الفينيقية الغربية ، خلف الروم الفينيقيين في بسط نفوذهم على اسبانيا ، ولما سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية تحت ضربات البرابرة من قبائل الفاندال والهون ، اتجهت موجة من موجات الفاندال في القرن الخامس الميلادي الى اسبانيا واستولت عليها .

ثم تعرضت اسبانيا في أوائل القرن السادس الميلادي الى غارة من غارات القوط الغربيين (عام ٥٠٧م) فأجلوا الفاندال عنها ، فنزحوا الى شمالي افريقيا . وحل القوط الغربيون محل الفاندال في حكم الجزيرة . ودام حكم القوط لاسبانيا قرابة قرنين .

وقد أغرقت الحياة الناعمة في اسبانيا ، الفاتحين الجدد ، فهاموا بالترف ، ومباهج الحياة والترف والبذخ يحتاجان إلى المال . فأخذ الجباة يستنزفون أموال الشعب ، ويتعسفون في تحصيلها منه حتى أرهقوه وأفقروه .

وأكثر الذين كتبوا في تاريخ الأندلس أشاروا إلى سوء الحالة الاجتماعية في الجزيرة الايبيرية قبل الفتح الاسلامي ، وإلى الطبقات التي كان يتألف منها المجتمع . فمنهم من يجعلها أربعاً ، ومنهم من يجعلها خمساً أو ستاً ، إذا اعتبر اليهود في المجتمع طبقة . على كل حال ، ان الطبقات الاجتماعية في أوروبا في تلك العصور كانت أربعاً :

١ - طبقة النبلاء (وهم في اسبانيا إذ ذاك سلالة القوط الفاتحين) ، وكانت هذه الطبقة تمسك بأهم المناصب في الجيش والبلاط والادارة . وكانت أكثر الأراضي الخصبة بيدها كاقطاعات حصلت عليها اثر الفتح .

وكانت طبقة النبلاء تقسم في العصور الوسطى الى ثلاثة أقسام بحسب أهمية دخولها المالية : (١)

(أ) القسم الأول ، ويضم من كانت دخولهم قليلة نسبياً ، إذ كان سلطانهم لا يمتد الى أكثر من قرية واحدة أو قريتين أو قرى قليلة ، ولكن دخول هذه القرى لا يكفي لأن يكون السيد الاقطاعي ذا أهمية مالية .

وموضوع تقييم هؤلاء السادة الاقطاعيين موضوع صعب من الناحية التاريخية فقد كان كثير من منهم فقراء جداً ، ودخولهم قليلة إذ كان دخل بعضهم لا يتجاوز ٣٠٠ الى ٤٠٠ ليرة سنوياً .

ولكن كان بين أفراد هذه الطبقة من يصل دخله الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ ليرة سنوياً .

(ب) القسم الثاني ، ويضم من كانت أملاكهم تشمل عدداً كبيراً من القرى وقد تتراوح أملاكهم بين عشرين وخمسين قرية ، قد يكون بعضها متصلاً ببعض وقد يكون منفصلاً عنه ، ولذلك كانت دخولهم كبيرة تكفيهم لحياة البذخ والترف ، وهؤلاء هم السادة الأعلون . ولكن لم يكن بينهم وبين أفراد الطبقة الأولى حدود مميزة تفصل بعضهم عن بعض .

وكان للسادة من أفراد هذه الطبقة أن يستوفوا رسوماً من الأسواق والمناجم والمقالع ورسوماً عن المرور ، وكانت دخولهم تتراوح بين ٣٥٠٠ ليرة وبين عشرة آلاف ليرة سنوياً ، وقد تصل الى عشرين الف ليرة .

(ج) القسم الثالث ، السادة الاعلون للمقاطعات ، وكانت دخولهم كبيرة ، وتشمل وارداتهم ما يتقاضونه من رسوم ادارة المحاكم ، والريع مدى الحياة الذي يدفعه لهم اتباعهم الاقطاعيون .

وقد كان يسود بين افراد هذه الطبقات الثلاث من الاقطاعيين شعور مشترك

(١) هيلر بيلوك ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٥٢ .

ينبل الدم، وهذا الشعور المشترك هو الذي يفصل بين مجموعة النبلاء وبين بقية أبناء الشعب.

٢ - طبقة رجال الدين (الكليروس)، وكانت تشارك النبلاء في إدارة البلاد، وفي اقتسام المغنمات وتملك الأراضي الخصبة. وكان الكليروس كالنبلاء معفيين من الضرائب، ومن الالتزامات المالية.

٣ - طبقة الصناع والتجار وصغار الملاك (البورجوازيين) وكانت هي الطبقة التي تتحمل الواجبات المالية والضرائب.

٤ - طبقة الاقنان (رقيق الارض)، وهي مرتبطة بالأرض تنتقل معها من مالك الى مالك. وكان واجبها تأمين العمل في الأرض. ولم تكن لها حقوق.

اليهود: وكان في اسبانيا عدد كبير من اليهود، يمكن ان يعتبروا طبقة خاصة، بسبب تضامنهم وتكتلهم، واثروهم في الحياة الاقتصادية للبلاد، وقد استاء المجتمع الاسباني من تغلغل هؤلاء اليهود في جميع مرافق الحياة الهامة والحساسة، واخذ الحكام القوط يلاحقونهم ويضيقونهم. واتخذ الملك ريكاردو (الذي حكم اسبانيا من ٥٧٤ الى ٦٠١م) أول تدبير ضد اليهود، إذ حرم عليهم إقامة شعائرهم الدينية، وحرّم عليهم التزاوج حسب شريعتهم واعرافهم، ومنعهم من الشهادة ضد المسيحيين. وتالت هذه التدابير الزاجرة بحقوقهم من قبل الحكام القوط، ولكن اليهود كانوا لا يجهلون كيف يصلون الى هؤلاء الحكام، وكيف يشترونهم لالغاء التدابير المتخذة بحقهم، أو لتطبيقها بأقل عنف ممكن، إذا لم يكن بالامكان التوصل الى الغائها.

ولما ارتقى العرش الملك سيوت (٦١٢ - ٦٢٠م)، اخذ في ملاحقة اليهود بشكل جدي وعنيف، واصدر أمراً يفرض عليهم اعتناق الديانة المسيحية، ومن لم يشأ منهم ذلك، كان عليه مغادرة البلاد فوراً. فتنصر قرابة تسعين ألفاً، وهاجر كثير من اليهود الى فرنسا وشمالى افريقيا. ولكن تنصر اليهود كان ظاهرياً، فقد استمروا مقيمين سرّاً على يهوديتهم، وبقي نفوذهم قوياً في البلاد. وعادت مشكلة اليهود تشغل من جديد بال المجتمع الاسباني، ولكن بصورة أكثر تعقيداً. لذلك انعقد مجمع ديني في طليطلة اتخذت فيه مقررات جائرة وغير انسانية إذ قضى بعضها بانتزاع أبناء هؤلاء اليهود المتنصرين من أهلهم، وتربيتهم في أديرة كاثوليكية. ويبدو أن المضايقات الشديدة التي عاناها اليهود، حملتهم على حوك مؤامرة ينتقمون فيها من

الحكام القوط، ولكن أنباء هذه المؤامرة تسربت الى السلطة الحاكمة فكان ذلك سبباً في تزايد الأذى الذي يمل بهم . وصدر اثرها أمر غريب ، يقضي بمنع تزواج اليهود المتنصرين فيما بينهم . وبقي اليهود في اسبانيا يعانون الضيق المتزايد كل يوم ، حتى جاء الفتح الاسلامي فزال عنهم شر ما يعانون ، فكانوا أول من رحب به ، وأبدى استعداداً للتعاون معه .

٢١ - تفكك المجتمع الاسباني :

ومثل هذا المجتمع المتفكك الذي تمتاز فيه طبقتان غريبتان عنه ، أو شبه غريبتين ، هما طبقتا النبلاء ورجال الدين - مع أنهما لا تؤلفان إلا قلة عددية فيه - وتبقى الطبقتان الأخريان فيه ، اللتان تشكلان الغالبية العظمى من الشعب ، ثنائان من جور الحكام ، وتحملان عبء الواجبات الثقيلة ، ونتائج الفساد والرشوة ، والانحلال الخلقي للحكام ، وذوى الامتيازات ، دون أن يكون لهما حقوق تقابل هذه الأعباء الثقالة ، نقول إن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعاً متماسكاً متضامناً ، ولا يمكن أن يكون للروح القومية والعاطفة الوطنية أثر كبير فيه . والواقع أن جميع الذين كتبوا في تاريخ الفتح الاسلامي لاسبانيا ، أشاروا بشكل خاص الى تفكك المجتمع الاسباني في زمن الفتح ، ولاحظوا ضعف المقاومة التي لقيها العرب في زحفهم الصاعق ، مع قلة عددهم ، وعظم مهمتهم ، ولا يجد الانسان كبير صعوبة في تعليل التخاذل الذي ظهر من الشعب الاسباني ، ولا في تفسير ضعف المقاومة التي أبدتها للمسلمين ، مع أن الجيش الاسباني كان أكثر من المسلمين عدة وعدداً ، وهو يدافع عن أرض يعرفها ، ويعرف طبيعتها ، فقد كان الجيش الاسباني يتألف في غالبيته العظمى من أبناء الطبقات الشعبية - البورجوازيين والفلاحين - ولا يشكل النبلاء أصحاب الامتيازات فيه إلا الاطار القيادي . . وكانت الطبقات الشعبية في اسبانيا قد بلغت في ذلك الحين ، أسوأ ما يمكن أن يتصوره الانسان من سوء حال ، وكره للحكام ، ونفور منهم ، حتى إنها أصبحت تتمنى إنزالهم عن عاتقها بأي ثمن ، وبأية وسيلة كانت .

كان الشعب الاسباني يرى الغزاة ينقضون على أرضه بين الحين والآخر ، ليطردوا غزاة آخرين ، استولوا هم أيضاً بقوة السلاح على مقدرات أموره ، وتسلبوا

عليه، وسلبوا حريته، وحرموه من جني خيرات أرضه، وثروات وطنه، ثم لا يلبث الغزاة الجدد أن يصبحوا أشد عسفاً، وأكثر تنكياً من الغزاة السابقين. ولما تكرر ذلك يش الشعب من الخلاص والفرج، واستسلم لهذا اليأس، وكأنه قدر محتوم، فتبدل حسه، ولم يعد يبالي من يعزلون ومن يولون، وكأن الأمر لا يتعلق به وبوطنه وأرضه. وحينما يصبح الشعب غربياً في أرضه، عدواً لحكامه، متفككاً لانقسامه الى طبقات متنافرة متحاسدة تستغل فيه القلة الكثرة، وتغتصب منها قوت يومها، يصبح هذا الشعب متراخياً فاقد الحماسة والنجدة، عديم القدرة على الحرب، والدفاع عن حياض الوطن. وينحصر كل همه في تأمين قوته ومعاشه. أما الوطن، وأما الاستقلال، وأما الأرض فانه يترك أمر الدفاع عنها الى من يفيد من استغلالها.

٢٢ - اغتصاب الملك :

توفي آخر ملك من ملوك القوط، واسمه وتيزة (Witiza) (وتعرفه الروايات العربية باسم غيطشة) تاركاً ولدين صغيرين، فوثب قائد الجيش، رودريكو (وتسميه الرواية العربية لذريق) على الملك، وانتزعه من ابني سيده، واستأثر به من دونها. فثار أنصارهما في نواح مختلفة من البلاد. وكان لذريق رجلاً حازماً شجاعاً، فأخذ يسير على رأس جيشه لاختاد هذه الثورات، الواحدة تلو الأخرى، الى أن وصل العرب وهاجموا الأندلس. وتقول روايات أخرى إن مجلس الدولة هو الذي اختار رودريكو للملك، نظراً لصغر ابني الملك السابق، ولم يغتصبه. ولكن أياً ما كان سبب وصول رودريكو الى الحكم، فإن أنصار الملك السابق لم يقبلوا هذا الانتقال للملك وكافحوه.

٢٣ - أسباب الفتح :

تكاد الروايات العربية تجمع على أن السبب في اتجاه العرب لفتح الأندلس، هو تحريض يوليان، حاكم سبته لهم، لما كان في نفسه من حقد بسبب هتك لذريق عرض ابنته فلورندا، فقد كان من عادة حكام الولايات القوطية إرسال أبنائهم وبناتهم الى البلاط ليعيشوا فيه فترة من الزمن يتدربون خلالها على آداب البلاط.

وتبعاً للتقاليد هذه، أرسل يولييان ابنته فلورندا، وكانت فتاة رائعة الجمال، فافتتن بها رودريكو وأغواها ودنس شرفها، متجاوزاً بذلك تقاليد البلاط التي كانت تعتبر هؤلاء الأطفال والأولاد، كأبناء الملك، يحافظ عليهم كما يحافظ على أبنائه. ولما علم يولييان بما ارتكبه رودريكو من جرم شنيع بحق ابنته، استاء وأقسم ليزيلن عرشه. وأخذ يتصل بموسى بن نصير ويطارق بن زياد ويغريهما بغزو الأندلس.

وهناك رواية حديثة قال بها المؤرخ المعاصر (سافيدرا)، وأخذ بها كلاوديو سانشس البرنس، مؤلف كتاب (اسبانيا المسلمة)^(١) وتقول هذه الرواية إن أبناء الملك السابق واسرته كانوا يسعون لاستعادة الحكم من الغاصب فاتصلوا بيولييان، وكان من أنصارهم، ليعرض على العرب، أن يمدوهم بقوة ترد لهم ملكهم، لقاء مبالغ من المال يدفعونها للعرب. ولكن العرب الذين أغرتهم مبايع الحياة، وثرورات الأندلس وجمالها، حولوا العون إلى فتح، وقرروا البقاء في الأندلس. وهذه الرواية التي لم يقل بها أحد قبل سافيدرا غايتها الصاق التهمة بالعرب بأنهم غدروا، بمن استنجد بهم، وأغراهم الطمع فاحتفظوا بالفتح لأنفسهم. ولو كان لهذه الرواية نصيب من الصحة، قليل أو كثير، لتمسك بها المؤرخون الأسبان الذين كتبوا تاريخ بلادهم، في عهود بعيدة كان الحقد فيها على العرب لا يحده حد، والرغبة في تشويه سمعتهم، والإساءة إلى تاريخهم، لا تقاوم. ولكن لا يستبعد أن يكون يولييان وهو يرتب الاتصال بالعرب لغزو الجزيرة الأيبيرية، قد اتصل بأعداء رودريك في الداخل، وفي طليعتهم أهل البيت المالكي السابق. وتقول الرواية العربية إن أبناء غيطشة طلبوا من العرب أن يعيدوا إليهم الاقطاعات والضياع التي كانت لهم ثم صادرها رودريكو، لقاء معونتهم للعرب، فأعادوها إليهم، وكانت نحواً من ثلاثة آلاف قرية^(٢).

٢٤ - الغزو:

استأذن موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك في غزو الأندلس، فوافق على ذلك، على أن يختبرها بإغارات صغيرة تكشف له أمرها، فلا يقع المسلمون في

(١) اسبانيا المسلمة ج ١ ص ٣٤.

(٢) ابن القوطية ص ٢٨.

خطر مهلك. وفي شهر رمضان من عام ٩١هـ (تموز ٧١٠م)، أرسل موسى كتيبة فيها ٤٠٠ راجل و ١٠٠ فارس بقيادة رجل بري اسم طريف، أنزلتهم السفن على الساحل الاسباني في الموضع المعروف اليوم باسم جزيرة طريف (ويسمىها الاسبان اليوم طريف)، غربي الجزيرة الخضراء مقابل طنجة.

ومن هناك أغار طريف على المناطق المجاورة فأصاب سبباً، وغنم شيئاً كثيراً، وعادت الكتيبة بها تحمل الى الساحل الافريقي فسر موسى بذلك، واستقر عزمه على الغزو، ولكنه أراد أن يرسل مولاة طارقاً على رأس قوة أكبر، تجوس خلال المناطق الساحلية، وتخبر قوة الاسبان، وتكشف أحوالهم. ونقلت سفن قدمها (يوليان) حاكم سبتة، طارقاً مع سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر، الى الشاطئ الاسباني، وأنزلتهم في الموقع المعروف اليوم بجبل طارق، يوم سبت من شهر شعبان من عام ٩٢هـ (آب ٧١١م). وما إن تكامل نزول المسلمين في الأرض الاسبانية، حتى طارت الأنباء للملك رودريكو- وكان إذ ذاك في منطقة الباسك في الشمال (البشكنس)، يقوم ببعض العمليات ضد المنشقين عليه - فأسرع بالسير نحو الجنوب، على رأس جيشه، وانضمت إليه، أثناء سيره، أعداد من المحاربين. ولما وصل أمام الجيش الاسلامي، كان تعداد جيشه أربعين ألفاً في رواية ومئة ألف في رواية أخرى.

علم طارق من عيونه مبلغ قوة الجيش الاسباني الزاحف إليه، فأسرع يستمد مولاة موسى، فأمدّه بخمسة آلاف رجل فأصبح جيش طارق اثني عشر ألفاً، ولما تكامل العدد استعرض طارق جيشه الصغير، وأراد أن يقطع أمل رجاله في الهرب، فأمر بإحراق السفن التي نقلتهم، ووقف في رجاله خطيباً، وألقى فيهم خطبته المشهورة:

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أصبح من الأيتام من مآذبة اللثام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراً عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألفت إليكم به مدينته الحصينة، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن

سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لا أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا أحملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس. وأنا أبداً بنفسي واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي.

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسنان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك، ذوي التيجان، وقد انتخابكم أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً، ورضيكم للملك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستمحكم بمجادلة الأبطال والفرسان، ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه في هذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أني مجيب الى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لدريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلك بعدة فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون إليه أمركم، وإن هلك قبل وصولي إليه فاحلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون».

وتقدم طارق بجيشه حتى وصل الى بحيرة قريبة من مدينة شدونة^(١) (مدينة سيدونيا)، بعد أن أفتتح عدداً من المدن والمواقع، وهناك التقى به رودريك.

وكان رودريك قد استدعى ابني سلفه غيطشة، وعهد اليهما بقيادة جناحي الجيش، وفيهما أكثر رجالهما، أما هو فتولى قيادة قلب الجيش، وتقول الرواية العربية^(٢) ان ابني غيطشة، وكبار أصحابهما، درسوا موضوع الحرب فقالوا ان رودريكو غلب على الملك، واستأثر به دون أصحابه الشرعيين، فإذا انتصر فلا أمل لهم باسترجاع حقهم منه. أما إذا انتصر العرب فإنهم قوم غزاة لا يهمهم من أمر شبه الجزيرة شيء، وسيعودون الى موطنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من السبي والغنائم، وحينئذ يستطيع أصحاب الحق الحصول على حقهم. وبعد تقليب أوجه الرأي

١ - وتسمى اليوم بالاسبانية (مدينة سيدونيا).

٢ - اخبار مجموعة ص ٧.

وجدوا أن أفضل ما يقومون به هو أن ينهزموا بجناحي الجيش، حينما تشتد المعركة، فيصطلي رودريك بنارها وحده، ويهلك.

التقى الجيشان عند نهر صغير (ويقول دوزي إنه نهر سلا دو، الذي يرفد نهر وادي الليث «غواداليت» الذي يصب في المحيط الأطلسي). وكان اللقاء قرب بحيرة هناك لذلك قالت الروايات العربية إن المكان يدعى (وادي لكة) - وهي كلمة محرفة عن كلمة (لاغو) (Lago) الإسبانية ومعناها البحيرة - وجرت معارك هناك دامت ثمانية أيام، انتهت بهزيمة القوط هزيمة تامة، بعد أن نفذ ابنا غيطشة وأصحابها خططهم بالهرب في أثناء المعركة، واحتوى المسلمون معسكرهم، ووجدوا حصان رودريك وقد ساخت قدماه في الطين قرب البحيرة، ويقدر المؤرخون أنه غرق في البحيرة.

٢٥ - الزحف نحو الشمال :

وبعد هذا النصر تابع طارق زحفه شمالاً الى مدينة استجة (Esija) وكان قد تجمع فيها جيش من فلول المنهزمين فهاجمهم، وقاتلهم قتالا شديداً، فظهر عليهم، وفرق جمعهم، ولم يجتمع للقوط بعدها جيش، وبينما كان طارق يستحم في النهر بعد المعركة عثر على رجل اسباني، فلما أسره تبين له أنه قائد الجيش الذي هزمه قبل قليل.

ثم قسم طارق جيشه الى أربع فرق سير كلا منها الى غاية معينة، فأرسل مغيثاً الرومي في ٧٠٠ فارس الى قرطبة، وأرسل جيشاً ثانياً الى غرناطة، وثالثاً الى مالقة، وسار هو بمعظم الجيش الى طليطلة عاصمة القوط.

أما مغيث فإنه لما اقترب من قرطبة قبض على راع، علم منه أن حامية المدينة هربت منها، ولم يبق فيها غير الحاكم في أربعائة رجل من أهل البلد، ودله على ثغرة في السور، فارتقى المسلمون منها ليلاً، واقتحموا الأبواب فانحاز قائد الحامية ورجاله الى كنيسة غربي قرطبة تحصنوا فيها، فحاصبرهم مغيث ثلاثة أشهر، ثم علم أن قائد الحامية قد هرب سراً في غفلة من جماعته، فلحق به وأسره، وعاد به مغيث فاستسلم أصحابه الموجودون في الكنيسة.

وفتح الجيش المتجه الى غرناطة منطقة (الفيرا)^(١)، وفتح الجيش المتجه الى مالقة منطقة (ريا)^(٢)، ثم سار والتقى بجيش غرناطة، واتجها معا الى مدينة أوريولا (منطقة تدمير)^(٣)، فخرج حاكم المقاطعة، واسمه تدمير، على رأس قوة كبيرة من رجاله لقتال المسلمين، فهزموه وألجؤوه الى الحصن، بعد أن تفرق جيشه، وكان تدمير رجلاً عاقلاً، واسع الحيلة، ففكر في طريقة يحصل بها من المسلمين على أفضل الشروط، بعد أن يئس من إمكان المقاومة طويلاً، فألبس النساء ثياب الرجال، وسلمهن عيداناً من القصب، وأوقفهن في أعلى السور ليظن المسلمون أن الحامية كبيرة وخرج هو كرَسُول من المدينة، الى مقر القيادة الاسلامية، وفاوض في الصلح وتوصل الى اتفاق مع القائد المسلم فيه كل المصلحة للأسبان، إذ حفظ للناس حياتهم وأموالهم وحريتهم، كما حفظ لـ (تدمير) ملكه. وبعد توقيع الاتفاق كشف تدمير للمسلمين عن حقيقته، ودخل المسلمون البلد فلم يجدوا رجالاً قادرين على حمل السلاح، كما لاحظوه من تحت السور، وسرعان ما علموا بالحيلة، فأعجبوا بذلك الرجل ودهائه، ووفوا له ولأصحابه بشروط الصلح، (وقد أوردنا في الفقرة ١٢٣ نص وثيقة الصلح الموقعة مع تدمير).

وإذ كانت القوات الاسلامية الفاتحة غير كبيرة العدد، فقد اتبع المسلمون طريقة فريدة لتوفير الحاميات للمدن المفتوحة، إذ كانوا يجمعون اليهود في البلد، ويسلمونهم أمور الحراسة تحت إشراف مفرزة اسلامية. ووصل طارق بعد ذلك الى طليطلة فاحتلها، واستولى بغير قتال يذكر على كثير من المناطق المجاورة لها، وعاد الى طليطلة (عام ٩٣هـ - ٧١٢م).

٢٦ - دخول موسى الى اسبانيا :

وعلم موسى بما قام به طارق وجيشه من جلائل الأعمال، فقرر أن يكون له شرف المساهمة في هذا الفتح العظيم، ودخل الأندلس في رمضان من عام ٩٣هـ (تموز

١ - الفيرا - كانت حاضرة مقاطعة غرناطة . وكانت غرناطة قرية صغيرة بجانبها .

٢ - كانت مقاطعة مالقة تسمى (ريا) .

٣ - هي ولاية مرسية . وقد سميت قديماً باسم حاكمها يوم الفتح (تدمير) .

- آب ٧١٢م)، على رأس جيش قدرته الروايات بثمانية عشر ألفاً أكثرهم من العرب، ونزل في الجزيرة الخضراء وهناك قرّر أن يسير في طريق غير التي سلكها طارق، فيفتح المدن التي لم تفتح بعد، ويعدّث يلتقي بطارق في طليطلة.

انجه موسى الى مدينة شذونة فافتتحها حرباً، ثم توجه الى حصن (قرونة) (كرونا)، وكان من أمنع الحصون فنصح من كان معه من الاسبان باتباع الحيلة، فوجه عدداً من الاسبان المستأمنين بأسلحتهم، كما لو كانوا هاربين من المعركة فأدخلهم حمة الحصن اليه، وفي الليل فتحوا الأبواب للمسلمين، وفقاً للخطة فدخلوا واستولوا عليه، ثم سار الى أشبيلية، وكانت عاصمة اسبانيا أيام الحكم الروماني، ولما نقل القوط عاصمتهم الى طليطلة بقيت في أشبيلية طبقة النبلاء الرومان والفقهاء والعلماء، وبعد أشهر من الحصار احتلها المسلمون، وعهد موسى الى اليهود بحراستها، وهرب قسم من أهلها الى باجة^(١)، وسار موسى بعد ذلك الى ماردة^(٢)، فخرجت اليه حاميتها وقايلته قتالا شديداً. وتقول الرواية ان موسى لاحظ وجود قنطرة في المنطقة، فوضع فيها خلال الليل قوة اسلامية تكون كميناً له. وفي اليوم التالي خرج الاسبان من البلد لقتال المسلمين فهاجمهم الكمين الاسلامي من خلفهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وارثد الباقيون الى مدينتهم الحصينة. واستمر الحصار بضعة أشهر ثم شرع المسلمون بنقب جدار السور، وبينما كان النقباء المسلمون يعملون ذات يوم انقض عليهم الاسبان بغتة، وقتلوا كثيرين منهم، فأسمى العرب البرج الذي وقعت عنده المذبحة برج الشهداء، وبعد هذه المعركة فافوض الاسبان موسى على الاستسلام، وتقرّر ان يستولي المسلمون على أموال من قتلوا أو هربوا من البلدة، كما اتفق على أن تكون لهم أموال الكنيسة وكنوزها، ودخل المسلمون البلدة يوم عيد الفطر من عام ٩٤هـ.

وفي أواخر شوال من عام ٩٤هـ (أواخر تموز ٧١٣م)، خرج موسى من ماردة الى طليطلة، فخرج طارق لاستقباله، واجتمع الرجلان هناك. وتحدث الروايات عن اللقاء بين القائدين، وما لقيه طارق من العتب والتعنيف من موسى، ثم وجه موسى طارقاً الى منطقة أراغون في الشمال الشرقي واستعد هو للمسير الى غاليسيا

(١) باجة هي اليوم مدينة (Beja).

(٢) ماردة وتسمى بالاسبانية (Merida).

(جلبقية) في الشمال الغربي من اسبانيا لافتتاحها، وكان قد لجأ إليها كثير من الاسبان والقوط الذين هربوا من مدن الجنوب، ولكن مغيثاً الرومي مولى أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك، جاء من المشرق يبلغ موسى أمرا الخليفة بالسفر الى دمشق فرجاء الانتظار بعض الوقت ريثما ينفذ برنامجه، فرضي مغيث وسار معه. وفتح المسلمون كثيراً من المدن والحصون وخضع الاسبان، ورضوا بدفع الجزية وأخذ البربر ينون القرى في المناطق الجبلية ويستقرون فيها.

٢٧ - عودة موسى الى الشام:

ولما استبطأ الوليد عودة موسى أرسل اليه رسولا آخر فاضطر موسى الى ترك اسبانيا والعودة، وكان إذ ذاك في مدينة لووغو (Luogo) في أقصى الشمال الغربي. وعاد طارق من أراغون فالتقى بموسى وسارا معاً مع جميع من أراد العودة الى المشرق. وخلف موسى ابنه عبد العزيز أميراً على الأندلس، وكلفه بأن يتخذ أشبيلية مقراً له، لقرها من الساحل الافريقي.

وفي ٢ ذي الحجة من عام ٩٥هـ (آب ٧١٤م)، عبر موسى المضيق مع جيشه وثلاثين ألف أسير وكنوزاً لا تحصى. وتقول بعض الروايات ان موسى كان ينوي فتح جنوبي أوروبا ليعود الى دمشق عن طريق القسطنطينية (وهو ما حاول عبد الرحمن الغافقي إتمامه فيما بعد)، ولكن دعوة الخليفة اضطرت له للعودة قبل تنفيذ برنامجه، ولما وصل موسى الى فلسطين، التقاه سليمان بن عبد الملك، وأعلمه بمرض أخيه الوليد، وطلب إليه التريث في السفر الى دمشق ريثما يكون الوليد قد توفي وتسلم هو الخلافة فيدخل عليه بها معه من تحف وهدايا، وينسب الفتح إليه، فرفض موسى ذلك، وأسرع الى دمشق، ليرى الخليفة قبل وفاته، فأكرمه الوليد وأثنى عليه لكن الخليفة ما لبث أن توفي بعد قليل، وخلفه أخوه سليمان فأساء معاملة موسى واستصفى أمواله.

الفصل الثالث.

امارة الأندلس بعد موسى

٢٨ - أمراء الأندلس حتى قيام الدولة الأموية :

حفلت الفترة التي تلت الفتح الاسلامي للأندلس - وامتدت حتى قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨هـ - بالأحداث الجسام والاضطرابات . ومع أن هذه الفترة لا تزيد على ٤٧ عاماً فقد تبدل خلالها الحكم قرابة ٢١ مرة . ولئن نتوقف طويلاً عند أحداث هذه الفترة ، وإنما سنكتفي بالإشارة الى بعض الحوادث التي تركت أثراً في تاريخ الأندلس فيما بعد .
أورد صاحب كتاب أخبار مجموعة الأندلسي في آخر كتابه لائحة بأسماء أمراء الأندلس ومدة حكم كل منهم :

طارق بن زياد :	من رجب ٩٢هـ (نيسان ٧١١) حتى رمضان ٩٣ (حزيران ٧١٢) حتى جاء موسى .
موسى بن نصير :	من رمضان ٩٣هـ (حزيران ٧١٢) حتى صفر ٩٥ (تشرين الأول ٧١٣) .
عبد العزيز بن موسى :	قتل في رجب ٩٧ (آذار ٧١٦) .
أيوب بن حبيب اللخمي :	حتى ذي الحجة ٩٧هـ (آب ٧١٦ م) :

الحرب بن عبد الرحمن الثقفي :

حتى رمضان ١٠٠ هـ (آذار
- نيسان ٧١٩م).

السمح بن مالك الخولاني :

رمضان ١٠٠ هـ حتى قتل في
معركة طولوزه في ذي الحجة
١٠٢ هـ (حزيران ٧٢١م).

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (بالوكالة) :

حتى صفر ١٠٣ هـ (آب
٧٢١م).

عنبسة بن سحيم الكلبي :

توفي في شعبان ١٠٧ هـ
(كانون الثاني ٧٢٦م) وقد
استولى على قرقشونة ونيم
حتى شوال ١٠٧ هـ (شباط
- آذار ٧٢٦م).

عذرة بن عبد الله الفهري (بالوكالة) :

حتى ربيع الأول ١١٠ هـ
(كانون الأول ٧٢٨م)

يحيى بن سلمة الكلبي :

حتى شعبان ١١٠ هـ (كانون
الأول ٧٢٨م)

حذيفة بن الأحوص القيسي :

حتى المحرم ١١١ هـ (نيسان
٧٢٩م)

عثمان بن أبي نسعة الجذامي :

حتى ذي القعدة ١١١ هـ
(شباط ٧٣٠م).

الهيثم بن عبيد الكلابي (وقيل الكناني) :

حتى صفر ١١٢ هـ
(آذار - نيسان ٧٣٠م).

محمد بن عبد الله الأشجعي :

حتى رمضان ١١٤ هـ (تشرين
أول عام ٧٣٢) قتل في معركة
بواتيه (بلاط الشهداء).

عبد الرحمن الغافقي . (للمرة الثانية) :

حتى شوال ١١٦ هـ (تشرين
ثان ٧٣٤م)

عبد الملك بن قطن الفهري :

حتى صفر ١٢٣ هـ (كانون
ثان ٧٤١م).

عقبة بن الحجاج السلولي

- عبد الملك بن قطن (للمرة الثانية) : حتى ذي القعدة ١٢٣ (أيلول ٧٤١م).
- بلج بن بشر الفشيري : حتى شوال ١٢٤ هـ (آب ٧٤٢).
- ثعلبة بن سلمة العاملي : حتى رجب ١٢٥ هـ (أيار ٧٤٣م).
- أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي : حتى رجب ١٢٧ هـ (نيسان ٧٤٥).
- ثوابة بن سلمة الجذامي : حتى المحرم ١٢٩ هـ (أيلول ٧٤٦).
- يوسف بن عبد الله الفهري : من ربيع الثاني ١٢٩ هـ (كانون الثاني ٧٤٧) واستمر في الحكم حتى دخول الأمير الأموي عبد الرحمن الأول في ١٠ ذي الحجة ١٣٨ هـ (أيار ٧٥٦م).

٢٩ - ولاية عبد العزيز بن موسى :

تابع عبد العزيز بن موسى أعمال الفتح في اسبانيا بعد سفر أبيه ، وتزوج بأجيلونا زوجة رودريك ، وأبنته على رواية ، فراجت إشاعات كثيرة عن تصرفات صدرت عن عبد العزيز ، فثار عليه بعض قادة جيشه وقتلوه غيلة وهو في المسجد . وتختلف الروايات في أسباب مقتله ، ولكن أقربها الى التصديق هي القائلة إن سليمان ابن عبد الملك أساء معاملة موسى بن نصير ، وخاف أن يتحرك ابنه عبد العزيز ، فكلّف بعض ثقاته باغتيال عبد العزيز . ويبدو أن هذا تكلم بسوء بحق الخليفة لما سمع بالمعاملة السيئة التي عامل بها أباه ، فقرر الخليفة التخلص منه ، وكان سليمان وعد من يقتله من ثقاته بأن يكون هو والي الأندلس بعده ، فاختر القتل أيبوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى ، ومن اشتركوا في مقتل عبد العزيز ، ولكن

الجيش لم يقبل بهذا الاختيار، وولى أموره عبد الرحمن الغافقي ريثما يصل الأمير الجديد^(١).

٣٠ - بدء تجمع الاسبان في منطقة استورياس في أقصى الشمال :

في عهد الحربين عبد الرحمن الثقفي عام ٩٨هـ، هرب من قرطبة أحد قادة الملك رودريكو، واسمه بلايا (Pelayo) ولبأ الى منطقة (استورياس)، فالتف حوله أهل المنطقة، وثاروا على المسلمين، وشرعوا في محاربتهم، وتقول الرواية الاسبانية^(٢)، إن بلايا ورجاله انتصروا في عام ٧٢٢م انتصاراً كبيراً على المسلمين الذين كانوا بقيادة رجل اسمه علقمة. وذلك في معركة (كوفادونجا) (Covadonga)، ومنذ ذلك اليوم بدأت عملية استرجاع الأراضي المحتلة من أيدي العرب، ويعتبر المؤرخون الاسبان هذه المعركة، معركة فاصلة وينسجون حولها قصة طويلة هي أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة، ثم مات بلايا في عام ١٣٣هـ وكان قد تسمى بلقب الملك، وملك بعده ابنه فافيل (Fafila)، ودام حكمه سنتين، وملك بعده الفونسو بن بيدروجد ملوك قشتالة المعروفين.

٣١ - تطلع المسلمين الى بلاد الفرنج :

أخذ المسلمون يتطلعون الى امتلاك فرنسا عبر جبال البيرينه (البرانس)، وخاف دوق اكيثانيا من مشاريع العرب فأراد إرباكهم بشقهم على أنفسهم وإشغالهم عنه، فأغرى أحد الزعماء البربر المستقرين في الشمال الاسباني، واسمه منزه، بالثورة على حكومة اشبيلية، ونتج عن ذلك ان ارسل عبد الرحمن الغافقي جيشاً ليضرب الثائرين، فهرب منزه ولبأ الى دوك اكيثانيا، ومنذ ذلك الحين اخذ المسلمون يفكرون في غزو فرنسا.

(١) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣.

(٢) عن تاريخ الفونسو الثالث - أوردها سانش البرنس في كتاب اسبانيا المسلمة ج ١ ص ٥٦.

٣٢ - معركة بواتيه (بلاط الشهداء):

اتجه الجيش الاسلامي بقيادة عبد الرحمن الغافقي ليطارد (منزّه) فأدرك الدوق (أودس) أنه لا قبل له بمقاومة هذا السيل الجارف فلجأ الى شارل مارتل، يرجو عونه. واجتمع الفرنج لصد المسلمين، فتقدموا اليهم، والتقوا بهم قرب مدينة (تور)، وكان الفرنج بقيادة شارل مارتل. وبعد معركة عنيفة جرت عام ٧٣٢م (١١٤هـ) قتل عبد الرحمن الغافقي، فاختلفت كلمة المسلمين، وقرروا الانسحاب ليلاً، ولم ينكسر المسلمون في الحرب.

٣٣ - الخلافات الداخلية:

تمتاز الفترة الأولى من تاريخ الحكم العربي في الأندلس بثلاثة أشياء:

- أ - بنشوب الخلافات بين العرب والبربر.
- ب - بتجدد الخلافات بين عرب اليمن وعرب الحجاز.
- ج - ببده تكون الدول الاسبانية في أقصى الشمال.

٣٤ - ثورة البربر في شمالي افريقيا:

ثار البربر في شمالي افريقيا في عام ١٢١هـ، بقيادة رجل منهم اسمه (ميسرة)، بتأثير مذهب الخوارج - على ما قيل -، ونفوراً من عسف والي افريقيا عبد الله بن الحبحاب، الذي أمر بتحصيل الجزية من المسلمين غير العرب. وجرت في تلك السنة معركة عنيفة بين العرب والبربر قتل فيها كثير من أشرف العرب، وانهمزوا أمام البربر أفحج هزيمة.

ولما علم الخليفة هشام بن عبد الملك بما حدث استاء، وقرر الانتقام من البربر لرد اعتبار الدولة، فجمع جيشاً كبيراً من عرب الشام، قدرته الروايات بأربعين ألف رجل، وعهد بقيادته الى كلثوم بن عياض القشيري. ولما وصل كلثوم الى افريقيا انضم الى الجيش العربي فيها، ولكن التفاهم بين الجيشين لم يكن على ما يرام، إذ إن العرب في افريقيا كانوا من الحجازيين الذي يكرهون أهل الشام، لما اقترفوه في

موقعة الحرة، فلما التقى العرب بالبربر في وادي (سبو)، لم يخلصوا النية، ولم يبذلوا الجهد في القتال، فانهزموا وتفرق جمعهم، وقتل كلثوم، فتولى قيادة جند الشام ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، بناء على وصية الخليفة.

تمكن بلج من النجاة مع حوالي ٧٠٠٠ رجل من جنده لجؤوا الى حصن سبتة فحاصروهم البربر وضيّقوا عليهم الخناق، حتى بلغ بهم الجهد والجوع غايتهما. فأخذوا يتصلون بعرب الأندلس، وكان يلي أمرهم رجل من يثرب، شهد موقعة الحرة، هو عبد الملك بن قطن الفهري، فرفض إمدادهم والسباح لهم بالعبور الى الأندلس.

٣٥ - ثورة البربر في الأندلس:

ولكن حدث في ذلك الحين ما حمل عبد الملك على تبديل موقفه من بلج وأصحابه، ذلك أن بربر الأندلس تحركوا إثر انتصار جماعتهم في افريقيا، وثاروا ثورة شديدة بعرب الأندلس، فأدرك عبد الملك خطر البربر على العرب، وعلى مستقبل الأندلس. فقرر أن يستعين ببلج وأصحابه في قتال البربر. لكنه أراد أن يستوثق من أنهم لن ينتهزوا الفرصة للبقاء في الأندلس، وكان من جملة الشروط التي وضعها عليهم، أنهم يحاربون البربر فإذا انتصروا عادوا الى سبتة خلال عام واحد، واشترط الشاميون من جهتهم أن يؤمن عبد الملك عودتهم الى افريقيا دفعة واحدة لا على دفعات متفرقة، لكيلا يفتك بهم البربر. فقبل الجانبان الشروط، وقدم الشاميون عشرة من زعمائهم رهائن لعبد الملك ضماناً للوفاء بالشروط.

وفي عام ١٣٣هـ عبر الشاميون المضيق الى الأندلس وانضموا الى جيش عبد الملك، الذي كان يقوده ابنه قطن وأمية. وسار الجيش العربي كله الى طليطلة حيث يتجمع البربر، وعلى ضفاف وادي السلط جرت معركة عنيفة قاتل فيها الشاميون قتال المستميت فانهزم البربر، وقتل منهم جمع كبير. وأخذ العرب في مطاردتهم والقضاء على تمردهم حتى أخذوا حركتهم تماماً، وعاد الجيش الى قرطبة، وحينما مرت السنة طالب عبد الملك الشاميين بالعودة الى افريقيا، تنفيذاً للشرط فطالبوه بتنفيذ ما اتفق عليه من نقلهم في السفن دفعة واحدة، فأعلن لهم عبد الملك عجزه عن ذلك، ثم حدث خلاف حاد بين الجانبين، أدى الى ثورة الشاميين بعبد الملك، وعزلهم إياه وتولية بلج بن بشر القشيري.

٣٦- تمرد جند الشام وقتل عبد الملك :

ولما أطلق الشاميون سراح الرهائن الذين قدموهم الى عبد الملك من قلعة الجزيرة الخضراء وجدوا أن أحدهم قد مات من الجوع وسوء المعاملة ، وأن الآخرين عانوا كثيراً من العنت والارهاق فطالبوا بلجاً بتسليمهم عبد الملك ليقتصوا منه ، ولما حاول بلج نفيهم عن ذلك هددوه بالعقاب أيضاً فاضطر الى دفعه اليهم ، فأساؤوا معاملته وقتلوه ، وهرب ابن عبد الملك ، قطن وأمّية ، الى شمالي اسبانيا وجمعا قوات كبيرة انضم إليها جميع الناقمين على الشاميين من عرب الحجاز والأندلسيين والبربر حتى قيل إن عدتهم بلغت مئة ألف رجل .

اتجهت القوة المناوئة للشاميين الى قرطبة فخرج إليهم بلج بجند الشام ، وكانوا قد بلغوا حوالي ١٢٠٠٠ رجل بعد أن انضم اليهم الناجون من معركة الشبان الافريقي . ولم يمهل الشاميون أعداءهم فأنقضوا عليهم وهم على مسافة مرحلتين من قرطبة ، وجرى قتال عنيف انتصر فيه الشاميون ، وتبعوا أعداءهم يقتلون ويأسرون ، وأصيب بلج في المعركة فمات متأثراً من جراحه .

٣٧- إمارة ثعلبة بن سلمة العمالي :

اختار جند الشام بعد بلج ثعلبة بن سلمة العمالي قائداً لهم ، وعاد العرب والأندلسيون والبربر المنهزمون من وقعة قرطبة فتنجموا في منطقة ماردة فخرج اليهم ثعلبة وقاتلهم قتالاً عنيفاً ولكنهم كانوا أكثر منه عدداً فاضطر الى الانحياز الى ماردة ، وأخذ يناجزهم القتال .

ولما حل عيد الأضحى قدر ثعلبة أن أعداءه سيتراخون في حراسة معسكرهم ، فقرر أن يباغتهم ، فلم يشعروا إلا والقوات الشامية تنقض عليهم من كل جانب فانهمزوا لا يلوون على شيء ، فسبى ثعلبة نساءهم وأطفالهم ، وعاد الى قرطبة ، يجر وراءه قرابة عشرة آلاف أسير . وكان ما قام به ثعلبة من سبى النساء والذرية عملاً لم يسبق له مثيل في تاريخ الاسلام حتى ذلك الحين . ولما تعاضمت الفوضى في الأندلس ، لجأ عربها الى حنظلة بن صفوان عامل الخليفة على افريقيا ، يرجونه لإرسال رجل من قبله يطيعه الجميع ، ويضع حداً لتمرّد جند الشام ، فراسل حنظلة الخليفة

هشام بن عبد الملك فأرسل اليهم أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي وهو من عرب اليمن .

وكان أول ما قام به أبو الخطار، هو أنه قسّم جند الشام الى فئات بحسب مناطقهم في سوريا، ووزعهم على المناطق الأندلسية، فأسكن جند دمشق في منطقة غرناطة، فسميت المنطقة باسم دمشق، وأنزل جند قنسرين (حلب) في منطقة جيان فسميت قنسرين، وأنزل جند حمص في منطقة أشبيلية فأسميت حمص، وأنزل جند فلسطين في منطقة شذونة، أما جند مصر فأنزلهم في منطقة مرسية (تدمر).

٣٨ - الخلافات بين اليمنية والمضرية :

كان العداء بين عرب اليمن وعرب الحجاز شديداً لم يذهب به الاسلام وتعاليمه، كما لم يذهب الاسلام بالعصية القبلية، التي كانت تسيطر على العقلية العربية في جاهليتها، واندلعت نار الخلاف فجأة بسبب حادث تافه وقع بين يمني ومضري، فلجأ اليمني الى أبي الخطار فأنصفه، واستاء المضري فلجأ الى الصميل ابن حاتم بن ذي الجوشن، زعيم المضرية، ولما ذهب الصميل الى أبي الخطار ليكلّمه في أمر المضري أساء اليمنيون الى الصميل وضربوه فخرج مغضباً، وذهب الى قومه يستصرخهم ويحرضهم على أبي الخطار واليمنية، ونشبت الحرب بين الجانبين في قرية شقندة (سيكوندة) غربي قرطبة فانتصر اليمنية وانسحب الصميل الى مقره في مدينة سرقسطة وأرسل أبو الخطار جيشاً يتعقب الصميل ويحاصره في سرقسطة، ولما علم المضريون في نواحي الأندلس بما قام به أبو الخطار أخذوا يتجمعون لنجدة الصميل وساروا الى سرقسطة فانسحب اليمنيون، ثم عمل الصميل على تأليف حلف بين المضرية وبين قبيلتي لحم وجذام، لمواجهة أبي الخطار فتم له ما أراد، وتحرك أبو الخطار ليضرب ثعلبة بن سلمة العاملي رئيس قبيلة لحم - وهو الذي قاد جند الشام بعد بلج - والتقى اللخميون بأبي الخطار عند نهر شريش فهزموه، وأسروه وحملوه مقيداً الى قرطبة . واثّر ذلك كثر الجدل والنزاع حول السلطة في الأندلس الى أن تم الاتفاق أخيراً بين اليمنيين والمضريين على أن تكون الامارة بالتناوب سنة لليمنيين وسنة للمضريين، وتسلم يوسف بن عبد الرحمن الفهري زعيم المضرية الامارة - وكان يعاونه فيها الصميل -، ولما انتهت السنة تجمعت اليمنية لتسلم الامارة فباغتهم يوسف

والصميل وقتلا منهم مقتلة كبيرة فتفرقوا .
واستمرت هذه القلاقل والاضطرابات بين الجانبين الى أن جاء عبد الرحمن بن
معاوية الأموي . وكانت هذه الفترة من أخطر الفترات التي مرت في تاريخ الأندلس
وأحلكها ، كما كانت فترة تجدد فيها نشاط الاسبان اللاجئين الى الشمال ، وأخذوا
يشنون الحرب على المسلمين وكونوا نواة دولة .

الفصل الرابع

حكم الأمويين في الأندلس

٣٩ - قيام الدولة الأموية في الأندلس :

حينما انهار حكم الأمويين في الشرق ، وكل بهم العباسيون أبشع تنكيل ، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الى شالي افريقيا ، واختفى عند أخواله البربر من قبيلة (نفزة) ، بعض الوقت ، ثم فكر في الاتجاه الى الأندلس ، لعله يجد فيها ما يرضي طموحه . وقد رأينا كيف كانت حالة الأندلس تغلي بالاضطرابات بين العرب والبربر من جهة ، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى . ولما كان جيش اليمينيين يحاصر الصميل في سرقسطة دخل دعاة عبد الرحمن الى الأندلس يثيرون الدعوة له ، ولما علموا بتحرك المضرية لنجدة الصميل ، اندس عدد من هؤلاء الدعاة بين المضرية ، ولما انسحب اليمينيون حاول الدعاة إقناع الصميل بالتعاون معهم لخدمة عبد الرحمن ، فقبل في بادئ الأمر ثم نكل مخافة ضياع الأمر من يديه . وعندئذ قرر الدعاة الاتجاه الى اليمينية ، فرحب اليمينيون بمقدم عبد الرحمن ، لعلهم يستطيعون عن طريقه استعادة نفوذهم ، فعبر المضيق ، ونزل حصن (طرش) ، وكان أكثر من فيه من الموالين للأمويين .

وأخذ عبد الرحمن يعمل على تتبع الحوادث ، وجمع الأنصار ، ولما علم أن يوسف والصميل قد خرجا الى الشمال لقمع بعض الفتن ، تحرك هونحو قرطبة ، محاولا الاستيلاء عليها ولكن زوجة يوسف طيرت إليه خبراً فعاد مسرعاً .

وقف الجيشان بفصل بينهما نهر الوادي الكبير عند قرية (المصارة) ، يوم ٩ ذي الحجة من عام ١٣٨ هـ (٧٥٥م) وأخذ عبد الرحمن يعمل الحيلة ، فراسل خصومه يقول لهم بأنهم في أيام عيد الأضحى ، ولا يجوز فيها سفك الدماء ، وأنه على استعداد لمفاوضتهم إذا مكّنوه من اجتياز النهر الى جهتهم ، فقبل يوسف والصميل ذلك ،

وأرسلا إليه المؤن والعلف . ولما اجتاز عبد الرحمن الى الجانب الآخر قال لخصومه إنه لا مجال للمفاوضة إلا إذا قبلوا به أميراً على الأندلس ، باعتباره صاحب الحق الشرعي ، فكانت الحرب .

وأبدى عبد الرحمن في المعركة جرأة وحسن تدبير بهر بها زعماء جيشه ، وقاتل جيش عبد الرحمن بين يديه قتالا شديداً ، فانهزم يوسف والصميل ، ودخل عبد الرحمن قرطبة ، وتسلم مقاليد الأمور فيها في ذي الحجة من عام ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) . وكان ذلك بدءاً لحكم الأسرة الأموية في الأندلس الذي استمر حتى عام ١٠٣١ م .

٤٠ - عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٣ هـ ، ٧٥٥ - ٧٨٩ م) :

حكم عبد الرحمن الأندلس قرابة ٣٥ سنة ، قضى أكثرها في الحروب والامداد والثورات ورد المغيرين الى أن وطّد أركان الملك ، وقضى على المؤامرات الداخلية والخارجية ، وكان من أخطر ما واجهه عبد الرحمن إبان حكمه ، هو محاولة أبي جعفر المنصور ، القضاء على الحكم الأموي عن طريق عامله في إفريقية العلاء بن مغيث ، فقد هبّ العلاء حملة على الأندلس في عام ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) ، واتصل ببعض الناقمين على الأمويين ، فتحركوا في طليطلة بقيادة هشام بن عبد ربه الفهري ، ودعوا لبني العباس ليشغلوا عبد الرحمن ، بينما تكون حملة العلاء قد وصلت الجزيرة . ولكن عبد الرحمن تمكن من حصار الثائرين في طليطلة وإخضاعهم ، وقبض على هشام وصلبه ، ومزق شمل أصحابه ، وما إن عاد الى قرطبة حتى علم بأن العلاء بن مغيث قد نزل في إقليم باجة مع ٧٠٠٠ رجل داعياً لبني العباس ، وانضم إليه جمع من الناقمين على الأمويين والمؤيدين للعباسيين ، فسار عبد الرحمن إليه ولكنه لم يستطع مهاجمته لما رآه من كثرة جموعه فأنحاز الى حصن قرونة (كرونا) وتقدم العلاء فحاصر عبد الرحمن مدة شهرين ، حتى كادت أقوات عبد الرحمن تنفذ ، فقرّر هذا خوض معركة مصير ، ودعا رجاله وحرضهم وحثهم على القتال والثبات ، وطلب إليهم أن يقاتلوا قتال من لا يطمع في عودة . فحرقوا أجفان سيوفهم ، وخرجوا وراءه وباغتوا المعسكر العباسي ، فهزموا من فيه وقتلوا العلاء وكثيراً من رجاله ، وأسروا الكثيرين منهم . وأمر عبد الرحمن بالعلاء فحط جثمانه بالملح ، وجمع آذان القتلى ، وكتب عليها أسماء أصحابها ، ولفها بالعلم العباسي ، وأمر بها فحملت الى الحج ، لتوضع هناك حينئذ يكون أبو

جعفر في الموسم . ونقلت اللقافة الى المنصور فاستاء كثيراً واضطرب ، وأدرك أنه أمام خصم عنيد فقال : « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا بحراً يقينا شره » .
وجرت محاولة لا تقل خطراً على حكم الأمويين ، عن محاولة ابن المغيث ، إذ اتفق عدد من الأمراء المسلمين الناقمين ، مع شارلمان ملك فرنسا ، لتوقيت عمل مشترك ، لضرب عبد الرحمن لكن المؤامرة أحبطت إذ استطاع عبد الرحمن القضاء على الأمراء المسلمين واحداً بعد واحد ، قبل أن يصل شارلمان ، ووصل شارلمان بعد القضاء على حلفائه ، فامتنعت عليه سرقسطة ، وخف عبد الرحمن بجيشه لرفع الحصار عنها ، وفي ذلك الحين وردت أنباء مقلقة عن تحركات الساكسون في الشمال فانسحب شارلمان مخذولاً ، بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وتحرك البشكنس ، وهم أهل إقليم الباسك يهاجمون الجيش الفرنسي في ممرات الجبال الضيقة حتى أهلكوا أكثره ، وعرض عبد الرحمن على شارلمان عقد صلح بينهما فتم ذلك ، وهكذا ثبت عبد الرحمن دعائم حكم الأسرة الأموية ، وقطع الخطبة للعباسيين ، وأعلن استقلاله عنهم في السنة العاشرة لامارته ، وتتابع الأمراء الأمويون في حكم الأندلس بعد عبد الرحمن حتى عام ١٠٣١م . وستورد هنا بإيجاز كبير لمحة عن تاريخ أمراء هذه الأسرة إتماماً للغاية .

٤١ - هشام بن عبد الرحمن (١٧٣ - ١٨٠هـ ، ٧٨٩ - ٧٩٦م) :

توفي عبد الرحمن دون أن يسمي ولياً لعهد ، وكان ابنه سليمان وهشام غائبين عن قرطبة ، حينما اشتد عليه المرض ، فسلم خاتمه لابنه الثالث عبد الله (ويعرف بالبلنسي) ، وكلفه تسليمه الى من يحضر من أخويه قبل الآخر ، فلكل منهما في نظر أبيه ميزات مفضلة : الأول لسنه ومحبة أهل الشام له ، والثاني لعلمه وفضله ، ورجاحة عقله ، فوصل هشام الى قرطبة قبل سليمان فسلمه اخوه الخاتم ، وبايعه ، وتمت له البيعة .

كان هشام تقياً ورعاً ، سعدت الأندلس أيام حكمه واستقر الحكم في عهده . وقد تحرك عليه بعض أفراد الأسرة الأموية ، يريدون منازعته الحكم ، وفيهم أخوه الأكبر سليمان ، ففضى على حركاتهم ، وحارب المالك النصرانية ، التي وسعت رقعتها إبان الاضطرابات السابقة في المملكة الإسلامية .

وغزا هشام فرنسا بجيش قوامه مئة ألف رجل، ليشغل الناس بالجهاد عن الفتن، فأسرع الناس الى الانضواء تحت لوائه، فسار بهم، وحارب في طريقه الامارات الاسبانية، ثم دخل فرنسا (عام ١٧٧هـ، ٧٩٢)، وكان شارلمان مشغولاً في جهات الدانوب، فقام كونت طولوز بحشد قوات فرنسا، وجرت معركة عنيفة بين قرقشونة (أركاسون)، وبين أربونة، انتصر فيها المسلمون نصراً كبيراً وعادوا مكتفين بما حققوه من نصر وغنائم، وقد سر الفقهاء في عهد هشام، وزاد نفوذهم وعظم شأنهم وكان أكثرهم حظوة عنده الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، تلميذ الامام مالك.

٤٢ - الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ، ٧٩٦ - ٨٢١م):

وُلِّي الحكم بن هشام الامارة بعد موت أبيه، وكان شاباً حياً للترف واللهو، ولكنه كان حازماً وشجاعاً مستنيراً الفكر واسع الأفق أراد إضعاف سلطة الفقهاء ليوازن بين سلطة الدولة وبين سلطتهم، فأخذ يتولى الأمر بنفسه، ويعهد بالأعمال الى رجال من ثقافته، لذلك نغم عليه الفقهاء، وتحدثوا عنه بالسوء في أوساط الشعب حتى كرهته العامة، واسمعه قارص الكلم في أثناء مروزه في أحياء المدينة، وقيل إنهم رجموه بالحجارة في بعض المرات. وفي أحد الأيام تجمع عدد من الفقهاء ووجهاء البلد في دار محمد بن القاسم المرواني، وكانت غاية المجتمعين العمل على إسقاط الحكم، وتولية المرواني، فأعلموه بأنهم راضون عن جعله أميراً للأندلس فتردد في القبول، ولم يقطع في الأمر، وطلب أن يمهلوه ليلة للتفكير ولكنه خرج بعد انصرافهم الى الأمير الحكم وأعلمه بما جرى، وليتأكد الحكم من صدق الرواية، أرسل مع محمد بن القاسم أحد خاصته، فوضعه في غرفة مجاورة، ولما عاد الجماعة إليه في اليوم التالي ليعطيهم جوابه النهائي قال لهم إن الموضوع خطير وسألهم عن أساء أصحابهم ومؤيديهم فسموهم له فوافقهم ابن القاسم على أن يكون التنفيذ في يوم الجمعة التالي. ولكن الحكم قبض على المتآمرين قبل موعد التنفيذ بيوم، وصلبهم على باب القصر، وكانت عدتهم ٧٢ رجلاً، فزادت نعمة الشعب على الحكم، وأدى ذلك إلى انفجار العامة يوم الرض.

٤٣ - يوم الرض:

ازدادت نعمة العامة على الحكم بسبب اعدامه زعماء المؤامرة، ثم جاء

الحادث الذي أطلق الشرارة الأولى للفتنة في عام ١٩٨ هـ (٣١ آب ٨١٣ م)، على أثر خلاف بين جندي من حرس الحكم وبين أحد الصناع، فتطور الأمر إلى الثورة، فقد كان الحكم يحيط نفسه بقوة من الجند غير العرب، لذلك سماوا بالخرس لجهلهم اللغة العربية، وفي أحد الأيام اتجه أحد هؤلاء الجنود إلى قين (صانع سيوف) في حي الريض في قرطبة ليصلح سيفه، ولكن القين لم يفهم منه ما يريد فوقع بينهما جدل أدى إلى قتل الجندي القين، فثار الناس بالجندي وقتلوه، وتحركت العامة بتحريض الفقهاء إلى قصر الأمير الحكم، وحصروه فيه، ولما وجد أن حرسه لا يكفي لدفع المهاجمين استدعى بعض قواته وأمرها بالتوجه إلى حي الريض لاشعال النار فيه، ولما رأى العامة الذين يهاجمون القصر النار تشتعل في بيوتهم، أسرعوا إليها لانقاذ عائلاتهم ولكنهم ما إن وصلوا إلى قنطرة قرطبة حتى أطبق عليهم الجنود من خلفهم ومن أمامهم، وقتلوا منهم مقتلة كبيرة.

وبعد ذلك أمر الحكم أهل الريض بالخروج من الأندلس، وترك الريض خلال ثلاثة أيام، تحت طائلة عقوبة الموت، وخرب الحكم الريض وعفى أثره، لذلك سمي في التاريخ بالحكم الريضي، وسار الأندلسيون النازحون إلى مدينة فاس في مراكش، وسار آخرون في السفن إلى الاسكندرية واستولوا عليها، ثم هاجمهم والي مصر من قبل المأمون وأخرجهم فاتجهوا إلى جزيرة كريت، واستولوا عليها، وأقاموا لهم دولة فيها عرفت باسم الدولة الكلبية.

٤٤ - ثورة طليطلة على الحكم:

كانت طليطلة عاصمة القوط، وفيها نبلاء المملكة، وقد ترك الفتح الاسلامي الحرية تامة للنصارى في ممارسة دينهم وعاداتهم، ولغتهم، وجعل لهم شبه حكم ذاتي لحل مشاكلهم الخاصة، فهدؤوا حيناً من الزمن، ولكن لما بدأت التحركات في القرن التاسع ضد الأمراء الأمويين، في المناطق الأخرى مثل سرقسطة وماردة؛ تحركت طليطلة بتأثير شاعريدعى غريب أو (غارب) الطليطلي، فكان يحرك الأهليين، ويدفع بهم إلى التمرد، وكانت قرطبة تنظر إلى هذه الحركات في طليطلة نظرة خاصة، لما كانت عليه طليطلة من حصانة وكثافة سكان، وبقيت الأمور على هذا الشكل حيناً من الدهر إلى أن توفي غريب، فأراد الحكم القضاء على الفوضى في

المدنية، فولى على طليطلة رجلاً من وشقة، وهي من مناطق طليطلة، وأرسل الحكم إلى أهل طليطلة رسالة يقول فيها، إنه اختارهم حاكماً منهم، وفوض إليه أمر المدينة، وأمر الحكم الوالي الجديد ببناء قصر كبير فيه حفرة واسعة، حتى إذا انتهى من بنائه أرسل إلى الحكم يستنجد به لارسال جيش لدفع خطر غزو خارجي مهدد. ولما تم بناء القصر أرسل الوالي كتاب الاستنجد إلى الحكم، فأرسل الحكم ابنه على رأس جيش، مع اثنين من وزرائه، وأعطاهم كتاباً يسلمونه إلى الوالي وفيه تعليماته الواجب عليه تنفيذها. وتقضي التعليمات السرية بأن يتظاهر الوالي بأنه يود إقامة حفلة على شرف الأمير قائد الجيش، ويدعو أهل طليطلة لحضورها وللتفرج على القصر الجديد، فحضر الكثيرون من أهل طليطلة، فكان الحرس يدخلونهم واحداً واحداً من باب يفضي إلى حيث توجد حفرة، وقد قام عليها جلادون يضربون أعناق المارين أولاً بأول ويلقون بأجسادهم في الحفرة، ثم شعر الطليطليون بالمكيدة فهربوا، ولكن بعد أن قتل منهم ٥٣٠٠ شخص، وهذأت طليطلة بعد أن أخذ الحكم رهائن من أهلها أقامهم في قرطبة وكان ذلك في عام ٨٠٧م^(١).

شغلت هذه الاضطرابات والفتن الأمير الحكم عن تحركات الاسبان في الشمال، فتوسعوا على حساب المناطق الاسلامية، ولكن الحكم بعد أن تفرغ من مشاكله الداخلية، شرع في محاربة أعدائه في الشمال فغزاهم أكثر من مرة وظفر بهم، وتوفي الحكم في عام ٢٠٦هـ (٨٢١م)، فخلفه ابنه عبد الرحمن.

ومن طريق ما يروى عن شعاعته ورباطة جأشه :

يروى مؤلف كتاب أخبار مجموعة قصة طريقة عن الحكم بن هشام تظهر شعاعته ورباطة جأشه رأينا إرادتها، ترفيهاً عن أنفس القراء الكرام :

حينما ثار أهل الريض بالحكم، وأحدقوا بقصره، وحصروه وجنده، حتى أشرفوا على اقتحام القصر، قاتل الحكم بنفسه، وقاد الجند في صراعهم مع المهاجمين، ولما تخرج وضع الجند وخاف من أن يُغلبوا وأن يصل إليه العامة، دعا وهو في غمرة المعركة، بالغالية والمسك فتطّيب، فوقف الغلام الذي حل إليه الغالية يتفرج

١ - عن كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٨.

على ما يفعله سيده مشدوهاً، ولم يملك نفسه عن فضولها، فسأله عما يفعل في هذه اللحظة الحرجة جداً.

فزجره الحكم، وقال له: إن هذا هو يوم الفصل في حياته، وإن عليه أن يستعد للموت، أول للنصر، وإنه يريد أن يقتل أن يتميز رأس الحكم عن رؤوس الآخرين الذين سيقضون معه نحبهم».

٤٥ - عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ، ٨٢١ - ٨٥٢ م):

كان عبد الرحمن الثاني، عاقلاً حازماً معتدلاً في لونه وشدته، واسع الثقافة والأفق، محباً للعلم والعمران، وقد ورث ملكاً ممهّداً فأنصرف إلى العمران والعلوم فارتقت الأندلس في عهده رقيّاً كبيراً، وأصبحت من دول العالم الكبرى المتقدمة، حتى عد تاريخ عبد الرحمن الأوسط تاريخاً للحضارة الأندلسية في مطلع عهدها وبدءاً لتكون الطابع الحضاري للأندلس العربية.

وقد وفد في عهد عبد الرحمن الأوسط، على الأندلس عدد من الشخصيات العلمية والأدبية والفنية من المشرق فوجدوا أن الميدان رحب أمامهم، وأحسن الأمير استقبالهم، ويسرهم سبل العيش، وعرف مقامهم وفضلهم، فتوافد عليه أهل العلم والأدب من كل صوب، وكان من القادمين عليه المغني زرياب، والعالم الطبيعي العباس بن فرناس، وأخذ المترفون من الأندلسيين يقلدون المشاركة في حياتهم من مأكّل وملبس، وتخفف عبد الرحمن من القسوة التي عامل بها أبوه الفقهاء، فقرب يحيى بن يحيى الليثي، الذي حرك ثورة الریض، وجعله مشرفاً على القضاء في الأندلس، وتزايد نفوذه بعد ذلك كثيراً.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط بدأ يظهر نفوذ الجوّاري في القصور، ونفوذ الغلمان والمهاليك الذين كانوا يسمون بالصقالية، فقد حاولت طروب جارية الأمير عبد الرحمن، وهي فتاة جليقية، الاستفادة من تعلق الأمير بها لتلعب دوراً في الحياة السياسية، وفي جعل ولاية العهد لابنها عبد الله، فأخذت تعمل على كسب الأنصار من حولها، وتجمع المال لتشتري المؤيدين، ويقال إنها حاولت دس السم للأمير بمعاونة الغلام نصر كبير الصقالية، ولكنها لم تفعل^(١).

١ - عن كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٩٦.

٤٦ - غارات النورمند :

غزا النورمنديون لأول مرة ساحل الأندلس، في عهد عبد الرحمن (عام ٢٠٩هـ - ٨٢٤م)، وكان أول نزولهم في منطقة لشبونة عند مصب نهر التاج، فجمع المسلمون وردوهم فساروا الى مصب النهر الكبير ثم صعدوا في التهرينبون المدن والقرى الواقعة على ضفتيه، حتى بلغوا اشيلية فنهبوا، وحاربهم المسلمون وتغلبوا عليهم بعد جهد، فأنحدروا جنوباً، وعبروا مضيق جبل طارق، الى السواحل الأندلسية الشرقية فنهبوا وأسرروا، ثم عادوا بعد أن أغاروا على سواحل فرنسا الجنوبية، فتصدى لهم المسلمون في العودة وهزمهم، وقام النورمنديون بعد ذلك بغارات أخرى على شاطئ الأندلس، فأيقظت غاراتهم فكرة انشاء أسطول بحري للأندلس، يدفع عنها غارات المغيرين.

٤٧ - الاضطرابات الداخلية :

حدث في عهد عبد الرحمن الثاني حادثان يلفتان النظرهما :

- ١ - تجدد الخلافات بين اليمنية والمضرية في منطقة مرسية، واستمرارها سبع سنوات الى أن قضى عليها الأمير.
- ٢ - تحرك المستعربين (الاسبان النصارى المقيمين بين المسلمين) في قرطبة بدافع من الحاسة الدينية.

فقد ساء بعض رجال الدين ما رأوه من ذوبان الاسبان في بحر الحضارة العربية، حتى ان الكثيرين منهم أهملوا لغتهم، وأقبلوا على اللغة العربية يتعلمونها، ويتقنون آدابها، ويحفظون أشعارها، وأصبح الكثيرون من هؤلاء المستعربين يتسمون بأسماء عربية، ويتشبهون بالعرب في حياتهم الخاصة، لذلك قدر هؤلاء المستأون أن أفضل طريقة لرد الاسبان الى لغتهم وقوميتهم، وإبعادهم عن العرب وحضارتهم، هي خلق هوة بين الشعبين، وإثارة موجة من الحاسة الدينية لدى الاسبان المستعربين، وإثارة عداة ديني، فقام نوع من هستريا الاستشهاد في سبيل الدين، مع أنهم لم يلاقوا من أحد من الحكام أو من أحد المسلمين، ما يزعجهم في حياتهم الخاصة ولا في معتقدهم. وأخذ رجال الدين المتحمسون يدفعون بالحكام الى قتلهم وذلك

بإقدامهم علي شتم النبي محمد عليه السلام ، فكانت الكنيسة تعتبر من يقتل من هؤلاء شهيداً ، فيدفع ذلك غيره الى الاقتداء به ، وتكرر الحادث أكثر من مرة ، ولكن لم تكن له نتيجة كبيرة لأن الكثيرين من رجال الدين المسيحيين ، وكبار المستعربين ، شعروا بسخف هذه الحركة واستنكروها وأيدوا السلطة الحاكمة في موقفها منها .

٤٨ - محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ ، ٨٥٢ - ٨٨٦ م) :

لم يعين عبد الرحمن الثاني ولياً لعهد فليامات كتم الغلمان الصقالبة خبر موته ، واجتمعوا للتشاور فيما بينهم فيمن يولسونه . فارتأى بعضهم تولية ابنه عبد الله بن طروب ، ولكن هذا الرأي استبعد ، ثم رُئي أن أصلح واحد للامارة هو ابنه الأمير محمد فأقسم الجميع على ذلك ، وأرسلوا الى محمد خبراً به ، فخاف وظن الأمر مكيدة ، ولكن الرسل طمانوه وسلموه خاتم الامارة ، وحملوه الى القصر ، ودعوا الناس لبيعته فبايعوه .

٤٩ - تحرك طليطلة :

لما اعتلى الأمير محمد عرش قرطبة ، بدأت الاضطرابات في طليطلة ، وثار أهلها ، وقبضوا على اليهم ، ولم يقبلوا باطلاق سراحه ما لم تطلق قرطبة رهائن الطليطليين فيها ، فأرسل الأمير أخاه الحكم بن عبد الرحمن عام ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) ، لمهاجمة طليطلة وإخضاعها . فرمم قلعة رباح ، واتخذها مقراً للقوة المحاصرة ، لكنه لم يستطع كسر شوكة الطليطليين ، وفي نفس السنة أرسل الأمير جيشاً الى الشمال ، نصب له أهل طليطلة كميناً وهزموه . وفي المحرم من عام ٢٤٠ هـ (حزيران ٨٥٤ م) ، سار الأمير محمد بنفسه الى طليطلة فاستنجد أهلها بملك جليقية الاسباني فأرسل اليهم أخاه على رأس جيش كبير ، ولكن الأمير محمد تمكن من هزم الطليطليين والجيش الاسباني في معركة وادي السلط (جوادا ساليت) ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، حتى قيل إن عدد القتلى بلغ ثمانية آلاف .

ثم أقام الأمير محمد قوات كبيرة في قلعتي رباح وطليرة لمراقبة تحركات أهل

طليلة وحصرهم ، وكرر الأمير إرسال الجيوش الى طليلة لاختضاعها حتى أرقها الحصار والقتال واضطرت الى طلب الأمان في عام ٢٤٥هـ (نيسان ٨٥٩م) ، فمنحها إياه وعفا عن الثائرين .

وفي أواخر أيام الأمير محمد بدأت سلطة الحكومة المركزية تضعف على حكام الأقاليم ، ووجدت زعامات محلية مهدت السبيل فيها بعد لحكم ملوك الطوائف ، وكان من أهم البيوتات المتزعمة ، بنوحجاج ، وهم عرب من قبيلة لخم ، كان لهم نفوذ في أشيلية ، حتى إنهم شكلوا ما يشبه الدولة لهم فيها ، وبقوا على استقلالهم الى أن قضى عليه الخليفة الناصر .

وتحرك المولدون الأندلسيون ، ووسطوا نفوذهم على ولاية الغرب ، جنوبي غربي شبه الجزيرة وتسلموا السلطة في عدد من المدن والولايات ، وحدثت ثورتان خطيرتان على وحدة المملكة وعلى سيادة الحكومة المركزية :

١ - الثورة الأولى قام بها عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، وهو من أهالي قرطبة ، وقد أزعج هذا الثائر سلطة الامارة ، وتحالف مع الاسبان ، حتى اضطرا الأمير الى أن يقطعه مدينة بطليوس (باداخوس) ، يقيم فيها مع جماعته ، على أن لا يدفع الجزية لقرطبة .

٢ - والثانية قام بها عمر بن حفصون ، في جنوبي البلاد في منطقة ريا (مالقة) ، واتخذ هذا الثائر مقره في حصن بويشتر (بوابستر) ، المنيع وعظم أمره وهزم كثيراً من القسوات الحكومية التي أرسلت لقتاله وبلغ من جرأته أنه عاث في أراضي قرطبة نفسها ، واستمرت ثورته الى أن تمكن الخليفة الناصر من القضاء عليها .

٥٠ - المنذر بن محمد (٨٨٦ - ٨٨٨م) :

كان المنذر شجاعاً بأسلاً حصيفاً ، وافر العزم والهمة ، وقد عهد إليه أبوه بقيادة عدد من الجيوش التي كانت توجه لقتال المنشقين أو لقتال الاسبان ، فكان يظهر كثيراً من الفطنة والحزم والجرأة ، وكان يوم توفي أبوه في منطقة مالقة يحاصر عمر بن حفصون ، فلم يتعجل السير الى قرطبة ، وإنما رتب أموره على مهل وسار الى قرطبة فتولى الأمر وقضى أكثر حكمه في ملاحقة الثائرين . واستطاع المنذر خلال عام واحد من حكمه أن يخضع أكثر المنشقين ، ولوطالت به حياة لما بقى خارج عن سلطة

الخلافة في جميع الأندلس، ولكن المثنية عاجلته وقيل انه مات مسموماً، وكان أكبر همه إخضاع عمر بن حفصون، الذي أعلن له الخضوع ثم غدر بقوات الأمير فأقسم المنذر على متابعة قتاله حتى القضاء عليه، وسار بجيش كبير الى معقل بن حفصون، ببشتر وشدد الحصار عليه حتى كاد يأخذه، لكنه مرض مرضاً شديداً، بعد ٤٣ يوماً من الحصار، فاستدعى أصحابه أخاه عبد الله لتولي قيادة الجيش وتدير الأمور، ولكنه حينها وصل الى المعسكر كان المنذر قد مات.

٥١ - عبد الله بن محمد (٨٨٨ - ٩١٢ م):

تولى عبد الله الامارة بعد وفاة أخيه المنذر، فخضع له ابن حفصون بعض الوقت ثم عاد ينقض ما تم الاتفاق عليه وعاث في المناطق المجاورة حتى وصل الى ضواحي قرطبة، وفي عهد عبد الله كثر عدد الخارجين على الدولة، وحدثت ثورة في أشبيلية، وظهر من السلطة المركزية عجز عن القضاء على هذه الثورات التي كادت تعصف بالأندلس ووحدتها، وكان من نتيجة هذه الثورات أن ضعفت هيبة الدولة الخارجية، وتلاشت قوتها، ووجد الاسبان، الذين كانوا يتحينون الفرص في الشمال، ذلك مناسبة سعيدة للتوسع على حساب المسلمين.

٥٢ - عبد الرحمن الثالث (أو الناصر لدين الله) (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ، ٩١٣ - ٩٦١ م):

لم يعهد الأمير عبد الله بولاية العهد لأحد من أبنائه وإنما اختار حفيده عبد الرحمن بن محمد، لما لاحظته فيه من كرم الخصال، وعلو الهمة، فقام عبد الرحمن بالعبء الثقيل خير قيام، ولم شعث الأندلس، وجدد وحدتها تحت تاج الخلافة، حتى بلغت في عهده أعظم ما وصلت إليه من قوة واتساع، وقيل إن عبد الله أوصى بالامارة لحفيده عبد الرحمن، لأنه كان أمر بقتل ابنه وولي عهده محمد - والد عبد الرحمن - لظنه أنه اشترك في مؤامرة عليه، فأراد أن يكفر عن خطئه. (١)

وقد حقق عهد عبد الرحمن للأندلس الأمور التالية:

١ - عن كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٢١.

- ١ - القضاء على جميع الثورات والانتفاضات وإعادة وحدة الأندلس .
- ٢ - استرجاع الكثير من الحصون مما كان الاسبان قد استولوا عليه في العهود السابقة ، وإجبار أمراء الممالك الاسبانية على الاعتراف ببعجزهم عن مقاومته ، ودفع بعضهم الجزية له .
- ٣ - القضاء على الزعامات العربية السابقة وتحطيمها لأنها اعتبرت من أسباب الخلافات والاضطرابات .
- ٤ - مد سلطان الأندلس الى الشمال الإفريقي والاستيلاء على أجزاء من المغرب لمواجهة الخطر الفاطمي .
- ٥ - تحويل الامارة الى خلافة ، وهو ما كان يحجم عنه أسلافه .

٥٣ - الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ، ٩٦١ - ٩٧٦ م) :

خلف الحكم أباه الناصر، وكان محباً للعلم والأدب، جمع مكتبة لم تجتمع قبله لغيره واستقدم كثيراً من كبار العلماء مثل أبي علي القاسي، وتابع سياسة أبيه نحو الممالك الاسبانية في الشمال، وأخضع الأدارسة الذين طمعوا في الاستقلال في المغرب .

٥٤ - هشام الثاني (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ ، ٩٧٦ - ١٠١٩ م) :

توفي الحكم تاركاً ابناً صغيراً دون العاشرة، هو هشام الثاني وكان قد عهد إليه أبوه بحضور عدد من كبار رجال الدولة والجيش وأخذ عليهم العهد والايمان بأن يوفوا له بما فيه، وفي بادئ الأمر كانت السلطة الفعلية بيد وزيره جعفر المصحفي، لكن محمد بن أبي عامر، تمكن بجهده ودأبه من اكتساب عطف صبح، والد الخليفة هشام، فأزاح المصحفي، وانفرد بتدبير الأمور، وحجر على الخليفة حتى أصبح لا يراه أحد إلا برأيه وإذنه، وأظهر ابن أبي عامر - وتلقب بالمنصور - من الشجاعة والحكمة والدراية بأمور الدولة والحرب، ما بقي ذكره خالداً على كر العصور، وتابع الفتوحات في أراضي الامارات الاسبانية حتى بلغ أقصى الشمال، وهي أراض لم تطأها قبله قدم عربي، وأخضع جميع الامارات الاسبانية، وفرض الجزية عليها،

ووسع حدود المملكة في المغرب، وضرب بيد من حديد على يد كل من سولت له نفسه الانتفاض داخل البلاد. واتخذ جيشاً من الصقالبة والبربردوخ به اعداءه، فكان عهده استمراراً لعهد الناصر، ولكن إذا كان المنصور قد جمع السلطة بيديه، وحقق للأندلس ما لم يحققه الأمراء السابقون، فإنه قد استنّ سنة غير حميدة، وفتح الطريق واسعة أمام الغامرين الطامعين بالاستئثار بالحكم، وحرك الغيرة والحسد في نفوس الزعامات المحلية. وسنجد أن المثال الذي ضربه ابن أبي عامر، كان من أسباب تقسيم الأندلس إلى دويلات وإمارات متخاصمة ومتشاحنة، أنهكت قواها في الخلافات والخصومات واستعان الكثيرون من أولئك الغامرين، بأعدائهم الأسبان، لقتال اخوانهم المسلمين فأفاد الأسبان من تلك الخلافات والقتال، للاندفاع نحو الجنوب وطرد المسلمين من أرضهم شيئاً فشيئاً حتى كانت الكارثة.

٥٥ - الخلافة بعد هشام الثاني (١٠٠٩ - ١٠٣١ م):

وبعد موت المنصور بن أبي عامر عام ١٠٠٢، وقعت أحداث أدت إلى عزل الخليفة هشام بن الحكم المستنصر عام (١٠٠٩ م)، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الخلافة مسرحاً للنزاع والقتال بين أبناء الأسرة الأموية، يحركهم الطامعون في السلطة من القادة المغامرين، حتى بلغ عدد الخلفاء ثمانية، في الفترة الواقعة بين ١٠٠٩ و ١٠٣١ م وهوتا ريخ سقوط الدولة الأموية في الأندلس، وهم:

محمد الثاني الملقب بالمهدي :

محمد الثاني الملقب بالمهدي :

(١٠٠٩ - ١٠٠٩ (مرة أولى)	(محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر)
	سليمان الملقب بالمستعين بالله :
(١٠١٠ - ١٠١٠ (مرة أولى)	(سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر)
(١٠١٠ - ١٠١٠ (مرة ثانية)	محمد الثاني (المهدي) :
(١٠١٣ - ١٠١٣ (مرة ثانية)	هشام بن الحكم المستنصر:
(١٠١٦ - ١٠١٦ (مرة ثانية)	سليمان المستعين بالله :
	عبد الرحمن الرابع الملقب بالمستظهر:
١٠٢٣ - ١٠١٦	(عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار)

(محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر
والد الشاعرة ولادة) (ويعرف بالمستكفي) ١٠٢٣ - ١٠٢٣
يحيى بن علي الادريسي (الحسني):
(وهو من غير البيت الأموي) ١٠٢٥ - ١٠٢٦
هشام الثالث:
(وهو آخر خليفة أموي) ١٠٢٦ - ١٠٣١ م

الفصل الخامس

سقوط الدولة الأموية وبدا الانهيار

٥٦ - بلغت الأندلس أيام الخليفتين الناصر والحكم المستنصر أوجها في القوة والازدهار والتقدم العلمي والصناعي والزراعي والعمراني، وفي اتساع رقعة الدولة، وفي زيادة عدد السكان، حتى أصبحت قوة عظيمة بحسب حسابها في ذلك العصر.

ولما تقدمت السن بالخليفة الحكم المستنصر، وشعر بالضعف يدب الى جسمه، أخذ يفكر في الطريقة التي يستطيع بها أن يضمن انتقال الملك الى ابنه الطفل هشام ليخلفه من بعده ولم يكن له انذاك من العمر أكثر من عشرين سنين. وكان الحكم يدرك خطورة اختيار طفل للملك في دولة عظيمة مثل الأندلس، يحيط بها الأعداء من كل جانب، ففي المغرب كانت تقوم منافسة قوية بين دولة الأندلس ودولة الفاطميين، وكانت بينهما حروب كثيرة، وتوثب للانقضاض.

وفي الشمال كانت ممالك النصارى تقبع مستكربة في جحورها، متحفزة للانقضاض على الأندلس حينما تلوح لها الفرصة المواتية.

وكان الحكم لا يجهل أن الملك الحقيقي سيكون بين أيدي بعض رجال خاصته باسم الخليفة الطفل. كان الحكم ينعى على خلفاء بني العباس عهدهم بالملك الى أبائهم القاصرين، وتقديهم أياهم على أهل الرأي والحزم والدراية من اخوتهم وأبناء عمومتهم، وكان يعتبر تسلط الجند والغلمان والماليك على الخلافة في بغداد من نتائج سياسة الخلفاء في تفضيل ولاية الأبناء القاصرين العاجزين عن ادارة الدولة، وترجيحهم على من يصلح للحكم من أهل الرأي والحزم والدراية من الاخوة وأبناء العمومة.

ولكن الحكم قد يكون خضع في ذلك لرأي زوجته أصبح أم ابنه الوحيد هشام، وتعامى عن النتائج الخطيرة التي يمكن أن يحدثها اختياره هذا، فأقدم عليه. وكان هذا الاختيار بدءاً لانهيار ذلك الملك العظيم. وتناالت الأحداث المحزنة بعد ذلك

سراعاً بصورة لم يكن يتوقعها أحد، ولا يمكن أن يتوقعها أحد.

٥٧- وبدأ الانشقاق في الحكم حينما توفي الحكم، وقبل أن يدفن كان في قصره ألف من الغلمان الصقالبة يشكون حرس الخليفة الخاص، ويتزعمهم الغلامان الخصيان فائق وجؤذر، فحكم هذان الغلامان خبر وفاته، وفكرا في استبعاد الغلام هشام عن الخلافة، وتولية عمه المغيرة. وباشرا في العمل في سبيل انجاح مشروعهما فاستدعيا الوزير جعفر المصحفي، وأخبراه بموت الحكم، وبما فكرا فيه من استبعاد هشام الطفل، وصرف الأمر إلى عمه المغيرة، مخافة أن يصبح الخليفة الطفل العوبة في أيدي المتسلطين من رجال الحاشية، وسببا في التنافس بينهم لا يعرف أحد عواقبه ونتائجه.

فأظهر المصحفي أنه يوافقهما على خطتهما، وأنه سيبدل جهده في سبيل تحقيقهما وانجاحهما، ولكنه حينما خرج من عندهما بدأ فوراً في العمل على إحباط خطتهما، فجمع القادة، وكبار رجال الدولة وأخبرهم بموت الخليفة، وبما يبيتته الخصيان الصقالبة من صرف الأمر إلى المغيرة، واستبعاد ابن الخليفة الراحل هشام، فرأى بعض المجتمعين أن يقتل المغيرة فوراً ودون إبطاء لافساد خطة الصقالبة، فتولى محمد بن أبي عامر القيام بهذه المهمة.

ولما علم فائق وجؤذرا بما تم من قتل المغيرة، واجماع قادة الجيش ورجال الدولة على مقاومة خطتهما، اعلنا للحاجب جعفر المصحفي عن موافقتها على ماتم من تدبير، واعتذرا إليه عما كانا اقترحاه من تنحية الطفل ولي العهد، لأنها كانا يظنان أن صرف الأمر إلى رجل راشد أفضل لمصلحة الدولة، ومصلحة الرعية.

وبويح هشام المؤيد بالخلافة في ٣ صفر ٣٦٦هـ (أول تشرين الأول ٩٧٦م). وقد يكون الغلامان الصقليبان اقترحا استبعاد هشام خوفاً من أن تصيح الدولة تحت قبضة جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر، لما يعرفانه من أثر الأول على الخليفة الصغير وعلى محمد بن أبي عامر، ولما يعرفانه من أثر ابن أبي عامر على أم الخليفة صبح، إذ قد يؤدي ذلك إلى زوال نفوذ الصقالبة أو إضعافه. أما إذا نجحنا في تولية المغيرة فإنه سيترف لها وللصقالبة بهذه اليد، ويزداد نفوذهم في الدولة، وقد أشار المصحفي إلى ذلك وهو يعرض الأمر على رجال الدولة والجيش، إذ قال لهم إنه إذا ولي المغيرة واستبد الصقالبة بالأمر قضى عليهم وعلى دولتهم وعلى نفوذهم، وإن المغيرة والصقالبة سينكلون بهم. فكل واحد من الفرقاء المتنافسين كان يتصرف وفقاً لما

تمليه عليه مصلحته الخاصة، وحسبما يقدر أنه الأكثر فائدة ومنفعة له ولزمته، ولم يكن أحد يفكر في مصلحة الخلافة والدولة والإسلام..

وكان جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر يتصرفان ويعملان معاً ويداؤاً واحدة لاحتياط مشاريع خصوصيهما الرامية الى استبعاد ولي العهد الطفل عن منصب الخلافة، وتولية رجل آخر من بيت الخلافة، ولكن كلا من الرجلين المتنافسين القويين كان يشعر في قرارة نفسه أن خصمه ومنافسه الحقيقي هو صاحبه وشريكه في الخطة، وأن الصراع المرير سيكون بينهما نفسيهما لينفرد واحد منها بالسلطة دون شركة من أحد. وكان كل منهما يدرك أن مفتاح نجاحه يكمن في الفوز بثقة أم الخليفة صبح ورضائها وموافقتها على أن تكون معه على خصمه العنيد.

وكان ابن أبي عامر أكثر دهاءً، وأبعد نظراً، وأكثر طموحاً، فكان يعمل منذ زمن بعيد على كسب ثقة صبح ونساء القصر، ومحبة تلميذه الطفل هشام. وكان ابن أبي عامر يحاول التظاهر بالولاء والاخلاص للمصحفي، ليصرف أنظاره عما يدبره هو من خطط للوثوب على الأمر، والاستبداد به من دون خصمه.

وأخذ ابن أبي عامر يتتبع جذور المصحفي فيقطعها واحداً اثر واحد بصمت وحذر، ولما علم أن المصحفي يريد خطبة ابنة غالب قائد الحدود الشمالية - وكان غالب إذ ذاك أقوى رجل عسكري في الأندلس كلها - سارع هو الى التقرب من غالب، وخطب إليه ابنته لنفسه، وأرسل اليه كثيراً من التحف والهدايا، فقبل غالب أن يزوجه ابنته، وفسخ خطبتها الى المصحفي، وبذلك أصبحت كفة ابن أبي عامر هي الأرجح في الصراع بين الرجلين.

وثمكن ابن أبي عامر - في آخر المطاف - من أن يبعد المصحفي عن الحكم، وقبض عليه وزجه في السجن، وقد حاسبه حساباً عسيراً حتى استصفى أمواله وأموال أسرته، ومات المصحفي في سجنه.

ثم رأى ابن أبي عامر أن يتخلص من صهره غالب، لينفرد بالسلطة وحده دون أن يشاركه أحد فيها، ودون أن يكون لأحد فضل عليه أو دالة بما سبق أن قدمه إليه من عون وأيد.

وبعد معركة عنيفة انهزم فيها ابن أبي عامر، توفي غالب وهو في المعركة، فعاد ابن أبي عامر يكر بجيشه، فانهزم أنصار غالب، وكسب ابن أبي عامر المعركة، وأصبح سيد الموقف في الأندلس بدون منازع.

ورأى ابن أبي عامر أن يصرف نظر الشعب عن استبداده بالسلطة ، وأن يقضي على التملل الذي أخذ يبدو واضحاً في أوساط البيت الأموي ومن يواليهم ، وفي أوساط كثيرة من الشعب ، فرأى أن أفضل ما يساعده في القضاء على ذلك كله هو أن يشغل الناس في الجهاد ضد الاسبان ، فأخذ يشن عليهم حرباً كل ستة أشهر (الصوائف والشواتي) في مطلع الصيف ، وقبل حلول الشتاء ، حتى أرهق الاسبان أرهاقاً كبيراً ، وانتزع منهم كثيراً مما كانوا استرجعوه من المسلمين خلال السنين الخوالي ، ووصل في جهاده مناطق لم يصلها قبله قائد عربي . وعكف على تقوية الجيش بمتطوعة من البربر من شمالي افريقيا ، وبمرتزقة من النصارى ، حتى غدا جيشه من أقوى جيوش العالم في ذلك العصر . فهدأ الناس ، وسكن أعداؤه خوفاً من صولته وبطشه .

ولكن اذا كان المنصور - وهذا هو اللقب الذي اتخذته ابن أبي عامر لنفسه - قد جمع السلطة بيديه الحديديتين ، وحقق للأندلس ما لم يحققه الأمراء والخلفاء السالفون ، فإنه قد استن سنة غير حميدة ، وفتح الطريق واسعة أمام المغامرين الطامعين في الاستثثار بالحكم ، وحرك الغيرة والحسد في نفوس الزعامات العربية التي عمل على تحطيمها لتثبيت حكمه ، وفي نفوس الزعامات المحلية ، وسنجد فيما بعد أن المثال الذي ضربه ابن أبي عامر ، كان من أسباب تقسيم الأندلس الى دويلات وإمارات متخاصمة ومتشاحنة ، انهكت قواها في الصراعات والخصومات ، واستعان الكثيرون من الحكام المسلمين بأعدائهم الاسبان في قتال خصومهم المسلمين ، فأفاد الاسبان من تلك الخلافات والافتتال ، للاندفاع بقوة نحو الجنوب ، والاستيلاء على المدن والحصون والقلاع ، بدون حرب في كثير من الأحيان ، سلمها إليهم الحكام المغامرون ثمناً لعونهم في قتال أعدائهم من المسلمين .

واستمر الاسبان في اندفاعهم نحو الجنوب حتى كانت الكارثة الكبرى فيما

بعد .

الفصل السادس

سقوط الدولة العاصرية والتنافس في السلطة

٥٨ - مات المنصور ابن أبي عامر في ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ (١١ آب ١٠٠٢م) في مدينة سالم وهو عائد من غزوته الصيفية للأراضي الإسبانية في الشمال، بعد أن دام حكمه سبعة وعشرين عاماً.

وخلفه في منصبه ابنه عبد الملك، وكان شهياً حازماً كآبيه، فأتبع خطوات أبيه في تشديد قبضته على الخصوم والمنافسين والأعداء في الداخل، وفي شن الحرب المستمرة على النصارى في الشمال، حتى لم يترك لأحد من هؤلاء وهؤلاء فرصة للكيد له ولا للدولة.

ولم يطل حكم عبد الملك فقد وافته منيته قرب قرطبة في ١٦ صفر ٣٩٩هـ وهو يتجهز للخروج على رأس الجيش لمجاهدة الأسبان، وقيل إن أخاه الأصغر عبد الرحمن هو الذي دس له السم.

وتولى الحكم بعده أخوه الأصغر عبد الرحمن، وكانت أمه ابنة سانشو ملك الأسبان (ولذلك تسميه الرواية العربية «بسنجول») وهي كلمة محرفة عن اللفظة الإسبانية سانشويلو (أي سانشو الصغير).

وكان عبد الرحمن صغير السن، قليل الخبرة والدراية في شؤون الحكم، ولم تكن له همة أبيه وأخيه، ولا بعد نظرهما، ولا هيئتهما على الجند والمنافسين، فبدأ حكمه بأن حمل الخليفة الضعيف هشاماً المؤيد على أن يجعله ولي عهده، فأصدر الخليفة بذلك منشوراً، وكان عمل عبد الرحمن هذا هو العامل الأكبر في القضاء على الدولة العاصرية، إذ الب الناس جميعاً عليه، واجتمع المروانيون جميعاً على عداته ومقاومته، واستماتوا في ذلك لكيلا يخرج الأمر من بيتهم.

وأراد عبد الرحمن أن يشغل الناس بحديث الجهاد، فتجهز للغزو، وخرج في وقت شديد البرودة، كثير الأمطار، وكانت الأنهار في أوج فيضانها، فتحصن الأسبان

فِي حَصُونِهِمْ ، فَاضْطَرَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى الْإِرْتِدَادِ إِلَى طَلِيطَةَ خَائِبًا ، لَمْ يَدْخُلْ حَرْبًا ، وَلَمْ يَحْقُقْ نَصْرًا ، وَقَدْ انْهَكَتِ الْأَنْوَاءُ الْجَيْشِ وَبَعَثَتْهُ :

وَفِي طَلِيطَةَ جَاءَتْهُ الْأَنْبَاءُ بِأَنَّهُ انْقَلَبَ حَدَثٌ فِي قَرْطَبَةَ ، وَأَنَّ الثَّوَارَ اسْتَوْلَوْا عَلَى قَصْرِ آلِ عَامِرٍ فِي مَدِينَةِ الزَّاهِرَةِ ، فَأَخَذَ الْجُنْدُ وَالْمُتَطَوِّعَةُ يَنْفَضُونَ عَنْهُ . وَحَاوَلَ مِنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ قَادَةِ الْمُرْتَزِقَةِ ثَنِيَّةً عَنِ الْإِتِّجَاهِ إِلَى قَرْطَبَةَ لِكَيْلَا يَقَعَ فِي قَبْضَةِ أَعْدَائِهِ ، وَنَصَحُوهُ بِأَنْ يَسِيرَ مَعَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَإِنْ بَقِيَ لَدَيْهِمْ يَرْقُبُ الْأَحْدَاثَ وَتَطَوَّرَهَا ، رِيثَمَا يَنْجَلِي الْمَوْقِفُ فَأَبَى ذَلِكَ ، وَسَارَ إِلَى قَرْطَبَةَ ، وَفِي ظَنِّهِ أَنَّهُ مَتَى اقْتَرَبَ مِنْ قَرْطَبَةَ خَافَ الْمَشَاغِبُونَ ، وَتَفَرَّقُوا فَرَجَعَ هُوَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَةٍ ، وَدَخَلَ قَرْطَبَةَ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ صَغِيرَةٍ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ الثَّائِرُونَ وَأَعْدَمُوهُ فَوْرًا .

٥٩ - وَكَانَ عَلَى رَأْسِ حُرُوكَةِ الْمَقَاوِمَةِ ضِدَّ حُكْمِ بَنِي عَامِرٍ ، مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامٍ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ ، وَكَانَ وَالِدُهُ هِشَامٌ قَدْ اشْتَرَكَ فِي مُؤَامَرَةِ عَلَى الْمَنْصُورِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فَأَعْدَمَهُ .

وَقَبِضَ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامٍ عَلَى الْخَلِيفَةِ الضَّعِيفِ هِشَامِ الْمُزِيدِ ، وَسَجَنَهُ فِي قَصْرِهِ ، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ خَلِيفَةً مَكَانَهُ ، وَتَسَمَّى بِلقَبِ الْمُهْدِيِّ ، وَجَعَلَ وَلِيَّ عَهْدِهِ ابْنَ عَمِّهِ سُلَيْمَانَ ابْنَ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ النَّاصِرِ .

وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَمْسُكَ الْخَلِيفَةُ الْجَدِيدُ الْأَمْرَ بِرِيدٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَيَسْهَرُ عَلَى تَقْوِيمِ مَا فَسَدَ خِلَالَ فِتْرَةِ حُكْمِ بَنِي عَامِرٍ ، وَجَمَعَ النَّاسَ حَوْلَ الْخِلَافَةِ ، وَحَوْلَ حُكْمِ بَنِي أُمِيَّةٍ ، الَّذِي كَادَ النَّاسُ يَنْسُونَهُ فَإِنَّ الْخَلِيفَةَ الْجَدِيدَ أَخَذَ فِي الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ ، وَنَاصَبَ الْبَرِّ بَرَّ الْعَدَاءِ ، وَأَخَذَ فِي التَّحْرِيفِ عَلَى قَتْلِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ الْحُكْمِ وَالْقُوَّةِ فِي دَوْلَةِ بَنِي عَامِرٍ ، وَسَجَنَ وَلِيَّ عَهْدِهِ سُلَيْمَانَ بْنَ هِشَامٍ لِنَصْحِهِ إِيَّاهُ فِي الْإِعْتِدَالِ وَالْإِسْتِقَامَةِ ، وَالسَّهْرِ عَلَى حُرْمَةِ الْحُكْمِ وَمُصْلَحَةِ الشَّعْبِ .

وَخَافَ هِشَامُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ النَّاصِرِ - وَالِدَ وَلِيِّ الْعَهْدِ الْمَسْجُونِ - مَغْبَةَ تَصَرُّفَاتِ الْمُهْدِيِّ عَلَى الْحُكْمِ ، وَعَلَى مُسْتَقْبَلِ الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ ، وَمِنْ أَنْ يَفْلَتَ زِمَامُ الْأُمُورِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ ، فَأَخَذَ يَسْعَى فِي خَلْعِ الْمُهْدِيِّ ، وَأَنْضَمَ إِلَيْهِ الْبَرُّ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِرِيُّونَ ، وَمِنْ كَانُوا يَتَوَجَّسُونَ خِيفَةً مِنَ الْحُكْمِ الْجَدِيدِ ، وَأَنْطَلَقَتِ الثَّوْرَةُ ، وَأَحَاطَ الثَّائِرُونَ بِقَصْرِ الْخَلِيفَةِ ، فَقَاتَلَهُمْ جُنْدُ الْخِلَافَةِ وَأَنْتَصَرَ عَلَيْهِمْ ، وَأَبَادَهُمْ بِإِبَادَةٍ شَبِهَ تَامَةً .

ثُمَّ أَخَذَ يَتَّبِعُ الْمُنَاوِثِينَ لَهُ ، وَصَبَّ نَقْمَتَهُ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ عَلَى الْبَرِّ ، فَحَرَّضَ

العامّة على قتلهم، وجعل لرؤوسهم ثمناً يدفعه لمن يقتلهم، فانطلقت العامة والدهماء يقتلونهم في كل مكان وجدوهم فيه. فانسحب البربر شمالاً إلى قلعة رباح، وصحبهم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، فالتفوا حوله وبايعوه بالخلافة، وتلقّب بالمستعين، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم، ويستعدون للعمل لمقاومة المهدي.

٦٠ - الاستعانة بالإسبان والثلثم الغالي :

وفكر البربر ومعهم المستعين بالاستعانة بالإسبان في الشمال، فأخذوا في مفاوضة سانشو غرسيه قشتاله على إمدادهم بالجند، وتمّ الاتفاق بينهم على ذلك على أن يتعهدوا بالتنازل له عن عدد كبير من القلاع والحصون والمدن مقابل عونه لهم.

وعلم الفتى واضح - قائد الحدود الشبالية - وهو من الغلمان العامريين، بما يدور من اتصالات بين البربر والنصارى، وما يجري من مفاوضات على العون النصراني للمسلمين، وعلى تنازل المسلمين للنصارى عن الحصون والقلاع، فاستاء من ذلك، ونادى في مدن الثغور بأن تقاوم مشاريع البربر، وأن تمتنع عن تقديم العون والمؤن إليهم، واتصل بالمهدي في قرطبة يعلمه بتأييده وعزمه على مقاومة البربر، فأيده المهدي وأمدّه ببعض القوات.

وضاقت الأمور بالبربر فلجؤوا إلى حليفهم سانشو أمير قشتاله، فأمدهم بما طلبوه من مال ومؤن وقوات.

وسار واضح بقواته لقتال البربر، فالتقى بهم قرب قلعة هنارس (أو قلعة السلام) في ذي الحجة ٣٩٩هـ فدارت الدائرة على واضح، وهزم جيشه، فأتجه إلى قرطبة على رأس أربعمئة ممن نجوا من المعركة.

ولاحقهم المستعين والبربر، ومعهم القوات القشتالية بقيادة أمير قشتاله سانشو غرسيه حتى وصلوا ضواحي قرطبة في ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ، وخرج الفتى واضح في قوات قرطبة لقتالهم، وبعد معارك عنيفة انهزم جيش قرطبة، فارتد إلى المدينة، وتحصن فيها بعد أن قتل منه قرابة عشرة آلاف رجل.

ولاحق البربر المنهزمين، وحاصروا قرطبة وضيقوا الخناق عليها. وحل الخوف الخليفة المهدي على اظهار الخليفة المخلوع هشام المؤيد، وأعلن أنه نائبه ويعمل

باسمه ، ودعا البربر وحلفاءهم المسلمين الى طاعته . فلم يقبل البربر بذلك ، وتمسكوا بخليفتهم سليمان المستعين . ولما ضاقت الأمور بالمهدي وأهل قرطبة ، هرب المهدي سراً الى طليطلة ، ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر قصر الخلافة ، ودخل أثره المستعين في ١٥ ربيع الأول ٤٠٠ هـ وبايعه الناس بالخلافة .

ودخل أمير قشتالة مسلماً على المستعين ومهنشاً بالنصر ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، ووعد البربر بتسليمه الحصون والقلاع والمدن المتفق عليها ، متى استقرت الأمور ، فترك قوة صغيرة من جيشه في قرطبة وعاد الى بلاده .

وأخذ المهدي في طليطلة ينظم أموره ويجمع القوات ، وانضم إليه الفتى واضح ، وأعلنت مدن الثغور ولاءها له . فسار المستعين بقوات البربر وقرطبة الى طليطلة ، ودعا أهلها الى طاعته ، فأبوا عليه ذلك ، فسار الى مدينة سالم فلم تفتح له أبوابها فازتد الى قرطبة .

٦١ - استنجد الطرف الآخر بالإسبان والشروط المبهظة :

وسار الفتى واضح الى طرطوشة ، وأخذ يتصل بأمر برشلونة الكونت ريموند باريل ، وأمير أورقلة الكونت ارمنجور ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة ، وكان من جملة الشروط الباهظة التي تم الاتفاق عليها :

- ان يقدم المسلمون لقواتها الطعام والمؤن .
- ان يتقاضى كل من الأميرين مئة دينار في اليوم .
- ان يتناول كل جندي دينارين في اليوم .
- ان يستولي النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم .
- ان يستولوا على مدينة سالم وتكون لهم .

وسار النصارى فورا الى مدينة سالم فاحتلوها بعد أن أخلاها الفتى واضح من أهلها المسلمين .

وسار الأميران النصرانيان مع واضح الى طليطلة فانضم اليهم المهدي ، وسارت قواتهم مجتمعة الى قرطبة . وخرج المستعين اليهم بقوات البربر وقوات قرطبة ، والتقى الفريقان على مسافة حوالي العشرين كيلومترا شمالي قرطبة في منتصف نزال

سنة ٤٠٠هـ، وقاتل البربر قتالا شديدا بقيادة زاوي بن زيري وقتلوا الكونت ارمنجو أمير أورقلة.

واخترقت قوة من الفرنج صفوف البربر، واقتربت من مكان المستعين في المؤخرة فظن أن الهزيمة قد وقعت ففر هاربا، فانكشفت مؤخرة البربر وارتدوا الى الزهراء فاخذوا أهلهم وأموالهم وساروا نحو الجنوب، وفرسليمان نحو الشرق ووصل الى شاطبة.

ودخل المهدي وواضح ومن معهما من الفرنج قرطبة، وجدد المهدي البيعة لنفسه، وعين واضحا لحجابه.

ولاحق المهدي البربر يريد القضاء عليهم نهائيا، ومعه جيش من الفرنج يبلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل، فأدركهم قرب الجزيرة الخضراء في ذي العقدة سنة ٤٠٠هـ، ونشبت هناك معركة بالغة العنف قاتل فيها الجانبان قتالا شديدا، فدارت الدائرة على المهدي وحلفائه، وقتل من الفرنج وحدهم ثلاثة آلاف.

وارتد المهدي الى قرطبة منهزما، وعاد النصاري الى بلادهم، فلاحق البربر المهدي الى ناحية (رية)، ولما علم المستعين بالنصر أسرع الى معسكر البربر بمن معه من القوات، ووصل المهدي الى قرطبة وياشر في تحصينها، ولكن الفتى واضح ومن معه من الغلمان العامريين أخرجوا الخليفة هشاما المؤيد من محبسه، وقبضوا على المهدي وأتوا به بين يدي الخليفة وضربوا عنقه وكان ذلك في ذي الحجة من عام ٤٠٠هـ. ودعوا البربر والمستعين الى طاعة الخليفة المؤيد فلم يقبلوا بذلك.

٦٢ - التسابق الى طلب العون من الإسبان :

وحاول البربر وسليمان المستعين أن يحصلوا على معونة سانشو غرسيه أمير قشتالة، وعرضوا عليه أن يسلموه جميع الحصون الأمامية التي كان الحكم والمنصور قد افتتحها، مقابل عونه لهم على استعادة قرطبة ففضل سانشو أن يحصل على ما يريد من الخليفة الشرعي هشام المؤيد، وأرسل رسله الى قرطبة يطالبون الخليفة المؤيد بتسليمه جميع الحصون والقلاع التي سبق أن افتتحها الحكم والمنصور، ووصل رسله الى قرطبة بينما كانت قوات البربر تدخل الزهراء غربي قرطبة في ربيع الأول ٤٠١هـ، فاضطر الخليفة الى الرضوخ الى مطالب سانشو مخافة أن يتفق عليه مع

البربر والمستعنين، وتم عقد مجلس من الفقهاء والقضاة وكتب محضر بذلك، وسلم الى سانشو أكثر من ٢٠٠ موقع وحصن وقلعة ومدينة.

وشدد البربر بحصارهم على قرطبة حتى ضاق الأمر بالناس، وشعروا بوضوح أن الأمر ميثوس منه فأراد الهرب الى الشمال، وعلم القادة وجوه الناس بعزمه فقتلوه ونهبوا دوره وأمواله.

وحاول الخليفة والقرطبيون التفاهم مع البربر فلم يقبلوا ذلك، ثم قتل القرطبيون حباسة بن ماكسن - ابن أخي قائد البربر زيري بن زاوي - في إحدى المعارك، فهاج البربر لقتله وهاجموا المدينة هجوما عنيفا، وقاتل أهل قرطبة بشجاعة وعنف، ولكنهم هزموا ودخل البربر قرطبة.

وطلب القاضي ابن زكوان والفقهاء الأمان من المستعنين ومن البربر للناس، فمنحهم إياه لقاء دفع مبالغ كبيرة من المال. ودخل البربر المدينة فقتلوا الشيخ والأطفال وخربوا الدور واغتصبوا النساء.

وفي اليوم التالي دخل المستعنين قرطبة فأحضر الخليفة هشاماً المؤيد بين يديه وعنفه على ما كان منه، ويقال إنه حبسه ثم قتل بعد ذلك.

٦٣ - وتسلم البربر السلطة الفعلية في قرطبة، فأراد سليمان المستعنين أن يعيدهم عن العاصمة بشكل لا يوحشهم، ولا يبدو وكأنه محاولة للتخلص منهم، فأقطعهم مقاطعات الاندلس، وأعطى عليا والقاسم ابني حمود (وهما من نسل الامام الحسن بن علي) ولاية الثغور في المغرب، فولى عليا على سبته والقاسم على طنجة والجزيرة الخضراء.

وطمع علي بن حمود في الاستيلاء على الخلافة، وأخذ يبحث عن حلفاء ومؤيدين له بين الناقمين على حكم البربر وسليمان المستعنين، فوجد ضالته في الغلمان العامريين، الذين فر أكثرهم الى شرقي الاندلس خوفاً من بطش البربر، وأقاموا لأنفسهم امارات مستقلة يمتنعون فيها.

فأخذ علي بن حمود في مكاتبة خيران كبير الفتيان العامريين في المرية، وحثه على التعاون لانقاذ البلاد من البلاء الجاثم على صدرها، ونشر رسالة زعم أن الخليفة هشاماً المؤيد أرسلها إليه يطلب فيها انقاذه من أسر البربر، ويوصى إليه فيها بالخلافة من بعده. ولما استوثق علي من ولاء الفتيان العامريين في الجنوب، عبر من سبته الى الجزيرة الخضراء في أواخر عام ٤٠٦ هـ وسار بقواته الى مالقة فسلمها إليه واليها

عامر بن فتوح، وسار خيران بقواته من المرية والتقى بعلي في المنكب، وانجهمت القوات المتحالفة صوب قرطبة، وانضم اليها أثناء زحفها زاوي بن زيري وحبوس الصنهاجي في قوات بربر غرناطة.

وخرج سليمان المستعين لقتالهم، وجرت معركة شديدة انهزم فيها جند المستعين، وقتل كثير من رجاله، ووقع المستعين وأبوه وأخوه أسرى، ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في ٢٨ المحرم ٤٠٧ هـ (تموز ١٠١٦ م) وبحث علي عن الخليفة هشام المؤيد فلم يجده، ولما علم انه قتل، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه. وبويع له بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله.

وبمقتل سليمان المستعين انطوت آخر صفحة في حياة الدولة الأموية بعد أن حكمت ٢٦٨ سنة.

٦٤ - حاول علي بن حمود فرض هيبة الدولة على الجميع، والزّم الزعماء البربر باحترام القانون، فانضبطت الأمور، واطمأنت النفوس بعض الشيء.

ولما لم يجد خيران العامري - الذي آزر عليا بن حمود - هشاما المؤيد حيا، خاف على نفسه من الخليفة الجديد، وسار بقواته الى شرقي الاندلس، الذي كان في أيدي اخوانه الفتيان العامريين. وأعلن انشقاقه عن علي بن حمود، وبايع بالخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر، بعد أن استدعاه إليه من جيان، ولقبه بالمرتضى. وانضم إليه المنذر التجيبي قائد الثغر الأعلى ومعه عدد من المرتزقة النصارى، وانضم اليه عدد من مدن الشرق مثل بلنسية وشاطبة وطرطوشة.

وسار الخليفة المرتضى بمن اجتمع إليه من القوات لقتال البربر المواليين لعلي بن حمود في غرناطة، فلقبهم زاوي بن زيري أمير غرناطة، وقتلهم قتلاً شديداً فمزق جموعهم، وسقط المرتضى قتيلاً وهرب خيران والمنذر التجيبي بمن نجا من قواتهما الى المرية، وعاد الفرنج نحو بلادهم في الشمال.

٦٥ - وبعد هذه المعركة تقسمت الاندلس الى امارات متصارعة متنافسة تتسابق الى الاستعانة بالاسبان في حربها مع اخوانها، وتدفع لهم ثمناً لعونهم مدناً وحصوناً وقلاعاً وأموالاً، واستمر الحكماء في خصوماتهم وتقاتلهم وبحثهم عن ارواء أحقادهم من اخوانهم وتسابقوا في طلب العون من النصارى، والمبالغة في بذل الثمن الغالي المبهظ للاسبان، للحصول على هذا العون الكاذب، حتى أصبحوا جميعاً، ودون استثناء، تابعين للحكام الاسبان، يدينون لهم بالولاء، وينحضون لهم خضوعاً تاماً، ويدفعون

إليهم الجزية، ولم يبذل الاسبان في سبيل تحقيق هذا التفوق على المسلمين كبير عناء. ولا تحملوا توضحيات تذكر، ومن الغريب أن يكون الحكام المسلمون ذوي أنفة وعزة ونخوة في حروبهم بعضهم مع بعض، لا يغتفرون زلة، ولا يعفون عن هفوة أو ذنب ولو كان ذلك الذنب تافهاً حقيراً، مع أنهم كانوا في نفس الوقت كراماً متسامحين تجاه أعدائهم الاسبان يحمّلون الأذى والمهانة بصدور رغبة لا يثرون لمهانة تلحق بهم ولا يتأثرون لذلة أصابتهم، ولا يتململون من تجاوز على حرمت شعبهم وكراماته وأعراضه.

جهلاً علي وجبنا عن عدوهم لبست الخلتان الجهل والجبن

لقد كان هؤلاء الطامعون في الحكم أعداء لأنفسهم ولأهلهم ولدينهم وقومهم، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأذلم وأخزاهم، وفضلوا مصالحهم الخاصة على مصالح أمتهم ودينهم فعاقبهم الله بأن انتزع الملك من أيديهم، وسلط عليهم أعداءهم. وبددوا أموال الأمة في بناء القصور والتسابق إلى اقتناء الجواري وفي الانفاق على الملاذ وتحصيل أطايب العيش فضعفوا أمام أعدائهم، فاستولى الأعداء على ما في أيديهم من مال وحكم، وأنزروا في زوايا النسيان من التاريخ.

الفصل السابع

قيام دول الطوائف وتعاظم الخطب على المسلمين

٦٦ - حينما انتهى عهد الدولة الأموية في الأندلس في عام ٤٠٧هـ (١٠١٦م) تقسم ما تبقى بيد المسلمين من أرض الأندلس الى دويلات وامارات، بلغت العشرين عدداً، وعرفت في التاريخ باسم دول الطوائف، وهذه الدويلات أو الامارات هي :

١ - دولة بني جهور في قرطبة	من عام ٤٢٢هـ	الى عام ٤٦٣هـ
	١٠٣١م	١٠٧٠م
٢ - دولة بني عباد في اشبيلية	٤١٤هـ	٤٨٤هـ
	١٠٢٣م	١٠٩١م
٣ - دولة بني الأفطس في بطليوس	٤١٣هـ	٤٨٨هـ
	١٠٢٢م	١٠٩٤م
٤ - دولة بني يحيى في لبلة	٤١٤هـ	٤٤٥هـ
	١٠٢٣م	١٠٥٣م
٥ - دولة بني مزين في باجة	٤٣٠هـ	٤٥٥هـ
	١٠٣٩م	١٠٦٣م
٦ - دولة بني البكري في ولبة	٤٠٣هـ	٤٤٣هـ
جزيرة شلطيـش	١٠١٢م	١٠٥١م
٧ - دولة بني هارون في شنتمرية الغرب	٤١٧هـ	٤٤٣هـ
	١٠٢٦م	١٠٥١م
٨ - دولة بني ذي النون في طليطلة	٤٢٧هـ	٤٧٨هـ
	١٠٣٦م	١٠٨٥م

٩ - دولة بني مناد في غرناطة	٤٥٩هـ	٤٨٣هـ
١٠ - دولة بني برزال في قرمونة	٤٠٤هـ	١٠٩٠م
١١ - دولة بني دمر في مورور	٤٠٣هـ	١٠٦٧م
١٢ - دولة بني خزرون في اركش	٤٠٢هـ	١٠٦٦م
١٣ - دولة بني يفرن في روند	٤٠٦هـ	١٠٦٨م
١٤ - مملكة المرية	٤٠٥هـ	١٠٦٥م
١٥ - مملكة مرسية	٤٠٣هـ	١٠٩١م
١٦ - مملكة دانية والجزائر الشرقية	٤٠٠هـ	١٠٩١م
١٧ - مملكة بلنسية	٤١٠هـ	١٠٩١م
حكمها السيد الكمبيادور والقشتاليون	٤٨٧هـ	١٠٩٤م
١٨ - بني رزين في شتمرية الشرق	٤٠٣هـ	١١٠٢م
١٩ - اماره البوينت	٤٠١هـ	١١٠٤م
٢٠ - مملكة سرقسطة (بني هود)	٤٠٨هـ	١١٠٢م
	١٠١٧م	١١١٠م
		التي مابعد ٥٠٣هـ بقليل
		مابعد ١١١٠م

٦٧ - ولن نسترسل في سرد تاريخ دول الطوائف، ولن نطيل الكلام فيما جرى

بين الحكام المسلمين من حروب وصراعات، ومؤامرات... استمرت قرابة نصف القرن، وأخرجت من أيدي المسلمين قرابة نصف مساحة أرض الأندلس بدون حروب تذكر مع العدو، وإنما تنازل عنها الحاكمون ثمناً لعون كاذب لهم في صراعاتهم وحروبهم ومحاولاتهم الانتقام والتشفي من اخوانهم المسلمين في الامارات الأخرى، وسنكتفي بإيراد نماذج من المواقف المخزية التي وقفها بعض هؤلاء الحكام، الذين كان من السهل اليسير عليهم الخضوع للأسبان، والتنازل لهم عن المدن والقلاع والحصون، ثمناً لصداقتهم لهم، بينما كان أحدهم يجتهد في حرب اخوانه المسلمين، ويشدد في تدميرهم وقتلهم، ويحاول انتزاع الأرض والمدن والحصون من أيديهم ليسلمها كلها أو بعضها إلى الأعداء الأسبان، وهو يعلم أن الأسبان هم الأعداء الحقيقيون، وانهم لن يدخروا جهداً ولا وسيلة في تدمير الحكام المسلمين جميعاً، وانتزاع الأرض منهم، ودفعهم إلى الوراء تمهيداً لخراجهم من الجزيرة الأيبيرية كلها، وقد لمسوا ذلك كله لمس اليد، ولكنهم لم يتعظوا، ولم يقلعوا عن فسقهم وفجورهم، ولم يرددعوا عن غيهم، واسترسلوا في ذلك إلى أن عمهم البلاء جميعاً، وخضعوا جميعهم للأسبان، يدفعون الجزية لهم، ويستخذون أمامهم، ويستجيبون لأوامرهم، وينفذون ما يطلبونه منهم وهم صاغرون أذلاء.

٦٨ - بين بني عباد في أشبيلية وبني باديس في غرناطة :

أقام بنو عباد حكماً لهم في أشبيلية، وانتهى هذا الحكم إلى المعتمد بن عباد. وأقام باديس بن حبوس الصنهاجي حكماً له في غرناطة ومقاطعة (ريا). ولما توفي باديس خلفه في حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بلقين، وخلفه في حكم مالقه حفيده الآخر تميم، ولم يمض وقت طويل على حكم عبد الله لغرناطة حتى سار المعتمد بن عباد في قواته واستولى على مدينة جيان، وكانت من أهم مدن مملكة غرناطة، (٤٦٦هـ - ١٠٧٤م). وألح ابن عباد على غرناطة يريد الاستيلاء عليها وعلى ما يتبعها من أرض وحصون ومدن. فاتجه عبد الله بن بلقين أمير غرناطة إلى المأمون بن ذي النون أمير طليطلة - وكان صديقاً لالفونسو ملك قشتالة - ليسي لدى الفونسو لعقد معاهدة تعاون وصداقة بين غرناطة وقشتالة، وتم له ما أراد، وقد خضع أمير غرناطة بموجب هذه المعاهدة لالفونسو، وتعهده له بأن يكون تابعه، وبأن يدفع له

الجزيرة سنوياً بالدنانير الذهبية ، ولقاء ذلك تعهد الفونسو بحماية امانة غرناطة من أطماع المعتمد بن عباد، وبأن يمد عبد الله بالجند والقوات عند الحاجة .
وفي عام (٤٦٧هـ - ١٠٧٥ ميلادية) أغار المأمون بن ذي النون أمير طليطلة على قرطبة ، واستولى عليها وأخرجها من حكم بني عباد .
وجيناً نزلت هذه الكارثة بالمعتمد بن عباد أسرع أمير غرناطة ينتهز الفرصة ، واستمد حليفه الفونسو ملك قشتالة ، ووعد به بأن يحصل على جزء مما يتحقق له من المغنم من الأرض والمال وال سلاح والغنائم الأخرى التي يمكن أن يحصلوا عليها من بني عباد ، فأمدّه الفونسو بقطعة من جنده ضمها الى جيشه ، وسار أمير غرناطة بهذه القوة المختلطة الى مدينة قبرة التابعة لبني عباد واستولى عليها وضمها الى ملكه .
ولما رأى ابن عباد تسابق خصومه الى اعلان الخضوع والطاعة والولاء لملك قشتالة ، والتباري في دفع الجزيرة اليه ، فكره في أن يحذو حذوهم ، وأن يطلب من الفونسو عقد محالفة معه ، وأرسل وزيره ابن عمار الى قشتالة ليعقد مثل هذه المعاهدة ، فوفق في مساعده ، واتفق الفريقان على أن يطلق الفونسو ابن عباد في احتلال غرناطة على أن تكون المدينة للمعتمد ، وأن يكون ما في القلعة الحمراء من أموال وذخائر ونفائس وسلاح وأموال ملكا لالفونسو . وفوق ذلك تعهد ابن عباد بأن يزيد مقدار الجزية السنوية التي كان يدفعها أبوه المعتضد لملوك قشتالة منذ عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) ، وأن يجعلها خمسين ألف دينار ذهب كل عام .

وبعد توقيع هذه المعاهدة أخذ الاسبان في الاغارة على بسائط غرناطة ومرجها ، وعاثوا فيها خراباً وتدميراً . وقام ابن عباد ومعه حلفاؤه النصاري بالاغارة على غرناطة ، ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها .

ورأى عبد الله بن بلقين من جهته أن يتجه بنفسه الى الفونسو لمفاوضته واسترضائه ، وعقد حلف حماية معه ، وقد أسفرت هذه المفاوضات عن تعهد عبد الله بأن يؤدي الى الفونسو جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم اليه بعض الحصون الواقعة جنوبي غربي جيان فتسلمها الفونسو ، ولكنه فكر في انه يستحيل عليه الاحتفاظ بها ، فباعها الى المعتمد بن عباد .

٦٩ - بين بني هود في سرقسطة وبني ذي النون في طليطلة

حينما ترسخ حكم سليمان بن هود في سرقسطة أخذ يتطلع الى توسيع رقعة

ملكه على حساب أراضي جاره المأمون بن ذي النون أمير طليطلة ، فأغار على مدينة وادي الحجارة واحتلها بعد معارك عنيفة هزم فيها المأمون بن ذي النون هزيمة منكرة (عام ٤٣٦هـ - ١٠٤٤م) .

ولم يجد ابن ذي النون ، وسيلة للانتقام من عدوه ابن هود أكرم وأشرف من أن يلجأ الى فرناندو ملك قشتالة ، فاستغاث به ، واعترف بطاعته ، وخضع له وتعهد بدفع الجزية اليه ، فأمدّه فرناندو بقوة من جنده تقوى بها ابن ذي النون ، وأخذ في الاغارة على أراضي أعدائه بني هود في سرقسطة ، فأفسد وخرّب .

فأسرع ابن هود بدوره يعقد الحلف مع ملك قشتالة ، وبذل له أموالا كثيرة وتحفا ونفائس وتعهد له بدفع الجزية . فأرسل فرناندو قوة من جنده تعيث في أراضي طليطلة حتى خربها . وهو يرمي من وراء عونه المزدوج للفرقيين المسلمين المتنافسين ، ان يجملها على التسابق في البذل والعطاء ، والتنازل عن المدن والحصون والقلاع ، كسبا لوده ، واستقواء به على الخصوم المسلمين ، فيفتقر الجانبان وتضعف قواهما ، وتسوء سمعتهما ، ومكائنتها لدى شعوبها ، فيسهل عليه الفتك بهما ، واخضاعهما لامره ، وانتزاع ما يريده منهما بسهولة ويسر ، وكان له فعلا ما أراد .

ولما رأى المأمون بن ذي النون ان فرناندو قد خانته ، وأعان عدوه ابن هود ، لجأ هو بدوره الى ملك نافارا ، واستماله ببذل الأموال الجليله له ، فقام ملك نافارا بالاغارة على أراضي سرقسطة ، وعاث فيها فسادا وتخريبا .

ولجأ ابن هود الى فرناندو ، وزاد له في البذل والعطاء ، فأغار ملك قشتالة على أراضي طليطلة ، وقتل وخرّب وأفسد .

واستمرت الحال على ذلك زمنا طويلا ، يغير هذا على أراضي طليطلة ، فيرد الآخر بالاغارة على أراضي سرقسطة ، حتى أرهقت الامارتان المسلمتان ، وخربتا ونضبت مواردما ، وانتزعت منهما كثير من الحصون والقلاع والمدن ، كانت من نصيب العدوين الاسبانيين اللذين يترقبان الساعة المناسبة التي ينقضان فيها على أعدائهما المسلمين للقضاء عليهم ، وانتزاع ماتبقى بأيديهم من أراض .

٧٠ - الصراع بين أبناء سليمان بن هود

قسم سليمان بن هود - قبل وفاته - أعمال مملكته بين ابنائه الخمسة ، وتسلم كل

واحد من الأبناء المنطقة التي عينها له أبوه . وكان ابنه أحمد صاحب سرقسطة (ولقب فيما بعد بالمقتدر) أكثر إخوته طمعاً بها في أيديهم من أرض، وقد استطاع ان يحتال على ثلاثة من إخوته فسجنهم وسمل أعينهم، وانتزع ما كان في أيديهم من أرض ومدن . ونابضه أخوه الرابع (ويسمى يوسف) صاحب لاردة العداء، وقاوم أطماعه . ولما رأى أهل الامارة القسوة البالغة التي عامل بها أحمد إخوته، نفروا منه وخرجت أكثر مدن الامارة عن طاعته، وأعلنت الطاعة والولاء لأخيه يوسف .

وأصابته مجاعة شديدة مدينة تطيلة في احدى السنين - وهي من القواعد التي أعلنت الولاء ليوسف - فاستغاث أهلها بيوسف، فجمع كميات كبيرة من الأقوات والمؤن ليرسلها اليها . ولكن كان لا بد له لا يصل هذه المؤن الى تطيلة من ان يمر بأراضي أخيه أحمد، أو بأراضي مملكة نافارا، ولكن أحمد ماكان يسمح لأخيه العدو بأن يمد مدينة خرجت عن طاعته، واستفظعت جرمه نحو إخوته، فاضطر يوسف الى الاتصال بملك نافارا، وبذل له المال الوفير لكي يسمح له بمرور المؤن في اراضيه، فوافق ملك نافارا على ذلك .

وعلم أحمد بن هود أمير سرقسطة بها تم من اتفاق بين أخيه يوسف وبين ملك نافارا، فاتصل بغرسيه ملك نافارا سرا، وعرض عليه أن يبذل له ضعفي ما بذله أخوه يوسف، وان يتخلى له عن القافلة وحولتها كلها، وما يحمله حراسها من سلاح، وما معهم من خيول، اذا هو ممكنه من القضاء على حراس القافلة ومنع وصولها الى مدينة تطيلة . فخضع غرسيه الى الاغراء، وخان عهده ليوسف، وعقد الاتفاق معه . وبينما كانت القافلة تسير آمنة مطمئنة في أرض مملكة نافارا - وكانت تتألف من عدة ألوف من الجنود وعدد كبير من الدواب بأحبالها، باغتها قوات أحمد أمير سرقسطة، وفتكت بقوة الحماية، فقتل من قتل وأسر من أسر، واستولى النصراني على أسلاب الجنود والمؤن والدواب وفقاً للاتفاق .

ويش أهل تطيلة من وصول المؤن عن طريق أميرهم يوسف، فأعلنوا خضوعهم للغادر أحمد بن هود .

٧١ - النورمان يرتكبون أفظع المآسي في أهل بربشتر والحكام يتفرجون

تقع مدينة بربشتر بين مدينتي لاردة ووشقة في الشمال الشرقي من سرقسطة،

وكانت من أمنع قواعد المسلمين في الشمال . وفي عام ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) نزلت قوة كبيرة من الفرسان النورمان والفرنسيين على بربشتر ، وكانت تخضع ليوסף بن هود ، وحاصروها ، ولم يتمكن يوسف من انجادهما لانه ليس له طريق ارضي يتصل بها بواسطته الا عن طريق الأراضي الواقعة تحت حكم أخيه الغادر أحمد ، أو عن طريق أراضي مملكة نافارا ، وقد خبر عذر ملكها وخسته من قبل .

ولم يتحرك أحمد بن هود لنجدة القلعة المسلمة ، حقدًا منه على أهلها الذين خلعوا طاعته وأعلنوا الولاء لأخيه يوسف ، وجبنًا منه ونذالة ، فوقف يتفرج على الأحداث التي تمزق نياط القلوب القاسية .

وقاتل المسلمون قتالا مجيدا ، ولكن النورمان تمكنوا من اقتحام المدينة في آخر الأمر ، ولجأ المدافعون المسلمون الى القصبة يتابعون دفاعهم ، وقتلوا أعدادا من المهاجمين ، وكان في نيتهم أن لا يستسلم أحد منهم لاعدائهم ، ولكن أحد الخونة دل المدافعين - تحت وطأة العطش الشديد - أن يعرضوا على النورمان تسليم المدينة ، على أن يسمح لهم بالخروج منها هم وعائلاتهم بأرواحهم فقط دون مال . فوافق النورماند على ذلك ، ولكنهم حينما استسلم المقاتلون ، ونزعوا أسلحتهم ، غدروا بالناس ، وانقضوا على الأهلين العزل يقتلونهم بغير رحمة ولا شفقة ، وسبوا النساء . ثم سمحوا لمن بقي حيا بالخروج من البلد

ولما خرج الناس من البلد في ظل الأمان المقطوع ، أمر قائد النورماند رجاله بقتل من يقدرّون على قتله مخافة أن ترتد الجموع عليهم ، فقتلوا منهم حوالي ستة آلاف فحدث هرج ومرج ، ومات خلق كثير من شدة الزحام .

ولما أصبحت الجموع خارج أسوار المدينة ، طلب اليهم النورماند الرجوع الى دورهم بأهلهم وذرائعهم .

ويصف ابن حيان - وهو من مؤرخي الاندلس - وقد عاصر هذه المأساة الإنسانية - ما جرى وُصفا مؤثرا للغاية ، ومما جاء في وصفه لها مايلي :

(ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل ، وهلك في الزحمة ظلوا قياماً ذاهلين منتظرين نزول القضاء فيهم ، نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار الى داره ووطنه بأهله ، وازعجوا لذلك ، فنالهم من الازدحام قريباً مما نالهم في الخروج عنها .

ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرائعهم، اقتسمهم المشركون، فأمر سلطانهم، فكل من صارت في حصته دار حازها. وحاز ما فيها من أهل وولد ومال، فيحكم كل عالج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم، يأخذ كل ما أظهره إليه، ويقرره عليه فيما أخفى، ويعذبه أشد العذاب، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك. فإن عادة الله كانوا يومئذ يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم، وعلى أعينهم إبلاغاً في نكايتهن، يغشون الثيب، ويفتضون البكر، وزوج تلك، وأبو هذه موثق بقيد أسره، ناظر إلى سخيئة عينه، فعينه تدمع، ونفسه يتقطع، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك بنفسه، أعطى من حوله من غلمانهم يعيثون فيهم عبثه، فبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة والحول والقوة لله العظيم^(١).

ثم تحدث ابن حيان عن عشرات ألوف السبايا اللاتي وقعن في قبضة هؤلاء الوحوش. ووصلت أنباء هذه الفظائع إلى قرطبة في أوائل رمضان من عام ٤٥٦ هـ (وكان ابن حيان مقيماً فيها)، فتأثرت النفوس لذلك أشد التأثر، ولكن الحكام المسلمين جميعاً كانوا عاجزين عن فعل شيء، وقد يكون بينهم من كان يتشفى بأهل المدينة وما حل بهم . . .

وقد وجه ابن حيان نقداً عنيفاً ولاذعاً ومؤثراً إلى الحكام المسلمين في الأندلس، وفي غير الأندلس، على تقاطعهم وتعاديهم، وتقاتلهم، واستشراء بعضهم على بعض مبددين بذلك قواهم، ومضعفين قوتهم، ومهيئين للعدو أسباب الهيمنة عليهم، وإخضاعهم جميعاً لأمره ونهيه، فهم أمام الأعداء يستخذون ولا يستحيون، وأمام إخوانهم قساة غلاظ لا يتسامحون ولا يتساهلون، ولا تؤثر فيهم نكبة، ولا تهز وجدانهم كارثة، ولا توقظهم من غفلتهم حادثة مؤلمة، ولا ضياع أرض ولا عرض. همهم البقاء في الحكم، والتمتع بخيراته، وإنفاق الأموال - أموال بيت مال المسلمين - على الخمر والغواني، وشراء الإماء والمغنيات، وإبتياء القصور وزخرفتها وإنفاق الكثير الكثير عليها، واستدراة مدح الشعراء، وسماع أقوال الممثلين المنافقين فيهم، وفي ظنهم أن ذلك يمكن أن يخلد لهم، ويبقي على ذكراهم حية على الدهر.

(١) الحلال الموشية ص ٥٤ - نقله محمد عبد الله عنان في كتابه دول الطوائف ص ٢٦٦.

وبما قاله ابن حيان في التعليق على هذه الكارثة :

(لقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، تؤذن بوشك القلعة ، طالما حذر اسلافنا لحاقها بمن احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولا شك عند أولى الألباب ، ما أخفيته مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والالفة فأصبحنا من استشعار ذلك والتماذي عليه ، على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لاهماله ، اذ قدر الله زماننا هذا بالاضافة الى ماعهدنا في القرن الذي سلخه من آخر أمور الجياحة على ادراك ما لحق الذي قبله ، فمثل دهرنا هذا - لاقدرس - بهم الشبه ، ما ان يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمايرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا في سبيل الرشد باتقياء ، ولا على معالي الغي بأقواء ، نشد من الناس هامل يعللون انفسهم بالباطل من أوائل الدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرى حتى اطل عدوهم الساعي لاطفاء نورهم ، يتبجح عراض دورهم ، ويستقرئ بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفا ، ويبعد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من اهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهمة عن بشهم ، ما ان يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر اليهم ، او ماش لهم ، حتى كانوا ليسوا منا ، أو كان فتحهم ليس بمفض لنا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء ، عجائب فاقت التقدير ، وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور واليه المصير) .

وقد وقف أحمد بن هود من هذه الأحداث المفجعة موقف المتفرج الشامت ، فالبلد خلع طاعته ودان بالولاء لأخيه وخصمه وعدوه يوسف ، فما يعنيه هود من نصرة أهله المسلمين؟

ولم يفكر أحد من امراء الطوائف المسلمين الآخرين في انجاد حصن بريشتر لانهم كانوا جميعا يخضعون للاسبان ، ويدفعون لهم الجزى ، ولا يسمح الاسبان لاحد منهم بأن يتدخل لانجاد مسلمين ورفع الغمة عن حصن مهدد بالسقوط في ايدي قوى نصرانية ، لانهم مع كل ما يؤدي الى دمار المسلمين في النهاية ، وضد كل من يقف في وجه القوى النصرانية من اي قطر كانوا .

٧٢ - الحرب بين ابني المقتدر بن هود واستعانة كل منهما بالنصارى :

بعد ان مات المقتدر بن هود (أحمد) ، تسلم الحكم مكانه في سرقسطة ابنه

يوسف المؤمن، وتسلم الحكم في لاردة ابنه الآخر المنذر. وقد قامت الحرب بين الأخوين العدوين فاستعان المؤمن بصديق أبيه وحليفه (السيد الكمبيادور) وكان هذا السيد يقود جيشاً من المرتزقة القشتاليين). واستعان المنذر بسانشورامير ملك اراجون ورامون برنجير امير برشلونة، ووقعت أول معركة بين الأخوين عند قلعة المنار قرب لاردة، انهزم فيها المنذر هزيمة منكرة، واسر رامون برنجير امير برشلونة.

ولم يطل حكم المؤمن فقد توفي بعد سنين قليلة، فخلفه في الحكم ابنه أحمد المستعين. وأخذ أحمد يتطلع - بعد دخول المرابطين الى الجزيرة - الى الاستيلاء على بلنسية، ودفع (السيد) الى مهاجمتها، ظناً منه ان السيد انما يعمل لحسابه هو، ولكن السيد خدعه، واستولى على بلنسية لحسابه الخاص، وبقي السيد حيناً يحكمها بصورة مستقلة.

وحينما ثبت المرابطون أقدامهم في الجزيرة بعد موقعة الزلاقة، رأى المستعين ان يلجأ الى الفونسو ملك قشتالة يعلن له الخضوع، ويطلب منه الحماية ضد تهديد المرابطين.

وفي هذه الأثناء الح ملك أراغون على مدينة وشقة وحاصرها يريد أخذها، فأدرك المستعين انه لن يستطيع انقاذ المدينة عن طريق الاستعانة بملك قشتالة، ويبدو ان صحوة من ضمير هزته، فاتجه الى يوسف بن تاشفين يستنجد به، وهو يقدر مبلغ الخطر الذي يشكله المرابطون على حكمه، ولكنه أدرك أنه إذا كان لابد له من الاختيار بين المرابطين وبين النصارى، فان التسليم للمرابطين أكرم له ولأهله ولقومه ولدينه.

فأسرع يوسف بن تاشفين بأمر ولاته في الأندلس بانيجاد المستعين، وأرسلوا إليه ألف فارس، وستة آلاف راجل من المرابطين، وأمد ملك قشتالة المستعين بقوة من الجند أيضاً.

وبعد ان اشتد الحصار على وشقة، وطال حوالي ثلاثين شهراً، سار المستعين بمن تجمع لديه من قوات لرفع الحصار عنها، فسار إليه ملك أراغون، وجرت بينهما معركة عنيفة انهزم فيها المستعين وجند المرابطين والقوة القشتالية، وسقطت وشقة في يد ملك أراغون فجعلها عاصمة ملكه (عام ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م).

٧٣ - بين ابن ذي النون في بلنسية وبين ابن هود في لاردة :

بعد أن احتل الفونسو مدينة طليطلة، أخرج ملكها يحيى بن ذي النون (القادر) إلى بلنسية، ووعده بالعودة على احتلالها، وهو يعلم أن ترسخ قدم ابن ذي النون في بلنسية يعني خضوع المدينة له، وترسخ قدمه هو فيها. وسار القادر إلى بلنسية ومعه سرية من الجند القشتاليين تحت إمرة القائد (البارهانيس)، وخافت جموع أهل الرأي في المدينة من أن تقع بلنسية فريسة للاحتلال القشتالي، فقرروا تسليمها للقادر ابن ذي النون (شوال ٤٧٨ هـ - ١٠٨٦ م).

وحينما استغاث ابن عباد وأمرأاء الجزيرة بالمرابطين، وأخذت تتدفق سراياهم على الجزيرة، اضطر الفونسو أن يجمع قواته لمواجهة السيل المصدق، فاستدعى قائده البارهانيس.

وأنعش نصر المسلمين في الزلاقة آمال أهل بلنسية في الخلاص من أيدي القشتاليين وعملائهم، وحدثت حوادث تمرّد في الحصون والقلاع والمدن التابعة لبلنسية، واضطربت الأمور على ابن ذي النون، فتحرك المنذر بن هود ليستولي على بلنسية التي كانت أراضيها تفصل بين شطري مملكته في الجنوب والشمال، فسار في قواته، ومعه قوة من المرتزقة (القطلان) وضرب الحصار حولها (١٠٨٨ م).

فاضطرب أمر القادر، ولم يجد وسيلة تخرجه مما هو فيه من الضيق سوى اللجوء إلى سيده ملك قشتالة الفونسو السادس، فاستغاث به كما استغاث بالمستعين بن هود ملك سرقسطة، ونخصم عمه المنذر العنيد.

وكان المستعين يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية، فأسرع إليها ومعه السيد الذي كان يقود قوة من المرتزقة القشتاليين، وكان جيش المستعين يتألف من ٤٠٠ مقاتل، وجيش السيد يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل، وكان السيد يعمل في الظاهر لحساب ابن هود، ولكنه في الحقيقة كان يعمل على الاستيلاء على المدينة لحساب نفسه ولما رأى المنذر بن هود قدوم ابن أخيه المستعين مع القوة النصرانية أدرك أنه لم يعد يستطيع الاستيلاء على بلنسية، فأخذ في مفاوضات القادر بن ذي النون لعقد معاهدة صداقة وتحالف بينها ضد ابن أخيه المستعين.

ولما رأى القادر أن قوات ابن هود تبتعد عن بلنسية، أخذ يفكر في أنه لا ينجده عند الشدة إلا القشتاليون، فأخذ يتصل بالسيد سرّاً، ويحثه على عقد حلف بينهما

سراً دون علم ابن هود، وبعث إليه بطائفة من التحف والأموال الجليلة .
ولما وصل المستعين الى بلنسية ذكر للسيد انه يرغب في الاستيلاء على المدينة،
وطلب إليه العون في قتالها، فهاطل السيد في ذلك، وقال له ان ابن ذي النون داخل في
حماية ملك قشتالة، وان بلنسية هي من أملاك الفونسو، أعطاها للقادر، فالعمل على
احتلالها يعتبر اعتداء على حقوق الفونسو، ولذلك لا بد من استئذانه قبل أية محاولة
لمهاجمتها، لأن السيد لا يستطيع أن يعمل ضد سيده ومليكه ملك قشتالة .
وسار السيد الى الفونسو لمفاوضته، والاتفاق معه، فحصل منه على تفويض
بأن أي أرض أو حصن أو مدينة ينتزعها السيد من المسلمين، تغدو ملكاً خالصاً له
ولأولاده وأعقابيه .

ولما رأى المستعين بن هود ما فعله السيد به، قطع علاقته به، واتجه بانظاره الى
برنجير كونت برشلونة، وعقد معه أوامر الود والصدقة .
وعاد السيد ومعه قوة قشتالية مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل، فأعاد فرض الجزية
على صاحب السهلة وشنتمرية الشرق، ابن رزين، ورفعها من ثمانية الاف دينار
سنوياً الى عشرة، فاضطر ابن رزين لقبول هذا الغرم الثقيل .
ولما وصل السيد الى بلنسية، كان برنجير أمير برشلونة يحاصرها طمعاً في
الاستيلاء عليها، ف وقعت بين السيد وبين صاحب برشلونة معركة انهزم فيها الكونت
برنجير وسقط عدد كبير من رجاله أسرى في أيدي السيد، وانسحب برنجير بقوته الى
برشلونة .

وضرب السيد الحصار حول بلنسية، وأخذ يخضع ما حولها الى سيطرته، حتى
خافه أهل المنطقة جميعاً، واضطروا لدفع الجزية له .

وفي ذلك الحين كان المرابطون قد استولوا على أكثر مناطق الأندلس واستولوا
على حصن لبيط، وأصبحوا قريبين جداً من إمارة المستعين بن هود، فخاف منهم
على نفسه، فعاد يتصل بالسيد، وأسفرت الاتصالات بينها عن عقد صلح وحلف
بينهما، فسار السيد بقواته الى سرقسطة، وهناك عقد محالفة مع ملك أراغون وملك
نافارا للتعاون مع ابن هود ملك سرقسطة على مقاومة خطر المرابطين، وابعاده عن
شرقي الأندلس .

ولما اقترب المرابطون من بلنسية تحرك الناقمون على حكامهم الخاضعين
للنصارى، وكان القاضي ابن جحاف المعافري أقوى الرجال المناوئين للسيد

والقشتاليين والقادر ابن ذي النون الخاضع لهم . فأخذ ابن جحاف يفاوض داود بن عائشة قائد المرابطين ، ووعده بتسليم بلنسية اليه إذا ساعده على محاربة القادر والسيد ، فبعث إليه سرية من جند المرابطين ، ولما دخلت هذه السرية المدينة اندلعت نيران الثورة ، وقادها ابن جحاف ، فقبض على ابن الفرج مندوب السيد ، وقبض على القادر وقتله في الحال ، واستولى على ما كان في يده من مال وجواهر (رمضان ٤٨٥هـ - تشرين الأول ١٠٩٢م) .

ولما علم السيد بهذه التطورات سار الى بلنسية ، واخضع المناطق التي مر بها ، وفرض عليها المغارم الثقيلة . ووصل بقواته الى بلنسية ، ونزل في جباله ، فاجتمع إليه أنصار القادر بن ذي النون (أواخر عام ١٠٩٢) وحاصر المدينة بعد أن أحرق ما حولها .

وحاول السيد التفاهم مع ابن جحاف وأهل بلنسية على اخراج المرابطين ، ويعددهم بالمعاملة الطيبة ، وبأن يجعل ابن جحاف ملكاً عليها .
ومال ابن جحاف وفريق من أصحاب المصالح البلنسيين الى التفاهم معه ، وانتهت المفاوضات الى تقرير مايلي :

- يغادر المرابطون المدينة .
- يدفع ابن جحاف للسيد ثمن ما كان غزواً في مستودعاته وقت قتل القادر .
- أن تؤدي إليه الجزية التي سبق فرضها ومقدارها ألف دينار في الاسبوع .
- أن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد .
- أن يرتد الجيش القشتالي الى جباله ، ويبقى هناك مع السيد .
- وهكذا عادت بلنسية تخضع للسيد مرة أخرى ، وتدفع له الجزية ، ولم يمانع المرابطون في عقد الصلح ، فقد كانوا ملؤا تقلب أهل بلنسية .
- وماكاد المرابطون يغادرون المدينة ، حتى نقض السيد العهد وأخذ يغير على ضواحي المدينة ويثفل ما حولها من زروع وثمار وأقوات ، ويلج على ابن جحاف بالمطالب الثقيلة .
- وكان فريق من أهل بلنسية - أمثال آل طاهر أصحاب مرسية السابقين - يتآمرون على ابن جحاف ويثيرون في وجهه الاضطرابات والقتال ، ويتصلون سراً بالسيد .
- وكان ابن جحاف كلما استجاب لطلب مرهق من مطالب السيد ، جاءه بعده

طلب آخر أكثر ثقلًا وارهاقاً، حتى أنه بعد أن أحكم طرق الحصار حول المدينة، طلب إليه أن يسلمه جميع موارد المدينة، وأن يقدم ابنه رهينة على ولائه للسيد، فرفض ابن جحاف هذه المطالب، وأغلق أبواب المدينة، وكتب الى داود ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به، واستصرخ المستعين بن هود، وكتب الى القونسو ملك قشتالة، فأرسل كل واحد من هؤلاء خطاباً الى ابن جحاف يعده بالعون. وشدد السيد الحصار على المدينة بغية اجبار أهلها على الاستسلام، قبل أن يستجيب المرابطون للصريح، ودام الحصار عشرين شهراً، هلكت فيها الأقوات، وانقطع الرجاء. وتحرك الحزب المناوئ لابن جحاف يعمل ليضطره الى المفاوضات والاستجابة لطالب السيد.

ولما لم تصل نجدات اضطر ابن جحاف الى التسليم في (جمادى الأولى ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م) على الشروط التالية :

- يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها. ويؤمن في نفسه وأهله وماله.
- يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم.
- يتولى ممثل السيد تحصيل الضرائب.
- تحتل المدينة حامية من النصارى المستعربين الذين يعيشون بين المسلمين.
- يبقى السيد مرابطاً بجيشه في جباله، ولا يغير شيء من شرائع المدينة وأحكامها.
- يسلم ابن جحاف للسيد جميع أموال القادر بن ذي النون.

وحينما دخل السيد المدينة بجيشه لم يف بالعهود واحتل جيشه أكثر دور المدينة، وتسلموا الأبراج خلافاً للمعاهدة.

وسلمه ابن جحاف أموال القادر، وأخذ السيد يشدد عليه في السؤال ليعلم ان كان بقي عنده شيء منها، وطلب إليه الخلف أمام الأعيان من الملتين على ان يستبيح دمه ان ظهر أنه أخفى منها شيئاً، فحلف ابن جحاف على انه لم يخف شيئاً. ثم وجد السيد مخبأ فيه حلي القادر وذخائره، فأمر السيد بالقبض على ابن جحاف وعذبه عذاباً شديداً، ثم أمر باعدامه حرقاً. وأراد السيد أن يحرق زوجة ابن جحاف وبناته، ولكن بعض قادته ثناه عن ذلك. وأخذ في احراق أصحاب ابن جحاف، وفي ازعاج أهل بلنسية واذلالهم والاساءة إليهم.

وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ أن التف حول السيد رهط من الخونة الذين تستروا بالاسلام، ومعظمهم من السفلة والأشرار، انضبوا تحت لوائه، وأخذوا

يعيشون في المدينة فساداً، ويعتدون على اخوانهم، يقتلون الرجال، ويسبون النساء والأطفال، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم وكان يطلق على تلك العصابات يومئذ اسم (الدوائر).

٧٤ - صورة مما كان يتلوه به حكام الأندلس والخطوب تلح عليهم

حينما أخذت الأندلس في التمزق، قام في شتتمرية الشرق بيت من البربر دخل جدهم رزين مع طارق بن زياد وأعلن كبيرهم أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن رزين، الاستقلال بما كان تحت يده من الأراضي، عن حكومة قرطبة. وكان هذيل - كما تصفه الروايات الأندلسية - جباراً جاهلاً فظاً، روي أنه قتل والدته بيديه. وقد اشتهر هذيل بحياته المترفة الناعمة، والاهتمام بالفنون، والشغف باقتناء أجمل الجوارى والفتيات البارعات في الحسن والموسيقى والغناء، وقد اشترى جارية ابي الطيب الكناني بثلاثة آلاف دينار، وكانت وحيدة عصرها، وقد أحجم الملوك عن شرائها لغلاء ثمنها.

وكان مجلس انسه أشهر مجالس ملوك الأندلس وأمرائها، وقد اجتمع لديه مئة وخمسون جارية ومغنية، وكن مضرب الأمثال في الجلال والمعرفة بفنون الطرب والغناء.

وجمع المأمون بن ذي النون ثروات طائلة، وابتنى في عاصمة ملكه طليطلة قصوراً باذخة اشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها، وكان منها مجلسه الشهير المسمى (المكرم)، وكان آية في الروعة والبهاء. ويصف ابن حيان هذا المجلس فيقول:

(وأغرب ما فيه لحظي من بهي زخرفته إزاره الرائع الدائر رأسه حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة، ونصاعة التلوين، قد خرمت في جثمانه صور البهائم، وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار، وأشكال الثمر. . وفوق هذا الكتاب الفاصل من هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الابريز، وقد أجريت فيها أشكال حيوان وأطيار، وصور أنعام وأشجار، يذهل الأبواب، ويقيد الأبصار. وأرض هذه البحار من أوراق الذهب الابريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير، وأبدع تقدير).

وقال ابن بدران يصف القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون :
«بنى المأمون صاحب طليطلة فيها قصراً تأتق في بنائه ، وأنفق مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسبق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل على القبة حواليتها محيطاً بها ، متصلاً ببعضه بعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء» .

٧٥ - مواقف مخزية للملك الطوائف في كارثة طليطلة :

حينما رأى ملك قشتالة اضطراب أمر المسلمين ، واختلاف آراء حكامهم وأمرائهم ، وتشتت أمرهم ، أخذ يلح على المناطق المجاورة له ، ينتزع من أمرائها الحصون والقلع والمدن ، طوعاً أو كرها ، وركز اهتمامه على مملكة طليطلة المجاورة له ، فقد كان أمراؤها خضعوا له منذ وقت ، وقبلوا بحمايته لهم ، ودفعوا له الجزية ، ولكنه كان يطمع في أكثر من ذلك ، فكان يساعدهم تارة ، ويكون مع أعدائهم عليهم تارة أخرى ، ليزيد في اضطراب أمرهم ، وضعفهم ونكاهم .
وقد وجه فرناندو رسالة معبرة الى أهل طليطلة ينههم فيها الى سوء حالهم ، وفساد حكامهم ، وينذرهم بسوء العاقبة والمصير ، وذلك حينما أرهقهم بمطالبه واشتط فيها ، فرفضوها فوجه اليهم الرسالة التالية :

(اننا انما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم ، فقد سكتتموها ماضي لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ، فارحلوا الى عدوتكم ، فلا خير لكم في سكتناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم) .

وفي عام ١٠٦٢م (٤٥٤هـ) خرج فرناندو على رأس جيش قوي يبعث في أراضي مملكة طليطلة الشسالية ، فخرّبها ، فاضطر المأمون بن ذي النون الى الخضوع لمطالب الملك القشتالي ، وزيادة مبلغ الجزية التي كان يدفعها .

وبعد ان مات المأمون بن ذي النون خلفه في حكم طليطلة حفيده يحيى الملقب (بالقادر) ، وكان انساناً ضعيفاً نشأ بين العبيد والجواري ، فغلب العبيد والموالي على أمره ، واضطربت الأمور في طليطلة حينما فتك القادر بوزير جده ابن الحديد ، بإغراء من أعداء آل ذي النون وأعداء ابن الحديد ، وهكذا سقط القادر في أيدي أعدائه

وأعداء بيته الذين كانوا يحكيون المؤامرات لاسقاطه . وفي هذه الأثناء تحرك ابن هود وسانشوراميرز ملك اراجون الى مدينة قونقه التابعة لمملكة طليطلة ، وحاصرها ، وكادت تسقط في ايديهم ، لولا ان افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال ، واضطر القادر مرة أخرى الى اعلان الخضوع والولاء لملك قشتالة ، وطلب حمايته ، والتماس عونه . وكان الفونسو يشتط في طلب الجزية منه ، ويلح عليه في تسليم الحصون والقلاع والمدن ثمناً لهذه الحماية ، فكان القادر يخضع مضطراً ، فثار الشعب عليه واضطره الى الهرب من المدينة بأهله الى حصن وبذة .

ولما وجد أهل طليطلة أنفسهم بدون أمير عليهم ، استدعوا ابن الأفطس . ولما ابن ذي النون مرة أخرى الى الفونسو يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون ، وما كان للمأمون من فضل في غوئه وعونه ، ويطلب منه العون في محنته . فاستجاب الفونسو لدعوته ، وسار مع جنده الى طليطلة ومعه القادر فانسحب ابن الأفطس مسرعاً الى بطليوس ، وحاصر الفونسو والقادر طليطلة (١٠٨٠م) :

وأخيراً دخل القادر طليطلة في حماية الجند النصارى ، وحاول الشعب ردهم ومداغتهم ، فنكلوا به شرنكييل ، وجلس القادر على عرشه مرة أخرى في حماية أعدائه النصارى .

وبعد أن أصبح القادر في قبضة الفونسو ورهن اشارته ، أخذ يفكر في احتلال طليطلة بصورة نهائية . ويقال ان القادر بن ذي النون تعهد لألفونسو بأن يحكم البلد باسمه ، وأن يسلمها اليه متى شاء ، على ان يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقراً لامارته .

وكان المعتمد بن عباد يطمع في ان يستولي على الأراضي الواقعة في أيدي اخوانه الحكام المسلمين ، ولكنه كان يدرك انه لا يستطيع أن يمضي قدماً في تنفيذ خططه ومشاريعه الرامية الى تحقيق أطماعه إلا اذا وثق بأواصر الود والصداقة مع الفونسو ملك قشتالة ، وقبل الملك القشتالي أن يغض الطرف عن تحركات ابن عباد . لذلك أرسل المعتمد وزيره أبا بكر بن عمار الى بلاط قشتالة ، ففاوض ملكها وتم الاتفاق بين الجانبين على الأمور التالية :

- يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد بن عباد في حروبه مع أعدائه من الأمراء المسلمين بالجنود والسلاح والمال

- يؤدي ابن عباد لألفونسو جزية سنوية كبيرة بلغت خمسين ألف دينار .

- يقوم المعتمد بغزو أراضي مملكة طليطلة الجنوبية، ويسلم لالفونسو منها الأراضي الواقعة شمالي: جبال سيرا مورينا (جبال الشارات).

- يطلق المعتمد بن عباد يد الفونسو في تحقيق مشاريعه ضد طليطلة.

وبعد توقيع هذه المعاهدة، تأكد الفونسو أن جميع ملوك الطوائف - باستثناء أمير بطليوس ابن الأفطس - قد خضعوا له خضوعاً تاماً، وتعهّدوا صاغرين بدفع الجزية له، فلم يعد يخشى شيئاً إذا ما تحرك لمهاجمة طليطلة، وأنه أصبح واثقاً بأن أحداً من الأمراء المسلمين لن يتحرك لمعاونتها.

وحرك الفونسو في نفس الوقت الحزب المعارض لابن ذي النون داخل المدينة، يثير القلاقل والاضطرابات وكان كثير من هؤلاء الناقمين من النصاري وهم يؤيدون احتلال الفونسو للمدينة.

باشراً الفونسو أعماله الحربية ضد طليطلة، وأخذ في الاغارة على ماحولها يخرب المزارع والقرى والأقوات ويتلف المحاصيل، حتى خربها، وأشاع فيها الفوضى والمجاعة.

وحينما عاد القادر بن ذي النون إلى عرشه بمساعدة الفونسو عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) أخذ الفونسو يشدد من حملاته على طليطلة وماحولها، فيقطع الأشجار وينهب المحاصيل، ويتلف ما يمكن أن ينتفع به أهل المدينة إن حاصرها ذات يوم، كما كان يقتل الرجال الذين يقعون في يده ويسبي النساء والأطفال ولا يجد في كل ذلك من يقف في وجهه.

وقد شغل المعتمد بن عباد نفسه في ذلك الحين بمحاربة أمير غرناطة عبد الله ابن بلقين، كما شغل عبد الله نفسه بمحاربة ابن عباد، وكل منهما يستعين بالفونسو، وبذلك كان كل منهما يبررتفاعسه عن نجدة طليطلة بأنه منشغل بها هو أهم وهو محاربة أخيه في الدين والقومية، بينما يعيث ملك الأسبان خراباً ودماراً في عاصمة الأندلس الأولى طليطلة.

وشغل أمير سرقسطة ابن هود نفسه بمحاربة ملك آراغون وأمراء برشلونة، فتابع الفونسو أعماله التخريبية ضد طليطلة وهو مطمئن البال إلى نجاح خطته تماماً. وأدرك عقلاء المسلمين أن الموقف في طليطلة خطير للغاية، وأن الأمر يقتضي التعاضد والتساند والتوقف عن النزاعات الداخلية القائمة بين الحكام المسلمين، وتكريس الجهد والطاقت لمواجهة العدو واثقاذاً طليطلة من السقوط في أيدي الأعداء.

وأرسل المتوكل بن الأفطس القاضي أبا الوليد الباجي يطوف قواعد الاندلس وعواصمها صائحا ومنذرا ومحذرا من عواقب التفرق والخصام والاقتتال ، ومؤكدا ان ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها واحدة بعد الأخرى ، ولكن جميع هذه الصيحات والجهود ذهبت أدراج الرياح فلم يكن لها صدى يسمع .

وحينما ألح الفونسو على طليطلة لم يتحرك من الأمراء غير ابن الأفطس ، الذي أرسل جيشا بقيادة ابنه لصد النصارى عن طليطلة ، ولكن جيش ابن الأفطس لم يقو على الثبات طويلا في المعركة فانهمز عائدا الى بطليوس . وهكذا ترك المسلمون جميعا طليطلة لمصيرها المحتوم .

وفي خريف عام ١٠٨٤م اقترب الفونسو من المدينة ، وضرب الحصار حولها ، وطال الحصار ، ودخل الشتاء ، وقلت الأقوات في المدينة ، والقادر بن ذي النون لا يتصرف تصرف من يريد الجد في قتال الأعداء ، وكان الحزب الواعي الداعي الى الصبر والمقاومة يتوقع من اطالة امد الحرب أن يخف أحد من المسلمين الى نجدتهم ولكن عبثا انتظروا .

واضططر الزعماء - في آخر الأمر - وبالاتفاق مع القادر بن ذي النون ان يرسلوا وفدا الى الفونسو للحديث في أمر الصلح ، فأبى أن يستقبلهم ، واستقبلهم وزيره سنندو ، وكان هذا الرجل قد أسره المسلمون ، وعاش في بلاط ابن عباد حينما من الدهر ، وتعلم العربية ثم هرب الى قشتالة .

وحاول سنندو أن يدخل اليأس والقنوط الى قلوب أعضاء الوفد الاسلامي ، ليدركوا أنه لا فائدة من المقاومة ، ولامن المفاوضة ، وانه لا بد من تسليم البلد .

وأدخل سنندو زعماء طليطلة الى خيمة الملك ، فقالوا لألفونسو انهم ينتظرون عوننا من اخوانهم المسلمين ، فزجرهم الملك ، وسخر منهم ، واستدعى من خيامه سفراء الملوك المسلمين الذين جاؤا جميعا يخطبون وده ، ويقدمون له الجزى المتوجبة على ملوكهم .

وحينما رأى الوفد المسلم هذا المنظر المؤلم خرجوا من خيمة الملك وقد فقدوا كل أمل في العون ، وبعد مضي تسعة أشهر طلبت المدينة التسليم لملك قشتالة ، وكان من شروط التسليم :

- يسلم القصر والأبواب والقناطر وحديقة القصر الملكي الى الفونسو .

- يكون القادر حرا في الذهاب الى مدينة بلنسية وفق رغبته .

- يسمح لمن شاء من المسلمين ان يتبعه ، وأن يأخذوا معهم أموالهم .
- المذنبين يريدون البقاء في المدينة لا يتعرض لاحد منهم بشيء في أموالهم ولا في
أموالهم ، ولا في حريتهم في العبادة .
- تبقى مساجد المسلمين في أيديهم يقيمون فيها صلواتهم ، وتجري على المسلمين
أحكام شريعتهم على أيدي قضاة من المسلمين دون غيرهم .
- لا تفرض ضرائب على المسلمين الباقين أكثر من الضرائب التي كانوا يدفعونها الى
ملوكهم .

ولكن ملك قشتالة غدر بالمسلمين بعد أن دخل المدينة ، وداس شروط العهد
التي قطعها على نفسه ، وحنث بالآيمان التي أقسمها هو وكبار رجال دولته ودينه .
وتبع سقوط طليطلة سقوط جميع المناطق المحيطة بها والتابعة لها ، وتتضمن
ثمانين موضعا بها مسجد ، عدا القرى والضياع .
وكان لتلك النكبة أسوأ الوقع في نفوس المسلمين في الجزيرة وخارجها ، وأدرك
المعتمد بن عباد وملوك الطوائف الآخرون عظم الخطأ الذي ارتكبه بحق الاسلام
والمسلمين وبحق أنفسهم ، بسكوتهم عن تصرفات الفونسو ، وتواطؤهم معه على
اطلاق يده في التصرف لاحتلال المدينة العظيمة التي كانت ثغرا عظيما من ثغور
المسلمين في الشمال الاندلسي ، وأدركوا جميعا أن الدائرة ستدور عليهم قريبا ، فاتجهوا
جميعاً وهم متحدو الكلمة الى طلب العون من أمير المرابطين يوسف بن تاشفين
حينما تقدم الفونسو في العام التالي لحصار اشبيلية .

٧٦ - معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م (٤٧٩هـ) وسقوط حكام الطوائف

بعد أن استولى الفونسو عام ١٠٨٥ م على طليطلة عاصمة بني ذي النون ،
استخف بملوك الطوائف المسلمين جميعا ، وبقواهم وجيوشهم ، فآخذ يجوب الأراضي
الاسلامية فيما يشبه النزّه ، والجميع خائفون منه ، يجمعون عن التعرض له وعن
مقاومته . وبلغ من تجرّفه أن طلب من المعتمد بن عباد أن يسمح لزوجه بأن تضع
مولودها في مسجد قرطبة ، حيث كان يوجد مقام لبعض القديسين النصراني في
الماضي قبل دخول المسلمين . ولما تلكأ ابن عباد في الاستجابة لطلبه هدده الفونسو
بالحرب . ووقع في ذلك الحين أن أرسل الفونسو وفدا من قبله يرأسه رجل يهودي الى

ابن عباد ليتسلم منه الجزية ، ولما قدمها ابن عباد تطاول اليهودي عليه واتهمه بأنه يزيف العملة التي يقدمها جزية الى ملك اسبانيا ، فضربه ابن عباد وقتله ، فوجد الفونسوفي ذلك فرصته ليستولي على ما تحت يد ابن عباد من أرض وحصون ، وليخضعه بصورة نهائية لسلطانه ، وحشد جيشا ضخما وتقدم الى اشبيلية وعسكر أمامها على الجانب الآخر للنهر الكبير .

فاستبد القلق بابن عباد ، ولم يجد وسيلة يدفع بها خطر الأذفونش إلا اللجوء الى أمير المرابطين في المغرب . ولما قيل له إن المرابطين قد ينتزعون ملكه منه قال بأصالة المؤمن الشريف «لأن أرعى الجمال عند ابن تاشفين ، خير لي من أن أرعى الخنازير عند الأذفونش^(١)» . وتقدم يوسف بن تاشفين الى الأندلس بقوات ضخمة ، وانضمت إليه جميع القوى المسلمة في الجزيرة ، والتقوا بالفونسو وجيشه بتاريخ ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦ م (٤٧٩هـ) في موقع تعرفه الروايات العربية بالزلاقة ، بالقرب من بطليوس (باداخوز) ، وحاول ألفونسو خداع المسلمين ، لأخذهم على غرة لكنه فشل بسبب يقظة المسلمين ، ومعرفته الأندلسيين بغدره ومكره ، ودارت على الأثر رعى معركة طاحنة قتل فيها أكثر الاسبان ، ونجا الفونسو جرحاً مع خمسمائة من رجاله . وقد أوقف هذا النصر اندفاعه الاسبان المحمومة بعض الوقت .

وعاد ابن تاشفين الى المغرب ، تاركاً بعض جيشه في الأندلس ولكنه أدرك أن أمراء الطوائف لن يقووا على الصمود في وجه العدو ، ولا سيما وأنهم عاذاؤا يتآمر بعضهم على بعض ويتصلون بالعدو ، فقرر القضاء عليهم وتوحيد الأندلس والمغرب وانتهى من ذلك عام ١١٠٢ م (٤٩٥هـ) .

٧٧ - المرابطون :

يرجع المرابطون في أصلهم الى قبيلة لمتونة ، وهي بطن من بطون صنهاجة الكبيرة ، وقد اشتق اسم لمتونة من ثوبهم البسيط (اللمت) ، ويسمون أيضاً باللمثمين ، وكان اللمتونيون من البدو الرحل الذين يتنقلون في صحارى افريقيا ، ثم نزلوا في أقصى غربي إفريقيا قرب المحيط الأطلسي ، أما دينهم فكان الوثنية ، ثم تحولوا الى

(١) المتعجب في تلخيص اخبار المغرب - للمراكشي ص ٨٢ .

الاسلام في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي بجهود رجلين، أحدهما من لمتونة هو يحيى بن ابراهيم اللمتوني، الذي طاف بالشرق، وأطلع على تعاليم الاسلام ودان به. والآخر هو عبدالله بن ياسين الكزولي. وقد افتتن اللمتونيون بعبدالله وجعلوه زعيماً لهم فتسمى بالامام، واعتبر أبوزكريا يحيى بن عمر زعيم المثلثين نفسه تابعاً للامام، وتلميذاً له، فاخاروه لقيادة المجاهدين في سبيل الله. واتخذ اللمتونيون لأنفسهم اسم (المرابطين)، الذين ينذرون أنفسهم في الثغور للدفاع عن أرض الاسلام، والجهاد في سبيله.

ودفعت الحاسة الدينية هؤلاء الرجال الأشداء الى بسط نفوذهم على مورتانيا، وكان أبوزكريا زعيم اللمتونيين، أشد الناس جرأة وشغفاً بالجهاد، فسقط ذات يوم قتيلًا، فاختر الامام أخاه أبا بكر بن عمر مكانه، وكان الامام عبد الله مؤسس الدولة المرابطية شديد التقشف في مأكله وملبسه، شديد التعصب لرأيه ومذهبه، يفرض على أصحابه الورع والبساطة، والتمسك بأهداب الدين.

وفي عام ٤٥٢هـ (١٠٥٩م)، قتل الامام في إحدى المعارك مع أهل (تاسنا) فاستقل أبو بكر قائد المجاهدين بالأمر دون مشاركة. ولما اتسع ملك المرابطين، وتزايد عددهم، رأى أبو بكر أن يبني له ولجماعته حصناً يتخذونه قاعدة، فاختر مدينة مراکش، وشرع في بنائها عام ٤٥٤هـ (١٠٦٢م)، وفي تلك الأثناء نشب قتال بين قبيلتي لمتونة وكدالة فأسرع أبو بكر الى الصحراء ليحول دون اقتتال القبيلتين، وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين في مراکش، نائباً عنه، وكلفه بتولي أمر إتمام بنائها.

كان يوسف رجلاً مقدماً واسع الذكاء، بعيد النظر، طموحاً، ولكنه شديد البساطة في حياته، فطمع بالزعامة، وألف لنفسه جيشاً كبيراً. ولما عاد أبو بكر بعد مدة طويلة قضاه متقلداً في الصحراء خرج يوسف للقائه بجيش ضخم فارتاع أبو بكر، وقرر التنازل ليوسف عن الزعامة، وعاد هو الى الصحراء.

اتسع ملك يوسف حتى شمل جميع غربي إفريقيا، من تونس الى مورتانيا، ولما ساءت حالة المسلمين في الأندلس رأوا أن يستنجدوا بيوسف كما رأينا، فخف لتجدهم، وانتصر على الاسبان، لكنه وجد أنهم لن يقروا على الصمود، وأنهم لم يتعظوا بما تم عليهم من الخذلان، بسبب تنافرهم، واقتتلهم فيما بينهم، واستعانهم بالاسبان لمحاربة اخوانهم، فقرر القضاء عليهم، وتوحيد الأندلس تحت يده. توفي يوسف بن تاشفين في المحرم من عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م)، توفي يوسف بن تاشفين



عهدده ابنه أبا الحسن عليّ بن يوسف ، وكان علي وأفر العزم ، واسع الأفق ، دخل الجزيرة غازياً أكثر من مرة ، وانتصر على الاسبان أكثر من مرة ، ولكن النفوريين المرابطين وبين الأمراء الأندلسيين الموجودين في الثغور الشمالية أدى الى استعانة هؤلاء بالاسبان على المرابطين ، فأدى ذلك الى سقوط عدد من أمهات مدن الثغور ، مثل سرقسطة ، بيد الاسبان .

وخلف تاشفين بن علي أباه في الملك ، وكانت سلطة المرابطين قد بدأت تضعف ، واحتل النصاري كثيراً من المواقع الاسلامية ، وتناولوا على المسلمين حتى وصلت جيوشهم ضواحي قرطبة وأشبيلية تنهب وتقتل وتسبي ، وفي نفس الوقت قامت في المغرب حركة الموحدين ، وأخذت تقوى وتشتد حتى قضت على المرابطين في المغرب .

توفي تاشفين بن علي عام ٥٣٩هـ (١١٤٥م) ، فخلفه ابنه ابراهيم ، وفي عهدده احتل الموحدون مراكش عاصمة المرابطين ، ثم قضوا على حكم المرابطين قضاء تاماً .

٧٨ - الموحدون :

خرج في عهد يوسف بن تاشفين رجل من قبيلة مصمودة اسمه عبد الله بن تومرت ، الى الأندلس ومصر وبغداد ، طلباً للعلم والتفقه في شؤون الدين ، وقابل في بغداد الامام الغزالي ، وأخذ عنه ، وعاد الى وطنه عام ٥١٠هـ (١١١٦م) . ولما عاد أخذ يهاجم الحكام المرابطين في خطبه ، وينعى عليهم الترف والفجور ، ويدعو الناس الى الزهد والتقشف . وطاف في بلاد المغرب يعظ الناس ، ويدعوهم الى الخير ، ومحاربة الفساد ، فالتف الناس حوله ، وكان من أنشط تلاميذه رجل يدعى عبد المؤمن ، لازمه وأخذ عنه ، ثم لاحقته السلطات المرابطية فهرب مع خواص تلامذته . وعاد ففوي أمره وبايعه الناس ، وتلقب بالمهدي ، وسمى جماعته بالموحدين ، أي الداعين الى وحدانية الله .

وفي عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) ، حقق الموحدون أول نصر لهم على المرابطين ، وتالت انتصاراتهم عليهم ، وجعل المهدي تلميذه عبد المؤمن قائداً لقوات الموحدين . وفي رمضان من عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) ، توفي المهدي فخلفه عبد المؤمن ، وتابع جهوده حتى أزال دولة المرابطين من المغرب ، واستولى على عاصمتهم مراكش عام

٥٤٠هـ (١١٤٥م)، وتابع ملاحظتهم حتى استولى على جميع ما كان بيدهم بما فيه لأندلس.

وكان لتدخل الموحدين في الأندلس مثل الأثر الذي كان لتدخل المرابطين فيها، إذ أوقف جهد هذه القوة الناشئة اندفاعه الأسبان، وآخر سقوط الأندلس.

وفي عام ٥٩١هـ (١١٩٥م)، حقق الخليفة الموحي المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، انتصاراً رائعاً على الأسبان في معركة الأرك (أركوش^(١))، - قرب بطليوس - لا يقل أهمية عن انتصار المرابطين في الزلاقة، لكن الموحدين منوا بهزيمة ساحقة عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م)، في معركة العقاب (التل)، وتسميها الروايات الأسبانية (لاس نافاس دي تولوسا^(٢))، فقد استنجد الأسبان بأخوانهم المسيحيين في أوروبا فجاءهم عدد كبير من المتطوعة الألمان والانكليز والفرنسيين، وتجمعت لهم قوات كبيرة من ممالك أسبانيا، فتوجه إليهم الخليفة الموحي الناصر بن المنصور بالله، على رأس جيش كبير، قدرته الروايات بنصف مليون جندي، والتقى الفريقان عند مكان يعرف بالتل، ودارت الحرب، وثبت الموحدون وكادوا يهزمون عدوهم، لكن بعض الخلل وقع في صفوفهم أدى إلى انكسارهم في النهاية، وتفرق الجيش، ولم ينجح الخليفة بنفسه إلا بشق الأنفس، وعاد فالتزم بيته في مراكش حتى مات غماً وحزناً.

٧٩ - تفسخ الدولة الإسلامية بعد معركة العقاب:

انهارت سلطة الموحدين في الأندلس وفي المغرب إثر انكسارهم المريع في معركة العقاب، وآل الملك بعد موت الناصر إلى ابنه القاصر أبي يعقوب يوسف المستنصر بالله، وعمره ١١ سنة فقام بأمر الملك أعمامه ووزرائه؛ وكان في الأندلس أربعة من هؤلاء الأعمام يحكمون مقاطعاتها، ولم يكن الأخوة متفقين فيما بينهم، ولم تكن سيرتهم في الشعب الذي يحكمونه حسنة، فنقم عليهم وسخط. وعلى الرغم مما كانت عليه الممالك الأسبانية إذ ذاك من تنازع فيما بينها، فإنها استطاعت أن تتنزع من المسلمين

١ - بالأسبانية (Alarcos).

٢ - وبالأسبانية (Las Navas de Tolosa).

كثيراً من المدن والقلاع ، حتى بلغ الأمر بمغامريهم أن وصلوا الى بسائط أشبيلية وقرمونة ، يخربون وينسفون ويأسرون .

وفي عام ١٢٢٤ ، مات الخليفة الطفل المستنصر غير مخلف عقباً فقام بأمر الملك في مراکش عم أبيه أبو مالك عبد الواحد .

٨٠ - خروج الأندلس من ملك الموحدين :

اشتد التنافس بين أفراد البيت الحاكم الموحيدي ، وقامت بينهم حروب ومعارك ، فطمع الأندلسيون في الخلاص من حكمهم ، وثار في منطقة مرسية أبو عبد الله محمد بن يوسف ، سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين ، فاستولى على مرسية ، ونادى بنفسه أميراً على المنطقة باسم (المتوكل على الله) ، وحاول جمع الأندلسيين حوله ، وتآلبهم معه لقتال الموحدين ، وليس السواد معلناً الطاعة لبني العباس ، فأسرعت المدن الأندلسية الكبرى الى الاعتراف بطاعته ، وأعلن الجهاد ضد الاسبان ، وسار في عام ١٢٣٠ م ، لقتالهم على رأس جيش كبير ، ولكن ألفونسو ، ملك ليون هزمه ، واستولى على مدينتي ماردة وبطليوس .

وعمل ابن هود على إسقاط الخليفة الموحيدي المأمون ، فخاف هذا ، وعقد معاهدة مع ملك قشتالة أمده الملك القشتالي على أثرها باثني عشر ألف رجل جعلهم المأمون حرساً له في مراکش ، فزاد ذلك في نقمة الشعب عليه في الأندلس وفي المغرب .

وبعد وفاة المأمون عام ١٢٣٢ ، استطاع ابن هود السيطرة على معظم مناطق الأندلس الباقية بيد المسلمين ، وأصبح بذلك أقوى أمراء المسلمين في الأندلس . وكان في الأندلس بجانب ابن هود أميران آخران موحدان ، أحدهما في بلنسية ، والآخر في أشبيلية كما كان في جيان أمير غير موحيدي ، هو محمد بن الأحمر النصري ، وكان هؤلاء الأمراء في نزاع مستمر على السلطة .

٨١ - سقوط بلنسية والقواعد الأندلسية الكبرى :

كان أمير بلنسية الموحيدي هو أبا عبد الله محمد ، فلما تعاضم أمر ابن هود خاف

الأمير الموحد علي ملكه منه فلجأ إلى ملك أراغون خايم الأول (جاقمة)، يطلب عونه، ويتعهد بأن يؤدي له الجزية، وأن يكون الأمير الموحد تابعاً له، فاستاء أهل بلنسية من ذلك، والتفوا حول زعيم منهم يدعى أبا جميل زيان ابن أبي الحملات، سليل آل مردنيش، أمراء بلنسية السابقين، وطردهوا الأمير الموحد. فلجأ أبو عبد الله إلى خايم يطلب حمايته، ويقال أنه اعتنق النصرانية حسياً رواه ابن خلدون. وفي عام ١٢٣٧م، زحف خايم على بلنسية بجيش ضخم، فاستنجد ابن مردنيش بابن هود، ولكن هذا قتل غيلة في المرية بينما كان يعد جيشاً لنجدة بلنسية، فيش زيان من العون، وحاول دفع خايم عنه، وعرض عليه أن يتنازل له عن جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة وبين نهر الوادي الكبير، ولكن خايم رفض العرض وأصر على فتح بلنسية، وبعد حصار طويل أجهد المسلمين وأتعبهم، اضطروا زيان إلى المفاوضة لتسليم المدينة إلى خايم، وتم الاتفاق على الشروط، ووقعت معاهدة التسليم في ٢٨ أيلول ١٢٣٨م (١٧ صفر ٦٣٦هـ)، وكان من شروط التسليم:

- ١ - تستسلم المدينة لملك أراغون، على أن يؤمن أهلها في أنفسهم وأموالهم.
 - ٢ - يحق لجميع من يريدون الهجرة إلى المناطق الإسلامية أن يخرجوا من المدينة بجميع أموالهم.
 - ٣ - يكفل ملك أراغون للذين يريدون البقاء حريتهم التامة في مزاوله شعائهم الدينية، والتكلم بلغتهم، والتقاضي لدى قضائهم بحسب شريعتهم وعاداتهم، ولا يكلفون بدفع ضريبة أكثر مما يدفعه الرعايا الآخرون.
 - ٤ - تستسلم لملك أراغون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقرا اليسرى.
 - ٥ - وفي نظير ذلك، تقوم هدنة بين خايم وزيان مدتها ثمانية أعوام.
- وإثر توقيع هذه المعاهدة دخل خايم مدينة بلنسية، وحول مسجدوها الجامع إلى كنيسة، وخرج من المدينة قراية خمسين ألف مسلم.
- لكن خايم لم يشأ الوفاء بالبند الرابع فقررت متابعة فتوحاته في الأراضي الخاضعة لزيان، ففتح جميع ما كان تابعاً لبلنسية من أرض.

٨٢ - سقوط المراكز الهامة :

اشتد التنافس بين الأمراء المسلمين بعد مقتل ابن هود، للفوز بها كان تحت يده

من أرض، وقد زاد ذلك في انقسامهم ومتاعبهم، وتحرك الاسبان يقطفون ثمرات هذه الخلافات بين المسلمين، فبدأت قواعد الأندلس الكبرى، ومواقعها الحصينة، تنساقط بيد الاسبان: فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦، بعد أن مكثت بيد المسلمين ٥٢٥ سنة، فهجرها أكثر سكانها. ثم سقطت مرسية عام ١٢٤٣ م. ثم أشبيلية عام ١٢٤٨ م، ولم يبق بيد المسلمين بعد فترة قصيرة غير إمارة غرناطة في أقصى الجنوب.

جميع الحصون والمواقع المحيطة به . ولم يكن في جيان كميات كافية من المؤن ، فأسرع ابن الأحمر لدفع الأسباب عن المدينة ، لكن الأسباب هزموه ، وتابعوا حصار جيان . وخاف ابن الأحمر أن تسقط جيان بيد الأسباب ، فيجر سقوطها سقوط العديد من القلاع والحصون الأخرى ، فقرر أن يقوم بمحاولة لعلها تنقذه ، فسار بنفسه الى معسكر ملك قشتاله ، وعرفه بنفسه وأعلن له طاعته ، فدهش فرناندو لجرأة ابن الأحمر وعانقه ، وعقد معه اتفاقاً كان من بنوده :

أ - يحتفظ أمير غرناطة بما تحت يده من المدن والحصون .

ب - يؤدي أمير غرناطة للملك قشتاله جزية سنوية مقدارها ٥٠ ألف مثقال من الذهب .

ج - يتعهد ابن الأحمر بأن يسرع بقواته لعون ملك قشتاله ، كلما طلب منه ذلك ، سواء كان ذلك لمحاربة المسلمين أو النصارى .

د - يتعهد ابن الأحمر بان يحضر اجتماعات مجلس التاج (الكورتس) ، كبقية الامراء التابعين للعرش .

هـ - يسلم ابن الأحمر قلعة جيان للملك فرناندو رهناً وتوثيقاً للعهد .

و - يتمتع ملك قشتاله عن الاعتداء على الأراضي التابعة لمملكة غرناطة .

وبعد هذه المعاهدة ، عاد ابن الأحمر الى غرناطة ، ودخل فرناندو جيان ، في نيسان ١٢٤٦م (٦٤٣هـ) وحول مسجدها الجامع الى كنيسة . وأقام في قلعتها حامية قشتالية قوية .

٨٥ - فوائد الاتفاق للجانبين :

ومنذ ذلك اليوم استقر ملك بني الأحمر في جنوبي الأندلس ، وبدأ عهد دولتهم التي امتد حكمها حتى سقوط غرناطة في ٢ / ١ / ١٤٩٢م . وأخذت شكلها التاريخي . وكان طول هذه المملكة من الشرق الى الغرب حوالي ٢٠٠ كيلومتر . أما عمقها من البحر ، فقد كان في الغرب قرابة مئة كيلومتر ، بينما يبلغ في الشرق حوالي مئتين . أما أهم المدن في هذه المملكة فهي : غرناطة والمرية ومالقة ، وروندة وبسطة ولوشة . وكانت تغطي أرض المملكة سلسلة من الحصون والقلاع الحصينة ، التي توفر حماية كافية ، وتؤمن عمليات الدفاع عنها . وتجعل حركة الجيوش العدو أمراً صعباً .

يعتبر المؤرخون الأجانب، ان الملك فرناندو هو المؤسس الحقيقي لمملكة غرناطة لأنه اتفق مع ابن الأحمر، ويسرله الوقت والحماية الكافيين، لتوطيد دعائم ملكه، ويعملون تصرف الملك القشتالي بعدد من الدوافع والاسباب الخاصة ومنها:

١ - مهد هذا الاعتراف بابن الأحمر، السبيل أمام النصارى للسيطرة الكاملة على المناطق الاسلامية الأخرى، الواقعة خارج غرناطة. وفي الواقع فان القشتاليين افادوا من تحالفهم مع ابن الأحمر فوائد جلى، إذ تدخل ابن الأحمر في كثير من الحالات التي استعصى فيها على القشتاليين التغلب على الحصون، وخاصة اشبيلية، فكان يقنع المسلمين بعدم جدوى المقاومة، ويتوسط بين الجانبين، ليحصل المسلمون على أفضل شروط الاستسلام.

٢ - ان التنافس الشديد بين مملكتي اراغون وقشتالة، والتسابق بينهما الى افتتاح الاراضي الاسلامية، جعل ملك قشتالة يفضل محالفة ابن الأحمر، ليعجل بذلك افتتاح الاراضي الاسلامية الباقية، إذ كانت هذه المناطق تفضل الاستسلام لحليف ابن الأحمر، لقاء حصولها على شروط معقولة.

٣ - خاف فرناندو ان يحمل اليأس المسلمين على الاستماتة في المقاومة، لذلك فضل ان يكون للمسلمين منطقة يمكنهم اللجوء اليها، وبذلك تسهل مهمة الفتح.

٤ - اصبحت غرناطة تعج بعشرات الالوف من المحاربين الأشداء، الذين نزحوا اليها من جميع المناطق فلم يكن من العقل خوض معركة مع هذه الالوف المدربة من الرجال الأشداء، الذين يضطرمون حفدا على الاسبان وغيظاً منهم.

وأياً ما كانت الاسباب التي ادت الى قيام مملكة غرناطة واستقرارها فان ملك قشتالة وجد من مصلحته ان تكون المملكة الجديدة حليفة له، تؤيده في التنافس القائم بينه وبين ملك اراغون. ولا شك في ان المسلمين افادوا من هذا التحالف، أيضاً إذ مكنهم من تدعيم ملكهم، وارساء أسسه، وبناء دولة قوية قاومت الاحداث قرابة قرنين ونصف القرن.

ولا شك في ان مملكة غرناطة تمكنت من مقاومة هجمات اعدائها الشاليين، بفضل توافر ثلاثة عوامل اساسية، فلما فقدت هذه الاسباب انهارت، وانهار معها آخر معقل عربي في شبه الجزيرة. وهذه العوامل هي:

أ - تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة، وتصميم رجالها على الموت في الدفاع عن ارضهم. ولكن هذه الوحدة الوطنية تصدعت في آخر عهد المملكة، وبدأ هذا

التصدع بتفسيخ البيت النصري المالك، فسرى الانقسام الى الشعب، وأخذ يضرب بعضهم بعضاً.

ب - تنازع الممالك النصرانية في الشمال، وتنافسها، وقد كان لذلك أثر واضح في بقاء مملكة غرناطة إذ حال هذا النزاع دون اتخاذ تدبير موحد مخلص ضد المسلمين. ولكن حينما اتحد تاجا قشتالة وأراغون، بزواج وارث عرش اراغون بوارثة عرش قشتالة عام ١٤٦٩، زال التنافس، ووحدت المملكتان خطتهما للانتهاء من وجود الجيب الاسلامي.

ج - تفاهم البيت النصري مع سلاطين المغرب، من بني مرين، وتعاون البيتين تعاوناً مخلصاً ضد نصارى اسبانيا. وقد كان لجهود سلاطين آل مرين، وللمجاهدين المغاربة، اكبر الفضل في دفع شر الطامعين في ارض غرناطة.

ولكن بني مرين عانوا محنة شديدة، أولاً بانهمزامهم امام القوات النصرانية المؤتلفة، وتحطم اسطوهم تحطماً تاماً. ثم باضطراب أمرهم في المغرب نفسه، الأمر الذي صرفهم عن انجاء الأندلس، فكان لذلك أبعد الأثر في تقرير المصير المحزن، للحكم العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية.

سقوط غرناطة

٨٦ - توحيد تاجي قشتالة واراغون :

ارتقت الملكة ايزابيلا عرش قشتالة، وكانت قد اهرت بملك صقلية، فرناندو دوك مونث بلان الوارث الشرعي لعرش اراغون، وسارت الأمور بينهما سيرا حسناً، في بادئ الأمر، ثم حدث خلاف بين الزوجين، حول ممارسة صلاحيات الحكم. ولكن رُئي، حسماً لهذا الخلاف، تقسيم الصلاحيات بينهما، فاكتمست الملكة بحبة زوجها وثقتة. ولتصرف الملكة انظار الناس عن الفوضى والفساد في مملكتها، وجدت ان افضل وسيلة لذلك هي إشغالهم بمحاربة المسلمين في مملكة غرناطة، إذ كانت تطمح في ان يقرن اسمها في التاريخ، باخراج المسلمين من اسبانيا. ولكن كانت تقوم في وجهها صعوبتان، دون تحقيق هذه الأمنية الغالية عليها:

١ - وجود معاهدة بين مملكتي قشتالة وغرناطة. وقد جددت هذه المعاهدة عام ١٤٧٨، بين الملكة، وبين مولاي أبي الحسن ملك غرناطة. وقد ادخل في هذه المعاهدة بند يسمح لكل من الجانبين بالقيام بالغارات، ومهاجة الحصون الواقعة على الحدود، بشرط ان لا يكون مع المهاجمين مدافع، وبشرط ان لا يدوم حصار حصن من الحصون اكثر من ثلاثة أيام.

٢ - ان حالة المملكة الاقتصادية والمالية لم تكن لتسمح بشن الحروب واحتمال نفقاتها. كما كان الملك يعارض في اشغال نفسه في حرب قد تكون طويلة الأمد، تهم مملكة قشتالة وحدها. ولكن الظروف المؤاتية لتحقيق مطامع الملكة، ما لبثت ان توافرت، فاشعلت الشرارة الأولى لتيران الحرب.

٨٧ - استيلاء المسلمين على حصن الصخرة:

فاجأ مولاي أبو الحسن، حصن الصخرة الواقع في الجهة الغربية على حدود

مملكة غرناطة - ليل ٢٦ - ٢٧ كانون الأول ١٤٨٠ م - وتمكن خلال وقت قصير من القضاء على مقاومة حاميته وأسر من تبقى حيّاً من رجال الحامية ، ومن كان في الحصن من سكان ، فكانوا حوالي ١٠٦٠ شخصاً .
وتعالت صيحات الاسبان ، وارسلت الملكة الى أبي الحسن تطالبه باعادة الحصن ، والتعويض عن الأضرار التي لحقتها بالحامية والسكان . ولكن أبا الحسن ، رد بأن معاهدة عام ١٤٧٨ تسمح بها قام به . فسكتت الملكة على مضض . وادرك أبو الحسن ان الحرب لا بد واقعة ، فانصرف الى الاستعداد .

٨٨ - استيلاء الاسبان على حصن الحامة :

أخذ الاسبان يتحينون الفرص للانتقام لما حل بهم في حصن الصخرة . وبدؤوا يتجسسون على الحصون الاسلامية لمعرفة أوضاعها ، وقوة حامياتها ، ليضربوا ضربتهم . وفي أوائل عام ١٤٨٢ ، علم مركز قادس (رودريكو بونسه دوليون) ، من جواسيسه ان حصن الحامة الواقع جنوبي غربي غرناطة سيء الحراسة ، وان مباغتته ممكنة . فأرسل شخصاً من قبله يستطلع حقيقة الأمر . وعاد الرسول يؤكده اقوال الجواسيس . وبعد ان اتصل بحاكم مقاطعة الأندلس في اشبيلية ، جمع حوالي ٧٠٠٠ رجل وسار بهم في طرق ملتوية بعيدة عن الأنظار . وعند منتصف ليل ٢٦ / ٢٧ شباط ١٤٨٢ م ، انقض على حامية الحصن ، والتحم معها في عراك دام طوال الليل واليوم التالي كله . ولكن الحصن لم تكن فيه قوة كبيرة ، إذ كان جميع من فيه ٦٠٠ عائلة مجموع افرادها ٣٨٠٠ شخص . فانتهدت المعركة مساء اليوم التالي ، بعد ان قتل من رجال الحامية ٨٠٠ رجل ، وأسر من تبقى في الحصن من الرجال والنساء والأطفال .
ولما اتصل نبأ الهجوم الاسباني بأبي الحسن ، أسرع على رأس من تجمع لديه من الرجال آملاً ان يصل في الوقت المناسب فيدفع الاسبان عن الحصن ، ريثما تكون بقية قواته قد تجمعت والتحقت به . ولكن أبا الحسن لم يصل الا بعد سقوط الحامة ، فشن هجمات على الاسبان في الحصن لاستعادته فلم يوفق . فانسحب ليجتمع القوات ، وبعد قليل عاد على رأس خمسة عشر ألف جندي وعدد من المدافع ، وهاجم الحصن بعنف بالغ ، فصمدت له الحامية الاسبانية ، وارسلت تستنجد بأشبيلية فأسرع الملك فرناندو بالاستعداد للسير بنفسه ، وأرسل من أشبيلية قوة قوامها ٤٥ ألف رجل بقيادة دوك مدينة شذونه (انريك جوسهان) . ولما رأى أبو الحسن القوات

الاسبانية تقترب من ميدان المعركة انسحب.
ولكن أبا الحسن ما كان يطيق ان يترك هذه الحربة مغروسة في جنب غرناطة،
فاصبح همه استعادة الحامة كما أصبح هم الاسبان الاحتفاظ بها والدفاع عنها، وتقوية
حصونها وحمايتها ومدها بالمؤن والسلاح. وهكذا اصبحت الحرب محتومة بين
الجانبين.

٨٩ الخلاف في البيت النصري:

كانت مملكة غرناطة تعتمد في دفاعها حتى ذلك الحين على العنصرين الهامين
التاليين:

- ١ - وجود عدد كبير من الحصون والقلاع الحصينة التي تغطي المملكة، وتجعل تقدم
العدو في ارضها امراً بالغ الصعوبة. ولكن اسوار هذه الحصون، التي كانت قادرة
على مقاومة هجمات العدو في الماضي، اصبحت اضعف من ان تحتل هجمات
المدفعية، التي اخذت تظهر في الحروب سلاحاً ناجحاً لقهر الحصون.
- ٢ - وجود جيش قوي ومتمرس بالحروب، أصبح فرسانه مضرباً للمثل في الشجاعة
والشهامة والتقاليد الحميدة. وقد وصف احد الكتاب جيش غرناطة بعبارات مثيرة،
حين قال:

(ان جميع عرب غرناطة قد تمرسوا بالحروب، وتدريبوا على السلاح، وكانوا
يمتازون في الحملات الصغيرة، (إذ كانت صدمتهم الأولى لا تقاوم. وكانوا ميالين
الى اقامة الكمائن. ويبحثون عن الملاجئ، وراء الأسوار والجدران، ويتراجعون
أمام حصار طويل، ويتفرون بعد أيام من المسير).

وكان لغرناطة في الماضي اسطول قوي، ولكنه أصبح مهملاً فضعف شأنه مع
تمادي الايام.

ولكن هذين العاملين فقدوا أهميتهما: الحصون فقدت أهميتها أمام المدفع،
والجيش ضعف بالانقسام على نفسه نتيجة للانقسام الذي حدث في البيت الحاكم،
في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ العرب في الأندلس. بدأ الخلاف في البيت النصري
بين زوجة السلطان أبي الحسن، ستي عائشة (وتعرف بالحرّة) وبين محظيته الاسبانية

الاصل ثريا (وكان اسمها ايزابيل دوسوليس). فقد كان السلطان متزوجاً من عائشة وأنجبت له ابنه وولي عهده ابا عبد الله الصغير. ثم وقعت في يده فتاة اسبانية، من اسرة نبيلة اسمها ايزابيل دوسوليس، فأسلمت وتسمت باسم ثريا، فسيطرت بدلالها وجمالها على الملك الشيخ، وأنجبت له عددا من الابناء. ثم اخذت تسعى لتجعل ابنا الاكبر وليا لعهد أبيه بدلا من أبي عبد الله الصغير. ولتنجح في مسعاها، عملت على تحريض الملك على ابنه الصغير وأمه عائشة.

وسرعان ما بدأ الصراع بين الامراتين، وأخذت كل منهما تجمع حولها الانصار والمؤيدين حتى اصبح الصراع مكشوفاً بينهما حينما كان أبو الحسن يهاجم حصن الحامة في ربيع عام ١٤٨٣، فاضطر أبو الحسن للعودة الى غرناطة لحسم الخلاف. وسجن عائشة وابنها. ولما عاد أبو الحسن لمتابعة حصار الحامة، تمكنت عائشة من اغتنام الفرصة واطلاق سراح ولدها، فها لبث الصغير ان اعلن الثورة على أبيه، ولم يسمح له بدخول غرناطة، فلجأ أبو الحسن الى حاكم المرية، وهناك جمع قوة ضمها الى جيشه وسار الى غرناطة فدخلها. وانحاز ابنه بمن معه من الرجال الى حي البيازين، واستمرت الحرب بينهما وقتاً طويلاً.

وجدت الملكة الاسبانية هذه الفرصة ذهبية لا يمكن تفويتها، ورجت زوجها ان ينضم اليها في تنفيذ المخططات التي كانت تحلم بها منذ زمن بعيد. واعلمته بانها ستعمل على توفير المال اللازم لسد نفقات الحرب من المصادر التالية:

- أ - ستفرض ضريبة استثنائية على المدجنين، ومقدارها دوكا واحدة على كل رأس.
- ب - ستحصل محاكم التفتيش على ان تدفع لخزينة الدولة مجموع الغرامات والمصادرات التي ستقضي بها.
- ج - ستتدخل لدى البابا، ليحمل الكنيسة على أن تتنازل لخزانة اسبانيا، عن ثلث حصتها من العشر.

فقبل الملك رجاء الملكة، واخذ يعملان مع البابوية من أجل حصة الكنيسة، ومن أجل اعلان الحرب التي يريدان شنها على المسلمين، حرباً صليبية مقدسة. ونجحاً في المسعيين، اذ اصدرت البابوية نداء لمساعدة الملكين الاسبانيين في حرهم المقدسة ضد المسلمين. واصدرت صكوك غفران بيعت في جميع انحاء اسبانيا، وكانت حصيلتها شيئاً كثيراً. اما ثلث العشر الكنسي فكانت حصيلته حوالي مئة الف فلوران.

٩ - بدء الصراع المصري:

تقدم فرناندو على رأس قواته الى حصن لوشه، فحاصره في ٥ تموز ١٤٨٣، واستمر في حصاره حتى ١٤ منه، لكنه اخفق في الاستيلاء عليه، إذ أسرع أبو الحسن الى انجاد الحصن، فخرج من غرناطة تاركاً الصراع مع ابنه واتجه بقواته الى لوشه، مقدراً بأنه إذا انتصر على الاسبان، فإن الشعب سينحاز اليه. فاضطر فرناندو الى الانسحاب. ولما انسحب انقض أبو الحسن على الحصن الاسباني (كافيت لا ريال)، واستولى عليه في آب. لكنه لما رجع الى غرناطة، وجد ان الشعب كله ناظم عليه، وانه انحاز الى ابنه أبي عبد الله. وان وزيره يوسف ابن كماشه، استولى في غيابه على قصر الحمراء، فلم يشأ الملك أن يضيع جهوده في قتال ابنه، في وقت يظهر فيه خطر الاسبان ملحقاً. فسار الى مالقة، حيث كان اخوه أبو عبد الله الزغل، يتولى حكمها باسمه. وهكذا اصبح في مملكة غرناطة الصغيرة ملكان يتنازعان الملك، ويجبران الشعب معهما الى الانقسام والافتتال، في الوقت الذي اتحدت فيه جميع القوى النصرانية في اسبانيا على قتالهما، وسحقهما.

٩١ - نصر أبي الحسن في مالقة:

في أواسط آذار ١٤٨٣ سار مركيز قادس على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل، لتخريب بسائط مالقة، والاستيلاء على الحاصلات التي تتمون بها المدينة. فأسرع أبو الحسن على رأس ٥٠٠ فارس لمقاومة الاسبان، وتمكن من القضاء عليهم، رغم قلة عدد رجاله، وعاد فرسانه الى مالقة يحملون قرابة الف رأس من رؤوس القتلى، ويجرون وراءهم ٩٠٠ اسير منهم ٢٥٠ نبيلاً، وكان دخول أبي الحسن مالقة يوماً مشهوداً، تردد صدهاء في جميع أرجاء الأندلس.

٩٢ - أسر أبي عبد الله، وبدء الكارثة:

شعر أبو عبد الله بضعف مركزه تجاه النصر الذي حققه أبوه، فاراد ان يقوم بعمل بطولي يضمن له استمرار تأييد الشعب الغرناطي. فأعد للجهد عدته، وخرج

في ٢٠ نيسان ١٤٨٣م، على رأس ١٨٠٠٠ رجل متجها الى حصن (اللسانة) لياغته. ولكن قادة الحصون الاسبان كانوا يقظين، فاعلنت اشارات التحذير والاستغاثة في جميع المناطق بواسطة اشعال النيران على رؤوس الجبال، واخذت الكتائب الاسبانية تتجمع للدفاع عن الحصن. وشعر أبو عبد الله وكبار قادته بفشل خطتهم، وبخطر اندفاعهم في أرض العدو، فقرروا الانسحاب. وعاد الغرناطيون بانتظام. ولكن الاسبان انقضوا عليهم في الطريق فوق الخلل في صفوف المسلمين، وتدافعوا منهزمين. ولما وصل أبو عبد الله الى ساقية كان عليه اجتيازها سقط حصانه، ولم يتبته رجاله الى ملكهم، فاضطر الى الاختباء، بعد ان قتل حصانه. ولكن جنديين اسبانيين عثرا عليه، واستاقاه الى (كونت قبره^(١)) الذي اعلم الملك بأسره فاسرع بالسفر الى قرطبة حيث حمل اليه أبو عبد الله. وأخذ في مفاوضات لاطلاق سراحه. وتقول الرواية الغربية^(٢) ان الملكة التي يكمن في اعماقها كره رهيب للعرب والمسلمين، كانت تريد استبقاء أبي عبد الله في أسرها، لتتلذذ برؤية أمير مسلم تحت سلطانتها، ولكن فرناندو البعيد النظر كان يريد اطلاق سراحه ليحقق اغراضه، بدوام تقسيم المملكة المسلمة، واستمرار ضعفها. واسفرت المفاوضات بين فرناندو وبين الصغير عن اتفاق على اطلاق سراح الصغير بالشروط التالية:

- ١ - يعلن أبو عبد الله تبعيته للملك اسبانيا.
- ٢ - يتنازل عن الحصون التي يستولي عليها القشتاليون، مما تحت يد أبي الحسن.
- ٣ - يتعهد الصغير بأن يسمح للجيش القشتالي بالمرور في الأراضي الخاضعة له كلما طلب الملك القشتالي ذلك.
- ٤ - يطلق خلال خمس سنوات سراح ٧٠٠ أسير، ممن هم تحت يده، على ان يختار ملك قشتاله ٣٠٠ منهم.
- ٥ - وتحقيقا للوفاء بهذه الشروط، يسلم أبو عبد الله ابنه البكر، و ١٢ شخصاً من كبار رجال دولته ليقوا رهاثن بيد ملك قشتاله.
- ٦ - يدفع أبو عبد الله فدية مقدارها ١٤٠٠٠ دينار من الذهب.

(١) قبره بلدة في شمال غرناطة الغربي وتدعى اليوم (Cabra).

(٢) الكونت سيركورج ١ ص ٢٩٣.

٩٣ - اطلاق سراح أبي عبد الله، وتجدد النزاع بين الوالد والابن :

لما علم أبو الحسن بأسر ابنه، أسرع فوراً الى غرناطة ودخلها، وخاف ملك قشتالة من عواقب عودة وحدة المملكة الاسلامية، فأسرع باطلاق سراح أبي عبد الله الصغير، وأعلن عن منحه هدنة مدتها سنتان لكل مدينة تعلن ولاءها للملك الشاب. فاضطر ذلك المدن التي خضعت في الماضي لأبي عبد الله الى التردد في اعلان انضوائها تحت علم أبي الحسن. وبالتالي فإنه جعل أمر توحيد أجزاء المملكة مرة أخرى شيئاً صعباً.

أطلق الملكان سراح أبي عبد الله فسار الى غرناطة، وحاولت والدته تسهيل أمر إدخاله إلى حي البيازين، لكنه بعد أن حارب أباه أياماً اضطر إلى الانسحاب إلى المرية، واتخذها قاعدة له. وشرع يهاجم منها المناطق الخاضعة لأبيه، ويعيث فيها فساداً وتخريباً.

وأراد فرناندوان يزيد في حدة الخلافات بين العرب، وإن ينهك قوى الوالد والولد، قبل أن يشرع في عمله الحاسم ضدهما. فاصدر أمره إلى القادة الاسبان في جيان ومرسية بضرورة تقديم العون لأبي عبد الله ضد ابنه. واخذت القوات الاسبانية، بعد ذلك، تقوم بمهاجمة المناطق الغربية من مملكة غرناطة، فتمكنت من الاستيلاء على أكثر من ٣٠٠ حصن في مرج غرناطة، بين حزيران وتشرين الأول.

٩٤ - موت أبي الحسن وتسلم أخيه الزغل :

وتتالت الاحداث والخلافات بين الوالد والولد من جهة، وبين الوالد والاسبان من جهة أخرى، وكان الاسبان قد ارهقوا المملكة، واستولوا على كثير من حصونها وقلاعها ومدنها. وساءت صحة أبي الحسن، وكف بصره، ولم يعد قادراً على حمل امانة الحكم، فاقنعه ابنه يحيى النير بالتنازل عن العرش لأخيه الزغل ففعل.

تسلم الزغل الحكم في ظروف صعبة للغاية، ومع انه كان رجلاً شجاعاً مقداماً، إلا أن الظروف المحيطة بالمملكة، كانت اقوى منه. وكانت قوته أدنى من قوة خصومه بكثير. وقد حقق فعلاً بعض الانتصارات على الاسبان لكن ذلك لم يكن له نتيجة عملية، ولم يمنع تساقط الحصون والقلاع بيد الاسبان.

٩٥ - تقسيم المملكة بين الزغل والصغير:

ولما طالت الخلافات بين الزغل وابن اخيه، وأنهكت قوى الشعب، وأضعفت ثقتة بنفسه وبحكامه، تدخل العلماء والفقهاء ووجوه الناس، واجبروا الجانبين على التفاهم، وانهاء الحرب بينهما، فاعطوا نصف المملكة للزغل مع الحمراء لتكون مقرا له، واعطوا النصف الآخر لأبي عبد الله، مع حي البيازين ليكون مقرا له. قبل الزغل بهذه القسمة، وأمل في أن يتمكن من التفرغ لرد غارات الاسبان وعدوانهم. ولكن الصغير لم يلبث أن تنكر للاتفاق، وأرسل الى الملك الاسباني، يرجوه مهاجمة مالقة الخاضعة لعمه، ويعدده بالساح للقوات الاسبانية بالمرور في أراضيه، ويتقديم العون لها. ولكن فرناندو، بدلا من أن يسير الى مالقة، سار الى حصن لوشه التابع للصغير، نظرا لأهميته الاستراتيجية، إذ إن سيطرة الاسبان على هذا الحصن، مع سيطرتهم على حصن الحامة، يجعلهم قادرين على شطط المملكة، وقطع الاتصال بين شرقيها وغربيها.

٩٦ - أسر الصغير ثانية:

تحرك فرناندو في أوائل عام ١٤٨٦، على رأس جيش مؤلف من ستين ألف رجل الى لوشه. وعلم أبو عبد الله بذلك فأسرع على رأس قواته للدفاع عنه، ودخل الحصن ليشارك في أعمال الدفاع مع الحامية. وجاءت القوات الاسبانية فاحاطت بالحصن، وأخذت تقصف اسواره ومنشآته بالمدفعية، واستمر الحصار مدة شهر كامل. فاحدثت المدفعية كثيراً من التخريب في التحصينات ووسائل الدفاع، فضعفت همة المدافعين، وشعروا بعدم جدوى المقاومة، فشرع أبو عبد الله في مفاوضة فرناندو، لتقرير شروط التسليم.

وقع أبو عبد الله اتفاقين مع فرناندو أحدهما سري، والآخر علني. أما السري منها فإنه يتضمن:

أ - استعداد أبي عبد الله لتسليم غرناطة عاصمة ملكه الى الاسبان، إذا ما تمكنوا من اخضاع عمه الزغل.

ب - قبول أبي عبد الله بأن يستبدل بلقبه الحالي - ملك غرناطة - لقب (دوق) وادي

أش، اعترافاً منه بتبعيته للملكي اسبانيا.
جـ - تبقى شروط المعاهدة السرية، في طي الكتان الى أن يتم اخضاع الزغل.
اما المعاهدة العلنية، فانها تتناول مصير السكان في مدينة لوشه، ومصير
أموالهم، وحريرتهم في البقاء في المملكة الاسبانية كمدجنين، أو الزواج بأموالهم
المنقولة الى حيث يرغبون. ولكن الاسبان لم يتركوا لأحد خياراً إذ اجبروا الجميع
على الهجرة.

وفي خلال شهر حزيران استولى فرناندو على كثير من القلاع والحصون في
مرج غرناطة، وأبدي الكثير من رجال حامياتها مقاومة مشرفة خليقة بتقاليد فرسان
غرناطة، ولكن التفوق العددي الساحق، الذي يتمتع به العدو، وقصف المدفعية،
كانا فوق احتياهم وجرائهم.

٩٧ - برنامج الملكين للاستيلاء على مملكة غرناطة :

بعد أن بلغت الأمور ما بلغته قرر الملكان الاسبانيان، جعل قضية الاستيلاء
على الأراضي المتبقية في أيدي المسلمين، القضية الأولى للمملكة. وعقد
(الكورتس) مجلس التاج^(١)، اجتماعاً في مدينة طركونة في شباط ١٤٨٤م، تقرر فيه
جعل مسألة الاستيلاء على مملكة غرناطة، اهم الأول للمملكة، وان تقدم على
جميع ما سواها من المسائل، وان تستمر الجهود المبذولة الى نهايتها. وتقرر طلب
تضحيات اكبر من الشعب. وحصلت الملكة من الكنيسة على ثلث عشرها لمدة
عشرين عاماً، مساهمة من الكنيسة في نفقات الحرب المقدسة. ووضع مخطط جديد
لسير المعركة، ينفذ على سبع مراحل :

أ - في المرحلتين الأولى والثانية يصار الى فتح النهاية الغربية من مملكة غرناطة، وهي
المنطقة الواقعة بين جبل طارق ومالقة.

ب - وفي المرحلة الثالثة تفتح المنطقة الشمالية، وهي منطقة لوشه ومقلين.

ج - وفي المرحلة الرابعة تفتح منطقة مالقة.

د - وفي المرحلة الخامسة، تفتح المنطقة الشرقية، وهي منطقة شرقي المرية.

(١) ويسمى أيضاً تجوزاً المجلس النيابي، مع أنه لم يكن في ذلك العصر مجالس نيابية بالمعنى
المعروف في العصور المتأخرة.

هـ- وفي المرحلة السادسة تفتح المنطقة الشالية الشرقية، بما فيها المرية ووادي آش.
و- وفي المرحلة السابعة، يتم فتح مدينة غرناطة والبشرات.

ووضع منهاج للعمل المستمر، الذي يمكن ان يؤدي الى ارهاق المسلمين،
وتحطيم قواهم المعنوية والمادية وكان مما اتفق عليه في هذا الصدد:
أ- يقوم الملك بحملتين في السنة إحداهما في فصل الربيع والأخرى في فصل
الخريف.

ب- في الأوقات التي لا تكون فيها حملات عسكرية، يتولى امراء الاقطاع، حماية
الثغور، ويبذلون جهدهم لمنع العرب من جني غلاهم، وذلك بالقيام بعمليات
تخريب مستمرة في الأراضي المجاورة لهم.

ج- تسهر الملكة والكاردينال على تأمين السلاح والمؤن، والعتاد للقوات المحاربة
الاسبانية.

وشرح الاسبان في تنفيذ هذا البرنامج بدقة، واخذت الحصون والقلاع العربية
تساقط تباعاً بيد الاسبان، نتيجة لهذا العمل المستمر المنظم. حدث كل ذلك
والمكان المسلمان عاجزان عن دفع هذا البلاء عن انفسهما وأرضهما، بل إنه يمكن
القول إن كلا منهما كان يشمت بعدوه المسلم إذا نزل به مكروه، وقد كان هم أبي عبد
الله الصغير الأول هو تحطيم عمه، ومنعه من تحقيق أي نصر على الاسبان، يمكن أن
يرفع من هيئته في نظر شعب المملكة، خافة ان يؤدي ذلك الى تضعضع مركزه هو.
فكان يتصرف وكأنه يريد تصفية المملكة في اقرب وقت.

وبرغم جميع هذه الخلافات الحادة التي مزقت وحدة المملكة، فقد اذاع كثير
من حاميات المدن والحصون دفاعاً مجيداً مشرفاً، أكبره المؤرخون الغربيون وذكروه
بكل احترام وتقدير.

ولن نطيل الحديث في كيفية تطبيق البرنامج الاسباني لاحتلال المملكة
الاسلامية، وانما نكتفي بالإشارة الى مختصر لتاريخ سقوط المدن الاسلامية الكبرى
الثلاث: غرناطة والمرية وبسطة.

٩٨ - استهداف مالقة:

تمكن فرناندو من احتلال رونده، في ٢٣ أيار ١٤٨٤، وهي اهم حصن يدافع

عن مدينة مالقة، بعد قتال بطولي قاومت فيه الحامية الصغيرة الهجوم العنيف الذي شنّه جيش اسباني عدته اربعون الف جندي، مزودين بالمدفعية. ولم يستسلموا الا بعد ان تهدمت جميع ابراج حصنهم، وغارت الأبار التي يستقون منها، فسمح الملك لمن في الحصن بالخروج الى حيث يشاءون. وبعد ان سقطت روندته سقطت بيد الاسبان اكثر القلاع والحصون القريبة منها، ونزح عنها اكثر سكانها الى غرناطة والى شمالي إفريقيا. وكانت هذه الحصون هي عدة الدفاع عن مالقة من جهة البر، إذ كان رجالها ينضمون الى حامية مالقة، حينما تتعرض للخطر. ووضع الملك في برنامجه ان يهاجم مالقة عام ١٤٨٧، فاستعد لذلك استعدادا خاصاً، واكتفى عام ١٤٨٦، بالقيام بعمليات محدودة ليوفر قواه لمعركة مالقة، اذ كان يقدر ان انتزاع مالقة من المسلمين سيحررهم من الميناء الطبيعي الهام، ويؤدي الى اقتطاع جزء كبير من مملكتهم، ويمنع عنهم وصول النجادات من المغرب.

باشر فرناندو بحشد قواته في قرطبة منذ أوائل شهر تموز ١٤٨٧، ولكنه علم في ذلك الحين ان أبا عبد الله تمكن من دخول غرناطة واحتلال حي البيازين، وانه يطلب عوناً من قشتالة، لتثبيت اقدامه فيها. فصفق الملك لهذا الخلاف يتجدد بين الملكين المسلمين، ويشغلها عن انجاد مالقة. وأراد الملك ان يزيد في ارتباطك الزغل، فأرسل بعض قواته الى البيازين لمساعدة الصغير، فوصلت هذه القوة الاسبانية، ودخلت البيازين، فنشبت الحرب في شوارع غرناطة، واستمرت بضعة أيام، دون ان يتمكن فريق منها من احراز نصر حاسم.

وسار فرناندو بقواته من قرطبة فوصل أمام حصن بلش مالقة، يوم ١٦ نيسان ١٤٨٧، وهو حصن قريب من مالقة، وشرع في حصاره. أما الزغل فإنه رأى أن لا فائدة من متابعة قتال ابن اخيه الصغير، وأنه من الخير له أن يسرع لانجاد بلش مالقة، فترك بعض قواته في غرناطة لمتابعة القتال، وسار بباقي جيشه الى لقاء الاسبان، وكان يقدر أنه سيجد في سكان الجبال القريبة من ميدان المعركة، مدداً لجيشه. ولكن حالة المملكة، واستمرار القتال بين العم وابن اخيه أدخل اليأس الى نفوس سكان المناطق المعرضة لخطر الغزو، لذلك شرع سكان المناطق المحيطة ببلش، يفاوضون الملك الاسباني على التسليم، ولما وصل الزغل، كان الأمر قد سوي. فارتبك الزغل، وخاف أن يؤدي تفاهم مسلمي المنطقة مع الاسبان الى قطع خط الرجعة عليه، وعلى جيشه إذا قدرت عليهم الهزيمة. فلم يقيم بمهاجمة

الاسبان، كما كان ينتظره أهل بلش مالقة ليقوموا هم من جهتهم بتن هجوم في نفس الوقت، يضع الاسبان بين نارين. وأخذ الزغل يتجول بعيداً في الجبال يراقب تطور الاحداث، فانصبت عليه المدافع الاسبانية، فتفرق جيشه، وفجأة وجد الزغل نفسه مع قلة من الرجال، فانسحب عائداً الى غرناطة، ولكنه علم وهو عائداً أن الصغير احتل قصر الحمراء، فتابع سيره الى المرية، التي يتولاها ابن اخيه.

ولما انسحب الزغل شرع قائد حامية بلش مالقة، رضوان بنيغش، بالتفاوض مع الملك لتقرير شروط الاستسلام. ولما كان الملك حريصاً على الاستيلاء على مالقة، تساهل مع حامية بلش، ليتفرغ للأهم. وفي ٢٧ نيسان وقعت اتفاقية بين الجانبين منح الملك فيها سكان بلش مهلة ستة أيام، وأماناً على أرواحهم، وضماناً لأموالهم، كما منحهم حرية الاختيار بين النزوح الى افريقيا وبين البقاء في أرض المملكة، في المناطق الداخلية، ليعيشوا كمدجنين. وفي ٣ أيار اخليت المدينة من سكانها، وتفرق أهلها. وبعد ذلك استسلمت حاميات خمسين قرية وحصناً مما حول بلش، على نفس الشروط التي استسلمت عليها بلش.

٩٩ - حصار مالقة :

تعتبر مالقة أكثر المدن مناعة في مملكة غرناطة، إذ كانت أسوارها يحيط بها ثمانون برجاً بارزاً، وأربع قلاع تتصل فيما بينها بسراديب سرية، وكانت القلاع تتمركز فيها قوة من المدفعية التي تستطيع السيطرة على جميع الاتجاهات والمواقع التي يمكن أن يحتلها جيش العدو. ولما سقطت بلش، انسحب حاكم مالقة يوسف بن كماشة، فتسلم القيادة في المدينة ثلاثة من الرجال الأشداء، هم: حامد سليم الثغري شيخ قبيلة غمارة، وإبراهيم الزناتة (او الزيناتي)، وثالث تقول الرواية الاسبانية إن اسمه حسن. وقد صممت الحامية بقيادة هؤلاء القادة الأبطال، على الصمود والقتال حتى النهاية، وعدم الاستسلام والرضى بالذل. وادرك فرناندو صعوبة المهمة التي ستواجهه إذا ما ثبتت الحامية على قرارها في المقاومة، وأراد أن يستميل القادة ويشتريهم، فارسل اليهم يعرض عليهم العروض السخية المغرية، ومن جملة ما عرضه على الثغري، أن يمنحه حصن ذكوان، وأربعة آلاف دينار من الذهب، فلم يقبل أحد من القادة التزحزح عن موقفه، ورد الثغري رداً نبيلاً، إذ قال له: إن مواطني العرب،

اختاروه للدفاع عنهم، كأفضل رجل فيهم، لذلك لن يكون أسوأهم ببيعهم تأميناً لمصالحه الخاصة.

ولما يش الملك من استمالة القادة لجأ الى التهديد، ليقع الشقاق والبلبل بين رجال الحامية، وفي أوساط الشعب، فأرسل الى المدينة يخبرها بين الاستسلام على نفس الشروط التي استسلمت عليها بلش مالقة، وبين الوقوع في الرق إذا ما أخذت المدينة عنوة، فلم يجده ذلك نفعاً، إذ اصرت المدينة على القتال.

ووصل فرناندو أمام مالقة يوم ٧ أيار، على رأس جيش قدرته الروايات بستين ألفاً، ولم يكن في المدينة غير ثمانية آلاف مقاتل يؤلفون القوة المدافعة، وكان معهم بعض (القوم) الذين اتوا من المغرب تلبية لداعي الجهاد، ونجدة اخوانهم في القومية والدين. وركز الملك مدافعه في الأماكن التي تسيطر على المدينة، وقد أظهر القائدان الثغري والزيناتي من الجرأة والحدق في اعمال الدفاع، ما أكبره المؤرخون الغربيون. وكان ابراهيم يقود عمليات الحامية، وقتال الاسبان خارج الاسوار، فيؤثر فيهم اثراً بليغاً، ويوقع الذعر في قلوبهم، حتى أخذ النبلاء الاسبان يرتجفون من مواجهة المسلمين في ميدان القتال، ويكرهون الهجوم على المدينة، لكيلا يصطدموا بالمسلمين وجهاً لوجه. فتقدموا الى الملك يعرضون عليه دفع نفقات الحصار مهما طال أمده لاختضاع المدينة بالجوع والانهاك، بشرط وقف الهجوم على المدينة^(١).

وبرغم ما كان يعانيه المسلمون من ضيق، واجهاد، وما كانوا يتحملونه من غدر الاسبان وغشهم، فان قادة الحامية ورجالها بقوا أوفياء للتقاليد العربية الاسلامية الحميدة، في النبل والشهامة، فقد التقى إبراهيم يوماً وهو عائد من ميدان القتال، بجمع من الصبية الاسبان، يلعبون وهم يظنون أنهم في مأمن من الخطر، فداعبهم إبراهيم بكعب رمحه، وقال لهم اذهبوا إن امهاتكم ينتظرنكم، ولم يفكر بايذاء أحد منهم ولا في اخذهم أسرى أورعائهم. ولما قال له أصحابه لماذا لم تضرب بسن رمحك قال: لم أجد فيهم شارباً. وقد ذكر الكونت سيركور هذه القصة، وعلق عليها بكثير من الاحترام والتقدير.

استمرت عمليات الحصار حتى شهر آب، وكانت الأسوار والابراج قد تهدمت، من كثرة ما احتملته من فذف المدفعية، ونفذت الاقوات والذخائر من

(١) الكونت سيركور ج ١ ص ٣١٢.

المدينة. وألح الألم والمرض على القوائد الثغري فانسحب الى قلعة جبل فارومع شجعان جيشه من القوم، وانسحب ابراهيم هو الآخر الى احد الأبراج المتهدمة لتابعة المقاومة. وحينئذ أخذ اغنياء البلدة في مفاوضة الملك على التسليم، وأرسلوا شخصاً يتولى المفاوضة عنهم، ويبدو أنه خائهم، إذ اهتم بتأمين مصالحه، ومصالح أقربائه، وحصل على ضمان حياة السكان.

ونتيجة للاتفاق سلمت المدينة الى الملك يوم ١٨ آب، واستسلم الثغري يوم ٢٠ منه، بعد أن نفذت ذخيره وأقواته، فقذف الملك به في السجن، ولم يشفع له جهاده ونبله وبطولاته، ولكنه بقي في سجنه وقيوده أكبر من فرناندو المنتصر عليه، كما يقول الكونت سيركور^(١).

ولم يكن مصير الزيناتي بأفضل من مصير صاحبه. وقد أظهر الملك - على ما يقوله الكونت سيركور - بعد ظفره في مالقة من أعمال الغش والخداع ما يثير الاشمئزاز والقرع والاحتقار^(٢). فقد كان في المدينة قرابة ٤٥٠ يهودياً، أعلن اخوانهم في مملكة قشتالة عن استعدادهم لافتدائهم، بمبلغ ٢٧ ألف دوكات من الذهب، فلما دفعوا الفدية قبضها الملك، وقال لهم إن هذا المال يعود إليه أصلاً، ولا يمكن أن يكون فدية لأهل مالقة، وبذلك قبض المال واسترق اليهود.

أما السكان العرب، وعددهم قرابة ١٢ ألفاً، فقد أراد الملك ان يستصفي أموالهم، وأن يحملهم على اخراج ما يخبثون من مال، فاعلن لهم أنه يقبل منهم اقتداء أنفسهم بدفع ٣٦ دوكا عن كل شخص، تدفع خلال سنة ونصف على أن يكون السكان كلهم متضامنين، فاذا لم يدفعوا كامل المبلغ، كان له أن يسترقهم. وجهد العرب في جمع المال، وأخرجوا كنوزهم، وحصلوا على أموال وإعانات من اخوانهم في غرناطة، وفي المناطق الأخرى، ولكن المبلغ المفروض كان كبيراً. فلم يتمكنوا من جمعه كله، فتسلم الملك المبلغ المجموع، واسترق أهل مالقة. وهو ما كان قد قرر في نفسه عمله على كل حال.

(١) ذات المرجع ص ٣١٤.

(٢) ذات المرجع ص ٣١٣.

تقع بسطة في الشمال الشرقي من غرناطة ، على ضفة نهر يسمى باسمها ، وتعتبر مفتاح المنطقة الشرقية كلها . وكانت توجد حولها . بساتين كثيفة ، تفصل بينها جدران (دكوك) ، تحده هذه البساتين ، وتجري فيها اقنية مياه الري ، فتجعل حركة الفرسان صعبة ، وتجعل المدفعية عديمة الجدوى . وبالإضافة الى حصون المدينة وأبراجها ، فإن كثيراً من الأبراج التي كانت تقوم بين البساتين ، تمكن الحامية من الدفاع عن المدينة ، إذ كان يعتبر كل برج منها ، وحدة دفاعية مستقلة ، تتطلب جهوداً خاصة للسيطرة عليها . وكان في قلعة بسطة حامية يبلغ تعدادها عشرين ألفاً ، إذ ان الزغل ادرك من حملة فرناندو لعام ١٤٨٨ ، أن هدفه المقبل سيكون بسطة ، فجمع فيها الأقوات والرجال والمؤن والذخائر لتكفي الحامية خمسة عشر شهراً ، وأرسل اليها خيرة رجال المملكة ، وأكثرهم تدريباً .

وفي ربيع عام ١٤٨٩ ، سار فرناندو على رأس قوات قدرت باثني عشر ألف فارس ، وخمسين ألف راجل ، فوصلها في أوائل حزيران . وجرت فوراً معركة بين الاسبان والحامية تمكن فيها الاسبان من دحر الحامية وردّها الى حصونها . وتقدم الاسبان الى الحصون الخارجية ، وحينئذ أدرك الملكان عظم المهمة التي سيواجهانها ، وأن الحصار سيطول ، فقررّا تخريب البساتين ، وهدم جدرانها العائقة لتقدم الفرسان والمدفعية ، وأمرا أربعة آلاف رجل القيام بهذه المهمة تحت حماية الجيش كله ، فشقوا طريقاً الى بسطة خلال أربعين يوماً ، وكانت المناوشات لا تنقطع بين الجانبين ، ثم رثي أن العملية تتطلب جهداً أكبر فقرر الملكان تحويل مياه نهر بسطة ، وإقامة سورين وأبراج لإقامة رجال المراقبة . وقد استغرق العمل في تنفيذ ذلك أربعة أشهر . وكان الخريف قد حل ، وأخذ البرد يشتد ويزعج الجنود فطالبوا بالسباح لهم بالعودة الى بيوتهم كما هي عادتهم دائماً .

ولكن الملكين أرادا الاستمرار وعدم تأجيل عملية الاستيلاء على بسطة لأن جميع الجهود المبذولة ستضيع سدى إذ إن المسلمين سيتمكنون من تخريب جميع ما بنوه وأقاموه ، فأمر الملكان ببناء أماكن تقي الجنود البرد والمطر . أما المسلمون فقد بقوا مصممين على الدفاع ، ثابتين عليه ، وفرسانهم يقومون كل يوم بتحدي الفرسان النصاري المشهورين ، ويدعونهم للمبارزة . فأمر الملك بمنع فرسانه من قبول التحدي

ضناً بهم، وخوفاً على حياتهم. وقد بلغت خسائر الاسبان حتى ذلك الوقت قرابة عشرين ألف رجل نتيجة الحرب والمرض. وأراد الملك أن يضعف عزيمة المسلمين، باظهار تصميمه على مواصلة القتال، فأرسل الى الملكة يدعوها الى العودة الى المعسكر، لتبقى مع جنودها، تثير فيهم النخوة والعزيمة، وترفع من معنوياتهم. فجاءته في ٥ / ١١ / ١٤٨٩ وقد نجحت خدعة الملك إذ أدرك المسلمون، أنه مصمم على الحرب، وأنه لن يتخلى عن مهمته في فصل الشتاء.

كان يقود أعمال الدفاع شخص يدعى محمد حسن الشيخ، ويشرف على العمليات الأمير يحيى النير، مفوضاً من قبل عمه الزغل، فلما رأى المسلمون تصميم الاسبان، ذهب يحيى النير الى معسكرهم، وقابل الملكة والملك، وتقول الروايات الاسبانية^(١)، إن الملكة استعملت كل ما لديها من سحر واغراء لاستمالة الأمير المسلم، وذكرته بأصل أمه الاسباني، وحملته بالعروض والاغراءات الكبيرة، على التنصر فتعمد سراً، واتفق على أن يبقى تعمده سراً ليستطيع تأدية مهمته على الوجه الأفضل.

ولما عاد يحيى الى بسطة، أقنع القائد محمد الشيخ بعدم جدوى المقاومة، وكتباً بذلك الى الزغل في وادي آش، وأعطياه صورة غير صحيحة عن حال المقاومة المسلمة في بسطة، ففوض الأمر إليهما، فسارا الى المعسكر الاسباني، واتفقا مع الملكين على تسليم المدينة، لقاء السماح للحامية بالخروج بسلاحها، وأمتعتها الى حيث تريد. أما السكان فيخبرون بين البقاء مع ضيآن حرياتهم جميعاً، وبين الهجرة الى حيث يشاؤون بأموالهم.

وحينما استسلمت بسطة قدم قواد المواقع المحيطة بها خضوعهم على نفس الشروط التي تم عليها استسلام بسطة.

١٠١ - استسلام الزغل:

تابع النير مهمته الخسيسة، التي كلفته بها الملكة، وهي العمل على استسلام عمه الزغل، ووضع حد لمقاومته، فاذا تم ذلك تكون الأندلس كلها قد خضعت

(١) الكونت سبركورج ص ٣٢٣.

للإسبان ، لأن اتفاقية (لوشه) السرية مع أبي عبد الله الصغير ، تلزمه بتسليم ما بيده فور الانتهاء من القضاء على الزغل . وتمكن النير من خداع عمه (الزغل) ، الذي شلت الأحداث تفكيره ، فاقنعه بعدم جدوى المقاومة ، وحله على وضع سلاحه بين يدي أعدائه . ونتيجة لمسعى النير أمكن التوصل الى الاتفاق التالي^(١) :

- أ - يتعهد الزغل بأن يسلم ما بيده ، وأن يحمل الحصون الخاضعة له على الاستسلام ، وهي حصون مقاطعة المرية ، وموتريل ووادي آش .
ب - يتنازل عن كل حق أو دعوى بملكية هذه الحصون .
ج - يتعهد الملكان لقاء ذلك ، بتأمين السكان على أرواحهم وأموالهم ، مع منحهم حق العيش في المملكة كمدجنين .
د - يحتفظ الزغل بملكية أندرش وبملكية البشرات ووادي الكرین ، ويتسمى باسم ملك أندرش .
هـ - يحق للزغل الاحتفاظ بألف رجل من أتباعه .

وبعد أن وافق الطرفان على الشروط تم التوقيع على الاتفاق في ٢٢ كانون الأول ١٤٨٩م في خيمة الملك فرناندو أمام المرية . وتقول الرواية الأسبانية إن الملك قابل الزغل بالاحترام والإكرام ، ولم يسمح له بتقبيل يده ، ولام رجاله الذين تركوا الزغل يترجل عن حصانه ليقدم احترامه للملك الأسباني . وقد أثرت هذه المعاملة الحسنة في الزغل ، وجعلت منه نصيراً متحمساً لفرناندو .

١٠٢ - سقوط غرناطة :

لما تم الاتفاق بين الزغل وبين فرناندو أرسل الملكان رسالة الى أبي عبد الله الصغير يطالبانه فيها بتنفيذ مضمون الاتفاق السري الموقع في لوشه ، ورد الصغير بأنه على استعداد للتنفيذ ، لكن الجماهير في البيلازين والحمرأ ، انقلبت عليه منذ أن انتهى أمر عمه ، واصبحت تهدده وتهدد ملكه ، وتجعل من العسير عليه الوفاء بما سبق أن قبل به . وفي الواقع إن نقمة الشعب تزايدت على الصغير ، وأخذ الناس يشتمونه علناً ، وينعتونه بالمرتد والخائن ، ويسمون قاتل أبيه . ولولا متانة أسوار الحمرأ ، وجهود

(١) نفس المرجع ج ١ ص ٣٢٥ .

وزيره ابن كهاشة، لفتكت به الجاهير.

وقدر الصغير، في هذا الموقف الشديد الخطورة، أنه إذا ما حقق نصراً على الاسبان، فانه قد يستطيع استعادة ثقة الجاهير، ويتخلص من الضيق الذي يعانيه، ولاحت له الفرصة حينها قام الكونت دوتانديلا - القائد العام للحدود - بحملة شتوية على مرج غرناطة. وتقول الرواية الاسبانية إن الصغير هو الذي دفعه الى القيام بها، فانقض الصغير عليه، وانتصر عليه، وعاد يحمل الغنائم ورؤوس القتلى، ويسرق أمامه الأسرى، ودخل غرناطة دخول الظافرين فهلل له الشعب الذي دبت فيه الحماسة، وعادته شجاعته.

وقد فوجيء فرناندو بهذه الحياة تدب من جديد في جسم حسبه ميتاً، وأدرك أن عليه أن يتسلم غرناطة حرباً. لكن الحرب كانت قد أرهقت اسبانيا واستنزفت معركة بسطة أموال الخزانة، حتى أصبحت الدولة تطلب دفع الضرائب كل عشرين يوماً^(١). لذلك رأى فرناندو على كره منه، أن يؤجل مسألة غرناطة الى وقت آخر وأرسل الى غرناطة رسالتين:

١ - الأولى موجهة الى الصغير، يحاول فيها إغراء بالمنح والوعود والعطايا والانتفاعات ليتخلى عن فكرة المقاومة.

٢ - والثانية موجهة الى زعماء غرناطة، يعرض فيها عليهم، وعلى الشعب، تقديم الضمانات والعروض السخية، ويعرض على الزعماء منحاً شخصية، إذا سمحوا له بأن يحتل بعض البيوت والأبراج في حي البيازين.

وحينما وصل رسول ملك اسبانيا الى غرناطة كان الصغير خارجاً منها يريد الإغارة على حصن البذول، الذي يسيطر على وادي الكرين، الممنوح للزغل، وقد تمكن الصغير من الاستيلاء عليه، وعاد يجر الأسرى وراءه.

وبعد أن حقق الصغير هذا النصر الصغير، رد على رسالة الملك رداً غير مرض، فوصل الرد الى الملك وهو في أشبيلية، في نفس الوقت الذي وصل إليه نبأ سقوط البذول، فاستبد به الغضب، وخرج من فوره الى مرج غرناطة يعيث فيه ويقطع الأشجار. ووافاه الزغل ويحیی النير على رأس ٣٥٠ فارساً، وساعده في عيته

(١) نفس المرجع ج ١ ص ٣٢٩.

في المنطقة، وقدم الزغل للملك حصن (همدان^(١))، التابع له ليضع فيه حامية قشتالية. كما قدم يحيى النير حصنا استولى عليه بالحيلة ليستخدمه في مثل ذلك. وقد أساء هذا التصرف الى الزغل إساءة بالغة، أنسى الشعب جميع حسناته، فأخذ شعب البشرات، الخاضع له يشتمه في المساجد^(٢).

وزاد في نقمة الشعب على الزغل، أن الملكة إيزابيل نقضت شروط الاستسلام مع المرية ووادي آش، وحولت المساجد الى كنائس، فكان لذلك أسوأ الأثر وأبعده في نفوس أتباع الزغل، فانفجرت الثورة في البشرات ووادي المرية، وانضم سكان جبال الثلج (سيرافاداد) الى الصغير وأصبح الصغير في نظرهم رمزاً للنضال الوطني. وتحرك الصغير يحاصر الحاميات الاسبانية الموجودة في الحصون الواقعة في المنطقة، وأصبحت المنطقة كلها نيرانا تشتعل بالحقد والغضب على الزغل، وعلى ابن أخيه النير، وعلى الاسبان.

ولما رأى فرناندو تطور الأمور أسرع على رأس ثلاثين ألفاً الى مرج غرناطة في أواخر تموز، وأرسل مفرزة الى شلوانية لتقطع طريق الرجعة على الصغير، فخاف هذا، وارتد مسرعاً الى غرناطة، وانطلق النير الى وادي المرية فاحضعه وأعادته الى طاعة الملك الاسباني.

وفتحت ثورة البشرات عيون الزغل على الدور الخسيس الذي يقوم به في معركة المصير العربية في الأندلس، وهو الذي كان يتمتع بحب شعبه واحترامه، فباع املاكه الى الملكة، والى يحيى النير، وعبر المضيق الى المغرب. وهناك دعى أسوأ معاملة، إذ قبض عليه سلطان فاس وسمل عينيه، وتركه يستجدي الناس ليعيش. وبعد أن ارتحل الزغل الى افريقيا أصبح سقوط غرناطة أمراً محتوماً، ولكن المسألة مسألة وقت لا غير.

١٠٣ - استسلام غرناطة:

سار فرناندو في أوائل عام ١٤٩١م، على رأس خمسين ألفاً، الى مرج غرناطة،

(١) وتقوم مكان بلدة (Alhendin).

(٢) اخبار المعصر ص ٣١. ونفع الطيب ج ٢ ص ٦١٣.

وأخذ في إحراق القرى والمزارع ولما وصل أمام غرناطة ، أقام معسكره في المكان المعروف الآن بـ (سانتا فيه) ، ثم حضرت الملكة ، ليث وجودها الحماة والنخوة في رؤوس القادة والفرسان . وكان فرسان غرناطة يخرجون لقتال أعدائهم ، ويوقعون بهم خسائر كبيرة ، وكادوا يأسرون الملكة يوم ١٨ حزيران . ثم اهتدى الأسبان الى المسالك التي تتمون عن طريقها غرناطة ، فسدوها بالرجال . وضيقوا الخناق على المدينة في محاولة لإجبارها على الاستسلام .

وبينما كان الحصار يسير سيره ، ويفعل فعله ، وقع حريق في المعسكر الإسباني وكان منشأ من الأخشاب ، فقرر الملك أن إقامة معسكر مبني بالحجارة ، مكان المعسكر المحترق ، وسمياه سنتا فيه .

أخذت غرناطة تعاني من نتائج الحصار ، وتقل فيها الأقوات ، فبدأت النفوس المريضة المرجفة ، تحاول نقل مرضها الى الشعب لاضعاف مقاومته ، وإخماد جذوة حماسة . وأدرك الصغير ووزرائه أن المقاومة لا جدوى منها ، وأنه من الخير التفاهم مع الأسبان للحصول على أفضل الشروط . وفي تشرين الأول ، وصلت الى المعسكر الإسباني رسالة من الصغير ، يطلب فيها وقف القتال ، والدخول في مفاوضات ، لبحث شروط الاستسلام . فسر الملك أن سروراً كبيراً من هذا العرض غير المتوقع ، وأمر بوقف إطلاق النار اعتباراً من ٥ / ١٠ / ١٤٩١ لمدة سبعين يوماً . ودارت المفاوضات بصورة سرية بين الجانبين ، واستغرقت وقتاً طويلاً ، وقد ضمن الصغير لنفسه الكثير من المنافع ، وأدت المفاوضات الى عقد معاهدة تحدد الشروط التي اتفق عليها الجانبان (١٤٩١ / ١١ / ٢٥) كما تم اتفاق آخر خاص ، حدد المنافع التي يحصل عليها الصغير وأهله نتيجة لهذا الاستسلام .

وفي يوم ٢ / ١ / ١٤٩٢ ، خرج أبو عبد الله الصغير مع عدد قليل من أتباعه ، خارج غرناطة ، ووقف على جسر شنييل ينتظر قدوم الموكب الملكي ، ثم تقدم من الملك وقبل ذراعه اليمنى ، فسلم وزيره يوسف بن كماشه الأسبان مفاتيح الحمراء ، والحصون الأخرى . وقبل أن يتوجه الصغير الى وادي الكرين سلمته الملكة ابنة الذي كان رهينة لديها . وتوقف الصغير عند جبل الريحان ليلقي على غرناطة آخر نظرة وردد عبارة الله أكبر . ويسمى الأسبان المكان الآن (اخروزفراة العربي) . وتذكر الروايات أن والدته عائشة سبقتة ثم توقفت وسألت عنه فقبل لها انه يبكي فقالت :
ابسك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ونقل الاستاذ عنان في كتابه نهاية الأندلس (ص ٢٤٠) عن المؤرخ الاسباني كوندري قصة الاجتماع الذي تم في قصر الحمراء للتوقيع على وثيقة تسليم غرناطة :
«حينما اجتمع الزعماء في هوالحمراء الكبير ليوقعوا معاهدة التسليم لم يملك كثير من الزعماء أنفسهم من البكاء، والذي بقي وحده صامدا قويا هو القائد موسى ابن أبي الغسان، فقال للحاضرين :

اتركوا العويل للنساء والأطفال فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة، ذلك هو الموت المجيد المشرف فلمنت دفاعا عن حريتنا، وانتقاما لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن الأرض أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يضم رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال ان أشرف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها. » .

وصمت موسى، ونظر أبو عبد الله في وجوه الحاضرين، فلم يجد فيها عزمًا، عندئذ صاح : الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، لارادُ لقضاء الله، تالله لقد كتب عليّ أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي .
وصاحت الجماعة الله أكبر ولا راد لقضاء الله، واخذوا يوقعون وثيقة التسليم .
فنهض موسى مغضباً، وصاح في الجماعة :

لا تتدعوا انفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا الى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشاه، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك أعراض نساتنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب السوحشي السذيم، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحاق . . . وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه . وخرج مغضباً .

وتقول رواية اسبانية قديمة إن سرية من الفرسان النصارى تبلغ خمسة عشر فارساً، التقت مساء ذلك اليوم على ضفة نهر شنبيل بفارس مسلم قد تدجج بالسلاح، وقد أدنى خوذته على وجهه، وشهر رمح، وكان جواده غارقاً مثله في الحديد، فلما راوه مقبلا عليهم طلبوا إليه ان يقف ويُعرف نفسه، فلم يجب الفارس المسلم، وانقض عليهم يُطعن ويُطعن حتى اثخنته الجراح واخذت حصانه، فسقطا على الأرض، فاستل خنجرًا وأخذ يقاتل الفرسان الاسبان فلما رأى أن قواه ستخور

وتخذه، ارتد الى الورا والقى بنفسه في الماء، فغاص في النهر تحت ثقل السلاح .
وتقول الرواية النصرانية إن هذا الفارس هو موسى بن أبي الغسان، وإن بعض المسلمين عرفوا جواده المقتول .

١٠٤ - معاهدة تسليم غرناطة المعقودة بين :

أبي عبد الله الصغير وبين الملكين الاسبانيين

بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١ (٢١ محرم ٨٩٧هـ)^{(١)(٢)}

أورد الكونت دوسيركور، ترجمة كاملة لمعاهدة تسليم غرناطة الى اللغة الفرنسية، كما نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان، خلاصة لمحتويات هذه المعاهدة، منقولة عن الأصل الاسباني الرسمي، في كتابه نهاية الأندلس (ص ٢٣٠ وما بعدها)، وفيما يلي ننقل محتويات هذه الخلاصة، كما أوردها الاستاذ عنان مع اضافة قليلة من ترجمة سيركور:

مادة ١ : يتعهد ملك غرناطة، والقادة والفقهاء والعلماء وكافة الناس، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما، بأن يسلموا طوعية واختياراً، في ظرف ستين يوماً من تاريخ هذه المعاهدة، قلاع الحمراء والحصن - حصن الحيزان - وأبواب وأبراج الحمراء والحيزان، وأبواب غرناطة والبيازين، الى الملكين الكاثوليكين أو الى من يندبانه من رجاليهما، على ألا يسمح لنصراني بأن يصعد الى الأسوار القائمة بين القسبة والبيازين، حتى لا يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب الملكان من يفعل ذلك .
و ضمناً لسلامة هذا التسليم، يقدم الملك أبو عبد الله والقادة، الى جلالتيهما، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، ٥٠ شخص صحبة الوزير ابن كماش، من أبناء زعماء غرناطة والبيازين وآخرين، ليكونوا رهائن في أيديهما لمدة عشرة أيام، تصلح خلالها الحمراء . وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتيهما ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء، وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضي رعايا واتباعا تحت حمايتهم ورعايتهم .

(١) سيركورج ١ ص ٢٤ (ملحق الكتاب وثيقة رقم ٩) .

(٢) محمد عبد الله عنان - نهاية الأندلس ص ٢٣٠ .

٢ - حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء فعليهم أن يدخلوا من باب العشار، ومن باب نجدة ومن طريق الحقول الخارجية، ولا يسيروا إليها من داخل المدينة، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم.

٣ - متى تم تسليم الحمراء والحصن، يرد الملكان إلى الملك أبي عبد الله ابنه المأخوذ رهينة لديهما، وكذلك ترد جميع الرهائن الذين معه، وسائر حشمة الذين لم يعتنقوا النصرانية.

٤ - يتعهد جلالتهما وخلفاؤهما إلى الأبد، بأن يُترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان، وسائر الشعب، تحت حكم شريعتهم، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم ومآذنهم، وتترك لهذه المساجد مواردها كما هي، ويقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ويحتفظون بتقاليدهم وعاداتهم.

٥ - لا يؤخذ منهم خيلهم ولا سلاحهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة، فلإنها تسلم.

٦ - يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما الذين يريدون العبور إلى المغرب، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاؤوا، وأنه يحق للملكين شراءها بآلهما الخاص.

٧ - يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى، حاملين معهم أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها. ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوماً من تاريخه عشرين سفن في موانئهما، يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب، وأن يقدموا خلال الأعوام الثلاثة التالية، السفن لمن شاء العبور، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك، نظير دفع مبلغ دوبل واحد (دوبلا) عن كل شخص، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه أن يوكل لإدارتها وأن يقتضي ريعها حيثما كان.

٨ - لا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم الآن أو فيما بعد على تقلد شارة خاصة بهم.

٩ - ينزل الملكان، للملك أبي عبد الله، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما، ولمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه، عن سائر الحقوق التي يجب عليهم أدائها عن دورهم ومواشيهم.

١٠ - يجب على الملك أبي عبدالله وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والبشرات وأراضها ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طوعية ، ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم .

١١ - لا يسمح للملكان ، بأن تؤخذ من الملك أبي عبد الله والأشخاص المذكورين ، خدمهم وخيولهم ومواشيهم لتستخدم في أعمال السخرة ، ويستثنى من ذلك ما يقدمونه هم طوعية ، وتدفع لهم أجور مناسبة وعادلة .

١٢ - لا يسمح لنصراني بدخول مكان عبادة المسلمين إلا بإذن من الفقهاء ويعاقب من يخالف ذلك .

١٣ - لا يولى على المسلمين مباشر يهودي ، ولا يمنح أحد من اليهود أية سلطة ولولاية عليهم .

١٤ - يُعاملُ الملكُ أبو عبد الله وسائرُ السكان المسلمين برفق وكرامة ، ويحفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويؤدى للفقهاء حقوقهم الماثورة وفقاً للقواعد المرعية .
١٥ - إذا قام نزاع بين المسلمين ، فُصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، وتولى ذلك قضاتهم .

١٦ - لا يكلفون بإيواء ضيف ، ولا تؤخذ منهم ثياب أودواجن أو أطعمة أو ماشية ، أو غيرها دون إرادتهم .

١٧ - إذا دخل نصراني منزل مسلم قهراً عنه ، عوقب على فعله .

١٨ - يحتفظ المسلمون بأنظمتهم في شؤون الميراث ، ويحكمون الى قضاتهم وفقاً لسنن المسلمين .

١٩ - يحق لسكان غرناطة والبشرات ، وغيرهما الداخلين في هذا العهد ، الذين يعلنون الولاء لجلالتيهما في ظرف ثلاثين يوماً من التسليم ، أن يتمتعوا بالاعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث .

٢٠ - يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أخرى موقوفة على أوجه الخير ، وكذلك دخل المدارس يبقى متروكاً لنظر الفقهاء ، ولا يتدخل جلالتهما بأية صورة ، في أمر هذه الصدقات ولا يأمران باخذها في أي وقت .

٢١ - لا يؤخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده ، أو ولد بذنب والده ، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم .

٢٢ - إذا كان مسلم أسيراً وفر الى مدينة غرناطة أو البيازين وأرباضهما أو

غيرهما، فانه يعتبر حراً، ولا يسمح لأحد من ضباط العدالة أو مالكيه باقامة الدعوى ضده إلا إذا كان أسود من جزر الكنارى أو من بولوف أو من الجزائر.

٢٣ - لا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون للملوك المسلمين.

٢٤ - يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها، من عبروا الى المغرب، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية، وأن يتمتعوا بكل ما يحويه هذا الاتفاق.

٢٥ - يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيهما، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين، عابرين الى المغرب وعائدين، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتهما ولا يدفعون من الضرائب إلا ما يدفعه النصارى.

٢٦ - إذا كان أحد النصارى - ذكراً كان أم أنثى - اعتنق الإسلام، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة، ومن فعل ذلك يعاقب.

٢٧ - إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية، واعتنقت الاسلام، فلا ترغم على العودة الى النصرانية، بل تسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى، ولا يرغم أولادها على التنصر سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً.

٢٨ - لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية.

٢٩ - إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر، اعتناق النصرانية، بدافع الحب، فلا يقبل منها ذلك حتى تسأل وتوعظ وفقاً للقانون. وإذا كانت قد استولت خلسة على حلي أو غيرها من دار أهلها أو شيء آخر، فانها ترد لصاحبها وتتخذ الاجراءات ضد المسؤول.

٣٠ - لا يطلب الملكان، ولا يسمحان بأن يطلب، الى الملك أبي عبد الله أو خدمه أو أجد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرها، من الداخلة في هذا العهد، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين، من الخيل والماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها، أو من الأشياء الموروثة، ولا يحق لأحد تعرف على شيء من ذلك أن يطلب به.

٣١ - لا يطلب الى أي مسلم يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ليس أو ليست في حوزته وده أو ردها الآن أو فيها بعد.

٣٢ - لا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية (الملكية)، بعد انتهاء السنوات الثلاث المعفاة من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها، وعلى مثل الأراضي العادية.

٣٣ - يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية .

٣٤ - يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لهما بما في هذا العهد من الامتيازات، ويسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر تبدأ من ١٨ كانون الأول .

٣٥ - يكون الحكام والقواد والقضاة، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لهما، ممن يعاملون الناس بالحسنى، ويحافظون على الامتيازات المتوخاة، فإذا أخل أحدهم بالواجب، عوقب، وأحل مكانه غيره يحسن معاملة المسلمين .

٣٦ - لا يحق للملكين ولا لآعقابهما إلى الأبد أن يسألوا الملك أباعبد الله أو أحداً من المسلمين المذكورين في أية صورة عن أي شيء يكونون قد فعلوه حتى يوم تسليم الحمراء، أي بعد ستين يوماً من توقيع المعاهدة .

٣٧ - لا يولى عليهم أحد من الفرسان والقادة أو الخدم الذين كانوا تابعين للملك وادي آش (مولاي الزغل) .

٣٨ - إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة فإن النزاع ينظر أمام قاضٍ نصراني وآخر مسلم لكيلا يتظلم أحد مما يقضى به .

٣٩ - يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها، ويكون الإفراج ممن كان من هؤلاء الأسرى في الأندلس، في ظرف خمسة أشهر تلي المعاهدة . أما الأسرى الذين يكونون في قشتالة فيفرج عنهم خلال ثمانية أشهر .

٤٠ - إذا دخلت أية محلة من نواحي البشترات في طاعة جلالتيهما فإنه يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصراني ذكوراً وإناثاً في ظرف خمسة عشر يوماً، من تاريخ الانضمام، وذلك دون أية نفقة .

٤١ - تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن في موانئ مملكة غرناطة لتسافر في أمان، على ألا تكون حاملة أي أسير نصراني، ولا يحدث لها أي ضرر ولا إنسلاف، ولا يؤخذ منها شيء . ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى نصراني . ويحق للملكين أن يرسلوا من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض .

٤٢ - لا يُدعى أحد من المسلمين إلى الحرب، ولا يؤخذ رغم إرادته، وإذا

شاء الملكان استدعاء الفرسان الذين لهم خيول وسلاح للعمل في نواحي الأندلس
 فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة.

٤٣ - يجب على من كان عليه دين أو تعهد، أن يؤديه لصاحب الحق، ولا يحق
 له التحرر من هذه الحقوق.

٤٤ - يكون المأمورون القضاة الذين يعينون لمحاكم المسلمين، مسلمين
 الآن وإلى الأبد.

٤٥ - يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين من المسلمين ولا
 يتولاها نصراني الآن ولا في أي وقت.

٤٦ - وفي اليوم الذي تسلم فيه الحمراء وحصن الخيزان والأبواب يقوم الملكان
 بإصدار مراسيم الامتيازات، للملك أبي عبد الله، وللمدينة ممهورة بتوقيعها،
 ومختومة بخاتمها، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير، والكردينال دسينا، ورؤساء
 الهيئات الدينية، والعظماء. . حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن وفي كل وقت.

وقد ذلت المعاهدة بحاشية خلاصتها أن ملكي قشتالة يؤكدان ورضمنان
 بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه
 باسميهما، ويمهرانه بخاتميهما» (٢٥ نوفمبر - تشرين الثاني ١٤٩١ م).

القسم

٢

المعاملة

الفصل الأول

المستعربون الاسبان في ظل الحكم العربي

١٠٥ - أولاً - القواعد العامة في معاملة المسلمين للأمم المغلوبة :

حينما شرع المسلمون في فتح الأندلس عام ٩٢هـ (٧١١م)، كانت نظريتهم في معاملة الأمم المغلوبة قد تبلورت، وتكاملت، وظهرت نتائجها الطيبة في التطبيق، إذ اجتذب التسامح وحسن المعاملة، وسهولة فهم الدين، الملايين من أبناء تلك الأمم الى الدين الاسلامي، فكانوا قوة جديدة تتحمس لنشره، وتدفع أذى أعدائه وخصومه في ميداني الحرب والجدل.

ومنذ أن حقق المسلمون أول نصر لهم في اسبانيا، بدؤوا بتطبيق قواعدهم العامة دون تحبط أو اضطراب، فوجد الاسبان من المسلمين عدلاً ووفاء بالعهد، وحرمة تامة للمجتمع القائم وأعرافه، وعدم تدخل في شؤونه الدينية، فدخلت أفواج من الاسبان في الدين، وخصوصاً الطبقات الفقيرة والفلاحين الذين حررهم الاسلام من ربقة العبودية، ورفع شأنهم، وسأواهم بمن كانوا في جيش الفتح من المسلمين السابقين، وهي أمور لم يكونوا يطمعون فيها، أو يحلمون بمثلها، إذ كانت غريبة عن روح العصر، وعن تقاليد المجتمع الغربي في ذلك الحين. أما الذين أرادوا الإقامة على دينهم فقد ترك لهم العرب الحرية التامة في ممارسة دينهم، وجعلوا لهم نوعاً من الاستقلال الاداري والقضائي مارسوه بإشراف كنيستهم وأعيانهم.

وبحسن بنا قبل أن ندخل في بحث معاملة العرب للمستعربين الاسبان أن نعطي صورة عامة للقواعد التي وضعها الفقهاء المسلمون في معاملة الأمم المغلوبة التي قبلت العيش في ظل الحكم الإسلامي.

شرع الله الاسلام ديناً عاماً، وفرض على المسلمين القيام بدعوة الناس إليه، وهدايتهم الى الحق من ربهم، والنور الذي أتى به الأنبياء والمرسلون، لتبلغ دعوة الله أكبر عدد ممكن من بني البشر فيعرفوا طريق الخير الى الله، وتنقطع معاذيرهم، وتقوم الحجة عليهم^(١)، ﴿لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة﴾^(٢) ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً﴾^(٣) . ﴿ولكن منكم أمة يدعون الى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾^(٤) .

لكن الله فرض على النبي والمسلمين أن تكون الدعوة بالحسنى، والموعظة الحسنة، لأن الغاية من الدعوة هي تعريف الناس بالخالق، ونشر الخير على الأرض، لا الافساد وإزهاق الأرواح، وإذلال البشر، قال الله تعالى ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾^(٥) . وغاية الدين هي ابلاغ الدعوة لا اجبار الناس على الأخذ بها، لأن الله خلق الناس، وخلق لهم عقولاً تميز بين الخير والشر، وبين الصالح والطالح من النظريات والآراء، وقد كره الله أن تفرض العقيدة على الناس فرضاً، لأن ذلك ينفرهم منها، ويحملهم على الأخذ بها ظاهراً، ونبذها باطناً، مع أن الغاية من الدعوة هي اقناع الناس بها اقناعاً حراً بريئاً لتتغلغل أفكارها ومبادئها الى أعماق نفوسهم، فيكونوا لها مخلصين، وعلى التقيد بها حريصين، لذلك جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم، توجب التزام الدعوة بالحسنى وعدم إكراه الناس على ترك ما يعبدون للدخول في الاسلام حتى ولو كان ما يعبدون حجارة وأصناماً :

- ﴿لا إكراه في الدين﴾ . (سورة البقرة آية ٢٥٦)
- ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ . (سورة المائدة آية ٤٨) .
- ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ . (سورة الشورى آية ٨) .

(١) التشريع الاسلامي لغير المسلمين - عبد الله مصطفى المراغي ص ١٣ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٣) سورة فصلت آية ٤١ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(٥) سورة النحل آية ١٢٥ .

- ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ . (سورة يوسف آية ١٠٣) .
- ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ، إن الله يهدي من يشاء ﴾ . (سورة القصص آية ٢٨) .
- ﴿ إدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ . (سورة النحل ١٢٥) .
- ﴿ ولوشاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (سورة يونس آية ٩٩) .
- ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ . (سورة النحل آية ٢٧)
- ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ . (سورة آل عمران آية ١٥٩) .
- ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ . (سورة آل عمران آية ١٠٤) .
- ﴿ فإن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ . (سورة النساء آية ٩٠) .

ولذلك فإن الاسلام لم يفرض على المسلمين القضاء على الأديان الأخرى، وإنما فرض عليهم دعوة الناس اليه بالحسنى، وشرح محاسنه بالرفق واللين، وبعد ذلك ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر^(١) ﴾ . ولهذا يُعدُّ المسلمون ممن يقبلون التعايش الحر، مع أتباع الديانات الأخرى، ولا يترمون بوجود هذه الديانات، ولا يرسمون سياسة خاصة للقضاء عليها.

١٠٧ - الجهاد في نشر الدعوة :

لم يترك المشركون العرب الدعوة الجديدة تظهر بينهم بدون مقاومة منهم لها، وايداء للنبي ﷺ وللمسلمين، وتابعوا بغيهم وعدوانهم، حتى اضطروهم الى الهجرة من بلدهم مكة الى الحبشة مرتين، ثم الى يثرب. لذلك شرع الله الجهاد للدفاع عن النفس أولاً، ثم للسماح للدعوة بأن تنتشر بحرية دون أن يكون هناك عائق يضغط على إرادة من يريد اعتناقها، ﴿ أذن للذين يقاتلون في سبيل الله انهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير^(٢) ﴾ ، وبعد أن دانت الجزيرة العربية كلها بالاسلام كان على

(١) سورة الكهف آية ٢٢٩

(٢) سورة الحج آية ٣٩

المسلمين أن يحملوا الدعوة خارج الجزيرة، ولكن كانت هناك على حدودهم الشمالية والشرقية مملكتان قويتان هما فارس وبيزنطة (الروم) فأرسل الرسول الى ملكيهما رسالتين يدعوهما فيها الى الإسلام، فرد ملك فارس رداً قبيحاً، ومزق الرسالة، ورد ملك الروم رداً جسيلاً، ولكن المملكتين لم تكونا على استعداد للسماح للدعوة الإسلامية بأن تنتشر بحرية في الأراضي الخاضعة لهما، لذلك كان لا بد للدعوة الإسلامية من أن تحطم هذين السورين المنيعين، لتنتقل بعدها فيما وراءهما، وتبلغ أسماع بني البشر، فكانت الحرب، وكان تحطيم الامبراطوريتين العظيمتين في القادسية واليرموك.

١٠٨ - اعلان الحرب:

أوجب الدين على المسلمين ألا يأخذوا أعداءهم على حين غرة، وألا يقاتلوهم غدرًا وغيلة، وإنما أوجب عليهم:

أ - أن يدعوهم الى الاسلام، ويعرفوهم به أولاً، ويشرحوا لهم تعاليمه، ويعلموهم بأنهم إن أسلموا، صاروا مع المسلمين يداً واحدة، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، لا ميزة لواحد منهم على واحد الا بالتقوى.

ب - اذا رفضوا الاسلام خيروا بين أمرين:

١ - اما أن يقبلوا بدفع الجزية للمسلمين، وحينئذ يتركهم المسلمون آمنين في أرضهم وبيوتهم، ويصبحون في ذمة المسلمين، الذين يتكفلون بالدفاع عنهم، وعن أرواحهم وأموالهم، فان عجز المسلمون عن حمايتهم لم تكن لهم عليهم جزية.

٢ - وإما أن يرفضوا الاسلام والجزية، فلا يبقى أمامهم غير القتال، واذا مضت مدة ولم يردوا على المسلمين بشيء ينتظر المسلمون لأن يبلغ رئيس القوم جماعته شروط المسلمين، فإن لم يردوا بعد ذلك وجب على المسلمين قتالهم.

هذه هي القاعدة العامة في إعلان الحرب على الأمم الأخرى، وهذه هي الشروط التي كان يعرضها المسلمون على جميع الأمم التي حاربوها، ولم يستثنوا غير فتيين من الناس:

١ - المشركين العرب، الموجودين داخل جزيرة العرب.

٢ - والمرتدين عن الإسلام، بعد الدخول فيه.

فهاتان الطائفتان، كان على المسلمين تخييرهما بين أحد أمرين، الإسلام أو القتال، ولا تقبل منهما الجزية.

١٠٩ - معاملة المسلمين لغير المحاربين :

اعتبر الإسلام الحرب والقتال شَرِّين لا بد منها شرعا للضرورة، وبما أن الضرورة تقدر بقدرها، لذلك لم يحز الاسلام قتل من لا يحارب، حتى لو عثر عليه في أثناء القتال، ومن هؤلاء : المرأة والشيخ المهرم الفاني، والمقعّد والأعمى والصبي والمجنون، ومن لا يقدرّون على القتال، والراهب الذي لا يخالط الناس، إذا كان في صومعته، والمترهب في كنيسته أو داره، إذا أطبق عليه بابه. وجعل الإسلام كل من لا يجوز قتله في أثناء المعركة لا يجوز قتله بعدها، حتى لو أخذ أسيراً، إلا إذا كان قد ساعد المحاربين بقول أو رأي، ما عدا الصبي والمعتوه، فإنه لا يحل قتلها ولو أخذ أسيرين، لأن القتل عقاب للمقتول على ما جنى، والصبي والمجنون ليسا أهلاً للعقاب^(١).

١١٠ - كيف يعامل المسلمون من دخلوا في ذمتهم^(٢) : عقد الذمة «والأمان المؤبد» :

تعريف عقد الذمة : هو عقد يتولاه الإمام أو نائبه من جانب، واندمي من جانب آخر، على أن يُترك القتال من الجانبين مؤبداً.
ركنه : وركنه لفظ العهد أو الدلالة على قبول الجزية، كأن يدخل رجل من أهل دار الحرب، أرض الإسلام ويقيم فيها أكثر من سنة.
شروطه : يشترط في عقد الذمة ثلاثة شروط :

- أ - أن لا يكون المعاهد من مشركي العرب.
- ب - أن لا يكون المعاهد مرتدّاً عن الإسلام.
- ج - أن يكون العقد مؤبداً فإن حدد له وقت لم يصح عقد الذمة.

(١) المراغي ص ٢٧.

(٢) المراغي ص ٣٠.

آثاره : يترتب عليه من الآثار عصمة المال، وعصمة النفس . ويروى عن سيدنا علي أنه قال [إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا].
صفته : هو عقد لازم بحق المسلمين، ولا يملكون نقضه بحال من الأحوال .
أما بحق الذمي فهو غير لازم ويمكنه نقضه في إحدى الحالات الآتية :
أ - أن ينقضه الذمي بإسلامه .
ب - إذا لحق الذمي بدار الحرب .
ج - إذا غلب العدو على موضع فحاربه المسلمون عليه .
ويرى الإمامان مالك وابن حنبل أن هناك أربعة أمور تجعل الذمي بريئاً من ذمة الشرع :

- أ - الكفر بالله وذكره بما لا يليق بجلاله .
 - ب - ذكر كتابه بما لا ينبغي .
 - ج - ذكر دينه بما لا ينبغي .
 - د - ذكر رسوله بما لا ينبغي .
- وحيث أن ينقض عهده سواء أشرب ذلك أم لم يشرب .
وقال ابن القاسم إن الأمور التي تنقض عهد الذمي ثمانية :
- أ - أن يجمعوا على قتال المسلمين .
 - ب - أن يزني أحدهم بمسلمة .
 - ج - أو يصيبها باسم النكاح .
 - د - أو يفتن مسلماً عن دينه .
 - هـ - أو يقطع على المسلم الطريق .
 - و - أو يؤوي للمشركين جاسوساً .
 - ز - أو يعين على المسلمين بدلالة ، فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين .
 - ح - أو يقتل مسلماً أو مسلمة عمدًا^(١) .
- ١١١ - الجزية والخراج :

ييسط المسلمون سلطانهم على أراضي أعدائهم باحدى صورتين :

(١) الشعراني - كتاب الميزان ج ٢ ص ١٦٢ .

١ - بالحرب، إذا قهروا عدوهم في ساحة المعركة، وغلبوا على أرضه وداره.
 ٢ - بالصلح والعهد، إذا قبل العدو أن يمنح للسلام، ويتعاقد مع المسلمين، وحينئذ يكون على المسلمين مسألتهم ومصالحته، عملاً بقوله تعالى ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ (٢).
 وتختلف المعاملة التي يعامل بها الشعب الداخل تحت سلطان المسلمين، باختلاف الطريقة التي خضع بها: الحرب أو العهد أو الصلح. وفي كل حال تفرض على الأرض ضريبة هي الخراج أو العشر، وضريبة على الرجال المعتملين (أي الذين يمارسون عملاً)، القادرين على الحرب هي الجزية.

١١٢ - الخراج:

هو ضريبة تتوجب على أرض الحربي، إذا صار ذمياً، وأقره المسلمون على ملته، وهو نوعان:
 أ - خراج مقاسمة: وهو أن يؤخذ جزء شائع من غلة الأرض كالخمس أو العشر أو نحوهما.
 ب - خراج وظيفة: وهو فرض مبلغ مقطوع على الأرض بحسب زراعتها، كما لو أخذ من الأرض المروية فقيزير عن كل جريب، ومن الأرض غير المروية المزروعة كرملاً مثلاً، عشرة دراهم، عن كل جريب من الأرض وهكذا.
 وللخراج ستة أنواع:
 ١ - أرض استأنف المسلمون أحياءها، فهذه أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج، باتفاق الأئمة.
 ٢ - أرض أسلم أهلها طوعاً من غير قتال - فهذه أرض تدفع العشر ولا خراج عليها.
 ٣ - أرض استولى عليها المسلمون عنوة وقهراً من عدوهم، وفيها قولان:
 ١ - قول يجعلها غنيمة للمسلمين، تقسم بين الفاتحين كالمغنولات، وتكون أرض عشر لا خراج عليها.
 ب - وقول آخر يجعل الإمام بالخيار إن شاء قسّمها على المجاهدين، فتكون

أرض عشر لاخراج عليها، وإن شاء ضرب عليها خراجاً، يكون كالاجرة، فهذه أرض عشرية - خراجية. فإذا تركها الإمام بيد غير المسلمين ففيها الخراج سواء أزرعوها أم لم يزرعوها، ولا عشر عليهم.

٤ - أرض صالح عليها أصحابها على أن تبقى في أيديهم، وحينئذ يضرب عليها الخراج، وتكون الأرض لهم، فهذا الخراج يعتبر جزية منهم، ما أقاموا على شركهم، وتسقط عنهم بالإسلام. وإذا بيعت لمسلم سقط عنها الخراج.

٥ - أرض جلا عنها أهلها، فاستولى عليها المسلمون بغير قتال، فهذه حكمها حكم الأرض المأخوذة عنوة تترك وقفاً، ويضرب عليها خراج يكون أجرة تؤخذ من تستقر في يده، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، ولا تتغير بإسلامه ولا بدمته.

٦ - أرض صالح أهلها المسلمين على نزولهم عنها، فتعتبر ملكاً للمسلمين، ونقر أيدي أهلها غير المسلمين بالخراج. ولا يسقط هذا الخراج بالإسلام.

ويقدر الخراج بحسب ما تحتمله الأرض، فيمكن أن يزداد، وينقص لأنه غير مقدر شرعاً، ولإمام ترك الخراج، واسقاطه أو تخفيفه، بحسب ما يرى فيه مصلحة المسلمين ولكن لا يجوز له ذلك في الجزية^(١).

١١٣ - الجزية:

فرضت الجزية بقوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(٢). وأجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب، ومن المجوس. وقد تردد عمر بن الخطاب في أخذها من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف، بأن الرسول أخذها من مجوس هجر، وقال (سنوا فيهم سنة أهل الكتاب). واختلف الفقهاء في معنى (الجزية)، فقال بعضهم إنها مشتقة من الجزاء، أي العقوبة، وقال صاحب المغني إنها مشتقة من كلمة جراه، بمعنى قضاه، كقوله تعالى ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾، فتكون الجزية مثل الفدية وقدرها الحنفية بـ ٤٨ درهماً في السنة، تؤخذ من الغني، و ٢٤ درهماً تؤخذ من

(١) المراعي ص ٣٠.

(٢) سورة التوبة آية ٢٩.

متوسطي الحال، و ١٢ درهماً تؤخذ من الفقير الصحيح السليم، المعتمل (أي الذي يمارس عملاً). ولا يتعين في استيفاء الجزية أخذها بالذهب والفضة، بل يجوز أخذها مما تيسر من أموالهم، من ثياب، وسلاح، وحديد، ونحاس، ومواش وغير ذلك. ولا تفرض الجزية على الصبي والمرأة والمجنون والشيخ الفاني والأعمى، ولا على المريض الذي لا يرجى برؤه، وإن كانوا موسرين، لأن هؤلاء ليسوا من أهل القتال. أما الرهبان ورجال الدين، فإن كانوا ممن يخاطبون الناس في مساكنهم ومعائشهم فعليهم الجزية، أما إذا كانوا منقطعين إلى صوامعهم، وعباداتهم، فلا تجب عليهم الجزية.

وتسقط الجزية بالإسلام، وبالموت، وبمضي سنة على عدم استيفائها، لأنها ضريبة متجددة، ولا يحل تكليف أهل الذمة ما لا يقدرون عليه، ولا تعذيبهم لحملهم على أدائها، ولا حبسهم، ولا ضربهم. ولا تؤخذ الجزية من مشركي العرب، ولا من المرتدين. ورضي عمر بن الخطاب أن يأخذ من نصارى تغلب العرب الذين يعيشون خارج الجزيرة العربية، الصدقة مضاعفةً بناءً على طلبهم بدلاً من الجزية، لأنهم وجدوا في دفع الجزية لإساءة لهم كعرب.

١١٤ - كيف أراد الأئمة المسلمون معاملة أهل الذمة :

قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء).

قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (الآية ٥٨ من سورة النساء).
فإنه تعالى يأمر المؤمنين بأن يحكموا بين الناس جميعاً بالعدل، وأن يكون هذا العدل شاملاً للبر والفاجر، وللمؤمن وغير المؤمن، ولكل واحد، وأن لا يمنعهم من إقامة العدل حقد أو كره أو عداوة. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة الأنفال آية ٨).

وقال الله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ (الآية ٩١ من سورة النمل).

- وقال رسول الله ﷺ : ثلاث المسلم والكافر فيهن سواء :
- من عاهدته فوفّ بعهده مسلماً كان أو كافراً فأنما العهد لله .
 - من كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلماً كان أو كافراً .
 - ومن أئتمنك على امانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً .

قصة عبد الله بن رواحة مع يهود خيبر :

صالح رسول الله ﷺ يهود خيبر على ان يكون نصف غلة نخلهم للمسلمين . وكان يكلف عبد الله بن رواحة الأنصاري ، بأن ينوب عنه في اقتسام الغلة مع اليهود . وفي احدى المرات حاول اليهود رشوة عبد الله بن رواحة ، فغضب لذلك عبد الله غضباً شديداً ، وقال لهم : يا اخوان القردة والخنازير ، والله انني لأحب محمداً حباً لا يعدله حب واكرهكم كرهاً لا يعدله كره . ولكن حبي لمحمد وكرهي لكم ليسا بمنعني أن أعدل في عملي ، وليسا بدافعي الى أن أجور في حكمي . فقال له اليهود صدقت فبالعدل قامت السماوات والأرض .

وصية أبي بكر لجيش أسامة بن زيد :

أوصى أبو بكر جيش أسامة بن زيد الذي كان رسول الله ﷺ قد أعده ليرسله لغزو الروم انتقاماً لمعركة مؤتة فقال لهم :
أوصيكم بعشر فأحفظوها :

لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة ، وإذا مررتم بقوم فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم إليه .^(١)

وفي زمن عمر بن عبد العزيز وفد قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم غدراً ، واسكنها المسلمين فكتب عمر يأمر بنصب قاض للنظر فيها

(١) ابن خلدون - العبر ج ٢ ص ٣٧٢ .

ذكروا، فنصب لهم جميع بن حاضِر البانجي، فحكم باخراج المسلمين من المدينة على ان ينادوهم على سواء. فكره أهل سمرقند الحرب، وبقي المسلمون فيها. قال رجل من ثقيف: استعملني علي بن أبي طالب على (بزرج سابور)، فقال لي: لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم، ولا تبعن رزقاً، ولا كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم. قلت: يا أمير المؤمنين إذا أرجع إليك كما ذهبت. قال رضي الله عنه: وإن رجعت كما ذهبت ذهبت ربحك إنا أمرنا بأن نأخذ منهم العفو (يعني الفضل) (رواه أبو يوسف في كتاب الخراج).

وجه أبو يوسف خطاباً للخليفة هارون الرشيد، يعظه في حسن معاملة أهل الذمة وكان مما جاء فيه:

(وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الفرق بأهل ذمة نبيك، وابن عمك محمد ﷺ، والتفقد لهم، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم، فقد روي عن النبي ﷺ: من ظلم معاهداً، أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيجه) - رواه أبو يوسف في كتاب الخراج.

حينما سار سعد بن أبي وقاص بالجيش إلى القادسية، كتب إليه عمر بن الخطاب رسالة جاء فيها:

(ونح منازلهم - يعني العسكر - عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تنق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة، ابتليتكم بالسوءاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً، فلا تنتصرون على أهل الحرب بظلم أهل الصلح)^(١).

وقال أبو بكر موصياً بعض قاداته:

(ولا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله، فيطلبك الله بذمته فيكبك على وجهك في

النار)^(٢).

ومر عمر بن الخطاب على قوم أقيموا في بعض أرض الشام، فقال ما شأن

(١) التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية - لمحمد الغزالي ص ١٦٠.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٣٧.

هؤلاء؟ فقيل لهم أقيموا في الجزية . فكره ذلك وقال ، هم وما يعتذرون به؟ قالوا: يقولون لا نجد . فقال لهم عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ثم أمرهم فأخلي سبلهم^(١) .

ومر عمر بباب قوم عليه سائل يسأل ، وكان شيخاً ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من أي أهل الكتاب أنت؟ قال يهودي ، قال فما ألباك إلى ما أرى؟ قال أسأل الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأعطاه ما وجد ، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وأضرباءه ، والله ما أنصفناه ، أكلنا شببيته ثم نخذله عند الحرم ، انما الصدقات للفقراء - والمساكين ، والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ثم وضع الجزية عنه^(٢) .

ولما دنا أجل عمر بن الخطاب ، أوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة خيراً ، وإن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم . ونقل الطبري نص كتاب العهد الذي اعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر: بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم ، وكافتهم وصنعهم ومدتهم وعددهم . لا يزيد شيئاً في ذلك ولا ينقص ، ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح . وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف الف ، وعليه ممن جنى نصرتهم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم . . وذمتنا ممن أبى برية وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذم المؤمنين ، وعلى النوب الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا فرساً ، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة ، شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابنه .

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٧١ .

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٧١ .

ووافق عليه عمر بن الخطاب وأجازه^(١).

ذكر الأمير شكيب أرسلان في تعليقه على الجزء الأول من كتاب ابن خلدون (ص ١٧٧) القصة التالية :

«ويقال ان السلطان سليم أراد حمل النصارى الذين في المملكة على اعتناق الإسلام جميعاً، أو يخرجون من البلاد، فعارضه مفتي المسلمين (زنبلي علي أفندي)، وقال له لا يحل لك ذلك . وليس لنا إلا أن نأخذ منهم الجزية والطاعة».

وأورد محمد الغزالي في كتابه التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية، القصة التالية في الصفحة ٢٧٤ .

«ذكر ميخائيل السوري في تاريخه أن نور الدين بن زنكي، كتب الى الخليفة العباسي يقول له :

إن المسلمين حكموا ٥٠٠ سنة لم يسيئوا خلاها الى النصارى، أما الآن وقد انصرمت هذه الأعوام فيجب أن لا يبقى هؤلاء النصارى في البلاد، ومن لم يسلم منهم يقتل، فأجابه الخليفة إنك لم تفهم أقوال النبي ﷺ، إن الله يأمرنا أن نقتل من يرتكب السوء . فالخليفة أخذ بقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ . (سورة المائدة آية ٨) .

وذكر صاحب كتاب «أخبار مجموعة» الخبر التالي (ص ٢٢) :

«إن الخلفاء المسلمين كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والأفاق، يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادهم، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وإنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه» .

وذكر ابن الأثير في تاريخه (ج ٣ ص ٥٦) أن عمر بن الخطاب خطب الناس مرة فقال :

«أيها الناس إني ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، وإننا أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال (يا أمير

(١) ابن خلدون - العبر ج ٢ ص ٣٤٧ .

المؤمنين أرايتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته، فأدب بعض رعيته،
أُئِنَّكَ لَنَقْصِنَهُ مِنْهُ؟ قال إي والذي نفس عمر بيده لأُقصِنَهُ مِنْهُ، وكيف لا أقصِنَهُ مِنْهُ
وقد رأيت النبي ﷺ يقص من نفسه، الا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تجملوهم
فتفتنّوهم، ولا تمنّوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم». ثم روى ابن الأثير خبراً عن سالم بن عبد الله بن عمر، يبين مدى اهتمام عمر
بأن يكون وأهله قدوة حسنة للمسلمين، فقال: «كان عمر إذا نهى الناس عن شيء
جمع أهل بيته، فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون اليكم نظر
الطير الى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة». وهناك الوف الأمثلة على حسن رعاية المسلمين لأهل الدمة.

١١٥ - الرقيق في نظر الشرائع السابقة :

قال تعالى ﴿وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى... وما ملكت
أيمانكم﴾. (سورة النساء آية ٦٠).

في موضوع الرقيق تميز اليهودية بين اليهودي والغريب، فاليهودي لا يجوز
استرقاقه، ولا يباع بيع العبيد.

وإذا افتقر اليهودي وعجز عن وفاء دينه، واضطر الى أن يبيع نفسه لدائنه فيميز
الشرع اليهودي بين حالتين:

أ - فإن كان الدائن يهودياً، فعليه أن يعامل رقيقه اليهودي معاملة حسنة ويعتبره كخادم
لديه، لا عبد. ويتحرر هذا الرقيق بعد ست سنوات من الخدمة، أو يتحرر في سنة
اليوبيل (وسنة اليوبيل هي السنة الخمسون بعد سبع سنوات سبتية، والسنة السبتية
هي السنة السابعة التي تلي كل ست سنوات).

وعلى الدائن اليهودي أن يزوده، حين تحريره، بشيء من ماله يعيش به.
ب - وإذا كان الدائن غير يهودي فعلى أقرباء المدين، وعلى أفراد عشيرته أن يفتدوه،
ومحروه، ولا يجوز أن يبقى عبداً لغريب.

أما الرقيق غير اليهودي - أي الغريب - فيجوز استرقاقه بالحرب أو بالشراء،

(١) عن كتاب الرق في الاسلام - الدكتور عبد السلام الترماني.

ويعامل بقسوة، ولا يجوز عتقه ولا تحريره، ولا قبول فداء فيه، ويبقى رقيقاً أبداً. واليهود يرون أن الله جعل الغرباء - أي غير اليهود - عبيداً لليهود، فلا يتحررون من يقع في رقهم، لا يعتق ولا بفداء.

وجاء السيد المسيح فثار على التعاليم التي يطبقها اليهود في معاملة الناس - الأعراب -، وأوصى تابعيه بأن يعاملوا الناس بالحسنى، كما يجيئون أن يعاملهم الناس به، ولذلك نقم اليهود على المسيح، وأغروا الحاكم الروماني بقتله.

وحينما أشتد طغيان الحكم الروماني على المسيحيين، خرج رجال الكنيسة برأي يتفق مع الواقع الأليم الذي يعيشه المسيحيون، فخيرت سلطة الحاكم على المحكومين، واعتبرت السلطة ترتيباً الهيا يجب الخضوع له خضوعاً مطلقاً، ومن يقاومها يؤاخذ الله، لأن السلطة من أمر الله.

وقال القديس بولص في رسالة وجهها الى أهل روما:
(لتخضع كل نفس للسلطين، ومن يقاوم السلطان فإنه يقاوم الرب، والمقاومون سيدانون).

ودعا القديس بولص العبيد الى طاعة سادتهم، وحضهم على تسخير أجسادهم لخدمتهم، والاخلاص لهم بالقلب الذي يرضي الله، لا بالمظهر الذي يرضي الناس.

الرق في نظر الاسلام:

الرق عجز حكمي يصيب من يقع في الأسر في حرب مشروعة. والحرب المشروعة كما عرفها الفقهاء المسلمون هي الحرب التي يخوضها المسلمون ضد من تبغ دعوة الله، ورفض الخضوع لحكم الشرع: الدخول في الإسلام أو دفع الجزية. وبذلك جعل الإسلام للرق مصدراً وحيداً، هو الحرب المشروعة.

ويزول الرق بالعتق وبالفداء. وقد حض الإسلام كثيراً على العتق، ويسر أسبابه. وأمر الإسلام بمعاملة الرقيق معاملة حسنة تحفظ شعوره الإنساني، وجعل الله في أول الكفارات عن الذنوب التي يرتكبها الإنسان إعتاق الرقاب، ونهى الإسلام عن قتل المرأة والصبي والعاجز والمريض والشيخ الهرم، والرهبان والقسس الذين انقطعوا لصوامعهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها بنصر المسلمين كان للامام أن يأخذ الرجال

القادرين على الحرب أسرى.

أما الأسرى من المقاتلين فإن الامام مخير فيهم بين القتل، والاسترقاق، والعفو، وقبول الفداء، وعليه أن يختار ما هو أصالح للمسلمين.
وإذا اختار خطة فله أن يعدل عنها لما هو أرفق منها، وليس له أن يعدل عنها الى ما هو أشد. فإذا اختار الاسترقاق فليس له أن يعدل عنه الى القتل، وإذا اختار العفو، فليس له الاسترقاق أو طلب الفداء.

وإذا أسلم المقاتل قبل الأسر فإنه يسلم من القتل، ومن الرق، وتسلم له أمواله وذراياه لقوله ﷺ: إذا أسلم الرجل فهو أحق بأرضه وماله.
واعتبر الاسلام الرق نظاماً دولياً لا يمكن الغاؤه من جانب واحد، ولم يجعله وسيلة قهر ولا إذلال، وإنما جعله وسيلة لنقل الرقيق من الكفر الى الإيمان.
وقد دعا الإسلام الى الرق بالمستضعفين عموماً، وقال رسول الله ﷺ: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه).

وجاء في سورة النساء (الآية ٦٠): ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين وما ملكت أيمانكم . . .﴾.

وحض رسول الله ﷺ على التجاوز عن خطأ العبد، ونهى عن ضربه إلا في معصية الله، وقد قال: (اضرب عبدك إذا عصى الله واعف عنه إذا عصاك).
وقال أيضاً: (لا يدخل الجنة سييء الملكة - أي سييء الصحبة للمالكية).
وقال أيضاً: (إخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فاعينوهم).

ومن أحكام الفقه الاسلامي في أمر الرقيق:

- لا يجوز التفريق بين كل ذي رحم محرم كالولد مع أمه، والرجل مع زوجته.
- للسيد تأديب العبد أو الأمة بالتوبيخ أو بالضرب الخفيف على ألا يصيب الوجه، ولا يجوز التوبيخ أو الضرب بغير ذنب.
- إذا كان العبد يحسن صنعة فله أن يطلب مكاتبته، وأن يجيزه سيده بالتكسب لقاء مبلغ يؤديه لسيده، وما فضل ينفقه العبد على نفسه.

- إذا امتنع السيد عن النفقة على عبده له أن يرفع أمره للقاضي ، وعلى القاضي ان يجبر السيد على بيع العبد ، ولو كان عدم الانفاق لعجز من السيد عنه .
- للعبد أن يطلب من السيد تزويجه طلباً للنفقة ، وعلى سيده أن يزوجه أو أن يملكه أمة يتسراها .
- وإذا طلبت الأمة من سيدها أن يزوجه كان للسيد أن يتسرى بها ، أو أن يزوجهها أو أن يزوجهها لأحد .
- للعبد أن يلجأ الى القاضي لمقاضاة سيده إذا انتقص السيد حقاً من حقوقه أو عامله بسوء .
- كان من جملة وظائف المحتسب مراقبة معاملة السادة للعبيد .

١١٦ - رأي بعض المنصفين الغربيين :

ويشهد المنصفون الغربيون من الكتّاب والمؤرخين ورجال الدين ، على حسن معاملة المسلمين لمن كان تحت يدهم :

أ - يقول تريتون : يصر الإسلام على وجوب اصطناع الرفق مع الشعوب المغلوبة على أمرها ، ويوصي بحسن معاملتها ، والتزام العدل معها . ^(١) .

ب - وينقل تريتون شهادة للبطريق عيشويابه ، الذي تولى بطريركية أنطاكية من سنة ٦٤٧ إلى ٦٥٧ م ، جاء فيها : «إن العرب الذين مكّتهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون . إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملّتنا ، ويوقرون قسيسينا ، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا » ^(٢) .

ج - ويقول رونسمان : لقد خفف تبديل الحكومة بعد طرد المسلمين للبيزنطيين من سوريا ومصر ، ما كان يعانيه الخوارج على المسيحية - ويقصد بذلك النصارى الشرقيين - . وقد قال ميشيل السوري بطريك الياقبة في أنطاكية ، الذي كتب تاريخه في عهد الممالك الصليبية في الشرق ، بعد خمسة قرون من الفتح :

«إن آله الانتقام ، الواحد الكبير القدير ، بعث من الجنوب أبناء اسماعيل

(١) تريتون - أهل الذمة في الاسلام ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٩ .

لينقذونا بأيديهم من سلطة الرومان، وإذا كنا قد تكبدنا بعض الخسائر لأن الكنائس التي انتزعت منا، وأعطيت الى أنصار مجمع خلقدونية، بقيت لهم، إلا أننا قد أصابنا خير ليس بالقليل، بتحررنا من قسوة الرومان، وشروهم، وغضبهم، وحفيظتهم علينا، هذا من جهة ومن جهة ثانية، لقد سادت الطمأنينة بيننا^(١) .

د- ويقول رونسمان أيضاً: «إن النسطوريين كانوا يتفوقون مع اليعاقبة في هذا الرأي، وقد كتب مؤرخ منهم غير معروف الاسم يشيد بحكم العرب لهم ويقول: لبيارك الرب حكم العرب وليجعله أكثر تقدماً وازدهاراً^(٢) .

هـ- ويقول رونسمان أيضاً: «وليس للنصارى أي سبب يررشكواهم من انتصار الإسلام.. فقد كانوا أسعد حالاً في ظل الإسلام منهم في زمن الأباطرة المسيحيين^(٣)» .

و- ويقول الكونت سيركور: «ومهما قيل في حكم العرب، فإن حظ الأسرى في الحرب والمعتقلين منهم، كان لدى العرب أفضل مما كان عليه لدى أية أمة أخرى في تلك الفترة التي كانت الحرب تقوم فيها، في كل مكان، بالنار والدم، وكانت حياة المغلوبين ملكاً للغالبين، وتحت رحمتهم بدون تحفظ^(٤)» .

ز- ويقول سيركور في موضع آخر: «إن القرآن أمر بحسن معاملة العبيد ولذلك فإن حظ العبيد النصارى كان متعلقاً بطبع أسيادهم ومزاجهم^(٥)» .

ح- ويقول سيركور في موضع آخر: «وبالاختصار فإن المستعربين في الاندلس كانوا - حتى جاء حكم المرابطين - يتمتعون بحماية رسمية . . وينتج من مجموع الأعمال السياسية، أن عرب اسبانيا اتخذوا من التسامح أساساً لحكمهم وسيطرتهم، وقد تسامحوا مع رعاياهم المسيحيين في كل شيء، في التقاليد وفي الدين وفي المؤسسات والعادات والأخلاق^(٦)» .

(١) رونسمان، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٢٠ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢١ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦ .

(٤) الكونت سيركور ج ١ ص ٢٧ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٩ .

(٦) الكونت سيركور ج ١ ص ٦٧ .

تقوم خطة الإسلام في معاملة الأمم المغلوبة، على عدم التدخل في شؤونها الدينية، وعلى السماح لها بممارسة عباداتها وطقوسها كما تحب، وكما يوجبه عليها شرعها وتقاليدها، سواء أكانت تلك الأمم من أهل الكتاب أم من المجوس، أم من غيرهم، وكثيراً ما كانت عقود الذمة أو الأمان، تتضمن الشروط التي يتفق عليها المسلمون مع أهل الذمة، فيما يتعلق بأمور العبادة. وكان الحكام المسلمون يحترمون تلك الشروط دائماً، ويتقيدون بها. وكان الفقهاء المسلمون يقفون حكماً عدولاً، ساهرين على مراقبة الالتزام بتنفيذ هذه الشروط. وقد قسم الفقهاء البلاد التي تحت يد المسلمين الى ثلاثة أقسام، وكانت لهم آراء في حق بيوت العبادة، تختلف من أرض الى أرض، بحسب القسم الذي تدخل فيه، ويمكن تلخيص الآراء التي استقر عليها رأي الأكثرية في الآتي :

أ - بلاد أنشأها المسلمون في الإسلام، وهذه البلاد تعتبر خالصة للمسلمين ولإمام أن يبيح أهل الذمة، للاستقرار فيها، وفي ذلك اتفاق من الأئمة. ولكن إذا كانت هناك بيوت عبادة قائمة في أرض خلاء، وجاء المسلمون، وبنوا فيها قرية أو مدينة، فإن بيوت العبادة تبقى، ولكن إذا أحدثت في هذه البلاد بيوت عبادة حديثة جاز للإمام هدمها^(١).

ب - بلاد أنشئت قبل الإسلام، واستولى عليها المسلمون عنوة وقهراً، وفي هذه الأرض لا يجوز للذميين أحداث بيوت عبادة لهم، أما بيوت العبادة القائمة يوم الفتح فيجوز أن يتركها الإمام كلها لأصحابها، أو أن يترك بعضها، ويستولي على بعضها الآخر، بحسب ما يراه موافقاً لمصلحته، على اعتبار أن أخذ البلد عنوة يجعله وما فيه ملكاً للمسلمين على قول. أما بيوت العبادة التي تبقى بيد أهلها فإن لهم أن يصلحوها ويرمموها، أما إذا أهملوا العناية ببعضها حتى انهدم تماماً، فإن الفقهاء يرون عدم السماح بتجديده.

ج - بلاد أنشئت قبل الإسلام وافتتحها المسلمون صلحاً، وفي مثل هذه البلاد يستطيع أهل الذمة الاحتفاظ بمعابدهم، ولهم إحداث ما شأوا منها، إذا تم الصلح معهم

(١) المراغي ص ١٠٨. وابن القيم الجوزية ص ٦٦٧.

على أن تكون الأرض لهم، ويدفعون الخراج للمسلمين، ولم يكن في الصلح ما يمنعهم من ذلك الاحداث.

وإذا وقع الصلح على أن الدار للمسلمين، ويدفعون الجزية، فحكم المعاهد فيما يقع عليه شرط الصلح^(١)، وتعتبر الشروط المدرجة في معاهدة الصلح - أو عقد الذمة - هي الأساس الذي يقوم عليه التعامل بين أهل الذمة والحكام المسلمين، فإن اشترط فيها أن يحدّثوا بيوت عبادة، وأن يرمموا ما رث منها وما انهدم، أو أن يوسعوا ما انهدم، فإنهم يستطيعون ذلك، وليس لأحد أن يعارضهم فيه^(٢).

وكان بعض الحكام المسلمين يتساهلون في مراقبة الذميين في التقيد بشروط العهد، فيتجاوز أهل الذمة على الشروط، ثم يأتي بعد ذلك حاكم متشدد، أو تكون هناك ظروف خاصة، فيطالب الحاكم الذميين بالتزام العهد، وما فيه من الشروط، وقد يصل الأمر بالحاكم الى درجة هدم بعض المعابد التي بنيت أو جددت خلافاً للعهد، وما فيه من شروط.

ولكن الحكام المسلمين كانوا إجمالاً أميل الى التساهل في أمور العبادة، وفي هذا الصدد يقول تريتون (تتجلى لنا بما سبق عدة حقائق أولها أن الكنائس كانت تبنى بحرية تامة، وكانت تشيد بموافقة السلطة وأصحاب الأمر والنهي بل وأحياناً بمساعدتهم^(٣)).

١١٨ - هل تتدخل الدولة في الشؤون الدينية والقضاء؟

يقول الإمام الشافعي: إن الحكومة يجب ألا تتدخل في أي عمل من أعمال الذميين، حتى ولو كان فيه ما يناقض الشرع، ما دام لا يتعارض مع الوضع العام، فإذا كان الذميون في قرية ينفردون بامتلاكها، فليس للحكومة أن تمنعهم من احداث كنيسة، ولا من رفع بناء، ولا تعرض لهم في خنازيرهم وخرمهم، وأعيادهم، واجتماعاتهم، وقد يقرض الذمي ذمياً آخر ديناً بالربا، أو يعقد نكاحاً لا يبيحه الشرع الإسلامي،

(١) المراغي ١٠٨.

(٢) ابن القيم الجوزية ص ٦٩٩.

(٣) تريتون ص ٥٣.

ومع ذلك فلا يجوز لأحد التدخل فيما فعلوه .
وأفتى الأئمة بأنه لو تزوج مجوسي ابنته (والمجوس يحلون الزواج بالبنات) ،
فولدت له ابنة ومات عنهما استحققت البنتان ثلثا التركة ، عملاً بقواعد الشرع
الاسلامي على اعتبار أن هذا الزواج صحيح في شرع المجوس^(١).

١١٩ - الحكم بين أهل الذمة :

ترك الشرع الإسلامي - من حيث المبدأ - لكل طائفة أن تتولى حل خلافات
أفرادها بنفسها عن طريق محاكمهم الطائفية ، بحسب شرائعهم ، وعاداتهم ،
وأعرافهم . ولكن قد يستعصي حل قضية على الطائفة ، أو يهمل أحد المتخاصمين بعدم
الثقة في محكمة الطائفة ، فيرى اللجوء الى سلطة الدولة لتتوسطه من خصمه ؛ والدولة
بما لها من سلطة الولاية العامة ، وبما عليها من مسؤوليات حفظ الأمن في البلد ، ومنع
الاضطراب في المجتمع ، قد ترى من حقها التدخل لحسم الخلاف . وقد وضع
الفقهاء قواعد تدخل الدولة في المنازعات بين أبناء الطوائف غير المسلمة يمكن
تلخيصها فيما يلي^(٢) :

- ١ - تعتبر الشريعة الاسلامية ذات أحكام عامة تشمل كافة المسلمين .
- ٢ - إذا رفع أحد الدّميّين طلباً الى القاضي لمقاضاة خصمه ، فقد اختلف الأئمة فيما
يجب عمله :

أ - فئة تقول بوجوب القضاء بينهم ، إذا ترفعوا الى القاضي ، وحيث يطبق
القاضي الشرع الإسلامي ، عملاً بقوله تعالى : ﴿فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ
عَنْهُمْ﴾ ، وتؤيد هذه الفئة قولها بما روي عن الحسن من قوله : (خلوا بين أهل الكتاب
وبين حاكمهم ، وإذا ترفعوا إليكم ، فأقيموا عليهم ما في كتابكم) .

ب - وفئة تقول بأن القاضي بالخيار بالحكم بينهم وعدمه ، وهو قول الإمام
مالك .

ج - وفئة تقول بوجوب الحكم بينهم بما في الشرع الاسلامي ، وإن لم يترفعوا

(١) المراغي ص ٣٨ .

(٢) المراغي ص ٤١ .

الى القاضي استناداً الى أن التدمي تقطع يده في السرقة، مثلما تقطع يد المسلم، - فتكون الأحكام جارية عليهم وإن لم يترافعوا.

ولكن أكثر الفقهاء متفقون على أنه يجب ترافع الخصمين الى القاضي، ورضاهما بحكمه، وحينئذ يقضي بينهما بما في الشرع الاسلامي سواء كان الأمر يتعلق بالأنكحة أو حقوق العباد أو حقوق الله، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. (سورة المائدة آية ٤٩).

ويقول عبد الله مصطفى المراغي، إن الأصح هو أنه يجب على القاضي الحكم إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً، لأن المسلمين التزموا بالذنب عن الذمي، ورفع الظلم عنه، وإذا طلب أحد الخصمين احضار خصمه، وجب إجبار الخصم على الحضور، أما إذا كان أحد المتخاصمين معاهداً والآخر حربياً فلا يحكم القاضي بينهما إلا إذا رضيا بحكمه، وإذا طلب أحدهما إحضار خصمه، فلا يجب إحضاره ولا إجباره على الحضور^(١).

قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (سورة المائدة الآية ٤٢). وعلى هذا فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بمعيتهم إليك للتحاكم اتباع الحق.

وهذا الحكم خاص بالمعاهدين (دون أهل الذمة). فالمعاهدون - كالأجانب الموجودين في بلاد المسلمين، لا يجب على المسلمين أن يحكموا بينهم، وإن تحاكموا اليهم، بل المسلمون غيرون في ذلك حسب ما يرون فيه المصلحة، أما أهل الذمة، فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا الى المسلمين لأن من اخذت منه الجزية، تجري عليه احكام الاسلام في البيوع والمواريث والعقود عدا بيع الخمر والخنزير.

ويتضح مما تقدم أن الشرع الاسلامي ترك للذميين مطلق الحرية في ممارسة حقوقهم الدينية وإدارة مجتمعهم وحسم النزاع بينهم، بحسب شرعهم وأعرافهم؛ وقد تقيّد الحكام المسلمون بذلك بدقة على أنه أمر الدين.

(١) تريتون ص ٨٠

١٢٠ - هل كانت الدولة تتدخل في اختيار رجال الدين؟

عقد تريتون في كتابه (أهل الذمة) فصلاً بعنوان (الدولة والكنيسة)^(١)، ذكر فيه أن بعض الأمراء المسلمين كانوا يتدخلون في انتقاء البطارقة وتعيينهم، ويقول إنه كان من المفروض أن يكون الشخص المنتخب لأعلى منصب ديني، ممن يجوزون رضا الخليفة أو نوابه، لتسهيل مهمته ويستطيع ممارسة سلطته بحرية أكبر، ويقول أيضاً إن السلطة الإسلامية كانت تراقب أعمال رجال الدين غير المسلمين مراقبة دقيقة. ويرى أن البطريرك كان يعتبر موظفاً حكومياً، ولا بد في تعيينه من موافقة الخليفة، ويدعم وجهة نظره هذه بالاستشهاد بالمرسوم الصادر إلى «الأنبا عبد يشوع» الثالث النسطوري، الذي تولى البطريركية عام ١١٣٨ م، فقد جاء فيه (إن أمير المؤمنين، لما وكله الله إليه من أمور عباده، وحمله أعباءه في أرضه وبلاده، يرضى الأمة من اهتمامه عيناً يقظاً، ويوليها في عامة متصرفاتها حراسة شاملة وحفظاً، ويتفقد أحوالها، ويعم ذلك عمومياً يشترك فيه المسلم منها والمعاهد والداني والمتباعد وطوائف الملك من أهل الكتاب، الذين، حماهم الشرع وذمته . . . ولما أنهيت حالك إلى أمير المؤمنين، وأنتك أمثل أهل نحلكت طريقة، وأقربهم إلى الصلاح مذهباً وخليقة . . . وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع إليهم في الاستعلام عن سيرة أمثالك، وذكروا أنهم تصفحوا أحوال ذوي الديانات فيهم . . . بحكم حاجتهم إلى جائلق ينظر في أمورهم، فاتفقوا باجتماع من آرائهم على اختيارك للرئاسة في دينهم، ومراعاة شؤونهم، وتدبير وقوفهم، والتسوية في عدل الوساطة بين قويمهم وضعيفهم . . . الخ)، فأوعز أمير المؤمنين بأسعافهم فيما سألوه بالإنجاب . . . وبرز الاذن الإمامي الأشرفي بترتيبك جائلقاً لنسطوربي النصارى بمدينة السلام، ومن تضمنه منهم ديار الإسلام، وزعياً لهم ولن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد . . .)^(٢).

ويذكر تريتون قصة أخرى تشير إلى أن الأساقفة في مصر جاؤوا أميرها حفص ابن الوليد الخضرمي طالبين منه أن يأذن لهم في إقامة بطرك، فسألهم أن يبدؤوا أولاً باختيار الرجل الذي يروونه أهلاً، ثم يحضرونه إلى قصر الأمارة، فأتروا (خايل) من رهبان وادي هبيب، وسألوا حفصاً أن يأمر باحضاره من هناك لاقراءه في منصبه^(٣).

(١) تريتون ص ٨٢

(٢) ساويرس - سير البطارقة - ص ١٦٣ : (أورده تريتون ص ٨٣).

ومن الطبيعي أن يكون للدولة نوع من الرقابة على أعمال كبار رجال الدين فيما يتعلق بأعمالهم الادارية، وأن يكون لها رأي في اختيار أكبر سلطة فيهم، لأن هذه السلطة الكبرى تتولى جزءاً من سلطة الدولة، وهي مسؤولة عن الأمن والاستقرار، وإقامة العدل، وإحقاق الحقوق، ولكن يتضح من المثليين اللذين أوردتهما ترى أن الخلفاء أو نوابهم، يفوضون أمر انتقاء الشخص المختار إلى السلطات المختصة في الطائفة، ويستوثقون من كفاءته وأخلاقه من وجوه أبناء الطائفة، وتبقى موافقتهم شكلية.

الفصل الثاني

معاملة العرب للاسبان المستعربين

١٢١ - دخل العرب اسبانيا عام ٩٢هـ (٧١١م)، وأكملوا فتحها في عامين، ولما استتب لهم الأمر بدأ الفاتحون، من العرب والبربر، يستطيون الحياة فيها، فاستقر الكثيرون منهم، واختار البربر سكنى المناطق الجبلية في الشمال والجنوب، لأنها أشبه بطبيعة بلدهم وأرضهم، وتفرق العرب في مناطق كثيرة، مختارين مناطق السهول. وبدأت الحياة تسير في ظل الفاتحين سيرها المعتاد، وأقبل الاسبان على الدين الإسلامي يدخلونه بأعداد كبيرة، بدون ضغط من المسلمين، ودون إكراه منهم على الدخول فيه. وأقام من شاء على دينه يمارسه كما يشاء في ظل الفتح أيضاً، دون ضغط أو إكراه من أي نوع كان. وترك المسلمون لمن أقاموا على دينهم حرية تدبير أمورهم الدينية كما يشاؤون، فكانت لهم محاكمهم الخاصة بهم، يقضي بها قضاة منهم بحسب شرعهم وأعرافهم. وكانت لهم لجان إدارية تصرف أمور الطائفة، في كل بلدة وقرية، ويشرف على هذه اللجان أكبر رئيس ديني في البلد، ورجل من أشرفهم، أطلق عليه العرب اسم القومس (الكونت) - أو شيخ البلد -؛ هذا في أمهات المدن. ولم يكن المسيحيون الاسبان مكلفين بأكثر من دفع الجزية عن الرجال - القادرين على العمل وحمل السلاح - والخراج عن الأرض. وبقي الاسبان يارسون إدارة مجتمعاتهم في ظل الإدارة العربية، حتى أصبح لهم نوع من الامتيازات، ما كانوا يحلمون بجزء منها في ظل الإدارات السابقة: القوطية والفندالية والرومانية، التي سبقت المسلمين في حكم الجزيرة، وحرر المسلمون الفلاحين (عبيد الأرض) من رقة العبودية التي كانت مفروضة عليهم قبل المسلمين، فساووا الناس في التمتع بالحياة والحرية. وازدهر المجتمع الاسباني المسيحي، وأصبح الكثيرون من أفراده يتكلمون العربية، ويتقنون آدابها، ويتسمون بأسماء عربية، حتى غاظ ذلك بعض رجال الدين، فأخذوا يُعملون الرأي لايجاد وسيلة تنفر أبناء ملتهم من العرب، ودينهم، وحكمهم، ولغتهم، فكانت

فتنة في قرطبة حوالي عام ٨٥٠م. عرفت في التاريخ باسم (حى الاستشهاد). ولكن هذه الفتنة تخذت بعد شهرين، ونسيها الناس إذا استنكرها العقلاء منهم واستخفوها. ورغم الحروب الطويلة التي كان يخوضها المسلمون كل يوم تقريباً ضد الممالك الإسبانية الشمالية، فإن المسلمين لم يتعرضوا بالأذى لأحد من رعاياهم المسيحيين، ولم يبعدوا أحداً منهم عن المدن الشمالية القريبة من الحدود مع الأعداء، مع أنهم يعرفون أن الكثيرين منهم كانوا يتصلون بالاسبان الشماليين ويتعاطفون معهم، ويكشفون لهم مواضع ضعف المسلمين وعوراتهم، لأن المسلمين كانوا يتقيدون سياسة معينة ثابتة نابعة من روح الاسلام، وكريم تعاليمه، ومن عقلية العربي المتسامحة، التي فهمت الدين، وفسرته بحسب ما ألقت. وقد طبقوا هذه السياسة على الجماعات الدينية التي تعيش في ظل حكمهم، ولم يجيدوا عنها. وكان لهذه السياسة المتسامحة العطوفة حماة من الأئمة والفقهاء ورجال الدين المسلمين، فإذا أراد حاكم مسلم أن يجيد عنها - بسبب جهل حقيقة تعاليم الدين، أو بسبب مزاج شخصي، أو بسبب تصرف خاطيء من بعض أفراد تلك الجماعات، أو بسبب ظروف غزو خارجي وقفت منه تلك الجماعات موقف العطف والتأييد - تقدم إليه رجال الدين، يعلنونه بمنافاة ذلك لروح الإسلام وتعاليمه، وسنة النبي ﷺ وخلفائه، وطالبوه بالتمسك بالعهد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم لتلك الجماعات، وهو عهد لا يجوز نقضه من جانب المسلمين، ما لم يكن هناك سبب حقيقي يبيح ذلك النقض. وكان الحكام لا يترددون في التراجع عن خطئهم، ولا في كبح جماح عواطفهم وانفعالاتهم. ولذلك بقيت تلك الجماعات في أرضها وبلادها محافظة على دينها ولغتها لم يلحق بها أذى، ولم ينزل بساحتها ضيم.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاسبان الشماليين، لما احتلوا المدن الأندلسية الكبرى، مثل طليطلة (١٠٨٥) وسرقسطة (١١٢٥) وغيرها، وجدوا فيها مجتمعات مسيحية مزدهرة ومنظمة يتمتع كثير من أفرادها بالثراء والجاه، وقد شعرت هذه المجتمعات بالغبن حينما ادجت في المجتمع الاسباني بعد سقوط تلك المدن بيد الاسبان، وطالبوا بأن تحفظ عليهم امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم العربي^(١).

(١) سرکورج ١ ص ٥٩.

وهذا بلا شك يعتبر دليلاً واضحاً على تسامح العرب، وحفظهم للعهود والمواثيق، وعلى حسن معاملتهم للنصارى الذين عاشوا بينهم، والذين يسميهم المؤرخون بالمستعربين (موزاراب). ولو أخذ العرب بالسياسة الدينية التي كانت تأخذ بها الأمم الأخرى في تلك العصور لقضوا قضاء تاماً على كل ما هو غير مسلم وما هو غير عربي. ولكن العرب فضلوا اتباع ما شرع لهم دينهم وخلفاءهم من سياسة التسامح والمحبة، ولو كان في ذلك ضرر على مستقبلهم، وخطر يهدد كيانه دولتهم.

ولكن الأسباب التي استعادوا من العرب المناطق التي كانت بأيديهم، لم يقابلوا هذه السماحة بمثلها، وإنما اتبعوا مع المسلمين سياسة لثيمة جائرة، تنم عن الجهل والتعصب الذميمة الأعمى. وأشد ما يدهش في هذا الموضوع هو أن يرى الإنسان رجال الدين في الفاتيكان والكنيسة، يرضون الحكام الأسبان والشعب على إبادة المسلمين، ويغرونهم بأذاهم ونهب أموالهم، وإزعاجهم، ويحلقون لهم نقض العهود والمواثيق، التي قطعها الحكام للمسلمين، حين احتلوا أرضهم. وإذا كنا نعتقد أن الأديان جميعها - وخصوصاً السماوية منها - إنها جاءت لخير البشرية، وتحقيق الأخاء والمحبة والسلام بين البشر جميعاً، وأن الأديان تأمر بالخير والمعروف، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وترفض الغدر والمكر والخديعة، وأن رجال الدين من كل ملة مفروض فيهم، أكثر من غيرهم، التمسك بتعاليم دينهم، والسهر على عدم خرقها، والاساءة إليها، ليكونوا هم القدوة الصالحة للآخرين، لذلك فإننا لا نجد تعليلاً مقبولاً يمكن تقديمه لتبرير مسلك أولئك الحاضرين على إيذاء المسلمين، والنقض لعهودهم، والغدر بهم، إلا أن تعاليم الدين المسيحي، وروحه السمحة لم تكن مفهومة فهماً صحيحاً وواضحاً بالنسبة لهم، أو أن تعاليم الدين لم تصقل نفوسهم صقلاً كافياً، ولم تتشرب نفوسهم ما في الدين من خير ومحبة وإنسانية. وإذا كنا اليوم نشيد بالمواقف المشرفة، التي تدل على النبل والشهامة والوفاء بالعهد، التي وقفها ملوك ورجال سياسة في الأزمنة البعيدة، كموقف امبراطور القسطنطينية باسيل، حينما استنجد به أمير حلب الحمداني - مع ما هو معروف عن رجال السياسة والحكم من الميل إلى تأول المواثيق والعهود للافادة من الظروف والمناسبات - فإننا لا نستطيع إلا أن نشعر بالآلم والأسف، لموقف منحرف يصدر عن رجل دين يفترض فيه الخوف من الله، والبعد عن مطامع الدنيا، والحرص على جادة العدل والانصاف.

وقصة الامبراطور باسيل هذه، تبدأ يوم استنجد به أبو الفضائل سعيد الدولة

الحمداي عام ٣٨٤هـ، ليدفع عنه القائد الفاطمي بنجوتكين، فأسرع الامبراطور بجيشه، ونشر الشائعات أمامه، ليجفل بنجوتكين ويضطره الى الارتحال عن حلب. ولما وصل الامبراطور منطقة العمق، ارتحل بنجوتكين، فخرج أبو الفضائل الحمداي للقاء الامبراطور وشكره. ومعه كثير من الهدايا. فقال قسطنطين لأخيه الامبراطور باسيل (خذ حلب والشام ما يمتنع عليك). فقال الامبراطور: ما يسمع الملوك أني خرجت أعين قوما فغدرت بهم)، فقال له بعض أصحابه (ليست حلب غالية بغدرة) فرد عليهم (بلى ولو أنها الدنيا)^(١). فأين هذا الموقف الشهم النبيل، من موقف أولئك الرجال الناذرين أنفسهم للدين، الذين يضغطون على الملوك والحكام الاسبان ليخرجوا العرب من أرضهم وديارهم، وهم الذين وثقوا بدين الحكام وذمتهم، واطمأنوا الى عهودهم ومواثيقهم، فوضعوا السلاح، ولم يبق بيدهم وسيلة يدفعون بها عن أنفسهم. وسرى فيما بعد، أن الفاتيكان ورجال الدين الاسبان، ما زالوا مصرين على إلحاحهم حتى نجحوا في حمل الملوك على اضطهاد العرب، ووضع خطة كاملة للقضاء على كل ما هو عربي ومسلم في شبه الجزيرة؛ وقد وضعوا تحت تصرف الحكام الاسبان - في سبيل انفاذ هذه السياسة وانجاحها - آلة جهنمية تعتبر من أفظع ما عرفتة الإنسانية في تاريخها الطويل، ألا وهي دواوين التحقيق (أو محاكم التفتيش)، وقد طبق زبانية هذه الدواوين بحق المخالفين للكنيسة الكاثوليكية بصورة عامة، وبحق المسلمين العرب بصورة خاصة، أساليب من التعذيب تقشعر لها الأبدان. وقد نجحت الكنيسة في اجبار كثير من المسلمين على تلقي العماد، معتبرة إياهم من النصارى. ولكنها مع ذلك لم تركهم وشأنهم، وإنما أخذت تنقب عن خفايا نفوسهم، وتطاردهم من تشك في صدق إيمانهم. وثار المسلمون الأندلسيون المرة تلو المرة، لدفع الضيم عنهم، وللتعبير عن سخطهم واستيائهم من خرق العهود المقطوعة لهم، ودامت إحدى ثوراتهم ثلاث سنين. ولكن خصمهم كان أقوى منهم فقهرهم واتخذ من ثورتهم حجة عليهم للتكيد بهم، وأصبح السعيد من أولئك المساكين من تطرده السلطات الحاكمة، من شبه الجزيرة. وفي عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠، أخرجت اسبانيا ما تبقى من أسال العرب في الأندلس، مع أنهم أصبحوا مسيحيين في نظرها منذ وقت طويل.

(١) زبدة الحلب لابن العديم ج ١ ص ١٩١.

ولقد حاول بعض الكتاب الاسبان، أن يدفع عن بلده اسبانيا، النعوت والأوصاف التي ألصقها بهم الكتاب المنصفون الغربيون، من جراء ما اقترفه الشعب الاسباني وكنيستته وحكومته بحق العرب، وحاول تبرير التصرف الذي استهدف العرب، تارة بضرورة البحث عن وحدة القومية والدين في اسبانيا، وتارة بالقول إن العرب الاندلسيين كانوا يتآمرون مع الفرنسيين والأتراك والجزائريين . . الخ، على الحكومة الاسبانية. ولكن جميع هذه الأقوال لا تجد خارج اسبانيا من يقتنع بها، أو يعتقد بصحتها.

وسنعرض في الفصل التالي الى التدابير التي اتخذت بحق العرب بعد سقوط دولتهم. وسنورد فيه الأوامر البابوية والملكية التي مست العرب في حياتهم، أما في هذا الفصل فسنعرض الى المعاملة التي لقيها المستعربون الاسبان من الادارة العربية في الأندلس.

١٢٢ - المعاملة التي طبقتها العرب على المستعربين :

يتضح مما تقدم أن تعاليم الإسلام توجب عدم إكراه الناس على ترك دينهم، كما توجب عقد الصلح مع الأعداء إذا جنحوا للسلم؛ كما رأينا أنه متى تم عقد عهد الذمة التزم المسلمون بالوفاء به مطلقاً. وليس لهم من سبيل الى نقضه من جانبهم إلا إذا أحدث الذميون حدثاً يمكن أن يعتبر ناقضاً للعقد. ويعتبر الشرع الغدر، وعدم الوفاء بالعقود والعهود، والنكث بها، والخنث بالايان، من الكبائر التي يمقتها الله، ويعاقب مرتكبها عقاباً شديداً. وكان الخلق العربي قبل الإسلام، ينفر من الغدر والنكث بالعهد، ويعتبر ارتكابهما معرة تلصق بفاعلها. وكانت معاملة العرب للمستعربين الاسبان، لا تخرج عن إطار الخطوط الكبرى، والقواعد العامة التي رسمتها الشريعة الإسلامية لمعاملة أهل الذمة. ولكن الادارة العربية لم تحل من بعض الانتقادات التي وجهها اليها بعض المؤرخين الاسبان، وهم في معرض تبرير ما ارتكبه شعبهم بحق العرب، بعد سقوط الدولة العربية. ولذلك فإننا لكي نستطيع تتبع أوضاع المستعربين، ودراسة المعاملة التي طبقت عليهم في مختلف الأدوار التي مرت بها الادارة الاسلامية في الأندلس، نرى أنه من المفيد أن نقسم حكم المسلمين في الأندلس الى ست فترات، لندرس كلا منها على انفراد؛ كما فعل الكونت سيركور:

- ١ - فترة الحكم المعينين من قبل دار الخلافة في دمشق، أي من وقت الفتح حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس عام ٧٥١م.
- ٢ - فترة الحكم الأموي من سنة ٧٥١م إلى ١٠٣١ تاريخ سقوط الخلافة.
- ٣ - فترة حكم ملوك الطوائف.
- ٤ - فترة حكم المرابطين.
- ٥ - فترة حكم الموحدين.
- ٦ - فترة حكم إمارة غرناطة.

١٢٣ - الفترة الأولى - فترة امراء دمشق :

احتل المسلمون بعض مدن الأندلس صلحاً، كما احتلوا غيرها حرباً، ونعاملوا كل بلد بحسب ما قرره الشرع لها من معاملة، وعقدوا مع المدن المفتوحة صلحاً عهود ذمة، يمكن أن يعتبر الأمان الممنوح لـ (تدمير) حاكم مقاطعة تدمير نموذجاً لها. وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم: كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير بن غبدوش، أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمة نبيه ﷺ ألا يقدم له أو لأحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه، ما تعبد ونصح، وأدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح عن سبع مدائن: أوريوله وبلنتله وموله وبقره وآية ولورقة، وأنه لا يؤوي لنا أبقاً، ولا يؤوي لنا عدواً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه. وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أفساط طلا (وهو شراب من العنب)، وأربعة أفساط خل، وقسطي عسل، وقسطي زيت. وعلى العبد نصف ذلك. شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن أبي عبدة. . وأبو قائم الهذلي (كتب في رجب ٩٤هـ) (١). ولما انتهت الحرب، وخضع أكثر شبه الجزيرة للعرب بدأت الحياة في المنطقة الإسلامية تأخذ شكلها الجديد، بعد

(١) غابر الأندلس وحاضرها - محمد كرد علي ص ٣٧.

أن تحرر الأقبان، ودخلت فئات كثيرة من مختلف طبقات الشعب في دين الفاتحين وأصبح في الأندلس مجتمعان :

١ - المجتمع الذي أحدثه الفاتحون، ومن انضم الى دينهم من ابناء الأندلس، الذين أصبحوا يتمتعون بالمساواة التامة مع القادمين في جيش الفتح.

٢ - ومجتمع المستعربين، الذين بقوا تحت حكم العرب، محافظين على دينهم، وفقاً للشروط والعهود التي قطعت لهم. ولم يتغير شيء في إدارة الكنائس والاسقفيات، وكان لطليطة وقرطبة واشبيلية وغرناطة أساقفتها، ورهبانها، وقسيسوها الذين كانوا ينتخبون كما في الماضي بحرية تامة^(١). وحافظ هؤلاء المستعربون على التنظيم الإداري والسياسي الذي خلفه القوط. وتابع القومس (أوشيوخ البلد) ممارسة مهام السلطة القضائية بالدرجة النهائية، والسلطة الإدارية بالاشتراك مع الاسقف، كما كان يتم في السابق بدون أي تغيير. وما كان يشذ عن ذلك إلا الدعاوى الجنائية، التي يحكم فيها بالموت، فكانت من اختصاص القاضي المسلم. واعتبر المستعربون (الموزاراب) الوضع الذي كانوا فيه، تحت حكم العرب، امتيازاً لهم طالبا بالحفاظ عليه حينما احتل القشتاليون طليطلة عام ١٠٨٥م^(٢).

وفي هذه الفترة التي بلغت مدتها ٤٤ عاماً تنأى على ولاية الأندلس اثنان وعشرون والياً، بينهم ثلاثة من الغاصبين، وقد طبق المسلمون خلال هذه الفترة شروط الاستسلام، ولم يحدث عليها تجاوز يذكر. والبحث عن تطبيق شروط الاستسلام، هو أفضل وسيلة لمعرفة ما إذا كان هناك عسف أو تجاوز على حقوق أهل الذمة^(٣).

ويعترف المؤرخون الغربيون أن مسلك الأمراء العرب كان سليماً، ومعاملتهم للمستعربين، كانت عادلة ومنصفة، وفي حدود شروط المعاهدة، ولكنهم يقولون إن هناك بعض المآخذ على تصرفات أربعة من الأمراء هي: ^(٤)

١ - أن عثمان بن أبي نسعة الخثعمي قتل عدداً من رجال الدين والمستعربين.

(١) كونت سيركورج ١ ص ٢٤.

(٢) كونت سيركورج ١ ص ٢٦.

(٣) سيركورج ١ ص ٢٢.

(٤) سيركورج ١ ص ٣٤.

٢ - أن أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، نقض العهد المقطوع لتدمير ، ولم يبرر هذا النقض بأي سبب .

٣ - أن عنبسة بن سحيم الكلبي ، ضاعف الجزية في كثير من المدن والقرى .

٤ - أن عقبة بن الحجاج السلوي ، ضاعف ضريبة الرأس ، ومنع المسيحيين من الوصول الى الوظائف العليا كالولاية .

ولكننا إذا عدنا الى هذه المآخذ لتفحصها واحداً واحداً ، وناقشنا على ضوء تعاليم الشريعة ومسلك الولاة المسلمين في صدر الإسلام ، نخرج بالملاحظات التالية :

أ - ان ما نسب الى عثمان بن أبي نسعة من قتل رجال الدين والمستعربين ، هو أمر لا يمكن أن يقع بدون سبب موجب خطير يستلزم اللجوء الى القتل . هذا إذا كان الأمر قد وقع فعلاً . لأن قتل الانسان ظلماً ، أي انسان كان ، مسلماً أو غير مسلم ، ظلماً وعدواناً ، هو من أكبر الكبائر في نظر الشرع ، ولا يمكن أن يبقى مثل هذا العمل بدون قصاص من السلطة المركزية . وعثمان خرج مجاهداً في سبيل الله ، ويعرف أحكام القرآن ، وتعاليم الدين ، وقد سمع بما قاله أبو بكر موصياً بعض قاداته : (ولا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته فيكذبك على وجهك في النار) . ولذلك فإننا لا نعتقد أن عثمان يقدم على ارتكاب جرم خطير قبيح كهذا . ولو فعله لذكره المؤرخون العرب ، ولأخذه الخلفاء عليه .

ب - ولا نظن أبا الخطار يستطيع نقض العهد الذي أقره الأمراء قبله وأكدته الخليفة ، ولو فعله بلا سبب مبرر للجأ تدمير أو ورثته ، أو أهل المنطقة ، الى الأهواء الذين أتوا بعد أبي الخطار ، أو الى الخلفاء ، ولوجدوا من ينصفهم على كل حال . وسنرى فيما بعد أن الأمير عبد الرحمن الداخل ، ينصف (أرطباس) من نفسه ، بعد أن شكاً إليه ما فعله الأمير به .

والمؤرخون المسلمون لا يشيرون الى ذلك النقض ، ولا الى مراجعات قام بها المستعربون ، لدى الأمراء والخلفاء . لذلك نعتقد أن هذا النقض لم يقع ، ولرأه وقع فعلاً ، فلا بد من أن تكون هناك أسباب مرجحة ، كتأمر تدمير على الحكم العربي ، أو قيامه بثورة ، أو تأمره مع الفرنجة في الشمال .

ج - أما مضاعفة الجزية فهو أمر غير ممكن كما رأينا . وإذا كانت هناك زيادة وقعت ، في التكاليف المفروضة على المستعربين في عهد عنبسة ، فقد تكون تعديلاً في نسبة

الخراج المفروض على الأرض لتتفق الضريبة مع حالة الأرض ونخصبها، وصلاحتها للزراعة، وللمواد المزروعة فيها. وهذه أمور يميز الشرع للإمام أو نائبه أن يتصرفا بها ضمن حدود العدل والإنصاف.

د. أما ما قيل عن منع عقبة بن الحجاج، المسيحيين من الوصول إلى الوظائف العالية في الدولة، كالولاية وغيرها، فهو أمر قد يكون وقع فعلاً، وقد رأينا لذلك أمثلة في التاريخ الإسلامي. فيأتي خلفاء أو ولاية يتوسعون في استخدام أهل الذمة، ويأتي آخرون لا يرون ذلك، فيصرفون بعضهم أو أكثرهم. وطبيعة الدولة في تلك العصور هي طبيعة دينية. والدولة الإسلامية كانت تعتبر دولة المسلمين أولاً، وسلطة الخليفة أو نائبه مطلقة، له أن يستخدم من يشاء من المسلمين وغيرهم، إذ لم يكن هناك قانون للتوظيف والاستخدام. أما غير المسلمين فلم يكونوا ذوي حق في الوظائف يخولهم المطالبة بها، فإذا لم تستخدمهم الدولة، أو إذا حدث من استخدامهم، فلا يمكن أن يعتبر ذلك تجاوزاً على حقوق أهل الذمة.

هذا من حيث المبدأ والقاعدة العامة، ولكن الوقائع تدل على أن الأمراء المسلمين والخلفاء في المشرق والمغرب، كانوا يستخدمون أهل الذمة، وخصوصاً منهم النصراني واليهود، في كثير من وظائف الدولة، حتى أصبح بعضهم وزراء وقادة جيوش. وكان من الشائع استخدامهم في أمور الكتابة، وفي أعمال الجباية. وكان استخدام الأمراء المسلمين في الأندلس للمسيحيين واليهود، كثيراً، وأصبح لبعضهم شأن في الدولة، حتى أن اليهودي صموئيل بن نغذله، تقلد أعمال الوزارة في غرناطة في عهد حبوس بن باديس الصنهاجي. وعظم شأنه وشأن اليهود، ولكنه لم يعرف هو وأصحابه حدودهم، وتطاولوا على المسلمين وأذلوهم، وأسأؤوا معاملتهم، فانفجرت ثورة عليهم أطاحتهم.

وإذا كان لنا ما نضيفه ونحن نتتبع موقف المسلمين من أهل الذمة الأسباب. في تلك الفترة، فهو أنها كانت فترة مضطربة كثرت فيها الفتن والقلاقل، وكثرت فيها النزاع بين المسلمين أنفسهم، وانفجرت فيها ثورة لا هبة قام بها البربر، وكثرت فيها القتل والإيذاء، ثم دخل الشاميون أرض الأندلس، وتعاونوا مع عرب الأندلس في القضاء على ثورة البربر. ثم وقعت فتن بين العرب الأندلسيين وبين عرب الشام، كثر فيها القتل والاضطراب. ومن الطبيعي أن لا تصيب الفتن أناساً دون أناس، وبالتالي فإنه من الممكن أن يكون بعض المسيحيين قد أصيب خلال هذه الفتن.

١٢٤ - الفترة الثانية - فترة حكم بني أمية :

يكاد المؤرخون يجمعون على أن حكم بني أمية في الشرق، في دمشق، وفي الغرب، في الأندلس، كان مثلاً طيباً للتسامح الديني، وحسن المعاملة لأهل الذمة، بلا تعصب ولا ضيق تفكير، وقد كان حكمهم في الأندلس مثلاً للحكام المستنيرين الرحماء البعيدي النظر، الذين يحسنون معاملة جميع أفراد رعيتهم.

وفي عهد بني أمية كانت أمور الأندلس قد استقرت، وهدأت الفتن والاضطرابات نوعاً ما، وأخذ المجتمع الأندلسي الجديد في التبلور، كما أخذ المجتمع الأسباني المستعرب يتكيف مع الحياة الجديدة في ظل الحكام العرب. وفي أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني (٨٢٤ - ٨٥٢م)، أخذ الأسبان المقيمون في الأندلس، يأسسون بجيرانهم المسلمين، ويتعلمون لغة العرب، ويأخذون بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم وأسائهم، ويعجبون بثقافة العرب وفنهم، وموسيقاهم، وأدبهم، فأقبلوا عليها يتعلمونها، ويتذوقونها، حتى كادت الفوارق بين المجتمعين أن تنمحى، وحتى كاد المجتمع القديم يذوب في المجتمع الجديد. وكوّن أولئك المعجبون بالعرب، والمقلدون لهم، طبقة اجتماعية جديدة عرفت باسم المستعربين (١). وقد ذكر أحد الكتاب المسيحيين المعاصرين من أهل قرطبة، لأن الرجل من عامة المسيحيين كان يتحاشى قراءة مؤلفات الآباء اللاتين، لأن الفصاحة العربية كانت تسكره. ويقال إن يوحنا اسقف اشبيلية (حوالي عام ٧٢٤) كتب بالعربية تهذيباً للتوراة كي يستعمله المسيحيون المستعربون. وطار صواب بعض رجال الدين المسيحيين، وأنكروا على مواطنيهم هذا التشبه بالفاتحين، وخافوا على لغتهم ودينهم من الضياع، فآخذوا يفكرون في طريقة يخلقون بها نفوراً بين المجتمعين، ويحدثون رد فعل تعصبياً لدى المستعربين، لينفروا من العرب وثقافتهم ودينهم وحكمهم، وقد هداهم تفكيرهم، بعد طول البحث والتأمل، إلى طريقة عجيبة وسخيفة ظنوا أنها توصلهم إلى غايتهم. فقد أخذ قسيس من قرطبة اسمه (إيولوجيوس) بتحريض من له تأثير عليهم على تقديم أنفسهم ضحايا ليفوزوا بالشهادة، ويصبخوا قديسين. وفي عيد الفطر من عام ٨٥٠م أعدمت السلطة قسيساً قرطبياً اسمه برفكتوس، لأنه شتم النبي ﷺ ولعن الإسلام.

(١) فيليب حتي - تاريخ العرب ج ٢ ص ٦٦٩.

فجعلله أسقف قرطبة ورهبانها، قديساً، ونسبوا إليه المعجزات. وبعد أيام، جاء قسيس اسمه اسحق أمام القاضي مدعياً أنه يريد اعتناق الإسلام، ثم أخذ يشتم الرسول والإسلام؛ فاضطر القاضي الى الحكم بإعدامه، فاعتبرته الكنيسة قديساً. واثارت إثر ذلك حمى الاستشهاد وجنونه، حتى بلغ من قتل خلال شهرين واحداً وعشرين شخصاً.

وعقد الأساقفة مجلساً^(١) حظروا فيه على المسيحيين أن يسعوا الى الموت بهذه الطريقة، وعارض ايولوجيوس بوصفه أسقف قرطبة، هذا التصرف، فاستمرت اندفاعة المستشهدين. ولم تتوقف الحمى إلا حينما أمر الأمير محمد بإعدام ايولوجيوس، فتوقفت الحركة بعد أن راح ضحيتها ٤٤ شخصاً.

ومع أن المسلمين يحلون الرسول، ولا يحتملون سماع ما يمس به، فقد ضبط القاضي نفسه، وهو يسمع شتائم هؤلاء المهسترين، وكظم غيظه، وحاول نصيح هؤلاء المرضى، وإرجاعهم عن غيهم، ولما لم يفلح في ذلك، اضطر الى لفظ الحكم بإعدامهم. ولكن العقاب لم يمتد الى أهلهم وذوهم، ولم يصب غيرهم بأذى، واكتفى بأن يجعل العقاب فردياً، لا يطول الأبرياء. عملاً بقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى). (سورة الإسراء آية ١٧).

لقد امتد حكم الأسرة الاموية حتى عام ١٠٣١م، فلم يؤخذ على أمرائهم تصرف فيه جور أو عسف بحق الدميين، كما لم يبد من الشعب المسلم في الأندلس عمل فيه اساءة للذميين، أو ينم عن حق، وروح انتقام، وعلى العكس من ذلك يمكن القول إن المستعربين (بعضهم طبعاً) كانوا هم الذين يسيئون الى المسلمين. وحاولوا إثارة الفتن الدينية بتحديهم المسلمين في قرطبة، عاصمة الدولة، إذ كانوا يتجمعون أمام جامع قرطبة حينما يكون المؤذن يؤذن للصلاة. فيظهرون الاشتمزاز والتذمر، ويبدون إشارات مهينة تسيء الى المسلمين ودينهم. ومع ذلك فإن المسلمين ضبطوا أعصابهم، ولم يقوموا بحملات انتقامية جماعية بحق المسيحيين بدون تفریق بين مذنب وبريء، كما أنهم لم يفكروا بطرد أحد منهم من بيته، أو حمله على الهجرة من وطنه.

(١) ويقول فيليب حتي ان المجلس عقد بناء على ايماء الأمير عبد الرحمن. نفس المرجع ج ٢ ص ٦٧١.

وفي أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني، بدأت الفتن في البلاد، وقد كان لليهود والمسيحيين ضلع فيها. وفي عام ٨٢٩م، انضموا الى الناقمين من المسلمين في طليطلة، وعلنوا الثورة على حكم الأمارة في قرطبة؛ واستمرت الثورة ثلثي سنين، حتى أزعجت الأندلس، وعطلت فعاليتها، الى أن تمكن الأمير محمد من القضاء عليها، بعد أن طلب الثائرون الأمان فأمنهم الأمير، وعفا عنهم، ولم يُصَبَّ المسيحيون بأذى أكثر مما أصيب به المسلمون خلال الفتنة.

ثم تتالت الثورات في المناطق الأخرى وفي طليطلة أيضاً، وكان للنصارى باع طويل في هذه الثورات، واشتراك علي وصريح فيها. ففي الجنوب في مقاطعة ربا (منطقة مالقة) أعلن عمر بن حفصون الثورة على حكم قرطبة، وعمر بن حفصون مسيحي أسلم، أو تظاهر بالإسلام، ثم ما لبث أن ارتد عن الإسلام، وعاد الى دينه الأول، وأنضم إليه في ثورته كثير من مسيحي المنطقة وغيرهم. واستمرت ثورة ابن حفصون وأبنائه، سنين طويلة، حتى تمكن الخليفة الناصر من إخمادها. وثار عبد الرحمن بن مروان الجليقي في منطقة ماردة، وانضم اليه كثير من المسيحيين. وحينما قضى الأمراء على هذه الثورات، لم يخلصوا النصارى واليهود بالعقاب، وإنما عاملوهم على قدم المساواة مع المسلمين. وشملوهم بالعفو. وباختصار، فإن المؤرخين الغربيين لا يرون أن شروط حياة المستعربين قد تبدلت في ظل حكم الأمويين، ولا يرون شيئاً معيئاً من المآخذ على معاملة الأمراء الأمويين للمستعربين. ويذكرون فقط مأخذين: أحدهما على الأمير عبد الرحمن الأول، وثانيهما على ابنه هشام الأول.

١ - يقولون إن الأمير عبد الرحمن كان قاسياً، مع المسيحيين، وانه أخذهم بالحزم الى أن استقامت له الأمور. ولكنهم لم يوردوا حوادث معينة تبرر قولهم، وتؤيده بالحجة، ليتمكن أن يصر الى مناقشتها ومعرفة أسبابها، وهل تشكل فعلاً تجاوزاً على شروط العهود التي قطعها المسلمون للاسبان يوم الفتح أم لا. ويعترف الكونت سيركور الذي عرض لهذا الموضوع، أن الأمير عبد الرحمن أخذ الناس جميعاً - من مسلمين وذميين - بالحزم، وحملهم على الهدوء دون تمييز في المعاملة. فقد دخل عبد الرحمن الأندلس، وتمكن بعد جهد كبير من انتزاع الحكم وتهذبة الأمور، والقضاء على ثورات يوسف الفهري وأبنائه، ومؤامرات بعض الأمراء مع العباسيين. فمن الطبيعي أن يأخذ الناس بالحزم، حتى تستقيم له الأمور. وينقاد له جماع الثائرين. وينهي سيركور قوله بالعبارة التالية: (ولكننا لا نرى في أي مكان أن شروط حياة

المستعربين قد ساءت بفرض أنظمة جديدة عليهم^(١).

وإذا عدنا الى تاريخ الأمير عبد الرحمن لا نجد فيه إلا سعة أفق، وسعة صدر، وحجاً للنصح والأخذ به. ويذكر ابن القوطية أن الأمير عبد الرحمن نظري بعض غزواته الى قبة (أرطباس) بن غيطشه (آخر ملوك اسبانيا)، فوجد حولها أكداً من الهدايا التي أتته من ضياعه، فنفس عليه ذلك الأمر، وأمر بقبض ضياعه. فصار عند أبناء أخيه حتى ساءت حالته، فقصد أرطباس قرطبة، ودخل على الأمير عبد الرحمن، فنظر إليه وهو في هيئة رثة، فقال له يا أرطباس ما بلغك ههنا؟ فقال: أنت بلغتي ههنا، حلت بيني وبين ضياعي، وخالفت عهد أجدادك، بلا ذنب يوجب ذلك عليّ. ثم ذكر أرطباس للأمير عبد الرحمن أشياء كان الناس ينكرونها عليه، وينتقدونه بها، فسر الأمير عبد الرحمن لقوله، وشكره عليه، وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه، وكساه ووصله وولاه القماسة، فكان أول كونت (قمص) في الأندلس^(٢).

٢ - أما ما يأخذونه على الأمير هشام بن عبد الرحمن فهو أنه عاقب بعض المسيحيين، الذين تواطؤوا مع الفرنج للهجوم على نربونه، وأنه حين اضطروا الى اخلائها والانسحاب منها أجبر المسيحيين من أهل المنطقة - الذين تواطؤوا فعلاً مع الفرنسيين - على احتمال أحجار بيوتهم في نربونه، لبناء بيوت لهم بها في قرطبة.

ولكن يعترف الذين يوردون هذه المآخذ على الأمراء الأمويين، ان العقاب كان بسبب التواطؤ مع العدو، وأنه لم ينزل إلا بالمجرمين وحدهم. وما عدا ذلك بقيت الحالة العامة للمستعربين على حالها دون تغيير يذكر^(٣). ويذكر الكونت سيركور أن الفرنسيين حينها هاجموا الأندلس في عهد هشام الأول فرضوا نظاماً قاسياً جداً على السكان المسيحيين، في المناطق الأندلسية التي احتلوها^(٤).

وعلى العموم يمكن القول إن حالة المستعربين في عهد بني أمية في الأندلس كانت طيبة، وليس لهم من سبب للشكوى. ويقول المؤرخ المنصف الكونت سيركور: (إن التحديات التي كان يقوم بها المستعربون للحكم الإسلامي، والتي

(١) سيركور ج ١ ص ٣٩.

(٢) ابن القوطية ص ٦١.

(٣) سيركور ص ٣٩.

(٤) نفس المرجع ص ٤٠.

كانت تبلغ، في بعض الأحيان، حداً كبيراً من الجرأة، لم تدفع بأمراء البيت الأموي الى التخلي عن سياسيتهم الرحيمة، نحوهم ولا الى الخضوع لضغط العواطف والأهواء الشعبية التي تطالب بالانتقام منهم لتأمرهم مع الممالك الاسبانية^(١).

١٢٥ - الفترة الثالثة - فترة حكم ملوك الطوائف :

وبعد سقوط الدولة الأموية وانقراض الخلافة وقعت فتن وأحداث جسام في الأرض الاسلامية بين الطامعين من المسلمين، وكان كل منهم يحاول أن يكسب ود الممالك الاسبانية في الشمال ويطلب عونهم وتأييدهم فكانوا يتقدمون بجيوشهم لعون من اتفقوا معهم من المسلمين، ويحتلون المدن والقلاع والحصون، ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن لا يكون هناك تفريق في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين، وأن لا يفكر الأمراء في الاساءة إليهم. وفي الواقع إن المؤرخين الغربيين لا يذكرون شيئاً من المآخذ على الحكم الإسلامي في معاملته للمستعربين برغم الفوضى الكبيرة التي حدثت، والفتن والحروب التي استمرت قرابة سبعين عاماً.

١٢٦ - الفترة الرابعة - فترة حكم المرابطين :

كانت حركة المرابطين في شمالي افريقيا، حركة دينية في بدء أمرها، واستطاعت هذه الحركة أن تبسط سيادتها على المغرب العربي، وتقضي على الممالك والأمارات الإسلامية فيه. ولما تزايد الضغط الاسباني على المسلمين في الأندلس، إثر سقوط الخلافة الأموية، لم يبق أمام الأندلسيين سبيل لإنقاذ ما يمكن انقاذه، إلا اللجوء الى أمير المرابطين، الذي كان وجماعته يتحرقون شوقاً للجهاد في سبيل الله، والفوز بمرضاته. فلجأ المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين يستنصره على الاسبان، فوعده النصر. وكانت معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م (٤٨٠هـ)، فانتصرو يوسف والأندلسيون نصراً كبيراً. ثم تطلع المرابطون الى الاستيلاء على الأندلس فتم لهم القضاء على الإمارات الأندلسية حوالي عام ١٠٩١ م. وبالنظر للطبيعة الدينية لدولة

(١) سيركورج ١ ص ٥٣.

المرابطين فقد قربوا الفقهاء والعلماء من رجال الدين ، وجعلوا لهم دوراً بارزاً في حياة الدولة . ولاحق المرابطون عدداً من الفلاسفة المسلمين بسبب آرائهم . وبدؤوا فكروا في أمر الكنائس ، لمعرفة ما تم انشاؤه وتوسيعه ، خلافاً لما جاء في شروط الصلح . فعُدَّ المستعربون ذلك تعدياً على حقوقهم ، وإساءة لمعاملتهم ، مع أن المرابطين إنما أرادوا تحكيم معاهدة الصلح بدقة لهدم ما انشأه المستعربون خلصة وخفية وخلافاً لما اتفق عليه . والمرابطون في تصرفهم هذا إنما يعتقدون أنهم يوفون أهل الذمة حقهم ، وهو أمر داخل في اختصاصهم .

ويعترف المؤرخون الغربيون أن معاملة المرابطين للمستعربين ، كانت معاملة عادلة ، ومنصفة ، وفي حدود شروط المعاهدات الموقعة معهم ، وفي حدود الشرع الاسلامي . والذي يأخذونه على المرابطين هو قيامهم باجلاء كثير من النصارى من مملكة غرناطة الى افريقيا . ولكن المنصفين منهم يعتبرون تصرف المرابطين مشروعاً ومبرراً ، وفي حدود المعقول ، لأنه كان جزاء وفاقاً لما قام به المستعربون من التآمر مع ملك أراغون على سلطة المرابطين ، ولم يكن تعسفاً وتجاوزاً .

فبعد احتلال ملك أراغون مدينة سرقسطة ، ظن المستعربون في منطقة غرناطة أن شمس الإسلام في الأندلس قد مالت الى الغروب ، فاندفعوا يظهرعون عداوتهم للمسلمين وحكمهم ، وأخذوا يتصلون بالفونسو المحارب ملك أراغون يجرؤونه على مهاجمة منطقة غرناطة ، وانتزاعها ، ويعدونه العون والنصرة ويؤكدون له أنهم سيكفونه مؤنة الحرب ، بما يقدمونه له من محاربين ، إذا ما وصل إليهم مع جيشه . فأغررت هذه الوعود الفونسو ، وسار على رأس جيش ، من أربعة آلاف مقاتل ، الى منطقة مالقة ، ومنها اتجه الى منطقة غرناطة ، فانضم إليهم المستعربون النصارى الموجودون في تلك المنطقة ، حتى قدر عددهم بخمسين ألفاً ، فأسرع المرابطون الى جمع قواتهم ، وفشل الأراغونيين في احتلال غرناطة ، ونحافوا أن تهاجم القوات المرابطية ، فانسحبوا عائدين الى بلادهم . أما المستعربون الذين تحركوا لنصرة الأراغونيين فقد خاف بعضهم فلحق بالغزاة الى بلادهم ، وكانوا في حدود ١٢ ألفاً ، مخافة الانتقام ، أما الآخرون فقد عادوا الى بيوتهم ظناً منهم أن المرابطين لن يجزؤوا على معاقبتهم .

ولكن المرابطين ، كانوا حكماً حازمين لا يترددون في انفاذ عقوبة أيّاً كان مستحقها ، فقرروا نفي الذين أعانوا الأراغونيين فقبضوا عليهم ، وساقوهم الى

افريقيا، ولكنهم سمحوا لهم ببيع أملاكهم، ونقل أموالهم المنقولة أو بيعها، ولم ينزل عقاب المرابطين إلا بمن أساءوا فعلاً وأنضموا إلى الجيش الأرغواني، وحلوا السلاح. أما النصارى الآخرون فقد بقوا في بيوتهم آمنين لم يمسهم أذى^(١). وفي افريقيا عاش المستعربون المنفيون عيشة عادية، لا يتعرضون فيها إلى ضغط أو إزعاج، واستخدم المرابطون بعضهم في البلاط، وفي وظائف الدولة. وبالإختصار يمكن القول إن المرابطين عاملوا المستعربين معاملة عادية في حدود التعاليم والقواعد العامة التي وضعها الفقهاء لمعاملة أهل الذمة، وحينما كانوا يضطرون إلى معاقبة إنسان منهم لذنوب اقترفه، كان عقابهم له رحيماً ومنصفاً، يصيب الشخص نفسه، ولا يتجاوزها إلى غيره. فلا تزر وازرة وزر أخرى^(٢).

١٢٧ - الفترة الخامسة - حكم الموحدين :

قامت دولة الموحدين في عام ١١٣٠م (٥٢٤هـ)، في شمالي افريقيا، وقضت على دولة المرابطين فيها، ثم دخل الموحدون الأندلس ليتسلموا ما بأيدي المرابطين من البلاد، وجرت معارك وحروب طويلة حتى تمكنوا من إتمام فتح البلاد، والقضاء على الولاة المرابطين. ويقول المؤرخون الغربيون إن الموحدين لم يتصرفوا حيال المستعربين كتصرف المرابطين، وإنما كانوا يقتلون المسيحيين واليهود، ففر الكثيرون منهم إلى الشمال حتى أصبح وجود المستعربين بعد عام ١١٧١م، نادراً في المملكة الإسلامية. ولذلك فإن بحثنا في معاملة المسلمين للنصارى خلال هذه الفترة سيقصر بعد هذا التاريخ على بحث معاملة المسلمين للأسرى والعييد النصارى الذين يقعون في أيدي المسلمين.

لقد أوردنا فيما تقدم فقرة موجزة عن حكم الرق في الإسلام بيننا فيها حكم الشرع من معاملتهم، وقلنا إن القرآن والسنة أوجبا معاملة العبيد بالحسنى. ويعترف الغربيون بأن القرآن أمر بمعاملة العبيد بالحسنى، لذلك فإن المعاملة للأسرى النصارى كانت منوطة بصورة خاصة بطبع أسيادهم وأمزجتهم^(٣). وبما أن

(١) الكونت سيركورج ١ ص ٦٢.

(٢) نفس المرجع ص ٦٣.

(٣) الكونت سيركورج ١ ص ٢٩.

حركة الموحدين هي حركة دينية، مثل حركة المرابطين، وبما أن تعاليم الدين الاسلامي تحض على معاملة الأسرى معاملة انسانية رحيمة، وتجعل اعتناق الأسرى والاحسان إليهم قرينة الى الله، فاننا نعتقد أن الأسرى النصارى والعبيد منهم، كانوا يعاملون معاملة انسانية معقولة.

١٢٨ - الفترة السادسة - عهد بني الأحمر:

انتقل الحكم في غرناطة الى العرب مرة أخرى، بعد سقوط دولة الموحدين. ومعاملة العرب لأهل الذمة وللأسرى وللعبيد، مشهود لها بالإنصاف والرحمة والإنسانية، وكان للأسير ملء الحق في أن يحتفظ بدينه ومعتقده، وقد تركت معاهدة استسلام غرناطة للأسبان^(١)، لهؤلاء العبيد والأسرى حرية الارتداد عن الإسلام والعودة الى النصرانية، ولكنها وضعت شروطاً أخرى تحمي الذين يريدون البقاء منهم على الإسلام، وتمنع اجبارهم على الارتداد عن الإسلام، والعودة الى النصرانية، وهذا الشرط يدل بوضوح لا يقبل الجدل على أن الكثيرين منهم كانوا يقبلون على اعتناق الإسلام بطوعهم واختيارهم، وعن قناعة به، ولذلك فإنهم يريدون الحماية، لكيلا يجبروا على العودة الى النصرانية، ولكيلا تلاحقهم الكنيسة بجرم الكفر والمروق من الدين.

ويختصر الكونت سيركور معاملة العرب والمسلمين في الأندلس للمستعربين
الاسبان بالعبارة التالية:

«وبالاختصار فإن المستعربين كانوا - حتى جاء حكم المرابطين - يتمتعون بحماية رسمية. ولما جاء المرابطون لم يهتموا بهم، الى أن قاموا بثورتهم، فنفوهم بدون حقد أو كراهية. وقد قام المرابطون بهذا العمل وهم يعتقدون بأنهم لم يتجاوزوا حقهم أبداً في الدفاع المشروع.

وينتج من مجموع الأعمال السياسية أن عرب اسبانيا اتخذوا التسامح أساساً لحكمهم وسيطرتهم، وقد تسامحوا مع رعاياهم المسيحيين في كل شيء: الدين والمؤسسات والعادات والتقاليد والاختلاق^(١)».

(١) نفس المصدر ص ٦٦.

الفصل الثالث

العرب في ظل الحكم الاسباني

١٢٩ - لم يجز الاسبان العرب احساناً باحسان، ولا خيراً بخير، ولا تسامحاً بتسامح، ولم يقابلوهم على معاملتهم الطيبة بمعاملة مثلها، وانما استسلموا، حينما أصبحوا في موقف الغلبة، الى انتقام رهيب صبره على المسلمين، وأساؤوا معاملتهم. وكان نزعماء رجال الدين المسيحيين، في الفاتيكان وفي اسبانيا، أطول باع فيما حل بالمسلمين من ظلم وعسف وبلاء. كان العرب لا يجهلون أن الاسبان يضمرون لهم الحقن والشر، وانهم يريدون تأول العهود، وشروط الاستسلام، ويبحثون فيها عن ثغرة ينفذون منها لثكث العهود، والغدر بالمغلوبين، فكان المسلمون كلما اضطروا الى تسليم بلد الى الاسبان، يضعون في معاهدة الاستسلام، من الشروط والبنود ما يظنونه كافياً وكفيلاً لضمان أمن المسلمين الذين يريدون البقاء في أرضهم تحت ظل الغالبيين.

ومن يطالع شروط استسلام المدن الاسلامية - وتعتبر معاهدة استسلام غرناطة نموذجاً لها - ويدقق في الضمانات التي أدرجت فيها، يدرك حقيقة شعور المسلمين في ذلك الوقت نحو الشعب الذي قدر لهم أن يبقوا تحت رحمته، ولكن جميع هذه الاحتياطات لم تنفع، فقد كان عدوهم يتأول الأيمان، ويدوس الكلمة، ويسخر من الوفاء، ويجد في رجال الدين مبررين لكل تصرف مهما كان غادراً فاجراً، ومحللين لهم الحنث بالأيمان والنقض للعهود. ولم يمض طويل وقت على دخول فرناندو وايزابيل مدينة غرناطة، حتى شرعوا في خرق بنود معاهدة الاستسلام، ولم تمض فترة قصيرة حتى كان الملكان قد مزقوا أكثر بنود المعاهدة التي أقسموا على الوفاء بها أبداً، تاركين لمن يأتي بعدهما من الملوك مهمة تمزيق ما بقي منها.

١٣٠ - المصادر الاسلامية عن حالة العرب أيام محتهم :

لا تورد المصادر الاسلامية كثيراً من المعلومات المحددة والواضحة عن تاريخ المسلمين المدجنين، الذين بقوا تحت حكم الممالك الاسبانية، ولا عن حالتهم الاجتماعية، ولا عن معاملة الاسبان لهم، اللهم إلا عبارات ومقاطع وردت متفرقة، مطلقة تنضح بالأسى والألم من سوء حالة هؤلاء البؤساء، وما كانوا يلاقونه من سوء المعاملة. والمصادر الاسبانية لا تذكر إلا ما يناسبها، وما يبرأ أفعالها، ومعاملتها السيئة للمسلمين الخاضعين لحكمها. وأكثر المؤرخين والكتاب الغربيين لا يهتمون بتاريخ المدجنين إلا بعد سقوط بلنسية بيد خايم (جاكمة) ملك أراغون، وبدء ثورتهم، وبدء سن التشريعات، وإصدار الأوامر الرامية إلى نقض العهود المقطوعة للمسلمين بالمحافظة على حياتهم وحرية أموالهم وعاداتهم ودينهم ولغتهم وقضائهم، تهيداً للقضاء عليهم، ومحو كل أثر لتاريخ العرب والمسلمين في شبه الجزيرة. وبما أننا لا نملك من المصادر العربية والاسلامية مراجع كافية، ولما كنا مضطرين للاعتماد في الموضوع على المراجع الاسبانية والغربية، فإننا سنتبع الأوامر والقوانين الصادرة عن السلطات والكنيسة المتعلقة بموضوع المسلمين لنعرضها محللين ومصدقين. ونرى سهولة البحث، أن نقسم الموضوع إلى قسمين :

١ - في القسم الأول: ندرس حالة المسلمين في الممالك الاسبانية منذ سقوط بلنسية إلى سقوط غرناطة. وبما أن الجزيرة الاسبانية كان فيها مملكتان في تلك الحقبة هما مملكتا قشتالة وأراغون، فيمكننا تقسيم هذا القسم إلى فئتين :

أ - حالة المسلمين في أراغون.

ب - حالة المسلمين في قشتالة.

٢ - وفي القسم الثاني: ندرس حالة المسلمين منذ سقوط مملكة غرناطة إلى يوم اخراجهم نهائياً عام ١٦١٠.

أولاً - العرب في ظل الحكم الاسباني حتى سقوط غرناطة

١٣١ - المسلمون في مملكة أراغون :

كان من بين الشروط التي تضمنتها معاهدة استسلام بلنسية المؤرخة في ١٧

صفر ٦٣٦هـ (٢٨ سبتمبر - أيلول ١٢٣٨م) ما نص على الضمانات التالية:

- ١ - تسلم المدينة لملك أراغون، على أن يؤمن جميع سكانها في أنفسهم وأموالهم.
- ٢ - أن يكفل للذين يريدون الهجرة حرية الخروج بجميع أموالهم حيث شاؤوا.
- ٣ - أن يكفل للذين يريدون البقاء في بلنسية، حرية مزاوله شعائهم الدينية، وشرائعهم وعاداتهم، وأن لا يدفعوا من الضرائب أكثر مما يدفعه رعايا الملك الآخرين.
- ٤ - أن تسلم جميع الحصون والمواقع الواقعة على الضفة اليسرى لنهر شُقر إلى ملك أراغون، مقابل توقيع هدنة مدتها ثمان سنين، مع زيان أمير ما تبقى من مملكة بلنسية.

ولكن ما إن دخل (خايم)، مدينة بلنسية حتى حول مسجدها الجامع - خلافاً للشرط - إلى كنيسة، ثم بدأ يفكر في طريقة تمكنه من دوس العهد الذي قطعه على نفسه بمهادنة زيان لمدة ثمان سنين، واغتنام فرصة ضعف المسلمين وبلبلتهم، فلم يجد وسيلة مشروعة، فقرر أن لا يبالي بالعهد وأن يتقدم خارقاً الميثاق بكل بساطة.

وبالفعل، اندفع الملك في سيره يستولي على ما تبقى بيد المسلمين من أراضي مملكة بلنسية، حتى أتم احتلالها كلها. فنزع عن مدينة بلنسية قرابة خمسين ألفاً إلى المناطق الإسلامية الأخرى، ونزع كثير ممن قرروا البقاء إلى المناطق الريفية في مملكة بلنسية حفاظاً على دينهم ولغتهم وتقاليدهم وقبلوا أن يصبحوا عمالاً زراعيين لدى الملاك المسيحيين الجدد الذين استولوا على الأراضي، عن طريق الاقطاع والمصادرة.

ولكن حالة هؤلاء المساكين كانت أسوأ من حالة أفراد الرعية في المملكة إذ إنهم أصبحوا نوعاً من الأرقاء^(١).

رأي البابوية في قيمة العهد مع المسلمين:

الأديان السماوية كلها تستقي مبادئها وتعاليمها من ينبوع تشريعي واحد هو شرع الله الذي أنزله على رسله. والنصرانية مثلها في ذلك مثل اليهودية والإسلام، بالغت في حث المؤمنين بها على الوفاء بالعهد المقطوعة والتمسك بالمواثيق المعقودة مع خلق الله

(١) مانويل دانفيا أي كويادو (طرد الموريسكيين الأسبان) ص ٢٠.

تعالى ، وضرب المثل الصالح في احترام العهد والكلمة ، لأن العهد لله تعالى ، كما تأمر بالرحمة بالناس والعدل وحب الخير .

وحرمت الأديان السماوية كلها الكذب والغش والخديعة والغدر ، والنكث بالعهود ، وشددت على المؤمنين بها في وجوب احترام المبادئ السامية ، وعدم اقتراف هذه المنكرات ، مهما كست الظروف والمبررات . واندزت تعاليم الله من يخالف ذلك بأشد العقاب في الآخرة ، وبالخزي والذلة في الدنيا .

ولكن الكنيسة برغم صراحة هذا التعاليم الإلهية وصرامتها ، وصراحة احكامها ، فإن الكنيسة الكاثوليكية مرت في فترات جاء فيها باباوات تنكروا لهذه المبادئ الألهية السامية ، وضربوا بها عرض الحائط ، تحقيقاً لأغراض دنيوية ظنوها سامية فإذا بها خسيصة لا تتجاوز شفاء احقاد ، فشوهوا بذلك جمال التعاليم الإلهية السمحة ، وفتحوا الباب لاتباعهم من الملوك ، ومن هم أدنى منهم من رجال الدين ، أن يتوسعوا في الانحراف عن المبادئ ، حتى أصبح الغدر شيمة وخليقة وعادة عند بعض رجال الدين في الغرب ، وعند بعض الحكام المسيحيين في اسبانيا ، ولنسق على ذلك بعض الأمثلة الثابتة تاريخياً :

المثل الأول :

عقد السلطان العثماني هدنة مع هونياد ملك المجر مدتها عشر سنين ، وبعد ذلك توفي ابن السلطان علاء الدين ، فحزن السلطان لذلك ، وتنازل عن العرش ، واتجه الى مغنيسيا ليقيم فيها ، وخلفه في السلطنة ابنه محمد الثاني وعمره ١٤ سنة ، وعلم البابا بالاضطراب الذي تتعرض له السلطنة العثمانية في تلك الآونة ، فأرسل الي هونياد ملك المجر يخبره على اعتسام الفرصة لضرب السلطنة العثمانية ، فاعتذر هونياد بوجود عهد قائم بينه وبين العثمانيين ، اقسم عليه ، والتزم به . فأرسل إليه البابا يخبره بأنه يخله من عهده وقسمه الذي اقسمه للمسلمين ، لأن المسلمين يجب أن لا يكون هم عهد ، وليس على المسيحيين التقيد بعهودهم للمسلمين إذا كان التحلل من العهد يخدم مصالحهم .

وبناء على ذلك زحف هونياد على الأراضي العثمانية في شرقي أوروبا واستولى على بلاد البلغار .^(١)

(١) شكيب أرسلان - ملحق الجزء الأول لتاريخ ابن خلدون ص ١٢٨ .

المثل الثاني :

أسر صلاح الدين الأيوبي اثر معركة حطين الملك الصليبي (جي دونوزينيان ملك القدس)، وعامله أحسن معاملة وأكرمها وانبلها، ثم بدا له أن يطلق سراحه تكريماً وسماحة، ففاوضه على ذلك، واشترط عليه أن يتعهد له بأن يترك الشرق الى أوربا، وأن يتعهد بأن لا يقوم بمحاربة المسلمين أبداً. فوافق الملك الصليبي على ذلك، والتزم به واقسم عليه.

وبعد ان أطلق صلاح الدين سراحه اتجه (جي) الى طرابلس لينضم الى زوجته، وهناك جاءه اسقف طرابلس، يعطيه فتوى بأنه في حل من العهد الذي قطعه على نفسه لصلاح الدين بمغادرة الشرق، وبعد محاربة المسلمين بعد اطلاق سراحه، وقال له ان اليمين التي اقسمها لا تلزمه لأنه انها تعهد واقسم وهو مجبر على ذلك، ولا خيار له في الأمر. ثم ان العهد قطع لكافر والعهد المقطوع للكفار لا قيمة لها في نظر الكنيسة. (١).

المثل الثالث :

في عام ١٢٢٣م أسر ملك بن بهرام بن أرتق أمير حرط، الملك الصليبي بودوان الثاني. وبقي في أسره مدة من الزمن. ثم مات ملك. وتقسمت امارته. وأصبح بودوان في أسر سليمان بن عبد الجبار بن ارتق، أمير حلب، واضطربت أحوال الامارات الاسلامية في تلك الفترة. ففاوض بودوان أسريه على مفاداته، وتم الاتفاق على أن يدفع بودوان مبالغ كبيرة من المال يعجل بعضها ويرهن ابنته عند آل منقذ امراء شيزر لقاء دفع ما يتبقى، وعلى أن يتنازل عن بعض الحصون لامارة حلب ومنها حصن اعزاز شالي حلب.

وبعد أن أطلق سراح بودوان، أمره اسقف بيت المقدس - على ما قاله هو لأمر حلب - بأن لا يفي بها التزم به، وأقسم عليه، وأحلّه من قسمه وتعهده وقال له إنه يلتزم عنه بالوزر الذي يلحقه من جرّاء حنثه بقسمه، ونكثه بتعهده.

(١) رونسان - تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ١٨.

المثل الرابع :

أصدر البابا كليمانت السابع أمراً في ١٢ / ٥ / ١٥٢٤ م يحل فيه الملك شارل الخامس - ملك اسبانيا - من القسم الذي أقسمه حين ارتقى عرش اسبانيا بالمحافظة على احترام المعاهدات الموقعة مع المسلمين الذين استسلمت مدهم لاسبان ، والتي كانت تسمح لهم بممارسة حريتهم الدينية ، وعاداتهم وشرائعهم ولغتهم . . . وفي هذا الأمر البابوي فرض البابا على الملك الاسباني العمل على تحويل المسلمين الى النصرانية ، ونحوه حق فرض الرق على من يرفضون التنصر . ونصح البابا الملك بالاعتماد على جهاز التحقيق (محاكم التفتيش) بما يملكه من أساليب ارهاب مخيفة لإجبار المسلمين على التنصر .

المثل الخامس :

في ١١ / ٦ / ١٥٣١ م أصدر البابا كليمانت السابع أمراً بابوياً (بولا) يأمر فيه الاميراطور شارل الخامس باخراج المسلمين الذين يرفضون التحول الى المسيحية من ممالكه .

وفي عام ١٥٢٥ م أمر البابا كليمانت السابع المسلمين المقيمين في اسبانيا بأن يعلنوا طاعتهم للاميراطور شارل الخامس ، وأن يتحولوا الى النصرانية وأن يتلقوا العمد في ٨ / ١٢ / ١٥٢٥ م .

المثل السادس :

دعا البابا كليمانت الخامس الى عقد مجمع مقدس في فيينا عام ١٣١١ م ، وفي هذا المجمع أمر البابا ملوك اسبانيا ، - تحت طائلة حكم الله عليهم - بأن لا يسمحوا في ممالكهم بممارسة الدين الاسلامي والطقوس التي ابتدعها محمد (وأطلق عليه في أمره اسم النبي المزيف) .^(١)

(١) دانفيللا اي كولبادو ص ٢٩ .

وقد حث البابا ملك أراغون على إبادة جميع المسلمين الموجودين في مملكته.^(١)
كما كانت سلطة البابوية والاكليروس قد ساعدت الملكية على محو العنصر الاسلامي من اسبانيا والبرتغال.^(٢)

١٣٢ - ضغط الكنيسة لنقض العهد المقتطوعة للمسلمين :

بعد أن استولى الملك خايم على مملكة بلنسية واستقر له الأمر فيها، بدأت الكنيسة في الضغط عليه لمحاربة المسلمين، ومحو عنصرهم من المملكة. ولكن النبلاء كانوا يرون في طرد المسلمين والقضاء عليهم، خراباً لهم، وبواراً لأرضهم، وضراً بالحياة الاقتصادية في المملكة، لأنه يجرمها من اليد العاملة النشيطة المتخصصة. وكان الملك يرى رأي الكنيسة في القضاء على العنصر العربي، ولكنه كان يريد تحقيق ذلك بالتدريج، وذلك لأسباب كثيرة منها:
أ - أنه كان يصطدم بمعارضة النبلاء وأمراء الاقطاع.
ب - لأنه كانت هناك أراض اسلامية كثيرة لم تفتح بعد، وكان هناك تنافس وتسابق بين مملكتي أراغون وقشتالة على الفوز بالاستيلاء عليها. وكان الجانبان يريان أن حسن معاملتهما للمسلمين الذين وقعوا تحت أيديهما مما ييسر مهمتهما، ويحمل المناطق الإسلامية الأخرى على أن تفضل الاستسلام لأحسن الجانبين معاملة للمسلمين، إذا ما اضطروا الى الاستسلام في يوم من الأيام.
ج - أخذ العنصر المسيحي ينتقل الى مملكة بلنسية ويستقر فيها إثر الفتح، ولكنه بقي قليل العدد والمملكة واسعة، كثيرة مرافق الانتاج. ومصلحة الدولة تقتضي الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من اليد العاملة فيها لاستثمار الأرض، والعمل في الصناعات والمرافق الانتاجية الأخرى، ولذلك كان الملك يرى أن إزعاج العنصر الاسلامي، والمبالغة في الاساءة إليه، سيحمل الكثيرين منهم على الهجرة فيتضرر الانتاج، ويكون ذلك أسوأ دعاية لمملكة أراغون.

(١) دانفيللا أي كوليدادو ص ٢٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٢.

لذلك كله فكّر في أن يتبع سياسة متساهلة بعض الشيء مع المسلمين لفترة أخرى من الزمن ، وقد أظهر الملك عزمه هذا بإصداره في ٢٣ كانون الثاني ١٢٥١م ، منشوراً باللغة اللاتينية الى العرب المقيمين في مدينة شاطبة ، يتضمن سياسته مسيحه جوههم

ولكن ضغط الفاتيكان ورجال الكنيسة في اسبانيا تزايد على الملك لدفعه الى المباشرة بالعمل للقضاء على العنصر الاسلامي ، وبحوالا سلام وأثارة من المملكة ، فلم يتمكن الملك من المقاومة طويلا ، وشرع في نقض بنود معاهدة استسلام بلنسية بشكل تدريجي ، وكان أول ما قام به هو تحويل المساجد وأملاكها الى ملكيات كنسية ، برغم احتجاجات المسلمين .

١٣٣ - ثورة المسلمين واغتيال الكنيسة الفرصة :

ولما تزايد الضغط على المسلمين ، وشعروا أن احتجاجاتهم لن تفيدهم شيئا ، انفجرت ثورة في الجبال الواقعة جنوبي نهر (شُقْس) بين (شاطبة ودانية واليقنت) ، تزعمها رجل يدعى الأزرق كان أميراً لبعض مواقع المنطقة ، ثم امتدت الثورة الى جميع أنحاء المملكة . واستمرت ثورة الأزرق ثلاث سنين ، ولم يستطع الملك إخمادها إلا بالحيلة والاغراء ؛ وكان من نتيجة هذه الثورة أن طرد الملك عدداً كبيراً من المسلمين من مملكة بلنسية ، وسيرهم الى مرسية ، وقد وصف الملك نفسه فيها كتبه ، قافلة المسلمين بأنها كانت تغطي الطريق الى مسافة خمس مراحل .

ولما تزايد هيب الثورة ، واتسع نطاقها ، وعجز الملك عن إخمادها ، لجأ الى الكنيسة والفاتيكان طالباً مده بالمال ، لينفق على الجيوش التي يوجهها لقتال المسلمين ، فوجد الفاتيكان حاجة الملك الى المال فرصة ليملي عليه شروطه .

١٣٤ - شروط الفاتيكان للعون :

أعلن الفاتيكان للملك عن استعداداته للتنازل عن حصة الكنيسة (Dime)

(١) نفس المرجع ص ٢١ .

(عشرها)، ولكنه اشترط عليه أن يقسم أمام مذبح العذراء، في كنيسة بلنسية، على إبادة المسلمين الموجودين في مملكته، فأقسم على ذلك، والتزم به علناً. ولما انتهت الثورة وطرد الملك من طرد، عاد يفكر بمصير المملكة، فيما لوعجل بطرد جميع المسلمين منها، فرأى أن يأخذ الأمر بالحكمة، وأن ينتظر الفرصة المناسبة، وقرر أن يترك ما تبقى منهم يدأ عاملة منتجة. كما شعر، تحت ضغط أمراء الاقطاع، بثقل الوعد الذي انتزعه منه البابا، في وقت ضيقه وحاجته، بمحو العنصر العربي من المملكة.

١٣٥ - عودة الفاتيكان الى الضغط :

لكن البابا كليمنت الرابع طلب الى أسقف بلنسية أن يذكر الملك بأنه ملتزم أمام الله بأن يشن على المسلمين حرباً عواناً لا هوادة فيها، وأن يضطهد المسلمين الخاضعين لحكمه، وأن يلاحقهم بدون رحمة ولا شفقة. وأمره بعدم التهاون مع المسلمين وبأن يطهر أرضه منهم.

١٣٦ - أسوأ حل وجده خايم :

وجد الملك نفسه في وضع محرج تماماً، فمن جهة يقف الفاتيكان والكنيسة يلحان عليه في طرد العرب وملاحقتهم، وإزعاجهم لحملهم على الحرب، ومن جهة أخرى يقف النبلاء مطالبين بالابقاء عليهم لأن إخراجهم من المملكة معناه الخراب لهم، وللمملكة. وتجاه هذا الوضع المحرج، والضغط المتناوب، رأى الملك أن يأخذ بحل وسط - وصفه المؤرخون الغربيون أنفسهم بأنه أسوأ الحلول وأشدّها ظلماً وقسوة^(١) -، ويقوم هذا الحل على أمرين :

أ - أجّل الملك طرد المسلمين الى ظرف آخر أكثر ملاءمة.

ب - ولكنه تركهم بدون حماية من السلطة، معرضين لاعتداء الشعب، ورجال الجيش، وعصابات الأشرقياء، دون أن يكون هناك عقاب على من يعتدي عليهم،

(١) سيركورج ١ ص ٢٢٩.

فأخذ الأشقياء من الاسبان يخطفون المسلمين من الحقول ، ومن شوارع المدن ، ويذهبون بهم الى سوق النخاسة يبيعونهم فيها ، تحت سمع السلطات وبصرها . وأخذ الجنود النظاميون الذين يسمون (بالمغاوير) - وهم فئة من الجنود لا راتب لهم يعيشون على المغنم - في تأليف عصابات تقوم بأعمال الشقاوة ، وقطع الطريق على المسلمين ، واختطافهم . واستقر قرابة ثمانية آلاف من هؤلاء المغاوير الأشقياء في جبال شيشونا قرب (اليقنت) ، ومنها بدؤوا يغيرون على المدن ، والقرى الاسلامية القرية ، وينهبون بيوت المسلمين ، ويخطفونهم دون وازع من ضمير ، ولا رادع من دين أو سلطة .

١٣٧ - إهمال شكاوى المسلمين :

وتجاه هذا الوضع الغريب ، والظلم الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ ، تعالت شكاوى المسلمين من أعمال الأشقياء ، وأبلغوها الى الملك خايم ، فلم يفعل بشأنها شيئاً ، وإنما اكتفى بأن سمح لهم بترك الأودية والسهول التي يعيشون فيها للاستقرار حول الحصون والقلاع في الأماكن المرتفعة . وكان هذا الاقتراح يعني تعريض المسلمين الى خطر الموت جوعاً ، ومع ذلك قبل بعضهم تعريض أنفسهم للتجوع - إذا كان ذلك ينقذهم من البيع كآرقاء . ولكن حظ هؤلاء التعتساء قرب الحصون والقلاع لم يكن بأفضل من حظهم في الأودية والسهول ، إذ أخذ رجال الحاميات يقبضون على هؤلاء اللاجئين الى حماية الدولة ، ويبيعونهم كآرقاء في سوق النخاسة تحت سمع الدولة وبصرها .

١٣٨ - الثورة مرة ثانية :

ولما بلغ اليأس بالمسلمين مبلغه قرروا الثورة على هذا الظلم الصارخ . وانطلقوا في آذار ١٢٧٦م يحتلون ٤٠ حصناً دفعة واحدة في جنوبي نهر شقر ، وتزايد لهيب الثورة ، ومدت غرناطة يد العون للثوار فأتعبو حكومة أراغون .

١٣٩ - وصية دون خايم لابنه :

وبينما كان لهيب الثورة يتصاعد مرض خايم مرضاً شديداً شعر معه بدنو أجله ،

فأراد اكتساب مرضاة الفاتيكان والكنيسة، لذلك وضع منشوراً في ١٨ تموز ١٢٧٦م ضمنه السياسة التي يريد أن يتبعها ابنه وخليفته، بيدرو، وقد جاء فيه:

(بما أننا تقدمنا الى البابا، بالوعد أمام مذبح العذراء في بلنسية، بأن نخرج المسلمين من أرضنا، وذلك لقاء تنازل البابا لنا عن العشر، فإننا نرجو الانفان دون بيدرو) بأن يطرد جميع المسلمين من مملكة بلنسية، وأن لا يبقوا منهم أحداً فيها، لأي سبب كان، حتى ولو دفعوا ما عليهم . .).

وحينما حانت وفاته استدعى ابنه بيدرو، وسلمه سيفه، وأوصاه بأن يستعمله ضد العرب دون هراة أو توقف، الى أن يقضي عليهم جميعاً، ويطردهم من المملكة. وطلب إليه أن لا تلهيه جنازته عن واجبه في حرب الثائرين، وكلفه بأن يبقى جيشانه مودعاً في كنيسة بلنسية الى أن تنتهي الحرب مع الثائرين، ومات خايم في ٢٧ تموز ١٢٧٦م، وخلفه ابنه دون بيدرو، إلا أن هذا لم يحميها أوصاه به أبوه من متابعة الحرب مع الثائرين، وإنما فضل مفاوضاتهم لكسب الوقت. وأخيراً تمكن من التغلب عليهم بالحيلة إلا أنه لم يطردهم من المملكة، وإنما اكتفى بنزع سلاحهم، وتوزيعهم على مناطق المملكة لإعمارها.

١٤٠ - القوانين والأوامر الصادرة في مملكة أراغون بحق المسلمين:

أدرجت السلطة الملكية في أراغون، التشريعات المطبقة على العرب، في القانون العام للمملكة الذي وضعه دون خايم، ونشره عام ١٢٤٨م، بعد احتلال بلنسية، وقد سمي (فوروم فالانتينوم).

ولا تختلف الخطوط العريضة للتشريعات المطبقة على العرب في مملكة أراغون كثيراً عن مثيلاتها في مملكة قشتالة، وبما أن الغالبية العظمى من المسلمين كانت تعيش في مملكة قشتالة فإننا سنرجى استعراض هذه التشريعات الى حين نصل بالبحث الى حالة المسلمين في مملكة قشتالة، وسنكتفي هنا بسرد الأوامر والتشريعات اللاحقة لصدور القانون العام والمتعلقة بمعاملة المسلمين.

١٤١ - التعليقات والقوانين المتممة للقانون العام في أراغون:

أصدر الملوك الأراغونيون كثيراً من القوانين والأوامر المتعلقة بالمندجنين يمكن

تصنيفها بحسب تسلسلها الزمني ، وعهود مصدرها ، على الشكل التالي :

١٤٢ - خايم الأول :

أصدر في عام ١٢٦٨م قانوناً حدد فيه حق اللجوء الى الكنائس بثلاثة أيام . فقد كان الرقيق المسلم الذي يهرب من سيده ويلجأ الى الكنيسة طلباً للتصحر تخلصاً من عسف سيده وظلمه ، كانت الكنيسة تؤويه مدة غير محدودة . ولكن بعد صدور هذا القانون لم يعد يستطيع البقاء في الكنيسة أكثر من ثلاثة أيام ، يعاد بعدها الى سيده .

كما أن الزرّاع المسلمين العاملين لدى الاقطاعيين كانوا يهربون في بعض الأحيان من ظلم سادتهم ، أو من عسف سلطات الدولة نفسها ، ولم يكن هناك مكان له حرمة وحصانة يمكن أن يلجأ إليه هؤلاء التعساء غير الكنائس ، فكانوا يلجؤون إليها ، فأصدر الملك هذا القانون ليحمل الكنائس على إخراجهم ، فيكون بالامكان ملاحقتهم .

١٤٣ - دون بيدرو الثالث :

أصدر في بلنسية قانوناً عام ١٢٨٣م ، تناول الأمور التالية :

- يعلن لرعايا المملكة من أي دين كانوا ، أنهم يستطيعون اختيار محل إقامتهم كما يشاؤون ولهم ممارسة البيع والشراء بحرية تامة .
- يحرم على المسلمين واليهود الدخول في وظائف القضاء والشرطة والمالية .
- يلزم المسلمين واليهود بأن يقسموا يميناً ، بأن لا يقرضوا أموالاً بفائدة تزيد على ٢٠٪ سنوياً تحت طائلة دفع غرامة قدرها خمس ليرات فضية .
- يقضي بأن شهادة المسلم الواحد غير المدعمة بوثيقة خطية ، تعتبر غير كافية للاثبات ، إلا إذا وقعت الشهادة خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ تسليم مبلغ الدين .
- يقضي بأن يسقط الدين ، غير المعقود أمام القضاء ، بعد ست سنين ، حينما يكون المقرض مسلماً أو يهودياً .

١٤٤ - خايم الثاني :

أصدر في عام ١٣٠١م ، قانوناً ينص على أنه تكفي بعد الآن شهادة اثنين من النصراري ، من ذوي السمعة الحسنة ، بحق المسلم دوناً حاجة لشهادة مسلم آخر ، كما كان يجري ذلك فيما سبق .

١٤٥ - الفونسو الرابع :

أصدر في بلنسية قانوناً في عام ١٣٢٨م ، يقضي بما يلي :
- بأنه يحق للسيد الاقطاعي أن يقضي وحده في الدعوى ضد المسلمين ، حينما لا تكون الجريمة مما يعاقب عليه بأكثر من الغرامة .
- بأنه يحق للسيد الاقطاعي أن يحتفظ لنفسه بجميع عائدات الغرامات المحكوم بها .
- بأنه إذا كانت الدعوى مما يحكم فيه بالموت الطبيعي ، أو المدني ، أو بتعطيل أحد الأعضاء ، أو الجلد مئة جلدة ، فإن السيد الاقطاعي ينظر في الدعوى بحضور القاضي ، أو بحضور أمير الاقطاع ، ويتقاسم ، مع من يشترك معه في النظر في الدعوى ، مبالغ الغرامات التي يحكم بها على المسلم .

١٤٦ - دون بيدرو الرابع :

سن ثلاثة قوانين :
أ - قانوناً في بلنسية عام ١٣٤٢م ، يشرح فيه الأوامر السابقة ، المتعلقة بمحاكمة المسلمين .
ب - قانوناً في سان ماتيه عام ١٣٧٠ ، يحرم فيه على المسلمين ترك المملكة للهجرة الى افريقيا أو غرناطة ، حتى ولو دفعوا خمس أموالهم ، كما كانوا يفعلون قبلاً .
ج - قانوناً ثالثاً في سان ماتيه عام ١٣٧١م ، يمنع فرض مراقب نصراني على المسلمين واليهود لمراقبتهم ؛ وكان ضابط الشرطة قد أمر بأن يفرض عليهم مثل هذا المراقب .

١٤٧ - دون خوان الأول :

أصدر قانوناً في مونسون عام ١٣٨٩ يحرم فيه على الأسرى المسلمين الذين

أصلهم من غير مملكة بلنسية، أن يحصلوا على المال من مملكة بلنسية لافتداء أنفسهم، وإن فعلوا ذلك تعرضوا لعقوبة الاسترقاق.

١٤٨ - دون مارتين :

أصدر قانوناً في بلنسية عام ١٤٠٣م، يتناول المواضيع التالية :

- يحرم على المسلمين الأجانب والمقيمين خارج المملكة، أن يجمعوا المال من المملكة لدفع فديتهم.

- يلغي جميع الالتزامات التي تعهد بموجبها النصارى والمسلمون واليهود بأن يساهموا في افتداء أسير من أمة أجنبية، لأن المال الذي يقدم لافتداء الأسير، لا يمكن أن يجمع من المملكة، وإنما يجب جمعه من بلاد واقعة تحت سيطرة المسلمين. أما رعايا المملكة من المسلمين فيجعل لهم القانون الحق بجمع المال منها للحصول على حريتهم.

- يقضي بأن المسلمين الذين هاجروا الى افريقيا، أو الى غرناطة، يفقدون جميع أموالهم، ويسترقون إذا قبض عليهم، وتوزع حاصلات الأموال المصادرة على الشكل التالي : ثلث للملك، وثلث للسيد الاقطاعي حيث كان يقيم المسلم، وثلث للسيد الاقطاعي في المنطقة التي قبض عليه فيها.

- يحرم على المسلمين الانتقال من اقطاع الى أخرى، قبل تسوية الحساب، عن الأراضي التي يأخذونها بالمزراعة.

- ويكرر الأمر الى معاون النائب العام بعدم التدخل لتحويل العقوبة الى غرامة نقدية ويقضي باعطاء نصف الغرامة، التي يوافق عليها الضباط الملكيون، الى السادة المالكين، في الاقطاعات التي يكون فيها الملك نفسه سيد أمراء الاقطاع.

- إذا بدل العربي مقامه بدون موافقة السيد الاقطاعي يفرض عليه الرق مع زوجته وأولاده؛ ويقسم ناتج بيعه، ومصادرة أمواله، أثلاثاً : ثلثاً للملك، وثلثاً للأمير الاقطاع، وثلثاً للسيد الاقطاعي مالك الأرض.

- يوجب على السيد الاقطاعي الذي لجأ عربي الى أرضه أن يسلمه خلال ثمانين يوماً من الانذار النهائي لتسليمه تحت طائلة دفع غرامة قدرها ١٠٠٠ فلوران.

١٤٩ - دون فرناندو الأول :

أصدر في أرويو لا أمراً في عام ١٤١٨ يقضي :

- أنه يحرم على مسلمي المملكة الخروج منها إلا في حالة التحاقهم بأسياهم ، إذا كانوا في خدمتهم الشخصية ، وإذا سافروا للتجارة . وفي هذه الحالة يمنعون من اصطحاب أبنائهم الذين تقل أعمارهم عن أربعة عشر عاماً .

- بأن المسلمة الرقيقة ، التي حملت بفعل سيدها لا تصبح حرة بحكم القانون ، إلا إذا اعترف السيد بأن الولد ابنه . وإذا حملت ، بشكل ثابت بفعل انسان نصراني ، غير سيدها ، فيجبر الفاعل على أن يأخذ الولد تحت طائلة جلده عارياً في شوارع المدينة . وإذا ماتت المرأة في أثناء الولادة فيجبر الفاعل المتسبب بالحمل ، على دفع قيمتها للمالكها .

- بأن توضع أحياء المسلمين في المدينة تحت مراقبة مشرف نصراني (أو ضابط الشرطة النصراني) ومنع وجود بيوت للعب القمار فيها .

- يحرم على المسلمين تحت طائلة عقوبة الموت المنادة للصلاة من أعلى المآذن ، سواء أكان ذلك بالأذان ، أم باستعمال النفير ، في مناطق القضاء الملكي أو الكنسي (يعني المدن) ، وتحت طائلة دفع غرامة قدرها ستون فلساً (مرابطي) في أماكن الاقطاعات العسكرية .

- بأن تفرض عقوبة الموت على المسلم أو اليهودي الذي يجرح نصرانياً في غير حالة الدفاع المشروع ، وإذا وقع الجرح في أثناء مشاجرة فإن المسلم يدفع غرامة تعادل ضعف ما يدفعه النصراني ، حينما يجرح مسلماً .

١٥٠ - دون الفونسو الرابع :

- أصدر قانوناً في بلنسية ، يقضي بأن يشمل أمر منع هجرة المسلمين ، المسلم حتى ولو حصل على موافقة السيد الاقطاعي الذي يعمل عنده .

- وأصدر قانوناً في ترايخيرا عام ١٤٢٨م أكد فيه حق السادة بمحاكمة جميع أتباعهم : نصارى ومسلمين ويهوداً ، بما في ذلك الحالة التي يتهمون فيها بالاختلاس كجباة أو مكلفين بتحصيل الضرائب .

- وأصدر أمراً يقضي بأنه لا يحق للمسلمين الادعاء بالفقر ليتخلصوا من قضاء سادتهم ، وليطالبوا بمحاكمتهم أمام محاكم المقاطعة ، وفقاً للامتياز الممنوح للفقراء ، (إذ كانت نفقات المحاكمة أمام الضباط الملكيين أقل منها ، أمام ضباط الاقطاعات) .

١٥١ - الفونسو الخامس (حينما كان قاصراً صدرت باسمه القوانين التالية) :

صدر في بلنسية قانون يفسر الأوامر المتعلقة بالمسلمين الذين يبدلون مراكز عملهم في الاقطاعات :

- إذا بدل المسلم مقر عمله قبل تسديد الحسابات ، أمكن مصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة .

- إذا بدل مقامه دون موافقة السيد الاقطاعي يفرض عليه الرق مع زوجته وأولاده .

١٥٢ - العرب في قشتالة :

لم تكن حالة العرب في قشتالة أحسن من حالة اخوانهم في أراغون ، فقد خرق ملوك قشتالة معاهدات الاستسلام خرقاً فاضحاً ، وعاملوا المسلمين معاملة جائرة ظالمة ، بعيدة عن الروح الانسانية والأخلاق ، ووضع الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم ، في عام ١٢٥٨ قانوناً عاماً للمملكة عرف باسم (لاس سيت بارتيداس) (أو الأقسام السبعة) ، ضمنه الأحكام القوطية ، والأحكام والشرائع التي اعترف بها أسلافه ، وكثيراً من الحقوق الكنسية والرومانية . وقد اعتبر هذا القانون تشريعاً عاماً للمملكة في عام ١٣٤٨ م . ولكنه طبق منذ وضعه عام ١٢٥٨ . وقد تضمن هذا القانون التشريعات المختلفة التي تطبق على العرب المقيمين في مملكة قشتالة .

١٥٣ - ما تضمنه القانون فيما يتعلق بالعرب :

لا يختلف ما تضمنه قانون قشتالة - في خطوطه العامة - عما تضمنه قانون أراغون ، فقد كان القانونان متشابهين ، ويمكن تلخيص أهم ما ورد فيهما في الآتي :

يصنف العرب الذين خضعوا الى حكم الممالك الاسبانية الى اربع فئات ، بحسب أوضاعهم الاجتماعية والدينية ؛ وجعل لكل فئة منها معاملة خاصة بها ، وهذه الفئات هي :

١ - الذين تنصروا .

٢ - العبيد .

٣ - المعتقون .

٤ - المدجنون .

١٥٤ - المنتصرون :

كان المنتصرون العرب يعاملون من الشعب أسوأ معاملة ، ويقابلون بالازدراء ، والسخرية والاحتقار . وإذا أراد منتصر أن يتزوج من مسيحية أصلاً ، وجد في ذلك شبه استحالة ، وقد عالج القانون موضوع المنتصرين بالشكل التالي :
- جعل عقوبة من يهين المنتصرين ، أو يشتمهم ، أكبر من عقوبة من يهين النصارى أصلاً ، ولكن القانون ما كان يطبق إلا نادراً .

- من الناحية النظرية ، كان مجرد اعتناق الشخص النصرانية ، يمنحه جميع حقوق المواطن ، ما عدا الحق بأن يصبح أسقفاً .
- ولإغراء المسلمين بالتنصير قضى القانون بأن الأب إذا كان له أولاد مسلمون ، وآخرون منتصرون ، فإن الميراث يكون من حق المنتصرين وحدهم .
- في موضوع الزواج ، نص القانون على أن الأزواج الذين عقدوا زواجهم قبل تنصيرهم لا يمكن أن يفترقوا ، ولا أن يفرق بينهم بسبب وجود قرابة مانعة بينهم . ولكنهم يستطيعون الحصول على الطلاق إذا كان أحد الزوجين مقيماً على دينه الأول ، ويحاول التأثير على المنتصر لحمله على الرجوع إلى دينه الأول .
أما إذا كانت إحدى المسلمات قد سبق لها الطلاق لهذا السبب ، ثم تنصرت فلها الحق باجبار زوجها على إعادتها إليه ، إذا لم يكن قد عقد زواجاً آخر .
- أما المرتدون عن النصرانية بعد اعتناقها ، فكانت عقوبتهم قاسية . فالمرتد يحكم عليه بالموت ، ويفقد أهليته للارث ، والشهادة ، والوصية ، والتملك ، وإقامة الدعوى ، حتى ولو كانت الدعوى ضد زوجته لاتهامها بالزنا . وتفقد المرتدة بائنتها . ونص القانون على جواز ملاحقة المرتد خلال خمس سنوات من تاريخ وفاته ، للحصول على حكم بمصادرة أمواله وممتلكاته .

ولا ينقل المرتد من العقاب والمصادرة ، إلا تقديم خدمة جليلة للدولة ، كتقديم بعض الأسرار الهامة ، فمصلحة الدولة ، وحكمتها ، تأتيان قبل كل شيء .
- وقضت مادة من القانون بمنع رجال الدين من أن يعطوا الهراطقة ، ويبشروهم ،

ويعرفوهم بأسرار الدين المسيحي ، كما منعتهم من مناقشتهم علناً ، مخافة زعزعة ايمان
الجهلة ، وزرع الشك في نفوسهم .

١٥٥ - الأرقاء :

كان وضع الأرقاء في اسبانيا محزناً جداً ، ووضع الأرقاء المسلمين أسوأ من وضع
جميع الأرقاء ، إذ كانوا معرضين لمنتهى أعمال القسوة والايذاء ، أما الأسرى المسلمون
فلم يكونوا يتمتعون بأي ضمان لحياتهم ، أو شرفهم ، فيمكن قتلهم ، وتعذيبهم ،
والتفريق بين الزوجين ، وبيع الزوج وبيع الأولاد ، وقال أحد الشراح للقانون إنه كان
يسمح باغتصاب نسائهم أمامهم^(١) ، والتشريعات المتعلقة بالعبيد والمعتقين طويلة
ومفصلة ، ولكن ليس فيها شيء خاص يلفت النظر مما يتعلق بالعرب خاصة .

١٥٦ - المدجنون :

لم تكن النصوص القانونية المتعلقة بالمدجنين واضحة ولا صريحة ، ويمكن
القول إنه كانت هناك فوضى وتناقض في التشريعات المتعلقة بهم ، ولذلك أصبح تتبع
هذه التشريعات لا يمكن أن يعطي صورة واضحة عن حالتهم ، كما أن معاهدات
التسليم لا يمكن أن تعطي صورة واضحة عن المعاملة التي أخضعوا لها في الممالك
النصرانية في اسبانيا ، لأن هذه المعاهدات قد خرقت خرقاً فاضحاً في كل مكان ، ولم
يحترم الملوك النصارى شروط الاستسلام التي أقسموا على الوفاء بها هم وأسلافهم .
فمثلاً نصت المعاهدات التي عقدت مع المسلمين في طليطلة وفي مقاطعة
الأندلس على أن تحترم حريتهم ، ومعتقداتهم ، وأموالهم ، ومساجدهم ، وتركت
لهم حرية تصريف أمورهم بأنفسهم ، وفق تقاليدهم وشرائعهم ، وأن لا يخرجوا من
ديارهم ، وأن لا يعتدى على مساجدهم . . . الخ ، ولكن الملك خوان الثاني ملك
قشتالة ، أصدر أمراً عام ١٤٠٨ ، أجبر فيه المدجنين في المقاطعات المذكورة على ترك
منازهم ، وأموالهم ، وعلى الانتقال الى المقاطعات الشمالية من قشتالة .

(١) سيركورج ١ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ .

١٥٧ - الأوامر اللاحقة المتبعة للقانون العام في قشتالة :
الفونسو الحادي عشر :

- أصدر في القلعة عام ١٣٤٨ ، أمراً يحرم فيه على المسلمين واليهود أن يقرضوا بالفائدة .
- وأصدر بعد ذلك أمراً في مدريد يحرم فيه على المسلمين واليهود أن يشغلوا وظيفة مالية للملكية أو للسادة الاقطاعيين ، تحت طائلة مصادرة جميع أموالهم ، وتحت طائلة العقاب البدني ، وحرم عليهم أن يكونوا محامين في قضية بين النصراني .

١٥٨ - أنريك الثاني :

- أصدر أمراً في بورغوس عام ١٣٦٨ يكرر فيه ما حرّمته الأوامر السابقة على اليهود والمسلمين من التعامل بالنسيئة مع مسيحي .
- وأصدر أمراً آخر في تورو عام ١٣٧١ يحرم فيه على المسلمين واليهود التسمي بأسماء مسيحية ، ويفرض عليهم وضع إشارة مميزة فوق ثيابهم .

١٥٩ - خوان الأول :

أصدر أمراً في (صوريا) عام ١٣٨٠ يتضمن ما يلي :
- يكرر تحريم استخدام المسلمين في الوظائف المالية .
- يمنع شتم المتنصرين وإهانتهم ، بتسميتهم خنازير ، تحت طائلة دفع غرامة قدرها ٣٠٠ مرابطي أو حبس ١٥ يوماً .
- يحرم على النصراني تربية ولد مسلم ، تحت طائلة دفع غرامة قدرها ٦٠٠ مرابطي .
- يسمح لعمال الزراعة المسيحيين ، بأن يعملوا لدى أحد المسلمين ، وأن يرافقوا رب العمل في أسفاره ، لحمايته من الاعتداءات التي يتعرض لها ، من قتل واهانة ، من قبل كثير من الناس ، إذا ما سافر وحده .
- إن المسلم الرقيق ، المملوك من قبل شخص يهودي ، لا يعتبر متحرراً حكماً إذا ما حمله سيده على التهود ، ولكن اليهودي المسؤول عن هذه الجريمة يصبح رقيقاً أيضاً .

وأصدر أمراً آخر في (بريفيسكا) عام ١٣٨٧ :

- يحرم على المسلمين واليهود أن يعيشوا لدى نصارى، أو أن يعيش نصراي بينهم، تحت طائلة العقاب البدني، ومصادرة أموالهم.

- يحرم على النصارى أن يعتنوا بمسلم أو يهودي، أو أن يعيلوه، أو أن يستعينوا به إذا لم يكن عبداً من عبيدهم، تحت طائلة غرامة قدرها ٦٠٠٠ مرابطي، ويستثنى من ذلك حالة كون المسلم أو اليهودي طبيباً واستدعي في حالة مستعجلة.

- يحرم على المسلمين واليهود العمل يوم الأحد علناً، تحت طائلة دفع غرامة قدرها ٣٠ مرابطياً.

- يوجب على المسلمين واليهود، أن يخلوا الشارع الذي يمر فيه الصليب، وإذا لم يستطيعوا ذلك بسبب بعض الصعوبات، فإنه يتوجب عليهم أن يركعوا، وإن لم يفعلوا تعرضوا لعقوبة مصادرة ثيابهم التي تدفع للنصراي الذي قبض عليهم وساقهم الى القاضي.

وأصدر أمراً ثالثاً في بلد الوليد عام ١٣٨٨ :

- يكرر التحريم على النصارى بأن يعيشوا مع مسلم أو يهودي، أو أن يربوا أبناءهم، تحت طائلة عقوبة الجلد.

- يكرر الأوامر السابقة القاضية بمنع دخول المسلمين واليهود الى الوظائف العامة.

١٦٠ - خوان الثاني حينما كان قاصراً :

صدر باسمه أمر في (بلد الوليد) عام ١٤٠٨ :

يكرر الأوامر السابقة بمنع دخول المسلمين واليهود الى الوظائف المالية، ويفرض غرامة مقدارها ٢٠٠٠ مرابطي على المسلم أو اليهودي الذي يقبل هذه الوظيفة، ويفرض غرامة مماثلة على النصراي الذي منحه إياها.

- يحرم على المسلمين واليهود أن يأكلوا أو يشربوا مع النصارى، تحت طائلة عقوبة الجلد مئة جلدة.

- ويحرم على المسلمين واليهود أن يستخدموا عمالاً نصارى تحت طائلة عقوبة الجلد مئة جلدة، وفي هاتين الحالتين إذا تكررت الجريمة تصبح العقوبة دفع غرامة مقدارها ألف مرابطي، يمنح ثلثها للمخبر أو الشاكي.

- يحرم على المسلمين واليهود أن يذهبوا الى حفلات أعياد النصارى، كما يحرم عليهم

أن يكونوا عرابين في حفلات العباد، تحت طائلة غرامة مقدارها ٢٠٠٠ مرابطي .
- يحرم على المسلمين واليهود أن يزوروا المرضى النصارى تحت طائلة دفع غرامة مقدارها ٣٠٠ مرابطي .
- يحرم على المسلمين واليهود مزاوله مهنة الجراحة، أو الصيدلة، أو العطاره، أو بيع الأدوية، أو بيع المواد الغذائية، تحت طائلة دفع غرامة مقدارها ٢٠٠٠ مرابطي، بالإضافة الى عقوبة بدنية .
- يوجب على المسلمين أن يعيشوا في أحياء منفصلة خاصة بهم .
- يلغى المحاكم الخاصة بالمسلمين، ويوصي القضاة النصارى بأن يقضوا بين المسلمين في كل قضية أودعوى، وفقاً للحقوق التي يمنحهم إياها امتيازهم .
- يحرم على السادة الاقطاعيين أن يقبلوا لديهم المسلمين الذين يبدلون محل اقامتهم، تحت طائلة دفع غرامة مقدارها ٥٠٠٠ مرابطي، وإذا تكررت المخالفة ترفع الغرامة الى ١٠٠ ألف، وإذا تكررت للمرة الثالثة فتصادر اقطاعاتهم .
- يقضي على المسلم المدجن الذي يقبض عليه في حالة الجرم المشهود وهو هارب نحو حدود مملكة غرناطة، بفقد حريته ويصبح عبداً للملك، وتصادر أمواله لصالح الرجل النصراني الذي قبض عليه ..

١٦١ - حينما أصبح بالغاً: أصدر ثلاثة أوامر:
- أصدر أمراً في (أوكانا) عام ١٤٢٢ يفرض عقوبة الموت على المسلم الذي يمنع آخر من أن يصبح مسيحياً، ولو كان ابنه .
- ويقضي بأن المسلم القادم من مملكة غرناطة الذي يقبض عليه في أرض مسيحية يصبح رقيقاً (للدليل) الذي قبض عليه .
- وأصدر أمراً في (مادريكال) عام ١٤٣٥ يحرم على النصارى أن يوقعوا كتب التزام (اقرار بدين) إلا إذا كانت خالية من شرط دفع فائدة عن هذا الدين .
- وأصدر أمراً في (مدريد) عام ١٤٣٨ يعتبر اليمين التي يحلفها المسيحي أمام القضاء مقراً فيها بدين لمسلم أو يهودي، باطلة إلا إذا كان المقر له مزارعاً .

١٦٢ - ايزابيلا :

أصدرت في مدريد أمراً عام ١٤٧٦ :

- قصر صلاحية المحاكم الاسلامية التي مازالت تمارس أعمال القضاء بين المسلمين بالرغم من الأمر الصادر عام ١٤٠٨ على الدعاوى المدنية فقط . دون الجزائية التي أصبحت من اختصاص القاضي النصراني ، ومنح الأمر الحق لكل من المتقاضين بأن يجبر الطرف الآخر على المثول أمام القاضي النصراني .

- حرم على المسلمين أن يلبسوا جوخاً أو حريراً أو ذهباً أو فضة ، كما حرم عليهم أن يكون في عدة خيلهم حرير أو ذهب أو فضة أو جوخ ، كل ذلك تحت طائلة مصادرة الأشياء الممنوعة .

- ألزم المسلمين بأن يضعوا على أكتافهم اشارة خاصة مميزة ، هي عبارة عن قطعة جوخ حمراء ، وأن يضعوا على رؤوسهم قبعة أو قلنسوة خضراء ، أما النساء المسلمات فيجب أن يحملن قطعة من الجوخ الأزرق عرضها أربع أصابع .

وأصدرت أمراً آخر في طليطلة عام ١٤٨٠ كررت فيه التأكيد على أمرين سابقين :

- أكدت فيه على الأمر الصادر عام ١٤٠٨ ، والقاضي بعزل المسلمين عن النصرارى .

- وكررت التأكيد على الأمر القاضي باسترقاق المسلمين المدجنين الذين يقبض عليهم وهم يحاولون الهرب الى مملكة غرناطة ، ويعتبر هؤلاء المقبوض عليهم رقيقاً لمن يقبض عليهم .

ولكنها من جهة أخرى أجازت في هذا الأمر للمسلمين بأن يبنوا مساجدهم في الأحياء الجديدة التي خصصت لهم .

ثانياً - حالة المسلمين في اسبانيا بعد سقوط غرناطة

١٦٣ - حدث في شبه الجزيرة الايبيرية ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، حدثان خطيران كان لهما أثرهما الحاسم في مصير المسلمين المدجنين ، وهما :

١ - أولهما توحيد تاجي قشتالة وأراغون ، إثر زواج الملكة ايزابيلا واثرة عرش قشتالة ، من الملك فرناندو وارث عرش أراغون عام (١٤٦٩) .

٢ - وثانيهما سقوط غرناطة بيد الملكين فرناندو وايزابيلا ، في ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ ، وانطواء علم العرب والاسلام من الجزيرة بتمامها .

وبوقوع هذين الحدثين الهامين . زال سببان من أهم الأسباب التي كانت تحمل

الملوك التصارى على مداراة المسلمين، وعدم الامعان في إساءة معاملتهم. إذ زال التنافس بين الملوك في المملكتين بتوحيد الثاجين. كما زالت الاعتبارات التي كانت مرتبة على وجود مملكة غرناطة، من تشجيع للمسلمين المقيمين في الممالك النصرانية على الثورة على ظالمهم، مع احتمالات العون والمدد من غرناطة، وكذلك زال احتمال اللجوء الى أراضيها عند الضرورة. وانتهت احتمالات الهجرة الى أراضي غرناطة عن طريق التسلل، والهرب، إذا ما أصبحت حياة المسلمين لا تطاق، ومنذ أن سقطت غرناطة، أصبح مصير المسلمين المدجنين معلقاً برغبة الملوك، وإرادتهم، دون النظر الى أي اعتبار آخر.

١٦٤ - البدء بخرق معاهدة غرناطة :

في اليوم الأول لدخول الملكين الى مدينة غرناطة، أقدموا على عدة أعمال فيها خرق فاضح للمعاهدة، التي لم يحف مدادها بعد. ففي مساء اليوم الأول لدخولهما البلد جاء نبلاء غرناطة اليهما، فأحسنا استقبالهم، وبذلا لهم الوعود السخية، وطلبا التعرف منهم على رغباتهم. فشكوا اليهما من تصرفات تعسفية ارتكبتها أحد النبلاء الاسبان (ويدعى بيدروجاسكا دافيللا)، فأعلن الملك لهم حكمه عليه بالاعدام، ولكن الملكة تدخلت في الأمر، وأخذت المحكوم عليه تحت حمايتها. وعين الملك يحيى النير (ابن أخ السلطان الزغل وصهره وكان قد تنصر وتسمى باسم بيدرودو غرانادا) مديراً عاماً للشرطة، وهذا خرق للمعاهدة التي نصت على أن لا يتولى أحد من أتباع الزغل في منصب فيه سلطة له على أهل غرناطة، ويحیی النير من أتباع الزغل. وحدث خرق ثالث للمعاهدة ذلك اليوم، إذ قام (كونت تانديلا)، الذي عينه الملك قائداً عاماً لغرناطة، بانتقاء أجمل البيوت في حي القصبة - وهو حي المترفين في غرناطة - وأمر باخلائها من سكانها، لتكون مقراً للأمراء الجيش الاسباني، ولم يبد المسلمون أية مقاومة لأنهم أدركوا من هذه التصرفات، سوء نية الملكين، وسوء نية قادتهما، ورغبتهم جميعاً في عدم احترام نصوص المعاهدة، وأصبح الشك يساورهم، وقدروا أنه لا بد لهم من اللجوء الى السلاح في يوم قريب للدفاع عن حقوقهم، لذلك لم يسلموا من أسلحتهم إلا جزءاً بسيطاً، بينما عمدوا الى إخفاء الجزء الأكبر منها الى يوم الحاجة اليها.

١٦٥ - تحويل مسجد الطيبين الى كنيسة :

وفي يوم ٥ كانون الثاني ١٤٩٢ - وهو اليوم المخصص رسمياً لدخول الملكين لغرناطة - نزل الملكان الى جامع الطيبين ، وهو أحد المساجد الرئيسية في البلدة ، فاستوليا عليه ، وأمرأ بتحويله الى كنيسة ، ولم يتحرك المسلمون ، إذ أدركوا أنه لا فائدة من الاحتجاج ، وبقوا في أماكنهم ينتظرون مزيداً من الاعتداء على حقوقهم ، التي صانتها المعاهدة .

١٦٦ - نظرة الكنيسة إلى خرق المعاهدات :

ولم يجد تصرف الملكين وتعسفهما أي استنكار ، أورد فعل لدى الكنيسة ، والقادة الاسبان ، إذ كانوا جميعاً يعتبرون أن الضرورات العسكرية هي التي أملت هذه المعاهدات . وقد زالت هذه الضرورات بزوال حكم العرب ، وتلاشي آخر معقل لهم في اسبانيا بسقوط غرناطة ، وقد قال أحد المؤرخين الغربيين ، معلقاً على تصرف الملكين ، وموقف الشعب الاسباني : «إن نصوص صكوك الامتيازات ، التي كانت تمنح للمسلمين ، كانت تعتبر في ضمير الشعب الاسباني باطلة ، بنفس الصورة التي يبطل بها وعد ممنوح للص » ، وكان الجميع يقدرون أنه من الميسور على الملوك ، خرق معاهدات التسليم المنافية لحقوق العنصر الاسباني ، أو مضرة بنشر الدين المسيحي^(١) ، ولم يكن هناك من يرى الوفاء بالعهود المقطوعة للعرب ، غير قلة لم تكن لأرائها أهمية ، تجاه كثرة خصومهم المتحمسين ضد المسلمين . ويرى الكونت سيركور أن الملكة ايزابيلا كانت هي الدافع المحرك لكل ما تم من خرق لنصوص المعاهدة ويقول : «إن الانسان مضطراً لأن يلقي بالمسؤولية في جميع هذه الأعمال والتصرفات التعسفية الجائرة على عاتق الملكة ايزابيلا ، فهي المرأة العاطفية القاسية ، التي لا تعرف اللين ولا الاعتدال ، وقد أعمى بصيرتها الكره العنصري والديني الذي تكنه للعرب ودينهم ولذلك فانها في سبيل إرواء غليلها وشفاء حقداء لم تحترم كلمتها ولا العدالة ولا مصلحة عرشها^(٢) .

(١) الكونت سيركور ج ٢ ص ٣ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٤ .

١٦٧ - بدء المحنة ومحاولة التنصير:

وما لبث أن طلب عدد من الاساقفة من الملكين أن يطلبوا الى الغرناطيين التنصر أو الهجرة من البلاد، وأمرت الملكة أن يبحث الموضوع في مجلس عينته لهذه الغاية، إذ كانت تعتقد مع الكثيرين بأن التنصير الاجباري إذا كان لا ينفع تماماً مع الشخص المكره فإنه يؤثر في أنسالة. ولم يعارض في إجبار المسلمين على التنصر إلا مُعَرِّف الملكة الكاردينال (توماس دوتوركيمادا)، الذي كان في نفس الوقت المحقق العام في ديوان التحقيق، لأنه كان يرى أن التعميد بالجملة سواء أكان بالاكراه أن بالاغراء فإنه لا فائدة منه. إذ ثبت له أن كل عملية تنصير تتم بدافع من غايات أو أغراض دنيوية لن يكون من نتيجتها إلا أجياد مارقين من الأديان كلها. وأورد توركيمادا - لدعم وجهة نظره - ما لاحظته بعد فحص أحوال مشات العائلات الاسلامية واليهودية، التي أجبرها الأسقف (فنان بيريرا) في أواخر القرن الرابع عشر على التنصر، بعد أن استعمل معها من وسائل التعذيب والارهاب ما لا يوصف، وهو أنه بعد مرور مئة سنة على العملية لم يبق مقيماً على النصرانية إلا قلة أقل من القليلة، أما العائلات الأخرى فقد عادت الى دينها الأول، وكان من نتيجة هذه التحقيقات أن أعدم ٧٠٠ شخص من أفراد هذه العائلات خلال ثماني سنوات.

ولكن الملكة لم تقنع برأي توركيمادا، وأصرت على الأخذ بالحل الآخر الذي أخذ به أكثر أعضاء اللجنة التي درست الموضوع، ولكنها لم تقرر المباشرة فوراً في إجبار المسلمين على التنصر لأن ظروف المملكة، وانشغال الملك بقضايا مملكة أراغون، قد حلاها على تأجيل الأمر الى فرصة أخرى أكثر ملاءمة.

١٦٨ - طرد اليهود تمهيداً لطرد العرب:

وفي ٣٠ آذار ١٤٩٢ نشر في غرناطة أمر يوجب على اليهود الخروج من الأراضي التابعة لتاج قشتالة، خلال مهلة ثلاثة أشهر، تحت طائلة عقوبة الاعدام، ومصادرة الأموال. ويقول الكونت سيركور (إن أحداً من الناس لم يتحمس لليهود، ولم يأسف على طردهم، لأنهم جميعاً كانوا يعدونهم بلاء وكابوساً يجثم على صدر الطبقة الفقيرة، ولم تكن للدولة منفعة فيهم، لأنهم إجمالاً يعيشون

على هامش الحياة ، ويمتصون دماء المجتمع^(١) ، وقد قدر عدد اليهود الذين أخرجوا من اسبانيا ، نتيجة لتنفيذ هذا الأمر ، بحوالى ٤٠٠ ألف شخص ؛ خرج أكثرهم الى افريقيا ، لكنهم ما لبث أن عاد الكثيرون منهم الى اسبانيا ، معلنين موافقتهم على تلقي العماد . وحاول اليهود حمل الملكة على إصدار عفو عنهم ، أو الغاء أمر إخراجهم ، وقدموا إليها رشوة كبيرة ، فآثر ذلك عليها ، وكادت أن توقع أمر العفو ، ولكن الكاردينال توركيمادا تدخل لدى الملكة ، وكلمها بغضب وانفعال ، وقذف بالصليب بين قدميها قائلاً : « لبيع الآله مرة أخرى بثلاثين دانقاً » فاضطرت الملكة للتراجع .

وأرادت الملكة أن تحل جماعات من النصارى محل اليهود في مملكة غرناطة ، ليكونوا بين المسلمين ، يكبحون جماهم ، ويسدون الفراغ الذي يمكن أن يخلفه العرب ، إذا ما فكرت في طردهم في المستقبل . فاستدعت الملكة كثيراً من العائلات النصرانية من نواحي المملكة ، فجاءها كثير من المغامرين الافاقين ، وانضم إليهم بعض الجنود الذين لا مأوى لهم ، (فتكون من ذلك مجموعة مشاغبة كسولة شرهة لا تتورع عن خنى ورذيلة ، وأصبحت هذه الجماعات التي لا أخلاق لها ، نواة نصارى مملكة غرناطة) .^(٢)

١٦٩ - مشروع لطرد مسلمي قشتالة :

في نفس الوقت الذي كان يجري فيه طرد اليهود ، كان الكاردينال (بيدرو كونسالس دوميندوسا) ، يضع برنامجاً آخر لطرد المسلمين من قشتالة وليون . ولكن كثيرين من الاسبان كانوا يؤيدون بقاء المسلمين ، وخصوصاً النبلاء وأصحاب الاقطاعات ، لأن المسلمين كانوا يتولون العمل في الأرض بأنسب الشروط للملاك .

١٧٠ - إجلاء المسلمين عن بعض أحياء غرناطة :

عشرت السلطات الاسبانية على مستودع للأسلحة ، في أحد الأحياء العربية

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠ .

(٢) الكونت سيركورج ١ ص ١٥ .

من غرناطة، فاتخذت ذلك ذريعة للبطش والارهاب، واستعملت أقصى ما تستطيع من أساليب العنف والقمع، وأعدمت عدداً من العرب. ثم استغلت هذا الحادث لتجلب العرب عن بعض أحياء المدينة ولتجمعهم في حين، هما حي البيازين، وحي انتيكريولا، فاضطروا الى ترك بيوتهم، والانتقال الى هذين الحين، فتجمع فيهما حوالي ٥٠٠٠٠ شخص. أما الباقون من سكان غرناطة الذين يتراوح عددهم بين ١٥٠ و ٢٠٠ ألف شخص، فقد نزحوا عنها الى إفريقيا، أو الى المناطق الريفية، وخصوصاً الى البشرات، حيث كان يقيم أبو عبد الله الصغير.

١٧١ - بدء الثورة:

وبدأ النازحون الى الجبال يؤلفون عصابات للانتقام من الاسبان، فكانوا يقومون بقتلهم واختطافهم، وتخريب الأراضي بأيديهم. وعرف أفراد هذه العصابات في كتب التاريخ الاسبانية باسم (المونفس)، والكلمة مأخوذة من اللغة العربية (المنفيون). وأخذ المنفيون يتصلون بالجزائريين والأتراك العاملين في البحر الأبيض المتوسط، ويتعاملون معهم، يبيعونهم نتاج مغانمهم، ويشترون منهم ما كانوا هم بحاجة إليه، وأخصه السلاح، ويؤمنون عن طريقهم الاتصال بمسلمي المغرب. واتخذ هؤلاء الرجال مقرأ لهم في المناطق الثلجية من قمم جبال سيرا نيفادا. وكانت هذه الحركة هي أول رد فعل اسلامي على تصرف الاسبان، وخرقهم حرمة المعاهدات.

أما في غرناطة فقد كانت اعتداءات الاسبان على المسلمين، لاتنقطع. وكان المسلمون يلتزمون بيوتهم منذ أن يرخي الليل سدوله. ليتجنبوا الاعتداءات، والاهانات، التي تقع من النصارى الاسبان.

١٧٢ - تقسيم السلطة في غرناطة:

تركت الملكة في غرناطة ثلاثة أشخاص من الرسميين، ليقوموا بادارة مملكة غرناطة، وهم:
١ - الكاردينال (فري فيرناندودو تالافيرا)، وعهدت إليه بادارة السلطة المدنية.

٢ - الكونت (دو تانديلا) ، وعهدت اليه بالقيادة العامة العسكرية .
٣ - وضمت إليهما سكرتيرها (فرناندو دو ثافرا) ، الذي لعب دوراً كبيراً في عقد المعاهدة ، وتولى وضع شروطها . وعهدت اليه بأن يكون مستشاراً مكلفاً بالتنسيق ، وتوضيح كل ما يثار من اعتراضات ومشاكل حول تفسير بنود المعاهدة .
شرع الكاردينال دو تالافيرا في محاولاته لحمل المسلمين على اعتناق المسيحية ، ولكنه فضل اتباع طريق اللين والاقناع ، ويقول المؤرخون الاسبان ، انه تعمد في يوم واحد في غرناطة ٣٠٠٠ شخص ، بدون ضغط أو اكراه . ولكن الذي يتابع الموضوع الى يوم طرد المسلمين ، يجد أنه لم يبق أحد من المنتصرين على دينه الجديد ، واضطرت السلطة الى طردهم جميعاً ، على اعتبار أنه لم يكن أحد منهم مخلصاً في نصرانيته ، وأنهم وآبائهم وأجدادهم الذين تعمدوا ، استمروا مقيمين على الإسلام يمارسونه سراً ، برغم الاضطهاد الشديد ، وبرغم ملاحقات محاكم التفتيش ، ويطشها بهم ، ولذلك فإن الإنسان مضطر الى الاعتقاد بأنه إما أن يكونوا قد تنصروا بفعل الضغط والارهاب ، وإما أن يكون الخبر غير صحيح من أساسه .

١٧٣ - الشروع في حمل العرب على التنصر :

عينت الملكة في عام ١٤٩٥ ، قسيساً يدعى فرانيسكو سيسنيروس ، كردينالا في طليطلة ، وكان هذا الرجل عنيفاً سريع الانفعال ، لا يقبل مناقشة أو نقداً ، ولكنه استطاع بعد قليل أن يسيطر على الملكة . وفي عام ١٤٩٨ ، توفي الكاردينال توريكيادا المحقق العام ، ومُعرِّف الملكة ، فسعى خيمينس لدى الملكة لتعين مكان توريكيادا ، رجلاً من جماعته هو القسيس (ديجو دي ديسا) فاستجابت الملكة لطلبه ، وعينت ديسا محققاً عاماً ، فأصبح فرانيسكو خيمينس دو سيسنيروس عن طريق ديسا ، مسيطرأ على ديوان التحقيق . وعن طريقه أصبح أقوى رجل في المملكة . وبعد قليل كلفت الملكة خيمينس بالذهاب الى غرناطة ليهتم بأمر المسلمين فيها . فذهب إليها في تشرين الأول ١٤٩٩ ، وهو مزود بتفويض من المحقق العام ديسا . وما كاد يستقر في غرناطة حتى أمر بمنع الزواج بين المسلمين والمسيحيين ، وحقق في بعض حالات اعتبرها هرطقة وكفراً ، واستعمل أساليب غريبة من العنف والارهاب ، بعيدة كل البعد عن الروح الانسانية ، وروح الاديان ، ولما لُفَّت نظره الى منافاته تصرفاته ومناقضتها لمعاهدة

الاستسلام، أجب: «إن المعاهدة غير مشروعة، لأنها تتعلق بمرتدين عن النصرانية - (ويقصد بذلك أن أجداد المسلمين كانوا فيها مضى نصارى، ويجب أن يعتبر أنسأهم نصارى مرتدين) - وأن الحقوق الكنسية تعارض المعاهدة ولا تعترف بها». كان الملكان في غرناطة حينما وصل إليها خيمنس، واطلعا منه على برنامجه، وأقراه عليه. وليدعما مسعاه، ويسهلا مهمته، أصدرأ قبل مغادرتها المدينة، أمرين ملكيين:

- ١ - احدهما يقضي باعفاء الغرناطيين من العقوبات المفروضة على الذين يستعملون الحرير ثيابا لهم خلافاً للأوامر السابقة.
 - ٢ - والثاني يقضي بأن يطبق في غرناطة القانون القشتالي العام (لاس سيبته بارتيداس)، الذي يقضي بأن يؤول ميراث الرجل المسلم الى أبنائه أو أقاربه النصارى، دون غيرهم، حتى ولو كان له أقارب مسلمون، أكثر قرباً منه.
- ويعد الأمر الملكي النساء المسلمات، اللواتي يتحولن الى النصرانية، بالحصول على أرض في البشرات، ويعد الرقيق المسلم بالعتق والحرية إذا هو تنصر، على أن تحمل الدولة مبلغ الفدية المتوجبة لملكهم.
- وهذا كله خرق لنصوص المعاهدة.

١٧٤ - بدء الاكراه:

بدأ الكاردينال خيمنس محاولاته لتنصير المسلمين بأساليب اللين والاعراء، إذ بدأ بتوزيع الألبسة الحريرية على المتنصرين، وأكثر من العطاء والبدل، ويقول المؤرخون الاسبان إنه دخل في المسيحية عدد كبير من الغرناطيين نتيجة لهذا الأسلوب، حتى أن خيمنس اضطر الى أن يعمد ٤٠٠٠ شخص دفعة واحدة بلا مراسم دينية. ولما رأى الفقهاء ورجال الدين المسلمون، هذه الموجة نشطوا في توعية الناس، وتذكيرهم بدينهم وحرماتهم، فساء ذلك خيمنس، وأرسل الشرطة فقبضت على الفقهاء والوعاظ، وسجنهم، وأمر بتعذيبهم ومعاملتهم بالقسوة.

وكان في غرناطة فقيه ذو مركز مرموق، من أحفاد بني الأحمر تسميه الرواية الاسبانية محمد الثغري وكان لسناً وخطيباً مفوهاً، كما كان يتمتع بمحبة العرب، واحترامهم، فاراد خيمنس أن يستميله باللين والحسنى، ولكنه أخفق في محاولاته

هذه، فلم يشأ أن ينهزم أمام الفقيه المسلم، فأمر بسجنه، والتضييق عليه، ووضع معه معاونه في السجن في محاولة لاقناعه، فلم يفلح في أول الأمر، ولكن العذاب والعنف أثرا في الرجل، واضطراره إلى الاعلان عن استعداده لاعتناق النصرانية، ولما اقتيد أمام الكاردينال قال: (أيها السيد إذا كان هناك من هو مستعص عليك فعليك بإلقائه إلى هذا الأسد - ويقصد بذلك السجن والقيد - فإنه سيفعل فعله فيه خلال أيام)، ومع مرارة الجواب رضي الكاردينال بانتصاره هذا. ولقي مسلك الكاردينال معارضة من بعض النصارى الذين استنكروه وعدّوه منافياً لروح الانجيل وتعاليمه. إذ إن إدخال الناس في المسيحية، وحملهم على الإيمان بالمسيح ورسالته، لا يمكن أن يتما بالعنف والإكراه، ولكن خيمنس كان يهيمه أن ينجح في مهمته، بأية وسيلة كانت، ولم تكن لتهمة المثل العليا والمبادئ الدينية الكريمة، وإنما كان يريد إرواء حقهه من العرب والمسلمين.

١٧٥ - إحراق مليون كتاب عربي:

كان الكاردينال خيمنس وأعداؤه يقولون إنه لكي تنجح مهمتهم في تحويل المسلمين إلى النصرانية، فيجب القضاء على اللغة العربية، وقطع الصلة بين العرب وبين ماضيهم. وفي رأيهم أن العرب ماداموا مقيمين على تقاليدهم وعاداتهم، فإنه من الصعب نجاح المهمة. لذلك كله أمر الكاردينال خيمنس بالمباشرة بإتلاف الكتب العربية التي أعدّها تالافيرا باللغة العربية لتعريف المسلمين بأمور الدين المسيحي، كما قرر إتلاف الكتب العربية، كخطوة في سبيل قطع الصلة بين العرب وبين ماضيهم. وأمر بأن تجمع جميع الكتب العربية، من أي نوع كانت، في ساحة باب الرملة في غرناطة. ولما تمّ جمعها أوقد فيها الكاردينال النار، ولم ينجح من هذه الكميات الهائلة من الكتب إلا حوالي (٣٠٠) كتاب تبحت في الطب، نقلت إلى مكتبة مدينة القلعة. ولما حاول بعض أتباع الكاردينال استنقاذ بعض نفائس الكتب رفض ذلك رفضاً باتاً.

وتختلف الروايات حول عدد الكتب التي أحرقت فيقدرها بعضهم بـ ٥٠٠٠ كتاب ويقدرها آخرون بـ ١٣٠٠٠ كتاب، ويقدرها بعض المهتمين بالدراسات العربية بشماتين ألفاً. أما الكونت سيركور، فيقدرها بمليون كتاب معتمداً في تقديره

على أن الائتلاف شمل ما حوته المكتبات العامة والمكتبات الخاصة بالافراد، ويقول إن غرناطة بلغت في زمن بني الأحمر شأواً رفيعاً في الثقافة، وحوت كثيراً من المكتبات والمدارس، وانجبت كثيراً من الرجال الافذاذ، الذين اغراهم تجرر المسلمين، وسعة افقهم فقدموا إليها. ويعلق هذا المؤلف على حادث احرار الكتّيب بقوله: (وهكذا نرى أن الأخلاق قد خسرت كثيراً بانتصار الجهالة^(١)).

١٧٦ - الثورة في غرناطة:

أدت هذه التصرفات التعسفية وأمثالها الى ثورة قام بها المسلمون في غرناطة. عام ١٤٩٩، استنكروا لتصرفات خيمنس، وسنعرض الى هذه الثورة في القسم التالي من هذا الكتاب، المتعلق ببحث الثورات العربية في الأندلس. ولكننا نقول الآن إن الملك عاقب العرب باجبارهم على الهجرة، أو تلقي العمد، فهرب قسم منهم الى البشرات، محاولين إشعال نار الثورة ضد الظالمين المعتدين، أما الآخرون فقد تلقوا العمد بالجبر والاكراه.

١٧٧ - ثورة البشرات:

وتجمع الزعماء من غرناطة في البشرات، وأثاروا رجال البشرات ذوي الهمم والنجدة، فاشتعلت الثورة في أواخر عام ١٤٩٩ ولكنها اخمدت في النهاية، وكان من نتيجتها هجرة عدد كبير من المسلمين الى افريقيا، وفرض العمد على الباقين.

١٧٨ - ثورة المرية:

وبعد أن فرغ القسس من تعميم أهل البشرات اتجهوا الى منطقة المرية لتعميد من فيها، فانفجرت هناك ثورة بلغت أشدها في تشرين الثاني من عام ١٥٠٠، أدت في النهاية الى مقتل عدد كبير من المسلمين، واسترقاق النساء والأطفال، وتعميد قرابة ١٨٠٠٠ شخص، بالجبر والاكراه.

(١) سيركورج ٢ ص ٤٣.

١٧٩ - ثورة عام ١٥٠١ :

بعد أن انسحب الجيش الاسباني في كانون الثاني ١٥٠١ من منطقة المرية انفجرت ثورتان في وقت واحد، ثورة في بعض قرى نهر المنصورة، وأخرى في قرية أدرا على البحر، ولكنها أخذتا.

١٧٩ - إلغاء امتيازات الادارة في غرناطة وتنصير سكانها :

صدر في ٢٠ ايلول ١٥٠٠ أمر ملكي يلغي امتيازات الادارة الممنوحة لمدينة غرناطة، بموجب معاهدة الاستسلام، ويجعل الادارة على النمط الاسباني. وحينما يئس الغرناطيون من نتائج مساعي سلطان مصر، لتخفيف الضغط عن عرب الأندلس، وبعد أن أخفقت ثورات البشرات والمرية والمنصورة، لم يبق أمام الغرناطيين بد من الهجرة أو قبول التعميد إن أرادوا البقاء. وقد اشترط الذين رضوا بالعماد أن يسمح لهم باستعمال لغتهم، والبقاء على عاداتهم وأن لا يخضعوا لدواوين التحقيق لمدة أربعين عاماً، فقبلت شروطهم.

سمي المنتصرون (بالمسيحيين الجدد)، ولكن الدولة بقيت غير مطمئنة إليهم، فقررت منعهم من حمل السلاح إلا باجازة خاصة، ولقاء دفع مبلغ كبير من المال، ومن يخالف أمر المنع يتعرض لعقوبة ثقيلة هي النفي ومصادرة الأموال، وإذا تكررت المخالفة تصبح العقوبة الاعدام.

١٨٠ - ثورة المسلمين في جبال رونده عام ١٥٠١ :

بعد أن خضعت غرناطة والبشرات، والمرية، أرسل أسقف أنشيلية قسماً الى جبال رونده فقصروا بطريقتهم الخاصة، ليشيروا المسلمين ويدفعوا بهم الى التمرد، فنجد الكنيسة والدولة المبررات لنهب أموالهم وتهجيرهم، وارغام من يبقى على التنصر، وقد نجحت خطتهم، إذ انفجرت ثورة في منطقة رونده انتهت باجبار من أراد البقاء على التنصر. أما الآخرون فقد سمح لهم بالهجرة الى افريقيا، على أن يتخلوا عن جميع ممتلكاتهم.

١٨١ - اجبار عرب قشتالة على التنصر (١٥٠١ - ١٥٠٢):

لم يبق في منطقة غرناطة - نظرياً - من المسلمين إلا في بعض القرى المتفرقة ، ولم يكن للملكة حجة عليهم لحملهم على التنصر بالقوة ، لأنهم لم يثوروا ، ولم يخلوا بواجبهم ، فرأت تركهم الى وقت آخر.

أما قشتالة وليون فكانت فيها اعداد كبيرة من المسلمين ، ولكنهم كانوا قد أصبحوا في حالة مؤلمة من البؤس والفاقة ، ولم يتحرك أحد منهم إبان المعارك السابقة بين غرناطة وقشتالة . كما لم يتحركوا إبان الثورات السابقة في بلنسية وغرناطة والبشراة . ومع ذلك فإن الملكة ، رأت بعد أن تفرغت من مشاكلها الرئيسية ، وبصورة خاصة مشكلة غرناطة ، ان تنتهي من مشكلة المسلمين في قشتالة وليون ، إما باجبارهم على الهجرة ، وإما باجبارهم على تلقي العماد . فاصدرت في ٢٠ تموز ١٥٠١ أمراً منعت بموجبه جميع الأرقاء المسلمين ، وتحت طائلة عقوبة الاعدام ، من التراسل مع المسلمين في مملكة غرناطة ، سواء منهم المنصورون وغير المنصرين . كما حرمت على مسلمي قشتالة وليون الدخول الى مملكة غرناطة ، تحت طائلة عقوبة الموت ، ومصادرة الأموال . وفسر هذا الأمر على أن المراسلة والاتصال بين المسلمين في أطراف المملكة ، يشد من أزرهم ، ويرفع من معنوياتهم ، ويحفزهم على معارضة أوامر التنصير .

١٨٢ - أوامر جائرة:

وفي ١٢ شباط ١٥٠٢ أصدر الملكان أمراً الى جميع المسلمين البالغين (الذكور ١٤ سنة والإناث ١٢ سنة) ، بالخروج من مملكتي قشتالة وليون . على أن يحكم بالأعدام على من يعود منهم إليهما ، وبمصادرة أمواله إلا إذا كان عبداً . ومنح الأمر هؤلاء البؤساء مهلة شهرين يكونون فيهما تحت حماية الملكين ، وحينئذ يحل الأجل - وهو آخر نيسان - يتوجب عليهم جميعاً التوجه في الطريق المعينة لخط سيرهم ، قوافل تحت اشراف مفوضي الحكومة . وقد حرم عليهم أن يحملوا معهم ذهباً وفضةً أو بضاعة ممنوعة تصديرها ، تحت طائلة عقوبة الموت ومصادرة المال . وكلف المفوضون بأن يُنصّرَ وهم «عن طريق بيسكاي» حتى أحد المساويء ، أو حتى الحدود الفرنسية ، دون أن يَمروا بالبرتغال أو أراغون ، أو نافارا . ومنع عليهم الابحار الى افريقيا أو الى تركيا أو

إلى بلد إسلامي غير مصر . ونصّ الأمر على معاقبة كل مسيحي يخفي مسلماً بمصادرة جميع أمواله . وقضى الأمر أيضاً بإبقاء فئات من أولاد المسلمين في البلاد، دون أن يعين كيف تؤمن معيشتهم . ويبدو واضحاً أن جميع الصعوبات التي جاء بها الأمر كانت غايتها أن تجعل خروج هؤلاء من البلاد أمراً شبه مستحيل ، وبالتالي إجبارهم على البقاء وقبول العباد . فتحريم حمل الذهب والفضة والأشياء الممنوع تصديرها، يعني أن على الناس الخروج من البلاد دون أن يكون معهم شيء ينفقونه، وترك كل شيء للإسبان ؛ وتحديد الخروج من الحدود الشمالية . ومنع النازحين من الهجرة إلى غير مصر، يعني إبعاد الشقة عليهم، وإكثار النفقات، لدرجة تجعل من المستحيل على هؤلاء البؤساء احتمالها . ثم تأتي فوق هذه الصعوبات كلها الصعوبة الأكبر وهي : إجبار النازحين على ترك فئات من أولادهم في البلاد الإسبانية تحت رعاية أعدائهم .

إننا لانملك تفاصيل وافية حول هذا الموضوع، وكيف انتهى، ولكن أحد المؤرخين المعاصرين وهو الخوري اندريه بيرنالدس - خوري بلدة (لوس بالاسيوس) - قرب اشبيلية، ذكر أن العباد فرض على مسلمي قشتالة والأندلس وجيان تحت طائلة عقوبة الاسترقاق . وحينما انتهت مهلة الشهرين المحددة في الأمر، قبلوا جميعاً أن يتعمدوا دون إكراه . . . (١)٩٩ .

ويقول مؤرخ آخر هو (لورينسو كارفاخال) - وهو الذي كتب حياة الملكة ايزابيلا - (إنه حينما حلّ الأجل المضروب لإخراج المسلمين لم يسمح لهم بالخروج، وإنما أجبروا على التنصر، وإن الكثيرين عمدوا بدون رضا منهم . وذلك لأن الملكة رأت أن بعض المناطق قد خلّت تماماً من سكانها (٢)) .

وما ذكرته الروايتان المتقدمتان يؤكد بها لا يقبل الشك أن الصعوبات التي تضمنها الأمر الملكي، والتهديد بالموت والمصادرة، كانت الغاية منها إجبار المسلمين على التنصر، وعدم الخروج من البلاد.

١٨٣ - حركة الخير مانيا وإجبار المسلمين على التنصر في مملكة بلنسية :

كان النبلاء وأمراء الإقطاع يعارضون دائماً في طرد المسلمين، لما يلحقه الطرد

(١) و(٢) سيركوج ٢ ص ١٠٦ .

بمصالحهم من ضرر بالغ . فالمسلمون كعمال شرفاء نشيطين مخلصين في أعمالهم، كانوا يؤلفون أكثرية العمال الزراعيين في البلاد، بل غالبيةهم العظمى. وطرد المسلمين من البلاد معناه اختلاؤها من اليد العاملة، المتخصصة النشيطة، وخصوصا في مجال الزراعة، ويعني هذا خراب ملاك الأرض، والنبلاء وامراء الاقطاع، الذين يعيشون على دخول أراضيهم ومزارعهم . وإذا فقد كان النبلاء يؤلفون - بما لهم من مصالح مرتبطة ببقاء المسلمين في البلاد - قطبا معاكسا للكنيسة واهوائها، التي تدفعها الى العمل على إثارة الحكام والعامّة ضد المسلمين، وحملهم على اساءة معاملتهم، واجبارهم على التنصر أو الرحيل . ولعله لولا وجود مصالح النبلاء ومقاومتهم وضغطهم على الملوك من الجانب الآخر، لكانت مساعي الكنيسة قد آتت أكلها منذ وقت بعيد . لذلك فكر الكاردينال خيمينس - معرف الملكة، الذي أصبح وصياً على عرش قشتالة بعد موت الملك فرناندو- في تأليف قوة مسلحة تكون في خدمة الكنيسة لتستعملها ضد النبلاء . فألف حرساً وطنياً، مرتبطاً بالكنيسة، واخذ يستخدمه ضد النبلاء كلما دعت الحاجة الى ذلك . ثم جاء الملك شارل كنت (شارل الخامس) فوجد المنظمة قائمة فاراد استخدمها هو أيضاً ضد النبلاء، وضد الشعب، ولكنها أفلتت من يده مؤخراً، وتحولت ضده .

وفي عام ١٥٢٠م، ألف ثلاثة من الفرسان جمعية من النبلاء في المدن، انضم إليها الكثير من الكبراء والاساقفة، فكانت هذه الجمعية تعبيراً عن شعور الارستقراطية الاسبانية ضد محاولات الكردينال، والملكية لاختضاع النبلاء .

وفي نفس الوقت تألفت في بلنسية جمعية أخرى من العامة غايتها الوقوف في وجه النبلاء، وأسمايت (جيرمانيا أوهيرمانيا) أي (أخوية) . وقد ولدت هذه الجمعية، نتيجة احدى الاندفاعات العاطفية الجماهيرية في بلنسية للاحتجاج على تصرف المحكمة الكنسية؛ إذ ارتكب أحد القسس الشبان جرماً شائناً قدم بتبيجته الى المحكمة الكنسية، فقضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة . وبعد قليل ارتكب أربعة من الشبان جرائم مماثلة لجريمة الراهب . ولما قدموا الى نفس المحكمة قضت باعدامهم . فاستاء الناس من هذا الموقف المتفاوت من المحكمة ، وتحرك بعض الرهبان الفرنسيسكانيين ينتقدون المحكمة . وبلغ الأمر باحدهم ان قام في ٧ آب ١٥١٩ بوعظ الجماهير ولفّت أنظارها الى هذا التفاوت في المعاملة، فثارّت الجماهير، وتوجهت الى الكاتدرائية، فاقتمحتها واقتادت الراهب المحكوم عليه بالسجن المؤبد

الى المحرقة، مع الرجال الأربعة المحكوم عليهم بالاعدام، ونفذ فيهم الحكم جميعاً .
وحينما بدأ حاكم بلنسية بالتحقيق في القضية خاف المحرضون على أنفسهم من العقاب، ولجؤوا الى بعض الأحياء وأخذوا في تنظيم أنفسهم، على نمط المليشيا (الحرس الوطني القشتالي)، وسموها هيرمانداد (أخوة) - أو الأخوة المقدسة، سانتا هيرمانيا - وانضم الى الجمعية بعض رجال الدين، محاولين استخدامهما ضد المسلمين، وأعلنوا أنهم سيقومون بالتسلح لمواجهة المسلمين، وأنهم يقصدون بحركتهم هذه الثورة على حماة المسلمين (أي النبلاء). فأخذ الناس يتقاطرون منضمين الى هذه الحركة، وكان على من يريد الانضمام إليها أن يقسم اليمين على التعاون والتعاضد ضد النبلاء، وان يضحي بدمه وماله وحياته في سبيل ذلك.

وفي شهر أيلول من عام ١٥١٩ قام أعضاء الجمعية بعرض مسلح في شوارع بلنسية، برغم معارضة مدير الشرطة، ولم تستطع الحكومة اتخاذ تدبير حاسم بحقهم، فشحجهم ذلك على التهادي في غيهم. ثم عقدوا اجتماعاً انتظموا فيه صفوفاً تحت قيادة ١٣ نقيباً (سنديكا)، وأقسم الجميع على أنهم لن يتقاضوا لدى محكمة غير محكمة نقبائهم الثلاثة عشر في كل ما يتعلق بشؤونهم. وأرسلوا في نهاية هذا الاجتماع ضبطاً بما حدث فيه الى الملك شارل الخامس. وأراد الملك أن يستخدم الجيرمانيا في خدمة اغراضه، فرد عليهم بأنه يوافق على قيام الجمعية، على شرط أن تكون تحت اشراف حاكم بلنسية.

وفي ٢٨ كانون الأول ١٥١٩ انتخبت الجيرمانيا المفوضين النهائيين من الشعب، وكان اعنفهم وانشطهم، رجل يدعى (جين سورولا) فاصبح رئيساً للجمعية، واتخذ لنفسه حرساً خاصاً، وأحاط نفسه بمظاهر الابهة، وأصبح الحاكم الفعلي لبلنسية. ثم أخذت حركة الجيرمانيا بالامتداد الى المدن والقرى، في جميع أنحاء مملكة بلنسية. واستشعر النبلاء الخوف من تطور الأمور، وتفاقم الداء، فإرسلوا الى الملك يرجونه الحضور الى بلنسية لحسم الأمر، وقطع دابر هذا الداء المهدد للجميع.

وفي هذه الاثناء وصل، من أراغون الى بلنسية، الكاردينال (فلورينت)، ليمثل الملك في بعض المراسم، فاجتمع النبلاء في مجلس النواب (الكورتس)، واعلنوا رفضهم قبول المفوضين الثلاثة الذين أرسلهم الملك للتحقيق في موضوع الجيرمانيا، وحاول الكاردينال تلطيف الجو فلم يفلح، وحينئذ أوعز الى (الجيرمانيا)

بالتحرك، فتحركت سريعاً، وأجرت عرضاً أمامه في ١٩ شباط ١٥٢٠، اشترك فيه ٨٠٠٠ عضو.

وفي أواخر أيار من العام نفسه جاء الى بلنسية نائب الملك (دون ديغودو مندوسا) فجاءه مفوضو الجيرمانيا الثلاثة عشر، فاساء استقبالهم، فأبرز له رئيس الجمعية كتاباً من الملك مؤرخاً في ٧ أيار يوصي فيه بالجمعية خيراً، فاستغرب نائب الملك ذلك، إذ كان لديه كتاب آخر من الملك مؤرخ في ١٠ أيار يبلغه فيه بعدم اعتراف بالجمعية وبمطالبها، ولذلك صرف (دو مندوسا) أعضاء الجمعية، معلناً لهم أنه لا يستطيع الاعتراف بهم وجميعيتهم.

وبعد قليل جرت انتخابات للمجلس البلدي ففازت فيها الجمعية بمقعدين. فاعلن نائب الملك أنه لا يعترف بوجود هذا المجلس. ولكن المجلس اجتمع برغم نائب الملك، وباشر أعماله، ولم يتخذ دو مندوسا تدبيراً ما، فشجع ذلك أعضاء الجمعية على المضي في تدابيرهم وخططهم. واندفعوا الى مدينة (مورفيديرو) واستولوا على القلعة، وقتلوا من فيها من الفرسان. وحدث مثل ذلك في مدينة بلنسية، واستمرت الاضطرابات ثلاثة أيام، هرب على أثرها نائب الملك من المدينة في ٦ حزيران. ولما هرب دو مندوسا من بلنسية، سيطر أعضاء الجمعية عليها، وأخرجوا من الوظائف من ليس منهم، وقتلوا أعداءهم، ونهبوا أموالهم، وأقاموا حكم الارهاب، وأرسل الملك إليهم رسولاً يحمل إليهم أوامره فرجوه بالحجارة واضطروه الى الهرب.

١٨٤ - الجمعية توجه النقمة الى المسلمين وتذبحهم :

وأراد أعضاء الجمعية مضاعفة الابدفاعة الثورية فاستغلوا كره الناس القديم للعرب لإثارتهم عليهم، وبذلك اشتعلت نار الثورة على الموجودين منهم في بلنسية ومنطقتها. وليمزيد القسوس والجرمانوس الأخوان (Hermanos) (أعضاء الجمعية) النقمة الشعبية على المسلمين أخذوا يشيعون أن العبيد المسلمين قتلوا أبناء أسيادهم النصراني، فاندفع الناس الى الحي العربي في بلنسية، وهدموه بعد أن نهبوه وقتلوا من صادفوه منهم كبيراً كان أو صغيراً، حتى فاضت الدماء أنهاراً، وبعد أن انتهى الجرمانوس من بلنسية، استعرضوا ٦٠٠٠ من أتباعهم في شوارع المدينة، وانطلقوا

يهاجون المدن والقرى التي يوجد فيها مسلمون، وفي ٣٠ حزيران ١٥٢٠، هاجم الثائرون مدينة (شيفرت)، التي يسكنها كثير من المسلمين، وقتلوا جميع من فيها منهم، حتى لم ينج أحد منهم، وخربوا بيوتهم ومنازلهم، بعد أن نهبوا جميع ما فيها. وبعد أن انتهوا من ارتكاب جرائمهم في شيفرت، اتجهوا الى منطقة (موريللا)، فتصدى لهم الدوق دو سيجورب (دون الونسو داراغون)، لحماية أتباعه من العرب، وانضم اليه ٤٠٠ من العرب في مدينة المنارة، وخاف الثائرون ازدياد المقاومة ضدهم، فلهجوا الى الحيلة، وعرضوا على الناس (جثتي اثنين) من النصارى غرست فيها خناجر عربية، وقالوا لهم، انظروا ما فعله العرب من أنصار الدوق دو سيجورب. ووقف أحد القسس، الذين كانوا منضمين الى المخربين، يخطب مثراً حماسه الناس ضد العرب، وانطلق القسيس يتبعه المخربون الى كاتدرائية المدينة يطلب إعطاء علم الحرب الصليبية، فرفضوا تسليمه اليه، فانطلق يشتم العرب، وينادي بشعار (الموت لجميع العرب)، فثار المخربون، واستولوا على علم المدينة، وعلقوه على أحد الأبواب، ولما كان ذلك يعني دعوة جميع المواطنين النصارى للانضواء تحته، فقد تجمع فوراً جمع غفير من الناس انقسموا الى فئتين:

- ١ - فئة تضم قرابة خمسة آلاف رجل، تحركت تحت علم المدينة الى مدينة (مورفيدرو) وهي تهتف (الموت لجميع العرب).
- ٢ - وفئة أخرى سارت لتتضم الى أحد نقباء الجمعية الذي اتجه على رأس قوة لرد نائب الملك.

انطلق الجيش الأول الى المناطق الاسلامية ينهب ويسلب ويخرب ويقتل كل من يقع بيده من العرب، وانضم الى هذا الجيش الجنود المواليون للدولة ليفوزوا بنصيب من حصيلة النهب والسلب والاغتصاب، ولما بلغوا مدينة (غانديا) خربوها ونهبوا ما فيها، واضطروا الناس الى قبول العمد، ويقول بعض المؤرخين إن احد القسس الموجودين مع الثائرين قام بتعميد المسلمين وهم جاثون بين أنقاض بيوتهم، وبين جثث نسائهم وأطفالهم^(١)، واستمرت أعمال المخربين - من أفراد الجمعية ومن انضم إليهم من القسس والعامة والجنود - ضد المسلمين حتى اضطروا من بقي منهم حياً في غانديا، وأوليفا ودانية، الى التنصر، لأنهم لم يتركوا لهم سوى الاختيار بين

(١) سيركورج ٢ ص ١٧٤.

الموت والعماد. وارتكب المخربون أفظع الجرائم وأبشعها في قرية (بولب) الواقعة في منطقة دانية على ساحل البحر، فقد كان في القلعة ٦٠٠ من المسلمين متحصنين فيها. ولما هاجهم المخربون دافعوا عن أنفسهم أبسل دفاع وأشرفه، ولكن المؤن سرعان ما نفذت، واضطروهم الجوع الى الاستسلام، وقبلوا أن يضعوا سلاحهم وأن يتعمدوا بشرط المحافظة على حياتهم وأموالهم.

ثم خرجوا من قلعتهم ونزلوا الى السهل مطمئنين الى الاتفاق الذي تم بينهم وبين قادة المخربين، فتلقوا العماد، ولما استعدوا للعودة الى حصنهم، صاح واحد من الأشقياء (إن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مستعدين للموت مثلهم الآن)، فانقض عليهم من حوله وقتلهم جميعاً.

وقاتل العرب تحت قيادة السادة الاقطاعيين، عصابات الأشقياء وقتل كثير منهم في الدفاع عن أنفسهم، وتميز بعضهم في المعارك بكثير من الجرأة والاقدام، ولكن الجنود الاسبانين كانوا ينظرون الى العرب نظرة كره وحقد، ويعاملونهم معاملة الخارجين على القانون، وإذا ما ظفروا بشخص منهم قتلوه. وكان ممن تميز في المعارك ضد المخربين، وساهم في تنظيم اخوانه المسلمين، وتجنيدهم، ودفعهم الى الدفاع عن أنفسهم. . رجل يعرف بابن الوزير (الاجواسيل) وقد قتله الجنود في عداد من قتلوا.

واستمرت أعمال هذه الحركة التخريبية مدة ثلاث سنين، لاقى فيها المسلمون شراً مستطيراً وذاقوا منها صنوف العذاب والقتل والتشريد، وقد كان للقسس ورجال الدين اليد الطولى في تأليفها وإدارتها وتوجيهها الى البطش بالمسلمين.

أثر التعميد بالاكراه:

أثار تعميده المسلمين بالقوة، مسألة فقهية، وهي هل يعتبرون مسيحيين أم لا؟ وهل يمكن إخضاعهم لديوان التحقيق إذا عادوا الى الاسلام أم لا؟
لقد سبق للمجامع المقدسة، ومنها مجمع نيقية، أن قررت أن الذين يكرهون على الدخول في المسيحية، لا يمكن أن يعتبروا مسيحيين إلا إذا أعلنوا فيها بعد، وبرضاهم التام عن رغبتهم في البقاء مسيحيين. ومعنى ذلك أنه يجب العودة الى المسلمين الذين أكرهوا على التنصر، والسيف فوق رقابهم، لسؤالهم عن رغبتهم بعد

أزوال الاكرهه، فإن أعلنوا تمسكهم بالمسيحية اعتبروا مسيحيين، وإلا فلا يمكن اعتبارهم كذلك، وبالتالي فإنهم لا يمكن أن يكونوا خاضعين للملاحقة أمام ديوان التحقيق (محاكم التفتيش).

ولكن الملك شارل الخامس كان له رأي آخر، يختلف عن رأي المجمع المقدس، فهو يريد أن يعتبرهم مسيحيين بصورة نهائية، وأن يخضعهم الى أحكام ديوان التحقيق. ومع ذلك أراد أن يحصل من البابا على تأييد لوجهة نظره هذه. ويقول المؤرخون الغربيون، إن البابا كان واقعاً تحت تأثير الملك شارل الخامس، لا يرفض له طلباً، فعرض الملك الأمر على البابا، وشرح له وجهة نظره، وطالبه بتأييده في مسعاه وفي نظريته للأمر.

١٨٥ - رأي البابا ونصائحه :

وحينما تلقى البابا طلب الملك، بادر الى إصدار أمر بابوي (بولا) بتاريخ ١٢ أيار ١٥٢٤ أحل فيه الملك من اليمين التي أقسمها عام ١٥١٩ على أن يحافظ على حياة المسلمين، وحرثهم وأموالهم، وامتيازاتهم وقضايتهم... الخ، وحثه على الاهتمام بموضوع تحويل المسلمين الى النصرانية في مملكته. ونصح البابا (كليمان السابع) الملك بأن يكلف أعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير، كما نصحه بتحديد مدة كافية لانعام ذلك. أما إذا أصر أحد المسلمين على التمسك بالاسلام، فيحسن إخراجه من المملكة تحت طائلة فرض الرق عليه مدى الحياة إذا رفض الخروج^(١). وطلب البابا من الملك تحويل الجوامع الى الخدمات الكنسية والدين المسيحي، على أن تعطى أملكها وأوقافها الى السادة الاقطاعيين تعويضاً لهم عن حرمانهم من أيدي المسلمين العاملة في أراضيهم. وقد اعتبر أمر البابا هذا مخالفاً لروح الدين المسيحي ولآراء المجامع المسيحية المقدسة، كما اعتبر مخالفاً للضمير الانساني، وبعيداً عن العدل والانصاف والشرف واحترام الكلمة والعهد.

(١) مانويل دانفيللا أي كويادو ص ٨٧.

١٨٦ - إعادة بحث مسألة التنصير بالاكراه :

كان الضغط المتزايد على المسلمين يدفعهم الى المخاطرة بأنفسهم وأولادهم في سبيل الهجرة الى إفريقيا، نجاة بدينهم وحریتهم وأعراضهم، رغم ما في هذه المخاطرة من عواقب وخيمة إذا ما قبض عليهم. فقد كانت الأوامر الملكية السابقة تقضي باسترقاق من يقبض عليه وهو يحاول الهرب وأسترقاق زوجته وأولاده، ومصادرة أموالهم. ولكنهم يرغم جميع هذه المخاطر كانوا يتسللون باستمرار حتى بلغ عدد الهاريين من مملكة بلنسية عام ١٥٢٣ حوالي خمسة آلاف عائلة.

وتجاء هذه الهجرة التي كانت تهدد المملكة بالبوار والخراب، تعالت شكاوى السادة الاقطاعيين من استمرار هجرة أتباعهم، فأمر الامبراطور شارل كانت، بدعوة لجنة مشتركة من كبار رجال الدين، وكبار رجال الدولة في شباط (فبراير) من عام ١٥٢٥م، لمناقشة صحة العمد الذي تم بالضغط والاكراه وقيمته.

١٨٧ - رأي غريب للجنة :

اجتمعت اللجنة ٢٢ جلسة، وحضر الامبراطور شارل كانت الجلسة الختامية، وكان لرأيه الشخصي ووجوده تأثير مُوجَّه على اللجنة، ولم يشذ عن الخضوع لرأي الامبراطور إلا عضو واحد من أعضاء اللجنة تذكر الروايات أن اسمه (خايم بنيت)، فقد كان يرى (ان العرب لن يكونوا مسيحيين مخلصين أبداً، وسيظلون مارقين مرتدين عن الدين، وهذا أمر لا يشرف الدين) وظل على رأيه هذا الذي يعارض رأي الامبراطور، ونظريته، ولكن صوته لم يسمعه احد لأنهم كانوا ينصتون إلى رأي الامبراطور.

وأخيراً أعلنت اللجنة بأكثرية أعضائها، ونزولاً عند رغبة الملك، أن العمد الذي تلقاه العرب يجب أن يعتبر صحيحاً، وإن يكن قد تم في ظروف يظن أنه رافقها بعض العنف. لأن العرب حينما تلقوا العمد كانوا يتمتعون بقواهم العقلية كاملة، فلم يكونوا مجانين أو سكارى، فإذا كانوا يرفضون تلقي العمد فقد كان عليهم أن يقولوا «لا»، صراحة وعلناً، حينما عرض عليهم العمد. ولا يكفي أن يقولوا «لا» في سرهم. وليس هناك من دليل على أنهم قالوا «لا» صراحة وعلناً.

وخلصت اللجنة إلى القول إن المعمدين من العرب هم مسيحيون حقيقيون ويجب إجبارهم على الحياة النصرانية، وتعليمهم الدين، وتعميد أبنائهم. أما المسلمون غير المعمدين، فليُجأ إلى وعظهم ودعوتهم إلى النصرانية، وعليهم أن يتلقوا العباد خلال مهلة معينة، وإلا أصبحوا عبيداً مدى الحياة.

١٨٨ - أوامر الامبراطور:

وافق الامبراطور على رأي اللجنة، وعلى التدابير التي اقترحتها، وأصدر في نيسان (ابريل) أمراً ملكياً (سيدولا) يقضي بإرسال ثلاثة مفوضين كنسيين لتثبيت عرب بلنسية في الدين، وتعميد أبنائهم، وأمر بمصادرة المساجد التي تمّ فيها إجراء قداس في الماضي، وتحويلها لمنفعة الكنيسة.

١٨٩ - اللجنة الكنسية:

وبناء على هذا الأمر الملكي فوّض المحقق العام بصلاحياته ثلاثة من رجال الدين هم دون كاسبار دافلو، مطران وادي آش، والراهبان فري انطونيودوجيفارا وفري خوان دوسلمنكا، فذهب الثلاثة إلى بلنسية، ووصلوها في ١٠ أيار (مارس) ١٥٢٥. وفي ١٤ منه أذاع عضو اللجنة كاسبار دافلو الأمر الملكي. ومنح المسلمين مهلة مدتها ثلاثون يوماً ليوفّقوا أوضاعهم مع الأمر الملكي وحُثّهم على الافادة من العفو الذي تضمنه الأمر، وهدد المخالفين بأنزال عقوبة الموت بهم، وبمصادرة أموالهم.

وأرسل هذا المطران معاونيه إلى المناطق الواقعة حول المدينة لإتمام عملية تثبيت من فيها في الدين، ودام عمل اللجنة أربعة أشهر وانتهت من مهمتها في شهر آب.

١٩٠ - أوامر ملكية جديدة بتنصير المسلمين:

بعد أن أنجزت اللجنة الكنسية المهمة الموكولة إليها، أخبرت الملك بنتائج مساعيها، وحُثّه على إنجاز القسم الثاني من الأمر البابوي الذي يقضي بتنصير المسلمين الموجودين في مملكة أراغون. فأصدر الملك أمراً مؤرخاً في ١٣/٩/١٥٢٥

تضمن الأمور التالية :

- ١ - أعلن عزم الملك الذي لا يتزعزع على محو الإسلام من مملكته .
- ٢ - دعا المسلمين الى عدم ممارسة الإسلام وإلى عدم معاندة أمر الله .
- ٣ - وعد المسلمين بمعاملتهم كعاملات النصارى إذا أطاعوا أمر الملك .
- ٤ - وأخيراً أُنذَرهم باستعمال جميع وسائل العنف ، إذا ما رفضوا الرضوخ للرغبة الملكية .

١٩١ - إبلاغ الأوامر للمسلمين :

لم يعين الأمر الملكي ، العقاب الذي سيتعرض له المخالفون ، وترك لأعضاء اللجنة الكنسية أمر شرحه للناس . لذلك ، دعا عضو اللجنة المطران جيفارا عرب بلنسية الى الاجتماع في الكنيسة ، بتاريخ ٨ تشرين الاول ، ليلفهم أمر الملك ، ويشرحه لهم . ولما اجتمع الناس ، وقف جيفارا يعظهم ، ويقص عليهم تاريخ أصلهم ، وقال لهم إن الدم النصراني يجري في عروقهم ، لأن المسلمين حينما فتحوا بلنسية لم يكن معهم نساؤهم ، وانما تزوجوا مسيحيات ، ومن هذا الزواج جاء شعب المنطقة ، فالسكان في رأيه مسيحيون بالحق الالهي ، والحق الطبيعي ، وهم إذا كانوا اليوم مسلمين فذلك لأنهم مرتدون . ثم أعلن لهم أنه يمنحهم مدة عشرة أيام للتفكير فيما قاله لهم ، وفيما عرضه الملك عليهم ، وأُنذَرهم بأنه بعد مضي المدة المحددة سترك سبيل الاقناع ، وسيلجأ الى جميع الوسائل لارغامهم على التنصر .

وليرهب الحاضرين ، ويحملهم على الرضوخ لمطالبه ، ومطالب الملك ، أعلمهم أنه يحرم عليهم الخروج من منازلهم خلال الأيام العشرة التي حددها لهم للتفكير ، ومن خرق هذا المنع عرّض نفسه للاسترقاق . وليضمن جيفارا النجاح لمهمته أراد أن يحمل النبلاء على التخلي عن مساعدتهم للعرب ، فدعاهم الى الكنيسة ، وهناك حملهم على القسم أمام مذبح العذراء على العمل باخلاص لتحويل المسلمين الى نصارى وبذلك فقد العرب السند الوحيد الذي كان لهم في محنتهم .

١٩٢ - رفض المسلمين :

أما المسلمون فلم يستجيبوا للدعوة ولا للإنذار ، ولم يردوا على الأسقف ، وانما

شرعوا في بيع أموالهم ومنقولاتهم بأبخس الأثمان، وقرروا في أنفسهم محاولة الهرب للنجاة بدينهم، أية ما كانت المخاطر التي سيتعرضون إليها. ولما أدركت السلطات الملكية حقيقة مقاصد المسلمين صدر أمر ملكي بتاريخ ٢١ تشرين الاول يحرم على المسلمين بيع أموالهم.

١٩٣ - الأمر يمنع ممارسة الإسلام:

وفي ١٦ تشرين الثاني ١٥٢٥ أذيع في بلنسية الأمر الملكي الذي يقضي بمنع ممارسة الدين الإسلامي منعاً تاماً ونهائياً، وكلف الأمر السادة الاقطاعيين باتخاذ التدابير التالية تحت طائلة مصادرة أموالهم:

- أ - نزع سلاح المسلمين.
 - ب - إحصاء السلاح وتسليمه لاعضاء اللجنة.
 - ج - حدد الأمر عقوبة من يهمل القيام بهذه الواجبات بأن جعلها دفع غرامة مقدارها عشرة آلاف فلوران، كما جعل عقوبة العربي، الذي يستفيد من هذا الاهمال، الاسترقاق، ومصادرة جميع أمواله، والضرب مئة جلدة.
 - د - إغلاق المساجد بعد ثلاثة أيام من صدور هذا الأمر.
 - هـ - منع جميع الاجتماعات العامة للمسلمين، سواء أكانت للصلاة أو للحج أو للدفن أو للوعظ.
 - و - منع المسلمين من الاحتفال بالأعياد، ومنعهم من ختن أولادهم.
 - ز - منعهم من ذبح حيواناتهم حسب الطريقة المتبعة عند المسلمين.
 - ح - إجبار المسلمين على حضور القداس والصلوات، والركوع عند مرور الصليب، وحين قرع النواقيس. ومن خالف ذلك منهم كانت عقوبته فرض الرق عليه، وهي عقوبة ثقيلة جداً.
- أما الذين يعملون يوم الأحد فيدفعون غرامة مقدارها مئة قطعة نقدية (مرابطي).

١٩٤ - محاولة طرد المسلمين غير المعدين:

في ١٠ كانون الأول ١٥٢٥ طلب مفوض الشرطة التابع لديوان التحقيق، من

العرب الذين لم يتلقوا العياد، التهيؤ لترك بيوتهم، والاستعداد للنزوح. وطلب إليهم الاجتماع يوم ٣١ كانون الأول، في آخر قرية تقع على حدود مملكة بلنسية ليتوجهوا منها الى مدريد ثم الى بلد الوليد، وسانتاندر، ولاريدو، وكوروني، ومن هناك يخرجون جميعاً من المملكة في مهلة اقصاها ٣١ كانون الثاني ١٥٢٦م، ومن يتخلف عن هذا الموعد تكون عقوبته الاسترقاق. وكان الملك يقدر ان هؤلاء البؤساء سيضطرون الى طلب تعميدهم، بعد أن يستهلكوا، في هذه الطريق الطويلة التي فرض عليهم سيرها، ما معهم من مال وزاد. وبعد أن علم العرب بالأمر ألقوا منهم وفداً قابل الملكة، نائبة الملك في بلنسية، ورفعوا اليها شكواهم، من هذا الأمر الجائر، ورجوها السماح لوفد منهم بمقابلة الملك لرفع ظلامتهم إليه. ولم نضيق الملكة مثل هذه الفرصة الذهبية لاستغلال بؤس هؤلاء التعساء واستنزاف ما لديهم من قليل المال، فتقاضت منهم خمسين ألف دوكات - على ما قيل - لتعطيهم أماناً لوفدهم، وتوصية الى الملك. وفي ١٢ كانون الأول، وقعت أماناً لوفد إسلامي مؤلف من ١٢ شخصاً من الفقهاء ووجهتهم مع كتاب منها الى الملك^(١).

أحاطهم الملك على المحقق العام (ألونسو مانريكس) لينظر في شكواهم، ويناقشهم. فتقدموا بواسطته، بذاكرة الى الملك. ولما اطلع الملك على المذكرة، أعطى تعليماته للمحقق العام وهي تتضمن:

أ - وعدا للعرب بعدم ملاحقتهم من قبل ديوان التحقيق، إلا في حالة الارتداد الثابت القاطع.

ب - السماح لهم باستعمال اللغة العربية، وبممارسة العادات الإسلامية، مدة عشر سنين أخرى.

ج - الوعد بإبطال الأمر القاضي بنزع سلاحهم.

د - الوعد بأن تكون الضرائب المترتبة عليهم، مساوية للضرائب المفروضة على المسيحيين القدامى.

١٩٥ - ثورة المسلمين في بلنسية ١٥٢٥ - ١٥٢٦:

ولكن المسلمين لم يرضوا بالتخلي عن دينهم، مهما كلف الأمر، فاندلعت، في

(١) دانفيلاري إي كويادو ص ٩٨.

أواخر عام ١٥٢٥، نيران الثورة في المنطقة واتسعت، فقابلتها الحكومة بأعنف وسائل القمع والارهاب. ولم تتمكن مملكة اراغون من التغلب على الثائرين، إلا بعد ان استعانت بجيش من الالمان. وأبلى المسلمون أحسن بلاء، في المعارك التي دارت خلال عشرة أشهر. وأدت هذه الثورة إلى قتل عدد كبير من المسلمين، ونسائهم وأطفالهم، واسترقاق عدد كبير منهم، وإلى هجرة عدد كبير آخر إلى افريقيا. أما الباقون فقد اجبروا على تلقي العماد.

١٩٦ - تنصير مسلمي اراغون وقطالونيا:

بعد أن تمكن الملك من سحق ثورة بلنسية، فُكر في الانتهاء من أمر المسلمين، في أراغون وقطالونيا، مقدراً أنهم لن يتمكنوا من الثورة فامرهم بعدم بيع أموالهم، ومنعهم من الهجرة الى افريقيا، وفرض عليهم الهجرة عن طريق فرانس، ولكنه حرم عليهم نقل الذهب والفضة، وما لا يجوز تصديره، وتجاه هذه الظروف القاهرة اضطر المسلمون الى تلقي العماد، منتظرين فرصة أفضل للهرب من المملكة او للثورة.

١٩٧ - سنة فاصلة في تاريخ مسلمي الجزيرة:

يقول المؤرخون الغربيون ان عام ١٥٢٦، كان عاماً فاصلاً في تاريخ الاسلام، في شبه الجزيرة الايبيرية، إذ تلاشى فيه كل مظهر خارجي إسلامي، وأصبح ديوان التحقيق، يطول جميع سكان المملكة، بعد ان اصبحوا كلهم مسيحيين نظرياً. وبعد هذا التاريخ لم يعد العرب يعرفون باسم (مورو- أي مغربي - أو عربي)؛ وانما صاروا ينادون باسم (النصارى الجدد) أو باسم (موريسكوس) أي المغربي الصغير.

على أن الكنيسة بقيت لا تثق بالمسلمين، وبقي الشعب ينظر إليهم نظرة عدااء وكره. وعلق (المؤرخ سيركور) على هذه النتيجة بالعبارات التالية: (كم من دماء سالت، وكم من لطخات العار علقت بجبين الأمراء والوزراء والاساقفة، في سبيل الوصول الى هذه النتيجة، التي تعتبر استرقاقاً للجسم، دون كسب للروح. لقد ارتفع الصليب فعلاً فوق الهلال، ولكن الانجيل لم ينتص^(١)).

(١) سيركور ج ٢ ص ٢٢٠.

بعد أن تم اخماد الثورة، حدث الأمران التاليان :

أ - أصدر البابا كليمنت السابع في ٧ تموز ١٥٢٧ أمراً بابوياً (بولاً) يميز فيه للمحقق العام، البت في أمر المنتصرين، في مملكة غرناطة وغيرها في اسبانيا، الذين يصرون على تمسكهم بالإسلام.

ب - قرر مجلسا مدريد وبلنسية، السماح بزيارة بيوت المنتصرين، للتأكد من أنهم ما زالوا مقيمين على الكثلكة.

ولكن المسلمين لم يأسوا، برغم ما جرى، إذ إنهم كانوا يعرفون الوسيلة التي يتغلبون بها على صلف الاسبان وعجرفتهم، ألا وهي بذل المال، وتقديم الرشاوى، إذ كان كل شيء في اسبانيا في ذلك الحين، يباع ويشترى بالمال: الشرف والقانون، والأخلاق، حتى أصبح يمكن الاعتراف بشرعية أبناء الاكليروس^(١)، فتابع الفقهاء الاثنا عشر - الذين يمثلون جمعيات المسلمين في بلنسية - جهودهم، لايجاد تسوية للمواضيع المعلقة؛ فاتصلوا بكردينال طليطلة، وبديوان التحقيق الأعلى، وبالأمبراطور نفسه، وتوصلوا في ٢١ أيار ١٥٢٨ الى اتفاق مهم مع رئيس ديوان التحقيق، ومع كرينال طليطلة، قبل به الملك، ووافق عليه، وهذا الاتفاق الذي وصفه المؤرخون بأنه مهم، لا يُعرف الشيء الكثير عنه اليوم. ومما عرف منه النقاط التالية^(٢):

- ١ - أشار الاتفاق الى أنه لا يمكن أن يستمر العرب (المورييسكيون) في الإقامة في مكان يعاملون فيه معاملة سيئة كالتى يلقونها اليوم (ولعل هذه الاشارة تبرير للملك والمحقق العام، للموافقة على هذا الاتفاق).
- ٢ - لا يلاحق المورييسكيون من قبل ديوان التحقيق خلال أربعين عاماً .
- ٣ - لا يجبرون على ارتداء ثياب المسيحيين خلال عشر سنوات .
- ٤ - لا يجبرون على استعمال اللغة الاسبانية والبلنسية خلال عشر سنوات .
- ٥ - يسمح لهم بأن تكون لهم مقابر خاصة بهم بجانب المساجد .
- ٦ - في قضايا الزواج بين الأقارب، يعفى عما سبق من زواج يمنعه الدين المسيحي،

(١) مانويل دانفيلد أي كويادو ص ١٥٣ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٢ .

- وفي غير ذلك يستشار البابا .
- ٧ - تنفق أموال المساجد على خدمات الدين المسيحي ماعدا ما هو ضروري لنفقات الفقهاء ، مادام هؤلاء أحياء .
- ٨ - يسمح للعرب (المورييسكيين) بحمل السلاح .
- ٩ - يتساوون مع النصارى القدامى في الواجبات ، ويسمح لهم بالانتقال من مساكنهم بحرية .
- ١٠ - تبقى الجامعات الإسلامية القائمة في شاطبة وبلنسية وألسيرا . . . إلخ مستمرة في عملها كجامعات مستقلة .
- ويقول (كويادو) إن هذا الاتفاق الذي تمّ التوصل إليه يعتبر اعترافاً بالاستقلال الذاتي للمسلمين ، وهذا يعني أن الملك غير سياسته .

١٩٨ - المسلمون مازالوا مقيمين على الإسلام :

ولكن برغم جميع المحاولات التي بُذلت لصرف العنصر العربي عن الإسلام ، فإن أبناء ظلوا مقيمين على دين آبائهم ، يارسونه ويتابعون حياة المسلمين ، وعاداتهم وتقاليدهم في طعامهم ، وشراهم ، وذباحتهم ، وصومهم ، وحينما كان يُقال لهم إنهم مسيحيون ، بعد أن تلقوا العباد ، كانوا يقولون إنهم غير مسيحيين ، وإنهم عمدوا بالإكراه والسيوف فوق رقابهم . وكانت الحكومة والكنيسة ، تعرفان ذلك منهم ، وقد جربتا جميع الوسائل لصرفهم عن ممارسة دينهم ، فلم تفلح . لذلك كلفت السلطات الإسبانية والكنيسة ، بعد توقيع هذا الاتفاق ، رجل دين يجيد العربية يدعى (فري بارتولمه دولوس انجيلوس) ، بمحاولة إقناع المسلمين بالدين المسيحي عن طريق الوعظ والارشاد ، ولكنه لم يفلح في مهمته .

١٩٩ - نقض الملك الاتفاق واستمر في الضغط على المسلمين :

ولكن ديوان التحقيق الأعلى لم يرض بما تمّ الاتفاق عليه ، وأراد تفسير الاتفاق على أنه لايسمح للمسلمين بممارسة الطقوس الإسلامية ، وأنذر المسلمين ، بأن كل من يعود إلى الإسلام ، أو يقوم بفروضة وواجباته ، يعتبر مرتدّاً عن النصرانية ،

وبإلاحقه ديوان التحقيق.

ونظراً لآي الامبراطور موقف ديوان التحقيق، عمد إلى نقض الاتفاق المشار إليه، وكأنه كان ينتظر هذا الموقف لينفض يده مما وقع عليه، وطلب الملك من المسلمين أن يتعمدوا بدون ابطاء.

وبحاول المؤرخون الاسبانيون تبرير تصرف الملك المخزي، فمنهم من يبرره بأن الملك اكتشف مؤامرة في أواخر عام ١٥٢٨، ومنهم من يجعل سببه استمرار غزوات القرصان الافريقيين لشواطئ اسبانيا وجزر الباليار^(١). ولو كان هذا النقض للعهد، والحث باليمين، والرجوع بكلمة الشرف، هي الأولى من نوعها من قبل ملوك اسبانيا، لبحث الإنسان في السبب، ولكننا ونحن نتابع الهوادث في الممالك الاسبانية، لم تقع على موقف ملكي واحد فيه وفاء بالعهد، وتقيد بالكلمة. ولذلك لا بد للإنسان من أن يعتبر موقف الملك هذا، موقف مرتش طماع أصدر أمراً بعد أن قبض عليه مალأً، ثم ما لبث أن أراد التخلص منه، فوجد الوسيلة لذلك.

٢٠٠ - أوامر بابوية بملاحقة المسلمين :

(١) في ١٣ / ١٢ / ١٥٣٢، صدر عن البابا كليمنت السابع، أمر بابوي يقضي بوجوب تعليم المسلمين المقيمين في أراغون وبلنسية وقطالونيا، أمور الدين المسيحي وتعاليمه.

(٢) وفي مطلع عام ١٥٣٤ كتب البابا المذكور الى المحقق العام (مانريكس) بيدي أسفه، لما بلغه من عودة مسلمي بلنسية الى دينهم القديم.

(٣) وفي ١١ حزيران ١٥٣٤، أصدر البابا أمراً بابوياً (بولاً) يأمر فيه الامبراطور شارل الخامس، بإخراج المسلمين الذين يرفضون التحول الى النصرانية من مملكه.

٢٠١ - تتالي الأوامر الملكية بحق المسلمين :

ويعد ذلك تتالت الأوامر الملكية، وكانت الغاية منها كلها، اجبار المسلمين على

(١) مانويل دانفيليا أي كويادو ص ١٠٧.

التنصر، والتخلي نهائياً عن الإسلام . ومن هذه الأوامر^(١) :

(١) صدر أمر ملكي ، حرم على المسلمين الذهاب الى مكان آخر، أو الانتقال الى اقطاعات شخص آخر، تحت طائلة عقوبة الموت ، ومصادرة جميع الأموال . ويحرم الأمر على أصحاب الأراضي أن يقبلوا المسلمين في أراضيهم دون موافقة ملكية سابقة ، تحت طائلة دفع غرامة مالية قدرها ٥٠٠ فلوران من الذهب ، أو الجلد إذا لم يمكن تحصيلها .

- وحرم الأمر على المسلمين ، حمل السلاح - سواء أكان هجومياً أو دفاعياً - خلافاً لما كان تم الاتفاق عليه عام ١٥٢٨ تحت طائلة الجلد مئة جلدة والحبس عشرين يوماً ، ودفع غرامة مالية مقدارها (مئة سويلدوس) .

(٢) وقضى أمر آخر ، بأن المسلمين ، الذين يسرون خارج الطريق الرئيسية الممتدة من برشلونة الى بلنسية ، وفي الجهة الشرقية منها (جهة البحر) ، دون أن يكونوا مزودين ببطاقة خاصة من أسيادهم ، أو من الرسميين ، يعرضون أنفسهم لعقوبة الموت ، ولصادرة أموالهم ، وفقاً لما سبق أن تقرر عام ١٥٣٠ . وتطبق نفس العقوبة على الذين يسرون في الجهة الشرقية من الطرق الممتدة من بلنسية الى دانية ، ومن دانية الى اليقنت ، ومن اليقنت الى أورويلا . كما تطبق نفس العقوبة على الأشخاص الذين يقبض عليهم وهم يتجولون في المناطق القريبة من شاطئ البحر .

وقضى الأمر بأن السادة الاقطاعيين الذين يعطون الإجازات ، عليهم أن يوضحوا فيها الساعة والوقت الذي يستطيع فيه تابعوهم الاقتراب من البحر .

٢٠٢ - تمزيق ما تبقى من معاهدة غرناطة :

ذهب شارل الخامس الى غرناطة في ٥ حزيران ١٥٢٦ ، واطلع بنفسه على عظمة ما خلفه العرب من تراث حضاري ، واستمع الى ما قصه عليه أصحابه من تاريخ العرب في الأندلس ، فأدرك معنى الثورة التي تكمن في نفوس المسلمين ، فقال عبارته المشهورة : (إنه لشقي من أضاع كل هذا) . وفكر في أمر يمكنه من المساعدة على اجتثاث روح الثورة من نفوس العرب ، وهداه تفكيره في آخر الأمر الى حملهم على

(١) نفس المرجع ص ١٢٨ .

نسيان ماضيهم، وقدر بأن اظهار عظمة الدولة يكفي لذلك . وبينما كان مقيماً في غرناطة، تقدم اليه العرب والنصارى كل منهم يشكو الجانب الآخر: النصارى يشكون من عصابات المنفيين (المونفس)، وتزايد نشاطها لدرجة خطيرة، كما يشكون من تزايد هجمات القراصنة المسلمين من افارقة وأتراك، على السواحل الاسبانية، مما أدى الى تخريب أكثرها.

ويشكون أيضاً من اساءة العرب لاجازات حمل السلاح، حتى أصبحت بيوتهم مستودعات للأسلحة يتزود منها المنفيون . أما العرب فقد وضعوا مذكرة بينوا فيها شكواهم من رجال القضاء المدني والكنسي، وما يأخذونه عليهم .

ووقع المذكرة وجهاء المسلمين، ومنهم ثلاثة من أعضاء المجلس البلدي، وتولى الأعضاء الثلاثة في المجلس البلدي (ومنهم عضو اسمه الاسباني ديجولويس - واسمه العربي ابن الشرع) تقديم المذكرة الى - الامبراطور، فاحلهم الامبراطور الى مجلس الدولة . ولما تسلم المجلس الشكوى الإسلامية، قرر تأليف لجنة تحقيق، يزور أعضاؤها المناطق الإسلامية في جميع أنحاء مملكة غرناطة لاستقصاء الحقائق . ودافع أحد القس من أعضاء المجلس عن تصرفات رجال الدين بحق المسلمين، قائلاً إن أسباب الاضطهاد الذي يجل بالمسلمين هو أنهم ملحدون مارقون من المسيحية، وهذا ما يحمل رجال القضاء الكنسي والمدني على اضطهادهم .

تألفت لجنة التحقيق من خمسة أعضاء من رجال الكنيسة، أربعة منهم من اكليروس غرناطة، الذين يشكو المسلمون من تصرفاتهم، والخامس من خارج المنطقة، يدعى انطونيوجيفارا، وهو الذي أصبح فيما بعد اسقف وادي آش، وأظهر كثيراً من التعصب والحقد على العرب والمسلمين، حتى أنه أمر بجلد النساء المسلمات اللواتي يخضن أصابعهن بالخناء . ومن الغريب أن يكلف مجلس الدولة أربعة من تقديم الشكوى العربية بحقهم، ليكونوا أعضاء في لجنة التحقيق في الموضوعات التي تضمنتها هذه الشكوى من تصرفات المحققين أنفسهم، ولكن ما رأيانه من تعصب الملوك ورجال الكنيسة، وسوء نيتهم، لا يترك مجالاً لأي استغراب ما دام الأمر يتعلق بالمسلمين .

قام الأعضاء بالتجول في نواحي المملكة لاستقصاء الحقائق، والبحث في شكوى النصارى من الموريسكيين، وما نسبوه إليهم من عدم تمسكهم بالمسيحية، ثم اجتمعت اللجنة لتضع تقريرها بنتائج تحقيقاتها ومشاهداتها . ومع أنها كانت مكلفة

بالتحقيق عن مسلك القسس، ورجال القضاء، تجاه المسلمين، إلا أنها صرفت النظر عن هذه الناحية. واكتفى (جيفارا) بالقول، تعليقاً على هذه الشكوى، إنه يلوم القسس ورجال القضاء على تسامحهم مع المسلمين.

وجاء في تقرير اللجنة إعراف منها باستقامة المنتصرين وبتمتعهم بأخلاق وعادات حسنة، وبأنهم يوحون الثقة الكاملة لجميع من يتعاملون معهم، بالنظر لأمانتهم واستقامتهم. واعترفت اللجنة بأن المسلمين يعطفون على الفقراء، ويحبون الخير، ويخلصون في عملهم. ولكن اللجنة لم ترد ذلك الى متانة الخلق، وصفاء النفس، وعمق الايمان، وانما عزته الى حب التظاهر والنفاق^(١).

وتطرق التقرير الى ما نسب الى المسلمين، من عدم التمسك بالدين الجديد، فجاء فيه (إنه لا يبدو لدى المورييسكيين أية غيرة على الدين المسيحي، ولا تقم بالأحاد، ولا احترام للأعياد. ومع أنهم انتسبوا الى الكنيسة منذ ٢٧ عاماً، إلا أنهم، في الحقيقة، لا يوجد بينهم سبعة أشخاص مسيحيون فعلاً، فإذا لم يكونوا مسلمين حقاً فهم هراطقة متسترون).

واتهم التقرير المسلمين بأنهم يصومون رمضان، ويعلمون أولادهم القرآن، وتعاليم الإسلام، وبقون يوم الجمعة في بيوتهم ليؤدوا الصلاة، ويعملون يوم الأحد. ويكرهون شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير ويختنون أولادهم ويغتسلون، ويغسلون ثيابهم بعناية تامة لتطهيرها عما أصابها من زيت العباد المقدس، ويتمون زواجهم على طريقتهم بعد أن يتلقوا بركات القسيس، ولا يستدعون القسيس في حالات الموت إلا بعد أن يكون المريض قد مات أوفقد القدرة على النطق). وأشار التقرير الى ما كان فرضه الكاردينال خيمنس على المسلمين من حضور القداس يوم الأحد، وحضور دروس الوعظ تحت طائلة دفع غرامة حمادية، كما فرض على القسس اجراء تفقد لأبناء منطقتهم قبل البدء بالوعظ، وتسجيل أسماء من يتغيب لفرض العقوبة بحقه.

وذكر التقرير أيضاً أن خيمنس، كان قد فرض على من يأتي من المسلمين، لعقد زواجه، أن يرتدي الملابس الاسبانية، وأن يبرهن على أنه يعرف ترديد الصلاة الكاثوليكية. ثم ذكر التقرير أنه بالرغم من تلك الأوامر فإن المسلمين كانوا يتهربون

(١) سيركورج ٢ ص ٢٢٦

من اتمام هذه الواجبات ، -أساليب مختلفة أهمها وأبرزها شراء القسس، ورشوتهم بالمال . وبما لا شك فيه هو أن القسس كانوا يساهمون في خلق هذا الجو من الفوضى والاضطراب لأن ذلك كان يعود عليهم بالربح المادي، إما من الرشاوى، وإما من الغرامات، وإما من بيع صكوك الغفران^(١).

وعلى أثر ذلك عهد الامبراطور الى المحقق (ألونسومانريكس)، والى ١٣ شخصاً اكليركيا ومدنياً - ليس فيهم عربي - بوضع توصياتهم في ادخال اصلاح على أحوال العرب (المورييسك)، مع أنه حينما دخل غرناطة قبل أيام كان قد أقسم على احترام الامتيازات الممنوحة للمسلمين كاملة غير منقوصة وعلى عدم المساس بها.

٢٠٣ - قرار اللجنة :

عقدت اللجنة عشر جلسات، استمعت فيها الى روايات المفوضين الزائرين للمناطق ، ودرست معاهدة التسليم، والشكاوى . ثم وضعت تقريراً جاء فيه : (إنها ترى أن مصلحة النصارى الجدد تقتضي بأن يحجب عنهم كل ما يذكرهم بالدين الذي كانوا يدينون به، وبالإلمة التي كانوا ينتسبون إليها). ولم تعرض اللجنة الى بحث ملاحظات المسلمين .

وحملت اللجنة الى الامبراطور قرارها، وما كان الامبراطور ينتظر غير هذا القرار ليحوله إلى قانون مؤد للمسلمين، فوافق على الاقتراح، وأصدر في ٧ كانون الأول ١٥٢٦ قانوناً يحرم فيه على العرب التسمي باسماء عربية، والتحدث باللغة العربية، ولبس الألبسة العربية، ولقاء ذلك منحهم القانون عفواً عاماً عن المخالفات السابقة. وهكذا تلاشت معاهدة التسليم تماماً. وتمزق آخر ما بقي من موادها دون تمزيق، حتى ذلك الحين.

٢٠٥ - الأوامر التالية :

١ - أصدر الامبراطور في عام ١٥٢٨، أمراً ملكياً يفرض على مختاري القرى، في

(١) نفس المرجع ص ٢٢٨ .

فملكة غرناطة ، بأن يتحملوا من أموالهم الخاصة ، التعويض عن الاضرار التي يسببها المنفيون والقرصان في منطقتهم .

٢ - وفي ١٢ كانون الثاني ١٥٢٩ ، أصدر (شارل كنت) أمره بنقل العرب خارج حي البيازين ، واسكانهم وسط المدينة .

٣ - وفي عام ١٥٣٢م وضعت الامبراطورة موضع التنفيذ ، الأوامر الصادرة في ٧ كانون الأول ١٥٢٦م التي تقضي بمنع العرب من استعمال اللغة العربية ، ومن التسمي باسماء عربية ، ومن لبس الألبسة العربية .

وعلق الكونت سيركور على الأوامر التي أصدرها شارل الخامس وزوجته المتعلقة بالمسلمين بقوله : «إن الامبراطور وزوجته كانا يبحثان عن وسيلة يتمكنان بها من ابتزاز أموال المورييسكيين ، فلم يجدا وسيلة أفضل من اصدار القوانين الجائرة ، والأوامر السخيفة بحقوقهم ، ليضطروهم الى المراجعة ، ودفع مبالغ كبيرة من المال في سبيل إبطائها^(١)» . وبالفعل فإن العرب توجهوا ، في جميع هذه الحالات ، الى الامبراطورين ، ودفعوا لأعوانها ولها مبالغ كبيرة ، لوقف تنفيذ الأوامر أو إبطائها .

ومن أسخف واقسى ما سن من تشريعات بحق العرب ، هو النظام الذي وضعه المحقق العام ، الكاردينال (فرناندو فالديس) ، الذي يمنع العرب من التزاوج فيما بينهم ، كما يحرم عليهم أن يكون عندهم خدم من عنصرهم ، وان يسكنوا متجاورين . ولكن هذا الأمر السخيف الجائر لم ينفذ ولم يعمل به . فقد تحداه العرب بقوة وعناد .

٢٠٦ - الأوامر التي أصدرها فيليب الثاني :

١ - أصدر الملك فيليب الثاني أمراً في عام ١٥٦٠ ، حرم فيه على العرب اقتناء العبيد السود ، تحت طائلة دفع غرامة قدرها عشرة آلاف مرابطي ، ومصادرة العبد . وحرم عليهم أيضاً الاتجار بالذهب والفضة . ولكن بما أن تحريم اقتناء العبيد السود يشل الفعالية الزراعية التي تقوم في أكثرها عليهم ، فقد تقدم العرب بطلبات تظلم الى الملك ، وبقيت المسألة بين أخذ ورد حتى حسمها الملك في مطلع عام ١٥٦٣ ، برفضه

(١) سيركور ج ٢ ص ٢٤٣ .

شكوى العرب .

٢ - وفي ١٤ / ٥ / ١٥٦٣ أصدر الملك أمراً :

١ - يجدد فيه الأمرين الصادرين عام ١٥٢٦ وفي ١١ / ٥ / ١٥٥٢ المتعلقين بتحريم اقتناء الأسلحة بدون رخصة .

٢ - ويأمر العرب بتقديم جميع أسلحتهم لحتمها ، بعد التثبت من صحة الإجازة ، ومصدرها ونظاميتها . وأنذر العرب بأن من يملك إجازة نظامية يعرض نفسه لعقوبة فقدها في الأحوال التالية :

١ - إذا أعار السلاح لشخص آخر .

٢ - إذا لم يقدم سلاحه لمراقبته وختمه .

٣ - إذا لم يجدد ختم إجازته إذا ما اشترى سلاحاً جديداً .

ونص الأمر على فتح سجل تدون فيه أسماء الأشخاص الذين يجوزون سلاحاً ، وأوصاف السلاح وأنواعه .

وفوض الملك الى القائد العام لمنطقة غرناطة ، الكونت دوتانديلا ، أمر تحديد العقوبة المترتبة على مخالفات حمل السلاح . وبناء على هذا التفويض ، جعل الكونت الإعدام عقوبة للمخالفين . ووافق الملك على هذا التحديد . وقد أدى تنفيذ هذا الأمر الى مأس كثيرة ، وإلى ملاحقات مشروعة وغير مشروعة ، وإلى ابتزاز أموال العرب من قبل كل من يستطيع أن يدعي لنفسه صلاحية تطبيقه . فقد كانت هناك إجازات مزورة يمنحها الموظفون ، وكان العرب ، الذين تجهل غالبيتهم العظمى اللغة الاسبانية ، لا يستطيعون التفريق بين المزور وغير المزور ، فيقعون في مشاكل لا تنتهي ، ولما كانت العقوبة بالغة القسوة ، فقد كانوا مضطرين ، الى تلافي الأمر ، وشراء حريتهم ورقابهم بالدفع . وكان من نتيجة هذا الأمر ، أن هرب ألوف من العرب من بيوتهم ، ولم يكن أمامهم أمكنة يلجؤون إليها غير الكنائس ، وأراضي السادة الاقطاعيين . ولكن الملك سد الطريق أمامهم إذ أصدر أمراً حدد فيه حق اللجوء الى الكنائس بثلاثة أيام ، وحرم على السادة الاقطاعيين إيواء الهاربين . لذلك لم يبق أمامهم غير اللجوء الى الجبال والانضمام الى عصابات المنفيين ، وامتثال قطع الطريق ، والقيام بأعمال السلب والنهب . وصبت هذه العصابات جام غضبها على الاسبان تقطع عليهم السبل ، وتتخطفهم ، وتخرب أراضيهم . وتعاضم أمر هؤلاء الثائرين حتى سيطروا على المنطقة الممتدة من البشرات الى جبال رونده . وبلغ من

جرائعهم أنهم كانوا يصلون الى أبواب غرناطة متحدين السلطات، ومنذ ذلك الحين بدأت تختمر فكرة القيام بثورة، وبدأ الأعداد لها.

٢٠٧ - الأمر الصادر عام ١٥٦٦ بضغط من الفاتيكانيان :

كان بين الحاضرين في مجمع (تارانتي) قسيس اسمه (بيدرو جيريرا)، وقد بذل هذا القسيس نشاطاً ملحوظاً، وابدأ حماسة ظاهرة، فلمع اسمه. ولما عاد الى اسبانيا، جعل من نفسه مراسلاً للفاتيكانيان، وأخذ يوافيه بتقارير عن الحالة في اسبانيا، وبصورة خاصة عن حالة المسلمين فيها، فسر البابا (بيوس الرابع) من هذا النشاط، وعهد الى جيريرا بأن يقوم بإبلاغ ملك اسبانيا (فيليب الثاني) رغبة البابا باتخاذ تدابير صارمة بحق المسلمين، ويأنه يعتبر الملك مخطئاً في التسامح الذي يبديه في ترك المسلمين مقيمين على عاداتهم التي ترتدي في رأيه ونظرة طابع الهرطقة. فاغتنم القسيس هذا التكليف وأسرع الى الملك يبلغه رغبة البابا، ويمارس الضغط عليه، ويطالبه باتخاذ تدبير حاسم ينهي مشكلة العرب.

ولكن الملك كان يتردد في اتخاذ تدبير اخرق قد يزيد الأمر تعقيداً. إلا أن جيريرا، الذي كان يريد أن يدخل التاريخ من أي باب كان، عاد بلاحق الملك، وراسل الفاتيكانيان ليزيد في ضغطه على الملك ليخضع لرغبة البابوية، وينفذ أوامرها.

وفي ايلول ١٥٦٥ دعا جيريرا الاساقفة الى اجتماع، وحملهم على توقيع طلب الى الملك، يرجونه فيه تطبيق الأمر الصادر عام ١٥٢٦. وفي ذلك الوقت أقبل المحقق العام (فيرناندو فالديس)، وحل مكانه (ديجو دايسينيوزا) وهو عدو لدود للعرب، فأصبح سنداً لأسقف غرناطة، واتفقا على تفتيش المنطقة، والقيام بتعيين مندوبين يزورونها ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب مثلما حدث عام ١٥٢٦.

وأخيراً تألفت لجنة لوضع الاقتراحات اللازم ادخالها على الأنظمة المطبقة على العرب (الموريسك)، ولم يشترك فيها أحد من العرب. وبعد أن تناقشت اللجنة، اقترح رجال الدين الأعضاء فيها، أن تزداد شدة التدابير الواردة في الأمر الملكي الصادر عام ١٥٢٦. ولم يجرؤ أحد من الأعضاء المدنيين على معارضة القسيس.

وأخيراً تقدمت اللجنة بتوصيات أقرتها بالأكثرية، ومن هذه التوصيات :

- ١ - منع استعمال اللغة العربية والعادات والتقاليد العربية منعاً باتاً .
- ٢ - منع التسمي بأسماء عربية .
- ٣ - هدم الحمامات العامة وكل ما له مظهر جامع أو حمام .
- ٤ - منع استعمال الألبسة العربية .
- ٥ - منع العرب من امتلاك العبيد .
- ٦ - إجبارهم على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة ، في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها .
- ٧ - إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع .

وافق الملك على هذه التوصيات ، وأصدر أمراً ملكياً بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٥٦٦ يتضمن المقترحات الواردة فيها .

وكان في غرناطة رجلا ن يتنافسان في الزعامة هما القائد العام للجيش المركزي دومونديخار ، والكاردينال بيدرو ديسا ، ولما علم القائد العام بصدور هذا الأمر - وكان إذ ذاك في البلاط - عارضه وأبدى مخاوفه من عواقبه . ولكن الكاردينال ، دايسينوزا بقي مصراً على رأيه ، ولم يقبل أن يُدخل عليه أي تعديل . وقرر بيدرو ديسا أن يعلن هذا الأمر للشعب يوم ١٥٦٧/١/١ ، يوم الذكرى السنوية لسقوط غرناطة ، إلا أنه أراد أن يمهّد الطريق أمام إعلانه ليخفف من رد الفعل . فاستدعى زعماء العرب في غرناطة ، وحذّثهم بالأمر ، ونصحهم بالتعاون معه ، وإعداد أفكار الناس لكيلا يُفاجؤوا . ولكن الزعماء المسلمين اعتدلوا عن عدم ثمتّهم من التحدّث في هذا الأمر لأن الشعب سيرجمهم بالحجارة إن هم فاتحوه بشيء منه .

وفي ١٥٦٧/١/١ ، اجتمع المسلمون ، في ساحة باب البنود - التي كانت تجري فيها في السابق احتفالات عرض البنود والرايات حينما يعتلي العرش ملك جديد - وقرأ المنادون الأمر الملكي ، فعلا الوجوم والاشمئزاز وجوه المسلمين ، وبدت على وجوههم علامات الثورة .

وقابل زعيم عربي اسمه (فرنسيسكومؤنس) الكاردينال بيدرو ديسا ، وناقشه في مضمون الأمر الملكي ، وفنّده ، وبين سخافته ، وعدم جدواه . وحاول ديسا إقناعه بأنّه من العبث مناقشة الأمر الملكي بعد أن صدر .

ولجأ مؤنس إلى الملك فلم يحصل منه على شيء يذكر ، غير السماح للخياطين العرب بأن يصنعوا ثياباً على النمط الإسباني ، دون حاجة إلى دفع شيء من المال لقاء منح الإجازة الجديدة .

وتوصل العرب الى اكتساب عطف أمير اقطاع، اسمه خوان انريكس، كان على صلة باميرال قشتالة، وبالمملك نفسه. وبواسطة هذا الاقطاعي، الذي تأثر للظلم الواقع على العرب، تمكن اثنان من العرب هما (خوان فرناندس مفضل)، من غرناطة، و(فرناندو الحبقي) من وادي آش، من مقابلة الملك، وقدا إاليه مذكرة تتضمن مطالب العرب. فرد الملك عليهما بأنه استشار أهل العلم والمعرفة، فنصحوه بانعام ما تم. ثم قال لهما إنه سيبلغ أوامره الى ديسا، فعليهما بمراجعته. ولكنها لما راجعا ديسا، قال لهما إن الملك يقول: إن ما أمر به سينفذ بحدافيره. فكانت الثورة الكبرى عام ١٥٦٩.

القسم

٣

الشورات

الفصل الأول

ثورات متفرقة

٢٠٨ - أول ثورة قام بها العرب في بلنسية ١٢٥٤ :

استسلم المسلمون في بلنسية الى خايم الأول عام ١٢٣٨ ، بعد أن عقدوا معه معاهدة أقسم عليها ، وتعهد بأن يصون حياة المسلمين وأموالهم ، وأن يحترم حريتهم في ممارسة دينهم ، وعاداتهم ، ولغتهم ، وقضائهم ، بحسب شريعتهم . وأن يمنح المسلمين في الجزء المتبقي بيدهم من مملكة بلنسية هدنة مدتها ثماني سنين ، ولكن خايم لم يحترم عهده بمهادنة زيان أمير بلنسية ، وقرر بعد أن استتب له الأمور أن يستولي على ما تبقى من المملكة فكان له ما أراد ثم نقض خايم العهد مرة أخرى إذ حول بعض المساجد الى كنائس أو الى ملكيات تابعة للكنائس .

واستدعى خايم أعداداً من المسيحيين ليستقروا في بلنسية وما حولها من المدن ، في محاولة منه لترسيخ أقدام الفتح ، فبدأ النصارى بإزعاج المسلمين وإساءة معاملتهم . وساهم خايم في التضيق على العنصر الاسلامي ، وأطلق الحرية للنصارى وحدهم^(١) ، ثم رأى عزل العناصر الموجودة في بلنسية بعضها عن بعض وهم المسلمون والنصارى واليهود ، بأن جعل لكل عنصر حياً خاصاً به . وانتقلت الملكيات العربية الى أيدي الاسبان ، عن طريق الاقطاع ، والمصادرة ، وتحول العرب من ملاك الى أجراء لدى الملاك الجدد ، وأصبحوا أدنى من غيرهم من أفراد الشعب مرتبة إذ أصبحوا نوعاً من الأرقاء^(٢) .

وبدأ النصارى يسيئون معاملة المسلمين ، ويزعمونهم ، ويعتدون عليهم ؛ ولجأ المسلمون الى السلطة ، فلم تظهر أي اهتمام بشكاواهم ، فأدركوا أنه لا غنى لهم عن

(١) مانويل دانفيلاي كويادو ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١ .

الاعتماد على أنفسهم، والدفاع عن حقوقهم. ولما تزايد الضغط عليهم، من قبل الملك، والحكومة، والكنيسة، والشعب، اندلعت نيران ثورتهم الأولى في منطقة بلنسية عام ١٢٥٤م، وتولى زعامة الثورة أمير إحدى المناطق التابعة لبلنسية، وتسميه الروايات الاسبانية الأزرق (أو اليزرقى). واستولى الثوار فوراً على عدد من القلاع والحصون بين (شاطبة) و (دانية) و (اليقنت)، وسيطروا على المنطقة الجبلية جنوبي نهر (شقر)، وبقيت الثورة محصورة في هذه المنطقة ~~بعض الوقت~~. ولكنها سرعان ما امتدت الى جميع نواحي المملكة بسبب خطأ ارتكبه الملك. إذ إن الملك أسرع الى بلنسية لمعالجة الموقف بعد أن بلغه خبر اندلاع الثورة، ودعا مجلس التاج أو النواب (الكورتس) للاجتماع به، وأعلن فيه خطته في معالجة الثورة. وقال للأعضاء إنه ينوي القيام بتحصين بعض المواقع الرئيسية، وخصوصاً شاطبة، لتكون نقاط ارتكاز له وجيشه، في العمليات المقبلة. ثم بعد ذلك يعمد الى طرد المسلمين جميعهم من مملكة بلنسية، وإحلال النصارى محلهم، وهدل الخوارة والبورجوازيون لهذا المخطط، بينما وقف أمراء الاقطاع يعارضونه لأنه سيلحق الخراب بهم، وبالمملكة كلها.

ولكن رأي الملك، ورجال الدين، ومثلي العامة، تغلب على رأي الاقطاعيين، فأمر الملك العرب بالنزوح من المملكة، وسمح لهم بأن يحملوا معهم ما يستطيعون حمله من أموالهم ومتاعهم. ولما علم العرب بهذا القرار تحرك منهم قرابة ستين ألفاً، ممن شملهم قرار الطرد، واستولوا على ١٢ حصناً، وبذلك اتسع نطاق الثورة اتساعاً كبيراً شمل المملكة كلها. ويبدو أن بعض المقيمين في أطراف بلنسية، تخاذلوا وداخلهم الوهن والشك في امكان نجاح الثورة، ففضلوا مفاوضة الملك على النزوح، وتم الاتفاق على السماح لهم بذلك. وقد قدر الملك نفسه عدد النازحين بقوله: «إنهم كانوا يغطون الطريق لمسافة خمس مراحل».

أما الأزرق، فإنه تابع نضاله في المنطقة الجبلية، ولقي عوناً كبيراً من أمير غرناطة، واستمرت ثورته ثلاث سنوات، أتعب فيها ملك أراغون، وأقلق راحته. ولما عجز الملك خايم عن اخضاع الثوار عمد الى الحيلة، فاتصل بالثائرين، واتفق معهم على هدنة لمدة معلومة، ثم أغرى أحد قادة الأزرق لبيع كميات من المؤن المدخرة في القلاع الثائرة، على اعتبار أن الهدنة تمتد الى ما بعد موسم المحاصيل، ومن الممكن تعويض هذه المؤن، حينما تنزل المحاصيل الجديدة. وانطلقت الحيلة على القائد المسلم، فباع كميات كبيرة من مؤن حصونه، ولما تأكد الملك من ذلك قام

بمهاجمة الحصون التي قلت مؤونتها، ولم تعد تستطيع احتمال حصار طويل الأمد .
فأخضعها، واضطر الأزرق بعد استسلام كثير من الحصون الخاضعة له، الى مفاوضة
الملك في أواخر عام ١٢٥٧، وتم الاتفاق على أن يسمح الملك له ولبن يريد من
الثائرين، بالانسحاب الى مملكة غرناطة، وأن يعفو الملك عن الآخرين الذين يريدون
البقاء في أرضهم .

٢٠٩ - ثورة العرب في مملكة قشتالة ١٢٦١ - ١٢٦٦ :

بدأ العرب يشعرون بثقل الحكم الاسباني عليهم، وأدركوا أن الاسبان لن
يتقيدوا بعهد ولا ميثاق، وأنهم لن يسمحوا لهم طويلاً بممارسة حرياتهم الدينية
والشخصية، فأخذ المقيمون منهم في منطقة الغرب، وجنوبي الأندلس، بالعمل سراً
على تهيئة ثورة تقوم في وقت واحد، في جميع المناطق، وتنادي بشعار ابن الأحمر أمير
غرناطة، وتعلن الانضمام الى مملكته. وبذلك يصعب على ملك قشتالة ضربها في
مهداها، واخضاعها كلها دفعة واحدة. وعلم سكان مملكة مرسية بالتأهب للثورة،
وكان قد نرح إليهم عدد كبير من مملكة بلنسية إثر الثورة التي قامت فيها، فاستشعروا
القوة والقدرة على الانضمام الى حركة الثورة في منطقة الغرب، إذا ما نشبت،
واضطروا ملكهم محمد بن هود على أن يشترك فيها برغم كرهه الشديد لابن الأحمر.

تمت جميع الاتصالات بين مدبري الثورة في طول المنطقة وعرضها، بسرية
تامة، فلم يشعر الاسبان بشيء مما يدبر ولذلك لم يتخذوا اهبتهم واستعداداتهم
لمواجهة الموقف. ولم يشعروا إلا والثورة تندلع في صيف عام ١٢٦١، والثوار ينقضون
على جميع الحصون في المنطقة الممتدة بين مرسية وشريش، ويقضون على مقاومة
الحاميات الاسبانية فيها؛ ويتسلمون زمام الأمور. ورفعوا علم غرناطة، وأعلنوا
انضمامهم الى سلطة ابن الأحمر، فأسرع ابن الأحمر في إرسال عدد من قادته وكبار ثقاته
الى هذه الحصون، لتنسيق أعمال الدفاع عنها.

كان ألفونسو ملك قشتالة في (شقوية)، حين بلغه خبر الثورة، فأرسل الى ابن
الأحمر يطلب إليه الاستعداد للاشتراك الى جانبه في اخضاع المناطق الثائرة. وكان ابن
الأحمر يتوقع مثل هذا الطلب وفقاً للمعاهدة المعقودة بينه وبين قشتالة، وهياً زده عليه .
وقد تضمن رده أن شعبه لا يمكن أن يسمح له بالقيام بدور في هذه المعركة، وقد

يضطره الضغط الشعبي الى اتخاذ موقف الى جانب الثائرين . وإنه إذا ما أقدم على شيء من ذلك فإنه قد يقدم عليه مكرهاً بالرغم من ارادته . ولم يرق هذا الجواب لآلفونسو، واعتبره اعلان حرب من جانب ابن الأحمر، فقرر الاعتماد على نفسه، وشرع في جمع الجيوش .

وبانتظار اجتماع الجيوش إليه، واتمام الاستعدادات، أمر الملك قادة الفرسان في مقاطعة الأندلس بالاغارة على أراضي مملكة غرناطة وازعاجها، وانتهى ما تبقى من عام ١٢٦١، بالاستعداد من الجانبين، وبالمناوشات الصغيرة . وأفاد الثائرون من هذه الفترة ففوقوا حصونهم، واستعدوا للمقاومة . وأدرك ألفونسو أنه سيتعذر عليه اخضاع الحصون جميعها دفعة واحدة، فقرر تأجيل الهجوم على منطقة مرسية، والالتفات الى منطقة الغرب . ولكنه رأى أن يستنجد بحميته دون خايم ملك أراغون طالباً عونه في مهاجمة مرسية، واشغال ثوارها، لثلا يضموا قواهم الى قوى ثوار الغرب . وقبل خايم المهمة بسرور لكيلا يسمح بامتداد نيران الثورة الى مملكة بلنسية الخاضعة له . وشرع كل منها يعمل من ناحيته .

وجه ألفونسو قواته كلها الى وادي النهر الكبير، وضرب الحصار حول مدينة شريش في أيار ١٢٦٤، واستمر الحصار ستة أشهر، أبلت فيه حاميتها أشرف البلاء . ولكنها اضطرت أخيراً أمام الضغط المتزايد عليها، وأمام نقص المؤن والأقوات والذخائر، الى المفاوضة لتقرير شروط الاستسلام، وتم الاتفاق بين الجانبين في ٩ تشرين الأول ١٢٦٤ . وكان مما تم الاتفاق عليه أن يسمح الملك للحامية وللثائرين بالانسحاب بأنفسهم، على أن يتركوا أموالهم وأملاكهم، دون أن يأخذوا منها شيئاً، فانسحب جميع السكان ولم يبق أحد منهم في شريش . أما ابن الأحمر فإنه لم يتمكن من تقديم العون للحركة، ولم يستطع أن يجد أهل مرسية، ولا أهل شريش، لأنه واجه في ذلك الحين عصياناً من حكام وادي آش، ومالقة، وقمارش، بحجة أنه لم يعرف أقدارهم، ولم يوفهم خقهم من الاحترام .

وأخذ الحكام الثلاثة المنشقون بالملك ألفونسو، عدو أمتهم وعدوهم، في هذا الوقت الخطير من تاريخ أمتهم في الأندلس، ودفعهم قصر النظر، وسوء الطوية، الى الاستمرار في الضغط على ابن الأحمر، حتى جمده الخوف تماماً، ومنعه من القيام بأي عمل يمكن أن يخفف الضغط عن الثائرين، فتركهم لمصيرهم . وبعد سقوط (شريش)، اتجه ألفونسو الى حصار المدن الأخرى فأخذت تسقط بيده تباعاً .

وكان دفاع حاميات مدن (أركوش) و(ليبريخا) و(شدونة) و(شلوكة) و(قادس)^(١)، طولياً عبيداً، ولكنها لم تستطع الصمود طويلاً وحدها، في مواجهة قوى إسبانية ضخمة، فاستسلمت الواحدة تلو الأخرى. وكانت قادس آخر مدينة تستسلم في الغرب، إذ سقطت عام ١٢٦٦. وكان الشيء الوحيد الذي استطاع الثوار الحصول عليه من الأسبان هو السماح لهم بالانسحاب بأنفسهم، والتخلي عن جميع ما يملكون من مال وعقار وماشية، إذ كان أخوف ما يخافه سكان المدن النائرة هو أن يفرض عليهم الرق، فانسحبوا إلى إفريقيا وإلى غرناطة.

٢١٠ - سقوط مرسية :

قبل خايم بالمهمة التي أوكلها إليه صهره ألفونسو، وتحرك بسرعة عام ١٢٦٣ نحو اليقنت فاحتلها، ثم احتل قرطاجة، وقد لاقت اليقنت معاملة أفضل من المعاملة التي لقيتها قرطاجة. وعلل المؤرخون سبب هذا التفاوت في المعاملة التي لقيتها البلدتان الثائرتان بأن الجيش الذي اتجه إلى (قرطاجة) كان مؤلفاً من قوات مشتركة من القشتاليين والأراغونيين، وكان القشتاليون أكثر عدداً ففرضوا قانونهم، وطردها المسلمين من المدينة، ولم يسمحوا لهم بأن يأخذوا غير منقولاتهم. أما الجيش الذي هاجم اليقنت فكان الجيش الأراغوني وحده، بقيادة دون خايم. وأراد خايم أن يجازي صهره على دسائسه حينما احتل الأراغونيون مدينة بلنسية. لذلك أراد إغراء المسلمين في مدينة (اليقنت) بحسن المعاملة، فقدم لهم شروطاً للاستسلام، أفضل بكثير مما يتوقعون، وأفضل مما لاقاه إخوانهم في (قرطاجة) و(الغرب)^(٢). وبعد احتلال (اليقنت)، أرسل الملك ابنه بيدرو، إلى مرسية على رأس جيش، فقاومتهم المدينة مقاومة عنيفة بأسلة، وردت جميع الهجمات التي قام بها

(١) هذه المدن هي اليوم:

أركوش (Arcos)، ليبريخا (Lebrija).

شلوكة (San lúcar)، شريش (Medina Sedonia).

اليقنت (Alicante).

(٢) ومقاطعة الغرب في جنوبي البرتغال اليوم (Aigarve)، مرسية (Murica).

المهاجون.. واستمرت مرسية في مقاومتها حتى عام ١٢٦٥ .
 ! حينما كانت القوات الأراغونية تحاصر مرسية ، كانت قوات أراغونية وقشتالية
 بحرى ، بخضع باقي المدن في منطقة مرسية بعد أن حاولت اغراءها بالعفو . ولما تم
 استسلام أكثر مدن المنطقة ، شرع الملك خايم في إخراج الحاميات القشتالية من هذه
 المدن ، ليضع مكانها حاميات أراغونية ، فبدأ صهره يقلق ، ويشك في أن خايم يعمل
 لحسابه الخاص ، وقدر بأنه سيضيع كل شيء إذا لم ينه الموضوع في أقرب وقت . لذلك
 شرع في الاتصال بابن الأحمر ، وحثه على التوسط لدى ثوار مرسية ليعودوا الى الطاعة .
 ومقابل ذلك تعهد الفونسو بأن يحمل حكام الحصون المنشقين على ابن الأحمر على
 التفاهم معه والعودة الى طاعته . وجرى لقاء بين ابن الأحمر والفونسو في قلعة ابن
 الوزير قرر مصير مرسية وسكانها بشكل نهائي إذ تنازل ابن الأحمر عن كل مطلب له
 ولأولاده في هذه المدينة ، وتعهد بأن يبذل جهده لاقناع الثوار بفتح أبواب المدينة
 للقشتاليين ، على أن يكتفي بنفي زعماء الثورة فقط ، وأن يعزل محمد بن هود ملك
 مرسية مع ضمان حياته ، ويُصب مكانه في الملك أخوه محمد أبو عبد الله (أبو جعفر) ،
 ويعاد الى تطبيق معاهدة الاستسلام السابقة ، دون انتقاص شيء منها . وتضمنُ
 للمسلمين حريتهم الدينية ، ويبقى على نظام الضرائب المتعارف عليه سابقاً بين
 المسلمين . ويترك ثلث ايراد الضرائب للملك العربي ، ولكن الذي حدث هو أن
 مرسية كان يحاصرها الجيش الأراغوني ، وقد بذل دون خايم جهده لاغراء السكان
 بالاستسلام إليه ، وحرص على عدم تخريب البساتين والمزارع حول المدينة ، لكيلا
 ينفر السكان منه . وأخيراً استسلمت المدينة إليه في ١٣ شباط ١٢٦٦ .

وتتضارب الأقوال حول ما حدث حين دخول الجيش الأراغوني الى مرسية ،
 والذي يبدو هو أن ملك أراغون فرض في أول الأمر ضريبة حرب على المدينة ، وسمح
 للحامية بالخروج ، واعطاها أماناً لمدة يوم واحد ، ثم نقض الاتفاق ، ووزع نصف
 المنازل بين فرسان جيشه ، وحصر العرب في حي (الرشاقة) (Arrejaca) ، كما يبدو
 أنه شك في إمكانه الاحتفاظ بالمدينة فسلمها الى صهره بعد أيام ، واكتفى بالاحتفاظ
 بخمسة من أفضيتها .

• وتقول الروايات الاسبانية إن الفونسو ترك الفرسان الأراغونيين والقطالونيين في
 البيوت التي سلمها إليهم ملكهم ، وعرض أصحاب البيوت العرب من حسابه
 الخاص .

وفي ٥ حزيران ١٢٦٦، صدر عن الملك الجديد محمد بن هود، أمر ملكي يقضي بأن يخلي المسلمون البيوت التي لهم في الحي المسيحي، وأن يخلي المسيحيون البيوت التي يسكنونها في الحي الإسلامي (حي الرشاقة)، وأقيم جدار فاصل بين الحيين، لمنع السرقات والتعديات والاصطدامات التي كان المسلمون يشكون منها. وبعد هذه الثورة أخذ ذكر بني هود يتلاشى شيئاً فشيئاً، ولم يعد يتحدث عنهم المؤرخون، وبقيت ادارة الحي العربي (الرشاقة) في مدينة مرسية بيد بني هود حتى عام ١٣٠٨م، إذ انتقلت بعد هذا التاريخ الى أيدي القشتاليين.

وهكذا انتهت هذه الثورة بالاخفاق، بعد أن دامت قرابة ثماني سنوات، وكان مقدراً لها النجاح لو أنها لقيت من بني الأحمر، ومن الممالك الاسلامية في شمالي أفريقيا، عوناً كافياً. ولكن خيانة حكام وادي آش ومالقة وقمارش، وإعلانهم العصيان على ابن الأحمر، بسبب أعداء وإهية، وعقدتهم معاهدة مع ألفونسو، شلت حركة ابن الأحمر، ومجده مكانه، فتمكن الاسبان من اخضاع المنطقة مدينة إثر مدينة. ولم ينته عصيان القادة على ابن الأحمر إلا بعد أن استنفد العصيان أغراضه، فأمرهم ألفونسو بأن يعودوا الى الطاعة فعادوا.

وكان من نتيجة هذه الثورة الفاشلة أن انسحب أكثر سكان منطقة الغرب المسلمين الى غرناطة وشمالي إفريقيا، تاركين كل شيء في الأرض التي خرجوا منها، فانقرض العنصر العربي في هذه المنطقة أو كاد.

٢١١ - الثورة الثانية في مملكة بلنسية (١٢٧٦ - ١٢٧٧):

لبث العرب هادئين في مملكة بلنسية ثماني عشرة سنة، بعد ثورتهم فظن دون خايم أن الأمور استتب له، وتقول الروايات الاسبانية إن الملك كان شخصاً مستنيراً، يدرك فائدة الاحتفاظ بوجود السكان العرب كيدٍ عاملة، ومادة للإنتاج، فسن قانوناً ضمن حياة المسلمين، وكفل لهم حرية محددة، ومنحهم حق الانتفاع بجزء صغير من نتاج عملهم، ولكنه استمر في معاملتهم كالبهاائم^(١). وبعد أن هدأت الأمور بدأ الملك يشعر بثقل الوعد الذي قطعه للبابا، وأقسم عليه أمام مذبح العذراء بأن يمحو العنصر العربي من مملكته.

(١) الكونت سيركورج ص ٢٢٨.

إلا أن البابا (كليمانت الرابع)، أخذ في ملاحقة الملك لابادة المسلمين، وأعلمه بواسطة أسقف بلنسية بأنه ملتمز أمام الله ، بأن يشن على العرب حرباً لا هوادة فيها ، وأن عليه أن يوجه اضطهاده وملاحقته الى المسلمين الموجودين في مملكته ، وأن يطهر أرضه منهم . وكان النبلاء تقوم استناراتهم الزراعية على أكتاف العرب ، لذلك كانوا يعارضون في اضطهاد العرب لكيلا يحملهم الاضطهاد على الهرب ، فتتعطل مصالحهم الخاصة .

وتجاه الضغط المتناوب الواقع على الملك قرر أن يبقي العرب حيث هم ، لكنه رفع عنهم حماية الدولة ، وتركهم تحت رحمة الأشقياء الذين بدؤوا يتخطفونهم ، ويبيعونهم عبيداً في سوق النخاسة ، تحت سمع الدولة وبصرها ، وهي لا تعارض تلك التصرفات ولا تستنكرها ، وذهبت شكاوى المسلمين واحتجاجاتهم على هذا الظلم الرهيب أدراج الرياح . ولما يؤس المسلمون من كل انصاف قرروا الثورة ، فلم يشعر الأراغونيون إلا والثورة تندلم فجأة في جنوبي نهر (شقر) في شهر آذار ١٢٧٦ ، واحتل الثائرون دفعة واحدة ٤٠ حصناً ومعقلاً ، وأرسلوا الى ابن الأحمر يستمدونه ويسألونه العون والنجدة .

كان الملك خايم في ذاك الحين في مملكة بلنسية ، ولكن لم تكن لديه قوات كافية يستطيع أن يخضع بها المنطقة الثائرة ، وقوات مملكة بلنسية تكاد لا تكفي لأكثر من مراقبة المناطق الثائرة ، ومنع المناطق الأخرى من الانضمام الى الثوار ، وقوات أراغون وقطالونيا ، التي أرسل الملك بطلبها ، لا يمكن أن تصل قبل مضي شهر ، فقرّر كسب الوقت ، وأخذ الأمر بالحكمة والمفاوضة الى أن يصبح في حالة أفضل : فأعلن للثائرين بأنه يمنح هدنة لجميع الحصون التي لا ترفع علم غرناطة . أما الحصون التي ترفعه فإنه سيهاجمها فوراً . وبالفعل فإنه شرع بها لديه من قوات بمهاجمة الحصون التي رفعت علم غرناطة ، وأخذ في إزعاجها ليمنع عنها المؤن ، وليمنعها من ترميم ما تخرب من حصونها . ولما تجمع لديه بعض القوات تحرك خايم في شهر حزيران الى شاطبة - مركز المنطقة الثائرة - وشرع في حصارها ، وهو يقصد بذلك قطع الاتصال بين القوات العربية المتمركزة في وادي شقر ، وبين القوات المتمركزة في جبال (أليقنت) . وفي أثناء ذلك وصلت قوات عربية من غرناطة ، ومتطوعة من إفريقيا بقيادة الأزرق - قائد ثورة بلنسية السابقة عام ١٢٥٤ - وبذلك أصبح المسلمون في مركز قوي يمكنهم من تهديد الجيوش النصرانية تهديداً خطيراً ، ولكن الأزرق قتل

غيلة وغدراً في كمين أمام حصن الكوي (Alcōy) فتسلم ابنه القيادة، ولكن هذا قتل أيضاً في كمين وبذلك حرمت الثورة من خبرة الأزرق وكفائته وقدرته على جمع الكلمة، ولم يفت مقتل الأزرق وابنه في عضد الثورة، فقد باغت الثائرون حامية قلعة الكوي، في كمين نصبوه لها. وقضوا عليها تقريباً، فبقي الحصن بلا قوة تدافع عنه. واندفع المسلمون إثر ذلك يقتحمون المسالك والممرات الممتدة جنوبي نهر شُقر، وسيطروا عليها، وزحفت جموعهم شيئاً حتى بلغوا أسوار بلنسية، وتصدت لهم قوة من فرسان (منظمة مونترال) في وادي البيضاء فهزموها هزيمة منكرة، وقضوا على أكثر رجالها، وساءت حالة جيوش أراغون، ولم يبق لديها عدد كاف للدفاع عن شاطبة.

وحينما كانت الثورة في أوجها مات ملك أراغون خايم الأول في ٢٧ تموز ١٢٧٦، وأوصى ابنه أن يتابع الحرب ضد المسلمين إلى أن يقضي عليهم ويبيدهم، وطلب أن يترك جثمانه مسجى في كنسية بلنسية إلى أن تنتهي الحرب. وتسلم بيدرو زمام الأمور، ولكنه لم يعمل بما أوصاه به أبوه، وإنما شرع في مفاوضات رؤساء الثورة، وكانوا أربعة، واتفق معهم على هدنة مدتها ثلاثة أشهر، إلا أنه استثنى من الهدنة ستة حصون قدر أنه يستطيع إخضاعها في فصل الخريف، إذا ما أئلف ما حولها مما تتمون به.

غادر بيدرو شاطبة في شهر آب إلى سرقسطة، حيث توج فيها بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٢٧٦، وبقي في أراغون يدبر أمور المملكة حتى نيسان ١٢٧٧، ولما عاد إلى بلنسية في شهر نيسان، أعد عدته لمهاجمة الحصون الستة، التي استثنائها من شروط الهدنة، فهاجمها، وأئلف ما حولها من مزروعات، ومصادر القوت والمؤن. ولم يكن في هذه الحصون كميات من المؤن تكفيها لمدة طويلة، لذلك لم تجد حاميتها بدءاً من الانسحاب. وقد قدر مجموع ما فيها من الرجال بثلاثين ألفاً، انسحبوا مع عائلاتهم إلى حصن (مونثيسا). وكانت (مونثيسا) موقعاً حصيناً لكن اتصاله مع من حوله صعب، كما كان يصعب تأمين المؤن له. وكان الملك بيدرو ينتظر اجتماع الثوار في هذا الحصن ليعيط بهم ويقضي على الثورة دفعة واحدة، إلا أنه خاف من وصول قوات مغربية لنجدة الثوار.

وأراد الملك أن يقضي على الثورة قبل أن تصل النجدات، فهاجم الحصن بعنف، لكن حاميته التي كان يذكي حماسها ما تنتظره من وصول النجدات المغربية إليها، وخوفها من الانتقام منها، كانت تدافع ببسالة فائقة، وحماسة كبيرة، فلم

يستطيع الملك أن يحقق أي نصر عليها، لذلك قسم قواته بشكل يستطيع معه محاصرة الحصن ورد القوات المغربية إذا وصلت لنجدة الثوار. وبقي الحال كذلك الى آخر شهر أيلول ١٢٧٧، وحينئذ تأكد الملك أن ملك مراکش مشغول عن الثوار بأموره الداخلية، وأنه تركهم لمصيرهم، فعاد الملك وجمع قواته وشن بنفسه هجوماً على هضبة (مويلا) (Muela) التي تشرف على الحصن، والتي تعتبر مفتاحاً (لمونتيسا) (Mon-tesa)، فقابله المدافعون بجرأة وبسالة واصرار على المقاومة، ولكن الملك أصر على التقدم، تتبعه صفوة مختارة من جنده، واستمر في زحفه الى أن تمكن من احتلال الهضبة بعد أن تقطع درعه وسيفه، وكان ذلك في يوم ٢٩ أيلول ١٢٧٧.

وتقول الرواية الاسبانية إن هذا الهجوم الصاعق، أربب الثائرين فلم يفكروا في الانسحاب الى مونتيسا، والدفاع عنها وطلبوا الاستسلام دون املاء شروط، فوافق الملك على نزع سلاحهم ولم يعاقبهم، ووزعهم على المملكة لاعمارها، خلافاً لما أوصاه به أبوه من اباداة جميع المسلمين والقضاء عليهم في مملكة بلنسية. وبعد استسلام مونتيسا، اضطرب أمر الثورة وأخذت في الاضمحلال والتلاشي.

٢١٢ - ثورة غرناطة عام ١٤٩٩:

عينت الملكة ايزابيلا عام ١٤٩٥ قسيساً يدعى (فرانسيسكو خيمينس دو سيسنيروس)، كردينالا في طليطلة. ثم توسط خيمينس هذا لدى الملكة، فعينت صديقه القسيس (دي ديسا) (De Dassa) عام ١٤٩٨م، محققاً عاماً، ومعرفاً للملكة. وعن طريق هذا الصديق اصبح خيمينس مسيطراً على ديوان التحقيق. وفي عام ١٤٩٩م، استدعت الملكة خيمينس الى غرناطة ليتولى أمر المسلمين فيها، فباشر هذا باجبار المسلمين على التنصر. واحرق مليون كتاب عربي (على ما نقوله الروايات^(١)). وأخذ في محو اللغة العربية، واضطهد رجال الدين المسلمين. إلا أنه بالرغم من جميع الجهود التي بذلها خيمينس، فإنه لم يتوصل الى النتيجة

(١) يقول الكونت سيركور أن بعض الروايات قدرت ما احرقه الكاردينال بحوالي ٣٠٠, ٠٠٠, ١ كتاب (ج ٢ ص ٤٢).

التي كان يحلم بها، إذ بقي إقبال الناس على التنصر محدوداً. ولكن خيمنس كان يريد مجدداً رخيصاً، فأله فشله، وزاد حقه على المسلمين، وخصوصاً على العائلات التي كانت مسيحية منذ وقت قريب قبل سقوط غرناطة ثم تحولت إلى الإسلام. وكانت ترفض العودة إلى النصرانية مما كان يثبت أنها إنما تحولت إلى الإسلام عن عقيدة وقناعة بمبادئه وسمو تعاليمه، دون إكراه من أحد. ولهذا فقد قرر خيمنس أن يلجأ إلى العنف ليسترفشله في اقناع المسلمين بترك دينهم واعتناق النصرانية.

٢١٣ - اجتهد غريب لمحاكم التفتيش:

كانت دواوين التحقيق (محاكم التفتيش) تأخذ باجتهد غريب، سبق أن توصلت إليه، وأصبح جزءاً من القانون الذي تحكم بموجبه في الدعاوى المعروضة عليها. وهذا الاجتهاد يعتبر أبناء المرتدين عن النصرانية، واحفادهم، وانسابهم جميعاً، مرتدين مثل الآباء، ومرتكبين لجريمة الارتداد، التي تطولها ملاحقات ديوان التحقيق، ويخضعهم لنفس العقوبة التي ارتكبوها جدهم المرتد الأول. فتذرع خيمنس بهذا الاجتهاد غير المنطقي، وأراد أن يطبقه على المسلمين في غرناطة، على اعتبار أن آباءهم وأجدادهم كانوا مسيحيين تابعين للكنيسة، وبأن الأحفاد يرفضون العودة إلى المسيحية، بعد أن نصحهم، ووعظهم، وذكرهم بأصلهم المسيحي، فقد اعتبرهم هم أيضاً مرتدين. ووجد الكاردينال من هذا الباب منفذاً يتوصل منه إلى خرق بنود معاهدة غرناطة، وإلى إرواء حقه. وإطفاء نار ثورته على أولئك المسلمين العنيدون، الذين رفضوا دعوته واحبطوا مسعاه.

٢١٤ - رد المسلمين:

ولكن المسلمين ذوي الأصول المسيحية الثابتة، ردوا بأن آباءهم دخلوا منذ سنين طويلة في الإسلام، طوعاً ودون ضغط أو إكراه لما رأوه فيه من تسامح، وأن الأبناء نشؤوا على الإسلام، ولا يعرفون لهم ديناً غيره. وإذا جاز العودة إلى الأصول والأجداد، لبلغ الأمر بالإنسان الوصول إلى ما قبل المسيحية، يوم كان الناس كلهم

وثنيين. وإذا فالدين المسيحي طارىء على الاسبان مثل الدين الاسلامي، لا فرق بينهما الا في عدد السنين. وإذا سمح الانسان لنفسه بالرجوع الى سجلات التاريخ، للبحث فيها عما كان عليه كل واحد، لتوصل الى اشياء سخيفة وغير منطقية. وعلى كل حال فإن معاهدة غرناطة كانت صريحة في هذا الصدد، وهي تحمي الاشخاص الذين كانوا هم أنفسهم نصارى ثم أسلموا، وما زالوا يوم توقيع المعاهدة أحياء. وهذا يدل على أنه كان هناك كثير من المسيحيين قد أصبحوا مسلمين بمحض اختيارهم وارادتهم، وهم يصرون على البقاء على الإسلام، لذلك جاء في المادة ٣١ من معاهدة غرناطة: «تقرر واتفق على أنه إذا أصبح أحد من النصارى - رجلاً كان أم امرأة - مسلماً قبل توقيع الاتفاق، فلا يستطيع أحد من الناس شتمه أو اهانهه بأي شكل كان. وإذا فعل أحد ذلك فإنه يصار الى معاقبته من قبل سموهما (أي من الملكين)». ولكن هذه الردود لم تقنع الكردينال المتعنت، وأصر على الملاحقة.

٢١٥ - انتهاك الحرم في حي البيازين والثورة:

بدأ أعوان خيمنس بملاحقة العائلات الكثيرة، ذات الأصول المسيحية المعروفة في غرناطة، وقبضوا على كثير من الرجال والنساء، وزجوا بهم في السجون. وكان هناك مفوض للشرطة يدعى (باريو نويغو) فظ غليظ القلب، قاسي التصرف، أساء معاملته المسلمين فكرهوه. وقد دخل في يوم من أيام عام ١٤٩٩ حي البيازين للقبض على إحدى النساء المسلمات، وكانت هذه السيدة ابنة رجل سبق له أن اعتنق الإسلام، ثم تزوجت رجلاً مسلماً، وأصبح لها بنون وبنات منه. فطرق المفوض المذكور الباب، هو وتابع للكردينال، وقبضوا عليها وعلى أولادها واستاقوهم جميعاً بالقوة والاكراه أمامهم الى السجن. فتجمع الناس في الحي، حول هذا المشهد المؤلم، الذي لم يعرف العرب مثله، وانطلقت استغاثات المرأة طالبة من إخوانها حمايتها من هذا الاعتداء الصارخ المهين من المفوض، ومن القسيس تابع الكردينال، وتدخل المسلمون محاولين حمل المفوض وصاحبه على ترك المرأة وأولادها، لأنها لم ترتكب جرماً، ولم تقترب إثماً. ولكن المفوض وصاحبه رداً عليهم رداً عنيفاً وهددهم بالويل والثبور، فحدثت مشادة، رمى فيها أحد المسلمين المفوض بحجر فقتله، وهرب القسيس وطلباً الى أحد بيوت المسلمين، فاختفت السيدة المسلمة صاحبة البيت تحت

سريها، وانقذته من الموت. وأثر ذلك سرت الثورة في نفوس المسلمين، وانطلق الناس يتنادون الى السلاح من أجل الحفاظ على امتيازاتهم، ودينهم، وحريتهم. وأسرع المسلمون فاحتلوا ابراج حي البيازين والقصبة، وأقاموا المتاريس بسرعة. وقبل أن يعرف القائد العام (دو تانديلا) بما حدث في البيازين، كان المسلمون قد سيطروا على الموقف في منطقتهم.

ولما أقبل الليل، قدر القائد العام أن المسلمين سيهاجمون الكردينال، مشعل الفتنة ومسيبها، وكان يقيم في قصر محصن، من حي (هنارس)، فأرسل إليه مفرزة من الجند لتصبه الى الحمراء حيث يكون في مأمن من الاعتداء عليه فرفض الكردينال التحرك من بيته، وتظاهر بالطولة، قائلاً إنه يريد الفوز بالشهادة. وفي الليل هاجمه المسلمون، وحاصروا بيته، ولكن البيت كان جيد التحصين، وفيه عدد وافٍ من الجند المدافعين عنه، واستمر القتال طوال الليل حول البيت. وفي الصباح أدرك الكردينال أن الموضوع جد، فهرب الى الحمراء، ولم يعد يفكر في أجر الشهداء بعد أن رأى أشباح الموت تطوف فوق رأسه^(١).

كان القائد العام للجيش يدرك أن قوة المسلمين أكبر من قوته ففضل أخذ الأمر بالحكمة، كسباً للوقت، وشرع في مفاوضة الثائرين، ريثما تصله القوات التي أرسل بطلبها على جناح السرعة. وأرسل الى حي البيازين ترسه كتعبير عن رغبته في السلم. وأسرع المسلمون بتنظيم أنفسهم، وانتخبوا أربعين شخصاً من بينهم لتولي الادارة، والقيادة، وبدؤوا بترميم ثغرات حصونهم. وسرعان ما انضمت الى الثائرين قوات كبيرة تجمعت من كل مكان حول غرناطة، وأصبحوا على أهبة الاستعداد، ولكنهم لم يتخذوا المبادهة، ولم يباشروا الهجوم على الاسبان. وقابل عدد من الزعماء المسلمين والفقهاء القائد العام، فشرح لهم الأخطار التي تتهددهم، وتهدد عائلاتهم، إذا ما استمروا في ثورتهم، ورفضوا الخضوع قبل أن يصل الجيش الذي سيرسله الملك. ورد عليه الفقهاء، شارحين التعديلات التي وقعت عليهم، والتجاوزات التي قام بها خيمس وأعوانه، على حرياتهم الدينية وعلى نصوص المعاهدة التي وقعها الملكان، وأقسماً على احترامها هما وأنسألهما؛ وقالوا له إنهم لا يخشون شيئاً من جانب الملك، لأنهم غير ثائرين عليه، وإنما يدافعون عن شرف كلمته وتوقيعه. وكل ما يطلبون هو

(١) سيركور ج ٢ ص ٤٧.

الحفاظ على بنود المعاهدة . أما السلاح الذي بأيديهم فإنهم مستعدون لوضعه حينما ينصفهم الملك ومثلوه . وأدرك القائد بإنصافه ، أن المسلمين على حق ، وأن تصرفات الكردينال وعناده هما أساس الفتنة ومبعثها ، فاعلن لهم أنه يتفق معهم في الرأي ، لكنه لا يستطيع أن يعدهم بشيء ، لأنه يعلم أن السيد الحقيقي في غرناطة هو خيمنس ، بحكم مركزه الديني ، وسيطرته على الملكة .

كان الملكان في أشبيلية في ذلك الحين ، قد بلغتهما أنباء الثورة ، وتلقى الملك تقارير عنها وعن أسبابها . فاستاء كثيراً ، وعنف الملكة وقال لها : أنت التي أتيت بهذا الرجل الى غرناطة ، وإنه سيضيع في يوم واحد نتائج حرب دامت عشر سنين . فكتبت الملكة الى خيمنس تعنفه بلهجة جافة ، وتلومه على حماقته ، وسوء تصرفه .

وأراد خيمنس أن يأخذ المبادرة ، فكتب الى الملكة كتاباً مطولاً - قبل أن يصله كتابها - عرض فيه الأمر بالشكل الذي يوافق أهواءه ، وكلف حامل الرسالة بأن يسرع في الوصول الى أشبيلية ، وأن يسلم الكتاب الى الملكة شخصياً ، أو الى سكرتيرها (المازن) وهو شخص نشأه خيمنس ، وله عليه دالة وتأثير . وكان خيمنس يقدر أن رسالته ستصل الى الملكة ، قبل أن تصلها أنباء الثورة من مصدر آخر ، فيكون لرسالته التأثير الأول في نفس الملكة . ولكن كتابه تأخر في الوصول ، وأنباء الثورة وصلت الملكين قبل وصوله ، فتهيات افكارهما ضده .

٢١٦ - خيمنس يعترف بأنه دفع العرب للثورة :

ولما وصل تعنيف الملكة لخيمنس ، أدرك أن الأمور لم تسر بالشكل الذي يريد . وإنجاحاً لخطته أرسل قبله راهباً الى البلاط في أشبيلية ، يمهّد السبيل أمامه ، ويعرض الأمور بشكل مناسب ، يخفف ثورة الملكين والبلاط عليه . ثم وصل خيمنس واجتمع الى الملكة ، وشرح لها الأمر ، وقال لها إن الحوادث لم تسبقه ، وإنما هو الذي تصرف بهذا الشكل ، ليقع ما وقع . وذكر للملكة أنه أخفى متعمداً برأيه عنها لكيلا ترفضها . ثم بين لها النفقات الضخمة التي أنفقها لفتن المسلمين عن دينهم ، واغرائهم بالتحويل الى النصرانية ، وهو ما يعتقد أنه يخدم الرب . وأكد لها أنه تعمد أن يضع العرب في حالة الثورة . وأن هذه الفرصة هي أجل وأساعد فرصة لانتمام العمل الجليل الذي كان يسعى إليه ، ألا وهو اجبار الناس على النصر . وهم الآن خارجون

عن القانون، واثثرون على الملك؁ ولذلك يثثرون بين حكف القضاء عليهم كئاثثرين؁ وبين الرحمة ويكون سبيلها قبول تلقي العماء (أي التنصر). وقء أثرت هذه الحجة في نفس الملكة؁ وأخذت على عاتقها أمر اقناع الملك بها؁ وأخيراً وافق الملكان على المخطط الذي وضعه الكاردينال. واستبقى الملكان خيمنس في اشبيلية؁ وأرسلوا من قبلها شخصاً مكلفاً بتولي محاكمة من لا يريد التنصر من الئاثثرين.

٢١٧ - سير الأمور في غرناطة بعد سفر خيمنس :

بعد أن سافر خيمنس الى اشبيلية؁ ظهر كردينال غرناطة (تالافيرا)؁ وأخذ يتصل بالمسلمين ثم توجه الى حيهم في اليوم العاشر للئورة؁ ودخل المناطق العربية المحصنة؁ وتجول بين الئاثثرين؁ وتحدث معهم في العودة الى الطاعة والهدوء ثم استءعى الكونت ءونانءيلا؁ فوصل إليه مع بعض الجنوء؁ ولما استءء العرب للمقاومة؁ القى الكردينال قبعته الحمراء على الأرض تعبيراً عن الرغبة في السلام؁ فهدؤوا.

باءت المفاوضات بين الجانبين؁ وتوصلا الى اتفاق وضعت شروطه في نفس الجلسة؁ لأنه لم يكن هناك تباعد في وجهات النظر؁ وقبل الجانب الاسباني اعتبار الئورة انقضاة في سبيل الحفاظ على كلمة الملكين؁ أي عهودهما؁ والءفاع عنها؁ وأن تحتفظ المعاهدة بكل قوتها ومفعولها؁ كأنه لم يحدث شيء. وتم الاتفاق على أن يسلم المسلمون قاتل مصوء الشرطة؁ ويعودوا فوراً الى بيوتهم؁ بعد رفع الءواجز من الطرقات؁ واعاءة كل شيء الى ما كان عليه. وكضمان لتنفيذ هذا الاتفاق؁ أو الوءء من الجانب الاسباني؁ قءم الكونت ءونانءيلا زوجته وأبناءه؁ ليكونوا رهينة تحت اشراف المسلمين. وسلم المسلمون من جانبهم جميع من اشترك في مقتل مفوض الشرطة؁ فاحتفظ القاءء العام بأربعة منهم؁ وأطلق سراح الباقين. وعاء الناس الى حياتهم المعتاءة؁ ورفعت الءواجز؁ وانتهى كل شيء.

٢١٨ - نقض الاتفاق واءبار المسلمين على التنصر:

ولكن الملكين ومرسلها؁ لم يقبلوا بما تم الاتفاق عليه؁ ولم يحترموا كلمة

الكاردينال (تالافيرا)، ولا كلمة القائد العام، واصروا على أن يغير العرب بين العباد وبين العقاب، فعادت روح الثورة والتمرد، وتعالى لدى المسلمين، وخشي الملكان العاقبة، فعدلا الأمر وجعلاه الخيار بين الهجرة من البلاد، وبين التنصر. وقد أصيب المسلمون بخيبة أمل من جراء اصرار الملكين على عدم قبول الاتفاق، ولكنهم مع ذلك أعادوا الرهائن الى القائد العام، مقدرين موقفه النبيل. وهرب الممثلون الأربعون الذين انتخبهم سكان غرناطة، إبان الحوادث الاخيرة للعمليات، بعد أن أصبحوا معروفين لدى السلطات الاسبانية، والتجسس على البشرات، وانضموا الى عصابات المنفيين، يثبون روح الثورة في المنطقة، ويشجعون النكير على النصارى. ونتيجة لاصرار الملكين على رأيها، هاجر كثير من المسلمين الى افريقيا نجاة بدينهم، أما الآخرون فبقوا حيث هم منتظرين نتائج مجهود قادتهم، في اشعال الثورة، في البشرات.

٢١٩ - ثورة البشرات :

انضم الهاربون من غرناطة الى عصابات المنفيين في البشرات، حتى أصبح عددهم في أواخر عام ١٤٩٩، قرابة ١٥٠٠ رجل. واتخذوا مدينة قولجر (Gujjar) الحصينة الواقعة في سفح جبل الثلج، قاعدة لهم. ومنها بدؤوا يقومون بهجائهم على الحاميات النصرانية في مرج غرناطة. وكلما حقق الثائرون نصراً، أو أوقعوا بالحاميات الاسبانية هزيمة، شدد ذلك من عزائم إخوانهم في غرناطة والمناطق الأخرى، ودفع بهم الى الانضمام الى الثائرين بغية الانتقام من الظالمين. وفي مطلع عام ١٥٠٠، فوض الملك القائد العام، بمهاجمة مركز المنفيين، في قولجر، فجمع دوتانديلا قوات كبيرة وسار بها في دروب وعرة صعبة المسالك، حتى وصل أمامها. ولما شعر الثائرون بحركة الجيش الاسباني فتحوا أقنية المياه على الأرض التي يحتلها الجيش فاغرقوها، ولم تعد. تستطيع الخيل الجولان والحركة، وحينئذ انقض الثائرون على الأسبان ونشبت معركة عنيفة، تكبد فيها الإسبان الخسائر. ولكن الجيش كان أكثر عدداً وعدة من الثائرين، وكان يملك الأسلحة النارية، وبعد قتال مضمّن طويل، اضطّر العرب الى التراجع والانسحاب، فدخل الاسبان المدينة، وقتلوا جميع من فيها من نساء وأطفال وشيوخ. أما المحاربون فقد لجأ قرابة ٢٣٠٠ شخص منهم الى حصن قائم فوق

صخرة، واعتصموا فيه. ولكن لم تكن لديهم أقوات كافية، وكان عددهم كبيراً، فلاحقهم الاسبان وأحاطوا بهم، ثم بدؤوا في مهاجمة الحصن، ودافع الثائرون دفاعاً مجيداً وردوا جميع الهجمات التي شنت عليهم، مكبدين العدو أفدح الخسائر. ودام الأمر كذلك بضعة أيام، حتى اضطهرهم الجوع والعطش الى مفاوضة كونت (تاندبلا)، لانقاذ أنفسهم من الهلاك. وكان كل ما استطاعوا الحصول عليه هو ضمان حياتهم فاسترقهم الاسبان.

٢٢٠ - اندلاع الثورة في مناطق اخرى من البشرات عام ١٥٠٠ :

عمل القادة الغرناطيون على تحريك الثورة في نفوس رجال البشرات الاشداء، واقتنعوهم بأن السكوت على الضغط الذي يمارسه الاسبان، وعلى الخرق المستمر لبندو معاهدة غرناطة، سيضعهم على التهادي في غيهم، وعلى تمزيق ما تبقى من بندو المعاهدة، وسيؤدي الأمر بالاسبان الى إجبار عرب البشرات والمناطق الأخرى على التنصر، كما فعلوه في غرناطة. ويبدو أن محنة العرب في الأندلس، في ذلك الحين، حركت ضباط اخوانهم في المشرق، الاتراك العثمانيين، وحكام مصر، فقدر الأندلسيون أن تصلهم نجات تساعدهم على استرداد حقهم، لذلك أقنع القادة رجال البشرات بأن القيام بثورة قوية وناجحة، ووصول نجات من مصر وتركيا، يمكن أن يؤدي الى أفضل النتائج فيما يتعلق بتحسين وضعهم.

وفي أوائل عام ١٥٠٠م، اندلعت نيران الثورة، واستولى الثائرون على ثلاثة حصون واقعة على ساحل البحر المتوسط هي : (أدرا) و(كاستل فيروه) و(بونبول)، واصبحوا يهددون المرية. وعلى الفور تحركت قوة اسبانية قوامها ٥٠٠٠ رجل الى (مارشينا)، الواقعة وسط الجبال، للمحافظة عليها، ومنعها من الوقوع في أيدي المسلمين، إذ كان الاسبان يخشون أن يؤدي سقوط (مارشينا) بيد الثوار، الى امتداد الثورة الى جميع المناطق، وحينئذ يتسع الخرق ويصعب رتقه.

لم تكن لدى القائد العام قوات كبيرة يستطيع أن يوجهها الى قتال الثائرين فأرسل الى الملك يستنجد به، وبعد قليل وصل الملك الى غرناطة (في ٢٧ كانون الثاني ١٥٠٠)، وفكر في طريقة يحطم بها تضامن المسلمين، ويضعف حركتهم. فأخذ في مفاوضة المسلمين، مبدياً لهم بعض الاعتدال، وحثهم على الهجرة الى افريقيا، وعين

شخصاً من قبله يسهر على أمن المهاجرين وسلامتهم . وكلف أناساً من قبله بمرافقة المراكب العدة لنقل المهاجرين ، وأمرهم بأن يحصلوا من سلطات الموانئ الأفريقية التي ينزل فيها المهاجرون على وثائق تشهد بأن المهاجرين قد وصلوا سالمين لم يقع عليهم في الطريق عنف ولا ازعاج وقد نجحت الحيلة ، إذ شجع ذلك الأغنياء على الهجرة الى افريقيا، وبقي الضعفاء والفقراء بدون قادة ، فضعف شأنهم ، وظهر الخلاف بينهم . وهذا ما كان يريده الملك .

كان الملك قد استدعى قوات كبيرة لتجتمع إليه حول غرناطة في ٢٥ شباط ١٥٠٠ ، ووضع خطة فكر في تطبيقها بعد وصول القوات إليه ، وبعد أن يكون قد أضعف الثورة ، وافقد الثائرين ثقتهم ببعضهم ببعض . وفي أواخر شباط تجمع للملك ٨٠ ألف رجل و ١٥ ألف فارس . كما اجتمع إليه جيش آخر في المرية بقيادة زوج ابنة الملك فرناندو غير الشرعية . وتقوم الخطة التي وضعها الملك على أن يتحرك جيش المرية الى المناطق الشرقية من البشرات ، ويتحرك الملك الى الجهة الغربية من المنطقة الجبلية . وأدرك الثائرون أبعاد خطة الملك فاسرعوا بتحصين مدينة (أندرش) ، التي تسيطر على مداخل البشرات في الشرق ، وتحصين مدينة (لانخارون) التي تسيطر على مداخل البشرات من الغرب ، ووضعوا في هذا الحصن ثلاثة آلاف رجل للدفاع عنه . وإقاموا حاميات قوية في القلعتين الحصينتين ، قولجر و (بلش ابن عبد الله) . ولكنهم أهملوا مراقبة (جسر الطبلات) ، الذي يعتبر الممر الوحيد الموصل الى جبال (لانخارون) . ولما علم الملك بالتدابير التي اتخذها العرب ، تحرك في أول آذار وعبر جسر الطبلات دون أن يشعر به أحد ، وساء في دروب ملتوية ، فلم يشعر المسلمون إلا والجيش قد أصبح فجأة أمامهم فوق (لانخارون) . وفي نفس الوقت ظهرت قوة أخرى بقيادة الكونت دوليرين (Lerín) ، أمام قلعة (لانخار أندرش) ، وبدأ الهجوم في ٤ آذار على القلعتين في وقت واحد . وتشب القتال ودافع المسلمون في المدينتين دفاعاً مجيداً ، وأظهروا كثيراً من الشجاعة والجلد . ولكن الاسبان كانوا يفوقونهم عدداً وعدة . وبعد قتال ضار اقتحم الاسبان مدينتي (لانخار) وأعملوا فيها القتل والسبي والنهب ، واضطر عدد كبير من الأطفال والتسلسه والشيوخ الى الالتجاء الى جامع المدينة ، فأمر الكونت (دوليرين) بنفسه ، فهندم البناء فوق رؤوسهم ، ولم ينج منهم أحد ، وقاومت (لانخارون) مدة أطول ، ولكن فعل المدفعية والأسلحة النارية ، والتفوق العددي ، اضطرا المسلمين الى طلب

المفاوضات . ولما رأى قائد القوات العربية المدافعة عن (لأنخارون) رجاله يوقعون وثيقة الاستسلام ، فضّل الموت وقذف بنفسه من فوق السور فمات .

وأفضت المفاوضات إلى توقيع اتفاق بين الجانبين ، تعهد بموجبه الثائرون أن يكون التوقيع باسمهم واسم جميع أهل البشرات ، واشترط عليهم الملك أن يسلموا ٣٠ رهينة ، وأن يسلموا أسلحتهم والقلاع التي بأيديهم ، وأن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى ، وأن يعيدوا شراء من سبق أن باعوه من النصارى إلى القرصان الافريقيين . ورتب عليهم دفع مبلغ ٥٠ ألف دوكات من الذهب على قسطين . ولم تشر الاتفاقية الجديدة إلى موضوع معاهدة غرناطة ، ولا إلى تلقي العماد . وبعد أن نفذ المسلمون شروط الاتفاق ، انسحب الملك إلى اشبيلية حيث كانت الملكة تنتظره . وكانت الملكة قد أعدت برنامجاً لتنصير عرب البشرات ، ويقوم برنامجها على إرسال القسس المبشرين إلى البشرات ، مع تعليقات واضحة بأن يستعملوا جميع الوسائل لانجاح مهمتهم .

ويقدر المؤرخون الغربيون^(١) ، أن استعمال العنف كان هو الطريقة الوحيدة التي أخذ بها المبشرون ، لأنهم حققوا في وقت قصير نجاحاً كبيراً بين أناس وضعوا السلاح منذ قليل ، بعد أن ثاروا دفاعاً عن دينهم . وفي أواخر تموز ١٥٠٠ وصلت الملكة إلى غرناطة ، لتشرف على سير عمليات التنصير ، وليدفع وجودها بالحركة إلى الأمام ، وتقول الرواية الإسبانية إنه تمّ خلال ثلاثة أشهر ، تعميم جميع سكان البشرات ووادي آش والمرية وبسطة .

٢٢١ - ثورة منطقة المرية عام ١٥٠٠ :

بعد أن انتهى القسس من مهمتهم في تعميم سكان البشرات ، تلقوا الأمر بالاتجاه إلى منطقة المرية ، وجبال (فيلابرس) ، ليباشروا أعمالهم هناك . وكان القسس يستعملون وسائل العنف فدفعوا الناس إلى الثورة ، وطرد الثائرون القسس ، وبلغت الثورة أشدها في شهر تشرين الثاني ١٥٠٠ ، بعد أن احتلوا جميع الحصون التي تحمي المنطقة الجبلية وتدافع عنها . وكان سكان وادي المنصورة المجاورة لمنطقة الثورة

(١) الكونت سيركورج ٢ ص ٦٥ .

ينتظرون تطور الموقف، ليقرروا مايفعلونه : إما حمل السلاح مع إخوانهم الثائرين، وإما الخضوع في حال إخفاق الثورة السريع . ولكن الملك أسرع بإرسال قوات كبيرة إلى المنطقة الشائرة، تحت إمرة أحد قواده، وكلفه بمهاجمة معاقل الثوار. فاتجهت القوات الرئيسية إلى مدينة (بلفيق) التي تتجمع فيها قوات الثائرين الأساسية . وكان بين القوات المتجمعة في (بلفيق)، عدد من رجال عصابات المنفيين، وعدد من المتطوعة الأفريقيين، فأذكوا نار الحماسة في الناس، وشدوا من عزائمهم، ورفعوا معنوياتهم، واستماتوا في الدفاع، إذ كانوا لاينتظرون رحمة ولا شفقة إن وقعوا بيد الإسبان . وقاتلت القوات الشائرة قتالاً عنيداً، وألحقت بالجيش الإسباني هزيمة منكرة . ولكن ثلاثة من الفرسان تمكنوا من جمع شتات الجيش، وعادوا بها لحصار بلفيق . واستمر القتال عدداً من الأيام، نضب خلالها الماء، وقُلَّ القوت في المدينة، وأجهد من فيها الجوع والعطش، فاضطروا إلى المفاوضة . ولم يقدم لهم الإسبان أي شرط، وإنها تركوا الحكم للملك، وسمحوا للثائرين بالتزود بقليل من الماء، لقاء تقديم ٢٠ رهينة .

وأدرك المنفيون والقرصان أنه لم يبق هناك أمل، وخشوا من الوقوع بيد الإسبان، فتسللوا ليلاً منسحين من المدينة، فأضعف ذلك عزيمة الثوار، وجعلهم في وضع محرج للغاية . فاضطروا إلى الاستسلام على أن يكونوا تحت رحمة الملك وحكمه . ولكن رحمة الملك قضت بأن يقتل الرجال، وتسبى النساء والذرية، وتصادر الأموال . وكان هذا العقاب الرهيب سبباً في إجبار ١٨٠٠٠ شخص في منطقة فيلابرس ونهر المنصورة على الخضوع وقبول العمد .

٢٢٢ - ثورة عام ١٥٠١ :

لما انسحب الجيش الإسباني من منطقة المرية، في ١٤ كانون الثاني ١٥٠١، اندلعت نيران ثورتين .

١ - ثورة قام بها سكان ثلاث من قرى وادي المنصورة، فطردوا الرهبان المبشرين، وأعلنوا تمسكهم بدينهم الإسلام . فأسرع قائد المنطقة الإسباني بقواته، وتمكّن بقليل من الجهد من إخضاع الثائرين .

٢ - وثورة أخرى اندلعت في (أدرا) على ساحل البحر الأبيض، فهاجمها الجيش الإسباني، وحاصرها حصاراً شديداً . وقاوم الثائرون مقاومة باسلة . ولما طال أمد

الحصار بدأ المدافعون يتناقص عددهم ، من ويلات الحرب ، ومن الجوع ، والعطش .
ولما أدرك الاسبان ضعف المقاومة شنوا هجوماً اقتحموا به الأسوار ، ودخلوا المدينة فلم
يجدوا فيها أكثر من ٤٠٠ شخص ، أخذوهم أسرى ، وفرضوا عليهم الرق .

٢٢٣ - ثورة سكان جبال بني طوميز عام ١٥٠١ :

بعد أن قضى الاسبان على الثورات التي نشبت في غرناطة ، والبشيرات ،
ووادي المرية ، شعروا بأن مهمتهم سهلة في بقية المناطق ، وقررت الملكة تطبيق
برنامجها في منطقة (روندة) ، ومقاطعة (رية) (مالقة) . وبعد أن وضعت خطة العمل
مع أسقف اشبيلية ، عاهدت إليه بأن يكلف القسس بالذهاب الى منطقة روندة ،
ومباشرة العمل بجند لتحويل الناس الى الكتلكة . ذهب القسس المبشرون الى
المنطقة ، وتجاوزوا في تصرفاتهم حدود التبشير ، والدعوة للدين ، وشرعوا في استعمال
وسائلهم المعهودة ، من ضغط وارهاب ، ليثيروا الناس ، فكان لهم ما أرادوا . إذ تحرك
أهل المنطقة ، وطردها المبشرين . وخاف الملكان من انفجار ثورة على نطاق واسع ، أو
لعلهما أرادا التعجيل بانفجارها للقضاء على المقاومة العربية دفعة واحدة . وأية ما
كانت نيتهم ، فقد أمراً بالقبض على عدد من زعماء رجال الدين المسلمين ، وكان بينهم
فقيه ، ذو مكانة مرموقة يدعى (إدريس) ، وجه الاسبان همهم إليه لإغرائه بالتحويل
الى النصرانية ، فلم يفلحوا ، فزجوا به في السجن بجانب إخوانه . وقد أدى سجن
الفقهاء الى اندلاع نيران الثورة في كثير من المناطق ، واحتل الثائرون بعض الحصون .
وتحركات قوات الحكومة لمواجهة الموقف ، وأخذت - على عادتها - في إساءة معاملة
المواطنين المسلمين ، فدفع تصرفها سكان منطقة (هافارال) الى الثورة . وهكذا
أصبحت منطقة (روندة) ، و (سيرانيا) كلها معسكراً إسلامياً ثائراً . وشعر قائد منطقة
روندة بعجزه عن مواجهة الموقف ، فاستنجد بقوات الكونت دي سيفونته . ولما وصله
الكونت بقواته ، اختلفا في الخطة الواجب اتباعها في مواجهة الثائرين . وأدى
اختلافهما الى تفرق جيشيهما ، الى عصابات للنهب والسلب .

وأسرع الملك يستدعي القوات لمواجهة الموقف المتفجر ، وبانتظار اجتماعها إليه
أصدر أمراً الى الثائرين يمنحهم العفو على درجتين :
أ - عفواً كاملاً لمن يقبلون التعمد ، مع السماح لهم بالبقاء في بيوتهم .

ب - عفواً ناقصاً لا يشمل إلا ضمان حياة من يريد البقاء على دينه . وهذا العفو يستفيد منه الذين يطلبون ، خلال عشرة أيام ، الهجرة الى قشتالة .
ويقول (سيركور) إن هذا الأمر لم تكن له أية قيمة أو أثر ، لأنه لم يبلغ أسماع الثائرين ، وكان المنادون يعلنونه في القرى المسيحية فقط^(١) .
وحينما تجمعت الجيوش في (روندة) استعرضها قادتها في ١٧ شباط ١٥٠١ .
وكان هؤلاء القادة متساوين في الأهمية وهم (كونت دي سيفوينته)^(٢) و(كونت دواجيلار) و(كونت دواورينا)^(٣) .
ولما رأى قائد الثورة المسلم (سليم الأزرق) ، تجمع القوات الاسبانية ، حاول إلهاءها بعض الوقت ، وتأخير نشوب المعركة ، ريثما يستكمل استعداداته . فظاھر بالاستعداد للمفاوضة والخضوع . ولكن خطته لم تنجح إذ حدث خلل في صفوف جماعته ، أدى الى نزوح سكان (مونيتخاك) و(بني أوخان) الى روندة وطلبهم الأمان من الاسبان ، فسرّح الأزرق جيشه ، وانسحب بمن تبقى معه الى جبال (الهافارال)^(٤) ، فلاحقته القوات الاسبانية ، وأخذت تسيء معاملة المسلمين ، فخاف السكان وانسحبوا الى الجبال الحمراء . فظن القادة الاسبان أن الأمر قد انتهى ، فبقوا حيث هم ، وأخذت قواتهم تواصل عمليات النهب ، والسلب ، وانتهاك الأعراض ، فتجددت الثورة في نفوس الناس ، واضطر أهل المنطقة كلهم ، حتى الذين سبق لهم إعلان خضوعهم ، الى الهرب من وجه العسف الإسباني ، والانضمام الى الثائرين في الجبال الحمراء (Sierra Bermeja) وبدأ المسلمون ، من معقلهم ، يتصلون بالقادة الاسبان ، ويعلمونهم باستعدادهم للعودة الى الحياة الهادئة المسالمة ، وبرغبتهم في العودة الى بيوتهم ، إذا ضمن لهم عدم الاعتداء عليهم . وأراد أحد القادة ويدعى (الونسودو أجيلار) ، قبول العرض ، وحاول حمل زميليه على الاقتناع بوجهة نظره . ولكن الكونت أورينا أحد القائدين الآخرين . كان يطمع في تحقيق المكاسب المادية ، وجمع العبيد ، والمغانم ، والسبايا ، فلم يقبل العرض ، واضطر صاحبا الى مجاراته في

(١) الكونت سيركور ج ٢ ص ٩٦ .

(٢) (C. de Cifuentes) .

(٣) (C. de Urena) .

(٤) (Sierra de Hvaral) .

رفض مطلب المسلمين.

وبعدئذ شرع الجيش الإسباني يهاجم منطقة (الجبال الحمراء) من جهة الشرق، ويدفع بالثائرين إلى الورا حتى أوصلهم إلى منطقة وادي النهر الأخضر. وفي ١٨ آذار عسكر الجيش الإسباني أمام الجبل الأحمر (أوجيل عار)، وكان المسلمون تحت قيادة شخص يعرف بالفهري - وتقول الروايات الإسبانية إنه من عائلة مشهورة في الأندلس - يحتلون منبسطة فسيحة في قمة الجبل، ويتحصنون فيه، وكان موقعهم هذا يسهل اتصالهم بالسلسلة الشرقية من هذه الجبال، ويؤمن انسحابهم إلى مواقع منيعة في حال الهزيمة. ولما رأى الإسبان مناعة موقع المسلمين أرادوا الانسحاب، ولكن (أجيلار) رفض ذلك، وقال لصاحبيه إنه نصحبها في رonda بعدم إثارة الحرب، فلم يقبلوا ولم يأخذوا برأيه. أما الآن فإن نخاذهم، يزيد في حراجه موقفهم ويجريء المسلمين عليهم. وفي اليوم التالي نشبت المعركة، وتظاهر العرب بالتراجع ليستدرجوا الإسبان وراءهم إلى مواقعهم المختارة، فلاحقهم أجيلار إلى المنبسط الأعلى. وحينها هبط الليل انقسم الجيش الإسباني، وعسكر في ثلاثة مواقع منفصلة. وأراد العرب إغراء الإسبان، وحملهم على التفرق، فتركوا أموالهم وأمتعتهم في المنبسط، فتحرك الجنود إلى المنبسط للفوز بالغنائم والسبايا. وتصفهم الروايات الغربية بأنهم تفرقوا مثل عصابات اللصوص باحثين عن المغام. ووصل الكثيرون منهم إلى مايبغون من المغام، وعادوا يهبطون التلال مثقلين بما يحملون، متجهين إلى بيوتهم. ويقول سيركور في وصف هذا الجيش «إن الجيش كان مجموعة من فرق الميليشيا التي لا مصلحة لها بالحرب، وكان في الحقيقة عصابات من اللصوص، وقطاع الطرق الذين لا يعرفون الانضباط، فتفرقوا في كل اتجاه يأتي منه صوت النساء. وألقى بعضهم بأسلحته ليحمل الغنائم الثمينة^(١)». وبلغ الانحلال غايته حينما ارتد العرب فجأة على العدو، ودفعوا أمامهم بالقوات التي يقودها أجيلار وأورينا. وزاد الظلام في خوف الإسبان، فتفرقوا، وتمكن بعضهم من النجاة. وحاول القادة إعادة النظام إلى الجيش المتبدد. وبينما كانوا يبذلون محاولتهم هذه، انفجر برميل من البارود، فأضاء أرض المعركة، وكشف لكل واحد من الجانبين موقف خصمه. ولما أدرك العرب الاضطراب الذي يسود صفوف الإسبان شددوا هجماتهم عليهم فهزموهم. وهرب القائد (دو أورينا)، وحوصر الكونت دو أجيلار، وقتل

(١) الكونت سيركور ج ٢ ص ٩٢

فرسه وجرح ابنه . وفي ظلمة الليل عشر القائد العربي (الفهري) على (أجيلار) فسطاعنا بالخناجر، وقتل الفهري خصمه . ودامت المطاردة طوال الليل، ووصل المفارزون الإسبان الى معسكر (دي سيفونته)، فطارت قلوب رجاله هلعاً، لما سمعوه عن المعركة الرهيبة . وكانت صيحات العرب تدوي في جميع المناطق وهم يطاردون فلول المنهزمين، فيزداد خوف جيش سيفونته، وبدأت الهزيمة في صفوفه . ولكن سيفونته استطاع أن يضبط الموقف بعض الشيء، وفي الصباح استطاع سيفونته، جمع الجيشين الآخرين المنفصلين، وكانا قد أصيبا بخسائر كبيرة خلال الليل، وامتلات الدروب والمسالك بجثث الإسبان . وعاد العرب الى موقعهم في المنبسط، وأقاموا قوات تحتل الممرات المؤدية إليه من أمامه ومن خلفه . وأصبح الجيش الإسباني محصوراً في مدينة (موناردا)، فأرسل دي سيفونته الى الملك يستنجد به لإنقاذه .

أمر الملك بجمع قوات في روندة، فتجمع فوراً قرابة ٧٥٠٠ جندي، ولكنهم كانوا في حالة معنوية منهارة، وجاء الملك ليقود المعركة بنفسه، ولكنه لما رأى حالة الجيش المتدهورة، خشي أن تلحق به هزيمة تحط من سمعته وقدره، وفضل أن يعهد بالقيادة الى الدوك [بيدرو مانريكش دوناخيرا]، وأن ينتظر هو نتيجة المعركة . سار الدوك فوراً الى منطقة الثورة، وأرسل الى سيفونته يعرفه بخطته للعمل، ويطلب إليه أن يتولى الهجوم على المرتفع من أمامه، بينما توجه الدوك بقواته ليهاجم المرتفع من وراءه . ولم يكن العرب يتوقعون الهجوم من الجهتين معاً، ولم يكونوا مستعدين له، لذلك أسقط في أيديهم، وقدروا ان نجاحهم في المعركة السابقة سيؤمن لهم شروطاً مناسبة، فأرسلوا ثلاثة مفاوضين الى (كونت سيفونته) قبل أن تظهر قوات الدوك أمام المرتفع، وكان كل ما طلبه العرب، هو منحهم الأمان، وتأمين السفن لهم للعبور الى الشاطئ الأفريقي .

لم يبت سيفونته بالأمر، وأرسل المفاوضين الى روندة، وكان الملك يميل الى التساهل مع المفاوضين لإنهاء الثورة، التي أوقعت بجيشه أفدح الخسائر، وأساءت الى سمعته الحربية إساءة كبيرة . ولكن الملكة كانت بجانب زوجها، فحملته على التشدد، وعدم التساهل، فأبلغ الملك شروطه المعاكسة للوفد . وهي تتلخص في أن يسمح بالخروج لمن يدفع عشر دوكات، فدية، أما الآخرون فإنهم لا يعفى عنهم إلا إذا قبلوا العهاد . فاضطر الوفد الى قبول هذه الشروط مخافة أن يخسروا المعركة، ويضيع

من أيديهم كل شيء. وكان من نتيجة ذلك أن هاجر عدد كبير من العرب الى افريقيا، حملتهم السفن يوم ١٤ نيسان ١٥٠١، أما الآخرون فقد أجبروا على تلقي العباد.

٢٢٤ - ثورة عام ١٥٢٥ في مملكة بلنسية :

اثيرت مسألة التعميد بالإكراه، وطلب الملك شارل كنت رأي البابا في الأمر، فأصدر البابا كليمانت السابع أمراً في ١٢ أيار ١٥٢٤، يتضمن:

أ - احلال الملك من قسمه بالمحافظة على نصوص المعاهدة الموقعة مع المسلمين والتي تسمح لهم بممارسة حريتهم الدينية وعاداتهم وشرائعهم . . الخ .
ب - مطالبة الملك بالعمل على تحويل المسلمين الى النصرانية . ومنحه حق فرض الرق على من يرفضون التنصر.

ج - نصحه باستخدام جهاز التحقيق، بما يملكه من أساليب رهيبة، ووسائل ارهاب خفية، لحمل الناس على التنصر . . الخ . . وفي ١٦ تشرين الثاني ١٥٢٥، أصدر الملك أمراً بتنفيذ مضمون الأمر البابوي، وقضى بنزع سلاح العرب، وبإغلاق المساجد، وبإجبار المسلمين على حضور القداس . . تحت طائلة وقوع المخالف في الرق. وفي ١٠ كانون الأول ١٥٢٥ طلب مفوض ديوان التحقيق من العرب غير المعمدين، الاستعداد لترك بيوتهم، والخروج من المملكة نهائياً في موعد أقصاه ٣١ كانون الثاني ١٥٢٦. ثم توصل المسلمون الى مراجعة الملك، فحصلوا على وعد منه يتضمن :

أ - عدم ملاحقتهم من قبل ديوان التحقيق إلا في حالة الارتداد الثابت والقاطع.

ب - السماح لهم باستعمال لغتهم العربية مدة عشر سنين.

ج - وعدهم بإبطال أمر نزع سلاحهم.

د - وعدهم بأن تقرر الضرائب على المسلمين بالتساوي مع المسيحيين.

ولكن المسلمين كانوا يطالبون بتطبيق نصوص المعاهدات الموقعة معهم، والتي تضمن لهم حرية ممارسة دينهم ولغتهم وعاداتهم، فأعلنوا الثورة. وانطلقت الشارة الأولى من مدينة (ابن الوزين)، القريبة من بلنسية، إذ أغلقوا أبواب بيوتهم فيها في وجه المفوضين الإكليركيين. ولما علم سكان القرى القريبة من المدينة بما فعله اخوانهم

فيها، انضموا إليهم، فتزايد عددهم، ووقعت اشتباكات بينهم وبين الاسبان، المقيمين بينهم. ثم تحرك سكان منطقة (كورتس) قرب نهر شقر، وقتلوا السيد الاقطاعي (لويس دو باياس)، الذي كان يحاول اجبارهم على التنصر، ولما علم المسلمون المقيمون في أراضي (دانية) و(غانديا)^(١)، ثاروا وتجمعوا حول حصن (Po-lope) (بوليه) - الذي سبق للجماعة ثوار الجرمانيا أن قتلوا جميع سكانه المسلمين -، وهو حصن يقوم في أرض جبلية وعرة، تجعلها مياه السيول في فصل الشتاء غير صالحة لحركة الجيوش. ولما تزايد عدد الثوار في منطقة ابن الوزير، تحركوا الى مدينة (بيكوك) في وادي النهر الكبير، وبذلك أصبحوا معرضين لتحمل الصدمة الأولى من الجيش الاسباني. وقد وجه نائب الملك في بلنسية فصائل الفرسان للبحث في البسائط المحيطة بالحصن، ولا تلاف كل ما تستطيع اتلافه مما يفيد الثائرين في تأمين معاشهم، إذ كان الاسبان ينتظرون ان تحل المجاعة بالثائرين فيطلبوا الأمان.

٢٢٥ - تحرك القوات الحكومية :

وفي ١٥ شباط ١٥٢٦، أعلن المنادون في شوارع بلنسية، باسم نائب الملك الحاكم العام -، باعلان الحرب على العرب الثائرين بالحديد والنار، فخرج خمسة آلاف شخص على رأسهم الخوري جيفارا، يجرون عدداً من المدافع، ويتجهون الى الحصن. ويعترف المؤرخون الاسبان أن الثائرين العرب لم يكونوا يملكون مدافع، ولا ذخائر، ولا قوة من الفرسان، ولم تكن لهم معاقل ولا متاريس تقيهم الرصاص، ومع ذلك تمكنوا من صد الجيش الإسباني أكثر من مرة، وكبدوه خسائر فادحة^(٢). ولكن أقوات الحصن كانت قليلة، وسرعان ما شعر المدافعون بالجوع، فبدؤوا بالمفاوضة، واشترط الحاكم، والخوري جيفارا ضمان، حياة من في الحصن إذا قبلوا العمد، ولما لم يكن للمحاصرين أي خيار فقد اضطروا الى القبول يوم ١٨ آذار ١٥٢٦. وأخذت منهم ٢٥ رهينة. ولما دخل الإسبان الحصن وجدوا فيه عدداً من عرب أراغون فأمر الحاكم باسترقاقهم. وأجبر سكان الحصن على أن يفتدوا أنفسهم

(١) هي بالإسبانية (Gandia).

(٢) الكونت دو سيركور ج ٢ ص ٢٠٣.

بدفع ١٢ ألف دوكلات من الذهب، وعلى أن يتعمدوا، فقبلوا، وعمدهم الخوري جيفارا. وانسحب القسم الأكبر من المسلمين من الباب الخلفي للمدينة، واتجهوا الى سيجورية. ولم يفكر الإسبان بمطاردتهم لأنهم كانوا يبحثون عن المغنم، وقد عثروا عليها. ولما امتلأت أيدي الحاكم العام والخوري من المغنم عادا بالجيش الى بلنسية.

٢٢٦ - اندلاع الثورة في جبال سيرا دو ايسبادان :

لم يدخل الناجون مدينة سيجورية وانما تابعوا سيرهم الى جبال (سيرا دو ايسبادان) (Serra de Espadan) القريبة منهم - وهي سلسلة من الجبال تفصل بين مملكتي أراغون وبلنسية - . ولما مروا بمدينة سيجورية، انضم إليهم منها عدد من اخوانهم العرب، ورافقوهم الى المعازل الجبلية . وكانت طبيعة هذه المنطقة، وموقعها المتوسط بين البحر وبين مملكتي بلنسية - وأراغون، وسيطرتها على طريق بلنسية سرقسطة، كل ذلك يجعلها موقعاً ممتازاً لنشاط الثائرين .

وبعد أن تكاثر عدد العرب اللاجئين الى هذه المنطقة الوعرة، بدؤوا في اتباع حياة المنفيين في جبال الثلج في مملكة غرناطة، وجاهروا بالعصيان، وأخذوا يتحدون الجيش الاسباني وسلطان الحكومة الإسبانية . ولما شعر الثائرون بقوتهم، انتخبوا فلاحاً من (مدينة الغار)، جعلوه ملكاً عليهم، ولقبوه (سليم المنصور). وتصفه الروايات الإسبانية بأنه كان كفؤاً نشيطاً، فنشط في تحصين الجبل كله في مدة قليلة، وحفر خنادق عميقة على كل مرتفع، وأقام أسواراً في كل غور، وجمع كتلاً من الصخور في قمم الجبال لقلدها على المهاجمين، وأكثر من وضع البعائق . والعراقل، لإعاقة سبيل المهاجمين، وكانت خطته تقوم على انهاء العدو، واضعافه معنوياته في كل خطوة، مع اشعار جماعته، بالثقة والاطمئنان لرفع معنوياتهم . وأقام نظاماً ادارياً وحربياً ممتازاً بين هذه المجموعة الثائرة . وشدد الحراسة على المداخل والمرات الأمامية، وأقام الجيش في مواقع مختارة، وقسمه الى فرق ومتارز، أسكنها في بيوت من الخشب اقامها لهم لتأمين راحتهم .

ويأخذ المؤرخون الغربيون على قائد الثورة أنه برغم كفاءته ونشاطه في الأمور العسكرية، فإنه لم يكن بعيد النظر، ولم يفكر في توسيع نطاق الثورة، واشعلها في المناطق الأخرى . لذلك لم يفكر في الاتصال باخوانه في مناطق اسبانيا الأخرى، وفي

الخارج لضرب اسبانيا في وقت واحد. وإنما بقي مكانه واثقاً من أن الجيش لن يستطيع أن يقتحم عليه حصونه ومعاقله. وهذا قصر نظر أدى إلى تمكين الإسبان من الإحاطة بالثورة، والقضاء عليها^(١).

وصل الملك إلى بلنسية، وأخذ يستعد للقضاء على الثورة، بجمع الجيوش، وتأمين المال. واستدان الملك ثلاثة آلاف دوكان من النبلاء ووعدهم بالدفع من قيمة المغانم واجتمع للملك ثلاثة آلاف جندي في بلنسية فوجههم إلى الثائرين بقيادة الدوك دوسيجورب. وضم إليه عدداً من نبلاء المملكة. وفي آخر نيسان ١٥٢٥ شنّ الجيش أول هجوم له من الغرب، فردّ العرب المهاجمين بعد أن كبدهم خسائر كبيرة. وكان لقذف الحجارة من قمم الجبال، أثر بعيد على معنويات الجنود الإسبان، فتركوا، وانسحب الدوك إلى بيته، وعاد النبلاء إلى بلنسية. و إثر ذلك انعقد مجلس حربي في بلنسية، تقرر فيه الاكتفاء، في الوقت الحاضر، بمراقبة تحركات الثائرين إلى أن يعطي الامبراطور تعليماته. وأرسل المجلس الحربي ضابطاً و ٥٥٠ جندياً إلى مدينة (أوندة)، ليستقروا فيها لتحقيق هذه المراقبة. واستمر المنصور بتوسيع هجماته على المناطق القريبة، وبالاستيلاء على مافيها، وأغار في آخر أيار على مدينة ساحلية صغيرة تدعى (شيلش) فنهبها وخرّب كنيسها واستولى على تمثال المسيح، فأثار هذا الحادث قلقاً في بلنسية، واضطربت الكنيسة، وتنادى القسس للتسلح لانقاذ جسد المسيح من يد الثوار. ولكن النبلاء طلبوا منهم الهدوء، والتزموا أمامهم وأمام الشعب باستعادة التمثال. وأعلن الأسقف وقف القداسات في جميع كنائس المملكة إلى إشعار آخر حداً على جسد المسيح.

أخذت القوات تتجمع من جديد لمحاربة الثائرين، وفي شهر تموز، كان هناك ثلاثة آلاف متطوع يحيطون بجبل ديسبادان بقيادة الدوك دوسيجورب، ثم تنالت الامدادات حتى بلغ عدد المشاة ٦٠٠٠ رجل، ومعهم عدد كبير من الفرسان. وفي ٢٠ تموز صدر الأمر بالهجوم على مواقع الثوار، ودافع الثوار دفاعاً مجيداً، حتى عن المواقع التي لا قيمة حربية لها، وكانوا إذا أضاعوا موقعاً عادوا فشنوا هجوماً معاكساً واسترجعوه، حتى إنهم أضاعوا بعض المواقع واستردوها سبع مرات. ولكنهم اضطروا أخيراً إلى التخلي عنها بسبب تفوق سلاح عدوهم، وتراجعوا بانتظام إلى خط دفاعهم الثاني، وتكبد الجانبان خسائر فادحة، ولم يقع بيد الإسبان من الأسرى إلا عدد من

(١) الكونت دو سيركورج ٢ ص ٢٠٩.

الجرحي المسلمين فأمر القائد باسترقاقهم. وتزايد حاسة العرب وجرأتهم في خط دفاعهم الثاني، فقاوموا بضراوة، وعناد لا مثيل لها. ولم يستطع الدوك انتزاع ستة مواقع منهم إلا بثمن باهظ من الخسائر في الأرواح، مما اضطره الى أن يغير نظامه الحربي، وأن يفرض حصاراً على المنطقة كلها. ولكن المعارك تجددت برغم إرادة الدوك، وكان للصخور التي تنهال على الجنود من أعالي المرتفعات مفعول كبير في ارهابهم، فأعلن الدوك الحرب بالحديد والدم والنار، وكانت الامدادات تتالي باستمرار للجيش الاسباني، ودامت المعارك الضارية متصلة مدة شهرين كاملين، بين أخذ ورد، وكان العرب كلما فقدوا مركزاً لهم عادوا فاستردوه. ولم يتمكن الإسبان برغم القتال العنيف، من زحزحة العرب عن خطهم الثاني. وأسفرت هذه المعارك عن نتيجة واحدة هي اجهاد العرب، وتضاؤل عدد مقاتليهم، بالموت والجراح. ولم تكن تصلهم إمدادات، بينما كان الإسبان لا تنقطع عنهم الإمدادات. وبرغم ذلك كله لم يحرزوا على العرب أي رجحان عسكري.

٢٢٧ - الجنود الألمان في المعركة :

ولما وجد الملك أن جنوده لا يحققون أي تقدم، برغم تفوقهم العددي، وتفوقهم بالسلاح والمعدات والتدريب، قرر الاستنجاد بالجيش الألماني، فوصل إليه ثلاثة آلاف جندي في ١٧ أيلول ١٥٢٦ بقيادة روكساندولف، وساروا فوراً الى ميدان المعركة. وكانت الخطة تقوم على أن يهاجم الألمان المنطقة الجبلية التي يحتلها الثوار من ورائها، وهي الجهة الوحيدة التي لم يكن العرب يتوقعون منها هجوماً. وفوجيء العرب بهجوم الألمان. وأفاد الألمان من عنصر المفاجأة، فتمكنوا من الاستيلاء على بعض المواقع. ولما تمركز الألمان في المواقع التي احتلوها، اتفقوا مع الكونت دوسيجورب على شن هجوم متناسق في وقت واحد، وتعهد الألمان باختراق الجبل من المواقع التي يحتلونها.

بلغ مجموع قوات الجيش العامل أكثر من ٨٠٠٠ رجل، عدا الفرسان، وقد قسمت على الشكل التالي :

١ - وضع الدوك دوسيجورب تحت امرته ٢٥٠٠ جندي اسباني و ٥٠٠ جندي ألماني ليهاجم مواقع الثوار من جهة الشرق.

- ٢ - ٢٥٠٠ جندي ألماني، يهاجمون من مواقعهم.
- ٣ - وكان هناك ٢٠٠٠ جندي إسباني بقيادة ضابط إسباني كلفوا بمعاونة الألمان في الهجوم.
- ٤ - وكان هناك فرق استطلاع بحدود ٥٠٠ رجل. وعدد من الفرسان.
- أما العرب فكان عدد مقاتليهم حوالي ٣٠٠٠ رجل، بعد أن تناقص عددهم كثيراً نتيجة للحروب الشديدة التي مرت. وبدأ الهجوم العام صباح ١٩ أيلول، من الشرق والغرب والجنوب في وقت واحد، فنشبت أعنف المعارك، وأكثرها ضراوة، وانهارت الصخور والحجارة على المهاجمين، ولكن المدافع والبنادق، والتفوق العددي، والانهك الذي حل بالعرب من طول القتال، كل ذلك أتاح للمهاجمين التفوق، واضطروا الثائرين على التراجع إلى قلعتهم التي أحاط بها العدو من كل جانب. واستشرت المعركة حول القلعة بشكل لم يسبق له مثيل طوال القتال الماضي. وقاتل العرب قتال اليائس المستميت، فقتل المنصور وسلاحه بيده، وقتل من جماعته أكثر من ٢٠٠٠ رجل، ونجا قسم ضئيل من العرب، انضموا إلى ثوار (مدينة كورتس)، واستسلمت قلعة قليلة ضمن لها الإسبان حفظ حياتها. وتقول الروايات الإسبانية إن خسائر الإسبان والألمان كانت بالغة الفداحة، ولكنهم غنموا في النهاية ما قيمته ٢٠٠٠٠٠ دوكات من الذهب. وعثر أحد الجنود الألمان على تمثال المسيح، فأخفاه وكنم خبره. وعاد الجيش إلى بلنسية.

٢٢٨ - انتهاء الثورات الأخرى:

كانت مذبحة ديسبادان سبباً لإنهاء ثورة كورتس، لأنها أزهبت الثائرين، وحملتهم على الاستسلام للجيش الإسباني الذي وصل إلى المدينة. وبعد مفاوضات جرت بين الجانبين تم الاتفاق على أن يحقن قائد الجيش دم الثائرين، شريطة أن يقبلوا بتلقي العماد، ودفع مبلغ من المال دية القتلى، الذين قتلهم الثائرون. ولما دخل القائد الإسباني قتل أربعة أشخاص، كانوا اشتركوا في قتل أخيه السيد الإقطاعي لبارونية (دانية)، وألزم الآخرين بدفع مبلغ ٣٠٠٠ دوكات.

أما ثوار دانية، فإن الدولة انشغلت عنهم في معارك ديسبادان، ولما طال الأمر بدأ الناصرون يتفرقون، حتى إنه لم يبق منهم أكثر من ٢٠٠٠ شخص، وبعد مدة وصلت ١٥ سفينة للقرصان المسلمين، نقلتهم إلى إفريقيا.

الفصل الثاني

الثورة الكبرى لعام ١٥٦٩

٢٢٩ - سوء معاملة الاسبان للعرب :

تفيض كتب التاريخ العام لمملكة اسبانيا في إيراد حوادث هذه الثورة، وتورد أوسع التفاصيل عنها، حتى إنها لتشغل فيها فصولاً كثيرة. ولما كان كثير من التفاصيل لا أهمية له اليوم بالنسبة لكتابنا هذا، لذلك فإننا سنكتفي بإيراد أهم الحوادث التي وقعت. ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن الروايات الاسبانية لا تنكر ارتكاب ألوف الجرائم الوحشية، بحق النساء والأطفال والشيوخ والعزل من السلاح، كما أنها تذكر أن الاسبان، من أمراء، وحكام، ورجال كنيسة، وقادة، وضباط جيش، وجنود، كانوا كلهم يطمعون في سلب العرب، واسترقاقهم، وكسب المغانم منهم. وقد أجبروا، بتصرفاتهم اللثيمة، العرب الأندلسيين على الثورة ليكون لهم المبرر في السطو عليهم. وفي كثير من الحالات كانوا يعتدون عليهم، ويهاجمونهم دون انتظار إيجاد المبرر. وسيجد القارئ الكريم في سياق الحديث، نتفاً من روايات المؤرخين الاسبان المعاصرين للثورة، وكان أكثرهم شاهداً عياناً، وعاش الأحداث التي يرونها.

٢٣٠ - الأسباب المباشرة للثورة :

حضر القسيس بيدرو جيريرا مجمع تارانت، وأظهر فيه كثيراً من الحماسة، فلمع اسمه فيه، وعاد إلى اسبانيا فجعل من نفسه مراسلاً يوافي الفاتيكان بأنباء اسبانيا، وخصوصاً بأنباء العرب فيها، وحالتهم. ويقول الكونت سيركور، إن تقارير جيريرا ما كانت تدل على وعي وفهم للواقع، وكان من نتيجتها غش البابا بيوس

لرابع وخداعه^(١). ولما رأى البابا حماسه جريرا، كلفه بأن يبلغ الملك فيليب الثاني لبابا يستنكر تسامح الملك مع العرب في ممارسة ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم، التي تعتبر في نظره نوعاً من الهرطقة، ويطلب إليه اتخاذ تدبير صارم بحقهم، يبحث جذور هذه العادات والتقاليد.

ولما بلغ جريرا الملك أمر البابا، تردد الملك في اتخاذ تدبير قد يزيد الأمر تعقيداً، ولم يقطع في الأمر، وإنما تركه للزمن يحله. ولكن جريرا عاد يرأس البابا، ويلح على الملك باسم الفاتيكان. وفي أيلول ١٥٦٥ دعا الأساقفة، وحملهم على توقيع طلب إلى الملك يرجونه فيه تطبيق الأمر الملكي الصادر عام ١٥٢٦ بحق العرب. وفي تلك الأثناء مات المحقق العام، دون فيرناندو فالديس، وحل محله الكاردينال (دون داسينوزا)، وتصفه الروايات الغربية بأنه كان خصماً لدوداً للعرب، فاتفق مع كاردينال غرناطة على أخذ العرب بالشدة، وعلى تعيين مفوضين يطوفون أنحاء المملكة ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب، ثم تألفت لجنة لمناقشة التقارير وفحص حالة العرب، وتقديم المقترحات التي تراها مناسبة في موضوع العرب. وكانت اللجنة مؤلفة من كبار رجال الدين، وبعض كبار الموظفين المدنيين، والقادة العسكريين. وبعد عدد من الاجتماعات تغلب رأي رجال الدين فقدمت اللجنة توصياتها الرامية إلى التشدد في تطبيق الأمر الصادر عام ١٥٢٦. ولم يجرؤ المدنيون على معارضة رأي رجال الدين، وكان مما اقترحته اللجنة:

- ١ - منع استعمال اللغة العربية، والعادات والتقاليد العربية منعاً باتاً.
- ٢ - منع التسمي بأسماء عربية وتحريم لبس الألبسة العربية.
- ٣ - هدم الحمامات وكل ما له مظهر حمام أو جامع.
- ٤ - منع العرب من أن يمتلكوا عبيداً.
- ٥ - إجبارهم على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة خلال الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.

٦ - إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع.

قدمت اللجنة تقريرها ومقترحاتها إلى الملك بواسطة الكاردينال (دوديسا) رئيس الإدارة المدنية في غرناطة، فأصدر الملك بها أمره المؤرخ في ١٧ تشرين الثاني

١ - كونت سيركورج ٢ ص ٢٧٥.

١٥٦٦ . وكان القائد العام في البلاط حين صدور الأمر، ولما علم به انتقده أشد الانتقاد، وأبدى مخاوفه من مغبة تطبيقه . وحاول أن يحول دون إعلانه، فلم يقبل الكاردينال المحقق العام، دا سبينوزا بإدخال أي تعديل على الأمر، وطالب بتنفيذه كما جاء .

ولما وصل الأمر إلى غرناطة قرر (دوديسا)، أن يجعل إعلانه يوم ١ كانون الثاني ١٥٦٧، وهو يوم الذكرى السنوية لسقوط غرناطة، وحاول أن يمهد للأمر ليخفف من وقعه على العرب، ولكن زعماء العرب لم يقبلوا التعاون معه . فتولى هودعوة الشعب العربي إلى ميدان باب البنود . الذي كانت تجري فيه، في عهد بني الأحمر، احتفالات عرض البنود حين ارتقاء ملك جديد العرش . ولما أذاع دوديسا الأمر على العرب علاهم الوجوم، وبدت عليهم علائم الثورة، فكيف لهم أن ينسوا كل الماضي العريض لقومهم في الأندلس ؟ وحاول العرب وقف الأمر أو إبطاله بالمراجعات الرسمية، فلم يفلحوا . وشرعت السلطات بملاحقة العرب لتنفيذ الأمر الملكي، كما زادت في تعسفها ومضايقاتها تنفيذاً للأمر المتعلق بمنع المسلمين من حمل السلاح إلا برخصة . وسببت هذه الملاحقات كثيراً من المشاكل والمآسي، وابتزاز الأموال، فلم يجد الناس ملجأ لهم من السلطة والقضاء إلا في معاقل المنفيين، في جبال الثلج (سيرا نيفادا)، وهناك تزايد عددهم وأصبحوا يشكلون قوة لا بأس بها، وبدأت فكرة الثورة تختمر في رؤوس قادة الشعب الغرناطي، وفي رؤوس المنفيين، وزعماء البشرات، وأصبح الجميع يرون أن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لوقف التعسف الاسباني . وكان آخر ما ألحقه دوديسا، بالعرب من إساءات هو تجنيد قوة من الشرطة، أجبر العرب على تحميل نفقاتها لتقوم بالسهر على الأمن في الأحياء العربية، وبتقصي المعلومات عن نشاطهم وتحركاتهم .

٢٣١ - التحضير للثورة :

ادرك القادة الغرناطيون أن الثورة، أصبحت أمراً لا غنى عنه، وقدروا أنه ليكتب للثورة النجاح لا بد لها من توافر عنصرين :

١ - المشاركة الفعلية للجماهير العرب في مملكة غرناطة، وفي المناطق المحيطة بها على أوسع نطاق، ليتوافر للثورة الرجال المحاربون، وليجعل اتساع نطاق الثورة صعباً على السلطات الاسبانية حصرها، والقضاء عليها في مهدها .

٢ - العون المادي بالرجال والسلاح من السلطات الإسلامية في المغرب والجزائر، وهذا العون ضروري لنجاح الثورة، لأنه يوفر لها السلاح الحديث الذي لم يكن لدى الشعب الأندلسي كثير منه، كما يوفر للثورة الرجال المتطوعين الملمين بأصول الحرب، واستعمال السلاح الناري.

ولذلك شرع هؤلاء القادة بالاتصال بالسلطات المغربية، وبالسلطات التركية في الجزائر من جهة، وبالاتصال بإخوانهم الأندلسيين في المناطق المحيطة بغرناطة، لمعرفة مدى استعداد هؤلاء وأولئك للمساهمة الفعالة الجدية في الثورة القادمة إذا ما نشبت.

٢٣٢ - الاتصال بالمناطق الأندلسية :

بذل القادة الغرناطيون جهدهم للوقوف على استعداد إخوانهم الأندلسيين للمساهمة في الثورة، وعملوا في ذلك بتكتم شديد، لكيلا تطلع السلطات الأسبانية على شيء من مخططاتهم فتحبطها، ولاحت الفرصة المواتية لهم للعمل والتطواف في المناطق الإسلامية، فاغتنموها. فقد أجاز للعرب تأسيس جمعية خيرية لمساعدة الفقراء والمرضى منهم، وشرعوا في بناء مستشفى لهم خارج أسوار غرناطة. ولكن المال نفد قبل إكمال البناء فاقترح القادة المفكرون في الثورة على رئيس الجمعية أن يوفدوا بعض أعضاء الجمعية لجمع المال من عرب المناطق المجاورة، فوافق على ذلك. وتقدم بطلب إلى دوديسا فسمح للجمعية بجمع المال، وبعد أن حصلوا على هذه الموافقة أرسلوا شخصين من أعضاء الجمعية المؤمنين بفكرة الثورة للتطواف، وكلّفوها بزيارة جميع البيوت، وتقصي رغبات إخوانهم وإمكاناتهم، واستعدادهم للمساهمة المادية في الثورة، كما طلبوا إليهما إحصاء الأشخاص القادرين على حمل السلاح الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و ٤٥ سنة، والذين يرغبون في الانضمام للثورة، إذا اندلعت نيرانها. وكان الموفدان مثال النباهة والدكاء، فعملا بنشاط وتكتم شديدين، وبحسب الأمر، ووفقا على رغبات من اتصل بهم دون أن يفتن أحد إلى مهمتهما، واتخذا لنفسيهما صندوقين يضعان في أحدهما المبالغ المجموعة للعائنات، وفي الثاني يضعان قطعة نقدية من كل ذكر قادر على القتال، وراغب في الاشتراك فيه. وتقول الروايات الأسبانية أن الموفدين المذكورين دخلا ١٢٠ ألف بيت وبحسب الأمر ملياً مع جميع من اتصل بهم، ولكن بحذق كبير، وشددا على إخوانها بضرورة الكتمان.

٢٣٣ - عدد الراغبين في الثورة :

ولما عاد المرسلان إلى غرناطة فتح القادة الصندوق المخصص لاحتواء القادرين على الاشتراك في القتال، والراغبين فيه . فتأكد لهم أن فيه ٤٥ ألف قطعة نقدية، وهذا يعني أن الثورة تستطيع أن تعتمد على مساهمة هؤلاء فيها .

٢٣٤ - نتائج الاتصالات بالجزائر والمغرب :

وأوفد القادة رسلا إلى السلطات المغربية، وإلى السلطات التركية في الجزائر، يبحثون الأمر معها، وقد تكللت مساعي الموفدين بالنجاح، إذ وعدهم شريف مراکش بالنجدة إذا استطاعوا حشد قوات ذات أهمية يمكنها إحداث أثر على سير الأحداث . أما علوش علي باشا والي الجزائر التركي فقد وعدهم بإرسال قوات تنزل في شواطئ الأندلس، حينها يطلبون ذلك، وأرسل معهم عدداً من المتطوعين الجزائريين مسلحين بأحدث الأسلحة لمعاونة المنفيين .

٢٣٥ - بوادر الثورة :

شجعت نتائج الاتصالات بالعرب الأندلسيين والسلطات الإسلامية في المغرب والجزائر، قادة الثورة على المضي في استعداداتهم لإعلانها . وجرأت هذه الوعود قادة المنفيين فأخذوا ينزلون من معقلهم إلى مرج غرناطة في وضوح النهار، ويعاقبون الأسبان على ما يرتكبونه من جرائم بحق إخوانهم العرب، وراجت إشاعات كثيرة عن وصول قوات تركية جزائرية إلى إسبانيا . وتقول الروايات الإسبانية، إن الجميع من عرب وإسبان، أدركوا أن شيئاً ما سيقع، ولكن لا يدري أحد ما هو، ومتى يقع . ولم يكن هناك إلا شخصان لم يقتنعا بإمكان حدوث الثورة، وهما دوديسا، رئيس الإدارة المدنية، والمركيز (دومونديجار) القائد العام للجيش، فقد اعتقد كل منهما أن الأمر لا يعدو الشائعات، وأن العرب إذا كانوا سيقومون بثورة فإنهم ألفوا التكتّم والحرص .

وخشي القادة من افتضاح الأمر فذهب أحدهم إلى دوديسا، يشكو إليه باسم العرب من الإشاعات المغرضة التي تلتف حول قرب نشوب ثورة يقومون بها . وقال له

ان مشيري هذه الشائعات إنها يقصدون من ذلك زيادة التعدييات على العرب، والانتقام منهم، وعرض أن يقدم العرب للسلطات ٣٠٠ رهينة. وطالب بإجراء تحقيق في الأمر، وساقبة من تثبت ادانته. فصرفه دوديسا معتقداً أن الأمر لا يعدر الشائعات. وفي الوقت نفسه عاد المركيز دومنديخار، القائد العام من البلاط بعد أن أكد للسمو ولين ان العرب لن يشوروا، واتصل بوجوه الأندلسيين، وأكد لهم أنه سيمنع عنهم تعدييات الكاردينال دوديسا، إذا تعاونوا معه، وأنه سيحل قوة الشرطة التي ألفها دوديسا، وألزم العرب بنفقاتها، فوعده بالتعاون معه. وأرسل المركيز تقريراً إلى البلاط ضمنه نتائج اتصالاته بالعرب، وطلب الموافقة على حل فرق الشرطة فوافق البلاط عليه لكن دوديسا، تمكن بعد حين من استصدار أمر من الملك بالغاء الأمر الصادر بحل فرق الشرطة. وكانت تتألى في ذلك الحين الأخبار الواصلة إلى البلاط عن قرب ثورة العرب، فكان يحيلها إلى سلطات غرناطة للتحقيق في مضمونها.

٢٣٦ - التنافس بين القائد العام والكاردينال :

كان بين الكاردينال دوديسا وبين القائد العام دومنديخار تنافس شديد، وقد خدم هذا التنافس العرب في ستر حركتهم، إذ كان كل منهما يسعى لافساد خطط الآخر. فدوديسا كان يحاول إقناع البلاط بعدم وجود نية لدى العرب للقيام بحركة، ليمنع المركيز من تدعيم سلطانه وزيادة قواته، وزيادة نفوذه وانفراذه بوضع المخططات بحجة المحافظة على الأمن، ومنع وقوع الثورة. والمركيز يحاول إقناع البلاط بهدوء العرب ليتوصل إلى إضعاف نفوذ الكاردينال عن طريق حل فرق الشرطة الخاصة التي أقامها الكاردينال، وألزم العرب بدفع نفقاتها. وأصدر دوديسا على سبيل الاحتياط أوامراً ترمي إلى ضمان الهدوء منها :

١ - أمر يقضي بإبعاد جميع الغرباء عن حي البيازين بدون استثناء.

٢ - أمر يقضي بعقوبة الأشخاص الذين يتعاونون مع المنفيين.

وبتاريخ الأول من كانون الثاني ١٥٦٨، أصدر أمراً يقضي بأن يسلم العرب أولادهم الذين تتراوح أعمارهم بين ٣ سنوات و ١٥ سنة، إلى السلطات لادخالهم المدارس، وتلقينهم الديانة المسيحية، واللغة الاسبانية. وقد كان لهذا الأمر أبعاد الأثر في دفع العرب إلى الثورة، إذ أدركوا أن السلطات الاسبانية تلاحقهم بلا هوادة، ولا أمل لهم في حلها على التراجع عما اعتمدته من اضطهادهم.

٢٣٧ - قرار الثورة:

وجاء رد الملك على مراجعات العرب حاسماً لا يقبل المناقشة، فأدى كل ذلك إلى اتخاذ العرب قرارهم بالثورة، وشرعوا في إعداد العدة لاعلانها في الوقت المناسب. ونشط القادة الفرنساويون في عقد الاجتماعات مع زعماء البشرا الذين ستكون منطقتهم منطلق الشرارة الأولى للثورة على الظلم.

وفي الاجتماع الثاني الذي عقد في غرناطة تقرر تعيين يوم الخميس المقدس في ١٤ نيسان ١٥٦٨ ، موعداً للإعلان ، ووزع المجتمعون المهام فيما بينهم للاسراع باتمام الاستعدادات قبل حلول الموعد المحدد ، والاتصال بسلطات الجزائر ومراكش لتؤمن السلاح والمتطوعين . والاتصال بقيادة المناطق الأندلسية الأخرى ليكونوا على استعداد للتحرك في الموعد المحدد .

وتورد الروايات الاسبانية أسماء عدد من الزعماء العرب الذين قاموا بالحركة، ويلاحظ الانسان أن أسماء بعضهم مختلطة عربية واسبانية. وذلك لأن الاسبان أجبروا العرب على أن يتخذوا أسماء اسبانية. ومن بين القادة الذين تورد الروايات الاسبانية أسماءهم: الأخوة الثلاثة من آل البرطال، وابن جوهر (ويعرف بالصغير) وديجولويس بن عبو، وفرج بن سراج، وفرناندو مولاي دوفالوراي كوردبا (وأصبح ملكاً للشائرين وتسمى باسم محمد بن أمية). وقرر المجتمعون انتخاب ملك ليشرف على الثورة، وينسق أعمالها، ويعلن بعث الدولة العربية فور اعلان الثورة، وقدروا بأن ذلك سيكون حافزاً مهماً للعرب على التحرك في كل مكان في اسبانيا. ولكن التفكير في انتخاب ملك للحركة خلق تنافساً بين شخصين أحدهما فرج بن سراج، الذي كان يريد الملك لنفسه، وبين ابن جوهر الذي كان يريد الملك لابن أخيه محمد ابن أمية. وتصف الروايات ابن جوهر بأنه رجل قوي الشخصية، له نفوذ واسع على رجال البشرا، وقد نشط الرجلان في العمل لكسب الأنصار والمؤيدين، وكان من نتائج تنافسهما انجاز الاستعدادات في البشرا قبل الموعد المحدد.

٢٣٨ - رفض عرب مرسية وبلنسية الاشتراك في الثورة:

لم يستطع الرسل الذين كلفوا بالاتصال بقيادة العرب في مملكتي مرسية وبلنسية، إقناع إخوانهم في المملكتين بالثورة في نفس الوقت الذي تنطلق فيه ثورة عرب غرناطة.

ولا يدري أحد اليوم الأسباب التي دفعت بعرب هاتين المملكتين إلى اتخاذ هذا الموقف المتخاذل، ولكن من المرجح أنها تعود إلى الموقف المتربص الذي وقفه عرب مملكة غرناطة إبان ثورات بلنسية.

٢٣٩ - انتخاب الملك :

لم يعلن الاندلسيون ثورتهم في ١٤ نيسان ١٥٦٨، كما كان مقرراً، وإنما أجلوا الموعد مرتين. وفي ٢٧ أيلول ١٥٦٨ دعا ابن جوهر قادة الثورة إلى عقد اجتماع في حي البيازين، وشرح لهم في هذا الاجتماع الأسباب التي تدعوهم إلى إعلان الثورة في أسرع وقت، وتعيين القائد العام للثورة ليتمكن من ادارتها وتنظيمها. وبعد أيام استدعى ابن جوهر ستة وعشرين شخصاً من مختاري البشرات، وجمعهم مع رؤساء التنظيم في حي القصبة. وطالبهم بانتخاب الشخص الذي يروونه أهلاً لأن يكون ملكاً للمملكة العربية، التي ستعلنها الثورة من جديد، ورشح لهم ابن اخيه فرناندو محمد، فوافق المجتمعون على انتخابه بالاجماع. وكان فرناندو شاباً وسيماً شجاعاً في الثانية والعشرين من عمره، وهو من احفاد بني امية. ولما تم انتخابه صفق له الحاضرون. واتخذ اسم (مولاي عبد الله محمد بن امية - ملك غرناطة) (وتسميه الرواية الاسبانية دون فرنانديلو ملك البشرات). ثم نصبه أصحابه وفقاً للمراسم العربية التي كانت متبعة، فألبسوه ثوباً أحمر، ووضعوا على رأسه عمامة، واجلسوه متجهاً جهة القبلة على أربعة أعلام تتجه حراها إلى الجهات الأربع. ثم نهض فصلى بالحاضرين وأقسم أمامهم على أن يموت في سبيل الدفاع عن دينه، وعن حرته، ومملكته، وشعبه، وتقدم الحاضرون بعد ذلك فرفعوه على اكتافهم، واخذوا في التهليل والتكبير، ودعوا الله أن يبارك ملكهم، ويوفقه، وينجح ثورتهم. وبعد ذلك عين الملك عمه ابن جوهر قائداً عاماً للثورة، ثم عين ضباطه. واتفق الحاضرون على أن يكون موعد اعلان الثورة ليلة عيد الميلاد ١٥٦٨.

ويكون اعلان الثورة على الشكل التالي: حينما تظهر الاشارة المتفق عليها من أعلى مرتفع جبل الحمراء، ينتظم أهل البيازين في ثلاث كتائب، ويزحفون إلى ساحة باب الرملة، ولا يتوقفون في طريقهم إلا لاختلاء السجون، والقبض على القضاة. وحينئذ يسرع ثمانية آلاف رجل من أهل مرج غرناطة، ووادي الكرين، لمهاجمة أبواب المدينة، ويلبس هؤلاء زي الجنود الأتراك أو الزي البربري ليظن الناس

أنهم نجدات فيشتد عضدهم . ويتقدم في نفس الوقت ألفا رجل من (المنفيين) بقيادة القائدين (البرطال) و(الناقص)، عن طريق (وادي شنيل)، ليكمنوا بالقرب من غرناطة، حتى إذا اعلنت الثورة تقدموا لمهاجمة الحمراء من جهة جنة العريف، للاستيلاء عليها. وإذا ما حصل لبس في الإشارة يستعمل المدفع كإشارة ثانية.

٢٤٠ - انتشار الشائعات عن قرب نشوب الثورة :

وحينما حل شهر كانون الأول اخذ الناس يتحدثون عن قرب وصول ستة آلاف جندي تركي إلى اسبانيا ليلة عيد الميلاد. وفي ٢٣ كانون الأول جاء إلى أحد القسس رجل، تقول الرواية عنه إن اسمه فرانسوا بن آدم، ليعترف لديه، ثم أفضى إليه بمعلومات جاء فيها، إنه معماري في الحمراء، وأنه أعطى بعض المسلمين معلومات عن مقاييس سلال الحمراء. فأبلغ القسيس ذلك فوراً للكردينال دوديسا، وللقائد العام، فلم يصدق هذه الأقوال، وكان كل ما اتخذه القائد العام من احتياطات هوزيادة عدد الدوريات.

٢٤١ - هرب الملك إلى البشرات :

وفي ليلة ٢٣ كانون الأول هرب الملك ابن امية من غرناطة إلى البشرات. وتختلف الروايات في أسباب هربه. فمنها ما يقول إنه هرب بالنظر لقرب موعد اندلاع الثورة، ومنها ما يقول إنه إنما هرب ليثبت حقه في البشرات، ويحصل على البيعة، ويفوت الفرصة على منافسه فرج بن سراج.

٢٤٢ - وقوع حادث لم يترك خياراً للثائرين :

وفي ٢٣ كانون الأول - ليلاً - وقع حادث في البشرات لم يترك للعرب خياراً، فحملوا السلاح، واعلنوا الثورة. وتقول الرواية الاسبانية إن مفرزة اسبانية مؤلفة من ضابط وخمسين جندياً، كانت تنقل شحنة من البنادق، إلى البشرات، وكان من عادة هذه المفارز أن ترتكب ما يحلوها من سلب ونهب، وتقوم بالتعديات والاثارات. ولما حل المساء اتجهت المفرزة إلى قرية للمبيت فيها. وبدو أن بعض أفرادها خرجوا

يبحثون عن شيء يسرقونه ، فالتقى بهم (استييان البرطال) احد قادة المنفيين فقتلهم ، ثم أمر ابن جوهر المنفيين بالقضاء على بقية رجال المفرزة والاستيلاء على أسلحتهم . فكانت تلك الحادثة الشرارة التي اشعلت فتيل الثورة . وبعد ثلاثة أيام عم هيب الثورة في كل مكان في مملكة غرناطة ، ووصلت إلى المرية ووادي الكرين . ثم انقض الثائرون على رجال الحاميات الاسبانية الموجودين في المناطق الثائرة فقتلوا بعضهم ، وأسروا أكثرهم ، ولم يستطع هؤلاء المقاومة نظراً لاتساع نطاق الثورة ، وشمولها كل مكان . ولم يبق بيد القوات الاسبانية إلا قريتا (أورجبة) و(أجيجر)^(١) . واتجه ابن جوهر مع بعض القوات لحصار (أوشبخار) وذهب فرج بن سراج الى غرناطة لاشعال نار الثورة فيها ، وفقاً للمخطط الموضوع .

٢٤٣ - بيعة اهل البشرات لابن امية :

اما ابن امية - الملك المنتخب - فقد انصرف الى جمع الناس من نواحي البشرات الاثنتي عشرة ، ليحصل على البيعة منهم ، فوفق إلى ذلك . ولما عاد فرج من غرناطة كان كل شيء قد انتهى . وتقول الرواية إن (فرج) حاول التمرد ، واثارة الفتنة استناداً إلى القوة التي يرأسها من المنفيين ، ولكن جماعة ابن امية اقنعوا أصحابه بعدم إثارة الفتنة ، وأخيراً قنع فرج بما تم ، وسماه ابن امية وزيره .

٢٤٤ - اخفاق فرج في اثاره غرناطة :

توجه فرج مع ١٨٠ رجلاً من المنفيين الى غرناطة ، وكان الجو بارداً ، والأرض تكسوها الثلوج ، واتصل فرج وأصحابه بقيادة البيازين ، محاولاً حملهم على تنفيذ الخطة المتفق عليها ، واعطاء اشارة الثورة ، لينطلق رجال البيازين ، ورجال المريج ، ووادي الكرين ، لتنفيذ المهام المنوطة بهم . فرفضوا ذلك لما رأوه من قلة رجال فرج ، وقالوا له كيف تريدنا أن نقدم ٨٠٠٠ رجلاً بينما تأتي أنت مع أربعة من الحفاة . ولما يش فرج من اقناعهم هدهم بأنه سيحملهم بالقوة على الثورة أو تركهم يهلكون . وتفرق رجاله في غرناطة ينادون باعلان ثورة الإسلام ، ويحث المملكة الاندلسية ، ويحثون

١ - هما اليوم : اورجيه (Orgiva) ، واجيجر (Ujjar)

انسان على النهوض لحمل السلاح، للثأر لكرامتهم المهانة، ودينهم المضطهد، والانصواء تحت علم الثورة. ولكن أهل غرناطة لم يتحركوا. ويبدو أنه لو وُفِّي أهل البيازين وغرناطة بما تعهدوا به في المؤتمر التحضيري للثورة، لسهل عليهم السيطرة على غرناطة، لأن القائد العام الاسباني لم يتخذ أي تدبير احتياطي حتى ذلك الحين. وقد ألزم البرد والثلوج دوريات الجيش، بقصر أفعالها على ما لا بد منه. ولكن جميع الجهود والمحاولات التي بذلها فرج وأصحابه، لم تفلح في حمل أهل غرناطة على الثورة. وفي الصباح انسحب فرج وأصحابه من البلدة، وساروا تحت لوائهم بانتظام أمام سمع الاسبان وبصرهم، فلم يجرؤ أحد منهم على اللحاق بهم. ولما وصلوا إلى وادي نهر شنيل، توقفوا هناك بعض الوقت لعل مدافع الحمراء تنطلق فيلتبس الأمر على رجال المريج. ويقوموا بهجومهم المقرر. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث فانسحبوا إلى البشرات.

وتحرك نصارى غرناطة يتنادون إلى السلاح، والانتقام من المسلمين، فأخذ المسلمون يهربون بنسائهم وأطفالهم إلى البشرات، وينضمون إلى جماعة فرج. وأرسل القائد العام بعض القوات لمطاردة الهاربين، وقبضوا على بعضهم، وخاف أناس من المسلمين وقوع نسائهم وبناتهم في يد الاسبان فقتلوهن انقاذاً لشرفهن. وتمكن فرج وأصحابه من انقاذ الكثيرين، إذ تمركزوا في بعض المرتفعات، وسددوا نيران أسلحتهم إلى الفرسان الاسبان واضطروهم إلى الارتداد.

٢٤٥ - اشتعال الثورة في المناطق الاخرى:

وبعد ان عاد فرج من غرناطة، وثقت التسوية بينه وبين ابن امية، كلفه الملك بأن يتجه إلى المناطق الاخرى، لاشتعال نيران الثورة فيها، ويعود سريعاً لاتخاذ الترتيبات التي يقتضيها الموقف، فقام فرج بالمهمة خير قيام. وتصف الروايات الاسبانية فرجاً بأنه رجل نشيط بعيد النظر، وأنه كان له الفضل الأكبر في وضع خطة حربية، لو تمكن من انفاذها لقلبت الموقف رأساً على عقب.

٢٤٦ - نبل العرب:

وتقول الرواية الاسبانية إن العرب في المناطق الثائرة تمكنوا خلال وقت قصير من السيطرة على الموقف في جميع منطقة البشرات، وإنهم عاملوا الاسبان بنبل

واعتدال، برغم جميع ما لاقوه من عسف الاسبان، وازعاجهم، واعتداءاتهم، فكانوا يحتفظون بمن يقبضون عليه منهم، كرهائن في بعض الأماكن، وفي مناطق أخرى كانوا يؤمنون انسحابهم إلى حيث يشاؤون، دون أن يصيبهم ضرر ولا أذى، حتى أن بعض الاقطاعيين الاسبان قاموا على رأس عصابات من اتباعهم، بمهاجمة الثائرين، فحاربهم المسلمون، وانتصروا عليهم، وقتلوا بعضهم، وأسروا آخرين. ولما تم للمسلمين النصر، قادوا الأسرى إلى (شلوبانية). ويقول الكونت سيركور، إنه ظهرت في هذه الآونة الحساسة أمثلة كثيرة تدل على نبل العرب وأمانتهم وإخلاصهم^(١).

على أن الأمر لم يخل من بعض العنف يصدر عن بعض الناس. فبعض النفوس تصفح وتتغلب عليها الرحمة، وبعضها يستبد به الغضب، وحب الانتقام، فتستسلم له. ومن الطبيعي، وقد لاقى هذه النفوس ظمأ ليس له مثيل في تاريخ الإنسانية، أن تنفجر، ويشذ بعضها عن طريق الصواب. ومع ذلك، فإنه رغم اتساع نطاق الثورة، واختلاف أهواء الثائرين، ومشاربهم، وعقلياتهم، فإن حوادث العنف كانت قليلة جداً، حتى تكاد لا تذكر. وكان أبرزها ثلاث حوادث، وهي تعبر عن نقمة مرتكبيها على محاولات رجال الدين الاسبان إكراه المسلمين على التنصر، وعلى شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وحضور القداس. ففي مدينة (مايرنا) حشا الثائرون بعض القسس بالبارود وفجروهم، وفي (قوبلس)، قبض الثائرون على قسيس كنيسة المدينة، ثم قادوه إلى الكنيسة، واجلسوه على كرسي الوعظ كعادته أيام الأحاد، وقرعوا الجرس، وأمروا معاونيه بأن يقرأ التفقد، وينادي بأسماء الحاضرين، مثلما يفعلون عادة في القداس، فكان كل من ينادى باسمه يتقدم، ويمر أمام الخوري فيصفعه، ويشد لحيته وشاربيه، ثم تقدم شخصان فقتلاه. وفي الحادث الثالث ذبح الثائرون خنزيراً على مذبح كنيسة (ادرا)، وهو تعبير منهم عن النقمة التي يستشعرونها على القسس الذين يجبرونهم على أكل لحم الخنزير المحرم في الإسلام.

٢٤٧ - الاستغناء عن خدمات فرج:

والقائد العربي الثائر الذي ارتكب أعمال عنف ضد الاسبان عسكريين

١ - كونت سيركور ج ٢ ص ٣١١.

ومدنيين، هو فرج بن سراج، حتى قيل في بعض الروايات إنه قتل خلال ستة أيام ثلاثة آلاف شخص منهم. ولما اتصل خبر تصرفات فرج بالملك ابن أمية أصدر أمره ألا يقتل إنسان بدون محاكمة^(١)، وأبعد فرجاً عن الوزارة، وعهد بها إلى عمه ابن جوهري، وبذلك انطفأ ذكر هذا الرجل النشيط.

٢٤٨ - تنويع الملك ابن أمية :

وبعد اقضاء فرج تنويع ابن أمية في قرية (لانخار) باحتفال كبير، وتزوج فوراً من ثلاث نساء فاصبح لديه أربع نساء، وأصدر أمراً إلى جميع المسلمين بالثورة، وحذرهم من ارتكاب جرائم قتل الأبرياء من نساء وأطفال وشيوخ، وغير المحاربين من الرجال، وهدد من يقترف مثل هذا الجرم بالإعدام ومصادرة المال^(٢)، واختار مستشاريه العسكريين، وبعث جيش الفرسان الذي كانت تشتهر به غرناطة، وسمى قائدا لكل ناحية. وبعد ان تفقد المناطق الثائرة عاد الى (اجيجر) في ٢٩ كانون الأول ١٥٦٨.

٢٤٩ - اول نصر للثائرين :

وفي ٢٨ كانون الأول تمكن الثائرون من إلحاق هزيمة كبيرة بالقوات الاسبانية في (وادي الكرین) فانسحبت من المراكز الامامية الواقعة بين (جسر الطبلات) و(دركايل) واصبح جميع (وادي الكرین) في قبضة الثائرون.

٢٥٠ - قادة المناطق العرب :

عين ابن أمية عدداً من القادة لادارة العمليات في المناطق الثائرة منهم :
(ميجيل دوغراناذا شعبان)، قائداً لوادي الكرین، وأمره بمهاجمة (دركايل).
(ماركوس الزمان) في منطقة (تولجر) و(ماتيو الرامي) في منطقة المرية، وكلفه

(١) كونت سيركورج ٢ ص ٣١٦

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣١٦.

بمهاجمة المرية . و(فرناندو الغُري) وجعله قائداً لوادي المنصورة . و(فرانسيسكو بورتو كاريرو بن مكنون) ، وجعله قائداً للمنطقة الشرقية . و(جير ونيمو المالح) ، وجعله قائداً للمنطقة (زينيت) و(وادي آش)^(١) . و(مرتين قايد) وكلفه بمحاصرة ادرا . ووضع ثلاثة من القادة تحت امرته لمعاونته في اعمال الدفاع عن البشرات . وهم : (الناقص) ، و(الرندياتي) ، و(جير نسيلا الارشيدوني) .

٢٥١ - التنافس بين الزعماء الاسبان :

لم يخفف اندلاع الثورة من حدة التنافس بين القائدين العام وبين الكاردينال . وليزيد الكاردينال في نكاية القائد العام وازعاجه ، عمد الى اتخاذ اجراءين :
١ - الف حرساً وطنياً تحت قيادة ضابط من ضباط البلدية ، ينتسب الى عائلة شديدة الخصومة لآل مندوسا ، عائلة المركز القائد العام .
٢ - وكتب الى الملك يرجوه تكليف قائد منطقة مرسية (مركيز بلش) (دون لويس فاخاردو) - وهو ايضا من عائلة شديدة العداوة لعائلة القائد العام - بأن يهاجم البشرات من المنطقة الشرقية ، فوافق الملك على ذلك ، وأمر المركز : دوفيليس بالاستعداد للقيام بالعمليات من الشرق . وكان من نتيجة ذلك أن استاء المركز دو مونديجار وأصدقائه ، وخفّت حماسهم .

٢٥٢ - اثر تدخل المركز دوفيليس (مركز بلش) :

اسرع المركز دوفيليس في جمع ثلاثة آلاف رجل من اتباعه ، ومن جنود الحرس الوطني (المليشيا) ، في منطقة لورقة واتجه بهم الى منطقة المرية في ٤ كانون الثاني ١٥٦٩ ، وتابع سيره حتى بلغ سفح جبل البشرات . وهناك وافته قوات من بسطة . وفي ١١ منه تلقى أمر الملك بتعيينه قائداً عاماً فوق العادة لمنطقة المرية . وكان لتحرك

(١) وعده القرى هي اليوم : شلوبانية (Salubrena) ، (Gyahares) .

ادرا (Adra) ، اجيجر (Ujjjar) .

وادي الكريرين (Val Lucrin) ، دركايل (Durall) .

زينيت (Zenet) ، وادي اش (Gudix) .

هذا المركيز أثر رادع ، إذ شل حركة عرب وادي نهر المنصورة . ومنعهم من الانضمام إلى الثورة .

٢٥٣ - تحركات قائد غرناطة :

ولما علم المركيز (دوموندنخار) القائد العام لمملكة غرناطة ، بتعيين خصمه ، أراد أن يثبت وجوده وينهي الثورة قبل أن يتسع الخرق ، ويفقد مركزه ومكانته . فأسرع على رأس ٢٤٠٠ رجل إلى منطقة وادي الكرين ، وعسكر في (البذول)^(١) وتقدمت مقدمة جيشه إلى (دركال) . ولما علم القائد العربي (شعبان) بتقدم الاسبان اليه ، هاجم مقدمتهم بقوات كبيرة . وتبالغ الروايات في تقديرها إذ تجعلها ٦٠٠٠ ، فاحتل دركال وقتل كثيراً من رجال المقدمة ، ولكن بعضهم لجأ إلى الكنيسة وتمركز فيها ، وقاوم طوال الليل . وفي الصباح سمع القائد الاسباني طلقات النار فأسرع على رأس قوة من فرسانه إلى دركال فاضطر المسلمون إلى الانسحاب . وحينما رأى القائد الاسباني كثرة جيش (شعبان) أدرك أهمية الثورة العربية ، ففضل عدم المخاطرة بدخول البشرات قبل أن تصله نجدات جديدة ، وبقي حيث هو . ويفض الكتاب الغربيون في وصف الفوضى التي كانت تسود الجيش الاسباني ، وفي سفالة هؤلاء الجنود . ويقول الكونت سيركور في هذا الصدد (إن رواية أحد مرافقي الجيش تشير إلى أن بين جنود المركيز الـ ٢٤٠٠ رجل ألفاً ومئتين على الأقل لا ينجحون إذا دعاهم الإنسان لصوصاً . وقد أصدر اليهم القائد العام أوامراً مشددة بعدم الاساءة إلى السكان العرب على اعتبار أن الجيش أتى لتهدة الثورة ، وليس للسلب والنهب والتعسف . ولكن الجنود لم يهتموا بأوامر قائدهم ، ولم يحترموها ، وكان أول من خالف أوامره ابنه (الكونت دوتانديلا) الذي بدأ بالاتجار بالمغانم ، كما أن الضباط الآخرين كانوا يدفعون جنودهم إلى السلب والنهب)^(٢) .

١ - البذول PADUL

٢ - كونت سيركور ج ٢ ص ٣٣٠ .

بقي القائد العام معسكرا في دركال حتى وصلته من مدن مقاطعة الاندلس نجدات من المغامرين النبلاء الطامعين في الاثراء عن طريق المغانم . فبلغ تعداد جيشه حوالي خمسة آلاف رجل . وشرع في ٩ كانون الثاني ١٥٦٩ في الزحف على البشرات ، حتى وصل (جسر الطبلات) . وهذا الجسر يمتد فوق غورس حيق تمر به طريق البشرات إلى غرناطة . وكان ابن امية نفسه يقف امام هذا الجسر على رأس خيرة رجاله لصد الاسبان ، لأنه كان يقدر أنهم سيحاولون سلوكه للوصول إلى اورجة لنجدة حامياتها التي أخذت مقاومتها في الانهيار .

وتقدر الروايات الاسبانية قوات ابن امية باربعة آلاف رجل ، يؤلفون ثلاث كتائب ، يقودها تحت اشرافه ثلاثة من القادة هم : (الناقص) و(الرنذاتي) و(جير ونسيلو الارشيدوني) . وليمنع ابن امية تقدم الاسبان أمر بهدم الجسر ، ووضع ألواحا من الخشب تسمح بالعبور لشخص واحد ، وأقام الرماة في مرتفع يسيطر على الجسر ويؤمن حمايته . وحينما تقدم الاسبان من الجسر اطلق عليهم المسلمون نيران اسلحتهم فترجعوا مذعورين . وحدث هرب المقدمة اضطرابا في الجيش كله . ولم يتمكن المركز من السيطرة على الموقف ، ومنع جنوده من الهرب ، الا بصعوبة بالغة . وتقدم هو امام الجيش فاصابته قذيفة لم تلحق به كبير أذى ، وحمي وطيس المعركة ، وشرعت المدفعية باطلاق نيرانها على مراكز المسلمين ، وكان ابن امية يتجول على طول الجبهة يدير العمليات ويعطي الأوامر ويشجع المقاتلين وكان يركب حصانا أبيض ، ويلبس ثياباً مزركشة . وبعد قصف شديد من المدفعية الاسبانية ، اضطروا المسلمون إلى التخلي عن مواقعهم المسيطرة على الجسر ، فتقدم الاسبان لعبوره ، ولكنهم ذعروا من العبور على ألواح خشبية ضيقة وغير مثبتة ، إلا أن أحد الرهبان خاطر نفسه ، وعبره أمامهم ، فعبروه وسقط بعضهم في الخندق فدفقت أعناقهم . وحاول المسلمون مهاجمة الذين عبروا الجسر ، فردتهم المدفعية واضطرتهم إلى التراجع وانسحب القادة المسلمون برجالهم إلى مواقع حصينة . وتابع الاسبان تقدمهم حتى وصلوا (أورجة) فوجدوا حاميتها في حالة صعبة . وقد أتاح للاسبان تمرركزهم في أورجة ، السيطرة على المنطقة الثائرة وتهديدها .

ويصف المؤرخون الغربيون حذق ابن امية ، وبعد نظره ، وكفاءته الحربية ، ويقولون ، إنه لو كان تحت امرته جنود مدربون لأمكنه أن يتعادل مع المركز و

موندبخار، ولكن جنوده كانوا فلاحين بسطاء تؤثر في نفوسهم الهزيمة والتراجع، وتضعف من ثقتهم وهمهم^(١).

ترك الاسبان في جسر الطبلات قوة من رجالهم تحميه وتحرس المرفلما ابتعدوا قام القائدان العربيان الناقص والارشيدوني بمهاجمة مفرزة الحراسة وقضيا عليها قضاء تاماً، ولكنهما انسحبا من المنطقة دون أن يدمرا الجسر، أو يتركا عنده قوة تحميه، وتقطع الطريق على الاسبان. ولو فعلا ذلك لهددا جيش المريكيز موندبخار تهديدا خطيراً، ولأجبراه على الانسحاب متراحاً من حيث أتى أو على استدعاء ابنه مع القوات الموجودة في غرناطة، وكلاهما شديد الخطورة بالنسبة إليه. ولما انسحب العرب من منطقة الطبلات، أرسل الاسبان قوة احتلت الجسر، وتابع المريكيز تقدمه.

٢٥٥ - اهم المعارك التي جرت:

أ - في المنطقة الغربية:

١ - تمركز ابن امية بعد انسحابه من جسر الطبلات في (بوبيون) حاضرة منطقة (بكيرة)، ووضع قوتين كبيرتين في الجناحين، وقوة صغيرة في القلب، مهمتها استدراج الجيش الاسباني، الى المكان المناسب ثم تطبق عليه قوتا الجناحين. وتقدم المريكيز فناوشه القلب وهو يتراجع فاندفع الاسبان كلهم في الهجوم، كل منهم يريد الفوز بمغنم، وحيث انقض عليهم العرب من كل جانب، فانزمت فصيلة الرماة، ودب الخلل في صفوف الاسبان، ولم يستطع المريكيز اعادة النظام إليها إلا بجهد كبير. ولما وجد العرب أنهم فقدوا عنصر المفاجأة اضطروا إلى الانسحاب، وغنم النصاري مغنم لا تحصى، مما خلفه العرب بعد انسحابهم.

٢ - وانتصر قائد وادي آش الاسباني على جبر ونيمو المالح، في مضيق رباحه، فانسحب المالح وجيشه الى البشرات.

٣ - وهاجم ٨٠٠ من العرب، الاسبان المتمركزين في (بطره)، وكان الضباب كثيفاً، فهزموا الاسبان هزيمة منكرة، ولما انقشع الضباب وجد الاسبان أنهم امام قوة غير كبيرة، فعادوا إلى الهجوم، فانسحب العرب.

١ - سيركورج ٢ ص ٣٣٦.

٢٥٦ - المعارك في الجبهة الشرقية :

١ - كان القائد فرناندو الغُري مكلفاً بقيادة القوات الثائرة في الجبهة الشرقية ، وبعد معارك عديدة خاضها مع الاسبان ، ارتد إلى منطقة وادي المرية ، وأقام معسكره في (جيسيخا) الواقعة على نهر المرية ، ورمم فيها بعض التحصينات ، وزاد في عدد الحواجز والشاريس ، وإغراق الأرض بمياه الأقيية ، ليعيق تقدم الفرسان في مسالك الجبال . وتقدر الروايات الاسبانية عدد القوات التي كانت تحت إمرة (الغُري) بحوالي عشرة آلاف . ولما أصدر الملك أمره إلى مركيز بلش بمهاجمة المناطق الثائرة من الجبهة الشرقية ، تقدم هذا على رأس قوة تقدر بحوالي خمسة آلاف راجل وثلاثمئة فارس ، وصفهم مؤرخ كان يرافقهم ويدعى - بيرس دوهيتا - بأنهم كلهم لصوص وهو - أي المؤرخ نفسه - أولهم . ليس لهم هم غير السلب والنهب ، وهتك الأعراض ، والقتل ، فكانوا يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم حتى القطط ، وذلك لكيلا يفقدوا عادة السرقة ، ولم يكن قائداهم المركيز بأشرف منهم ، وقد كلف أخاه بقسمة الغنائم فكان يختصه بأفضلها^(١) .

ووصل المركيز إلى (جيسيخا) يوم ١٢ كانون الثاني ١٥٦٩ فالتحم به الثائرون ، وأخيراً تمكن الفرسان الاسبان من الاشتراك في المعركة ، وبعد قتال شاق ومرير ، دافع فيه العرب عن مواقعهم شبراً فشبراً اضطروا إلى الانسحاب ، ثم توقفوا وعادوا إلى الاشتباك مع الاسبان ، وبعد قتال آخر ضار ، ودفاع عنيد من جانب العرب ، اضطروا إلى الانسحاب مرة أخرى . واتجه (الغُري) إلى (أندرش) لكي ينظم صفوفه ، ويتنضم إلى ملكه .

وقام القائد (ابن مكنون) بمناورة بارعة ليحول دون المركيز ودون مطاردة المنسحبين ، ونجح في ذلك ، فقد سار ابن مكنون بقواته التي تقدرها الروايات الاسبانية بثلاثة آلاف رجل ، باتجاه المرية ، متظاهراً أنه يريد مهاجمتها ، فخاف المركيز من هذه الحركة ، وتخلّى عن مطاردة (الغُري) وجماعته وسار للقاء ابن مكنون .

٢ - استقر ابن مكنون في فيليش (Filiix) ، على السفح الجنوبي لجبال (غدر)^(٢) ، فسار إليه المركيز بقوات بلغت بمن انضم اليها من المغامرين ، حوالي ثمانية

١ - سيركورج ٢ ص ٣٤٥ .

٢ - جبال غدر (Sierra Gador) .

آلاف رجل. وتذكر الروايات الاسبانية أن جيش المريكز كان في حالة من الفوضى لا توصف، وقد بلغ تدمير الجند أشده بسبب الطريقة التي كانت تقتسم بها الغنائم، وأخذ الكثيرون ينسحبون، ولكن غيرهم كان يحل محلهم طمعاً في جني الغنائم، وقد بلغ الاستياء بالجنود حد القسم على أن لا يبقوا عربياً يقع في يدهم حياً^(١)، وتردد المريكز كثيراً في خوض المعركة مع ابن مكنون بهذه الحثالات من الجند الفوضويين، لكنه قرر أخيراً خوضها.

تصف الروايات الاسبانية (ابن مكنون) بأنه رجل خبير في أمور الحرب، وتقول إنه لما رأى تقدم المريكز نحوه وضع خطته على أفضل وجه، فأقام أكثر الجيش في سهل أمام القرية، ووضع مفرزتين من حملة البنادق لتغطية جناحيه، ووضع على جناحه الأيسر أيضاً خمسمئة رجل تمركزوا في جبل منيع. وألبس الأطفال والنساء ملابس المحاربين، وأقامهم في أسفل الحصن القديم بين الصخور ليظن من يراهم من بعيد أنهم احتياطي قوي للجيش، وأقام كميناً من خمسين رامياً في مدخل الوادي.

ولما اقترب المريكز من ميدان المعركة في ١٨ كانون الثاني، فهم خطة القائد العربي، فأمر مشاته بأن يتجهوا إلى خط الدفاع العربي، وأن يتوقفوا على مدى مرمى البنادق، دون الدخول في معركة، إلى أن يصل الفرسان الذين كلفهم بأن يقوموا بالتفاف كبير لتطويق ميسرة العرب. ولكن خطة المريكز فشلت بسبب حماسة أحد الجنود الاسبان الذي أخذ باطلاق النار، وتبعه غيره، ونشب القتال، واشتبك الجيش الاسباني كله فيه، وبعد معركة عنيفة دامت وقتاً طويلاً اضطر العرب إلى الانسحاب، فاجتاز قسم منهم السهل إلى الطرف الآخر، ولم يحاول الاسبان مطاردتهم، أما القسم الآخر فقد لجأ إلى الحصن القديم يحتمي به، فهاجمهم الاسبان، وحمي وطيس المعركة بشكل لم يسبق له مثيل، واستبسل المسلمون استبسالاً كبيراً، واشتركت النساء والأطفال في القتال، ولكن العدو كان أكثر منهم عدة وعدداً، فاضطر القائد (ابن مكنون) إلى الانسحاب حينما لم يبق معه إلا قلة من الرجال، ويعد أن أدى واجبه، كقائد وكجندي على أفضل وجه. وقتل اثنان من كبار قادته يدعى أحدهما (فتي) (Futey)، والآخر (تيسير) (Tosir)، والسلاح في أيديهما، وقتل

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٨.

عديد كبير من النساء والأطفال والمقاتلين، وقذفت كثير من النساء بأنفسهن من أعلى الحصن لكيلا يقعن في أيدي الاسبان سبايا. ولم يوفر الاسبان الأطفال والرضع، فكانوا يقتلون بنذالة كل من يقع تحت أيديهم. ويروي المؤرخ (دوهيتا)، الذي حضر المعركة، أن القسوة التي ارتكبتها الاسبان في ذلك اليوم لا يمكن وصفها لبشاعتها. وروى قصة امرأة وجدت قتيلة ممددة بين أبنائها الستة صبية وبنات، ويبدو أنها خافت على رضيع لها فنامت فوقه لتنقذه فأجهز عليها الجنود وضربوا الرضيع بالسيف فقطعوا لسانه وتركوه يسبح في دم أمه ظناً منهم أنه مات فأنقذه دوهيتا^(١)، وتبالغ الروايات الاسبانية على عاداتها، فتقول إن خسائر العرب كانت نحواً من ستة آلاف قتيل منهم أكثر من ألف محارب، ولم تذكر عدد قتلى الاسبان، ولكن الكونت سيركوريعلق على هذه المعركة بأن عدد القتلى الاسبان لا يمكن إلا أن يكون كبيراً جداً بسبب عنف المقاومة العربية.

وغنم الاسبان إثر هذه المعركة مغانم لا تحصى، وأسروا حوالي ٢٠٠٠ شخص من النساء والأطفال فاسترقوهم، وكان بينهم (ابن القائد ابن مكنون واختاه). ولما امتلأت أيدي الجنود الاسبان من المغانم حاولوا التهرب من القتال، والعودة إلى بيوتهم، وتطاولوا على قائدهم المركيز واستخفوا به.

٢٥٧ - مجزرة رهية يرتكبها الاسبان :

تقول الروايات الاسبانية إن الهزائم التي لحقت بالثائرين حركت النفوس الضعيفة لتطالب بالمفاوضة لتقرير شروط الاستسلام. وتقول هذه الروايات إن ابن جوهر - عم الملك ابن أمية - هو الذي تزعم حركة المطالبة بالاستسلام خوفاً من طغيان ابن أخيه، وحمل من اجتمعوا إليه في قرية قبالة^(٢)، على إرسال رسولين اسبانيين كان العرب قد أنقذوهم من أيدي بعض الثائرين، لمفاوضة القائد الاسباني، وكلف ابن جوهر الرسولين بأن يعرضاً على مونديخار الاستسلام لقاء تأمين الثائرين على حياتهم. لم يستطع مونديخار أن يبيت في الأمر مخافة رفض الملك الاتفاق. وفي ليل ١٨ كانون الثاني وصل المركيز إلى قبالة فسلمها إليه أهلها مع عدد كبير من الأسرى النصاري

(١) سيركورج ٢ ص ٣٤٤.

(٢) قرية قبالة (Gubillas) .

الذين كانوا فيها، فأمن أهلها. ثم غير ابن جوهر رأيه فجأة وأقنع ابن أخيه بالايغال في الجبال، وأثر الانسحاب في نفس بعض ضعفاء النفوس، فتقدم عدد كبير منهم إلى المريكيز يعلنون له طاعتهم، فمنحهم الأمان ايضاً. وجمع المريكيز النساء والأطفال العرب الذين كانوا في قبالة، وكانوا قرابة ٢٤٠٠ شخص، فوضع بعضهم في الكنيسة، وبعضهم الآخر بقي خارج الكنيسة، وكان من بقي خارج الكنيسة قرابة ألف امرأة وثلاثمئة رجل من الشيوخ. وفي الليل تقدم أحد الاسبان يحاول اغتصاب إحدى الفتيات فدافع عنها أحد المسلمين، وقتله في أثناء العراك بينهما، ولما علم النصاري بما أصاب زميلهم اندفعوا يقتلون المسلمين من رجال ونساء وأطفال، حتى قضوا على جميع الذين كانوا خارج الكنيسة^(١).

٢٥٨ - تجدد المعارك في المنطقة الغربية :

أراد الملك أن يضع حداً للتنافس بين [مريكيزي (موندنخار) و(بلش)]، فأرسل شخصاً يدعى فرانسيסקو دوكوردوفا إلى المرية بصفة قائد عام، كما أرسل شخصاً آخر يدعى دون ديكوندومندوسا للاطلاع على الحالة في (قبالة) فأدرك المريكيز موندنخار أن عليه أن ينتهي من أمر الثورة إذا أراد أن يحتفظ بمنصبه، فترك قبالة يوم ١٥٦٩/١/٢٣ متجهاً إلى باسط أجييجر لمطاردة الشائرين، ولمنعهم من الاجتماع والتمركز في مكان. ولما علم ابن أمية بحركته عقد مجلساً حروبياً حضره عدد من قادة المنفيين بينهم (الغري) و(الشنيش) و(البرطال) فاقترح عليه هؤلاء القادة ترك مدينة أوشيخار الواقعة في سهل مفتوح، والانسحاب إلى جبال سيرا نيفادا، لأنه من الصعب الدفاع عن مدينة واسعة ضد عدومزود بالمدفعية، كما أن الجبال تيسر للشائرين سبيل الانسحاب في حال الهزيمة والملاحقة. إلا أن والد زوجة ابن أمية واسمه (ميجيل الكريمي) الذي كان يريد انقاذ أملاكه الموجودة في منطقة أجييجر، وستر السرقات التي ارتكبها في أموال الثورة بصفته خازنها، كان يريد حصر الشائرين، وجعلهم تحت رحمة الاسبان، ومن ثم مفاوضة الاسبان على الأمان لقاء تمكينهم من القبض على الملك، وقادة الثورة. وقد فطن قادة الثورة لخدعته، فقتله ابن أمية، وقتل أفراد عائلته، ثم انسحب الشائرون من أجييجر وتبعهم أكثر أهلها، فدخلها

(١) سيركورج ٢ ص ٣٤٤.

المركز دون قتال، وجاءه عدد من مختاري القرى مستسلمين فأمّنهم، وأمن من يصل إليه وأضعاً سلاحه.

٢٥٩ - مفاوضة ابن أمية على الاستسلام:

وفي ٢٦/١/١٥٦٩ عادت كتائب الاستطلاع الاسبانية لتخبر مركز (موندنخار) أن ابن أمية والثائرين يتمركزون في موقع حصين جداً في (بطرنة) قرب قمم جبال الثلج (سيراً نيفادا) فقرر أن يسير إليهم فوراً، ورغم جميع المحاذير والمخاطر. وفي ذلك الوقت جرت اتصالات بين الملك ابن أمية والقائد الاسباني للاتفاق على حل مقبول لانهاء الثورة. وتقول الرواية الاسبانية إن ابن أمية أصبح يميل إلى إيجاد تسوية سلمية، بعد أن أثرت في نفسه، وفي نفوس جنوده الانكسارات السابقة، وأنه أصبح يخاف نتيجة المعركة المقبلة، فأرسل إلى موندنخار يعلمه بأنه يريد أن يستسلم، وأنه يريد مقابلته. وطلب إليه أن يتوقف الجيش عن الزحف، ليتمكن إيجاد الحل. وأرسل المركز رجلاً من قبله يحمل رده، ولكن الجيش استمر في تقدمه حتى أصبحت مقدمته أمام معاقل الثوار في (أنيسة) وعلى مرمى أسلحتهم.

٢٦٠ - نشوب القتال:

واقرب قائد الميسرة الاسباني من معاقل المسلمين أكثر مما يجب، فنشب القتال بدون إصدار أمر من القادة، وحينما نشب القتال كان ابن أمية يستمع من رسول المركز إلى رده، فاعتقد أن في الأمر خدعة فترك الرسول في مكانه وامتطى صهوة جواده وانطلق إلى ميدان المعركة ليقود جنوده، وحمي وطيس المعركة واشتبكت جميع القوات من الجانبين في قتال ضار، وبعد معركة غير متكافئة اضطر ابن أمية إلى الانسحاب، بعد أن أبلى أحسن البلاء، وتفرق المسلمون في شعاب الجبال. ولاحق الاسبان ابن أمية لكنه تمكن من النجاة إذ ترجل عن حصانه، واختفى بين الصخور. واستولى الاسبان في (بطرنة) على كثير من المغانم، وأسروا أم ابن أمية وأخواته وإحدى زوجاته.

٢٦١ - مهاجمة الاسبان مراكز المسلمين خارج البشرات :

كان العرب يحتلون خارج البشرات موقعين هامين هما (قوجس) (Guejar) و(اينوش) (Inose) وكان قائد الثورة في (اينوش)، وتسميه الروايات الاسبانية (فرانيسيسكولويس)، يساعده عدد من المتطوعة الاتراك بقيادة رجل يدعى (غوسالي). وقد تحصن الثائرون فيها وأقاموا لأنفسهم عدداً من مراكز المراقبة حول المدينة. وقد راجت في ذلك الحين شائعات عن قرب وصول قوات تركية مؤلفة من ٧٠٠ رجل، وعن ارسال ابن أمية اخاه عبد الله الى الجزائر ليرتبط من واليها التركي التعجيل بإرسال إمدادات الرجال والأسلحة والذخائر.

٢٦٢ - مهاجمة اينوش :

عهد الملك الاسباني إلى أخيه (دون خوان)، بتولي القيادة العليا للعمليات العسكرية في غرناطة، وفوض إليه أمر اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على الثورة، وإخضاع الثائرين. ولما علم بتمركز العرب في اينوش كلف فرنسيسكودوكوردوفا بالمسير إليهم ومهاجمتهم. وقد وجد (دوكوردوفا) أن قواته قليلة، فأراد أن يعززها، واتصل بمركيز بلش لكن هذا لم يرد عليه. وفي تلك الأثناء وصلت إلى المرية تسع سفن تحمل المؤن والمعدات للحامية فطلب (دوكوردوفا) من قائد السفن (الأميرال دو اندارادا) أن يمدّه ببعض رجال الأسطول ليقوم بالمهمة التي كلف بها. وبعد نقاش حول اقتسام الغنائم وحصة رجال الأسطول منها، توصل الجانبان إلى الاتفاق على اقتسامها مناصفة. فأرسل إليه الأميرال ٣٠٠ رجل، انضموا إلى دوكوردوفا الذي كان يقود ٩٠٠ راجل و ٤٠ فارساً، وخرج الاسبان من (أنيسة) (Iniza)، يوم ٣٠ كانون الثاني. وأرسلوا أمامهم مفرزة استكشاف مؤلفة من ٢٠٠ رجل لاختبار قوة المسلمين، فتناوشها المسلمون مناوشة ضعيفة ثم انسحبوا. وفي يوم ٣ شباط قسم الاسبان قواتهم الى قسمين كل قسم اتجه من طريق لمهاجمة معقل الثوار مع طلوع الشمس دفعة واحدة. ولكن المسلمين اصطدموا بأحدى المفرزتين وهزموا، ثم وصلت المفرزة الثانية وعاد المنهزمون من المفرزة الأولى فانضموا إليها، وهاجموا المسلمين فانتفض المسلمون عليهم وأعملوا فيهم السيوف والرماح والرصاص، فانهزم الاسبان لا يلوون على شيء، ولكن بعض الجنود الاسبان - على ما تقوله الرواية

الاسبانية - تمكنوا من التسلق إلى أحد المرتفعات ، ثم هبطوا وأخذوا يتصايحون ، فعاد الاسبان المنهزمون إلى التجمع من جديد ، وجددوا الحملة على المسلمين ، وقاوم الأندلسيون والأتراك الذين معهم مقاومة باسلة ، فقتل أكثرهم وأسروا القائد المسلم فرانسيسكو لوبس و (٢٧٠٠) امرأة وطفل استرقوا جميعاً ، وتقدر الروايات الاسبانية المغنم التي حازها الاسبان بـ (٥٠٠ ألف دوكات) .

٢٦٣ - مهاجمة (جواخارس) :

تقول الروايات الغربية ان مركيز (موندنخار) ، كان يعلم أن نصارى مالقة يريدون إثارة المسلمين بالقوة ليستولوا على أسلابهم ومتاعهم وأملاكهم ، فأرسل الى الملك يعلمه بحقيقة الوضع ، ويرجوه ألا ينخدع بحماسة بعض المغامرين الكاذبين ، ولكن بعض الاسبان أخذوا يشنعون على المركيز ، وينتقدونه لتركه جواخارس خارج عملياته الحربية ، ومن بين هؤلاء المشنعين ابنه الكونت دوتانديلا ، فاضطره كل ذلك إلى مهاجمة جواخارس ، وفي ٥ شباط تحرك على رأس ٢٠٠٠ من رجاله ، فوصل إلى جواخارس الأعلى وهناك وصلته نجدة من ٣٥٠٠ رجل و ٢٠٠ فارس .

كان العرب يتمركزون في قلعة حصينة تدعى (بينون قوبلر) ، تقوم في قلب المنطقة الجبلية الوعرة ، بقيادة (الزمار) و(الأرشيدوني) ، وقبل أن تنشب المعركة ، تقدم أحد المغامرين الاسبان من المركيز يرجوه السماح له بالقيام بعمليات استكشاف ، وكان يطمع في الحقيقة بأن يراه العرب فينهزموا فيحوز وحده على مغنمهم ، وفطن المركيز لمقصد هذا المغامر فلم يعطه غير خمسين رجلاً لمرافقته لكن الطمع دفع بالكثير إلى التسلل من المعسكر والمحاق بهذا المغامر حتى أصبح تعداد من معه ٨٠٠ رجل ، فاستدرجهم (الزمار) إلى المناطق الداخلية وقضى على أكثرهم وقتل الضابط المغامر . ثم لحق بهم المركيز ليمنع وقوع الكارثة لكنه وصل متأخراً وتعرض إلى خطر كبير حينما حاول انقاذ بعض الهاربين .

وفي ١١ شباط قام جيش المركيز بهجوم عام على مواقع الثوار فقاوموه بعناد وإصرار وقتلوا الكثيرين من رجاله وردوا ثلاث هجمات شنها الجيش عليهم إلا أن الجيش تمكن في الهجوم الرابع من الوصول إلى مواقع لا تهددهم فيها أخطار الحجارة التي تقذف من أعالي الجبال ، ولما أصبح الصباح علم المركيز أنه لم يبق في المعقل من

العرب غير النساء والأطفال فأمر بأن يؤتى بهم اليه ثم قتلهم جميعاً ولم يرحم أحداً منهم .

وطارد الجنود الثائرين فقبضوا على (الزمان) ، بينما كان يحمل ابنته على كتفه ، وعذبوه عذاباً شديداً تحمله بصبر عجيب ، وقرضوا لحمه بالحديد المحمي ، ثم قطعوا مفاصله ، ولم ينسب إليه جرم سوى أنه عدو شريف^(١) ، وهرب (الأرشيديوني) وتفرق جمعه .

٢٦٤ - مطاردة ابن أمية :

وبعد احتلال (جواخاراس) أرسل الاسبان جنودهم للبحث عن ابن أمية ، والقبض عليه ، لأنهم أدركوا أن الثورة لن تنتهي إلا بالقبض عليه . وقد علموا من جواسيسهم أنه يقضي الليل في قرية (فالور الأعلى) ، لدى ابن عبو ، فأرسلوا اليه ضابطين مع ٦٠٠ رجل مسلحين بالبنادق ، لانفاذ مهمة القبض عليه ، وسارت المفرزة في دروب ملتوية وعرة لتصل الى غبأ ابن أمية ، ولكن عياراً نارياً انطلق فتنبه أجندي القائم على حراسة ابن أمية ، فأيقظ ابن جوهر فهرب هذا دون أن يوقظ ابن أخيه (ابن أمية) الذي كان ينام في الغرفة المجاورة . ولما استيقظ ابن أمية ، وحاول الهرب ، وجد البيت محاطاً بالجند ، ولم يكن في البيت غبأ يختفي فيه ، فقرر مقابلة الأمر بشجاعة ، ولما طرق الضابط الباب ، تقدم ابن أمية يفتحه بنفسه ، ثم وقف وراءه فاندفع الجند داخلين الى البيت ، ولم يفطنوا إلى مكانه . ولما دخل آخر جندي خرج ابن أمية ، واختفى بين الصخور ، وقد عذب الاسبان (ابن عبو) عذاباً نكراً ثم قتلوه .

٢٦٥ - عروض العرب للعيش بسلام :

ولما وصلت الثورة الى هذه المرحلة تقدم العرب بعروض إلى المركز ، وكان كل ما طلبوه هو أن تمنحهم الدولة الحرية ، وحق الحياة فقط ، ويعلنون عن موافقتهم على ان تنقلهم الدولة إلى أي مكان شاءت من المملكة . وعرضوا على المركز ان يتحملوا هم نفقات الحاميات التي توضع في مناطقهم إذا أريد تركهم حيث هم .

١ - سيركورج ٢ ص ٣٨٥ .

ولما وصل العرض إلى المركيز، أحاله إلى الملك مع رجاء ملح بقبوله، ومنع عمو عام يعيد الأمور إلى ماكانت عليه قبل الثورة. ولكن اقتراح المركيز قوبل باعتراضات كثيرة في البلاط، وطالب المعارضون بضرورة انهاء كل شيء بقوة السلاح، أما الملك فبقي متحيراً لم يقطع بشيء.

٢٦٦ - تجدد الثورة:

وأدى تردد الملك إلى ضعف سلطة المركيز على جنوده، فأصبحوا عصابات مسلحة تقوم بأعمال النهب والسلب، وبدؤوا ينتظمون في جماعات مؤلفة من خمسة عشر إلى عشرين جندياً، تغير على القرى العربية، وتقبض على من يقع في أيديها وتحمله إلى سوق النخاسة في غرناطة لبيع فيها رقيقاً. وقام جنود المركيز دوفيليس بكتير من مثل هذه الأعمال التعسفية، وعلنوا عدم اعترافهم بصكوك الأمان التي أصدرها المركيز موندنخار. كما أن مركيز بلش نفسه كان يشجع على ازعاج العرب المسلمين، طمعاً في أن يدفع بهم إلى الثورة ليجد المبرر لمحاربتهم، واستصفاة اموالهم، واسترقاق من يقع بيده منهم^(١).

وتزايد عسف الاسبان لدرجة لا تحتمل. ففي إحدى المرات هاجم (الكونت دوتانديلا)، إحدى قرى (اجيجر) بحجة البحث عن ابن أمية، فقتل رجاله جميع الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وحينئذ لم يبق للعرب خيار أمام هذه الجرائم التي ترتكب بحقهم، فأخذوا يلتحقون بمعقل الثائرين. أما هرباً من العسف، أو حباً بالانتقام، فتزايد عدد الثائرين من جديد.

٢٦٧ - مذبة السجناء في غرناطة:

ارتكب الاسبان جريمة نكراء بحق مئة وخمسين مسجوناً من المسلمين، كانوا في سجن غرناطة، ولم ينج من المذبة إلا شخصان هما والد الملك ابن أمية وعمه. فقد هاجم حراس السجن والمسجونون النصارى، المسجونين المسلمين، وأخذوا في ذبحهم. ولتبرر السلطات الاسبانية هذه الجريمة الدالة على النذالة، ادعت أن الأمر وقع خطأ بسبب حادث التبس على الحراس، وتروى القصة بالشكل التالي:

سرت شائعات في غرناطة أن ابن أمية ورجاله سيأتون إلى غرناطة، وستكون إشارة وصوله، إيقاد نيران على قمم جبل الثلج (سيرانيغادا)، ترد عليها البيازين، بنيران مماثلة، وعندئذ ينطلق الهجوم على السجن. وفي مساء ١٧ آذار ١٥٦٩، جاء شخص إلى الكاردينال (دوديسا)، وأخبره أن الإشارة أعطيت. وعلم نصارى غرناطة بهذا الخبر فسادهم التوتر. ووضع دوديسا قوات إضافية في السجن، ووزع السلاح على المسجونين النصارى في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكانت تلك الساعة هي ساعة تبديل حرس السجن، فأعطى الجندي المناوب الإشارة بدق الجرس بشكل عنيف ومتلاحق، فظن نصارى غرناطة أنها دعوة للاستنفار، فتحركت المدينة، وحينئذ انطلق السجناء النصارى، وحراس السجن، يذبحون السجناء المسلمين. وقام المسلمون مقاومة باسلة، ودافعوا عن أنفسهم بكل شيء وقع تحت أيديهم: بالحجارة التي انتزعوها من الجدران، وبالمزاييج، وبالمفاتيح. ودام الصراع مدة ساعتين. ولما رأى الحراس أن مقاومة المسلمين عنيفة، وأنها أوقعت بالمهاجمين كثيراً من الخسائر، فتحو أبواب السجن للشعب، فدخل الكثيرون، وساعدوا الحراس في قتال المسلمين. واستشرت المعركة التي دامت سبع ساعات، وأبدى فيها العرب الكثير من ضروب التضحية والبسالة والجلد، ولم يترك أحد منهم نفسه تذهب رخيصة، فما كان يسقط منهم واحد إلا بعد أن يسقط واحداً أو أكثر من الأسبان. وتكاثر المهاجمون عليهم، وقتل منهم عشرات، ولما تعبوا من القتال وأدركوا أنهم لا نجاة لهم، أوقدوا ناراً وقذفوا بأنفسهم فيها، مفضلين الموت حرقاً على الموت بيد أعدائهم، ولم ينج من هذه المذبحة إلا والد ابن أمية وعمه، فقد كان الحراس يراقبونها مراقبة دقيقة.

ويذكر الكونت سيركور، أن المذبحة كانت كلها من تدبير الكاردينال (دوديسا)، انتقاماً من المسلمين. وقد اختلقت هذه الرواية لتغطية جرمه الشائن^(١). واغرب ما في هذه القصة هو أن القضاء الأسباني أصدر حكماً بحق المسجونين القتل في هذا الحادث قضى بمصادرة أموالهم وعقاراتهم لصالح الدولة، وحرّم الأيتام والأرامل من الميراث. ولم يذكر أحد من المؤرخين سبباً معقولاً لصعود هذا الحكم العجيب، ولكن أحدهم ذكر تعليلاً أعجب من الحكم إذ قال: (كان بين المسجونين أفراد ارتكبوا جرائم، وكانوا مسؤولين فعلاً، ولكنهم كانوا جميعاً مسؤولين بالقصد والإرادة).

١ - نفس المصدر ج ٢ ص ٤٠٦.

٢٦٨ - جرائم الاسبان بحق العزل والنساء :

لا ينكر المؤرخون الاسبان أن ألوف الجرائم ارتكبت بحق العرب المسلمين الذين لم يرتكبوا اثماً أو جرماً، ولم يتحركوا من منازلهم، ولم يساهموا في الثورة، وأن الجنود والضباط والمسؤولين كانوا يدخلون المناطق الهادئة فيقتلون، ويأسرون، ويسبون النساء والأطفال، ويهتكون الأعراض، وينهبون الأموال، وأن كبار القادة كانوا يقومون بهذه التصرفات ليحملوا الناس على الثورة فيكون لهم مبرر لآبائهم، والاستيلاء على جميع أموالهم، وسبي ذريتهم. وأصبح الحصول على المغنم هو المحرك الأول للجنود والضباط والقادة والأمراء ورجال الكنيسة. ولم تكن هناك سلطة تستنكر هذه الجرائم البشعة التي لطخت بالعارجين اسبانيا. ولم يكن للعرب تجاه هذه الجرائم البشعة، والظلم الذي لم يسبق له مثيل، من خرج إلا أن يحملوا السلاح، وينضموا الى الثورة، فحركوها من جديد، بعد أن كادت نيرانها تخبث. فمن ذلك ما تذكره الروايات الاسبانية من أن قائد حصن شلوبانية الاسباني - ويعرف بإسم ديجورامير يزدهارو - اتفق مع قائد الأسطول على اقتسام المغنم لقاء التساعد والتعاون، فالتجها إلى المزارع، حيث كان الفلاحون المسلمون يجنون قصب السكر، فاعتقلا جميع السكان وخربوا المزارع ونهبوا البيوت، وعادا يقتسمان المغنم. وفي قرىتي (مورتاس) و(تورون) جاء مئة من الجنود الاسبان، من حامية مدينة (أدرا) يبحثون عن نصيبهم من الأرباح والمغنم، فقاومهم المسلمون، فعادوا إلى قائدهم يشكون فذهب هذا يهدد العرب ويتوعددهم ويسيء معاملتهم، فقتله أحد العرب، وحينئذ انقضت القوات الاسبانية على رجال القريتين، وقتلتهم جميعاً وسبب النساء والذرية.

وفي منطقة (باياركا) حاول ٢٥٠ جندياً نهب أموال العرب، وسبي نسائهم، فقاومهم أهل المنطقة، وقتلوه عن آخرهم. وذهبت مفرزة من جند (مركيز بلش) إلى إحدى القرى الواقعة في ضواحي المرية، لتهب ما فيها وتسبي نساءها، فقتلها أهل القرية، والتحقوا بالثوار. وتعترف الروايات الاسبانية أن هذه الحوادث كانت تتكرر كل ساعة، حتى ان القادة الاسبان لم يعودوا يفكرون في التحقيق فيها، وسؤال فاعليها. وقد أدت هذه المآسي والجرائم الى دفع الناس للالتحاق بالثورة، لانهم لم يبق لهم خيار آخر.

كان المركيز دومونديخار يحصرهم في ملاحقة ابن امية ، لادراكه أن الثورة لن تتحطم الا بالقضاء عليه . وكان أحد الخونة العرب يتعاون مع المركيز للقبض على ابن امية . وفي ٣ آذار أرسل المركيز قائدين من كبار قواده مع ألف جندي لمطاردة ابن امية . وسار القائدان في طرق ملتوية للتخلص من مراكز المراقبة العربية ، ووصلا أخيراً أمام قرية (فالور الأعلى) ، التي يتخذها ابن امية مقراً له ، ولما لم يكن في القرية كثير من الرجال إذ ذاك ، اغتنم الاسبان الفرصة ، وقضوا الليل كله بالنهب والسلب والسبي ، وكان بين السبايا ١٢٠٠ امرأة ، وفي الصباح ، كان العرب في المناطق المجاورة قد علموا بوضع الاسبان ، فاوقدوا النيران في قمم الجبال طلباً للنجدة ، فتنجمرت قوات عربية كبيرة ، وحاول أحد القادة العرب التفاوض مع القائدين الاسبانيين ، لاعادة ما نهب رجالهما ، ولإطلاق سراح السبايا ، وأعلن لهما أنهم انما يريدون السلم والحياة الهادئة ، فشتمه القائدان الاسبانيان ، وحينئذ لم يبق بد من خوض المعركة . فانقض العرب على الفوج الاسباني ، وبادوه عن آخره ، ولم ينج إلا قرابة أربعين رجلاً . وتقول الرواية الاسبانية إن العرب أرسلوا إلى المركيز (دومونديخار) في اليوم التالي يشرحون له الوضع والأسباب التي دفعتهم للقتال . كما أعربوا له عن استعدادهم لاعادة السلاح الذي تركه الاسبان في أرض المعركة ، فقبل المركيز عذرهم ، لأنه يعرف صدق العرب ، وطبع الاسبان الجشع^(١) .

٢٧٠ - تعيين الأمير دون خوان قائداً عاماً :

في اواسط آذار ١٥٦٩ ، عين الملك اخاه (دون خوان داستوريا) ، قائداً عاماً للقوات المحاربة ، وأرسل إلى المركيز دومونديخار ، يطلب إليه عدم القيام بأية حركة حتى يصل القائد العام ، ثم خيره بين البقاء تحت امره أخيه ، وبين الانتقال إلى غنطوية المجلس العسكري في غرناطة ، ففضل الانتقال إلى غرناطة . ووصل الأمير دون خوان إلى غرناطة يوم ٢٢ نيسان ، وعقد مجلساً خريباً وضعت فيه خطة العمل

١ - سيركورج ٢ ص ٤١٤ .

المقبلة . وتقوم هذه الخطة على تكليف مركيز بلش بالهجوم على البشرات ، واغراء المسلمين بالهجوم على قلعة اورجبة التي تتمركز فيها حامية اسبانية قوامها ٢٥٠٠ رجل ، بينما يكون قائدها مستعداً لمواجهةهم ، ويبقى جيش غرناطة قوة احتياطية .

٢٧١ - تجدد حماسة العرب :

دفعت جرائم الاسبان العرب إلى أحضان الثورة من جديد ، فانضم إلى ابن امية الوف منهم ، وتكنوا في وقت قصير من السيطرة على جميع المناطق ، حتى انه لم يبق بيد الاسبان في البشرات إلا جسر الطبلات والبدول . وعاد النشاط إلى ابن امية ، فعاقب المختارين الذين طلبوا الامان من الاسبان ، وأرسل قوات حاصرت حصون الساحل : اورجبة والمنيقروشلويانية وموتريل وادرا والمرية . واستولى المسلمون على حصن كاستل فيروه الساحلي ، فأمنوا عن طريقه الاتصال بالمغرب .

وآلف ابن امية مجلساً ضم إليه عمه ابن جوهر الصغير ، وميجيل الدالي ، ورجلاً اسمه مشرف هو مختار قرية اوشبخار ، وفرناندو الحبقي من وادي آش . ونظم الجيش على نمط التنظيم الاسباني ، وقام باتصالات مع شريف مراكش ومع والي الجزائر التركي .

٢٧٢ - هجوم الثوار في جميع الجبهات :

وفي مطلع شهر أيار ١٥٦٩ اتخذ الثائرون خطة الهجوم على جميع الجبهات ، وأمر ابن امية عرب المرية ووادي المنصورة باعلان الثورة ، ووصلت القوات الثائرة في اندفاعها إلى وادي شنبيل ووادي آش ، ومرج غرناطة ، حتى ان بعض مفارزها دخلت غرناطة نفسها .

٢٧٣ - نصر المسلمين على القائد الاسباني لوائي آش :

قرر المركيز دوفيليس ان يدخل البشرات بدون اذن الأمير دون خوان ، وكتب إلى حاكم وادي آش يأمره باحتلال مضيق رباحه ، لتأمين الطريق في هذه المنطقة ،

فقام هذا الأخير على رأس ٤٠٠ رام باحتلال هذا المضيق، ولكن قوة عربية، فاجأتهم وقضت عليهم جميعاً. وقد دفع هذا النصر بعرب مركيزية زينيت إلى الثورة، بعد ان خلت منطقة المرية من قوات مركيز بلش. وقد استاء خوان من تصرف المركيز فكتب إليه بأمره بالتوقف في المكان الذي يدركه فيه حامل الرسالة. ولكن المركيز لم يتوقف، وتابع سيره إلى (برجه) (berja).

٢٧٤ - مهاجمة ابن امية جيش المركيز:

نجحت الثورة في السيطرة على كثير من المناطق، وحملت تصرفات الاسبان عرب وادي الكرين، ووادي شنيل، على الثورة. وذهب القائدان حسن الشعبي والناقص إلى تلك المناطق، وشرعا في مهاجمة القوافل الاسبانية، واحتل الشعبي أبشر بالقرب من منابع نهر شنيل وحصنها، فوجد ابن أمية أن مصلحة الثورة تقضي بأن يقضي على قوات المركيز في (برجه). فاستدعى قوات كثيرة للانضمام إليه، للزحف على (برجه) في أوائل حزيران. وكانت خطته تقوم على القيام بهجومين فرعيين على جهتي اليمين واليسار من الحصن. أما الهجوم الرئيسي فيقوم به امين سره مشقر (أومشكر). وتطوع ٤٠٠ رام من مسلمي افريقيا (القومي) ليكونوا في طليعة القوات المهاجمة، واقسموا على ان لا يعودوا الا منتصرين. وتبعهم ٦٦٠ اندلسي. وكلف فوجين يضم كل منهما قرابة ألف مقاتل. بالقيام بالهجومين الفرعيين، وبقي ابن امية في حوالي ٤٠٠ رجل كقوة احتياطية.

أما المركيز فقد عرف من أحد الأسرى خطة ابن امية فهاله الأمر، وفكر في اخلاء معسكره ولكنه أدرك انه هالك على كل حال. فاختر الثبات على انه أهون الشرين. وأخذ في الاستعداد ووزع رجاله القادرين على القتال، وكانوا حوالي ٢٥٠٠ رجل، ووضعهم في الأماكن التي خصصها لهم، وأمرهم بحمل اسلحتهم، والبقاء على أهبة الاستعداد طوال تلك الليلة. وعند الفجر ظهر الفوج العربي الأول سدي يقوده (مشكر)^(١)، واقتحم الطريق، وكان الاسبان متمركزين على جانبيه، وأدرك مشكر ان الاسبان متنبهون له، فاراد العودة ولكن المركيز لم يمهله فنشبت

١ - ورد اسمه في الروايات الاسبانية (Maxacar).

المعركة، وقاتل الفدائيون من مسلمي المغرب قتالاً بطولياً رائعاً، واستشهدوا جميعاً، وبعد معركة ضارية مريرة اضطر ابن امية إلى سحب قواته تحت وطأة هجوم الفرسان. وقد تحمل الطرفان خسائر باهظة، واضطر المركز اثر هذه المعركة إلى الانسحاب إلى ادرا. ويقول الكونت سيركوران كلا من الجانبين ادعى النصر في هذه المعركة، ولكن الشيء المؤكد هو ان ابن امية هو الذي جنى ثمار هذا النصر إذ افلح في زحزحة المركز عن موقعه، واضعف هيئته، فأعلن مسلمو رادي المنصورة الثورة^(١)

٢٧٥ - امتداد الثورة إلى مقاطعة مالقة :

دفعت تصرفات النصارى الاسبان بسكان منطقة مالقة إلى الثورة، كما دفعت غيرهم إليها، فأعلن سكان المنطقة الواقعة بين الحامة وبين جبال (بني طومين)^(٢) الثورة في ٢٣ أيار، وقادهم أحد قادة المنفيين ويدعى (الشريان)، وشخص آخر يعرف باسم (فرناندو الدرة) وتجمعت القوات الثائرة في إحدى الهضبات، فخرج اليهم حاكم الرية ليهاجمهم فهزموه هزيمة منكرة، وألجؤوه إلى حصن (بلش مالقة)، ولم يعد يجرؤ على الخروج منه .

٢٧٦ - بطولات وفداء :

وفي ١ حزيران، وصلت سفن إلى شاطئ بلش، فاستأذن قائدها الملك ورجاه السماح له بالقيام بهجوم على الشوار المتجمعين في مرتفعات فريخليانا - وهو المكان الذي يتجمع فيه ثوار منطقة مالقة - فأذن له، فسار في يوم ٧ حزيران على رأس سبعة آلاف رجل إلى المرتفع . ولم يكن للعرب من سلاح غير الأسلحة البيضاء بينما كانت، القوة الاسبانية مزودة بالمدفعية والبنادق، وانقسمت القوة الاسبانية إلى أربع فرق، هاجمت المرتفع من جهاته الأربع، فقاومها العرب مقاومة باسلة، وردوا

١ - سيركورج ٢ ص ٤٣٣ .

٢ - اورده محمد عبد الله باسم جبال (بتونير) ووردت في الرواية الاسبانية (Sierra de Bentoniz)

هجمات الفرق الثلاث ، بنجاح كبير ، بعد ان اوقعوا فيها خسائر فادحة ، ولم يفتنوا إلى الفرقة الرابعة ، لأنها لم تصل إلى ميدان المعركة . وحينما كان العرب منهمكين في رد هجمات الفرق الأخرى ، دقت طبول الفرقة الرابعة من أعلى المرتفع ، فاندفع اليها المسلمون . وتقول الروايات الاسبانية ان النساء العربيات قاتلن في ذلك اليوم ببسالة فائقة ، ولكن القوى كانت غير متكافئة ، ولعبت المدفعية دوراً كبيراً في انهك العرب فاضطروا إلى الانسحاب . وحينئذ شوهد فصل من فصول التضحية والفداء لم يسبق له مثيل في التاريخ ، فقد تقدم الشيوخ العرب أمام الشباب الذين يستطيعون خدمة قضية الثورة إذا ما نجوا ، ووقف الشيوخ صفاً مترصداً لا يمكن اختراقه ، وثبتوا في وجه الاسبان ، حتى قتلوا عن آخرهم . وقد مكن فعلهم هذا الفين من الشبان من الانسحاب بسلام وانتظام ، ونجا كثير من النسوة ، ولكن ثلاثة آلاف منهن اسرن فتمن جوعاً . أما الذين نجوا فقد تابعوا سيرهم إلى البشرات حيث انضموا إلى قوات ابن امية .

٢٧٧ - نبل العرب في أثناء المعارك :

وبرغم جميع المآسي والفظائع التي ارتكبتها الاسبان من حكام وجنود وأفراد بحق العرب المسلمين ، فإن المؤرخين الغربيين المنصفين يعترفون بأن ثوار منطقة مالقة ، وجبال بني طوميز ، عاملوا جيرانهم النصارى معاملة نبيلة ، فلم يعتدوا على أحد منهم ، ولم يرتكبوا حادثاً واحداً من حوادث القتل والسرقة ، وانما جمعوهم ، وارسلوهم جميعاً إلى بلش سالمين . ويقول سيركوران النساء المسلمات اللواتي عاملهن الاسبان معاملة وحشية بربرية ، اظهرن كثيراً من الإنسانية نحو الاسبان خلال الثورة^(١) .

٢٧٨ - استيلاء العرب على سيرون :

أرسل ابن امية قوة إلى وادي المنصورة للاستيلاء على بعض الحصون المنيعه

١ - نفس المصدر ج ٢ ص ٤٣٤ .

التي سيطر على السوادي . فهاجمت قلعة سيرون التي تعتبر أكثر هذه المواقع قوة وتحصيناً ، ولم يكن لدى العرب مدافع ولا آلات لقهر الحصون ، فاضطروها بالجمع إلى الاستسلام يوم ١١ أيار . وأرسل الاسبان قوة لفك الحصار ولكنها وصلت متأخرة .

٢٧٩ - مأساة اخراج المسلمين من غرناطة :

كان الكردينال (دوديسا) رئيس الادارة المدنية في غرناطة ، لا يترك مناسبة فيها اساءة للعرب إلا اغتنمها . ولما تزايد اشتعال نار الثورة ، فكر في اخراج العرب من حي البيازين في غرناطة ، واخذ يروج الشائعات بأن العرب سيقومون بثورة في نفس الوقت الذي يشن فيه ابن امية وجماعته هجوماً على المدينة . وتقدم دوديسا بمشروع إلى المجلس العسكري في غرناطة يتضمن تفاصيل خططه لطرد العرب من البيازين ، ولكن المجلس رفض المشروع بناء على معارضة الدوك دوديسا والمركيز دوموندنخار في ان يحمل المجلس الأبرياء ذنب المسيئين .

ولكن دوديسا لم يئس فعاد يجدد الشائعات عن قرب اندلاع الثورة في البيازين ، وعرض بعد شهرين مشروعه من جديد على المجلس ، ولما أيد الأمير خوان المشروع ، انضم اليه جميع الأعضاء بمن فيهم المركيز (دوموندنخار) . وفي ٢٣ حزيران ١٥٦٩ صدر أمر المجلس باخراج العرب الموجودين في غرناطة وحي البيازين ، وخرج المنادون على أصوات الطبول يدعون العرب إلى الاجتماع في الكنائس في مناطقهم ، وأصدر دوديسا أمراً يقضي بضمان حياة من يطيع الأمر ، وأدرك العرب عجزهم عن المقاومة ، إذ كانت الحكومة اتخذت تدابير أمن مشددة ، فتقاطروا إلى الكنائس حيث قضوا ليلتهم .

وفي اليوم التالي اخرجوا من الكنائس بعد ان اوثقت ايديهم ، ثم وضع الشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن الستين والأولاد الذين تقل أعمارهم عن عشرين في جهة وجمع الرجال الآخرون ، بين صفين من الجنود الشاكي السلاح ، فقادوهم خارج المدينة إلى المستشفى الملكي . واندفعت النساء العربيات يحمسن الرجال على التمرد والثورة ، ويقلن لهم : ايها الأشقياء ، انهم يقودونكم إلى المجزرة ، وأنه لمن الأشرف لكم أن تموتوا فوق الأرض التي ولدتم فيها ، واندفع أحد الشبان فضرب قائد الجنود

بحجر على رأسه كاد يصصره، وقد انتقم الجند من العرب ابشع انتقام هذا الحدث، وكاد الأمر يؤدي إلى مجزرة.

ثم انتقى الاسبان بعض الصناع والعمال المهرة، وابقوهم في غرناطة نظراً للحاجة اليهم. وهرب كثير من الشبان يوم اعلان الأمر. وتقول الرواية الاسبانية ان أمر الطرد لم ينفذ إلا بحوالي ٣٥٠٠ رجل وحوالي ٧٠٠٠ امرأة ثم وجه الجميع قوافل إلى المناطق المعينة لإقامتهم. وكان قد تقرر ان يرسل بعضهم الى قشتالة، ومنهم من أرسل إلى الاسترهادورا، ومنهم من أرسل إلى مقاطعة الأندلس. وتتعرف الرواية الاسبانية أيضاً بأنه لم يصل منهم إلى المناطق المعينة لهم إلا أعداد ضئيلة. أما الآخرون فإنهم ماتوا قتلاً بيند حراس القوافل، أو باعهم الحراس عبيداً في سوق النخاسة، أو ماتوا من الجوع والتعب^(١)، فكانت مأساة أخرى تضاف الى المآسي الكثيرة التي عاناها هذا الشعب المنكود الحظ.

٢٨٠ - تزايد نقمة العرب على الاسبان:

وزاد عمل السلطات الاسبانية هذا في نقمة العرب وجراحتهم ورغبتهم في الانتقام وانضم كثير من الذين كانوا مسلمين حتى ذلك الحين، إلى الثوار. وفي ٣ اب، تمكن القائد العربي (الناقص) من القضاء على فصيلة من الجند الاسبان في (وادي الكرين)، بينما كانت متجهة بالمؤن الى (اورجه). وهزم أحد الضباط العرب العاملين في فرقة الناقص، ويدعى (لويه)، القائد الاسباني (انطونيولونا)، ومزق الكتيبة الاسبانية التي تحرس جسر الطبلات، فاضطر من نجا من رجالها الى الانسحاب.

وضاعف (الارشيدوني) هجماته الجريئة على المدن والقرى والقوافل الاسبانية حتى اضطر الأمير دون خوان إلى توجيه فرقة كاملة لمواجهة قوة الارشيدوني الصغيرة. وشدد (المالغ) قائد منطقة نهر المنصورة، من هجماته على مدينة (اوريه)، بعد استيلائه على (سيرون). وبدأ ابن امية يهدد المرية، ولم ينقذها من هجماته إلا مناورة بارعة من قائد الحامية الاسباني، الذي اوهم العرب بأنه يملك قوة كبيرة، كافية

١ - سيركورج ٢ ص ٤٤٣.

للدفاع عنها، بينما كان لا يملك فعلاً أكثر من ٢٠٠ جندي.

٢٨١ - استئناف الاسبان عملياتهم الحربية:

اصدر المجلس العسكري امره الى المركيز دوفيليس، بترك (ادرا) التي يصعب تمويها، والاتجاه الى (اوشيوخار)، على ان يكون حذرا في سيره في الممرات الوعرة التي كان عليه ان يسلكها. فسار المركيز في ٢٥ تموز بقوات بلغت حوالي ١٢٠٠ من المشاة و ٤٠٠ من الفرسان، بعد ان قسمها الى ثلاثة افواج. وقد حاول المسلمون اعتراض سبيل الجيش الاسباني، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ووصل المركيز الى اوشيوخار.

٢٨٢ - ابن امية يجمع القوات ويستنجد بالجزائر:

ولما علم ابن امية بتحرك المركيز، ارسل رسالة الى الجزائر يطلب العون والنجدة، كما ارسل يستدعي قوات الثورة في المرية ووادي المنصورة للاجتماع اليه، وعهد الى احد قادته، ويدعى (بيدرو دوندوسا الحسين)، بأن يقوم مع قواته البالغ عددها خمسة آلاف رجل، باعراض سبيل المركيز، ولكن الحسين لم يتمكن من ذلك. وبعد قليل بدأت القوات العربية تتجمع في مركز ابن امية في قرية (فالور)، فقرر المركيز ان يبادئها بالهجوم قبل ان يكتمل تجمعها. وسار اليها يوم ٣ آب ١٥٦٩ بجميع جيشه. ولما علم المسلمون بتحركه نحوهم استعدوا لقتاله، وركزوا قواتهم في المواقع المختارة، ووضعوا ٥٠٠ رام بالبنادق الحديثة في مرمى ضيق كان على الاسبان ان يجتازوه. ولما وصلت مقدمة الاسبان هاجمها المسلمون هجوماً عنيفاً، واستبسل الفريقان. وتقول الرواية الاسبانية ان ابن امية كان في مقدمة الصفوف على حصان ابيض وعليه جبة (برنس) وعلى رأسه طربوش تركي، يدير المعركة، ويحرض الناس على القتال، ويقول لهم ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، وان الموت في ساحة المعركة والسلاح بيد المقاتل خير من العيش الذليل. ولما حمي وطيس المعركة ارسل المركيز قائد فرسانه مع الفرسان لمهاجمة المسلمين من ورائهم، فاضطر المسلمون الى التراجع، واحرق الاسبان دار ابن امية في قرية فالور.

٢٨٣ - المسلمون يستنجدون بوالي الجزائر :

وفي آب ١٥٦٩ ارسل ابن امية قائده، هرناندو الحقي، الى الجزائر ليتصل باليهما علوش علي لعله يمددهم بالرجال والسلاح . فأذاع علوش بيانا في الجزائر دعا فيه الناس من اترك ومغاربة الى التطوع لنصرة اخوانهم الاندلسيين . فتدفقت سيول المتطوعة من كل حذب وصوب . ولما رأى الوالي كثرتهم قرر ان يستفيد منهم في القيام بالهجوم على تونس أولاً . ولكنه عاد فأذاع بيانا ثانياً - على ما تقوله الرواية الاسبانية - دعا فيه جميع الملاحقين بجرائم وجنح الى التطوع للذهاب الى الأندلس ، على ان يعفى عنهم ، فجاءه ٤٠٠ رجل مسلحهم بالبنادق وارسلهم تحت قيادة رجل تركي اسمه حسين ، مع هرناندو الحقي ، في ست سفن . وارسل معهم كمية كبيرة من الاسلحة والذخائر ، ووصل للثائرين اسلحة كثيرة من تطوان فتحسنت حالتهم . وطاف القائد التركي حسين في المناطق الاسلامية ، ودخل سرا الى غرناطة ووادي آش ، وتعرف على المواقع وبلغ الناس ان السلطان التركي ارسله ليدرس الحالة ويتعرف على الحاجات ليقوم بارسال النجدة والسلاح ، فانعش ذلك آمال المسلمين وشدد من عزائمهم . ثم عاد حسين الى الجزائر ليقدم تقريره الى علوش^(١) .

٢٨٤ - انتكاسة الثورة ومقتل ابن امية :

وبينما كانت الثورة في اوج اندفاعتها وانتصاراتها ، حدثت انتكاسة خطيرة ، كانت العامل الاساسي في تقرير مصيرها . فقد دبر بعض الخونة الناقمين على ابن امية مؤامرة ادت الى قيام المتطوعة الاتراك بقتله .

ويتلخص الحادث ، كما تورده الرواية الاسبانية ، في ان شخصا يدعى ديجو الجواسيل - وهو ابن حمي ابن امية - وآخرين من انصاره وجماعته كانوا ينقمون على ابن امية قتله بعض مختاري البشرات الذين ضعفت نفوسهم فاعلنوا خضوعهم للاسبان . وارادوا الانتقام منه . وكان الوشاة الراغبون في احداث انشاق في صفوف الثوار ، يحرضون ابن امية على المتطوعين الاتراك ، ويحرضون الاتراك على ابن امية ،

١ - المؤرخون الاسبان ج ١ ص ٢٨٦ .

فساءت العلاقات بين الجانبين . وليحسم ابن امية الموضوع ، طلب الى قريبه ابن عبو ضم الاتراك الى القوة التي تحت امرته . ثم اراد ابن امية مهاجمة القوات الاسبانية المرابطة في (موترييل) (Motril) فطلب الى ابن عبو جمع الاتراك الذين لديه والسير بهم الى (الينول) ، على ان يجبره في بريد لاحق ما يجب عليه ان يفعله . وكانت غاية ابن امية تعمية الاخبار لكيلا تتسرب الى العدو . وكان على ساعي البريد بين ابن عبو وبين ابن امية ان يمر بالضرورة في (اجيجر) ، فاطلع منه ديجو الجواسيل الكريمي ، بحكم قرابته من ابن امية ، على مضمون الرسالة . ولما علم (الكريمي) ان ابن امية سيرسل رسولا آخر يحمل التعليقات ، اتصل بكاتب ابن امية ويدعى (ديجواركوش) فزورا رسالة على لسان ابن امية ، يطلب فيها من ابن عبو ان يذهب بالاتراك الذين تحت امرته الى مكان معين ، وهناك ينزع سلاحهم بمعاونة المثة رجل الذين يعملون تحت امرة الكريمي ، ويضرب اعناقهم ، ثم يفعل مثل ذلك مع الكريمي . وانتظر المتآمران ديجو الجواسيل الكريمي وديجواركوش رسول ابن امية الثاني ، حتى وصل خارج اجيجر فقتلاه واخذوا الرسالة منه ، وارسلا الى ابن عبو الرسالة المزورة مع شخص من قبلهما . ولما اطلع ابن عبو على الرسالة ، استنكر تصرف ابن امية ، واعتقد بأن الشائعات التي تنشر عن محاولة ابن امية التفاهم مع الاسبان هي صحيحة ، فاطلع قائد الأتراك على الرسالة ، فاستنكر وأصحابه أن يغدر بهم أناس إنما جاؤا هم لنصرتهم . ولما رأى الكريمي ان المؤامرة نجحت ، اخرج من جيبه قطعة من الحشيش الذي اعتاد الاتراك تعاطيه وقال لهم ان ابن امية اعطاه اياها ليسقيها للاتراك ويخدرهم فيسهل قتلهم . فاستاء الاتراك جدا ، وقرروا اغتيال ابن امية وتنصيب غيره قبل ان يحطم الثورة بانانيته . واقتراح الكريمي ان ينصب احد القائدين التركيين حسين او اخيه في مكان ابن امية ، فرفض ذلك وقال انها اتيا لمساعدة ملك الأندلس ، وانه من الضروري ان يكون الملك من اهل البلاد . فاتفق الجميع على تنصيب (ابن عبو) ، بالرغم من معارضته الشديدة . وسار ابن عبو والاتراك الى مقر ابن امية ، واقتحموا عليه الابواب ، وقبضوا عليه ، ولم يتقدم احد من اصحابه للدفاع عنه ، ثم واجهوه بالتهم المنسوبة اليه ، وأروه الرسالة فدقق في الخط والتوقيع ، فانكرهما وقال ان اعداءه فعلوا ذلك . وناشدهم الله الا يقتلوه ، لأنه كان مسلما مخلصا وانه لم يفكر بالاتفاق مع النصارى ، ورجاهم ان يطلبوا (الحقيقي) ليشهد على صحة قوله ، فلم يستمع اليه احد . ووضعوه في غرفة موصدة وكلفوا بحراسته المتآمرين الكريمي وكاتبه ديجو

اركوش، وفي الليل انتهز المجرمان الفرصة فخنقاه^(١).

٢٨٥ - تنصيب ابن عبو ملكا :

تسلم ابن عبو نيابة الملك لمدة ثلاثة اشهر، على ان يوافق حاكم الجزائر على ذلك، واتخذ اسم (مولاي عبد الله بن عبو ملك الاندلسيين)، ووافق بعض القادة على ما تم، ووقف المتآمرون من لم يوافق، وانسحب ابن مكنون مع رجاله كما انسحب الارشيدوني. وعين ابن عبو بعض القادة لقيادة المناطق : منهم (المالح) لوادى المنصورة ومركزية زينيت ومنطقة بسطة، و(الشعبي) للبشرات وجبال غرناطة، و(بولودوي) لمنطقة المرية.

٢٨٦ - جهود ابن عبو لانعاش الثورة :

جمع ابن عبو قوة كبيرة تقدرها الروايات الاسبانية بعشرة آلاف رجل، وسار بها لحصار (اورجيه)، وبعد محاولات متعددة لم يفلح في اقتحام اسوارها، فقرر ان يضطرها الى الاستسلام بالجوع. فارسل قائد الحامية رسالة الى الامير دون خوان في غرناطة يطلب منه النجدة، فكلف الامير الدوق (دوسيسا) بالقيام بالمهمة. ولما علم ابن عبو بمسير الدوق نحوه، رفع الحصار عن اورجيه، واتجه الى (لانخارون) ليقطع الطريق عليه، وعلى اثر ذلك قرر المجلس العسكري سحب الحامية من اورجيه لعدم فائدتها، ولصعوبة تموينها وانجادها. وكان فيها قرابة ١٥٠٠ رجل. وقبض الدوق على بعض العرب الذين يحملون رسائل من ابن عبو الى بعض قواده يطلب اليهم فيها الاجتماع اليه للقيام بشن هجوم على الدوق.

وتقدم الدوق يريد مناجزة المسلمين القتال قبل ان تجتمع قواتهم، فسار على رأس ٤٠٠٠ راجل و ٣٠٠ فارس، ولما رأى المسلمون تحرك الاسبان، اتخذوا أهبتهم للقتال، وجرت معركة عنيفة، انهزم فيها الاسبان هزيمة منكرة، بعد ان قتل منهم ٤٠٠ شخص. وتحاول الرواية الاسبانية تلطيف اثر هذه الهزيمة فتقول إنه لولا نفوذ

١ - تاريخ ثورات وعقاب الموريكيين ج ٢١ ص ٢٩٢.

الدوق، وحرمة الجيش له، لما توقف سيل الهاربين^(١).

٢٨٧ - محاصرة قلعة اوريا:

علم جبر ونيمو المالح ان (حصن اوريا) فيه كثير من الناس، وتنقصه الاقوات والذخائر، ففكر في الاستيلاء عليه، واخذ في جمع الرجال للهجوم عليه. وعلم الاسبان بما يريد المالح فاسرعوا بارسال النجديات الى الحصن، واخلوه من النساء والأطفال والشيوخ (اوائل تشرين الثاني ١٥٦٩). ولما تكاثر عدد الاسبان في اوريا اغاروا على قرية (مانتوريا) التي تجمع فيها المسلمون، فنسفوا مستودعا للبارود. ونهبوا المشاية، ولكن بعض النجديات العربية اعترضتهم وهم عائدون الى اوريا، والتحمت معهم، وجرى عراك عنيف. وتقول الرواية الاسبانية ان حامل الراية المسلم اظهر من الجلد والشجاعة ما لم ير مثله، فقد كان على حصانه يحمل العلم بيده، فهاجمه الاسبان وطعنوه بحربتين اخترقتا جسده، فبقي ثابتا لا يتحرك وهو ممسك بالراية، وطعنه القائد الاسباني برمح فاخترقت الطعنة جسمه، لكنه بقي واقفا لم يتزحزح، فارسل القائد الاسباني شخصا نسفه وحصانه بلغم، فقتل الحصان وسقط الرجل ولكنه ظل ممسكا برايته، وحاول الاسبان انتزاع الراية منه فلم يفلحوا، ولم يتمكنوا من انتزاعها منه حتى فارق الحياة^(٢).

٢٨٨ - بدء تدهور الثورة:

تشاءم الناس بعد مقتل ابن امية، واخذ التنافس يشتد بين القادة، ونفر كثير من الثائرين، وضعفت ثقتهم. وفي ذلك الحين كانت اسبانيا تحشد كثيراً من القوات مكنتها من استعادة المبادهة في ميادين القتال. وفي اواخر كانون الأول ١٥٦٩، سار الامير دون خوان الى حصن ابشر

١ - نفس المصدر ج ٢١ ص ٢٩٧.

٢ - ثورات المريسكيين وعقابهم ج ٢١ ص ٣٠٢.

بنفسه، وكان - على ما تقوله الرواية الاسبانية - يطمع مثل غيره في المغنم، وقد استاء لسبق غيره له في احتلال ابشر^(١).

٢٨٩ - الاستيلاء على غاليرا :

وفي ٢٩/١٢/١٥٦٩، تحرك الامير دون خوان الى (بسطة)، وبعد ان اقام فيها بضعة ايام اجتمعت اليه القوات خلاها، اتجه الى غاليرا على رأس قوة يبلغ تعدادها ١٢ ألف مقاتل. وكان للمسلمين قوة تعسكر في الكنيسة خارج البلدة، فهاجمها الاسبان هجوماً عنيفاً، وتمكن المسلمون من رد المهاجمين عدة مرات، واخيراً تغلب عليهم الاسبان وتمكنوا من الاستيلاء على الكنيسة بعد قصف شديد بالمدفعية.

وحفر الاسبان خندقاً حول البلدة يمرون فيه دون التعرض لنيران المدافعين عن (جاليرا)، ثم قام الاسبان بشن هجوم عنيف، رده المسلمون بعد ان كبّدوا المهاجمين خسائر كبيرة. ولما رأى (الامير خوان) أن المدفعية لا تحدث أثراً كبيراً في الجدران المصنوعة من اللبن، أمر بوضع لغم، نسف جانباً من السور، وتدفق الاسبان من هذه الثغرة، فقاتلهم المسلمون عليها قتال المستميت، واشتركت نساؤهم واطفالهم في رد المهاجمين، وحاول خوان أن يرسل قوات من الجهة الشرقية، فاختفق هجومها ورد بخسائر كبيرة. وتقول الرواية الاسبانية إن الاسبان خسروا في هذا الهجوم ٤٠٠ قتيل و ٥٠٠ جريح. ولما رأى خوان عقم محاولاته أمر بالترجع. وعقد مجلساً حربياً وضع فيه خطة تقوم على وضع لغمين تحت الأسوار، بينما تكون المدفعية مستمرة في اطلاق قذائفها. وبالفعل فجر الاسبان لغمين، وتدفقوا إلى البلدة عن طريق الثغرة المفتوحة في السور، وجرى قتال دموي رهيب، وقعت فيه ضحايا كثيرة من الجانبين، أكثرهم من النساء والأطفال، فأمر الامير خوان بقتلهم جميعاً أمامه. واقترح بعض المجرمين الإسبان أن يذاب النحاس ويصب في أرحام المسلمات انتقاماً منهن. ولا تذكر الرواية الاسبانية التي أوردت هذا الاقتراح إن كان الامير قد اخذ به قبل قتل النساء أولاً. ولكن الشيء الأكيد هو أن تفتق عقلية عن مثل هذا الاقتراح

١ - نفس المصدر ج ٢١ ص ٣٠٦.

المجرم الخسيس دليل على أن مجتمعها وظروفه لا تستنكر تنفيذه^(١). ويقول سيركور ان دون خوان امر بقتل النساء والاطفال وان ١٤٠٠ امرأة قتلن بحضوره^(٢).

٢٩٠ - المهجوم على سيرون وهزيمة الاسبان :

وبعد ذلك تحرك دون خوان الى (سيرون)، ولما شعر المسلمون بزحف الاسبان عليهم أوقدوا النيران تحذيراً وطلباً للنجدة، فخفت اليهم النجدات من كل جانب، وخف (الحبقي) و(المالح) على رأس قوة قدرت بستة آلاف رجل، وجرى التحام مع الاسبان قتل فيه الكثيرون من الاسبان وهم منهمكون في النهب والسرقات، وألقى اخرون السلاح وهربوا، وامتدت الهزيمة إلى الجيش كله فلم يعد الامير يستطيع وقفها، فطلب إلى المهزومين أن ينسحبوا بانتظام على الأقل، لتخف فيهم الاصابات، فلم يستمع إليه أحد. وتمكن خوان أخيراً من جمع عدد من الجنود سار بهم منسحباً فطاردهم المسلمون مسافة طويلة. وتحاول الرواية الاسبانية أن تخفف من أثر هزيمة الأمير، حفاظاً على اعتباره. ولكنها تعترف أن خسائر الاسبان بلغت ٦٠٠ قتيل^(٣).

٢٩١ - ابن عبو يستنجد بمفتي القسطنطينية :

شعر المسلمون بحرج موقفهم، وأن النصارى أصبحوا في موقف من يستطيع توجيه الضربة، فأرسل ابن عبو كتاباً مؤرخاً في ١١ شعبان ٩٧٧ هـ، (١١ شباط ١٥٧٠م) إلى مفتي القسطنطينية، يستنجد به، ويرجوه التوسط لدى السلطان لانقاذ الثورة، وتقديم العون الفعال لها. وفي نفس الوقت كتب ابن عبو إلى نائب السلطان العثماني في الجزائر، يستنجد به، وقد وجد نص الكتاب بين أوراق ابن عبو في كهف في

١ - نفس المصدر ص ٣١٤.

٢ - سيركور ج ٣ ص ٧٥ - ٧٦.

٣ - تاريخ ثورات الموريكسين وعقابهم ج ٢١ ص ٣١٦.

كاستاريس، وأورد المؤرخون الاسبان ترجمته إلى الاسبانية^(٣)، وفيما يلي نورد ترجمة للكتاب المرسل إلى مفتي القسطنطينية :

بسم الله الرحمن الرحيم،
العزة لله، من عبد الله المتوكل عليه، الحي بفضله وقدرته، المجاهد في سبيله،
أمير المؤمنين المتمسك بشريعة الله، ميد الكفار، وقاهر جيوش العاصين لله، مولاي
عبد الله بن عبو، بارك الله مسعاه، وسدد خطاه ليسترد عزة الاندلس، ويمجد
نهضتها، نصرها الله القدير، وهو القادر على كل شيء. صديقنا وحبينا الخاص،
السيد العظيم، الشريف الكريم، السامي المتقدم، العادل المحسن الخائف من الله،
أنعم الله عليه بنعمة الغفران.

أما بعد، فسلام الله عامة على دولتنا العلية، ونعمته وبركاته الوفيرة.
أيها الأخ العزيز، لقد بلغتنا أنباء دولتكم العلية، وشخص الملك الكريم، وما
صدر عنه من العطف على التعساء البائسين، وأنه سأل عنا مهتماً لمعرفة ما يجري لدينا،
وأنه اهتم وتالم لما اصابنا من ضنك ونصب على أيدي أولئك المسيحيين، وأن صاحب
الجلالة والعظمة السلطان، قد أرسل إلينا كتاباً مخطوماً بخاتمه يعدنا فيه النصر، بعدد
وافر من الرجال المسلحين، وبما نحتاج إليه من العون والعدد التي تسمح لنا بالحفاظ
على هذه الأرض. وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة في هذه الأزمة المريعة، فإننا نلجأ
من جديد إلى الباب العالي، نطلب النجدة، والمعونة والنصر عن يديكم.

فالنجدة النجدة، بالله القاهر فوق الناس جميعاً، ونرجو من سيادتكم اعلام
السلطان القادر بأحوالنا وإخباره بأخبارنا، وبالهرب الكبري التي نخوضها، وقولوا
لعظمته انه اذا اراد ان يشملنا برعايته وعطفه، فليبادر الى انجادنا بسرعة قبل ان
نهلك، فهناك جيشان قويان يتجهان إلينا لمهاجمتنا من جهتين، واننا اذا ما اندحرنا في
المعركة فإن الله سيحاسبه على ذلك حساباً عسيراً يوم القيامة، يوم لا تنفع القوة في
الحجة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرر يوم الثلاثاء في الحادي عشر من شهر شعبان ٩٧٧

مولاي عبد الله محمد بن عبو

٢٩٢ - استئناف العمليات العسكرية من الجانب الاسباني :

ولما شعر الاسبان بالارتباك الذي يسود الثورة بعد مقتل ابن أمية ، انطلق قادتهم يشنون الهجمات على المسلمين في كل الجبهات ، واستولى دون خوان على حصن (سيرون) ، وهرب الحبقي منه بعد أن قتل حصانه ، وقتل كثير من المسلمين . واحتل الاسبان خلال الربيع الأول من عام ١٥٧٠ عدداً من الحصون والمواقع التي كانت بيد الثائرين .

٢٩٣ - إجبار من تبقى من المسلمين في غرناطة على النزوح عنها :

ولما شعر الاسبان بتحسّن وضعهم العسكري ، أمر الأمير دون خوان المسلمين - في ١٤ شباط ١٥٧٠ - بأن يستعدوا للنزوح عن غرناطة والمرج إلى المناطق الداخلية . وفي ١٩ آذار بدأت مسيرة قوافل النازحين . وتعترف الروايات الاسبانية بأن أكثر النازحين ماتوا في الطريق .

٢٩٤ - المفاوضات لانهاء الثورة :

في الوقت الذي اندلعت فيه نيران ثورة عرب الأندلس ، كان الغزو العثماني يمتد إلى أوروبا ويهددها تهديداً خطيراً ، فقررت عصبة الأمراء النصراني فيها اختيار الأمير دون خوان - شقيق ملك اسبانيا - قائداً للجيش النصراني الموحد ، المكلف بمواجهة الغزو التركي . فأراد الملك الانتهاء من مشكلة الثورة ، وأمر أخاه ببدء المفاوضات مع قادتها ، فاختار دون خوان بعض أصحابه ممن لهم صداقات مع عرب اسبانيا للتوسط في المفاوضات مع الثوار ، فاتصل أحدهم ويدعى - باراداس - بصديقه الحبقي - الذي أصبح قائداً عاماً للثورة بعد موت المالح - واجتمع به في ٥ شباط في مرتفعات (سيروانيفادا) وحادثه عن ضرورة انتهاء الحرب ، وعرض عليه العفو ، وحاول اقناعه بضرورة اغتنام هذه الفرصة . فوعده الحبقي بدراسة الأمر مع زملائه القادة المسلمين وأبلغه أنه لا يوجد أحد يرغب في السلام أكثر منه . واستمرت المفاوضات بشكل سري . وكان الحبقي يحاول استمالة ضباط الجيش الثائر وجنوده ، واقناعهم

بضرورة وضع حد لاراقة الدماء وهدر الأرواح والأعراض .
وأصدر دون خوان ، منشوراً للشائرين يحثهم على وضع السلاح ، وإعلان
الخضوع خلال عشرين يوماً ، ويؤكد لهم العفو التام عن الجرائم التي ارتكبت ، ويعد
من لحقت بهم أضرار بأن يسمح لهم بالمطالبة بالتعويض عنها ، وأكد لهم أنه لا يمكن
أن يفرض الرق على أحد من المستسلمين .

وفي ١٨ نيسان ١٥٧٠ ، أرسل (ألونسودوغرانادا فينيجاس)^(١) ، رسالة إلى
صديقه ابن عبو ، يحاول اقناعه بانهاء هذه الحرب المشؤومة ، ويحثه على إرسال وفد من
قبله للمفاوضة لتقرير شروط الصلح ، ولما وصلت الرسالة إلى ابن عبو كان عنده قائده
الحقيقي فنصحته هذا بالرد على الرسالة ، فرد عليها برسالة مؤرخة في ٢٢ نيسان
١٥٧٠ . وقد أنحى ابن عبو في رده باللائمة على الذين تسببوا بالحرب ، وإشعال نار
الثورة ، وطلب من ألونسو فينيجاس أن يرسل أماناً من الملك للحقيقي لمقابلته
ومفاوضته^(٢) .

وجرت اتصالات كثيرة بين (الحقيقي) وبين الاسبان ، واجتمع بمندوبي الملك
يوم ١٩ أيار ، وقدم مذكرة بالشكل الذي نصحه به كاتب دون خوان . وبعد ان
أرسلت المذكرة إلى الأمير ، تم الاتفاق مع الحقيقي على أن يذهب باسم ابن عبو
وباسم القادة الآخرين ليطلب من الأمير الرحمة والصفح ويسلم اليه السلاح والعلم .
وبعدئذ يعفو الأمير عنهم باسم الملك ، ويرسل المحاربين المستسلمين مع نسائهم
وأطفالهم إلى الأماكن التي عليهم أن يعيشوا فيها ، وقبل الحقيقي أن لا يبقى أحد من
النائرين في البشرات .

وإثر ذلك ذهب الحقيقي مع ٣٠٠ رجل إلى معسكر الاسبان وأعلنوا للأمير
الخضوع ، وسلمه الحقيقي العلم والسلاح باسم ابن عبو ، فقبله الأمير وأكرمه ، وبقي
الحقيقي في معسكر الاسبان حتى يوم ٢٢ أيار عاد بعدها ليخبر ابن عبو بما تم . وفي ٢٥
أيار عاد الحقيقي إلى معسكر الاسبان وتقول الرواية الاسبانية إنه كان يحمل موافقة ابن
عبو والأشرار وعمامة الناس ، على إنهاء الثورة^(٣) ، ولكن سير الأحداث التالية ،

١ - هو حفيد الأمير يحيى النيار - ابن السلطان ابي الحسن ، من زوجته الاسبانية ثريا .

٢ - ثورات الموريكسين وعقابهم ج ٢١ ص ٣٣٦ .

٣ - نفس المصدر السابق ج ٢١ ص ٣٤٤ .

يؤكد - حسب الروايات الاسبانية - أن ابن عبو لم يكن موافقاً على الاستسلام ، وبعد هذا الاتفاق أرسل الأمير مفوضين من قبله ليشرفوا على ترحيل الناس إلى حيث يريدون الإقامة في المناطق الداخلية .

٢٩٥ - محاولة إقناع ابن عبو بالاستسلام :

وفي ٢٨ أيار ١٥٧٠ ، عاد رسول الأمير فاتصل بابن عبو وحاول إقناعه بالاستسلام ، ولكنه لم يفلح ، ووقف المتطوعون والمغاربة موقفاً شريفاً ، وحاولوا منع الناس من الانصياع لاغراءات الحبقي ونصحوهم بعدم الاستسلام ومتابعة الكفاح ، وخاف الحبقي أن يفسد المتطوعة بتطرفهم مشاريعه ، فعمل على جمع هؤلاء المتطوعة وترحيلهم إلى أرضهم ليخلو له الجو .

٢٩٦ - محاولة الحبقي قتل ابن عبو :

وبعد أن تمكن الحبقي من إخراج المتطوعة داخله الغرور والعجب بنفسه ، فأراد القبض على ملكه ابن عبو ، وتسليمه للأسبان . وطلب الحبقي من الأمير الاسباني تفويضه بالذهاب مع ٥٠٠ مسلح اسباني ليفاجيء ابن عبو ويقبض عليه ، وبعدئذ تتم عملية الاستسلام بالشكل المتفق عليه . لكن الأمير قدر أن إرسال قوات اسبانية مع الحبقي قد يثير المسلمين من جديد ، ويعيق عملية الاستسلام ، ورفض أن يعطيه الجنود المطلوبين ، وأعطاه ٨٠٠ دوكات ليستأجر بها ٤٠٠ مسلم ممن يثق بهم الحبقي .

٢٩٧ - إعدام الحبقي :

ولما اتجه الحبقي إلى مقر ابن عبو ، التقى بعدد من الثائرين المسلمين فأعلموه أنهم ينتظرون أوامر ملكهم ليستسلموا ، فقال لهم إنه ذاهب اليه ، فان لم يقبل الصلح فانه سيعود به مقيداً ومشدوداً إلى ذنب بغل ، وبلغت هذه الكلمات ابن عبو فاستاء منها وقرر التخلص من الحبقي ، وأرسل عدداً من المتطوعين والثوار الأندلسيين للقبض

على الحبقي ، فاتجهوا إلى حيث ينزل وقبضوا عليه واستاقوه أمام ابن عبوفحاحمه كخائن ، وحكم عليه بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم^(١).

٢٩٨ - جهود ابن عبو لاستمرار الثورة :

وبعد مقتل الحبقي بذل ابن عبو جهداً كبيراً لإعادة بعث الثورة ، وأرسل رسله إلى المناطق المجاورة ليثيروا الناس ، ويحثوهم على الثبات والمقاومة . وفي ٣٠ تموز توجه رسول من الاسبان الى ابن عبو ودخل عليه في مقره ، وعرض عليه عرضاً مغرية من الأمير . وقد رد ابن عبو على الرسول بما يلي :
«إنه يشهد الله على أنه لم يكن راغباً في أن يكون ملكاً ، ولا ساعياً إلى ذلك ، ولكن المسلمين من أترك وأندلسيين هم الذين انتخبوه وأرادوا ان يكون ملكاً عليهم . ولذلك فانه لا يستطيع في أي وقت ، ولا في أي ظرف أن يخضع لمشيئة الأمير ، ولا أن يستسلم اليه . وإنه حينما تضطره الظروف والضرورات إلى شيء من ذلك فانه يفضل أن يعبر البحر إلى إفريقيا^(٢)» ، وانتهت المفاوضات الى الاخفاق .

٢٩٩ - العمليات العسكرية :

وبينما كانت هذه المفاوضات تدور كان القادة الاسبان يهاجون بعض مواقع الثوار المسلمين لاجلائهم عنها ، أو إجبارهم على الاستسلام ، واغتنم الاسبان فرصة تضعضع الثورة فأجلوا مسلمي المرية إلى أشبيلية ، ونقلوا من تبقى من مسلمي غرناطة إلى أشبيلية ، إلا من أراد منهم الزواج الى إفريقيا ، فقد سمحوا له بذلك . وبذلك خلت مملكة غرناطة من المسلمين .

٣٠٠ - مقتل ابن عبو وانتهاء الثورة :

وتابع القادة الاسبان شن هجماتهم على مواقع الثوار فتضعضت الثورة ،

١ - تاريخ ثورات الموريكسين وعقابهم ج ٢١ ص ٣٤٧ .

٢ - نفس المصدر ص ٣٥٣ .

واضطرب ابن عبو إلى الانسحاب إلى المناطق الوعرة من البشرات، ولم يبق معه من الرجال إلا قلة - تقدرهم الرواية الاسبانية بأربعمئة، وكان يثق باثنين هما برناردينو ابن عامر - سكرتيره - وبقائد قوات المنفيين واسمه السنييس، وتقول الرواية أن السنييس أراد أن يعبر البحر إلى إفريقيا حينما أدرك قرب انهيار الثورة فمنعه ابن عبو من ذلك، وأحرق المركب الذي أعده السنييس. لذلك استاء السنييس وقرر التقرب من الاسبان بقتل ابن عبو، لينال العفو منهم.

وفي ١٣ آذار ١٥٧١ قتل السنييس، وستة أشخاص كانوا معه ابن عبو في الكهف الذي يختبئ فيه، وسلم جثته للاسبان، فنقلوها إلى غرناطة وحشوها بالملح وعلقوها على باب المدينة، ويقال إنها بقيت معلقة ثلاثين سنة. ولما قتل ابن عبو أدرك الثائرون أنه لا فائدة من المقاومة فتقدموا يطلبون الأمان، ووضعوا سلاحهم^(١). وهكذا انتهت هذه الثورة العظيمة التي كان يعلق عليها الأندلسيون آخر أمل لهم في النجاة من الظلم الذي حل بهم وقد كان من الممكن أن تكون لها نتيجة ايجابية، لو أنها لاقت التأييد والعون الكافي من العثمانيين ومن حكومات المغرب العربي.

١ - نفس المصدر ص ٣٦٣.



أسس العرب في الأندلس حضارة زاهرة لم يكن لها مثيل في تلك العصور، وعاملوا اليهود والنصارى، الذين عاشوا بينهم، بتسامح تام، كان غريباً عن عقلية المجتمع الغربي، ومفهومة في ذلك العصر، فازدهرت المجتمعات غير المسلمة في ظل حكمهم، وحافظوا على امتيازاتهم، ولغاتهم، وعاداتهم، وأديانهم، ولم يرهقوا بضريبة ثقيلة، ولم يُزعجوا بمصادرة. وحينما بدأ زحف الاسبان من الشمال، وأخذ المسلمون يرتدون إلى الجنوب، تخلفت جماعات منهم مقدرة أنها لن تُهاج ولن تُضار. ولكن الاسبان لم يحترموا عهوداً ولا موثائق، وشرعوا في الضغط على العرب الباقين لديهم، وحولوا مساجدهم إلى كنائس، وانتزعوا أكثر ما كان بيد العرب من الملكيات، فتحول هؤلاء إلى أجراء ومزارعين يعملون في أرض السادة الجدد. ورغم كل ذلك قنع المدجنون، بما قسم لهم، وصبروا على ما حل بهم، وصرفوا كل همهم إلى تأمين عيشهم، والحفاظ على دينهم ولغتهم وعاداتهم، ولم يعودوا يبدون كبير اهتمام بالصراع الدائرين العرب والاسبان في شبه الجزيرة. حتى إن عرب طليطلة الذين خضعوا للاسبان عام ١٠٨٥م، لم يتحركوا، ولم ينتفضوا على حكمهم، حينما انتصر المسلمون على الاسبان في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م. ولكن الاسبان برغم ذلك كله لم يتركوا العرب حيث هم، في أمن وسلام، فما ان تحققوا من ضعف الدولة العربية في الأندلس، وانكساشها في جنوبي شبه الجزيرة في مملكة غرناطة، ثم من تلاشيها تماماً بعد سقوط غرناطة، حتى شرعوا في إزعاج العرب ومطاردتهم لاجبارهم على ترك دينهم ولغتهم وعاداتهم ووطنهم وأموالهم.

ويذهب الكتاب الغربيون مذاهب شتى في تفسير هذا الاضطهاد، ورده إلى منيعه ومبعثه، فمنهم من يعزوه إلى جهل الشعب الاسباني وتعصبه الذميمة، وضيق تفكيره، ووقوعه تحت تأثير الدعايات المغرضة الكاذبة التي لفقها بعض رجال الدين

عن حقيقة الاسلام وتعاليمه ، وما أقنعوهم به من كره المسلمين للمسيحيين وعدايتهم - التقليدي - لهم ، وسعيهم للقضاء على المسيحية بكل وسيلة وسبيل^(١) . ومنهم مثل (ماك كيب) ، من يقول إن الشعب الاسباني شعب مسالم وديع ، أراد أن يعيش مع العرب في أمن وسلام ، وجرب حياة التعايش هذه قرابة قرنين ، لم تبدر خلالها بادرة تنم عن الخصومة والعداء ، ولكن تعصب القسس ، وجهلهم ، وحقدهم على الإسلام والمسلمين ، دفعهم إلى النشاط في الدعاية ضد هذا التعايش . وقد استطاعوا بما كان لهم من تأثير على عقول الشعب ، أن يخلقوا هوة ونفورا بين الشعيين ، أديا فيما بعد إلى عداة سافر وقطيعة^(٢) .

ومنهم مثل (مانويل دانفيل)، من يجعل السبب هو الكنيسة والفاتيكان ، في محاولة منه لتبرئة ملوك اسبانيا - وخصوصاً ملوك أراغون - من جريمة اضطهاد العرب ، وإن كان يحاول أن يجعل الباعث الأساسي لرد الفعل هذا من قبل الكنيسة والملكية ، هو تصرف العرب أنفسهم ، برفضهم الخضوع للضغط الواقع عليهم لترك دينهم ، ولغتهم وتقاليدهم ولقيامهم بالثورات المتتالية للدفاع عن أنفسهم وحقوقهم المهدورة .

ويورد هذا الكاتب تواريخ أكثر الأوامر البابوية التي دفعت بملوك اسبانيا إلى اضطهاد المسلمين ، كما يسرد طرفاً عما عاناه المسلمون من محاكم التفتيش ، ومن السلطتين الملكية والكنسية ، وهو بمعرض التعجب من صمود هذا الشعب العنيد ، وتمسكه بدينه ولغته وتقاليدته ، برغم جميع ما نزل به من اضطهاد وكوارث وملاحقات^(٣) . وإذا عدنا الى ما كتب حول طرد العرب من بلادهم ، وما حل بهم من اضطهاد لم يسمع بحلول مثله بشعب آخر ، نجد ان الفاتيكان والكنيسة الاسبانية لعبا الدور الأول في مأساة المسلمين في الأندلس بما لهما من نفوذ وسلطة على ملوك البلاد النصرانية في تلك العصور . وإن الملكية لعبت دور المنفذ للسياسة التي رسمها الفاتيكان والكنيسة ، وإن كان ذلك لا يقلل من مسؤوليتها تجاه التاريخ في هذا الأمر .

١ - سيركورج ٢ ص ٢٢٦ .

٢ - ماك كيب ص ٦٥ .

٣ - دانفيل اي كويادو ص ٥٥ ، ٨٧ ، ١١٦ .

أما سياسة الفاتيكانيان فقد وضحت في الأوامر العديدة التي أصدرها إلى ملوك أراغون وقشتالة أولاً، ثم إلى ملوك اسبانيا بعد التوحيد أخيراً، لمطاردة المسلمين، وملاحقتهم أمام محاكم التفتيش، والتضييق عليهم، حتى يتخلوا عن دينهم ولغتهم وعاداتهم، وإذا لم تنجح جميع هذه الأساليب في حملهم على ترك ماضيهم، فإنه يأمر الملوك بطردهم، وتطهير الأرض منهم. فالملهم في نظر الفاتيكانيان هو أن يزول كل اثر للعرب والإسلام في شبه الجزيرة الايبيرية^(١). ومع أن مجامع طليطلة، التي تعتبر سلطنتها عظمى بالنسبة لكل النصرانية، تحرم بشدة استعمال العنف والقسوة مع غير النصراني^(٢)، فإن بعض رجال الكنيسة استعملوا في إطار الخطة العامة لتنفيذ الأوامر البابوية، طرقاً غير انسانية وغير أخلاقية، لاجراج الملوك، ووضعهم في موقف لا خيار لهم فيه. فقد رأينا في الفصول السابقة، ان الكاردينال خيمنس، اعترف للملكة، بحسب الروايات الاسبانية نفسها - حينما نشبت الثورة في غرناطة عام ١٤٩٩ - أنه هو الذي وضع خطته لدفع المسلمين إلى الثورة ليصبحوا متمردين على السلطة، وبذلك لا يبقى لهذه السلطة خيار في مهادنتهم، ولا يبقى أمامها إلا أن تلاحقهم كمتتمردين خارجين على القانون، وتكون عقوبتهم حينئذ الاعدام. ولكنها تستطيع أن تعفو عنهم، وتوفر دماءهم، إذا ما تركوا دينهم واعتنقوا النصرانية.

فأي خلق وأي دين يسمح لرجل يمثل أكبر مركز ديني في اسبانيا أن يتأمر بهذا الشكل غير الاخلاقي، على أناس أبرياء قنعوا بما كتب لهم القدر في صفحته، من زوال ملك مؤثّل، وسقوط حضارة زاهرة وخضوع لعدو لا يرحم، فيباشر هو بنفسه خرق بنود معاهدة وقع عليها ملكه، وأقسم على احترامها، ويجبرهم وفقهاءهم على التنصر بالحديد والنار والسجون والتعذيب، أو يدفع بهم إلى الثورة ليكونوا في وضع ليس لهم فيه إلا خياران لا ثالث لهما: إما أن يرضخوا ويستكينوا ويقبلوا بما فرض عليهم وطلب منهم، ويتركوا دين آبائهم وأجدادهم، ولغتهم، وحينئذ تنتهي مشكلة العرب في اسبانيا كما يشتهي الغالبون، وإما أن يتحركوا للدفاع عن حقهم، والاعلان عن شكواهم التي لم يرد أحد الاستماع إليها، وهي تقدم للمسؤولين سلماً، وبالطرق المشروعة، وحينئذ يعتبرون متمردين شاقين عصا الطاعة على الملك. فتضع الملكية

١ - دانفيلاي كويادو ص: ٢٢، ٢٤، ٥٣، ٥٥، ٨٧، ١١٦.

٢ - سيركورج ٢ ص ٤٢.

كل إمكاناتها للقضاء على ثورتهم، فيقتل من يقتل، ويهاجر من يهاجر، ويُسترق من يسترق، ويتلف من الأموال ما يتلف، وبذلك تصل الكنيسة إلى غايتها، في القضاء على العرب إما بالموت والطرْد، وإما بالتنصّر.

ولقد رأينا في فصل معاملة العرب للأسبان أيام حكمهم، كيف هدى بعض رجال الكنيسة الأسبان تفكيرهم الضيق إلى وسيلة يمكن أن تعتبر فريدة في التاريخ، لاحتداث نفور بين المستعربين وبين العرب، في محاولة لصرف المستعربين عن الافتتان بالمجتمع العربي، وآدابه، وفنونه، ولغته، وتسامحه، ألا وهي دفع الناس إلى شتم النبي العربي، ليقضي القضاة باعدامهم، بعد أن يرفضوا التراجع عما بدر منهم، وبذلك تعلنهم الكنيسة شهداء. فأَي دين وأي إيمان يجيز لرجال الدين أن يشتموا مقدسات الآخرين وأديانهم، ويستعملوا المهجر من القول، ليثيروا الفتنة، ويتسببوا في إهراق الدماء البريئة ظلماً وعدواناً من عند أنفسهم؟ أوليست لهم ألسنتهم وحججهم وتعاليم دينهم ليدعوا الناس بها إلى الإيْمان، وإلى التمسك بأهداب الدين والافتتان بمحاسنه؟ أليس لهم من دينهم أمر يأمرهم بالدعوة إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة؟ لقد كان كثير من رجال الدين الأسبان يعيشون بين المسلمين، وأجاد كثير من منهم اللغة العربية، وكانت بين أيديهم كتب لا تحصى، توضح الدين الإسلامي، وتعاليمه، وأحكامه، ومذاهبه، فلماذا لم يدرسوها ويناقشوها بالعقل والحجة والمنطق؟ وكيف يجيز لهم إيمانهم أن يحرقوا ويوزروا وأن ينسبوا إلى الإسلام ما ليس فيه، ليتوصلوا إلى غاياتهم وأغراضهم؟

إن رجال الدين الأسبان يعرفون أن الإسلام إنما جاء مؤكداً ومكملاً ما سبق أن ورد في اليهودية والنصرانية من إيمان بالله، وبرسله، وبالأحكام الواردة فيهما. وقد ترك الإسلام الحرية لاتباع الديانات الأخرى، وخصوصاً النصرانية واليهودية، للحياة كما يشاؤون، ولممارسة دينهم، وإدارة شؤون مجتمعاتهم. وفضل الإسلام أتباع الديانتين السابقتين على غيرهم من الناس لاشتراكهم معه في عبادة الله وتوحيده. وأبسط دليل على صحة هذا القول هو بقاءهم أنفسهم، يمارسون عملهم في مجتمعاتهم بكامل حريتهم. حتى دفع بهم التسامح المفرط من جانب الحكام العرب إلى الاعتداء على حرّمات دين الحكام ومقدساته. فهل هو جهل من رجال الدين الأسبان أن يجعلوا الإسلام عدواً للمسيحية، وحرّماً عليها، وباعثاً للقضاء عليها،

وأن يجعلوه ديناً ينكر عيسى ، ويتقول على مريم عليهما السلام ؟ أم هو سوء نية منهم ؟
نإن كان سوء نية فليس في الأديان كلها ما يأمر بالكذب والغش والتلفيق للوصول إلى
هدف معين أياً كان ذلك الهدف ، ومن يفعل ذلك كان بعيداً عن الدين .

لا ينكر أحد على رجال الدين ، أي دين ، حقهم في أن يدعوا الناس إلى
دينهم ، ويحثوهم على التمسك به ، أو على الدخول فيه ، وأن يوضحوا لهم محاسنه
وفضله على الأديان الأخرى . ولكن ليس هناك عاقل يؤيدهم ، أو يقبل منهم ، أن
يلفقوا ، ويكذبوا ، ويشوهوا الحقائق ، ليتوصلوا بذلك إلى مقاصدهم وأغراضهم ،
لأن الأديان خير وعجة ، وإحسان ، والخير يبرأ من الكذب والخذاع .

والأمر الذي لا تفهمه عقلية الإنسان العربي ، ويستلقت النظر فعلا ، هو أن
يصدر البابا كليمنت السابع أمراً بتاريخ ١٢/٣/١٥٢٤ ، يحل فيه الملك شارل
الخامس من القسم الذي أقسمه عام ١٥١٩ يوم تولى الملك ، على الوفاء للمسلمين
بما تضمنته معاهدات الصلح^(١) . فالعربي لا يستطيع أن يفهم كيف يجوز إحلال
إنسان من قسم أقسمه أمام الله والناس على الوفاء لأبرياء وثقوا بالملك ودينه وشرف
قسمه ، فاستسلموا له ، ونزعوا سلاحهم ، وسلموه اليه ، ولم تبق بهم قدرة على
المقاومة ، والدفاع عن أنفسهم وحقوقهم . وفي المفهوم العربي للعهد والمواثيق ان البابا
كان عليه - إذا كان قد استثقل شروط الاستسلام ، وجدها كثيرة التسامح - أن
يطلب إلى الملك إعادة بلنسية ، ومملكتها إلى العرب ، وأن يعيد إليهم سلاحهم
ومالهم وخيلهم ، وأن يعطيهم وقتاً كافياً يستعدون فيه للمجابهة والحرب ، ثم يباشر
حربهم إذا شاء ، وبذلك يكون الإحلال من القسم ونقض العهد معقولاً ، وهذا هو ما
فهمته العقلية العربية لتعاليم الدين الاسلامي عن الأمر بالوفاء بالعهد ، واحترام
العقود^(٢) . وهناك أمر آخر يستلقت النظر في موقف الكنيسة الاسبانية من اضطهاد
المسلمين وتعذيبهم ، ألا وهو وضعها جهاز ديوان التحقيق ، وهو جهاز كنسي خالص ،
في خدمة هذا الاضطهاد ، وتقنيته وتنظيم عملياته ، والتفنن في أساليبه .

١ - دانفيل اي كويادو ص ٨٧ .

(٢) انظر في هذا الكتاب : حق الامام في نقض شروط الصلح .

لقد ترك ديوان التحقيق (وهو ما كان يعرف بمحاكم التفتيش)، ذكراً يرن في أسمع العصور الخالية ولكن الكثيرين يجهلون بالضبط الأساليب التي كان يتبعها هذا الديوان مع الضحايا المساكين الذين يحالون إليه . وقد يتصور الانسان لأول وهلة ، أن قضاء ديوان التحقيق كغيره من هيئات القضاء المعروفة في زماننا ، أوفي عالمنا الشرقي كله . لذلك فقد يستغرب كيف يستطيع قضاء ، مهما كان قاسياً متشدداً في تطبيق القانون ، أن يرغم الأندلسيين على الخضوع للجور والاستكانة للضغط . ولكن من يطلع على القصة التي رواها ضابط فرنسي كان في اسبانيا أيام الحملة الفرنسية على اسبانيا في عهد نابليون ، يدرك الهول الذي كان يتعرض له من يقع في يد محاكم التفتيش الكنسية ، من أي دين كان .

كان أكثر عمل ديوان التحقيق قائماً على مطاردة العرب الأندلسيين ، فقد اضطروهم بالضغط والاكراه والعنف إلى تقبل العمد ، واعتبروهم بذلك مسيحيين ، ولكنهم لم يتركوهم وما اعتقدوا أنهم عليه ، بل أخذوا ينقبون عن أسرارهم وسرائرهم ، وينكرون عليهم النظافة والاستحمام والامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، وختن الأولاد . . واعتبروا كل ذلك قرائن تدل على أنهم ما زالوا مقيمين على الإسلام ، وأنهم صاروا مرتدين عن النصرانية ، وتجب ملاحقتهم . لقد أزهق ديوان التحقيق ألوفاً لا تحصى من أرواح العرب الأبرياء بتهم مختلفة ، ولسنا الآن بصدد إحصاء عدد أولئك المنكوبين ، ولكن يكفي أن نقول ان ديوان التحقيق أعدم في أشبيلية وحدها خلال ثماني سنوات ، ٧٠٠ شخص ، واضطر ٥٠٠٠ بأساليبه الخاصة إلى التوبة وطلب الغفران . وكان ذلك قبل أن يتسع نطاق التنصير ، وقبل أن تضع الكنيسة خططها الشاملة لآبادة العرب^(١) .

وقد نقل الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (نهاية الاندلس) وثيقة أوردها المؤرخ الاسباني (لُورنثي) مؤرخ ديوان التحقيق ، تضمنت طائفة من القواعد والاجراءات التي رأى ديوان التحقيق أن يأخذ بها العرب المنتصرين في موضوع تهمة الكفر والزندقة والارتداد عن النصرانية ، رأينا أن نقبسها هنا لما فيها من غرابة ، وبعد عن روح الإيثار ، وظلم ،

(١) سيروكوز ج ٢ ص ٨ .

(يعتبر الموريסקي (العربي المنتصر) قد عاد إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد، أوقال إن يسوع المسيح ليس إلها، وليس إلا رسولا . أو إن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبلِّغ عن ذلك، ويجب عليه أيضا أن يُبلِّغ عَمَّا إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الاسلامية، ومنها أن يأكل اللحم يوم الجمعة، وهو يعتقد أن ذلك مباح له، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق في صلاته قائلا: بسم الله، أو يربط أرجل الماشية عند ذبحها، أو يرفض أكل الماشية التي لم تذبح، أو لحم الماشية التي ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده، أو يسميهم باسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي محمد رسوله، أو يقسم أيما ناس بالقرآن، أو يصوم في رمضان، أو يتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور)، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجّه وجهه جهة المشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القرآن، أو أن يتزوج طبقا لرسم الشريعة الاسلامية، أو ينشر الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقا العربية، أو أن تستعمل النساء الحنّاء في صبغ أيديهن وشعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يمسح بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم، تنفيذاً لهذه القاعده، أو يغسل الموتى أو يكفّنهم بأثواب جديدة أو يستغيث بمحمد عند الشدة ناعثاً إياه بالنبيّ أو برسول الله . . . أو يقول إن الكعبة هي أول معابد الله).^(١)

ويقول المؤرخ الاسباني مارمول في موضوع بقاء العرب مقيمين على الإسلام ما

يلي :

(كان الموريسكيون يشعرون دائماً بالخروج من الدين الجديد، فإذا ذهبوا إلى القديس أيام الأحاد فإنهم كانوا يفعلون ذلك مراعاة للعرف والنظام - (وفي الحقيقة إن الكنيسة جعلت ذلك فرضاً عليهم، ومن تأخر عن ذلك عوقب وعرض نفسه لأشد الأخطار) - وهم لم يقولوا أبداً الحقيقة في اعترافهم أمام القسيس في الكنائس . وفي يوم الجمعة يجتمعون ويغتسلون ويقيمون في منازلهم المغلقة الصلاة طبقاً للشريعة الإسلامية .

وفي أيام الأحاد يحتجبون ويعملون، وإذا عمّدوا أطفالهم عادوا إلى منازلهم فغسلوهم سرّاً بالماء الحار، ويسمون أولادهم باسماء عربية. وفي حفلات الزواج، تذهب العروس إلى الكنيسة لتلقي البركة، ولكنها متى عادت الى بيتها نزعّت ملابسها النصرانية وارتدت ثياباً عربية، واقاموا حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية^(١).

٣٠٣ - قصة الكولونيل ليمونسكي :

اما قصة الكولونيل ليمونسكي الضابط في الحملة الفرنسية على اسبانيا فهي التالية: (٢)

«كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في اسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش التي احتلت مدريد. وكان الامبراطور نابليون اصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ بالغاء دواوين التحقيق، في المملكة الاسبانية. غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة الحربية، والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ. وصمم رهبان الجزويت - اصحاب الديوان الملقى - على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم، انتقاماً من القرار الصادر، والقضاء الرعب في قلوب الفرنسيين، حتى يضطروا إلى اخلاء البلاد، فيخلوهم الجوع. وبينما كنت أسير في إحدى الليالي، اجتاز شارعاً يقل المرور فيه من شوارع مدريد، اذ باثنين مسلحين قد هجما علي يتغيان قتلي، فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً، ولم ينجني من فتكهما إلا قدوم سرية من جيشنا، مكلفة بالتطواف في المدينة. فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالفرار، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش. فاسرعت إلى المارشال (سولت) الحاكم العسكري لمadrid، وقصصت عليه النبا، فثار غضبه، وقال لا شك في أن قتل جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، ولا بد من معاقبتهم، وتنفيذ أمر الامبراطور بحل ديوانهم. والان خذ معك ألف جندي وأربعة مدافع وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة.

وفي الرابعة صباحاً ركبت على رأس تلك الحملة، ثم قصدنا دير الديوان، وهو

(١) سيركورج ٢ ص ٨.

(٢) محمد الغزالي ص ٢٣٦.

على مسافة خمسة أميال من مدريد . فلم يشعر الرهبان إلا والجنود يحيطون بديرهم ، والمدافع تصوب إليهم فوهاتها ، وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخيم أشبه بقلعة حصينة ، وأسواره العالية تحرسها فرقة من الجنود اليسوعيين . فتقدمت إلى باب الدير ، وخاطبت الحارس الواقف على السور ، وأمرته باسم الإمبراطور أن يفتح الباب . وظهر لي أن الحارس التفت نحو الداخل ، وكلم أشخاصاً لم نرهم ، ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص ، ثم انهال علينا الرصاص من كل جهة ، فقتل بعض رجالي وجرح آخرون ولكني أمرت جنودي بأن يقتحموا الدير عنوة ، واعتبرت إطلاق الرصاص من الجوزيت علامة رفض ، وأنهم لا يفتحون الباب إلا بالقوة . وأخذنا نطلق المدافع على أسوار الدير ، وعلى الباب الموصد . واستخدم جنودنا ألواح الخشب السميكة رصاص الحرس الذي كان ينهمر علينا كالأمطر الغزير . وبعد نصف ساعة استطعنا فتح ثغرة واسعة في الحائط نفذ الجيش منها إلى داخل الدير ، وكنت مع بعض زملائي في طليعة الداخلين . وأسرع الرهبان اليسوعيون إلى لقائنا مرحبين بنا ، وجوههم باشة ، وهم يستفهمون عن سبب قدومنا على هذا النحو وكأنه لم يدر بيننا قتال ، ولم تنشعب معركة . ثم استداروا إلى جنودهم ، وانهالوا عليهم تعنيفاً وتأنيباً وقالوا : إن الفرنسيين اصدقائنا فمرحباً بهم . على أن هذه النفاق الخبيث لم ينطلل علينا ، فاصدرت الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً ، وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري . ثم أخذنا نبحث عن قاعات العذاب المشهورة ، وطفنا بغرف الدير فراعنا ما بها من أثاث فاخر ، ورياش وكراسي هزازة ، وسجاجيد فارسية ثمينة ، وصور نادرة ، ومكاتب كبيرة . وقد صُنِعَتْ أرض هذه الغرف من خشب (المغنى) المصقول بالشمع . وكان شذى العطر يعبق في أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بابهاء القصور الفخمة التي لا يسكنها إلا الملوك .

وعلمنا بعد ذلك أن تلك الروائح العطرة تنبعث من شمع يوقد دائماً أمام صور الرهبان ، ويظهر أن الشمع خلط بهاء الورد . وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب . لقد فحصنا غرف الدير وممراته وأقبية كلها ، ولم نجد شيئاً يدل عليها . فعزمنا على الخروج يائسين من اكتشاف بغيتنا ، وكانوا في أثناء ذلك يقسمون ويؤكدون أن ما نشاع عنهم ، وعن ديرهم ، ليس إلا تنهاً باطلة ، وأنهم يمتثلون هذه الأكاذيب في سبيل الله . وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه

بصوت خافت ، وهو خاشع الرأس ، توشك عيناه أن تطفرا بالدمع . فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير . لكن اللفتنان «دي ليل» استمهلني قائلاً : ليسمح الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن ! وقال : إنني أرغب في فحص أرضية هذه الغرف ، وأدق في امتحانها ، فإن قلبي يحدثني أن السر تحتها . وعند ذلك نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات قلقة ، وأذنت للضابط بالبحث ، فأمر الجنود برفع الأبسة فرفعت ، ثم أمر يصب الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا . وكنا نرقب الماء فاذا بالأرض تبتلعه في إحدى الغرف ، ويتسرب إلى أسفل . فصفق الضابط دي ليل من شدة فرحه قال : هوذا الباب انظروا ، قنظنا فإذا الباب قد انشكف ، وهو قطعة من أرض الغرفة يفتح بطريقة ماهرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوارها قائمة مكتب الرئيس . وأخذ الجنود يكسرون الباب المسحور . والتفت فرقة من الجند حول عصابة الرهبان الذين اصفرت وجوههم ، وكستها غيرة . وفتح الباب وظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض . فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر ، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين . ولما هممت بالنزول وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً وقال لي : يا بني لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال لأنها شمعة مقدسة . فقلت له يا هذا ، إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملوثة بدم الأبرياء ، وسنرى من النجس فينا ، ومن القاتل السفاك .

وهبطت على درج السلم ، يتبعني سائر الضباط والجنود شاهرين سيوفهم . حتى وصلنا آخر الدرج ، فاذا بنا في غرفة كبيرة مربعة ، هي عندهم قاعة المحكمة ، في وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل ، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة . وأمام ذلك العمود عرش الدينونة كما يسمونه ، وهو عبارة عن دكة عالية يجلس عليها رئيس الديوان ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة . ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، وتمزيق الاجسام البشرية . وقد امتدت تلك الغرف مسافات تحت الأرض ، وقد رأيت فيها ما يستفز نفسي ، ويدعوني إلى التقرز ما حييت . رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الانسان ، بعضها عمودي وبعضها افقي ، فيبقى سجين العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه . ويبقى سجين الافقية ممدداً حتى يموت . وتبقى الخثة في السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم . ولتصريف الروائح الكريهة

المنبعثة من الاجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج . وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في اغلالها سجيئة . والسجناء كانوا رجالا ونساء تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين . واستطعنا فكك بعض السجناء الأحياء ، وتحطيم أغلالهم ، وهم على آخر رفق من الحياة . وكان فيهم من جن لكثرة ما لاقى من عذاب . وكان السجناء عراة زيادة في النكاية بهم ، حتى اضطر جنودنا ان يخلعوا أرديتهم ويسترها بها لفيفاً من النساء السجينات . وقد منّا السجناء إلى النور تدريجياً لئلا يؤثر النور المفاجيء على أبصارهم . وكانوا سيكون فرحاً ، وهم يقبلون أيدي جنودنا وأرجلهم لأنهم انقذوهم من العذاب ، وأعادوهم إلى الحياة . وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهولة الابدان . عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم . وكانوا يبذرون بسحق عظام الأرجل ، ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، وذلك كله على سبيل التدريب ، حتى تأتي الآلة على البدن المهشم فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة . وعثرنا على صندوق في حجم رأس الانسان تماماً يوضع فيه الرأس المعذب ، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل من يديه ورجليه ، فلا يقوى على حركة . وتقطر على الرأس من ثقب في أعلى الصندوق ، نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة ، وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من التعذيب ، قبل أن يحمّلوا به على الاعتراف ، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت . وعثرنا على آلة ثلاثة للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة ، وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة . وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ، ثم يطبقون عليها باب التابوت بسكاكينه وخناجره ، فإذا أغلق تمزق جسم الشاب ، وتقطع إرباً . كما عثرنا على جملة آلات لسلس اللسان ، ولتمزيق اشداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عراة حتى يتناثر اللحم عن العظام .

وصل خبر الهجوم على دير ديوان التفتيش إلى مدريد ، فهب الألوف ليروا ما حدث . ولما شاهد الناس باعينهم وسائل التعذيب وآلات الجهنمية جن جنونهم ، وأمسكوا برئيس اليسوعيين ، ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقا ، وسحقته سحقاً ، وأمسكوا بكاتم سره ، وزفوه إلى السيدة الجميلة ، وأطبقوا عليها التابوت ، فمزقته السكاكين شرمزق . ثم فعلوا مثل ذلك ببقية أفراد العصابة . ثم أخذ الشعب ينهب الدير .

وقد عثرنا على أسماء ألوف الأغنياء في سجلات الديوان السرية، وهم الذين قضى الرهبان بقتلهم كي يبتزوا أموالهم، أو يضطروهم إلى كتابة إقرارات تحول ثرواتهم إلى اليسوعيين».

هذه قصة ديوان التفتيش، رواها شاهد عيان، وهي لا تحتاج إلى أي تعليق عليها، والذي يمكن أن نضيفه إلى رواية الكولونيل الفرنسي، هو أن مشاهداته كانت عام ١٨٠٩، وأن المعاملة واقعة على كاثوليك مسيحيين، فكيف بمعاملة الديوان للمسلمين قبل ثلاثة قرون، قبل أن تنصل العواطف، وتتهذب النفوس بعض الشيء، وتنتشر فكرة الحرية في العالم؟ إنها بلا شك تتجاوز أضعاف ما ورد في هذه الرواية.

٣٠٤ - الشروع في طرد من تبقى من العرب في الأندلس:

وإذا فقد كان اضطهاد الاسبان للعرب كبيرا، فاق في قسوته وفظاعته كل ما يمكن ان يتخيله الانسان، فالملك والكنيسة والجيش والقضاة والموظفون والشعب، كلهم يلاحقون العرب، ويبتزون أموالهم بالباطل. وكانت السلطة الملكية تسن القوانين الجائرة غير المنطقية، بحق العرب ليلجؤوا اليها، ويقدموا لها الرشاوى، لتوقف العمل بها، أو تبطلها، ولكنها لا تلبث بعد حين أن تعود إلى اصدار أوامر أخرى، وفي نيتها أن تقبض مبالغ أخرى من المال لتوقف العمل بها من جديد.

وقد اعترف المؤرخ الاسباني (دانفيلاي كويادو): أن كل شيء في اسبانيا، في ذلك الحين، كان يباع: القضاء والشرف والأخلاق، حتى أصبح يمكن الاعتراف بشرعية أبناء الاكلير وس^(١). وكان تطبيق القوانين والانظمة مصدر اثراء وريع للقضاة والموظفين والحكام. ويعترف المؤرخون الغربيون أن قانون رخص الأسلحة ونصوصه الغامضة، وما تضمنه من عقوبات بالغة الشدة بحق العرب المخالفين، كان مصدر اثراء كبير بالنسبة لكل من له علاقة بتطبيقه. ويلاحظ الانسان بملء الدهشة أن اكثر القوانين التي سنتها السلطات الملكية في اسبانيا لاختضاع العرب، كانت عقوباتها بالغة القسوة، وكانت عقوبات الموت والاسترقاق، ومصادرة الأموال والأشغال الشاقة في السفن مدى الحياة، أولمدة ست سنوات، هي اكثر العقوبات

١ - دانفيلاي كويادو ١٥٣.

ذكراً في هذه القوانين، حتى بالنسبة للمخالفات البسيطة، كمخالفات حمل السلاح. ولكن جميع هذه المعاملة غير الانسانية، والملاحقات الجائرة والمصادرات، لم تستطع كلها أن تحت جذور العرب من الأندلس، ولم تستطع حملهم على التخلي عن الأرض التي أنبتتهم، وشهدت عظمتهم ومجدهم، وازدهار حضارتهم. لذلك اتجهت السياسة الاسبانية، بدفع من الفاتيكان والكنيسة إلى الاخذ بفكرة التخلص من العرب، وطردهم من البلاد.

ولكن طرد مئات الألوف من الناس المستقرين، المتمسكين بالأرض، ليس بالأمر السهل الاقدام عليه، وهكذا بقيت فكرة الطرد تظهر وتخبو، وتُقرَّر وتُراجع عنها، إلى أن تم اتخاذ القرار النهائي، ونفذ عام ١٦٠٩، بعد أن اتخذت الاحتياطات القوية لضمان نجاحه. ولكن السلطة لم تستطع أن تقدم عليه إلا بعد أن كانت التعسفات والمصادرات، وملاحقات ديوان التفتيش، قد ارهقت ذلك الشعب المسكين، وانهكت قواه، وتركته قطيعاً من الشحاذين، والعبيد الهائمين على وجوههم في كل فج هرباً من العذاب والاسترقاق.

وسنستعرض في البحث التالي تطور فكرة الطرد والأوامر الصادرة حولها، والمآسي والفظائع التي رافقت التنفيذ.

٣٠٥ - ضغط البابوية والكنيسة لطرد العرب وازعاجهم :

نفذت فكرة طرد العرب من اسبانيا على نطاق واسع عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠ م، في عهد الملك فيليب الثالث، ولكنها لم تكن من بنات افكار ذلك الملك، ولم تنشأ في عهده، وانما هي فكرة قديمة استقرت في اذهان الملوك والفاتيكان والكنيسة منذ عهد بعيد. ففي عام ١٢٥٤، حدثت ثورة في منطقة نهر شقر (مملكة بلنسية)، تزعمها أمير يدعى (الأزرق) فأسرع الملك خايم إلى بلنسية، لمواجهة الموقف، ودعا مجلس الدولة فيها، وأعلن للمجلس الخطة التي ينوي اتباعها في معالجة الثورة. وكان من خطته أن يحصن بعض المواقع الرئيسية في المنطقة، وبصورة خاصة مدينة شاطبة، لكي يجمد العرب غير الشائرين، ويمنعهم من الانضمام إلى الثورة، ثم يعمد إلى طرد جميع العرب من المنطقة، وإلى احلال عائلات نصرانية محلهم. فصفق البورجوازيون والقسس لهذه الفكرة، وعارضوها النبلاء لما تجره عليهم من خراب.

وهذه أول مرة تعالج فيها مسألة المدجنين بهذا الشكل الواضح الحاسم . ونفذ الملك جزءاً من فكرته وخطته ، إذ طرد كثيراً من العرب الشائرين ، وسمح لهم بحمل ما يستطيعون حمله من امتعتهم . أما ما لم يستطيعوا حمله من امتعتهم وأموالهم غير المنقولة فقد اعطيت لأمرء الاقطاع في المناطق التي كانوا يعيشون فيها ، تعويضاً لهم عن الخسائر التي الحقها بهم حرمانهم من الأيدي العاملة المطرودة . وكان عدد الذين أخرجوا كبيراً ، وصفه الملك نفسه فقال انهم كانوا يغطون مسافة خمس مراحل من الطريق .

وحينما نشبت الثورة في مملكة بلنسية ، وشعر الملك خايم الاول بحاجته إلى مال ، ينفقه على الجيوش التي يسيرها لاجناد الثورة ، لجأ إلى الفاتيكان والكنيسة لمده ببعض المال ، فظهر الفاتيكان استعداد الكنيسة للتنازل له عن العشر الكنسي لبعض الوقت ، ولكنه اشترط عليه أن يقسم علناً أمام مذبح العذراء في كنيسة بلنسية ، على إبادة جميع المسلمين الموجودين في مملكته ، ففعل ذلك وتمت الصفقة^(١) .

ثم تكرر طلب البابا إلى دون خايم إبادة المسلمين ، حينما حاول الملك الاستيلاء على مرسية ، فأرسل البابا إليه يشجعه على تحقيق الفكرة ، ويقول له إنه من الضروري أن تبيد جميع المسلمين^(٢) .

ثم نشبت الثورة مرة أخرى في مملكة بلنسية عام ١٢٧٦ ، وكان الملك خايم مريضاً ، وقبل أن يموت في ١٨ تموز ١٢٧٦ ، كتب وصيته لابنه دون بيدرو وقد جاء فيها : (إنه بالنظر لما قدمه الملك من وعد للبابا باخراج جميع المسلمين من أرض المملكة ، وبالنظر لما تقدم بالقسم عليه أمام مذبح العذراء في بلنسية ، فانه يرجوا به دون بيدرو أن يتولى هو مهمة طردهم جميعاً من مملكة بلنسية ، دون أن يترك أحداً منهم فيها لأي سبب كان ، حتى ولو دفعوا ما عليهم) .

وهذا يؤكد أن البحث بين البابا والملك خايم كان يدور حول طرد العرب من مملكة اراغون منذ القرن الثالث عشر . ويعترف المؤرخون الاسبان أن الملك خايم لم يقدم على وضع سياسته لطرد العرب إلا تحت ضغط ثلاثة عوامل : (١) أولها الحاج الفاتيكان (٢) وثانيها ثورات العرب (٣) وثالثها ضغط البورجوازية والاكليروس . وتلاحقت ضغوط الفاتيكان على ملوك اسبانيا لاجراج العرب من أرضهم ،

(١) نفس المصدر ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣ .

ففي عام ١٣١١ دعا البابا كليمان الخامس إلى عقد مجمع مقدس في فيينا، وفيه وجه البابا أمراً إلى الملوك الكاثوليك في اسبانيا، بالألّ يسمحوا في ممالكهم بممارسة الدين الاسلامي، وهذا يعني حمل الناس على التنصر، وطرد من لا يقبل منهم ترك دينه. وعين البابا محققين من رجال الكنيسة يتولون ملاحقة المارقين والمرتدين - الذين تعمدوا تحت الضغط والاكراه - كما يتولون التبشير، ودعوة المسلمين للتحويل إلى الكثرة.

وفي ١٢ آذار ١٥٢٤، أصدر البابا كليمان السابع أمراً بابويا (بولاً) تناول فيه الأمور التالية:

أ - حل فيه الملك شارل الخامس، من القسم الذي أقسمه عام ١٥١٩ وهو القسم الذي التزم ملوك اراغون بأن يقسموه حينما يتولون العرش، وفيه يلتزمون بأن يحترموا المعاهدات الموقعة مع العرب حين الاستسلام، وما تقضي به من احترام حريتهم في ممارسة دينهم ولغتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، والتقاضي لدى قضائهم بحسب شريعتهم. الخ (١).

ب - يدعوا الملك إلى أن يكلف المحققين بمهمة التبشير ودعوة المسلمين إلى الدين المسيحي، وأن يعين لهم مهلة يتحولون خلالها الى المسيحية.

ج - ان يخرج الملك من المملكة، المسلمين الذين يرفضون العهاد تحت طائلة استرقاقهم مدى الحياة.

وفي عام ١٥٢٥ اصدر البابا امرا الى الامبراطور شارل كنت يأمره فيه بأن يجعل المسلمين على اعلان طاعتهم له (أي للامبراطور)، وأن يُعْمَدُوا في يوم ٨ كانون الأول ١٥٢٥، فاعتبر أمر البابا هذا دفعا جديدا للسير في فكرة تنصير العرب

(١) خشي نبلاء اراغون أن تعمد الملكة ايزابيلا الكاثوليكية الى مباشرة الضغط على العرب في مملكتهم لحملهم على التنصر، مما قد يدفعهم الى الحرب. فالزموا الملك فرناندو (زوج الملكة) بأن يقطع لهم عهدا بأن لا تمس حقوق العرب المضمونة بموجب المعاهدات الموقعة معهم. فوعدهم بذلك، ووضعت صيغة، وقعها الملك فرناندو واقسم عليها، واصبح تقليدا في مملكة اراغون ان يقسم الملوك على هذه الصيغة. وقد جاء في الصيغة المذكورة: (ان المسلمين الموجودين في مملكة بلنسية لا يمكن ان يطردوا او يخرجوا من المملكة، ولا ان يجبروا على ان يصبحوا مسيحيين). وجاء في النص الذي وقع عليه الملك فرناندو (واننا نرغب ونريد، لا ان يكون من قبلنا ولا من قبل احفادنا اي قيد على تجارة العرب في هذه المملكة، ولا على علاقاتهم بالنصارى، ونريد ان يساسوا بتسامح كما في السابق).

وطردهم^(١) وعاد البابا كليمانت السابع في عام ١٥٣٤ فاثار الموضوع مرة اخرى إذ كتب إلى المحقق مانريكه، يطلب اليه ابلاغ الملك أسفه لما بلغه عن عودة العرب المتنصرين إلى دينهم الأول، كما يطلب إليه ملاحقة هؤلاء وحملهم على الثبات على الكثرة^(٢).

وفي ١١ حزيران ١٥٣٤، اصدر البابا أمرا بابوياً (بولاً) يأمر فيه الامبراطور شارل كنت بان لا يترك العرب في مملكتي اراغون وبلنسية، وان يطرد من المملكتين، جميع من لا يقبلون منهم التحول الى النصرانية^(٣).

٣٠٦ - العوائق في سبيل التنفيذ:

لقد كانت الفكرة اذاً تتردد في اذهان الملوك والكنيسة، منذ وقت بعيد. ولكن طرد مشات الالوف أو الملايين من العرب الذين بقوا في أرضهم لم يكن بالأمر السهل على الممالك الاسبانية في ذلك الحين، لأسباب كثيرة: منها كثرة عدد العرب، والخوف من ثوراتهم وقردهم على الأوامر، مما كان يمكن ان يهدد أمن الممالك وسلامها بأفدح الاخطار، لا سيما وأن الممالك الاسلامية في المغرب والجزائر ومصر وتركيا، كانت تهدد الممالك الاسبانية بالتدخل لحماية العرب المقيمين فيها. وكان هناك ايضاً مصلحة النبلاء الاسبان الذين كان العرب يعملون في أراضيهم. إذ إن طرد العرب سيخلي أراضيهم تماماً من اليد العاملة النشيطة المخلصة القادرة على الانتاج، وبالتالي فإنه سيؤدي الى افقار السادة الاقطاعيين. وكان الاسبان يعتبرون عمل العرب مصدراً للشراء لمن يعملون لديه، لذلك كانوا يقولون في امثالهم في ذلك الحين: (من عنده عرب عنده ذهب) (Quien tiene moro tiene oro). وكان نفوذ النبلاء كبيراً في الممالك الاقطاعية في تلك الازمنة اذ يقوم نفوذ الملكية على اكتافهم، وكانوا هم الذين يؤلفون الاطوار القيادي للجيشوش المحاربة. وبلغ من نفوذ النبلاء في مملكة اراغون ان حملوا الملك فرناندو، كما رأينا منذ قليل، على أن يقسم على احترام حقوق العرب، وعدم ازعاجهم، والسماح لهم بممارسة عاداتهم ودينهم ولغتهم، ثم اصبح هذا القسم صيغة متوارثة يلتزم بها ملوك اسبانيا.

(١) دانفيلاي كويادو ٩٢٩. وسيركورج ٢ ص ١٥٠.

(٢) و(٣) دانفيلاي كويادو ص ١١٦.

والملكية نفسها كسلطنة ذات مصالح اقطاعية ، مثل بقية النبلاء ، كانت لها مصلحة في بقاء العرب كيد عاملة تنتج في أرضها وأملاكها . كما أن الملكية ، كسلطة عامة مكلفة بالسهر على مصلحة الدولة ككل ، كانت ترى أن المصلحة تقضي ببقاء العرب ، ولو إلى حين ، كيلا تخرب البلاد ، وتخلو من السكان إذا خرجوا منها .

٣٠٧ - تبلور الفكرة :

ولكن الكنيسة كان لها رأي آخر ، والفاتيكان بما له من سلطة وتأثير على الملوك الكاثوليك ، كان يحث ملوك اسبانيا ويدفعهم إلى السير في سبيل الطرد ، لارضاء الله في زعمهم ، مهما كانت النتائج المادية لذلك العمل . ونقلت الكنيسة رغبتها في تحويل العرب إلى النصرانية ، وطرد من لا يتنصر منهم ، إلى أوساط الشعب . فوجدوا زعائن الناس والكسالى ، والفقراء ، ومن لا يملكون شيئاً ، فرصة يمكنهم بها الحصول على ملكيات واستثمارات ، إذا ما خرج العرب ، واحتاجت الدولة إلى من يحل محلهم ، فتكوّن رأي عام يطالب بأخراج العرب .

٣٠٨ - الهجرات الجزئية :

كان الضغط الشديد الذي يتعرض له العرب يدفع بالكثيرين ممن يجدون ما ينفقون خارج المملكة ، إلى الهجرة نحو شمالي افريقيا ، هرباً بدينهم وبحياتهم . كما أن الشورات الكثيرة التي قام بها العرب ، للتعبير عن سخطهم على المعاملة غير الانسانية التي كانوا يلاقونها ، أجبرت الكثيرين منهم على الهجرة ، كيلا يتعرضوا للموت والاسترقاق والتحول إلى النصرانية . كما اقتنع الكثيرون من عرب الاندلس أن أرض الاندلس لم تعد لهم دار مقام وقرار ، فكانوا ينسلون بالتدريج هاريين إلى برّ العدو من المغرب . وكان من نتيجة ذلك كله ، أن هاجرت ألوف لا تحصى من سكان الأندلس . وبدأ التخلخل يبدو في مناطقهم . وكلما قل عددهم في اسبانيا تزايد عدد الاسبان في هذه المناطق ، واستشعر دعاة الطرد بأن الساعة الحاسمة لاجراج العرب جملة من البلاد قد قربت . فقد أضعفت الهجرات امكانات العرب على الثورة ، كما أن تزايد الاسبان في المناطق العربية ، أضعف المحاذير التي كانت تبدو بنقص اليد العاملة ، وخلو المناطق من السكان .

كان هم الكنيسة هو أن تحول العرب إلى نصارى متمسكين بتعاليم الكنيسة بكل دقة. فهي تريد الوصول إلى غايتها بجميع الوسائل، وفيها الاغراء والاكراه. وكانت تقدر أن الذي يعرقل نجاح جهودها هو التراث الحضاري العربي، فإذا قطعت صلة العرب بذلك التراث أمكنها تحويلهم إلى النصرانية بسهولة، وحلهم على البقاء في إطار الكنيسة، فأتلفت الكتب العربية، وأمرت بتحريم استعمال اللغة العربية، وتحريم ما ألف المسلمون من عادات وتقاليد في النظافة والطهارة والصوم، والختان، وتحريم شرب الخمر وتحريم أكل لحم الخنزير. فأمرت بهدم الحمامات، وتحويل المساجد إلى كنائس وإزالة معالمها الخارجية. ولكن جميع هذه الأساليب لم ترد العرب إلا إصراراً على التمسك بدينهم وعاداتهم، حتى الذين أكرهوا على التنصر منهم بقوا مقيمين على الإسلام، يمارسونه في بيوتهم سرا، يصومون رمضان، ويؤدون الصلاة، ويعلمون أولادهم الدين، ويتطهرون. فأساء ذلك الإصرار إلى رجال الكنيسة، ونشطوا في ملاحقتهم أمام محاكم التفتيش بشدة ليس لها مثيل. وصدرت أوامر بمنعهم من الخروج من البلاد، ومن الانتقال من أرض إلى أرض، وحرّم عليهم حمل السلاح، وكل ذلك كان يهدف إلى إدخال اليأس إلى نفوسهم، وإجبارهم على الخضوع للكنيسة. فدفعهم ذلك إلى الاتصال بإخوانهم في شمالي إفريقيا، وبالقراصنة الأتراك والجزائريين ليعملوا على نقل من يريد الهرب منهم، والخروج من اسبانيا. فوجدت السلطات في ذلك حجة لها تمكنها من زيادة العسف الذي تنزله

٣٣٠

ولما تزايد ضغط الفاتيكان والكنيسة والعامّة على الملكية للقضاء على العرب في اسبانيا، بدأت الملكية تبحث المسألة بحثاً جدياً. ففي عام ١٥٦١، سأل الملك فيليب الثاني شخصاً يدعى (غريغوري دوميراندا)، وهو من المكلفين بزيارة المناطق العربية، وفحص حالة العرب، عن رأيه في قضية العرب فأجاب: (إن الموريسكيين هم عرب مسلمون تماماً كالجزايريين، وإنهم يمارسون شعائهم وعبادتهم علناً، ولديهم كثير من المساجد، وإنهم خونة لا يفكرون إلا في الثورة حينما تسمح لهم الفرصة، وإنهم يقبضون على النصارى، ويخفون القراصنة، ويتعاونون مع الأتراك، وإنه من الضروري نزع سلاحهم، وإعادة تنشئتهم على النصرانية)^(١).

٣١٠ - نزع سلاح العرب :

أصدر الملك فيليب الثاني أمراً بتاريخ ١٠/٢/١٥٦٣ ، بوجوب نزع سلاح العرب ، على أن يتم ذلك في يوم واحد هو يوم ٨ شباط ١٥٦٣ ، وعلى أن تسلم الأسلحة خلال أربع ساعات . فجمعت كميات كبيرة من السلاح إثر ذلك . وبعد أن تم نزع سلاح العرب ، صدر في ٢٥ آذار ١٥٦٣ أمر من ديوان التحقيق الأعلى بأن يحضر العرب المنتصرون القدس والاحتفالات الدينية مع عائلاتهم ، كما ألزمهم بأن يرسلوا أولادهم الذين تزيد أعمارهم عن أربع السنوات ، وتقل عن السبع ، إلى الكنيسة لمدة ساعة كل يوم لتلقي تعاليم الدين .

٣١١ - بحث المسألة :

وكان في منطقة بلنسية بلدة تدعى شيا (xeta) ، كان سكانها العرب من أشد الناس تمسكاً بدينهم وتقاليدهم ، وكانوا بحكم موقع بلدتهم قرب ساحل البحر يتصلون بإخوانهم في إفريقيا عن طريق القرصان والسفن التجارية ، وقد حوكم عدد منهم بتهمة التآمر والاتصال بالقرصان ، وحكم على عدد كبير منهم بالإعدام . ووضعت هذه المحاكمة وغيرها من المحاكمات التي كانت تجري كل يوم تقريباً ، مسألة طرد العرب من بيوتهم موضع البحث . فقد بحث أمر أهل بلدة (شيا) ، أولاً في مجالس المملكة ، وارتأى بعضهم أن ينقلوا من ديارهم إلى مناطق كاستيليا الداخلية ، أبعد ما يكونون عن الشاطئ ، واقترح آخرون طردهم من البلاد ، فصدرت اعتراضات على هذا الرأي باعتبار أنهم إسبانيون أصلاً ، ويجب أن يجبروا على الحياة كإسبانيين ، وألا يسمح لهم بالخروج من البلاد . ولكن جميع هذه الأوامر والتدابير لم تفلح في صرف العرب عن دينهم ولغتهم وعاداتهم ، ولم تجعل منهم مسيحيين صالحين ، كما كانت تأمل الكنيسة . وعادت المسألة إلى بساط البحث مرة أخرى . ويقول دانفيلاي اي كويادو ، إن المسؤولين في إسبانيا بحثوا في طريقة تمكنهم من القضاء على الوجود العربي في شبه الجزيرة . وبنتيجة البحث توصلوا إلى الاقتناع بأن أمامهم أحد طريقين : أ - اما اخراجهم من أرضهم عن طريق إصدار أحكام . ب - وإما ملاحقتهم أمام ديوان التحقيق ، وإصدار أحكام كثيرة عليهم

بالاعدام، وحينئذ لا يبقى في المملكة خلال سنين، أحد منهم^(١).

٣١٢ - وضع الخطة:

وقد تبلورت هذه الحلول والاقتراحات، فيما بعد، في عهد الملك فيليب الثاني، فأصبحت لديه في عام ١٥٨٢، خطوط كبرى لخطة عامة لطرد العرب من اسبانيا. ولكنه لم يجرؤ على الاقدام على تنفيذها، فجاء خلفه فيليب الثالث فنفذها عام ١٦٠٩ م.

بحث فيليب الثاني. الخطة التي تصورها للانتها من وجود العرب في اسبانيا الذين قدر عددهم في زمانه بنصف مليون انسان - حسب الروايات الاسبانية - ورأى انه لا بد لنجاح خطة الطرد من تعاون النبلاء والسادة الاقطاعيين، الذين كانوا دائماً يسعون للوفاء بالشروط التي ضمنت للعرب حريتهم لكيلا يضطروهم الاضطهاد إلى الهرب. على ان موقف هؤلاء النبلاء بدأ يتحول في آخر الأمر فأصبحوا ينصحوں الرهبان والقسس بأن يقوموا بالتبشير بين المسلمين لاجتذابهم طوعاً أو بالإغراء إلى المسيحية، وذلك لكيلا يبقوا مصرين على دينهم وتقاليدهم، فتقوم العامة والكنيسة بالمطالبة بجبارهم على التنصر، فيضطروهم ذلك إلى الهرب. وفي كلا الحالتين كان الاقطاعيون حريصين على مصالحهم المرتبطة ببقاء العرب يعملون في أرضهم. لذلك أراد الملك أن يضمن تعاونهم معه في مسألة الطرد، بعد أن فشلت جميع الوسائل في حل هذا الشعب العنيد على التخلي عن تراثه المجيد. وفي أيلول ١٥٨٢ اتصل الملك فيليب الثاني سراً، بعدد من كبار أمراء الاقطاع، الذين يعيش في اقطاعاتهم كثير من العرب، وأخذ يشرح لهم أهمية إخراج العرب من شبه الجزيرة. وفي عام ١٥٨٤، وجه شخص يدعى انطونيودي كوردوبا إي لارا إلى الملك رسالة، اقترح عليه فيها، القيام بتحصين طليطلة، وتسليح ٣٠٠ ألف شخص لتحقيق اخراج المسلمين من طليطلة، وارسالهم إلى منطقة (سايا جو)، ووضع مسيحيين مكانهم، واقترح عليه بأن يفعل مثل ذلك مع جميع عرب اسبانيا ليفقدوا الجراة والغرور اللذين استوليا عليهم اثر الانتصارات التي حققوها في الثورات السابقة^(٢) ولما

(١) نفس المرجع ص ١٩٦.

(٢) دانفيل اي كويادو ص ٢٠٥.

رأى الملك استجابة من اناس كثيرين، وعدم معارضة النبلاء، شرع في اتخاذ التدابير القاسية بحق العرب ومن ذلك :

أ - اصدر الملك في ١٨ كانون الثاني ١٥٨٥ أمراً ملكياً يلغي فيه الاتفاق الذي تم مع العرب في عام ١٥٧١، وما تضمنه من تساهل وتسامح. ونص الأمر الجديد على أن العرب الذين لا يطيعون أمر الطرد خلال شهرين، يصار إلى اعدامهم شنقاً.

ج - وأما الأولاد فيدخلون في دور التعليم (سيمنارينو)، تحت اشراف الكنيسة.

واقترح المجلس أن يتم تطبيق هذه الحلول خلال فصل الشتاء. وفي ٢ شباط ١٥٩٩ أعلن مركز دانية أمام المجلس أن الموريسكيين، هم الآن عرب، كما كانوا قبلاً ويستحقون الموت، ويمكن الحكم عليهم بالشغل في السفن مدى الحياة كعبيد، ومصادرة أموالهم وأملاكهم. أما النساء والشيوخ فيطردون الى افريقيا. وأما الأولاد فيسلمون الى الكنيسة - لينشئوا في الأديرة ودور التعليم تحت اشرافها.

وعُرض على المجلس اقتراح آخر يقول باخراج العرب من منازلهم، وتوزيعهم بين المسيحيين بنسبة عائلة بين كل ٥٠٠ أو ١٠٠٠ عائلة، وبذلك يذوبون نهائياً. وبعد مناقشات طويلة توصل المجلس إلى اتخاذ قرار عام ١٥٩٩ يتضمن ما يلي:

أ - يجب العمل بسرية تامة.

ب - يجب جمع القوة العسكرية الكافية.

ج - يجب العمل على معرفة العدد التقريبي للعرب الموجودين في المملكة، على أن يُبدأ بقشتالة وينظر بعدها بأمر بلنسية وأراغون.

وكان كل ما يشغل بال المجلس الطريقة التي يتم بها الطرد، وبذلك تكون الفكرة التي وجدت عام ١٥٨٢ قد تبلورت وأصبحت خطة واضحة وجاهزة للتنفيذ عام ١٥٩٩.

وفي عام ١٥٩٩ انعقد مجمع اقليمي في بلنسية حضره البطريك، وكبار رجال الدين، والكاردينال معرّف الملكة (جاسباردو كوردوبا)، ولكن هذا المجمع درس مسألة حمل العرب على التنصر، ولم يدرس مسألة اخراجهم. وكان الرأي الذي اقترحه الكاردينال عام ١٦٠٠، واهتم به المجلس، يقول باخراج العرب من ديارهم ليزعوا في قشتالة، على أن يُلجأ الى استعمال الرفق معهم، فإذا لم ينجح الرفق وجب انتزاعهم بالقوة، وارسالهم الى قشتالة، ثم رأى المجلس في ١٩ حزيران

١٦٠٠ ، بالاجماع ، أنه من الضروري أن يصار الى الاهتمام بتعليم العرب تعاليم الدين ، وان يضيق عليهم في مسألة اللغة واللباس .

وفي عام ١٦٠١ ، ناقش المجلس اقتراحات خطيرة وسخيفة ، فرؤي عدم الأخذ بها . ومن هذه الاقتراحات :

١ - انتزاع أولاد العرب الصغار من آبائهم وتسليمهم الى النصارى لتنشئتهم .

ب - أصدر الملك في ٢١ آذار ١٥٨٦ ، أمراً يقضي بمكافأة من يقبض على المخالفين لأوامر الطرد من العرب .

ج - ثم اصدر امراً آخر يحرم على العرب الاقتراب من البحر .

د - وفي ٣٠ تموز ١٥٨٦ ، صدر أمر حرّم عليهم ، تبديل أماكن اقامتهم .

هـ - وفي ٥ أيار ١٥٩٥ أصدر الملك أمراً يقضي بضرورة تعليم العرب الديانة المسيحية واللغة الاسبانية .

و - وفي ٢١ أيار ١٥٩٥ قرر الملك إلغاء الدروس العربية في جامعة بلنسية .

ورأى مجلس الدولة أنه من الضروري الحرص على عدم تعليم أولاد العرب اللغة العربية ، وأن يهدم كل بناء أو أثر يشير مظهره الخارجي إلى أنه جامع أو حمام^(١) .

على أن الملك فيليب الثاني برغم جميع هذه الأوامر التعسفية ، لم يجرؤ على مباشرة تنفيذ الخطة التي وضعها لطرد العرب .

٣١٣ - فيليب الثالث ينفذ خطة الطرد :

حينما ارتقى فيليب الثالث العرش عام ١٥٩٨ ، وضع ثقته في شخص يدعى فرنسيسكو دوسان دوفال - (مركز دانية) فأخذ هذا يتصرف في أمور الدولة كما يشاء ، ويطبق سياسته الشخصية . وبناء على سعيه وجهده حمل مجلس الدولة على الأخذ برأيه في أمر مصير العرب . وفي ٣٠/١/١٥٩٩ عقد مجلس الدولة (الكورتس) جلسة بحث فيها مسألة طرد العرب من المملكة وتوصل المجتمعون الى صوغ اقتراحاتهم المتعلقة بمصير العرب وهي :

أ - يحكم على الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٦٠ سنة بالعمل في

١ - نفس المرجع ص ٢٣٠ .

السفن مدى الحياة، وتصادر أموالهم.

ب - أما الرجال الذين تزيد أعمارهم عن الستين والنساء فيرسلون إلى افريقيا.

ولكن هذا الاقتراح استبعد لعدم واقعيته ، إذ قدر عدد الأولاد المراد انتزاعهم بأربعين ألفاً ، فإذا كلف التصاري بتحمل عبء نفقاتهم كان ذلك شيئاً ثقيلاً عليهم ، وقد لا يقبله الكثيرون منهم . وإذا كُلف الآباء العرب بها فقد يرفضون دفعها .

٢ - وعرض على المجلس اقتراح آخر يقول بتحريم الزواج على العرب . واستبعد هذا الاقتراح لمخالفته لقوانين الطبيعة .

٣ - وعرض على المجلس اقتراح ثالث يقول بترك العرب في أماكنهم يعيشون على دينهم وعاداتهم ؛ بعد مصادرة أموالهم وفرض ضريبة ثقيلة عليهم . ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به أيضاً .

٣١٤ - اقتراح طرد عرب أراغون :

وفي ٣ كانون الثاني ١٦٠٣ ، عقد مجلس الدولة جلسة قرر فيها الاقتراح على الملك بطرد عرب مملكة أراغون للقضاء على العلاقات التي يقيمونها مع الفرنج في الشمال ، وهو أمر يضر بمصالح المملكة ، وذلك لأن المجلس يرى أن أحكام ديوان التحقيق لا تحقق الغاية المرجوة منها ، بسبب أعمال القراصنة ، وإمكانات الهرب ، والعفو والتسامح .

٣١٥ - اتخاذ قرار الطرد :

وفي ٢١ شباط ١٦٠٩ ، كتب المحققون في مملكة أراغون إلى كاردينال طليطلة ، يسألونه عما تقرر بشأن العرب ، فكتب الكاردينال إلى مجلس الدولة يسأله بدوره ، واقتراح أن يبقى الأمر سراً مكتوماً ، إلى حين تنفيذه ، وأن لا يهاج العرب ولا يخرجوا ، لكيلا يتحركوا ، فيأخذهم الأمر بغتة . واقتراح على المجلس أن يعطي تعليقاته سراً إلى ديوان التحقيق في أراغون وبلنسية وقطالونيا .

٣١٦ - قرار مجلس الدولة :

رأى المجلس أن سنة ١٦٠٩ ، هي أفضل السنين مناسبة لاتخاذ قرار حاسم

- ب - لا ينفذ القرار في قشتالة إلا بعد أن تتبين نتيجة تنفيذه في بلنسية .
- ج - إن حرمان العرب من ابنائهم يعرقل عملية الطرد، ولأجل ذلك يجب تأليف لجنة من رجال الدين والقانون لتتظر في أمر الأبناء .
- د - توزع القوات ، وتتخذ الاستعدادات والتدابير المشددة لمراقبة كل حركة .
- هـ - تؤخذ الثمار والأموال المنقولة لتنفق في تربية الأولاد .
- و - تبقى النساء المسيحيات المتزوجات من عرب مع أولادهن في المملكة .
- ز - لا يطرد من أصبحوا مسيحيين فعلاً .

٣١٩ - مصير الأولاد :

- لم يجزؤ مجلس الدولة على أن يقرر مصير الأولاد فوراً ، لذلك أوصى بتأليف لجنة من رجال اللاهوت والقانون لدرس الموضوع . ولما درست اللجنة هذا الموضوع رأت أن تقترح الحلول التالية :
- أ - الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٤ سنوات ، ويرى آباؤهم تركهم في البلاد ، يجب أن يبقوا ، على أن يتم البحث عن أشخاص يقبلون تسلمهم للعناية بتربيتهم .
- ب - الأولاد الذين عاشوا منذ زمن بعيد بين المسيحيين ، وتلقوا (التكريس) ، يمكن بقاؤهم في البلاد .
- ج - أولاد المسيحيين والمسيحيات ، يبقون في البلاد إذا كانت أعمارهم تقل عن ست سنين . .
- د - أما غير هؤلاء من الأولاد ، فيجب أن يخرجوا من اسبانيا مع أهلهم ، بلا تردد ولا شفقة . ثم عدلت السن فجعلت سبع سنين .

٣٢٠ - موقف المغرب من مسألة الطرد :

كان المغرب دائماً آملاً وسنداً لآخوانه أبناء الأندلس ، وقد تحمل في ذلك أكبر التضحيات وأعظمها ، وكان لتدخله عام ١٠٨٦ ، الفضل في منع انهيار الدولة العربية في الأندلس ، في ذلك الحين ، ومد بذلك عمر الحكم العربي ٤٠٠ سنة أخرى . وفي الوقت الذي اذيع فيه أمر طرد العرب من الأندلس ، كانت في المغرب دولة قوية موحدة :

بحق العرب، نظراً للاضطرابات الخطيرة بين زعماء العالم الاسلامي، وانشغالهم بهذه الخلافات عن كل شيء آخر. فسلطان الترك كان مشغولاً في صراع مع ملك فارس، وفي صراع آخر مع ملك مراکش. وملك مراکش مشغول بشورة مولاي زيدان، بالإضافة إلى انشغاله في صراعه مع سلطات الجزائر التركية. ولذلك لم يكن هناك أمل للتدخل في شؤون عرب اسبانيا. وبعد مداوات، قرر المجلس في ٤ نيسان ١٦٠٩، مبدأ طرد العرب من اسبانيا، والتدابير التي يجب اتخاذها. ولكن الملك أبقى الموضوع سراً، وسافر إلى شقوية، وبقي فيها إلى ٣ أيلول.

٣١٧ - اذاعة قرار الطرد:

اتخذ الملك احتياطات أمن مشددة، وحشد قوات تقارب ١٣٠٠٠ جندي، ووضع الحصون والقلاع على أهبة الاستعداد الكامل، وشحنها بالمؤن والذخائر، واستدعى قوات الاسطول لتساهم كلها في العملية، ثم أمر بإذاعة الأمر في ٢٢ أيلول ١٦٠٩. وهو يقضي بطرد عرب مملكة بلنسية.

٣١٨ - محاولة النبلاء لآخر مرة:

وقع الملك أمر الطرد في ١١ أيلول، ولكنه لم يذعه إلا في ٢٢ منه، وقد علم النبلاء بالأمر بعد توقيع القرار، وقبل اذاعته، فتوجهوا إلى الملك، للمرة الأخيرة، يشرحون له الأضرار التي تلحق بالمملكة من جراء تنفيذ قرار الطرد فرد عليهم الملك شارحاً وجهة نظره، وعرض عليهم أن يعرضهم عن الأضرار التي تلحق بهم، فقال لهم إن أوان المراجعة قد فات لأن أمر الطرد قد أذيع في ذلك الحين في بلنسية، وأنه في طريق التنفيذ.

وفي نفس الوقت الذي تم فيه مسعى النبلاء لدى الملك، اجتمع مجلس الدولة في ١٥ أيلول ١٦٠٩، بتهام هيئته، وحضر الملك اجتماعه هذا، وكان مما قرره المجلس في هذا الاجتماع:

أ - يجب الاستمرار في تنفيذ أمر طرد العرب من بلنسية، وقشتالة، تحقيقاً لخدمة المسيح، ولأمن اسبانيا.

تضم مراكش وفاس، تحت إمرة السلطان محمد الشيخ، وكان من المنتظر، ان تقوم الدولة المغربية بعمل ما في هذا السبيل إذ كانت فعلاً هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تحدث أثراً في السياسة الاسبانية. ولكن السلطان كان يواجه خطرين يهددان كيانه دولته، أولهما خطر الغزو التركي، من جانب الحكم التركي المستقر في الجزائر. وثانيهما خطر انشقاق داخلي، أحدثته ثورة مولاي زيدان. وتقول الروايات الاسبانية إن السلطان، تجاه هذا الوضع الخطير، كان يسعى إلى تأمين عون من اسبانيا، وإنه اضطر إلى أن يستقرض منها عشرين ألف دينار، كما حصل منها على ستة آلاف بندقية، وقدم ضمانات للملك فيليب الثالث على الوفاء بالدين. ولما تأكد الملك فيليب من أن السلطان في شغل عنه، وأنه لن يتمكن من فعل شيء، قرر المضي في تنفيذ مخططه. وقد صح تقديره لأن السلطان المغربي لم يتحرك، كما أن الأتراك لم يقوموا بعمل ما.

٣٢١ - التنفيذ:

قبل أن يذاع أمر الطرد الصادر في ١١ أيلول ١٦٠٩، اتخذت الدولة الاسبانية الاحتياطات التالية:

أ- أذيع في ١٢ أيلول، أمر ملكي في بلنسية، يقضي بفرض عقوبات بحق من يسيء معاملة العرب في مملكة بلنسية.

ب- وفي ١٧ أيلول، احتلت السفن الإيطالية والاسبانية، التي اجتمعت تحت إمرة أمير البحر الاسباني بيدور دوتوليدو، بعض الموانئ، وتولت قواتها خراسة المعابر والممرات الموصلة بين مملكتي أراغون وبلنسية.

ج- دعا الملك في ٢١ أيلول أعضاء مجلس الدولة (النواب)، وأمراء الاقطاع وأصحاب الرتب العليا في الدولة للاجتماع إليه.

د- ولما اجتمع اليه من دعاهم يوم ٢٢ أيلول، قرأ عليهم الأمر الملكي الصادر في ١١ أيلول ١٦٠٩، فرد عليه ممثلو النبلاء أنهم وإن كانوا يرون خراب أملاكهم، إذا ما خرج العرب منها، إلا أنهم لن يبالوا بذلك، لأن كل همهم منحصر في خدمة الملك، ورفعة الدين، وأمن المملكة.

وبعد ذلك كتب الملك إلى نبلاء بلنسية يطلب إليهم التعاون معه لانفاذ

مضمون أمر الطرد. كما قام الكاردينال باذكاء روح الحماسة في القسس، وحثهم على تقديم أكبر عون لانجاح المهمة.

٣٢٢ - تعليمات الطرد:

وأشارت التعليمات التي أذاعها (المركيز دو كارسينا)، لتنفيذ الأمر الملكي، إلى الجهود الكبيرة التي بذلت عبثاً لتحويل العرب في مملكتي بلنسية وقشتالة إلى النصرانية، لذلك فإنه سيصار إلى الانتهاء من مشكلتهم كما يلي:

أ - إخراجهم جميعاً من المملكة رجالاً ونساء وأطفالاً، خلال ثلاثة أيام. وإذا وجدوا بعد هذه المهلة في الطرق، أو في أماكن أخرى، فيمكن القبض عليهم وتجريدهم مما يحملون من أمتعتهم، وإذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم جاز قتلهم.

ب - وعليهم خلال الأيام الثلاثة الممنوحة لهم أن يلزموا بيوتهم وأن لا يخرجوا منها حتى يأتي إليهم مفوضو الدولة المكلفون بتنفيذ الأوامر.

ج - إذا قبل الجيران أن يخفوا أموالاً للعرب، تعرض المخفون لعقوبة الاعدام.

د - يسمح لهم فقط بأن يحملوا معهم أموالهم المنقولة التي يستطيعون حملها معهم شخصياً، تحت طائلة عقوبة الموت.

هـ - أما ما لا يستطيعون حمله من أموال ومنقولات وأثاث، فإن الملك أمر بأن تُسلم للسيد الاقطاعي التابعين له.

و - سمح لستة أشخاص فقط من كل مئة شخص أن يبقوا لتسوية أمور الآخرين المعلقة، على أن يكونوا أكبرهم سناً.

ز - بعد انقضاء المهلة المحددة، يلغى الأمر الصادر بتحريم اساءة معاملة العرب.

ح - يسمح لعشرة من العرب الذين يسافرون في الفوج الأول، بالعودة إلى البلاد لآخبار اخوانهم بالمعاملة التي لاقوها في الطريق من قبل موظفي الدولة المكلفين بمرافقتهم.

ط - الأولاد الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات، والذين يرغبون في البقاء، ويوافق آباؤهم أو أولياؤهم على بقائهم يمكنهم ذلك.

ي - الأولاد الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات والذين هم من أب نصراني ،
أو أم نصرانية أصلاً ، يمكنهم البقاء ، وتبقى معهم أمهم ، وإن كانت عربية . ولكن
إذا كان الأب عربياً والأم نصرانية فيطرد هو ويبقى مع الأم الأولاد الذين تقل أعمارهم
عن سبع سنوات .

ك - أما الأشخاص الذين يعيشون مع المسيحيين أصلاً ، ويثبت أنهم لم يذهبوا
إلى رابطة الجوامع منذ أكثر من سنتين فيسمح لهم بالبقاء .
واتخذت إثر إزاحة هذه التعليمات الاحتياطات المشددة لحراسة المدينة ،
والأحياء الواقعة خارج الأسوار . وشرع المفوضون بالتطواف على القرى ، والضياح ،
والأحياء ، لحمل الناس على الأبحار ، وترك أسبانيا . وفي ٢٧ أيلول قدم المركيز (دو
كارسينا) كشفاً للملك بالعمليات التي تمت ، وباعداد الذين أخرجوا فعلاً . وأبدى
بعض النبلاء تعاوناً مخلصاً مع الملك في تنفيذ أمر الطرد ، مثل الدوك (دوغانديا) ،
الذي يملك أربع مناطق يبلغ سكانها من العرب من أتباعه ستين ألفاً^(١) ، ومع ذلك
قرر التضحية بمصالحه الخاصة ، ابتغاء مرضاة الملك . ولكن النبلاء الآخرين لم
يتعاونوا مثل هذا التعاون - على ما تقوله الروايات الأسبانية - .

٣٢٣ - المآسي التي رافقت عملية الطرد :

لقد رافق تنفيذ عمليات الطرد مآسٍ ، وإساءاتٌ لا توصف ، وكان هؤلاء
المساكين لم يكفهم ما حل بهم في الماضي من ظلم ، ونهب أموال ، واضطهاد من جميع
فئات الشعب الأسباني ، وكانهم لم يكفهم أن يُنتزَعوا من بيوتهم يُقَدَّف بهم بعيداً
عنها ، فقد تعرضوا أثناء عمليات الطرد إلى ما لا يحصى من الجرائم الفظيعة التي
ارتكبت بحقهم ومن ذلك :

أ - أمرت الدولة بالآلا يحملوا معهم غير ما يستطيعون حمله شخصياً من
متاعهم ، أي ما يستطيعون هم حمله بأنفسهم ، لا ما يستعان لحمله بدابة أو واسطة
نقل أخرى . وما الذي يستطيع أن يحمله الإنسان ؟ لقد تركوا أغلب ما يملكون من
متاع وأثاث وماشية ومؤن .

١ - كويادو ص ٣٠٢ .

ب - إن الذين لم يأت دورهم في الإبحار راحوا يستعدون للرحلة، فصاروا يبيعون ما لا يستطيعون حمله كي يستغيثوا بحمل النقود عن حمل المتاع، فأخذ الاسبان يتر بصوص للعرب في الطرقات والمسالك التي يمرون فيها ذاهبين إلى المدن لبيع ما معهم، ويسلبونهم إياها، تحت سمع الحكومة وبصرها.

ج - ثم رأت الحكومة أن بعض الناس كانوا يتمكنون من الوصول إلى المدن وبيع ما معهم، فأرادت أن تقطع هي عليهم الطريق فأصدرت أمراً بتاريخ ١ تشرين الأول ١٦٠٩، تحرم فيه على العرب أن يبيعوا، بعد ذلك اليوم، ما يملكون من حبوب وزيت، ومواشٍ، وأمرت بأن تصدر منهم، وتسلم للسادة الاقطاعيين.

د - أخذ الشعب الاسباني ينتظم في عصابات تقوم بمهاجمة قوافل النازحين في الطرقات، وتسلبهم ما معهم من قليل المتاع، وتقتل من تقتل منهم، تحت سمع القوات المرافقة للنازحين وبصرها.

ولما تزايدت الفظائع المرتكبة، وبلغت حداً لا يُطاق، ضج العرب في كل مكان في اسبانيا، بالشكوى، وتوتر الجو، وبدت علائم الثورة والتمرّد عليهم، فخافت الحكومة أن يعرقل ذلك الجهود التي بذلتها لانجاح مخططاتها، فأمرت بوضع حراسة على جميع طرق المملكة لضمان سلامة النازحين، ولكن ذلك لم يبدل من الأمر شيئاً، إذ أخذت هذه القوات التي كلفت بالحراسة والسهر على أمن النازحين تشارك هي نفسها في عمليات الاغارة عليهم، فأدرك المسؤولون أن ثورة العرب أصبحت وشيكة الوقوع لما حل بهم من ظلم وعسف. وقد كتب المركز (دوكارسينا) للملك يخبره بأن الجرائم التي يرتكبها النصاري بحق العرب من قتل ونهب وسطو واختطاف تتزايد كل يوم، وأن النعمة في أوساط العرب تتزايد بسبب هذه الجرائم.

وتقول الروايات الاسبانية إن الملك استاء من هذه التعسفات التي تجاوزت كل حد، وإنه قال لسكرتيره، إن التدابير التي اتخذتها الحكومة لم تكن كافية لردع المجرمين، ولا بد من انزال عقاب صارم بهم، أو ببعضهم على الأقل، ليرتدع الآخرون^(١). ولكن الحكومة لم تقدم حماية جدية للنازحين فانفجرت ثورات في بعض المناطق العربية، ومنها ثورة في (مويلا) (والأغوار)، واستمرت من ٢٤ أيلول حتى ٢٩ تشرين الثاني، فأسرعت القوات الحكومية لمقاتلة الثائرين، وقطعت الماء عن الوادي

الذي احتله الشائرون، وعندئذ أعلنوا استعدادهم لوضع السلاح والزوح. وتقول الرواية الاسبانية إن الناس تدافعوا إلى الماء وكانوا قرابة ١٧٠٠٠ انسان، ومات كثير من منهم لكثرة ما شربوا.

٣٢٤- طرد العرب من المناطق الأخرى :

بعد أن نجحت عمليات السلطات الاسبانية في كبح جماح العرب، في مملكة بلنسية وطردهم، التفتت هذه السلطات إلى تنظيم عمليات طردهم من المناطق الأخرى: غرناطة ومرسية وجيان والأندلس.

وفي ١٣ كانون الثاني ١٦١٠، أذاع (خوان دوميندوسا)، في أشبيلية، أرادة الملكية الصادرة في ١٦٠٩/١٢/٩ التي تقضي على العرب المقيمين في مناطق غرناطة ومرسية وجيان والأندلس، بالخروج من المملكة خلال ٣٠ يوماً مع أولاهم ونسائهم، تحت طائلة عقوبة الموت ومصادرة أملاكهم وأموالهم. وسمح لهم الأمر ببيع منقولاتهم على أن يحملوا بدلا عنها بضائع يشترونها. وسمح لهم بأن يحملوا من النقود ما يكفيهم للرحلة إلى المنطقة التي يريدون الخروج منها. وحرم الأمر الملكي على أهل المناطق المراد اخراجهم، التوجه إلى موانئ أراغون وبلنسية.

٣٢٥- إخراج عرب قشتالة والاستريبادورا :

تذكر الرواية الاسبانية أن (برناردودوفالاسكو) كونت سالازار، قال إن عرب قشتالة والاستريبادورا قد اعربوا له عن قلقهم، وعن رغبتهم في الخروج من البلاد، لذلك صدر أمر ملكي في ٢٨ كانون الأول ١٦٠٩، يقضي بالسماح لهم بالخروج إلى حيث يشاءون خلال ٣٠ يوماً، وسمح لهم باخراج منقولاتهم، واختار بعضهم الخروج إلى الأراضي الفرنسية، فسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقود ما يكفيهم للرحلة، من بورغوس إلى الحدود الفرنسية. وفي عام ١٦١٠ خرج من بورغوس إلى فرنسا قرابة ١٦٧١٣ شخصاً أكثرهم من أهالي غرناطة.

وفي ١٠ تموز ١٦١٠، أذيع أمر ملكي يقضي بطرد كل من بقي في البلاد من العرب، باستثناء النساء العربيات المتزوجات من نصارى وأولادهن. ونتيجة لهذا

الأمر الجديد خرج من بورغوس وحدها، إلى فرنسا أكثر من عشرة آلاف انسان. وتقول الرواية الاسبانية إن الذين أخرجوا من قشتالة نتيجة لهذا الأمر يقدرون بأكثر من مئة ألف شخص^(١).

٣٢٦ - إخراج عرب أراغون :

أصدر الملك في ١٧ نيسان ١٦١٠، أمراً بإخراج العرب المقيمين في مملكة أراغون، ولكن هؤلاء كانوا شرعوا في التسلل من البلاد إلى فرنسا، منذ أن أدركوا أن دورهم آت لا محالة. فباعوا ما استطاعوا بيعه من أموالهم وأمتعتهم، وخرج الكثيرون منهم قبل صدور الأمر الملكي.

وفي ٢٩ أيار ١٦١٠، أذاع المركيز (دي ايتونا)، أمراً في سرقسطة بقضي بإخراج جميع عرب المنطقة، فخرج منهم بناء على هذا الأمر حوالي ٢٢ ألفاً من الموانىء، ولكن الحاكم لم يترك هذه المناسبة تفوت دون أن يفيد منها، فأجبر كل فرد على أن يدفع له عشرة ريات (مرابطي). وتقدر الروايات الاسبانية عدد الذين طردوا من أراغون بحوالي ٦٤ ألفاً، أما الذين خرجوا من قطالونيا فكانوا بحدود خمسين ألفاً.

٣٢٧ - عمليات طرد أخرى :

وفي ٢٢ آذار ١٦١١، نشر كتاب ملكي، يذكر الملك فيه أنه قد بقي في اسبانيا عدد من العرب، وأن بعضهم عاد بعد اخراجه. ويأمر الكتاب بأن يخرج من البلاد خلال سنتين، جميع العرب الموجودين في مملكة غرناطة، بدون استثناء. حتى العبيد العرب الموجودون لدى السادة الاسبان، فقد طلب الأمر تحريرهم ليخرجوا مع الآخرين خلال هذه المهلة أيضاً.

ونتيجة لهذا الأمر خرج من قشتالة والاستريادورا وحدهما ٦٠٠٠ شخص. ثم صدر أمر آخر في ٣١/٥/١٦١١، يجدد الأمر بالطرد، ويقضي بأن يحكم على الذين عادوا خلسة بالعمل في السفن، وسمح هذا الأمر بأن يبقى في كل مكان واحد يختاره

١ - كويادو ص ٣١٠.

العرب، ليقوم ببيع أموالهم، وتسوية أمورهم المعلقة، نيابة عن جميع المبعدين وقضى الأمر أيضاً بأن يستولي الملك على نصف قيمة ما يبيعه العرب من أموالهم.

٣٢٨ - عرب مرسية :

صدر أمر بإخراج عرب مرسية في ١٠ كانون الثاني ١٦١٠، ولكنه لم ينفذ حينها نفذ بحق عرب المناطق الأخرى. وفي ٨ تشرين الأول ١٦١١، صدر أمر بإخراجهم من ميناء قرطاجنة، على أن يشمل الأمر إخراج العرب من موريسكيين (متنصرين)، ومدجنين. ولكن الأمر لم يدع في مرسية إلا في ١٩ تشرين الثاني. وخرج من البلاد تطبيقاً لهذا الأمر قرابة ١٥٠٠٠ شخص. أما الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثماني سنوات فقد تركوا في البلاد، وسلموا للمسيحيين لتنشئتهم. وبالرغم من جميع هذه الأوامر فانه بقي عدد لا بأس به من العرب في اسبانيا. وتقول الرواية الاسبانية إن الدولة تلقت معلومات عام ١٦٢٣، عن وجود عرب بقوا في اسبانيا. وفي عام ١٧٦٩، تلقى ديوان التحقيق معلومات عن وجود مسجد في قرطاجنة يحتفظ به العرب المقيمون فيها.

ولكن برغم وجود أعداد قليلة من العرب في نواح متفرقة من شبه الجزيرة الاسبانية، فانهم لم يبق لهم كيان وأثر في الحياة العامة. وهكذا تمكن الجهل والظلم والعسف والارهاب، من طي علم تلك الحضارة المشرقة، التي أنارت لأوروبا سبيل العلم والمعرفة، وأيقظتها من سباتها العميق، وانتزعها من تخلفها، وانطوى بانطواء العلم العربي علم الاسلام الذي دخل الفاتحون العرب تحت ظله إلى الأندلس.



تمهيد

٣٢٩ - حضارة العرب :

كان بودي أن أقف بالقارئ الكريم عند نهاية أعظم مأساة في تاريخ الإنسانية، ليبقى اثرها في نفسه حياً. ولكنني وجدت أنه لا يمكن أن يعالج الإنسان ناحية من نواحي تاريخ الأندلسيين، أية كانت تلك الناحية، دون أن يتعرض، ولو بإشارة موجزة، أولمحة عابرة، إلى حضارتهم ومدنيتهم، لا سيما وأننا أشرنا، أكثر من مرة في هذا الكتاب، إلى تلك الحضارة الزاهرة، التي لم يعرف التاريخ الأوربي القديم، لها مثيلاً.

ومما دفعني أيضاً إلى إضافة هذا الفصل، هو أن جميع الكتاب الذين عالجوا موضوع الأندلس، ومأساة العرب فيها، تعرضوا إلى الحضارة العربية عامة، والأندلسية خاصة، واهتموا بالخراب الذي لحقته يد الجهل والظلم بالحضارة الأندلسية، أكثر من اهتمامهم بمصير الشعب العربي، والمآسي العظيمة التي حلت به.

وقد وجدت أن أتبع هذا القسم بفصل آخر، يتضمن بعض ما قاله الأندلسيون من شعري رثاء أنفسهم، ووطنهم ودينهم، وفي تصوير المآسي التي حلت بهم، والظلم الرهيب الذي وقع عليهم، لأن هذا الأدب، هو أدب المأساة، الذي يعتبر أصدق وصف، وتصوير لواقع الشعب وحياته، وهو جزء هام من تراثه.

ولكن البحث في حضارة العرب عمل ضخم يحتاج إلى كتب مطولة، لا إلى فصل واحد من كتاب، وضع لمعالجة ناحية معينة من نواحي تاريخ العرب في الأندلس. والباحث في تاريخ حضارة شعب ما، عليه أن يتناول جميع ما أمتاز به هذا الشعب، وما قدمه للإنسانية في جميع مجالات الحياة: العلوم والفنون والآداب والآثار والعمران والأخلاق والفلسفة والصحة والنظافة والآداب. . . الخ.

والأندلسيون قدموا للإنسانية، ولاوروبا بصورة خاصة، الشيء الكثير جداً في هذه الميادين، ولا يستطيع أن يجادل في ذلك إلا مكابر مجانف للعدل والانصاف.

على أننا إذا لم نستطع أن نحيط في هذا الفصل، بجميع نواحي الموضوع، ولا أن نوفيه حقه كاملاً من العرض والتفصيل، لتتضح أمام القارئ الكريم الصورة الكاملة لهذه الحضارة التي بلغت الأوج، يوم كانت أوروبا في أبعد درجات التخلف والجهل، فإننا نستطيع أن نشير على الأقل إلى الخطوط العريضة، وإلى بعض مظاهر هذه الحضارة، وما قيل فيها، ليعود من شاء التوسع في الموضوع، إلى المراجع المطولة التي عالجت حضارة العرب في الأندلس.

وقد رأينا أن نكتفي ببعض ما قاله بعض الكتاب الغربيين المنصفين، مما يشير إلى هذه الخطوط العريضة للحضارة العربية عامة، وإلى حضارة الأندلس خاصة، والكتاب الغربيون أقرب إلى الشعب الإسباني منهم إلى العرب الأندلسيين، ولا يمكن أن يتهمهم أحد بالتحيز للعرب، ولا بالتحامل على الكنيسة وعلى الأسبان. ولذلك فإننا نعتقد أن إبراد مقتطفات مما قالوه، يكون أكبر برهان على حقيقة ما قدمه العرب للحضارة الإنسانية.

ونحن حينما نبحث في الحضارة الأندلسية، لا بد لنا من أن نشير إلى أنها كانت جزءاً من الحضارة العربية الإسلامية في المشرق، اقتبست منها الكثير، واغتنتها هي بدورها. فقد كانت وحدة الدين، ووحدة اللغة، ووحدة الدار، والثقافة، والتاريخ، والمصير، والمصالح، من أكبر العوامل في تيسير انتقال العلم والعلماء، والفنون والفنانين، وفي انتقال أحدث المبتكرات من جهة إلى أخرى في العالم الإسلامي. ولذلك فإن الإنسان حينما يبحث في الحضارة العربية الإسلامية في الغرب، لا يمكنه أن يغفل النظر إلى أصولها ومنابعها في الشرق. فالحضارة العربية الإسلامية، في الغرب والشرق كانت كلاً واحداً، وهذا بلا شك لا ينفي ولا يمنع من أن تكون هناك سميزات خاصة تميز الحضارة في كل قطر تبعاً للبيئة والجوار. ولذلك كان البحث في الحضارة العربية بحثاً بالضرورة في الحضارة الأندلسية.

٣٣٠ - جهل الإنسان الغربي بحقيقة الحضارة الأندلسية :

وقع أول احتكاك جدي بين العرب وبين أوروبا في سوريا وفي مصر، حينما اندفعت جيوش العرب - بعد أن تحولوا إلى الإسلام - إلى هذين القطرين، لاقضاء الروم البيزنطيين عنها، ولاحتلال مكانهم فيها. وتتابع الاحتكاك في القرون التالية،

حتى بلغ العرب أوروبا بعد فتح الأندلس، وجنوبي فرنسا، وجنوبي إيطاليا، وجزيرتي صقلية وسردينيا.

ومع أن الإسلام لم يتعرض لدين من الأديان، أو الجنس من الأجناس، بشيء من الضغط والاكراه - كما يقر بذلك الغربيون أنفسهم - فإن الكنيسة، وجدت في انتشار الإسلام تهديداً خطيراً لها، ولنفوذها. وخصوصاً حينما وجدت أن التسامح العربي الإسلامي يجتذب الملايين من اتباعها، للدخول في الإسلام. فقدرت أن أفضل وسيلة تستعملها لوقف هذا النزيف المهدد، هي إثارة العواطف الدينية لدى العامة، وخلق تيار من التعصب والحقد، ضد العرب والإسلام. وبذلك تُوَجِّدُ هوةً عميقة بين اتباع الدينين، وتدفع باتباعها إلى البقاء في أحضانها.

وقد أثارت الكنيسة الأسبانية حوادث الاستشهاد في قرطبة - في القرن التاسع الميلادي - حسب ما رأينا، كما أثارت الكنيسة في روما الحروب الصليبية، في القرن الحادي عشر. وكانت وسيلتها في كثير من الأحيان نشر الأكاذيب والمبالغات، وتلفيق القصص، وتزوير الوقائع، لاقتناع الناس في أوروبا، بأن للإسلام غاية واحدة هي القضاء على المسيحية، وتعمية آثارها، وأن المسلمين يارسون الضغط على النصارى في المشرق، ويجبرونهم على التخلي عن دينهم، ومعتقداتهم لاعتناق الإسلام. . . . وبما أن النصارى الشرقيين لم يشك أحد منهم من معاملة الحكام المسلمين لهم، كما لم يشك أحد منهم من سوء معاملة المواطنين المسلمين لجيرانهم أبناء الأديان الأخرى، وأن كبار رجال الدين المسيحي سجلوا كثيراً من الأقوال والشهادات التي بقيت محفوظة في بطون كتب التاريخ، وهي تشيد بعدل العرب، وإنصافهم وإنسانيتهم، وبعدهم عن التعصب وعن الاساءة الى المسيحيين خاصة، وإلى أبناء الأديان الأخرى عامة، فإن ذلك يدعونا إلى الاعتقاد بأن رجال الكنيسة الغربية، اختلقوا ولفقوا، مثل هذه الادعاءات من عندهم، لاثارة العواطف والتعصب عند الناس. إذ كانوا يرون أن الغاية تبرر الوسيلة. وهذا بلا شك أسوأ ما يمكن أن ينحط إليه الخلق. وقد كان من المفترض في رجال الدين أن يكونوا أبعد الناس عن الأخذ بهذه القاعدة المنافية للخلق الكريم، ولتعاليم الأديان السماوية كلها.

وقد روت لنا كتب التاريخ، ما قام به رجال الدين من الصليبيين - الذين عاملهم صلاح الدين أكرم معاملة وأرحمها وأنبأها - من مبادرات دنيئة هدفها استصراخ الغرب لكي يرسل حملة صليبية لانقاذ بيت المقدس، بعد أن استرجعه

منهم صلاح الدين . فقد هداهم تفكيرهم إلى وضع صورة يركب فيها عربي على حصان يقف فوق قبر السيد المسيح والحصان . . . إلى آخر القصة المعروفة . ولا شك في أن واضعي هذه الصورة كانوا يعتمدون على جهل الإنسان الغربي بالإسلام ، وبخلق المسلمين ، وبالوضع البنياني للقبر ، الموجود داخل كنيسة مغلقة ، ومن الصعب أن يدخل إليه حصان . . . وقد استحل رجال الدين هذا الكذب والاختلاق لإثارة المشاعر ضد المسلمين ، وللوصول إلى غايتهم .

وتابعت الكنيسة جهودها في إثارة التعصب في أوروبا ، ضد الإسلام والمسلمين ، إلى نهاية القرن السادس عشر ، حينما تم اخراج جميع المسلمين من اسبانيا .

ولكن خطر الإسلام ما لبث أن برز مرة أخرى في شرقي أوروبا ، مع الفتح العثماني ، فتحركت الكنيسة مرة أخرى تحرض الناس ، وتدفع بالحكام إلى الاتحاد ضد المسلمين ، واستمر ذلك إلى نهاية القرن التاسع عشر .

وكانت الكنيسة خلال هذه القرون الطويلة ، تحاول تشويه صورة الإسلام في نظر أتباعها ، وترزه دائماً في صور منفرة ، فكانت ترى أن وصولها إلى غايتها فيما تصورته خدمة للمسيحية ، يبيح لها اختلاق العيوب والمثالب ، وكنتم الحقائق والفضائل . لذلك لم نجد أحداً من رجال الغرب في الماضي ، يعترف بفضل للعرب على أوروبا ، وعلى الإنسانية ، فيما وصلت إليه من تقدم ورفي ، لأن العرب مسلمون ، والمسلمون يجب أن لا تكون لهم فضيلة محبة ، تدفع الناس إلى الاطلاع على دينهم وراثتهم .

وقد أغار كثير من رجال الغرب على تراث العرب وعلومهم ، وبحوثهم ومكتشفاتهم ، ونسبوها الى أنفسهم ، ففازوا بكسب رخيص . وحتى اليوم فإتنا نجد قلة قليلة من الرجال في الغرب تجرؤ على الاعتراف بها كان للعرب من فضل على الحضارة الإنسانية .

وهكذا بقي الإنسان الغربي جاهلاً بما قدمه العرب للحضارة ، فهو لا يعرف للعرب غير الصورة القبيحة المنفرة ، التي رسمها لهم رجال الكنيسة عبر قرون عديدة ، وقد بقيت هذه الصورة ماثلة في أذهان العامة تتناقلها جيلاً بعد جيل .

٣٣١ - الأصوات المنصفة في العصر الحديث :

وهكذا بقيت صورة العرب والإسلام ، وحضارتها ، مشوهة في ذهن الإنسان الغربي ، عبوراً طويلاً ، لا يجزئ أحد على انصافها ، أو تصحيحها ، مخافة أن يجلب على نفسه نقمة الكنيسة ، إلى أن كان العصر الحديث . فقام أناس منصفون جريثون ، أتاحت لهم فرصة الاطلاع على حقائق الإسلام ، وعلى تاريخ العرب وحضارتهم ، واستقوا معلوماتهم من منابعها الأصلية ، فبرزت لهم الصورة المشرفة البراقة ، وقارنوا بين تلك الصورة الشوهاء التي استقرت في أذهانهم ، وبين الواقع الوضاء لتاريخ العرب والإسلام . فأدركوا أن واجبهم ، نحو الحقيقة ، يقتضيهم بأن يُعرفوا بني قومهم ، بما وقفوا عليه هم ، فوضعوا كتباً ضمنوها دراسات ، وآراء فيما وصل بهم البحث العلمي .

ولكن هذه الفئة القليلة المنصفة ، لا يمكن أن تكون وحدها كافية لإزالة الغشاوة عن أبصار ملايين البشر ، الذين توارثوا الكره للعرب ودينهم وحضارتهم ، نتيجة الجهل بحقيقتهم ، وحقيقة ما قدموه للإنسانية من جميل التراث .

ومن واجب العرب أنفسهم أن يبذلوا جهوداً كبيرة للتعريف بحضارة الإسلام ، وبحقيقة التاريخ العربي ، والجهد العربي في سبيل خير الإنسانية ، وهذا التعريف بنا وبتاريخنا وحضارتنا ، نستطيع انتزاع الحقد من نفوس تكرهنا لجهلها بنا ، وهي تظاهر أعداءنا علينا بسبب هذا الكره الذي لا مبرر له .

وسنكتفي في بحثنا هذا بعرض موجز لآراء ثلاثة من الكتاب الغربيين المحدثين ، في حضارة العرب ، ولن نقوم بالتعليق عليها ، أو مناقشتها ، لأنها واضحة جلية لا تحتاج إلى تعليق أو مناقشة .

والكتاب الثلاثة هم (غوستاف لوبون) والدكتور (سيغريد هونكة) و(الراهب ماك كيب) .

الفصل الأول

الحضارة العربية في نظر غوستاف لوبون

٣٣٢ - الحضارة العربية في نظر غوستاف لوبون :

وضع العالم الفرنسي غوستاف لوبون كتاباً عام ١٨٨٤م عنوانه (حضارة العرب) نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعير عام ١٩٤٥ . وهو كتاب طويل ، تعرّض فيه كاتبه إلى كثير من نواحي الحضارة العربية ، وأتى ، في فصول متفرقة من الكتاب ، على ذكر حضارة الأندلسيين ، وكان فيه مثلاً للانصاف والتجرد والواقعية . ويمكننا أن نجتزئ منه فقرات ومقاطع ، توضح وجهة نظر الكاتب في حضارة العرب ، ودينهم ، وبعض ما ذكره عن حضارة عرب الأندلس .

٣٣٣ - العربي واليهودي :

إن الشبه قليل بين العربي أيام حضارته ، وبين اليهودي ، الذي عرف ، منذ قرون طويلة ، بالنفاق والجبن ، والبخل والطمع ، وإنه لمن الاهانة للعربي أن يقارن باليهودي . ولكن طريقة الحياة الخاصة التي خضع لها اليهود منذ قرون ، هي التي جعلت منه عرقاً ذليلاً (ص ٧٥) .

٣٣٤ - فلسفة القرآن وانتشاره في العالم :

للإسلام وحده كل الفخار ، بأنه أول دين قال بالتوحيد المخلص الخالص ، وبأنه أول دين نشر أتباعه ذلك التوحيد في العالم .

وتشتق سهولة الإسلام من التوحيد المحض، وفي التوحيد سر قوة الإسلام. والإسلام خال مما نراه في الأديان الأخرى، ويأباه الذوق السليم من المناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقل غموضاً، من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله. وإنك إذا اجتمعت بأي مسلم، من أية طبقة كانت، يسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث، والاستحالة وما مائلها، من غير أن يكون من علماء اللاهوت والجدل (ص ١٤٢).

ويفسر وضوح الإسلام، وما أمر به من العدل والاحسان، سر انتشاره، كما يفسر عدم تنصر أية أمة، بعد أن رضيت بالإسلام ديناً. والإسلام من أكثر الديانات، ملاءمة لمناحي العلم، واكتشافاته، ومن أعظمها تهديداً للنفوس، ودعوة إلى العدل والاحسان والتسامح (ص ١٤٣).

٣٣٥ - العدل والتسامح عند العرب:

كان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي، وقد تركوا الناس أحراراً في أمور دينهم، وأظلم العرب اساقفة الروم، ومطارنة اللاتين، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والعظمانية.

٣٣٦ - معاملة الاسبان للعرب:

... ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بحرق كثير من العرب الذين أجبروا على التنصر وتلقي العماد، على أنهم من النصاري، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدرج، لتعذر حرق ملايين العرب دفعة واحدة.

وقد نصح كرينال طليطلة الثقي - الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش - بقطع رؤوس من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً.

ولم ير الراهب الدومينكاني (بليدا) الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب، ومن بقي على دينه منهم. وحجته في ذلك أنه لما كان من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب، كان من المستحب قتل جميع العرب بحد

السيف، لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى.
ولكن الحكومة الاسبانية أدركت صعوبة تنفيذ هذا الاقتراح، فأمرت في عام ١٦٠٩م باجلاء العرب عن اسبانيا. وقد قتل أكثر المهاجرين العرب في الطريق.
وقد أبدى الراهب (بليدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع أولئك المهاجرين في أثناء هجرتهم. وقد قتل ذلك الراهب مئة ألف مهاجر من قافلة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مسلم، حينما كانت متجهة الى افريقيا.

٣٣٧ - فظاعة المذابح التي ارتكبتها الاسبان بحق العرب :

ويقدر الكثير من العلماء، ومنهم (سيديس)، عدد المسلمين الذي خسرتهم اسبانيا، منذ فتح فرديناند غرناطة، حتى اجلائهم، بثلاثة ملايين. ولا تعد مذبحة سان بارتلمي، ازاء تلك المذابح، سوى حادثة تافهة لا يؤبه بها. ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لا نجد بين وحوش الفاتحين، من اقترف مظالم كالتي اقترفها نصارى اسبانيا تجاه المسلمين (ص ١٩١).

٣٣٨ - حالة اسبانيا قبل دخول العرب، وجهود العرب :

كانت اسبانيا ذات رخاء قليل في زمن القوط، وكانت ذات ثقافة لا تلائم غير الأجلاف، ولم يكد العرب يتمون فتح اسبانيا، حتى بلؤوا يقومون برسالتهم التثقيفية فيها، وقد استطاعوا في أقل من قرن، أن يحيوا ميت الأرض، ويعمرؤا خرب المدن، وقيمؤا أفخم المباني، ويحققؤا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى. ثم شرعؤا يتنافسؤن في تحصيل العلوم والأداب، وفي نقل كتب اليونان واللاتين إلى العربية. ومما امتازت به حضارة العرب في اسبانيا في ذلك الزمن، ميل العرب الشديد الى الفنون والأداب والعلوم، وقد أنشأ العرب لتحصيلها، في كل ناحية، المدارس والمكتبات والمختبرات، وترجمؤا كتب اليونان، وضربؤا بسهم كبير في المباحث الرياضية والفلكية والطبيعية والطبية (ص ٢٩٢).

٣٣٩ - الزراعة في اسبانيا :

برع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم الأخرى والصناعات، وليس في

اسبانيا الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتمه العرب . وأدخل العرب ، في حقول الأندلس الخصبية ، زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز . . . وأصبحت اسبانيا - التي هي صحراء في الوقت الحاضر ، عدا بعض الأراضي في جنوبها - جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية والفنية .

٣٤٠ - آثار العرب لا تمحى :

ظن رئيس الأساقفة (اكزيمس) ، أنه إذا قام باحراق ما قدر على جمعه من كتب العرب يكون قد محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد ، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد اسبانيا ، يكفي لتخليد اسمهم .
أجل لقد تم النصر للنصارى ، فأحلوا الصليب محل الهلال في قرطبة ، ولكن الهلال كان يهيم على أغنى مدن العالم وأجملها ، وأكثرها أهلاً وعمراناً ، فجاء الصليب ليشرف على بقايا ما قوضه عباده ، من تلك الحضارة القديمة ، دون أن يقيموا حضارة أخرى مكانها (ص ٢٩٤) .

٣٤١ - أثر العرب في حياة الأندلس :

استطاع العرب أن يحولوا اسبانيا مادياً وثقافياً ، في بضعة قرون ، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوروبية ، ولم يقتصر تحويل العرب لاسبانيا على ذئك الأمرين ، فقد كان لهم الأثر البالغ في أخلاق الناس . فهم الذين علموا النصارى - وإن شئت قل حاولوا أن يعلموا النصارى - كيف يكون التسامح ، الذي هو أئمن ما تصبو إليه الإنسانية . وقد بلغ حلم عرب اسبانيا إزاء النصارى ، مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعتقدوا مؤتمراتهم الدينية ، كمؤتمر أشبيلية النصراني ، الذي عقد في تموز سنة ٧٨٢ م . وتعد بيع النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي ، من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم (ص ٢٩٦) .

٣٤٢ - دخول الناس في الاسلام :

أسلم كثير من النصارى من غير اكراه ، ولم يسلموا طمعاً في شيء ، وهم الذين

استعربوا، وكانوا هم واليهود مساوين للمسلمين . وكانوا يتقلدون مناصب الدولة كالمسلمين (ص ٢٩٦).

٣٤٣ - أخلاق عرب اسبانيا :

وكان عرب اسبانيا بالاضافة الى تسامحهم ، يتصفون بنبل الأخلاق ، أي بالفروسية ، فكانوا يرحمون الضعفاء ، ويرفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم ، ويقولون الصدق ، وما إلى ذلك من الخلال الحميدة التي اقتبسها الأوروبيون منهم مؤخراً ، والتي كانت تؤثر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة .

٣٤٤ - اعتراف المتصفين بفضل العرب :

اعترف بفضل العرب الخلفي ، اولئك الكتاب القليلون الذين درسوا تاريخهم ، وإليك ما قاله العالم الثبت (سيديو) .
«لقد كان العرب يفوقون النصارى كثيراً في الأخلاق والعلوم والصناعات ، وكان من طبائع العرب الكرم والاخلاص والرحمة مما لا تراه عند غيرهم . وكان من طبائعهم النبل والوقار والعزة مما كان يؤدي الافراط فيه ، إلى المبارزة والشحناء . وكان أفقر المسلمين يحافظ على شرف أسرته كأشد الأمراء صلفاً» .
وكان ملوك قشتالة ونبره (نافارا) على علم من صدق العرب وأمانتهم ، وقراهم للضيف ، فلم يتردد الكثيرون منهم في المجيء إلى قرطبة ليعالجه أطباؤها المشهورون (ص ٢٩٧).

٣٤٥ - غدر الاسبان :

وعلى النقيض نجد أن (بطرس الظالم) ملك قشتالة ، يدعو ملك غرناطة أبا سعيد ، إلى قصره . فلما أعجبه ما كان يتحلى به الملك أبو سعيد ، لم يرَ غير قتله لسلبه ما كان معه من حلي . ولم يقترب العرب مثل تلك الآثام أبداً . وقد أحسن العرب إلى الحضارة كثيراً بنشرهم في أنحاء العالم ، من المشاعر والأخلاق ما يحول دون ارتكابها (ص ٢٩٩).

٣٤٦ - مباني العرب في اسبانيا :

وتحدث المؤلف بعد ذلك بإسهاب عن عظمة ما خلفه العرب في ميدان العمران والبناء، ويصف جامع قرطبة، وقصر الزهراء وقصري أشبيلية والحمراء، وما فيها من بديع الصنعة، ورفيع الزخارف، وجميل الذوق الفني. ثم تحدث عن التخريب الذي ألحقه الاسبان بتلك الآثار النادرة غير عارفين قيمة ما يخربون، وختم حديثه بقوله :

«وقد قص جميع رجال الفن الذين زاروا قصر الحمراء العجيب، والألم ملء قلوبهم، ما لا يكاد يصدقه العقل من أنباء التخريب الفظيع الذي أحدثه الاسبان فيه. وقد هدم شارل كنت قسماً منه، لينشئ مكانه بناءً ثقيلاً».

وينقل الاستاذ لوبون ما ذكره (دافيليه)، في كتابه عن اسبانيا وقد جاء فيه :
«لقد بيعت ألواح الميناء التي كانت تزين رداء الحمراء منذ بضع سنين، لتستبدل بالملاط، وقد بيع باب مسجد النحاسي كشيء عتيق، وقد حرق منها أبواب ردهة بني سراج الخشبية الأنيقة، كما يحرق الحطب، ثم اتخذ من رداها الجميلة سجون للمجرمين، ومخازن للبيرة بعد أن بيع ما أمكن نزع وبيعه منها» (ص ٣٢٠).
وأراد الإسبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة فكسوها طبقة كثيفة من الكلس (ص ٣٢٠).

٣٤٧ - حضارة العرب في صقلية :

كانت حضارة العرب زاهرة في صقلية حين فتحها النورمنديون، وقد أدرك روجير وخلفاؤه فضل أتباع النبي، فاقتبسوا نظمهم، وشملوها برعايتهم، وكانوا سبباً في تمتع صقلية برشاء دام إلى أن قبض الملوك السوابيون على زمام الملك عام ١١٩٤م، وأجلوا العرب عنها (ص ٣٣٠).

٣٤٨ - شر خلف لخير سلف :

جاء النورمنديون لنجدة جنوبي إيطاليا، لفك الحصار الذي ضربه العرب على سالرنو، ونجحوا في ذلك، فسر أهل إيطاليا، ودعوهم إلى عونهم، فجاءتهم نجدات من الفرسان، كان مهمهم السلب والنهب، أكثر مما كان مهمهم الدفاع عن

دينهم وأبنائه . وقد تساوى في نظرهم اليونان والعرب والرومان . فأخذوا في سلبهم جميعاً ، حتى خربت تلك البلد .

وقد نهب النورمان الكنائس والأديرة ، وقتلوا النساء والشيوخ والأطفال ، وكانوا يفاجئون الأديرة غير المحصنة ، فيسلبونها كل ما فيها ، ويبقرون بطون رهبانها بوحشية خشية الفضيحة ، وكان الرهبان يقابلونهم بالمثل . ولم يلبث أهالي إيطاليا أن أدركوا أن صداقة النورمان أشد وقرأ عليهم من عداوة العرب .

٣٤٩ - العرب في فرنسا :

ثبتت إقامة العرب في فرنسا ، مدة قرنين ونصف ، بعد شارل مارتل ، أن النصر الذي أحرزه في بواتيه ، لم يكن مهماً كما زعم بعض المؤرخين . ولم يستطع مارتل أن يأخذ من العرب أية مدينة كانوا قد احتلوها عسكرياً ، حتى إنه اضطر إلى التقهقر أمامهم ، تاركاً لهم ما كانوا قد استولوا عليه من البلدان .

ويعلق الاستاذ لوبون على ما كتبه الكاتب الفرنسي (هنري مارتن) ، من أنه لو نجح العرب في بواتيه ، لحسرت أوروبا والدنيا مستقبلها ، فقال الاستاذ لوبون رداً على هذا القول :

«لنفترض أن الغربيين عجزوا عن صمد العرب ، فكان يصيب أوروبا النصرانية المتبربرة ، مثل ما أصاب إسبانيا من التقدم ، والارتقاء والحضارة الزاهرة ، تحت راية النبي العربي . وكان لا يحدث في أوروبا ، التي يكون الاسلام قد هذبها ، ما حدث من الكبائر ، كالحروب الدينية ، وملحمة سان بارتلمي ، ومظالم محاكم التفتيش ، وكل ما يعرفه الغرب من الوقائع التي خضبت أوروبا بالدماء عدة قرون» (ص ٣٤٢) .

٣٥٠ - مصادر معارف العرب :

استوقف العالم الذي فتحه العرب أنظارهم ، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم ، بمثل نشاطهم في فتوحهم ، فلم يلبث الخلفاء - بعد أن شادوا دولتهم - أن أنشؤا المدارس في المدن للتعليم ، وجمعوا حولهم كل قادر على نقل أهم كتب اليونان إلى اللغة العربية . وقد حدث في بلاد فارس وسوريا ، أن الروم نفوا النساطرة من

دولتهم ، فأقاموا في الرها مدرسة لنشر معارف اليونان في اسيا . ولما أغلق جوستنيان مدارس الاسكندرية وأثينا ، قصد علماءها بلاد فارس ، فنقلوا إلى لغات الشرق (السريانية والكلدانية والفارسية) ، أهم كتب علماء اليونان ، مثل أرسطو وجالينوس . وقد وجد العرب في بلاد فارس وسوريا ، حينما استولوا عليها ، خزائن من العلوم اليونانية ، فأمروا بنقل ما في اللغة السريانية إلى العربية ، ثم أمروا بنقل ما في اللغة اليونانية إلى العربية . فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قدماً نحو الرقي .

وقد كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة معلمي العرب ، شأن الطلاب الذين يتلقون في مدارسهم ما ورثه الإنسان من علوم الأولين . ولكن العرب المفظورين على قوة الابداع ، لم يكتفوا بحال الطلاب ، الذي اكتفت به أوروبا في القرون الوسطى ، فلم يلبثوا أن تحرروا - بها عرف عنهم من النشاط - من ذلك الدور ، ولم يعد الاغريق بعد ذلك أساتذة للعرب .

ويعجب الانسان من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث والتحقيق ، وإذا كانت هناك أمم تساوت مع العرب في ذلك ، فانه لم تتفوق أمة عليهم . فكانوا إذا ما استولوا على مدينة ، صرفوا همهم إلى انشاء مسجد ، وإقامة مدرسة ، أو مدارس فيها .

وكانت المدن الكبرى تشتمل على جامعات كبيرة ، محتوية على مختبرات ومراصد ، ومكتبات عظيمة ، وكل ما يساعد على البحث العلمي ، وقد كان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عظيمة عامة . وقد روى مؤرخو العرب ، أنه كان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني في قرطبة (٦٠٠٠٠٠ كتاب) بينما لم يكن في مكتبة ملك فرنسا شارل الحكيم ، بعد أربعمئة سنة من ذلك التاريخ أكثر من (٩٠٠) مجلد لثلثها فقط في غير اللاهوت (ص ٤٥٩) .

٣٥١ - مناهج العرب العلمية :

إن المكتبات والمختبرات والآلات لم تكن غير وسائل للدرس والبحث ، وإن قيمتها في معرفة الاستفادة منها ، فقد يكون الانسان مطلعاً على علوم الآخرين ، ويبقى مع ذلك عاجزاً عن التفكير الحر الطليق ، وابتداع أي شيء ، وأن يظل تلميذاً

غير قادر على الارتقاء إلى درجة استاذ.

والعرب الذي كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، لم يلبثوا أن أدركوا أن التجربة والرصد أفضل من الكتب، ولا يقولن أحد ان ما أدركه العرب هو من الحقائق المبتدلة، فقد جد علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة، قبل أن يعلموه.

منح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعاً، لا ينتظر مثلها من رجل تعود درس الحوادث في الكتب. وقد توصل العرب بأسلوبهم التجريبي إلى اكتشافات مهمة فأنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة، من الاكتشافات أكثر مما حققه الاغريق في زمن أطول من ذلك بكثير.

ولم يستفد البيزنطيون من التراث العلمي للاغريق. ولما آل الأمر إلى العرب، حولوا التراث العلمي الاغريقي إلى غير ما كان عليه فتلقاه ورثتهم مخلوقاً آخر.

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، وإنما نشروها كذلك، بها أقاموه من الجامعات وما ألفوه من الكتب.

والحق أن تأثير العرب على أوروبا من هذه الناحية عظيم جداً. فالعرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون، وأنها لم تطلع على علوم اليونان والرومان إلا بفضل العرب. (ص ٤٦١ - ٤٦٣).

والحق يقتضينا الاعتراف للعرب بأنهم أول من أغضى عما نسميه اليوم (حرية الفكر).

أثر العرب في العلوم

٣٥٢ - أثرهم في الرياضيات :

اتسع البحث في الرياضيات - ولا سيما الجبر - عند العرب ، وقد عزى إليهم اكتشاف الجبر ، وإن كانت أصوله معروفة منذ زمن طويل . والحق أن العرب حولوا علم الجبر تحويلاً تاماً ، وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة . وقد ألف محمد بن موسى^(١) ، كتاباً موطأً له بأمر الخليفة المأمون ، ومن هذا الكتاب اقتبس الأوروبيون ، بعد زمن طويل ، معارفهم الأولى لعلم الجبر . والعرب هم الذين أدخلوا المماس إلى علم المثلثات ، وأقاموا الجيوب مقام الأوتار . وطبقوا الجبر على الهندسة ، وحلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا في مباحث المخروطات ، وحولوا علم المثلثات الكروية بارجاعهم حل مثلثات الأضلاع إلى بضع مثلثات أساسية . ولادخال المماس إلى علم المثلثات أهمية عظيمة (ص ٤٨٠) .

٣٥٣ - أثر العرب في علم الفلك :

وعلم الفلك أول ما اعتنى به العرب ، وكانت بغداد مركزاً مهماً لمباحث علم الفلك ، وكان هناك كثير من المراصد القائمة في البلاد الممتدة من أواسط آسيا حتى سواحل المحيط الأطلسي . وقد أدت أعمال مراصد بغداد ، زمن هارون الرشيد ، وابنه المأمون ، إلى نتائج هامة . وقد أدمجت هذه النتائج ، وما كان توصل إليه مرصد دمشق ، في كتاب (الزيج المصحح) الذي ضاع .

١ - هو محمد بن موسى بن شاذان عاش في عصر الخليفة العباسي المأمون وتوفي عام ٢٥٩ هـ .

ونشأ عن تحقيق العرب للاعتدال الشمسي ، تعيينهم مدة السنة بالضبط ، وقد أقدموا على قياس دائرة نصف النهار ، وهو أمر لم يوفق اليه علماء أوروبا إلا بعد ذلك بألف سنة .

ومن أعمال فلكني مرصد بغداد الأخرى ، ما وضعوه من التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة ، وتعيينهم بالضبط مبادرة الاعتدالين .

ومن أشهر الفلكيين العرب (أبو محمد البتاني)^(١) المتوفى عام ٩٢٩م ، وأبناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين عاشوا في القرن التاسع ، وعينوا بالضبط درجة عرض مدينة بغداد عام ٩٥٩م ، وأبو الوفاء المتوفى عام ٩٩٨م .

واعتبر سيديو أن مرصد بغداد توصل إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل اليه علم الفلك بغير مرصد ، ولا تقل آثار العرب الفلكية في الأندلس عن آثار عرب المشرق ، ولكن لم يبق منها إلا القليل لحرق مخطوطاتها . ولا نعرف عن أكثر فلكني العرب في الأندلس شيئاً غير أسمائهم . ولا نعلم غير القليل من محتويات كتبهم . ولكن يمكن الاستدلال على ما احتوته بما جاء في كتب نصارى ذلك الزمان . ومن ذلك ما توصل إليه (سيديو) من النتائج القائلة (إن العرب سبقوا كبلر وكوبرنيك ، في اكتشافات حركات الكواكب السيارة ، على شكل قطع ناقص ، وفي نظرية دوران الأرض) .
ويوجد في مكتبة باريس وحدها ثلاثة اسطرلابات ، ومن نعم النظر في تركيبها ، يعلم أنها دالة على مهارة صانعيها ، وأنه يصعب في الوقت الحاضر صنع ما هو أحسن منها .

وتتلخص اكتشافات العرب في علم الفلك في الآتي :

- إدخال المماس إلى الحساب الفلكي منذ القرن العاشر .

- وضع أزياج لحركات الكواكب .

- تعيين دقيق لانحراف سمت الشمس ، ونقصانه التدريجي .

- تحديد صحيح لمدة السنة .

- تحقيق لشذوذ عرض للقمر .

- تقدير للاختلاف القمري الثالث ، الذي قيل إن (تيخوبراهه) اهتدى إليه

عام ١٦٠١م .

- قياس دائرة نصف النهار .

(١) هو محمد بن جابر بن سنان الرقي ، كان أصله من صابئة حران ، توفي عام ٣١٧هـ .

٣٥٤ - أثر العرب في العلوم الجغرافية :

كان من نتيجة رحلات العرب ومعارفهم الفلكية ، أن تقدم علم الجغرافيا ، أيام حضارة العرب كثيراً ، ولم يلبث علماء العرب أن فاقوا علماء اليونان الذين أخذوا عنهم ، حسب عادتهم ، ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها اليونان ، والأمكنة التي عينها العرب ، ليظهر مقدار التقدم الذي تم على أيدي العرب .

وكتب العرب ، في علم الجغرافيا ، مهمة للغاية ، وقد كان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في أوروبا قروناً كثيرة ، ومن أشهر جغرافيين العرب :

الاصطخري (أواسط القرن التاسع) .

الادريسي وهو اندلسي (أواسط القرن الثاني عشر) .

القزويني (القرن الثالث عشر) .

ياقوت الحموي (القرن الثالث عشر) .

أثر العرب في الطبيعيات

٣٥٥ - أثرهم في الفيزياء :

ضاعت الكتب المهمة في الفيزياء ، ولم يبق منها غير أسائها ، ومنها كتب الحسن ابن الهيثم^(١) . في الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة والمرايا المحرقة . ويمكننا أن نستدل على أهمية كتب العرب في الفيزياء من العدد القليل الذي وصلنا منها ، ولا سيما (كتاب الخازن) في البصريات الذي نقل إلى اللاتينية واليونانية ، واستعان به كبلر .

٣٥٦ - أثرهم في الميكانيك :

معارف العرب الميكانيكية واسعة جداً ، ويستدل عليها من بقايا آلاتهم ، التي انتهت إلينا ، ومن وصفهم لها في مؤلفاتهم . ولا ريب في أن العرب عرفوا الساعات ذات الأثقال ، وكانت منها واحدة في الجامع الأموي بدمشق ، وصفها ابن جبير وصفاً شيقاً .

٣٥٧ - أثرهم في الكيمياء :

وقد وصل فيها العرب إلى اكتشافات مهمة . وكانت معارف اليونان ، التي انتقلت إلى العرب ضعيفة جداً ، ولم يكن لليونان علم بها اكتشفه العرب من المركبات

١ - ابن الهيثم : هو الحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩م) ولد في البصرة وهو من علماء العرب في الرياضيات والطبيعيات وفلسفة أرسطو .

المهمة، كالكحول، وزيت الزاج، وماء الفضة، وماء الذهب. واكتشف العرب أساس الكيمياء كالتقطير.

ويرى علماء الكيمياء من العرب، أن جميع المعادن مؤلفة من عناصر واحدة، وأن المعادن لا يختلف بعضها عن بعض إلا بسبب اختلاف نسب تلك العناصر في تركيبها.

وأبدع العرب في الصيدلة، وحذقوا في الصباغة، واستخراج المعادن، وصنع الفولاذ، ودبغ الجلود.

ومن أشهر الكيميائيين العرب (جابر بن حيان)^(١) (أواخر القرن الثامن الميلادي) والرازي^(٢) (ص ٥٠٠).

٣٥٨ - المعارف الصناعية :

كان لصناعات العرب تفوق عظيم، بفضل معارفهم العلمية، وقد اتقنوا استغلال المعادن ودباغة الجلود، وسقي الفولاذ. وهم الذين اخترعوا البارود، واستعملوه في حربهم مع الصليبيين، في غزوة لويس التاسع على مصر. وقد عزى اختراع البارود الى روجريكن، ولكن هذا لم يفعل غير اقتباس المركبات القديمة، وهي مقتبسة عن العرب، مثلها مثل جميع المركبات الكيماوية المعروفة في القرون الوسطى.

٣٥٩ - الوراقة :

ثبتت المخطوطات التي عشر عليها في مكتبة الاسكوريال، والمكتوبة عام ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن، أن العرب أول من أحل الكاغد محل الرق. وقد نشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس، أيام سلطان العرب،

١ - جابر بن حيان ويعرف بجابر الكوفي، وكان متقدماً في العلوم الطبيعية، وبارعاً فيها.

٢ - الرازي - هو أبو بكر الرازي (٨٦٤ - ٩٣٢م)، طبيب وعالم، واهتم في بادئ الأمر بالموسيقا والغناء، ثم انصرف الى الطب والكيمياء، فنبغ فيهما.

مما لم تعرفه، أوروبا في ذلك الزمن، أن اضطرب العرب إلى زيادة مصانع الورق، ثم انتهوا إلى صنعه باتقان عظيم من القنب والكتان (ص ٥٠١).

٣٦٠ - البوصلة :

البوصلة من اختراع الصينيين، ولكن لم يقد دليل على استخدامهم لها في الملاحة، أما العرب الذين عدوا من أعظم الملاحين، فمن المعتقد أنهم اقتبسوا من الصين البوصلة، واستعملوها قبل غيرهم. والذي لا شك فيه هو أن الغرب أخذ البوصلة واستعملها عن العرب.

٣٦١ - التاريخ الطبيعي :

لم يقد التاريخ الطبيعي عند العرب في بادئ الأمر على غير شروح مؤلفات أرسطو. ولكن العرب لم يلبثوا أن فضلوا دراسة هذا العلم على الطبيعة، على دراسته في الكتب. والعالم مدين لهم فيها وضعوه من الكتب الممتعة الكثيرة عن الحيوانات والنباتات والمعادن والمتحجرات. وقد أنشأ العرب حدائق للنباتات زرعوا فيها أندر النباتات، وأكثرها طرافة. ومن كبار العلماء العرب في الطبيعيات، القزويني المتوفى عام ١٢٨٣ م.

٣٦٢ - أثر العرب في الطب :

أتم العرب أعظم اكتشافاتهم في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء. ولحسن حظ الإنسانية، أن أكثر كتبهم في الطب، ترجمت إلى اللغات الأوروبية، فلم يتلف قسم كبير منها.

وعدد المؤلفين من أطباء العرب كبير للغاية، وقد وضع ابن أبي أصيبعة كتاباً في إيراد أسماء الأطباء. ومن أشهر أطباء العرب «الرازي» (٨٦٤ - ٩٣٢ م)، وله مؤلفات كثيرة في الطب، وكان له اطلاع واسع على التشريح، وهو أول من وضع كتاباً في أمراض الأطفال.

وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م)، ونقلت كتبه إلى لغات العالم.
وأبو القاسم القرطبي^(١) المتوفى سنة ١١٠٧م، وهو أشهر جراحى العرب،
واخترع آلات كثيرة للجراحة رسمها في كتبه.
وابن زهر الاشبيلى^(٢) (القرن الثاني عشر)، ونبغ في الجراحة.
وابن رشد^(٣) (١١٢٦ - ١١٩٨م) وله كتاب في المداواة والسموم والحميات.
(ص ٥١٣).

٣٦٣ - فنون العرب :

الأثر الفني هو عنوان مادي لخيال العصر الذي يوضع فيه، وتدل آثار الفن على
أحوال الزمن الذي أبدع فيه واحتياجاته الخاصة. وكل أمة تقتبس من آثار الأمم التي
تقدمتها، قبل أن تصل إلى درجة الإبداع الفني. وتتجلى قوة الإبداع الفني في الأمم
في سرعة تحويل ما ظفرت به من عناصر الفن، وجعلته ملائماً لاحتياجاتها، وإبتكارها
بذلك فناً جديداً.

فإذا تحقق ذلك علمنا أن العرب لم تسبقهم أمة. وقد ظهرت قوة العرب
الإبداعية منذ أقاموا مبانيهم الأولى، كجامع قرطبة.
والذين قلدوا العرب من الأمم، لم يفعلوا سوى تنفيذ العناصر المختلفة الموروثة
عن الهنود والعرب والبيزنطيين والفرس. ولكن النظر إلى البنايات العربية، التي أقامها
العرب في الأندلس أو القاهرة، يظهر أن العناصر التي تألفت منها بلغت من التمازج ما
يتعذر معه الانتباه إلى المصادر التي اشتقت منها، فالعرب مبدعون (ص ٥٣١).

١ - أبو القاسم - هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، كان طبيب البلاط عند الخليفة
الأندلسي الحكم الثاني، وكان من أعظم الجراحين. وضع الرسالة القيمة (التصريف لمن عجز عن
التأليف) جمع في آخرها ما كان يعرف عن الجراحة والأدوات المستعملة فيها في ذلك العصر وظلت
رسالته هذه ذات مكانة في أوروبا قروناً طويلة.

٢ - ابن زهر - (١٠٩٤ - ١١٦٨م)، هو أبو مروان بن أبي العلاء المعروف بابن زهر الاشبيلى، ولد
في اشبيلية، وقد اعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس، وله اختراعات في علم الجراحة.

٣ - ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ولد في قرطبة، وكان
بالإضافة إلى نبوغه في الطب من أعظم الفلاسفة العرب في الأندلس.

٣٦٤ - الجمال في فنون العرب :

لقد دل البحث الصحيح على أن قيمة الأمور التي هي من نوع الجمال والبشاعة تختلف باختلاف العروق، والتربية والبيئة والزمان، وما إلى ذلك. والتعريف الوحيد الممكن الذي يلائم جميع الأمم، في كل زمان ومكان، هو (أن الشيء الجميل هو ما نستلذه) وهو تعريف ناقص، وإذا كانت عناصر الأثر الفني منسجمة، كان هذا الأثر الفني ذا تأثير حسن في حواسنا، ونقول إذ ذاك إنه أثر جميل، وإذا كانت مؤذية كان ذا أثر بشع.

وما على الإنسان إلا أن ينظر إلى آثار العرب الأدبية والفنية، ليعلم أنهم زينوا الطبيعة، وذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال والابداع، والنضارة والبهاء، وفیض الزخارف والذوق الرفیع. وقد رغبت الأمة العربية في تحقيق خيالاتها، فأبدعت تلك القصور الساحرة. ولم يكن لأمة من الأمم مثل تلك العجائب، ولن يكون. فهي وليدة جيل فني مضى، وخیال خصب ذوی (ص ٥٣٣ - ٥٣٦).

٣٦٥ - مقام العرب في التاريخ :

كان للعرب خصال عظيمة، ومساویء كثيرة، وقابليات ذهنية عالية. والعرب إذا كانوا دون الرومان مرتبة في النظم السياسية والاجتماعية، فهم أفضل منهم بسعة معارفهم العلمية والفنية. وقيمة الأمة العقلية، ودرجتها في سلم الحضارة، تقاس بعدد من يظهرون فيها من ذوي المدارك السامية. وانما يضاف الفوز المادي إلى التفوق العقلي، عندما يوجد بجانب أعظم رجالها القليلين، جمع من ذوي الذكاء العادي، والثقافة المتوسطة، والصفات الخلقية العالية. وقد ظهر من العرب رجال عظام كما تشهد به كفائاتهم واكتشافاتهم.

وإذا قابلنا بين العرب وبين الأمم الأوروبية، بدلاً من قياسهم بالأمم الغابرة، أمكننا أن نقول إنهم كانوا أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عهد النهضة أخلاقاً وثقافة. وإن جامعات القرون الوسطى، لم تعرف في قرون كثيرة، مصدراً غير مؤلفاتهم ومناهجهم. وإن أخلاقهم كانت أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل (ص ٥٣٦).

والخلاصة ان الامم التي فاقت العرب تمدنا قليلة للغاية، وان ما حققه العرب
في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة. وان العرب اقاموا ديناً من أقوى
الاديان التي سادت العالم، وما يزال الناس يخضعون له (ص ٦٤٣).

الفصل الثاني

الحضارة العربية في نظر سيجريد هونكه

٣٦٦ - الحضارة العربية في نظر سيجريد هونكه :

وضعت السيدة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه كتاباً عنوانه (فضل العرب على أوروبا) نقله إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين عام ١٩٦٤ . وقد ذكرت السيدة المؤلفة في مقدمتها الأسباب التي دفعت بها إلى وضع هذا الكتاب، وكان مما قالته : «شاء الله أن يظهر بين الأوروبيين، من يجرؤ على قول الحقيقة، فلا نغمت العرب من حقهم في انهم حملوا رسالة علمية، وأدوا خدمة انسانية للثقافة البشرية قديماً وحديثاً. وهذا النفر من الأوروبيين لا يأبه لتحدي اولئك المتعصبين، الذين أعماهم تعصبهم الديني، فحاولوا جهدهم طمس معالم هذه الحضارة العربية، أو التقليل من شأنها.

إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الذين الذي في عنق أوروبا، وسائر القارات للعرب كبير جداً. وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع، ولكن التعصب الديني، واختلاف العقائد أعمى عيوننا، وترك عليها غشاوة، ونحن لا نجد فيما نقرؤه من كتب إلا إشارات عابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد، الذي نقل إليهم التراث اليوناني.

إن موقف أوروبا من العرب، منذ ظهور الإسلام، موقف عدائي بعيد كل البعد عن الانصاف والعدالة. والتاريخ وقتذاك كان يميل ويصنع. والميل لم يكن الضمير، وإنما كان التعصب الأعمى. وهذا الكتاب يهدف إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة، فالألمان يدينون للعرب بالشيء الكثير».

وتلفت المؤلفة النظر في مقدمتها إلى أنه نبغ في الدولة العربية عدد كبير من غير

العرب ، ولكن هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا غير عرب من ناحية انتاجهم العلمي ، لأنهم عاشوا في الدولة العربية ، وازدهروا بفضلها ، وكتبوا وألفوا بلسانها ، وكما أن ايزنهاور - الألماني الأصل - لا يمكن أن يعتبر إلا أمريكياً ، لأنه عاش في أمريكا ، وحمل جنسيتها ، وشعر بشعور أهلها ، وقاتل في سبيلها ، كذلك لا يمكن أن يعتبر ابن سينا والفارابي والرازي ، غير عرب .

ويمكن أن نلخص الفكر الأساسية التي وردت في الكتاب على الشكل التالي :

٣٦٧ - هدف الفتوحات العربية :

كانت الفتوحات العربية غريبة في نوعها حقاً ، إذ لم تكن فتوحات المسلمين ، يقصد بها القيام بأعمال السلب والنهب ، والعنف والتخريب . وكل ما ذكر عن تعصب المسلمين ، أو قسوة قلوبهم ، أو خشونة طباعهم ، وبربرية أعمالهم ، هو كذب وافتراء . وهو دعاية من صنع أعداء العرب وخصومهم . ولا أدل على بطلان تلك الشائعات والاضاليل ، من العودة الى الصفات الكريمة التي اتصف بها العرب الفاتحون :

«روح انسانية عالية ، وتسامح تضرب به الأمثال» . ولم يعرف التاريخ كثيراً من الامم ، وقفت موقف العرب الانساني المتسامح مع الامم المغلوبة ، التي كانت تخالف في دينها دين المنتصرين .

فلم يتدخل المسلمون ، بعد الفتح ، في شؤون رعاياهم الداخلية ، وعاملوهم بالعدل . وقد كتب بطريرك القدس في القرن التاسع ، إلى بطريرك القسطنطينية ، يعرفه بأحوال النصارى في ظل الحكم الإسلامي وكان مما قاله :

«والمسلمون لا يظلموننا ولا يضطهدوننا ، إنهم يمنحون مختلف رعاياهم من أصحاب العقائد الأخرى كل حرية في تأدية فرائضهم الدينية ، وأحقوقهم المدنية ، متى دفعوا الجزية ، وأطاعوا أولي الأمر» .

وفي العصور الإسلامية المتأخرة ، حيث أصبح المسلمون مزيجاً غريباً من مختلف الشعوب ، أخذت تظهر بعض النزعات الدينية المتعصبة ، أما العرب الخالص ، فقد كانوا بعيدين عن الخوض في مثل هذه الخصومات (ص ٢٦١ - ٢٦٩) .

٣٦٨ - شغف العرب بالعلوم، يوم كانت أوروبا جاهلة :

كان همّ العرب، بعد استقرار فتوحهم، منصرفاً إلى نقل علوم اليونان والفرس، إلى اللغة العربية. وبسرعة خاطفة، شرعوا في ذلك، وساروا فيه، وكان خلفاء المسلمين أحرص الناس على ذلك. فلما انتصر الرشيد على الروم في عمورية لم يطلب غرامات حربية، ولا تسليمه سفناً وذخائر وأسلحة، وإنما طلب تسليمه المخطوطات اليونانية، لتنتقل إلى العربية. ولما انتصر المأمون على الأمير طورميخائيل الثالث طلب إليه، كتعويض حرب، أن يسلمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة، والتي لم تترجم إلى العربية بعد (ص ٢٨٠) .

كان التعليم في العالم الاسلامي ميسراً لجميع الناس، وكان الأطفال من جميع الطبقات، يقصدون المدارس الأولية، لقاء نفقات ضئيلة جداً. وفي اسبانيا المسلمة كان التعليم مجانياً، وقد كانت توجد في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأولاد الفقراء. وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين، كانت أوروبا، بين القرنين التاسع والثاني عشر موطناً للامية. وقد بلغت نسبتها ٩٥٪. وكان شارلمان ملك فرنسا العظيم أمياً ولم يحاول تعلم القراءة والكتابة إلا وهو في سن متقدمة. حتى رجال الدين في الأديرة لم تكن بينهم غير قلة قليلة جداً، تعرف القراءة والكتابة (ص ٢٩٧).

ولكن العرب الذين دخلوا اسبانيا، حملوا اليها الثقافة والمعرفة، ونشروا العلم، فازدهرت الحضارة العربية، وبلغت شأواً رفيعاً. وقد دام حكم العرب لاسبانيا ثمانية قرون، كانت هي العصر الذهبي في تاريخ اسبانيا. وهذه الثقافة الرفيعة العالية، التي بلغها العرب في اسبانيا، هي خير ما يدحض الادعاءات القائلة إن العرب قد أخذوا الحضارة البائدة وأعادوها ثانية.

٢٦٩ - أثر العرب في تطور العلوم :

١ - كان عرب الأندلس أول من استخدم البارود في أوروبا، وصنعوا القنابل من البارود. وقد قلذت المدفعية العربية في اعوام ١٣٢٥ و ١٣٣١ و ١٣٤٢م، بعض الحصون الاسبانية فاحدثت ذعراً شديداً.

- ٢ - العرب هم أول من أوجد الصفر، وعلموا أوروبا الأعداد الحسابية.
- ٣ - مهر العرب في صناعة الآلات وتركيبها، وبذلوا جهداً مشكوراً في سبيل استخدام الماء والاستفادة منه، وصنعوا أنواعاً مختلفة مثل السواقي والمضخات، والروافع. كما نجحوا في تركيب مضخة تعمل بالنار (ص ٩٥).
- ٤ - نادي البيروني^(١)، (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) باعتبار الشمس مركز الكون لا الأرض فلكياً، وبعد ذلك بخمسة قرون، قام كوبرنيكوس، ينادي بهذه الفكرة فاضطهده الكنيسة. وقد سبق أن توصل إلى هذا الرأي شخص اسمه اريشتاج، من أبناء ساموس، كما توصل إليه بعد ذلك الكلداني سليمكوس (ص ١١٥).
- ٥ - العرب هم أساتذة أوروبا في النهضة الرياضية، وليس اليونان. وعلم الجبر الأوروبي، اعتمد على العلامة المصري (ابن كامل)، الذي اقتبس منه (ليوناردو فون بيزا) (ص ١١٧).

٣٧٠ - أثر العرب في الطب:

خصصت المؤلفات معظم كتابها للإشادة بالعرب، وما حققوه في ميادين الطب والصيدلة والكيمياء، والصحة العامة، ويمكن تلخيص المواضيع التي عالجتها في الآتي:

٣٧١ - المستشفيات:

كان العرب منذ أول عهدهم، أول من اهتم بالمستشفيات العامة، وجعلوها في متناول الجميع. وقد اشتهرت بغداد بمستشفياتها، منذ عهد هارون الرشيد، وكانت المستشفيات تختار مواقعها لتقام في أماكن صحية، وكانت تزود جميع غرفها، ومحال الغسيل فيها، بالمياه الجارية. وقد اتبع ابن سينا طريقة فريدة لانتقاء الأماكن التي تقام عليها المستشفيات، إذ كان يرسل أجزاء مختلفة من لحم حيوان واحد لتوضع في

١ - البيروني - هو ابو محمد البيروني، ولد بضاحية خوارزم، مؤلف عربي من اصل فارسي، درس الرياضيات والفلك، والطب والصيدلة، وله فيها مؤلفات.

الأماكن التي يقدر إقامة المستشفيات عليها . فالمنطقة التي يتأخر فيها فساد اللحم ، يعتبر أنها أصح من غيرها وأنسب ، لاقامة المستشفى .

وكان في قرطبة في منتصف القرن العاشر الميلادي ، حوالي خمسين مستشفى ؛ ومن أشهر المستشفيات الإسلامية المستشفى الكبير في القاهرة ، المعروف باسم المستشفى المنصوري ، أودار الشفاء أو مارستان قلاوون . ولما تم بناؤه توجه إليه السلطان في ركب عظيم ، ولما صار في بابه ، طلب قدحاً من اللبن فشربه وقال :

«لقد وقفت هذا المستشفى على مثلي فمن دوني» . ووقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى . وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات مجهز وكفن ودفن . ورتب فيه الحكماء الطبائية ، والكحالين ، والجراحية ، والمجبرين لمعالجة الرمد والمرضى ، والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء ، ورتب الفراشين والفراشات ، والقومة لخدمة المرضى ، وإصلاح أماكنهم ، وتنظيفها وغسل ثيابهم ، وخدمتهم في الحمام ، لكل مريض فرش كامل . ولم تقتصر خدمات المستشفيات على من يقيم فيها من المرضى ، فقد جعل السلطان خدماتها أيضاً لمن يطلبها وهو في منزله ، فيرسل إليه ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية . . (ص ١٤٢ وما يليها) .

٣٧٢ - تنظيم مهنة الطب ومنح إجازة العمل :

كانت المستشفيات الكبرى هي في نفس الوقت المدارس العليا للطب ، وقد بلغ من حرص الدولة الإسلامية على المصلحة العامة ، أنها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب إلا بعد أن يؤدي امتحاناً نظرياً وعملياً ، ومتى نجح في الامتحان منحت الدولة إجازة يُنصُّ فيها على مادة تخصصه . ويذكر المؤرخون أن التشريع القاضي بحصول الأطباء على الإجازات يرجع في تاريخه الى عام ٩٣١م . وكان سبب صدور هذا التشريع أن الخليفة المقتدر العباسي ، علم أن طبيباً بغدادياً ارتكب خطأ أدّى إلى موت المريض ، لذلك أصدر الخليفة أمراً بإجراء امتحان لسائر الأطباء الذين يزاولون هذه المهنة .

وكان في بغداد وحدها تسعمئة طبيب يعملون خارج دوائر الحكومة (ص

١٤٧) .

كان أبقراط يرى أن واجب الطبيب يقضي بعدم مساعدة المريض الذي لا يرجى شفاؤه . فالطب، كما جاء في رسالة أبقراط، هو الفن الذي يشفي المريض تماماً من مرضه . والذين لا يرجى شفاؤهم لا يجدي معهم الطب شيئاً .

وكان المجتمع الأوروبي المسيحي، منذ القرون الوسطى، وحتى القرن الثامن عشر، ينظر إلى المريض المزمن، وخصوصاً المريض بعقله، على أنه مبتلى بعقوبة إلهية، ابتلاه بها الله، تكفيراً عن خطيئة ارتكبها، أو على أن المريض أصبح جسداً للشيطان . فكان الأوروبيون يلبسون المريض ثوباً مرقعاً، ويحملونه جرساً لطرد الأرواح الشريرة، فيصبح المريض موضوعاً للسخرية، وكان المريض يعامل كمعاملة المجرم . وكان المرضى الذين لا يُعرف سبب مرضهم، يعاملون كمعاملة قاسية، لأنهم ينسبون ذلك إلى الشيطان، وكانوا يكلون بالحديد ويوضعون في الأديرة .

وكانت أوروبا تجرد مرضى البرص من حقوقهم الإنسانية، فينبذهم المجتمع، وتصلي عليهم الكنيسة صلاة الميت فتحفر للمريض قبراً، وتهيل عليه التراب ثلاث مرات اشعاراً بأنه ميت، ثم تعزله في دار خاصة، يمضي فيها مع أمثاله بقية حياته . وظلت الحال كذلك في أوروبا إلى أن نجح طبيب فرنسي، في أواخر القرن الثامن عشر، في إخراج هؤلاء المرضى المكبلين بالأغلال، من الدير ووضعهم تحت الرعاية الطبية .

أما المسلمون فقد استنكروا هذا النوع من المعاملة، وقال الرازي إن رسالة الطبيب الحقيقية تقضي عليه بأن يقنع مرضاه بأن حالتهم في تحسن، وأن يمنحهم الأمل في الشفاء، ولو كان غير واثق من نتيجة العلاج .

وكان ابن سينا قد سعى إلى معالجة المريض نفسياً بالإضافة إلى علاجه بالدواء، وكان المريض عقلياً، في البلاد الإسلامية، يوضع في مستشفى خاص بالأمراض العقلية تحت إشراف السلطان ورعايته، ويزورهم أسبوعياً، ويتولى الأطباء العناية بهم ورعايتهم .

وكان الأطباء العرب يعنون بالحالة الصحية للمساكن، وتزويدها بالخدمات، وتنقية هوائها، عن طريق البخور، وتهوية غرف المرضى، كما يحرصون على وجود الحرارة المعتدلة والمياه الصالحة للشرب .

وكان الطبيب العربي الرازي ، يرى تجربة الدواء الجديد في الحيوانات قبل اعطائه للإنسان ، ليرى نتيجة مفعوله فيه .

وتعدل جميع هذه التدابير على المستوى الرفيع الذي بلغته العناية الصحية في العالم الإسلامي ، وكانت تلك العناية قذًى في عيون رجال الكنيسة ، وتعتبر خطيئة كبرى (ص ١٦٦ - ١٧٢) .

كان رجال الدين المسيحي ، والمجالس المسيحية ، يقررون دائماً خروج الأطباء الآخرين على الكنيسة . وغالى رجال الكنيسة في تنفير القوم من الاستعانة بالأطباء ، فاتهمهم بأنهم تحت ستار طبهم ومعالجة المرضى ، كانوا يترصون بالمسيحيين الذين يقصدونهم ويوقعون بهم أشد الأذى ، وقد يقتلونهم خنقاً بالحبال (ص ٢١٧) .

٣٧٤ - أشهر شخصيات الطب في العالم الاسلامي :

- الرازي (المتوفى عام ٩٣٥م) :

وله كتاب الحاوي - أو الجامع الكبير - وهو موسوعة في الطب تعالج الموضوعات الطبية من عهد أبقرط حتى عصر جمعه .
وله كتاب آخر هو كتاب (المنصوري) ، الذي أهداه إلى حاكم خراسان المنصور ، وله كتب أخرى .

- ابن النفيس (القرن الثالث عشر) :

وكان رئيساً لمستشفى القاهرة الناصري ، وكان يمتاز بالشك وقوة النقد ، ولا يتقبل آراء الآخرين ، وهو أول من اكتشف الدورة الدموية التي نسبت فيما بعد إلى (ثروت) المولود عام ١٥٠٩ في أراغون .

- صاعد بن بشر بن عبدوس (ظهر في الأندلس) :

وقد خالف رأي أطباء اليونان حول معالجة الشلل ، فأخذ المرضى بالفصد الرطيب والتبريد ومنع المرضى من الغذاء فنجح تدبيره .

- ابن زهر الأشبيلي (وهو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء) (١٠٩١ -

١١٦٢م) :

وقد اكتشف حشرة الجرب (الجرثوم) ، وهو أول من شخّص أمراض الالتهابات الجلدية ، فوصفها وصفاً دقيقاً ، كما عرف الالتهاب الرطب والجاف لكيس القلب .

- ابن سينا - (ويسمى بالرائس):
وهو أول من لاحظ أن السرطان الموضعي هو عبارة عن مرض بالسرطان للعضو، وهو أول من لاحظ العدوى، التي قد تنشأ عن السل الرئوي، وعن خطر الاشعاعات الشمسية على المرضى بالسل.
وقد اهتم بمعالجة المريض نفسياً، بالإضافة إلى علاجه بالأدوية.
- ابن رشد (الأندلسي):
وهو أول من قال إن بعض الأمراض المعدية مثل الجدري الأسود، قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة.
- ابن ماسويه (القرن التاسع):
وهو أول من شخّص مرض البرص.
- ابن الجزار، وهو أحمد بن الجزار، طبيب عربي عاش في القيروان وتوفي سنة ١٠٠٤م:
وقد اهتم بمرض البرص فأجاد تشخيصه وعلاجه.
- أبو القاسم القرطبي الأندلسي (توفي عام ١٠١٣) وهو خلف بن عباس الزهراوي:
كان من أمهر الجراحين، وقد اغنى الطب بأبحاثه الكثيرة وبخاصة فيما يتعلق بالأمراض التي تصيب الدم.
وقد أدخل مجديداً كبيراً في الجراحة وأدواتها، وخطا خطوة كبيرة في طب النساء، وهو السابق إلى مختلف أنواع الخياطات الجراحية، وقد درس التهاب المفاصل وسل الصلب.

٣٧٥ - مبتكرات العرب في الطب:

- ١ - اكتشف الطبيب الأندلسي ابن زهر حشرة (جرثومة) الجرب.
- ٢ - قال ابن رشد، إن بعض الأمراض المعدية قد يمنح الجسم مناعة مدى الحياة.
- ٣ - وضع الوزير الأندلسي، لسان الدين بن الخطيب، كتاباً حول نشأة الجراثيم، فحل اللغز المشكل حول العدوى وانتقالها.

٤ - الخياطات الجراحية، التي ابتدعها الطبيب الأندلسي أبو القاسم الزهراوي .

٥ - ابتداع الكثير من الآلات الجراحية، واستخدام الخطاف لاستئصال الزوائد الأنفية، وكلها مما ابتدعه الطبيب الأندلسي أبو القاسم الزهراوي .
٦ - ابتدع أبو القاسم الزهراوي المرأة المهبلية .

٧ - كان العرب أول من اهتم بطب العيون، وكان أول كتاب لطب العيون، هو كتاب حنين ابن اسحق .

٨ - اكتشف العرب طريقة حديثة في التخدير، وهو التخدير الشامل، لتسهيل مهمة الطبيب وتخفيف آلام المريض . وقد اختلفوا في ذلك عن الهنود والرومان واليونان، الذين كانوا يسكرون المريض لتخفيف آلامه .

٩ - اكتشف العرب طريقة حديثة لمداواة الجراح، عن طريق التعقيم، وتطهير الجراح، بينما كانت طريقة اليونان تقوم على إحداث تقيح اصطناعي في الجرح، وقد نجحت الطريقة العربية، نجاحاً فائقاً، ويعود الفضل فيها لابن سينا .
١٠ - ابن سينا هو أول من جعل الأدوية حبوباً، ولَبَّسها بالسكر ليسهل تناولها .

١١ - العرب كانوا أول من أسس الصيدليات العامة، وقد تم تأسيس أول صيدلية في عهد أبي جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي . فكان كل مستشفى يحتوي على صيدلية كاملة . وكانت الصيدليات خاضعة لتفتيش الحكومة . وظل تأثير العرب على أوروبا في الصيدلة قائماً حتى القرن التاسع عشر .
١٢ - كان ابن النفيس أول من تحدث عن الدورة الدموية، وأكد وجودها .

١٣ - أبدى العرب عبقرية خاصة في البصريات، ويعتبر هذا العلم بحق أنه علم عربي، وقد ساعد تقدم علم البصريات عند العرب على تقدم علم طب العيون عندهم .

١٤ - العرب أول من استخدم الوسائل النفسية للعلاج .

١٥ - وهناك كثير من الاختراعات التي تنسب، ظلماً وخطأ، إلى الإنكليز والفرنسيين، ولكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة، هم أساتذة أوروبا الحقيقية، وقد أخذت أوروبا عنهم كتبهم التي امتازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركه اليونان .

٣٧٦ - العرب لم يكونوا عالة على غيرهم :

كانت المجهودات العلمية العربية، وبخاصة في الطب، عظيمة جداً. وإن الأحكام الارتجالية القائلة إن العرب كانوا عالة على اليونان، هو كلام هراء، وما اكتشفه ابن النفيس من الدورة الدموية، يثبت أن العلماء العرب أطول باعاً، وأعمق بحثاً، وأدق نقداً من زملائهم المسيحيين (ص ١٨٥).

وجميع ما وضعه العرب واليونان من كتب الطب، تتضاءل أمام كتاب القانون لابن سينا، وهو كتاب شامل، لا يعدله مؤلف آخر في تاريخ الطب. وابن سينا هو الذي استطاع أن يقضي على شهرة جالينوس وسائر اليونانيين.

الفصل الثالث

حضارة عرب الأندلس في نظر ماك كيب

٣٣٧ - نبذة عن المؤلف

جوزيف ماك كيب رجل دين كاثوليكي ولد عام ١٨٦٧ ، وكان أبواه كاثوليكين ، ثم تحولت أمه إلى البروتستنتية ، فأرسله إلى دير كاثوليكي ، ثم انخرط في سلك الرهبان . وبعد أن قضى اثني عشر عاماً في الدير ترك سلك الرهبنة ، وانصرف إلى البحث والتنقيب ، وتأليف الكتب . وقد وضع فيما وضعه من الكتب ، كتاباً بعنوان (مدنية العرب في الأندلس) ، ترجمه إلى العربية الدكتور تقي الدين الهلالي وطبع في بغداد عام ١٩٥٠ .

أطنب المؤلف في وصف عبقرية العرب الخلاقة ، وأشاد بنبههم وكرمهم وتسامحهم ، وانحى باللوم الشديد على الأسبان ، وعاب عليهم نكراهم للجميل ، ووحشتهم في معاملة المسلمين الأندلسيين ، الذين أحسنوا معاملتهم ، وسمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم في أوسع مدى ونطاق .

ويمكننا أن نقتطف من كتاب ماك كيب الفقرات التالية :

٣٧٨ - حالة أوروبا في القرون الوسطى :

إذا استثنينا بعض المناطق القليلة من أوروبا ، كالبندقية حيث كانت فيها بقية من علوم اليونان ، تحفف من شر الناس وهمجيتهم ، فإن القارة الأوروبية كانت كلها في تأخر شديد اجتماعياً واقتصادياً وعقلياً . وكان ذلك العهد أشد سواداً وظلمة وانحطاطاً من عصور البابوية . ومنذ ذلك الحين أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعتة لأنفسهم في الدعارة وفي الشهوات البهيمية علانية ، دونها حاجة إلى التستر ، حتى بجلباب رقيق من النفاق . وكان ٩٩٪ من الرجال خدماً ، يعاملون

بأنسى ما يعامل به العبيد. ولم يكن بين الرجال واحد في المئة يعرف القراءة
أما بالنسبة للنساء فلم تكن واحدة في الألف منهن تعرفها (ص ٢٠٠).
وَيَرُدُّ المؤلف تخلف أوروبا في ذلك الحين إلى تسلط رجال الدين المسيحي.
ويستشهد بأقوال ميشيل سكوت (١١٧٥ - ١٢٣٢م)، ولين بول (المولود عام
١٨٥٤).

يقول ميشيل سكوت - وكان قسيساً درس العلوم العربية في طليطلة، وأقن
العربية، وترجم كتاب أرسطو للملك صقلية فريدريك الثاني، من العربية مع الشروح
التي وضعها العرب - :

«لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية، وإن تقوى القسيسين الروحية قد
قضى عليها تعطشهم الشديد إلى التسلط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها».
ويقول لين بول - وقد ألف كتباً كثيرة، ومنها كتب في تاريخ العرب في
الأندلس - :

«لا شك في أن القسوط كانوا متعبدين، إلا أنهم كانوا يرون عبادتهم تكفراً
ذنوبهم، وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الروم، الذين سبقوهم. حتى
القسيسون الذين كانوا يعظون، ويحضون على الأخوة المسيحية، صاروا أغنياء،
وملكوا الضياع، واتبعوا السياسة الماثورة في الجور، فصاروا يعاملون عبيدهم
وخدمهم أسوأ معاملة، كما كان يفعل أشراف الروم قبلهم» (ص ١٣ و ١٤).

٣٧٩ - لونيحج عرب الأندلس في فتح أوروبا :

لا يوجد في الدنيا مدرس واحد في جامعة أو مدرسة يتجرأ أن يقول لطلابه، ما
يعرفه كل مؤرخ، من أن العرب أقاموا مدنية من أعظم مدنيات العالم. وأن شارل
مارتل وجنده كانوا لصوصاً غريين متوحشين برابرة. وأن عرب الأندلس لونيحجوا في
فتح أوروبا، وبقوا قرنين، ورسخوا فيها مدنيتهم، كما فعلوا في اسبانيا، لكننا الآن
متقدمين خمسة قرون أو أكثر عما نحن عليه اليوم.

٣٨٠ - الفرق بين الأندلس المسلمة وأوروبا النصرانية :

لم يكن في أمهات المدن الأوروبية مجار وقنوات لصرف المياه، فكانت المياه

القدرة تسيل في شوارع باريس ولندن غير المبلطة . أو تجتمع فيكون منها حياض .
وبقيت الحال في أوروبا كذلك حتى بعد مرور قرون على بدء النهضة في أوروبا .
ولم يكن في أوروبا حديقة عامة ، وكانت قصور الملوك ، متروكة بلا بلاط تبت
فيها الأعشاب ، أما النساء في أوروبا فقد نزلن إلى مرتبة الخدم ، عملاً بما روته التوراة
في قصة حواء ، لتحريم زواج القسيسين . وكان الشعب الاسباني قذراً لا يعرف
النظافة والاستحمام ، وكانت الملكة ايزابيل ، تفخر بانها لم تستحم في حياتها إلا
مرتين ، يوم ولادتها ويوم زواجها عام ١٤٥٩ م . ولم يكن في أوروبا حمام واحد .
أما في اسبانيا المسلمة فقد كانت الحال على العكس من ذلك . كانت مدن
العرب مبلطة ، والشوارع مضأة بالأنوار ، وقد سويت مجاري صرف المياه فيها أحسن
تسوية . وقد ذكر سكوت أن بعض القنوات التي أنشئت في بلنسية يمكن أن تتسع
لسيارة ، وإن أصغر قناة فيها تتسع للحمار .
وكان يقوم على أمن المدينة ونظافتها جيش من رجال الشرطة ، وهذا النظام
الصحي الرفيع ، كانت تتممه مجموعة من الحمامات العامة والخاصة . وقد ذكر
المؤرخون أن في قرطبة وحدها كان يوجد ٩٠٠ حمام عام بالإضافة الى الكثير من
الحمامات الخاصة .
أما النساء عند المسلمين في الأندلس ، فقد كن مكرمات ، مالكات لحريتهن .
وكان طلب العلم مباحاً لهن ، وكن يقبلن عليه بكل حرية .
واهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بإقامة الحدائق العامة وتنسيقها ، فكانت مدنها
تزهى بحدائقها ، وشوارعهم تتجمل بأنواع الشجر المغروسة على جوانبها . وكان مما
يمتاز به المسلمون ، التعاطف والتوادف فيما بينهم ، وعبادة مرضاهم ، ومواساتهم
ومساعدة الفقراء (ص ٢٤) .

٣٨١ - خرب الاسبان حضارة العرب في الأندلس :

أقام العرب حضارة زاهرة في الأندلس ، فعمرت المدن ، وازدهرت الصناعة
والتجارة ، وترك العرب أثراً جليلاً فيها . وحينما تغلب الاسبان على العرب ، أبادوا
تلك الحضارة ، وخرّبوا جميع ما استطاعوا تخريبه ، ولم يبق من آثار العرب إلا ما لم
يستطع الاسبان تخريبه . فطليطلة التي كانت تضم مئتي ألف انسان ، كانت جوهرة

تزهدها فيها الصناعات ، وتزخر بالحياة والجمال . وقد أصبحت الآن قرية صغيرة أهلها فقراء لا مورد لهم للرزق ، ولم يبق فيها من آثار العرب إلا قنطرتها العظيمة التي لم يستطيعوا تخريبها .

ثم يتحدث المؤلف عن قرطبة وأشبيلية ، وما كانتا عليه في زمن العرب من جمال عظيم ، وتنظيم ، وعمران ، وكثافة سكان . ويقارن ذلك بما صارتا إليه اليوم . ويقول إنه لم يبق في قرطبة غير مسجد الجامع الذي لولاه ما تحشم أحد عناء السفر إليها ، ولو كان على بعد خمسة أميال منها .

ويقول المؤلف إن مسجد قرطبة أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة القديس بطرس في روما (ص ٣٢ - ٣٤) .

٣٨٢ - اهتمام العرب بالعلوم :

يمكن أن نقول إن أعظم مزية امتاز بها عرب الأندلس ، هي ولوعهم بالأخذ بالعلوم العقلية ، والمعارف الدقيقة ، وقد كان ولوعهم هذا أكثر من ولوع الرومان واليونان بها . وليس في الدنيا كلها - ولن يوجد - بلد يُكرَّم فيه العلماء والأدباء ، وتغدق عليهم فيه المكافآت والمنح ، أكثر من البلاد العربية في الأندلس . ويمكن أن ندرك معنى هذا القول إذا علمنا أن الخليفة الحكم المستنصر ، كان يوجد في مكتبته ٤٠٠ ألف كتاب على قول أحدهم و ٩٠٠ ألف على قول آخر . ولم يكن في الأندلس قرية مسلمة واحدة ، مهما صغرت ، دون أن يكون فيها مدرسة تعلم أبناءها .

ويقول سكوت (وهو أعرف من يحكم على الحياة في الأندلس) :

«كان في كل قرية مدارس تكفي الحاجة أهلها ، وكان التعليم فيها قائماً على أفضل التسهيلات ، وأنفعها ، وكان الأطفال كلهم في رعاية الدولة ، تعنى بهم ، وتوفر لهم المدارس المجانية على نفقتهم» .

لذلك يمكن القول إنه يتعذر وجود فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة ، في حين كان ملوك أوروبا لا يستطيعون كتابة أسمهم ، وكانت نسبة الأمية بين رعاياهم تبلغ ٩٩٪ ، وكان هؤلاء الأميون على درجة من الجهل لا يمكن تصورها .

وكان العرب يُعنون بالتعليم العالي أكثر من عنايتهم بالتعليم الابتدائي ، فقد كان في قرطبة ثمانمئة مدرسة يأتي إليها التلامذة من كل مكان . أما الفقراء ، فقد

أقامت الدولة لهم دوراً خاصة يقيمون فيها، وأجرت عليهم الارزاق من بيت المال. وكانت جامعات الأندلس تقبل الطلبة من كل جنس وملة دونها تمييز. وكانت حرية الفكر عند المسلمين تفوق بكثير ما كانت تعرفه الممالك النصرانية.

ثم يتحدث المؤلف عن مكتشفات العرب وإنجازاتهم في مختلف المجالات: في العلوم، والصناعات، والفلك، والرياضيات، والفيزياء، والطب، ثم يورد بعض ما قاله علماء العصر من الاطراء والتقدير للعرب، لما قدموه من خدمات للعلوم. ويضيف قائلاً:

«إن هذه الأخبار وإن كانت مختصرة جداً، فإنها كافية للدلالة على أن عرب الأندلس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها» (ص ٤٠ - ٥٦).

٣٨٣ - القسيسون يدفعون الاسبان لاضطهاد العرب:

احتل الاسبان المناطق العربية، وبقي في هذه المناطق كثير من العرب يعيشون في ظل حكمهم الجدد، وكان الاسبان يفضلون العيش بسلام مع جيرانهم المسلمين، وكانوا ينظرون إليهم باكبار وتعظيم، إذ كانوا في رأيهم قد بلغوا ذروة العبقرية. ولكن القسيسين، الذين بلغوا أبعد درجات التعصب، كانوا يعارضون هذا التعايش، وظلوا يغفرون الحكام بالاساءة إلى العرب، ويحضونهم على عدم التسامح معهم، إلى أن نجحوا في إقناع الملوك بآرائهم، وحملوهم على أن يغيروا العرب بين التنصر والخروج من البلاد.

وكان من نتيجة الاضطهاد أن نقص عدد المسلمين في الأندلس من ثلاثين مليوناً - يوم كانت في أوج ازدهارها - إلى ثلاثة ملايين، ثم أخرج الظلم هؤلاء السابقين.

خاتمة الكتاب
العبرة واسباب انهيار دولة الاسلام
في الاندلس

في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لمن حوله :

(توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)

فقال قائل : (أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟)

فقال الرسول الكريم : (لا . بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ،
ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن) .
قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟

(قال : حب الدنيا وكراهية الموت) (صدق رسول الله)

وما أسهل ما يجد الإنسان مصداق هذا الحديث الكريم ، فيما آل إليه حال
المسلمين في الأندلس بالأمس ، وفيما آل إليه حال المسلمين ، عربهم وعجمهم اليوم ،
وما أشبه الليلة بالبارحة .

ويكاد الإنسان أن يقف مذهولاً أمام ظاهرة الوهن والتخاذل التي سيطرت على
مسلمي الأندلس بالأمس ، وهم كثرة كاثرة ، فادت إلى انقضاء دولتهم ، ثم إلى
زوالهم من الوجود بالكلية .

وظاهرة الوهن هذه نراها اليوم تسيطر على المسلمين عامة ، وعلى العرب
خاصة فتمزقهم ، وتبدد قواهم ، وتفرق جمعهم ، وتدفعهم إلى الاقتتال فيما بينهم
وتهددهم بالفناء والزوال ، وهم جامدون مستسلمون لما يجري ، وكأنه قدر محتموم
لا يملكون له صرفاً ولا دفعاً .

وآخر ما ظهر في أيامنا هذه من مظاهر الوهن المذهلة ، التي تستعصي على
الافهام ، قيام إسرائيل في شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٨٢ بمهاجمة لبنان بقوات
ضخمة لضرب الثورة الفلسطينية ، وقواتها المتواجدة فيه . ولم يكن هجومها خاطئاً
لا يسمح لقوات نجدة عربية وإسلامية بأن تصل إلى ميدان المعركة في الوقت
المناسب ، كما كان يحدث قبلاً ، وإنما استمر الهجوم قرابة الشهرين يوماً ، والقوات
الفلسطينية ، والمقاومة الشعبية اللبنانية ، تقاومها ببسالة فائقة . وكان من الممكن أن
تصل أرتال كثيرة من المتطوعين ، والمقاتلين النظاميين ، من أقاصي المعمورة ، في الأيام
الأولى للحرب ، لمجابهة هذا الغزو المجرم . وقد اضطرت القوات الإسرائيلية الغازية

إلى القتال في الجبال، والسهول، والمرتفعات، والسفوح، وعلى الساحل، وتعرضت لمقاومة عنيفة ضارية، ونزلت بها خسائر فادحة، ووقف مئة وخمسون مليون عربي، ووقف وراءهم ألف مليون مسلم، يتفرجون جميعاً على المأساة، ويلهون أنفسهم بسفاسف الأمور، ليجدوا العذر لأنفسهم بأن تقصيرهم في القيام بواجبهم في رد الغزو المجرم له ما يبرره.

وطبيعة الأرض التي قاتلت فيها القوات الإسرائيلية من شأنها أن تفقدها ميزات تفوقها العسكري على العرب - هذا إن كان هناك تفوق أصلاً -، وتجعلها هدفاً سهلاً للاقتناص بأيسر سلاح وأبسطه، وبأعداد قليلة من المقاتلين المؤمنين الأشداء. فلا الطائفة المتطورة، ولا الدبابة، ولا المدفع، ولا الصاروخ المحكم التسديد، يمكن أن يكون له أثر حاسم في مناطق وعرة مثل جبال لبنان، وسهوله، وأرضه، كما قالته بعض الدراسات العسكرية. ولكن العرب، ومن ورائهم المسلمون، وقفوا بأعدادهم الهائلة موقف المتفرج اللامبالي على ما يقع، ولم يتحرك منهم أحد، إلا قلة قليلة لم تغن شيئاً. ودمرت القوات الإسرائيلية الغازية البيوت والمباني والمخيمات، وذبحت النساء والأطفال والشيوخ، وهتكت الأعراض، وقام المجرمون بذبح ألوف كثيرة من الأبرياء، في محلاتي صبرا وشاتيلا في بيروت، فلم تهز المأساة المروعة القلوب المؤمنة لتسرع إلى القيام بما يفرضه عليها الإخاء الإسلامي، والانتفاء القومي.

إن الدراسات العسكرية الحديثة تقول إن إسرائيل لم تكن تجهل المخاطر المدمرة التي كان من الممكن أن تتعرض لها لو وقع خطأ في حساباتها، ووصلت قوات عربية وإسلامية إلى ميدان المعركة في الوقت المناسب، إذ كان لبنان سيصبح بالنسبة لإسرائيل ما كانته معركة حطين بالنسبة للصليبيين قبل ثمانية قرون.

وعلى كل حال، وأياً ما كانت أسباب هذا الموقف الغريب، وغير المفهوم، الذي وقفه العرب والمسلمون، فإن ما حدث يعتبر مظهراً من مظاهر الوهن المسيطر على النفوس في أيامنا هذه.

الوهن الذي أصاب مسلمي الأندلس

حينما قتل عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، كانت الأندلس في ذروة مجدها، وأوج عظمتها، ومنتهى قوتها وازدهارها. وقد قدر المؤرخون عدد سكان الأندلس في تلك الأيام بثلاثين مليوناً من الأنفس، وهو عدد ضخم بالنسبة لمقاييس العصر. وكانت رقعة الأرض التي تسيطر عليها دولة الإسلام في الأندلس تشمل

معظم أراضي شبه الجزيرة الايبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) ، وجزءاً لا بأس به من الشمال الأفريقي . وكانت أرض الأندلس عامرة تقوم فيها الصناعات المزدهرة ، والزراعات المتطورة ، وتزدهر فيها العلوم والمعارف ، والناس فيها في بلهنية من العيش .

وكانت تقوم في الشمال من أرض الأندلس ، في مواجهة الإمارات النصرانية ، سلسلة من القلاع والحصون المنيعة ، والمدن الكبيرة القوية التحصين ، وكلها تعج بالوف المقاتلين الأشداء ، المدربين أحسن تدريب ، وكثير منهم من أهل الرباط الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، وفي سبيل إعلاء كلمته وإبتهاء مرضاته ، وطمعاً في الثواب العظيم الذي أعدّه الله للمجاهدين المخلصين .

وكان القادرون على الجهاد من أهل الأندلس يتسابقون إلى تلبية داعي الجهاد حينما يدعوه ، وكانوا إذا بلغهم نبأ خطر مفاجيء أناخ على أحد مواقع الإسلام يتطايرون من جميع أنحاء الأندلس ، ومن مناطق الشمال الأفريقي ، القرية من المكان المهدد والبعيدة عنه ، ويتقاطر أهل النجدة والإيمان لنجدة الموقع المهدد ، وتتابع الأرتال لا ينتظر سابق لاحقاً ، ولا يلوي متقدماً على متأخر ، حتى يلتقوا جميعاً في ساحة المعركة لدفع الخطر المنيع ، والقضاء عليه .

وكانت الأندلس حينما قتل عبد الرحمن بن أبي عامر قد مضى عليها قرابة مئة عام وهي ترتقي صعداً في سلم القوة والمنعة والازدهار والرفي والتقدم الحضاري ، في جميع الميادين ، هي مدة حكم الناصر والمستنصر والمنصور وابنه عبد الملك .

وانكششت - أمام قوة دولة الإسلام المتعازمة - الإمارات النصرانية في الشمال في رقاع ضيقة من الأرض ، في مناطق وعرة كثيرة الصخور ، لا تقوم فيها صناعة ، ولا تزدهر فيها زراعة .

وكانت الإمارات النصرانية متفككة متناحرة فيما بينها ، وكانت ترتجف خوفاً وهلعاً من اقتراب موعد سير غزوات المسلمين إليهم ، في صوائفهم وشواتيهم ، حتى أعلن كثير من دويلاتهم ، وهو مرغم ، خضوعه لدولة المسلمين ، وأعلن آخرون تبعيتهم لها ، لقاء الكف عن حربهم وتخريب أرضهم .

ولكن ما أن قتل عبد الرحمن بن المنصور حتى بدا وكأن كل شيء كانت تقوم عليه دولة الأندلس العظيمة قد انهار فجأة ، وبدأ الانهيار المذهل ، وكان حجراً ألقى من قمة جبل تكسوه الثلوج فتدحرج الحجر متسارعاً في نزوله وهويلف الثلج من حوله ، ويجرف في طريقه كل شيء حتى بلغ الوادي وهو كتلة عظيمة لا قبل لإنسان

بالوقوف في وجهها، ومنعها من متابعة الانحدار. فبدأ التمزق في كيان الدولة وفي المجتمع، ونشبت الحروب والصراعات بين المغامرين الطامعين في السلطة، واندلعت أعمال العنف والانتقام وتصفية الحسابات القديمة، وإرواء الأحقاد التاريخية، وكأن البناء الذي كانت تقوم عليه دولة الاسلام في الأندلس وهم لا يظن له من الحقيقة في الواقع.

وأخذ كل متسلط وطامع في الحكم يسعى، بجميع الطرق والوسائل، إلى الحفاظ على ماتحت يده من أرض، ولو أدى به ذلك إلى الاستعانة بالاسبان أعداء قومه ودينه التقليديين، حتى استجازوا جميعاً لأنفسهم الاستعانة بالاسبان في حروبهم مع إخوانهم المسلمين. . . وتسابقوا إلى كسب ودهم، وتباروا في النزول لهم عن المدن والحصون والقلاع، كسباً لعون وقتي غير مضمون وقد نزل بعضهم للملك قشتالة، طوعاً ودفعاً واحدة، عن ٢٠٠ موقع وحصن ومدينة ومعقل، فملكها بما فيها من سكان وأموال ومزارع ومتاجر وثروات وصناعات مزدهرة، ولم يكن لكل ذلك السخاء في العطاء من ثمن غير تقديم عشرة آلاف مقاتل يساعدون من تنازل له عنها في قتاله لإخوانه المسلمين، وقد أنفق الناصر والمستنصر والمنصور جهوداً كبيرة، وسنين طويلة شاقة من الحروب والمخاطر، وبذلوا كثير من الدماء والتضحيات والأموال في سبيل الاستيلاء عليها ليرتفع فيها شعار الإسلام، ولتكون درعا يحمي دولة الإسلام، فأسلمها الطغاة البغاة إلى أعدائهم وأعداء دينهم في ساعة من نهار، ثمناً لبقائهم في كراسي الحكم، ينعمون بخيراته، وإرواء لاحتقارهم وشهوتهم إلى الانتقام من خصومهم، من إخوانهم وأبناء دينهم وقومهم. ولو فكر هؤلاء الجبهة قليلاً لوجدوا أن هذه المواقع التي نزلوا عنها للإسبان يمكنهم أن يجندوا منها من المقاتلين أضعاف العدد الذي أمدهم به الاسبان، ولكنه الجهل، وفساد الرأي، وضعف الإيمان.

وقد أدى تمزق الأندلس، واقتتال المغامرين فيها، والتسابق إلى طلب عون الإمارات النصرانية، إلى خروج الإسبان من جحورهم التي ألبأهم إليها المسلمون منذ مئة عام، وأخذوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم، بعد أن كادوا يفقدونها من كثرة ما لحق بهم من الهزائم، خلال تلك الحقبة من الزمن.

واستعرت الحرب بين الحكام المسلمين، واستطالت وامتدت سنين طوالاً، حتى أصبح المواطن العادي يرى أن فكرة الجهاد قد تبدل معناها، فلم تعد تعني مجاهدة المسلمين لأعداء دينهم وإنما أصبحت تعني مجاهدة المسلمين لإخوانهم

المسلمين . وكان المسلمون يبذلون في حروبهم مع إخوانهم الجهد ، ويظهرون من الشدة والبأس والصدق في الحرب ، ما لا يبذلونه في حروبهم مع الإسبان . حتى أصبحوا وكأنهم هم الذين عناهم الله تعالى بقوله الكريم ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ (١) ، وحتى نزعوا من قلوبهم الشعور بالرحمة بالمؤمنين ، وهو الشعور الذي جعله الله تعالى ميسماً لأهل الإيمان ، وصفة من صفاتهم المميزة ، حين قال في كتابه العزيز: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ (سورة الفتح الآية ٢٩) . فكانوا أشداء بالغى الشدة على إخوانهم المؤمنين ، ضعفاء أذلاء مستخذين أمام أعدائهم الإسبان .

وأخذ الحكام المسلمون يتسابقون إلى الخضوع للإسبان ، وإلى دفع الجزية إليهم . ومن امتنع منهم عن دفع الجزية ، لظنه أن الإسبان لا يستطيعون الوصول اليه لقيام حواجز بينه وبينهم من الأراضي الإسلامية الأخرى . تولى الحكام المسلمون الآخرون العمل على إرهابه لإجباره على الخضوع للإسبان ، وطلب الحماية منهم ، ودفع الجزية إليهم ، اعترافاً بطاعتهم . ولعلهم كانوا في قرارة نفوسهم يريدونه أن يتساوى معهم في الخضوع للإسبان ، وفي دفع الجزية إليهم ، لكيلا يكون له ميزة عليهم عند شعبه ، فإذا اجتمعوا جميعاً في صعيد واحد من الخضوع والتبعية وفي دفع الجزية للإسبان لا يبقى لأحد منهم ميزة على أحد ، ولا يبقى مجال للمفاضلة بين خاضع وخاضع ، ولا بلصّ واحد منهم بالذات بالتشجيع والانهام بمخالفة شرع الله ، ومبادئ الإسلام بموالاته أعداء الإسلام ، والخضوع لهم ، ومعاونتهم على إخوانه المسلمين .

وهكذا استخذى الحكام المسلمون جميعاً أمام الإسبان ، وأصبحوا أداة طيعة في أيديهم يحركونهم كالدمى ؛ فكان الحكام الإسبان إذا أرادوا مهاجمة أرض إسلامية أمروا بعض أتباعهم من الحكام المسلمين المجاورين للأرض التي يريدون محاربتها ، بمحاربة جيران مسلمين آخرين ليشغلوا أنفسهم فلا يبقى لأحد مجال في أن يفكر في نجدة ولا إنجاد ، وكذلك يجد المواليون للإسبان حجة لأنفسهم يعتذرون بها أمام شعبهم عن تقصيرهم في تقديم العون للإخوان المسلمين المهتدين بخطر الإسبان . وكان انشغال المسلمين بالاعتتال فيما بينهم في الوقت الذي ينبغي فيه الإسبان على الحصون والمدن الإسلامية ، يدخل اليأس والوهن إلى قلوب المقاتلين المدافعين عن

(١) سورة الحشر الآية ١٤ .

القلاع والحصون والمدن المهددة، ويشعرهم بأنهم لا أمل لهم في عون إسلامي فيضطرون - وهو ما كان يقع في أغلب الحالات - إلى الخضوع، والتزول على إرادة الاسبان، والمبالغة في استرضائهم.

وقد وصل اللؤم والحقد في نفوس بعض الحكام المسلمين - إن لم نقل بهم جميعاً - إلى حد تفضيلهم التنازل عن الأرض والمدن والحصون للاسبان، وهم يعلمون أنها لن تعود إلى حوزة الاسلام مرة أخرى، على أن يتنازلوا عنها إلى أخ مسلم يتقوى بها على مقاومة الاسبان، وذلك لكيلا ترجح كفته عليهم، ويطمع فيما تحت أيديهم.

وحينما اعتزم الاسبان احتلال طليطلة عاصمة بني ذي النون، مهدوا لعملهم الكبير هذا بعقد حلف مع المعتمد بن عباد أمير اشبيلية، وأقوى الأمراء المسلمين في الأندلس، أطلقوا بموجبه يده في محاربة جيرانه المسلمين على أن لا يعترض هو على مشاريعهم الرامية إلى احتلال طليطلة، وابتلاع جميع أمارات بني ذي النون.

والذي جهله المعتمد بن عباد في ذلك الحين، وأدركه فيما بعد، هو أن الاسبان حينما كانوا يحالفون الأمراء المسلمين، على جيرانهم المسلمين الآخرين، كانوا يهدفون إلى اقتطاع أجزاء من أرض الاسلام وضمها إليهم، وإخراجها نهائياً من حوزة الإسلام، وبذلك يضعف الاسلام وأهله في الجزيرة، ويزدادون هم قوة، ثم يعودون إلى مخالفة أمراء مسلمين آخرين لينتقموا من كان حليفهم بالأمس، ولينتزعوا منه ما كان قد استولى عليه يوم كان حليفاً لهم من أرض إخوانه المسلمين. ويتشفى الآخرون بما حل بعدوهم المسلم، ويتكرر ذلك مراراً كثيرة، ويخسر المسلمون في كل يوم ويضعفون، ويربح الاسبان ويزدادون قوة. وكلما زادت قوتهم ازدادوا طغياناً واشتطاطاً في مطالبهم من الأمراء المسلمين.

كيف انهار البناء الاسلامي بمثل هذه السهولة؟

. ويتساءل المرء بكثير من المرارة والألم عن الأسباب التي أدت إلى تسارع انهيار هذا البناء الشامخ بمثل هذه السهولة، وكيف سكت المؤمنون المخلصون من هذا الشعب الجبار على ما جرى على أيدي الطغاة من حكامهم، وهم الذين توارثوا عن أسلافهم الشغف بالجهاد، وحب الموت والاستشهاد في سبيل رفعة دين الله، وإقامة شرعه في أرضه، وقد وقفوا هم وأسلافهم من قبلهم مواقف البطولة والبأس في مواجهة جحافل النصرانية التي كانت تسوقها أوروبا إليهم بين الحين والحين سندا للامراء

الإسبان، فكانوا يلحقون بها الهزائم، ويردونها على أعقابها خائبة خاسرة، فتنسحب عبر جبال البرانس (البيرنه) مفلولة الحد، مهيضة الجناح.

يقول من بحثوا في أسباب الكارثة التي نزلت بعرب الأندلس: إن للدول أعياراً مثلها في ذلك مثل الأفراد، فإذا شاخت الدول زالت وبادت. ويقول آخرون إن الأسباب تعود إلى عدد من العوامل تضافرت فأدت إلى الكارثة، ومن هذه الأسباب والعوامل في رأيهم:

- استيقاظ النعرات القبلية بين القبائل العربية التي وجدت على أرض الأندلس، وبصورة خاصة بين عرب الحجاز وعرب اليمن.

- استيقاظ الروح العنصرية بين العرب والبربر والبلديين (الأندلسيين المتحدرين من أصل إسباني ثم دخلوا في الإسلام هم أو أسلافهم).

- التقارب الذي حصل بين النصارى المستعربين، وبين البلديين بفعل حنين الدم، والرغبة في حكم وطنهم، والتحرر من حكم الطارئين: العرب والبربر.

- الحروب والفتن والانشقاقات التي حدثت بفعل العصبية المستيقظة.

ولكن جميع هذه الأسباب والعوامل التي تساق كأسباب لتفسير ما حدث في الأندلس تبدو لنا مظاهر خارجية للسبب الرئيس الأول، الذي كان له الأثر الحاسم في انهيار المؤسسات الإسلامية كلها، والحكم العربي في الأندلس، ألا وهو عمل الحكام المسلمين على قتل روح الإسبان في صدور المؤمنين، وتعاونهم في ذلك مع جميع الحاقدين على العرب والإسلام، في الداخل والخارج، في سبيل اقتلاع جذوة الحياة الدينية من نفوس المؤمنين بجميع الوسائل المتاحة، بما في ذلك العنف البالغ، والإبادة والارهاب. وقد فعلوا كل ذلك، وساهموا فيه، وهم يظنون أنه الوسيلة الوحيدة والمثلثى لبقائهم في دست الحكم مطمئنين، لا يعكّر صفوح حياتهم معكر من صيحات المؤمنين من شعوبهم، التي كانت تحثهم على أطراح الخنوع والاستخذاء أمام الإسبان، والقيام بما يوجب الإسلام على الحكام من مجاهدة الأعداء، وبذل الجهد في ذلك وتوحيد كلمة المسلمين، ونيل التفرقة، والإقلاع عن قتال الأشقاء، وتوجيه الجهد والسيوف كلها إلى نحر الأعداء.

عز العرب قام على الأخذ بمبادئ الإسلام:
وتفسيراً لفكرتنا هذه نقول: إنه إلى الإسلام وحده يعود الفضل في وحدة

العرب، وفي قيام دولتهم، وفيما حققوه من انتصارات في ميادين الحروب التي خاضوها، وفيما حققوه من نشر للإسلام بين الأمم التي دانت لهم، وفيما توصلوا إليه من تقدم سريع في بناء الدولة، واستكمال مؤسسات الحكم.

لقد كان العرب في جاهليتهم قبائل متناحرة لا تكاد تنتهي من حرب حتى تفرض عليها حرب أخرى، وكان لذلك نتيجتان:

النتيجة الأولى - كان العرب جميعاً يتدربون على استعمال السلاح منذ نعومة أظفارهم، وكانوا يشاركون في الحروب في سن مبكرة، لأن الحروب المتواصلة كانت تفني الرجال، فكان لابد للقبيلة من الاستعانة بكل قادر على حمل السلاح لدفع الأذى عنها، وعن سمعتها، وكرامتها، وأعراضها، وأموالها، ضد الطامعين بها من أعدائها. وقد دفعت ضرورات الدفاع عن القبيلة إلى تمجيد الأبطال وإطراء شجاعاتهم، وصوغ القصائد تخليداً لمناقبهم وبطولاتهم، ليقتردي بهم الشبان الناشئون، ويستخفوا بالموت، ويتحدوا الصعاب، ويمتازوا في الحروب لينتزعوا الإعجاب، وتسير بذكرهم الركبان، ويطير ذكرهم بين القبائل.

والنتيجة الثانية - هي فرض التصاق الفرد بالقبيلة، والتمسك بالصلة القوية بها، لأن هذا الالتصاق هو الوسيلة الوحيدة لحماية الفرد من الاعتداء عليه من قبل أبناء القبائل الأخرى، وهو ينتقل في البوادي الشاسعة طلباً للرزق والمرعى، إذ لم تكن هناك سلطة عليا تستطيع فرض سلطانها على الجميع، لذلك كان لابد لكل واحد من أن يسعى إلى تأمين الحماية لنفسه بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يكن هناك أفضل من إشعار القبائل الأخرى بتضامن أفراد القبيلة في مواجهة الأعداء. وعدم سكوتهم على احتمال الضيم.

ومن ضرورة الالتصاق بالقبيلة، كوسيلة للحماية تفرعت ضرورات أخرى أخذ بها العرب، وتوارثوها، فأصبحت عادات متناصلة فيهم، ومنهاجاً لحياتهم.

ومن هذه الضرورات:

أ - العصبية القبلية

وهي ما كانوا يعنون بها (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، ويعبر عنها بالانحياز إلى القبيلة في صراعاتها وخصوماتها، سواء أكانت على حق أو على باطل، فلا خيار لابن القبيلة في الأخذ بذلك. وقد أصبح الإسراع إلى الأخذ برأي القبيلة، والانضمام إليه، ولو كانت الاكثرية التي قرره على خطأ، تعبيراً عن البأس والقوة والشجاعة

والتضامن والاستهانة بالحروب ومخاطرها، وبالأعداء وبقوتهم وكثرتهم وقد عبر
دريد بن الصمة عن هذا التضامن بقوله :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم في أنني غير مهتد
وعبر عنها آخر بقوله :

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
ب - النجدة والقوة وشدة البأس :

فإذا عرفت القبائل الأخرى أن افراد القبيلة متضامنون متناصرون، أشداء في
الحروب، أهل نجدة وقوة وبأس، لا ينامون على وتر . . . هابتها، وتجنبت
الاحتكاك بها، والاعتداء على أبنائها، وهم يتنقلون في البوادي والقفار، لأنها
لاتريدان تعرض نفسها لانتقامها.

ح - طلب الثأر من الواترين

بما أنه لم يكن في الجزيرة العربية سلطة مركزية تفرض سلطانها، وتستطيع تطبيق
القاسون على الجميع لذلك لم تكن هناك وسيلة لرد العدوان، والاقتصاص من
المجرمين، واجبار المعتدين على التفكير في الكف عن عدوانهم، إلا شعورهم بأن
القبيلة المعتدى على أبنائها لن تسكت على ما يلحق بها وبأبنائها من أذى واعتداء،
لذلك كان طلب الثأر نتيجة طبيعية لانعدام سلطة القانون .

د - التمسك بأخلاق الكرام

والالتصاق بالقبيلة يفرض على أبنائها التخلق بأخلاق الكرام الفاضلة، في
مسلكتهم، وتصرفاتهم، لكي يرتفع قدر القبيلة في أعين القبائل الأخرى، وليفرضوا
احترامها على الناس جميعاً، وليسير ذكراها بين القبائل بالسمعة الطيبة.

ومن هذه الاخلاق الفاضلة التي فرض العرب على أنفسهم الأخذ بها :

- الكرم وقرى الأضياف المجتازين، وتقديم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وماوى
جوداً وكرماً وسباحة . وكان من أقبح القبح عند العرب أن يباع الطعام للأضياف بيعاً .
وكان ذلك يعتبر سبة عار تلحق بالفاعل وعشيرته .

- الصدق وقول كلمة الحق

- الأمانة والوفاء بالعهد

- حماية المستجير وإغاثة الملهوف وتأمين الخائف العائد .

- التصون والتعفف عن العبث بالأعراض، وخصوصاً أعراض من ينزلون في جوار القبيلة .

- العدل في الحكم بين أفراد القبيلة جميعاً، فالظلم شيء فظيع لا تحتمله نفس العربي .

- المساواة في المعاملة بين أفراد القبيلة جميعاً، لأنهم يتسبون الى أب واحد ولأن المغارم والأعباء تفرض على الجميع دون استثناء كل قدر طاقته، وقد يحتمل منها الفقير أكثر مما يحتمل منها الغني القوي . إذ كان كل فرد من أفراد القبيلة عرضة للثأر منه عما وقع من أحد أفراد القبيلة من اعتداء على الآخرين . وبما أن القبيلة محتاجة لكل ساعد في الدفاع عنها فكان لا بد من أن يشعر الجميع بالعدل والمساواة ليسارعوا الى بذل نفوسهم وأمواهم طائعين راضين في الدفاع عن مصالح القبيلة .

أثر الاسلام في بعث العرب

جاء الإسلام فوحد العرب، وآخى بينهم، وجعل لهم سلطة عليا تفرض سلطانها على الجميع، وتطبق شرعة الإسلام، عليهم دون استثناء، بالعدل والمساواة، وبروح من المحبة والإخاء والتسامح .

ونسق الإسلام بين الطاقات القتالية العربية، ووجهها لنشر الإسلام، بدلاً من استهلاكها في قتال الإخوة وأبناء العمومة، فيما لا فائدة منه في دين ولا دنيا، وأعطى الإسلام بتعاليمه الصارمة مفاهيم جديدة للعصبية القبلية، فجعل التعصب للقبيلة يعني كف ابن القبيلة الظالم عن ظلمه، وردعه عن التجاوز والتطاول على الآخرين، وبذلك تنصر القبيلة ابنها على نفسه الظالمة .

وقضى الإسلام على فكرة طلب الثأر، وعهد بالاقتصاص إلى سلطة الدولة، فلم يعد الإنسان بحاجة إلى أن يباشر بنفسه طلب ثأره، والاقتصاص ممن اعتدى عليه .

﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾

(سورة الإسراء الآية ٣٣)

وقرر الإسلام فردية العقاب فلم يعد جائزاً للإنسان أن يطلب إيقاع العقاب بغير الجاني ﴿ولا تزر وازرة زر أخرى﴾ (النجم - ٣٨)

وحث الإسلام على العفو، ورغب فيه كثيراً، وجعله من أقرب القربات عند الله تعالى، وذلك للتخفيف من أثار أخطاء القضاء، ولنشر المحبة والإخاء والتسامح

بين المسلمين، ولا استئلال الأحقاد من النفوس، فمن عفا بطوعه عن قاتل ابنه، لا يفكر بالثأر منه، ولا بالاعتداء عليه. ومن عفى عنه من قبل ولي الدم لا يدل له من أن يعترف بجميل من عفا عنه، وأنقذ حياته طائعاً مختاراً، وهكذا يشعر الاثنان بالقرب والود بدلاً من الأحقاد والضغائن والرغبة في الانتقام.

وفرض الاسلام إخاء إسلامياً عاماً يتجاوز إخاء القبيلة وعصبيتها، وضرورات الدفاع عنها، وضرورات حمايتها وحماية أبنائها، فاصبح المسلم أخاً مخلصاً للمسلم أينما كانت أرضه، وأيا ماكان قومه ولونه وجنسه.

وحرم الإسلام قتل النفس إلا بحقها، واعتبر إزهاق الأرواح الإنسانية بغير حق من أكبر الكبائر عند الله، يستوي في ذلك الحاكم والمحكوم. ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾.

(المائدة - ٣٢)

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً﴾ (النساء - ٩٣)

والزم الإسلام المسلمين بالأخذ بمكارم الأخلاق في السر والعلن، واعتبر التحلي بالأخلاق الفاضلة من صفات المؤمن الحق، فلا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً حقاً إذا غش أو كذب أو انتهك الأعراض، وأخاف السابلة، وغدر واعتدى على خلق الله، أو أخذ الأموال بغير حقها، وأكل الربا وأكل المال الحرام، وبخس الناس حقوقهم، وطفف في المكيال والميزان، وخان الأمانة، وجانب العدل في حكمه بين الناس، وحابى القريب على حساب البعيد، وكتم الشهادة وقصر في غوث الملهوف، ونجدة المضطر... الخ

وفرض الإسلام على المسلمين مجاهدة أعداء الإسلام، والاسراع الى الانضمام الى كتائب المجاهدين لنشر دين الله وإعلاء كلمته. أولدفع الأذى والاعتداء على إخوانه المسلمين أينما كانوا، وفي أي صقع أقاموا -

﴿انفروا خفاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (التوبة ٤١)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من مات ولم يغز مات على شعبة من النفاق).

وفرض الاسلام المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات، وأوجب تطبيق شرعة الاسلام على المسلمين جميعاً دون تمييز. واعتبر الخروج عن تطبيق هذه

القاعدة خروجاً عن مبادئ الاسلام. ﴿ومن يحكم بغير ما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ .

وقد أراد رسول الله ﷺ تطبيق حد السرقة على امرأة من بني مخزوم سرت، فكلمه فيها بعض المسلمين فغضب الرسول الكريم غضباً شديداً وقال: (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

وقد لعن الله تعالى اليهود في أكثر من موضع في القرآن لتحريفهم التوراة، وتعطيلهم أحكامها، وتطبيقها في بعض الظروف، وإهمال تطبيقها في ظروف أخرى، مع أنهم أمروا بتطبيقها وإقامة أحكامها في كل حين، فقال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئساً كانوا يفعلون﴾ (المائدة - ٧٨)

وفرض الاسلام وحدة الأمة، ووحدة الكلمة في الأمة، وحرمة الفرقة والانشقاق والتدابير والتناظر، والخروج عن الجماعة، لتحفظ دولة الاسلام بقوتها، وفعاليتها وقدرتها على صيانة أمنها وتطبيق شرع الله.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فتنفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (آل عمران ١٠٣) وفرض الله على المؤمنين طاعة الحاكم المؤمن مادام يقيم شرع الله، ولم يطغ على الجماعة، ولم يعتد عليها، ولم يتجاوز حدود ما شرع الله: بهدر دم بريء أو هتك عرض مصون، أو استباحة مال بغير وجه حق، أو إساءة تصرف في مال المسلمين، مما جعله الله أميناً عليه بحكم مركزه.

وفرض الله تضامناً بين المسلمين في أي قطر كانوا، وفي أي مكان أقاموا فليس من المسلمين من يقف موقف المتفرج إذا وقع اعتداء على إخوانه المسلمين يهدد كيانه وأمنهم وحريتهم وأعراضهم ودينهم. وليس من المسلمين من يرى حرمة الله تنتهك وتنداس في أي قطر مسلم وهو لا يهتم بذلك، ولا يبالي به، ولا يتحرك لنصرة المسلمين، ورد الأذى عنهم.

وتنفيداً لفريضة التضامن الإسلامي فقد كانت قوافل المجاهدين تنتقل من حدود الصين وأواسط آسيا إلى سوريا لعون سيف الدولة بن حمدان في حروبه مع الروم، ثم لعون الحكام المسلمين بعد ذلك في مجاهدتهم للصليبيين. وكانت قوافل المجاهدين تتدفق من الشمال الأفريقي على الأندلس عبر قرون طويلة لعون

المسلمين في دفع أخطار الاسبان ومن والا هم من أمم الغرب .
وأكثر ما اهتم به الاسلام هو تربية الفرد المسلم ، وترسيخ فكرة الإيمان في نفسه ، حتى تصل به الى درجة الاستسلام المطلق لله تعالى ، والرضى بجميع ما فرضه الله عليه ، وما قدره له ، وما قسمه له من رزق ومال وولد ومصر - . . ومتى تمكن الإيمان من النفس استطاعت تحمل جميع المصاعب والمصائب ، والقيام بجميع الواجبات المفروضة عليها برضا تام .

وحينما يتمكن الإيمان من النفس يصبح لها رقيب على تصرفاتها من ذاتها يراقبها في السر والعلن ، فتنصلح الأعمال ، وتتهذب النفوس ، وتتحمل التضحيات برضا وخضوع :

لا تطلع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها رادع
وقال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأولئك هم الصادقون ﴾ (الحجرات - ١٢) .

وفرض الإسلام على المسلمين السهر على أمن الجماعة ومصلحتها . والقيام بمحاربة الفساد والمفسدين ، وعدم السكوت على ما يروونه من منكر في المجتمع يحدثه بعض المفسدين ، وضعاف الدمم ، وعدم السكوت على ما يروونه من تجاوز على حدود الله وشرعه :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (التوبة - ٧٠) .

وتنفيذاً لهذا المبدأ الهام أوجد المسلمون في دولتهم نظام الخسبة للسهر على حسن تطبيق شرع الله ، ومحاربة الفساد والمفسدين .

ومما يتفرع عن مبدأ السهر على أمن الجماعة ، ومصلحة المجتمع ، واجبات فرض الله على المسلمين القيام بها ومنها :

- واجب المسلم في اداء الشهادة على السوجه الصحيح الأكمل ، دون تبديل ولا تحريف ، ودون خوف ولا خشية من قوي ، أو ذي سلطان ، ودون مراعاة ولا محاباة لضعيف أو قريب أو صديق . ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه ﴾ (البقرة ٢٨٣) لان الحقوق لاتصان ، والقانون لا يقوم ، والمجتمع لا يصفو ، إلا إذا قام كل واحد بواجبه في عون السلطة الحاكمة المؤمنة . فإذا ضعف الناس عن قول كلمة

الحق، ونكلوا عن أداء الشهادة، استطال أهل الباطل، وتمادوا في غيهم، وأخافوا العباد، وعكروا صفو المجتمع. والسلطة الحاكمة لا تستطيع أن تؤدي واجبها في حماية المجتمع، ومكافحة الفساد إذا لم يقم كل واحد بواجبه في كشف الحقائق، والادلاء بالمعلومات التي يعرفها عن تصرفات المفسدين، وتجاوزاتهم على القانون، لتستطيع السلطة تطبيق القانون، وفرض الحدود على المجرمين.

- وما يتفرع عن مبدأ السهر على أمن الجماعة، ومصلحة المجتمع المسلم، وجوب اتصاف كل فرد فيه بالجرأة في قول كلمة الحق. لا يخاف في ذلك لومة لائم، ولا يرهب بطش جبارعات متكبر. ولا يخاف اعتداء معتد ممن يتضررون من قول كلمة الحق، ولو على نفسه، أو على قريبه، لا يهجمه من يتضرر منها، ومن يتنفذ. وكل الذي يهجم هو أن الحق يجب أن يقال ويُعرف، وهو يعرفه وسيقوله جهاراً:

❖ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الأقربين ❖ (النساء ١٣٥).

❖ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم ❖ (المائدة ٥٤).

ومتى أمر الناس بالمعروف، ونهوا عن المنكر في المجتمع، وسارعوا إلى أداء الشهادة، واتصفوا بالجرأة في قول كلمة الحق، صحت بنية المجتمع، وانصلح الحاكم والمحكوم، وقضي على الفساد والمفسدين، وساد الوثام والإخاء بين أبنائه، واطمأنت النفوس، وانصرف الجميع إلى العمل الشمر، وإلى التعاون على إعلاء شأن المجتمع الإسلامي، وبذلك يعود المجتمع الإسلامي ليكون المجتمع الأمثل بين المجتمعات الإنسانية، ويعود البعيدون عن الإسلام إلى التطلّع إلى الدخول فيه لثقتهم بأن المجتمع الصالح، دليل على سيادة المبادئ الصالحة فيه.

- وما يتفرع عن مبدأ وجوب السهر على أمن الجماعة ومصلحتها، وجوب اتصاف الفرد المسلم بالشجاعة في مقارعة الظلم والطغيان الذي ينزل بالأمة، والشجاعة في محاربة أعداء الإسلام، ومن يريدون به شراً.

وتأتي شجاعة المؤمن من إيمانه إيماناً مطلقاً بأن لكل نفس أجلاً لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأن لكل أجل كتاباً لا بد لها من استيفائه، وأن كل ما يصيب الفرد مقدر مكتوب لا مهرب منه، ثم تأتي شجاعة المؤمن من يقينه بأن ما وعد الله به الشهداء في

سبيله من أنه سيجزيهم بنعيم مقيم ، وكرامة دائمة في دارخلده ، . . هو وعد حق ،
وأن الله لا يخلف وعده أبداً .

كما تتأتى الشجاعة من إيمان المؤمن بأن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال هو
أقرب القربات عند الله ، وأنه ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

﴿قل فادروا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران ١٦٨) . .

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ (آل عمران ١٤٥)

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك
على الله يسير﴾ (الحديد ٢٢) .

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران
١٦٩) .

- وما يتفرع أيضاً عن واجب السهر على أمن الجماعة ، وسلامة المجتمع المسلم واجب
اتصاف المؤمن بالعزة والإباء ، وعدم السكوت على الظلم . وقد وصف الله تعالى
المؤمنين بأنهم أعزة لا ينامون على ضيم ، ولا يسكرتون على مهانة ، وافتشات ،
وطغيان ، وأنهم يشورون في وجه الظلم والاعتداء من أية جهة جاء ، الى أن يعيدوا
الامور الى نصابها ، وتسود العدالة وشرع الله في مجتمعهم :
﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ (الشورى ٣٩) .

المجتمع الاندلسي

كان المجتمع الاندلسي يتألف في أواخر أيام دولة بني عامر من :

- أنسال عرب الفتح ، ومن أتوا بعدهم من العرب ، وهم ينتسبون في أصولهم الى
قبائل عربية متعددة منها من أهل اليمن ، ومنها من أهل نجد والحجاز .

- من البلديين ، وهم أنسال الاسبان الذين دخلوا في الاسلام ، وكانوا يؤلفون الكثرة
العديدة في الاندلس .

- من أنسال البربر الذين دخلوا مع جيوش الفتح الاسلامي ، واستقروا في الاندلس ،
ومن البربر الذين وفدوا على الاندلس بعد ذلك لأداء فريضة الجهاد واستقروا فيها ،
وقد وفدت أعداد كبيرة من البربر أيام المنصور بن أبي عامر ضمهم الى جيشه ليوجد
توازناً في الجيش بين نفوذ العرب ، ونفوذ غيرهم ، وذلك ليتحرر من نفوذ الزعامات
العربية ، وسلطانها ، في الجيش والدولة .

- من الأرقاء والسبائيا من إسبان وفرنجة وغيرهم ، وكثير منهم دخلوا في الإسلام

وأصبحوا أحراراً .

— من الإسبان الذين أقاموا على دينهم في ظل الحكم العربي ، ويعرفون باسم (المستعربين) وقد تعلم كثير من هؤلاء اللغة العربية ، وعاشوا مع المسلمين . وكان لهم نوع من الحكم الذاتي في أمورهم الداخلية . وكانت هناك قلة من اليهود وجددهم المسلمون مستبدلين مستعبدين في الجزيرة من قبل الحكام القوط فحرروهم ، وأعادوا إليهم كرامة الإنسان . فكانوا عوناً للمسلمين في بادئ الأمر .

ويمكننا أن نميز بين الذين دخلوا في الاسلام بين ثلاث فئات منهم :
— فئات دخلت في الاسلام عن عقيدة وإخلاص وصدق إيمان ، وقد حسن إسلامهم بعد أن تفقهوا في الدين ، ووقفوا على حقائق الاسلام ومبادئه ، وأصبحوا قوة للإسلام في الجزيرة .

— فئات دخلت في الإسلام عن إخلاص وحسن نية ، ولكنهم لم يتح لهم التفقه في الدين ، والتعمق في معرفة حقائقه وأحكامه ، ولم يطلعوا على مبادئه وروحه اطلاقاً كافياً ، ولم يعرفوا من الإسلام إلا قشرته الخارجية ومظاهره ، فكان من السهل على من أراد الفتن ، والكيد للإسلام ، أن يؤثر عليهم ، أو على بعضهم ، وأن يتلاعب بعواطفهم ، ويحملهم على الإقدام على تصرفات تسيء إلى الإسلام ودولته ، وتضر بها ضرراً بالغاً ، دون أن يدركوا مخاطر ما يفعلون ، وهؤلاء هم العامة .
— فئات دخلت في الإسلام بأفواهاها ولم تؤمن قلوبها ، وكانوا يرمون من وراء دخولهم في الإسلام الى تأمين الحماية لأنفسهم في المجتمع الإسلامي ليتمكنوا من العمل بحرية في تقويض دولة الإسلام ، وزرع البلبلة والشقاق في أوساط المسلمين .

وكان هؤلاء المتظاهرون بالإسلام يؤلفون مع المستعربين (النصارى الذين أقاموا على دينهم في المجتمع المسلم) الحزب النشيط الفعال في خدمة الإمارات النصرانية في الشمال ، وكانوا عيونها الساهرة في الوسط المسلم . وكانوا معول الهدم الفعال الذي يعمل على تقويض أركان دولة الاندلس . وكثيراً ما جاهدوا بعدائهم الصريح للإسلام والمسلمين ، وأثاروا الفتن والقلاقل ، وشاركوا فيها .

لقد كان العربي منذ القديم ينفر بطبيعته من العمل في الأرض ، كما كان ينفر بطبعه من العمل في الصناعات اليدوية ، لأن كلا العاملين يجعله ملتزماً بالارتباط

بالعمل الذي يمارسه ، وهذا قد يؤدي به الى الخضوع لتسلط يتغلب على الأرض التي يقيم فيها ، ويحرمه الحرية التي يتعشقها ، لذلك كان العرب يفضلون صناعة الحرب التي تناسب أمزجتهم ، والتي تمرسوا فيها منذ أجيال بعيدة ، واتقنوها وبرعوا فيها .

والفتح الاسلامي قام أساساً على اكتاف العرب ، والدولة كانت دولة العرب . ولذلك كان العرب يؤلفون الاطوار القيادي الفعال في الجيوش الإسلامية في الأندلس . ثم إن العرب كانوا ينتمون إلى قبائل ، وكانت هذه القبائل تحافظ على الروابط القبلية بين أفرادها ، وكانت لهذه القبائل زعامات تعرف أين يقيم أبناؤها ، لذلك كان من السهل على الزعامات العربية أن تجمع المقاتلين في أسرع وقت . ويمكن أن نشبه التنظيم القبلي السديقي ، في حسن أداء المهام في تلك الأيام ، بالتنظيم الحزبي المتطور في أيامنا هذه ، فما تقررته القيادات يصل الى القواعد فتنفذه بدقة ، وكان كل ذلك يجعل من العرب القوة الضاربة المتناسكة في الجيوش الأندلسية . وكان الأمراء الأمويون مثلاً للحكم العربي الواعي المتسامح ، وكانوا يجمعون الى سعة الأفق رحابة الصدر ، والميل الى الانصياع الى الحق . وكان الفقهاء المسلمون أصحاب المقام الأول في الدولة والمجتمع ، لأنهم كانوا المكلفين بالسهر على حسن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بين الناس .

وكان البربر ينتمون أيضاً الى قبائل ، وكانت لهم تنظييات قبلية يرتبطون بها ، ولكنهم كانوا أقل أثراً من العرب في الحياة العامة ، لأنهم كانوا لا يستكبرون عن العمل في الزراعة والصناعات مما أفقدهم القدرة على سرعة الحركة والاستجابة للزعامات القبلية بالسرعة اللازمة في الأزمات .

وفي أيام دولة بني عامر كان قد مضى على دخول الإسلام في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون ونصف ، وكانت مبادئ الإسلام قد ترسخت في النفوس بسبب انتشار الوعي والثقافة والعلوم ، فأصبحت الكثرة تفهم مبادئ الإسلام وروحه فهما صحيح ، وتعرف ما يفرضه الإسلام عليها من واجبات ونحوها ونحو منجزاتها ، ونحو حكمائها . وقد أقام الشعب تعاوناً وثيقاً مع جهاز الحكم في الدولة لحماية المجتمع من الفساد والانحراف ، فكان في الأندلس نظام حسبة نشيط وفعال عملاً بقوله تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ . وقد أعطى شعور الفرد بمسؤوليته ، وتعاونه المخلص مع اخوانه في المجتمع

ومع اجهزة الحكم المكلفة بالسهر على أمن المجتمع وسلامته وطهارته ، وعلى تطبيق شرع الله . . . أفضل النتائج ، فأصبح المجتمع كله وكأنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً ، تسود النظافة باطنه ، والمثانة خارجه .

وكان الحكم مؤمنين مخلصين في إيمانهم ، وكانوا يدركون أن عز العرب ، وعز دولتهم ، إنما قاما على الأخذ بمبادئ الإسلام ، وأن الحراسة الدينية هي سياج الدولة ، وحصنها ، وعدتها في النائيات ومصدر أمنها ، لذلك كانوا هم قدوة صالحة لشعبهم ، وكانوا لا تفتري لهم همة في مجاهدة أعدائهم الفرنج والاسبان في الشمال . وكانوا لا يقصرون في العمل على تحريض المسلمين على الجهاد ، ولا في شحذ همهم ، واستنهاض غرائمهم للقيام بواجبهم . ولذلك كانت السرايا تتقاطر عليهم من كل بقعة من بقاع الأندلس حينما كانوا يطلقون صيحة الجهاد ، مليئة النداء ، طامعة بالفوز برضوان الله ، وعظيم ثوابه .

وبما أن الحرب تكاد تكون متصلة بين المسلمين والاسبان وحلفائهم الفرنج فقد كانت الأندلس كلها ثكنة عسكرية تعج بالمقاتلين الأشداء الواقفين دائماً على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد ، وكان كل مسلم قادراً مقاتلاً مدرباً متقناً فنون الحرب ، شجاعاً بأسلاً شغوفاً بالجهاد ، يسرع الى الميدان وهو يتمنى أن يكرمه الله بالشهادة في سبيله ليفوز بأجر الشهداء .

ولذلك لم يكن هناك تناقض ولا تضارب في الغايات والمصالح بين الشعب وبين الحكم ، فالحاكم يريد الشعب قوياً مدرباً ممتلئاً حماسة ورغبة في الموت في سبيل الله ، ورفعته دولة الإسلام ، ليستطيع أن يخوض بهم الصراع مع الأعداء مطمئناً الى النصر . والشعب يريد حاكماً مؤمناً مخلصاً يقوده بوعي وكفاءة الى مجاهدة أعدائه ، دفاعاً عن دين الله ، وسلامة دولة الإسلام ، وتحقيقاً لما أمر الله به المؤمنين من مجاهدة مجاور المسلمين من الأمم التي لا تدين بالإسلام ، وهي تتر بص بالإسلام وأهله الدوائر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة ١٢٣) .

وكان كل نصر تحققه دولة الأندلس يزيد الناس ثقة بدينهم ، وبأنفسهم ، وبحكامهم ، ويصدق ما وعدهم الله به من نصر وعز إذا هم أخلصوا الجهاد والتعاون والنصح لله ، ولولي الأمر .

وقد أدى هذا التلاحم القوي بين الشعب والحاكم الى ازدهار الأندلس ،

ورفعتها وعزها، وتقدمها الحضاري، وإلى قوتها ومنعتها، وإلى توالي انتصاراتها على أعدائها الأسبان والفرنجة. فعاشت الأندلس قرناً قريرة العين، ناعمة البال، تسير جيوشها من نصر إلى نصر.

ولذلك كانت الروابط بين أبناء المجتمع قوية، والإخاء سائداً، واليقظة كبيرة فكان من الصعب على أعداء الإسلام في الداخل، أن يسيطروا اللثام عن وجوههم اللثيمة، وأن يجدوا منفذاً أو ثغرة ينفذون منها إلى ما يريدون الوصول إليه. وكانت انتصارات المسلمين المتتالية، وهزائم أعدائهم المتكررة، تضعف من أثر الأعداء الداخليين وفعاليتهم، كما كانت تزيد المجتمع الإسلامي تماسكاً وصفاء ونقاء وطهارة، لأن الجهاد ينقي النفوس من أدرانها، ويجعلها تحتقر الدنيا وعروضها الزائلة، ويبعدها عن الدنيا والسفاسف. والتناحر على عروض الدنيا الزائلة، هو الذي يؤدي إلى الاختلاف والتخاصم والاقتتال بين الناس.

بدء الانهيار:

ولكن التناقض بدأ يظهر بين الحاكم والمحكوم في الأندلس حينما عدا المنصور ابن أبي عامر على مقام الخلافة، محاولاً اغتصاب السلطة الشرعية من أصحابها. وقد أثر هذا التناقض على وحدة الشعب، وتماسكه، فيما بعد، وظهرت الانقسامات جلية واضحة أثناء الصراع بين المنصور بن أبي عامر، وبين منافسيه على السلطة. ثم تطور الصراع والشقاق كثيراً حينما تفرد المنصور بالسلطة، وأخذ يبطش بخصومه بطشاً شديداً أخرس الألسنة، ولكنه أشعل النفوس بنيران الحقد والكراهية والرغبة في الانتقام. وسكت الناس على مضض وضغن، ما دامت دولة بني عامر قوية، على رأسها رجال أكفيا كالمصور وابنه عبد الملك. ولكن سكوت الناس نقل الصراع من العلانية إلى الخفاء، فكانت المكائد والمؤامرات لقلب حكم بني عامر تدبر في الخفاء، وفي سرية متناهية لكيلا يتعرض المتآمرون للبطش والانتقام. ولكن حينما تهلل لحكم بني عامر بمجيء عبد الرحمن بن المنصور، وكان غراً مغروراً، فقد احترام الجند لسوء تصرفه، فاشتدت عزائم المعارضين، وقويت آمالهم بالخلاص من هذا الحكم المغتصب، ومما هي إلا أيام قلائل حتى سنحت الفرصة المواتية، فضرب المتآمرون الحاقدون ضربتهم الموفقة، وقضوا على بني عامر وحكمهم ومؤيديهم. كان المنصور بن أبي عامر رجلاً من أوساط الناس، ليس من بيت عز وأمارة وزعامة، وكان ينتسب إلى معافر، وهي فخذ من إحدى قبائل اليمن، ولم يكن لمعافر

نفوذ وأثر كبير في الحياة العامة في الأندلس ، ولكن المنصور كان ذكياً نشيطاً ، تقرب من جعفر المصحفي وزير الخليفة المستنصر ، وعن طريقه أصبح مريباً لابن الخليفة ، ولي العهد هشام المؤيد ، ثم تعرف على الخليفة . وادرك المنصور بذكائه ، وبالغ فطنته ، أثر زوجة الخليفة صبح - أم تلميذه هشام - على الخليفة ، فأخذ يتقرب إليها ، ويظهر الاخلاص لها ، وأدرك أنه إذا أراد أن يصل يوماً الى شيء يريد فعله أن يكسب ودها وثقتها ، وثقة جواربها ووصيفاتها ، وقد نجح في ذلك حتى لفت تصرفه نظر الخليفة المستنصر .

وحينما توفي الخليفة المستنصر تعاون المنصور مع استاذ جعفر المصحفي تعاوناً وثيقاً للقضاء على خطة الخصيان الطامعين في إقصاء ابن الخليفة الطفل عن ولاية العهد ، والعهد بالخلافة الى أحد أخوة الخليفة المستنصر ، حتى أنه قام بنفسه بخنق المغيرة المرشح من قبل الخصيان لتولي الخلافة .

وبعد أن نجحت خطة المصحفي وابن أبي عامر في إعادة الخلافة الى ولي العهد الشرعي ، افترق طريقاهما ، وأخذ كل منهما يسعى للتمكين لنفسه . ومع بداية الصراع بين الرجلين بدأ الانشقاق يظهر في المجتمع الأندلسي ، ثم أخذ في التعمق مع تطور مراحل الصراع بين الطامعين في التفرد بالسلطة : المصحفي وابن أبي عامر .

وكان هذا الصراع هو الفرصة الذهبية للمغامرين والانتهازيين وأهل الفساد ، ولأعداء العرب والإسلام من مستعربين ومن والاهم من مسلمين مرائين ، ومن انتهازيين ومغامرين فأخذوا يعملون جهاراً ، وينحازون الى هذا الفريق أو ذاك من المتنافسين على الزعامة ، حسبما تنتهي بهم تقديراتهم اليه من امكان نجاح هذا أو ذاك .

وكان المتنافسان مضطرين الى الاسراف في إغداق الوعود للأنصار والمؤيدين ، والتلويح لهم بالمغانم التي سيجنونها إن تحقق الفوز لأحدهما ، ليضمننا التأييد في هذا الصراع المصيري بالنسبة إليهما . وهكذا بدأت الانشقاقات تتسرب الى جسم الدولة ، وانتقل الصراع من القمة الى أوساط الشعب ، فانقسمت القاعدة التي كانت وحدها درع الأمن والسلامة في الأندلس لدولة الاسلام أمداً طويلاً ، وبدأ التنافر يظهر في المجتمع ، ويحل محل الاخاء والوحدة والتضامن التي فرضها الله على المسلمين .

ونجح ابن أبي عامر في نهاية المطاف في التغلب على خصمه ، وتسلم السلطة ،

ثم تفرد بالزعامة دون الزعامات التقليدية، من عربية وأندلسية وبربرية، فأخذ المنصور يتوجس خيفة من هذه الزعامات، ويستشعر منها الحذر لما يعرفه عن حقيقة نفوذها في أوساط الشعب والجيوش، فأخذ يعمل على إضعاف نفوذها، وتتبع هذا النفوذ للقضاء عليه واجتثاثه، خوفاً من أن تجتمع يوماً عليه، وتقضي على حكمه. وقد أدى به خوفه هذا إلى التفكير في استقدام كثير من متطوعة البربر من شمالي أفريقيا ليضمهم إلى الجيش ليضمن ولاءهم، وبعدهم عن التأثير بنفوذ الزعامات الأندلسية المحلية. ثم أدرك المنصور بعد حين أن الزعامات لا بد لها من أن تظهر في أوساط الجيش والدولة من جديد، وأن كل ما فعله أنه استبدل زعامات قديمة، بزعامات جديدة، ستظهر حتماً بين المتطوعة الذين استقدمهم من المغرب، إذ كان البربر القادمون للعمل في جيش المنصور هم أيضاً يتسبون إلى قبائل معروفة، ولها زعامات، وقد جأؤا وتحت قيادات هذه الزعامات. ولأشك في أن هذه الزعامات ستشعر بأهميتها عما قريب، بعد أن تقف على حقيقة حال المنصور، وانعزاله عن الشعب. لذلك أخذ المنصور يشك في ولاء بعض هذه الزعامات القادمة إليه، ويخشى من تعاضل نفوذها، حتى اضطره الخوف إلى اغتيال أحد قادة البربر، حينما شك في أنه بدأ يستشعر القوة والأهمية في دولة المنصور.

وقد أدى خوف المنصور من ظهور زعامات إسلامية جديدة في الجيش والدولة إلى التفكير في إدخال متطوعة من النصاري - الإسبان والفرنجة - في الجيش ليوازن بوجودهم في الجيش نفوذ العرب والبربر والأندلسيين، وليجعل من يفكرون في التآمر عليه يتشككون في إمكان نجاح خططهم بسبب وجود قوات أخرى لدى المنصور لا يستطيعون التأثير عليها، وجرحها إلى خططهم. وقد نفذ المنصور فعلاً ما فكر فيه. وقد ظن المنصور أن سيطرته على القوة العسكرية في البلاد يمكن أن تغنيه عن ولاء الشعب، وثقتة، ورضاه الطوعي بحكمه، فأخذ يتبع الخصوم والمناوئين، ويبطش بهم بغیر رحمة ولا شفقة، حتى إن ابنه لم ينبج من بطشه حينما شك في أنه يتآمر عليه مع خصومه.

وهكذا كان المنصور كلما أوغل خطوة في طريق البطش والإجرام، زادت مخاوفه وهواجسه وشكوكه فيمن حوله، حتى صار يشك في أقرب المقربين إليه إذ كان يتراءى له غدره بمن وثقوا به، ورفعوا من قدره وشأنه (الخليفة وأمه وجعفر المصحفي والقائد غالب قائد قوى الحدود الشمالية) فيظن أن المقربين منه لا بد وأن يغدروا به، فيزداد

طغياً وإمعاناً في الإجرام .

ولما شعر المنصور بالكره الذي قوبل به حكمه في أوساط الشعب - وخاصة في الأوساط المؤمنة - لاعتدائه على مقام الخلافة - رمز الشرعية الدستورية - وسلبها صلاحياتها وسلطتها ، وحجره على الخليفة ، ولتسببه في انقسام الأمة إلى شيع وأحزاب وطوائف ، بعد أن كانت وحدة متعاسكة قوية ، أراد أن يصرف الأنظار عن فعلته ، وأن يلهمي الناس بحديث الجهاد ، فاحد يستعد استعداداً كبيراً للقيام بغزو الأسبان في الشمال بالصوائف والشواتي ، وقد حقق عليهم انتصارات ضخمة . ولكن الدوافع لجهاد المنصور لم تكن كلها خالصة لوجه الله تعالى ، وإنما كان جانب كبير منها يستر رغبته في إلهاء الناس بحديث الجهاد والفتح والانتصارات والمغانم التي تعود بها جيوش الفتح ، لعلهم ينسون مع مرور الأيام ، وتكرر الانتصارات ، غدره بولي نعمته الخليفة ، وتسلبه على مقام الخلافة ، وحرمانه الخليفة من ممارسة حقوقه وصلاحيات الحكم .

والمنصور لا يستطيع أن يدعي أنه إنما قام باغتصاب السلطة غضباً لما رآه من انتهاك محارم الله ، وخالفه شرعه ، وشعوراً منه بتقصير الخلافة في أداء ما فرض الله على ولي الأمر من القيام بواجب الجهاد . فالخلافة كانت تطبق شرع الله بأمانة وإخلاص وفقهاء المسلمين كانوا حراساً أوفياء على وفاء السلطة بالتزاماتها الشرعية ، والخلافة الأموية في الأندلس لم تقصر يوماً في القيام بفرصة الجهاد لمن يلون أرض الإسلام في الأندلس من غير المسلمين ، وكان جهاد الخلافة الأموية مؤثراً في الأعداء ، والخليفة الناصر أمضى قرابة الخمسين سنة في الحكم لم يمر عام منها تقريباً دون أن يقوم بغزو الأسبان بالصوائف والشواتي ، وكان يقود الجيوش المجاهدة بنفسه في الغالب من الحالات ، ولم يترك للأسبان راحة ، حتى أفقدهم الأمل في النصر ، فاضطروا إلى الخضوع له ، وإلى الاعتراف بتفوق دولة الإسلام عليهم ، وكذلك فعل ابنه الحكم المستنصر .

وكان المسلمون في الأندلس يؤيدون في غالبيتهم العظمى مقام الخلافة ، ويتعلقون به بإخلاص ، فكانت دولة الإسلام في الأندلس بناء قوياً متيناً متراصاً محكم الجوانب ، موطن الأركان ، وكان الجميع يشعرون بأن الدولة هي دولتهم جميعاً لا تختص بها فئة ، ولا تمتاز فيها جماعة ، وشرع الله يطبق على الجميع دون استثناء ، لذلك كان الناس جميعاً يبذلون المهج والأرواح ، والأبناء والأموال ، في سبيل الحفاظ على كرامة الدولة وسلامتها وأمنها ، وبقاء وحدتها وتماسكها في ظل الخلافة . ويجدون في عملهم هذا وسيلة قربي إلى الله تعالى . وحينما قام المنصور باغتصاب السلطة

انفضّ أهل التقى والصلاح من حول الحكم، لأنهم رأوا في عمله هذا اعتداء على مقام الخلافة المقدس، وتجاوزاً على حقّها، ومخالفة لشرع الله الذي أمر المؤمنين بالسمع والطاعة لولاة الأمور من المسلمين الأخيار. وكان هؤلاء الذين انفضوا من حول حكم المنصور هم أهل الإيمان، والنجدة، والقوة، والبأس، والاندفاع للذود عن حياض الوطن في ساعة الشدة.

ثم أخذت تنفض عنه جماعات أخرى، نتيجة لبطش المنصور، وقسوته في التعامل مع خصومه. وعلى هذا فلم يبق حول حكم المنصور إلا فئة من المغامرين، والانتهازيين، والرعا، وأصحاب المصالح، الذين يتطلعون الى تأمين مصالحهم. ويضاف الى هؤلاء المغامرين والانتهازيين جماعات من الاعداء المستترين بالإسلام ليتمكنوا من تأدية مهمتهم التخريبية، فقد كانوا يعملون على تعميق الخلافات والانشقاقات في المجتمع الاسلامي، وإحداث هوة عميقة بين الحكم وبين الشعب. وقبل المنصور مضطراً بهؤلاء المؤيدين، وهو يعلم أنهم لا يغنون عنه شيئاً في ساعة الشدة، وقد ثبت ذلك فيما بعد حينما اندلعت الفتنة في عهد ابنه عبد الرحمن؛ فاضطر الى العودة بالجيش من الغزاة، وحينما علم الجند، الذين كانوا معه، بما وقع في قرطبة من ثورة، أخذوا في التسلل عائدين الى بيوتهم، وانفضوا من حوله شيئاً فشيئاً، حتى إنه لم يبق معه إلا حفنة من الناس حينما أصبح على أبواب قرطبة، وعلم الناس بأن الثائرين قد استولوا على العاصمة، فالقي القبض عليه بسهولة ويسر.

وكان المنصور يدرك أن الذين انفضوا من حوله هم خيار الناس، وكرامهم، ومؤمنوهم، وأهل النجدة والصدق في الجهاد، وأن هؤلاء هم الذين كانوا عماد الحكم، والجيش، والدولة، وعدة النصر في الأيام الخوالي، فنقم عليهم المنصور، وأخذ في محاربتهم حرباً لا هوادة فيها، وأظهر في محاربتهم كثيراً من الشدة والقسوة، وأخذ يتتبع خصومه بالإيذاء، والملاحقة يريد استئصال شأفتهم.

وظهر من المنصور بصورة خاصة حقد كبير، ورغبة جامحة لاتقاوم، في الانتقام من استاذة، وولي نعمته، جعفر المصحفي. فقد سجنه مدة طويلة في أقبية الزهراء، وضيق عليه، واستصفى أمواله وأموال أهله وبنيه، وتتبع أبناءه وأبناء اخوته بالقتل والإيذاء وسوء المعاملة. وكان يأتي بالمصحفي من محبسه الى مجلسه بين الحين والحين، ويعقد له مجالس محاسبة، يوجه خلالها الاتهامات اليه عن اختلاس أموال الدولة، ويفري خاصته بالاساءة اليه، والتطاول عليه، وكانت غايته من وراء ذلك أن يشفي حقه عليه برؤيته سجيناً ضعيفاً مهاناً بين يديه، يطلب العطف، ويسأل

الرحمة والشفقة -

وطال سجن الصحفي ، وطال عذابه ، وتقدمت به السن ، وضعفت نفسه عن تحمل ما نزل به من الإيذاء والمهانة والعذاب والسجن ، فأخذ يوجه الى المنصور رسائل الاستعطاف شعراً رقيقاً يلين القلوب التي قدت من جلمد ؛ وتتالى رفض المنصور الاستجابة لمطالب العفو، ورفض أن يكون من الكرام الذين يعفون عن الضعيف والمقهور حينما يتغلبون عليه . وبرر الصحفي استدلاله ، والحاحه في الاستعطاف بقوله :

وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت وأخيراً يش المصحفي من عفو المنصور حين بلغه قوله :

الآن يا جاهلاً زلت به القدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم
نفسى إذا انصرفت ليست براجعة ولو تشفع فيك العرب والعجم
وحين سمع الصحفي قول المنصور هذا أدرك أنه لا يتعامل مع إنسان نبيل يقف حقه عند حد ، ويعفو إذا اقتدر ، وأنه إنما يتعامل مع صخر جلمد لا يرق ولا يلين ، ولا يستجيب لاستعطاف مستعطف ، ولا تعرف الرحمة إلى قلبه سيلاً ، ولا تهز الكلمة الطيبة ، والشعر الجميل ، فأنهى مراسلاته مع المنصور ، وكف عن توجيه الرسائل إليه ، وأخذ يهجوه ويصفه بضعة الأصل ، وخسة النفس ولؤم الطبع :

لأننا من الزمان تقلبنا إن الزمان باهله يتقلب
ولقد أراني والليوث تهابني فأخافني من بعد ذاك الشعب
حسب الكريم مهانة ومذلة أن لا يزال إلى لثيم يطلب
جبال فيه أيضاً :

ولو كان من أصل كريم تكرمنا

وقد اساءت معاملة المنصور لخصومه بصورة عامة ، وإلى الصحفي بصورة خاصة ، الى سمعته ، ومكانته ، في أوساط الشعب ، وصفرته في عيونه ، فقد ربي الاسلام النفوس المؤمنة على التراحم والتواد ، والشغف بالعفو ، والتسابق إليه ، والصفح عن الضعيف المسيء ، ومد يد العون والحماية للمستجير الملهوف ، وكره إليها الانتقام ، وحب التشفي ، والمبالغة في الإيذاء .

وقد ألف الشعب أن يرى مقام الخلافة كريماً في تعامله مع خصومه واعدائه ، شهماً في ترفعه عن روح الانتقام والتشفي والإيذاء كما أساء إليه تحجره وعتوه وطفغيانه

ويطشه بأعدائه، وتشبهه برأيه، ورفضه سماع كلمة الحق المخلصة. التي يراد بها رده الى جادة الهدى والصواب، وقد عهد الناس الخلافة كريمة مؤمنة، لاستكبر عن نصيح، ولانتظني إذا ذكرت بأحكام شرع الله، وتعترف بالجميل لمن يسدد خطاها، ويبصرها بمواقع الزلل في تصرفها، ويدعوها الى الرجوع عنه^(١).

(١) - تذكر كتب الأدب والتاريخ قصصاً كثيرة عن شهامة أمراء بني أمية في الأندلس، وكرم نفوسهم، وتسامحهم، وانصياحهم لكلمة الحق، وقد اخترنا ثلاثاً من هذه القصص عن اعظم امراء بني امية نرونها فيما يلي :

قصة الحكم بن هشام مع طالوت بن عبد الجبار المعافري :

كان من جملة من أشاروا العسامة على الأمير الحكم بن هشام، ثالث أمراء بني أمية في الأندلس، يوم الربيض لـفقيه طالوت بن عبد الجبار المعافري (ويوم الربيض كان يوماً عصيباً على الأمير الحكم، اضطر فيه الى أن يقاتل بنفسه الثائرين عليه، الذين رموه بالزندقة، ومخالفة شرع الله، والاجترار على محارمه، وكانت ثورة أهل الربيض تهدد الحكم وحكمه، وحكم الأسرة الأموية بالزوال والنفاء). ولما انتصر الحكم على الثائرين، شرد بعضهم، وسجن بعضاً آخر. وفر الفقيه طالوت عن داره، ولجأ الى دار رجل يهودي، فاستضافه اليهودي عاماً كاملاً، أكرمه خلاها غابة الاكرام.

ولما هدأت الأمور استقل طالوت مقامه عند اليهودي، وكانت له معرفة بوزير الحكم أبي البسام، فقال طالوت لليهودي إنه يريد أن يتوجه الى بيت صديقه الوزير أبي البسام، فسأله اليهودي إن كان شعر بشيء من التقصير في خدمته، فقال لا وشكره على حسن ضيافته، فأصر اليهودي عليه أن لا يفعل فإنه لا يأمن عليه غدر الوزير، فأصر طالوت على الذهاب الى صاحبه أبي البسام.

وخرج طالوت بين العشاءين من إحدى الليالي، وذهب الى دار أبي البسام، فسأله هذا أين كان كل هذه المدة، فأخبره أنه كان عند رجل يهودي، فأمنه الوزير وطمأنه، وقال له إن الأمير نادم على ما كان منه. وبات طالوت عند الوزير ليلته تلك.

وفي الصباح خرج أبو البسام متوجهاً الى قصر الأمير الحكم، ووكل بطلوت من يحسن حراسته لكيلا يفر في غيبته من البيت، وظن أنه سيجد الكرامة والتقدير من الأمير على فعلته الخسيسة. وأخبر أبو البسام الحكم بأنه طالوت لي بيته، فقال له الأمير: وأين ظفرت به؟ فقال أنه لطفي عليه. فأمر الحكم باحضار طالوت الى مجلسه.

وفي مجلس الأمير سأل الحكم طالوت عن قصته، فأخبره بأنه اختفى في بيت رجل يهودي، وجاء هو بنفسه الى أبي البسام لما بينهما من صداقة قديمة، فاستاء الحكم من خيانة الوزير، وغدره

بصديقه وضيغه المستجير به ، والثلاث بكنته ، ثم من كذبه في الرواية التي قصها على الأمير عن رسول طالوت إليه . وقال له : يا أبا البسام رجل من اليهود حفظ فيه محله من الدين والعلم ، وخاطر بنفسه وأهله وماله معي ، وأردت أنت أن تنبشي فيما أنا نادم عليه ؟
ثم قال للوزير اخرج عني والله لا رأيت وجهك أبداً ، وعزله وعفا عن طالوت وأعادته الى داره مكرماً .

قصة الأمير الحكم مع قاضيه الجادل

كان في قرطبة قاضٍ ولاء الحكم بن هشام ، ثالث أمراء بني أمية في الأندلس ، القضاء فيها ، وكان رجلاً فاضلاً جريئاً لا يخاف في الحق لومة لائم . فجاءه يوماً رجل من كورة جيان يرفع إليه ظلامته ، بعد أن سمع بجرأته ، وصلابته في قول كلمة الحق . وقصة الرجل تتلخص في الآتي :
الرجل من كورة جيان ، وكانت له جارية رائحة الجاهل ، فأقدم أحد ولاء الأمير الحكم على اغتصابها منه ، وبقيت عنده مادام عاملاً في خدمة الحكم ، وصاحب الجارية لا يمر على التظلم من العامل ، مخافة أن يلحق به أذى ، ولما عزل العامل ، عمل على إرسال الجارية الى قصر الحكم لكيلا يفكر صاحبها في الاشتكاء عليه .

وعلم الرجل بمسير الجارية الى قصر الأمير في قرطبة ، فذهب الى القاضي يرفع ظلامته ، بعد أن سمع بجرأته في إقامة العدل . فكلفه القاضي بإقامة البيعة ، فشهد له من قبل علمه على المعرفة بما قال به ، وعلى معرفة عين الجارية ، فأوجب السنة أن تحضر الجارية الى مجلس القاضي ليتعرف عليها الشهود .

وكانت الجارية وقعت من نفس الحكم موقعاً عظيماً ، فدخل القاضي على الأمير وقال له : إنه لا يتم عدل في العامة دون إفاضة في الخاصة . وأخبره بقصة الجارية ، وخبره بين احضارها الى «نفس القضاء» ، وبين عزله من منصب القضاء . فقال له الحكم أو خير من ذلك . ثباع من صاحبها بالنسب ثمنها ، وأبلغ ما يسأله فيها . فقال القاضي للأمير : إن الشهود قد جاؤوا من كورة جيان يطالبون الحق في مظانته ، فلما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله . فلعل قاتلاً يقول : باع ما لم يملك بيع مقتسر على نفسه . ولا بد من إبراز الجارية أو تصير أمرك الى من أحببت .

فلما رأى الحكم إصرار القاضي على رأيه أمر باخراج الجارية من قصره ، فشهد الشهود على عينها ، وقضي بها لصاحبها . وقال له : إياك أن تبيعها إلا في بلدك لتقوى بذلك نفوس الرعية على طلباتهم . وعلى سعيهم في استخراج حقوقهم . فكبر القاضي في عيني الأمير الحكم كثيراً ، ولما توفي أكتأب الحكم لمصابه .

قصة الخليفة عبد الرحمن الناصر مع قاضيه المنذر بن سعيد

قالت الزهراء ، زوجة الخليفة الناصر لدين الله ، يوماً لزوجها : اشتجيت لوبنيت في مدينة سميتها باسمي ، تكون خالصة لي . فاختار الخليفة موقع المدينة وبنائها عليه في أطراف قرطبة ، وسماها مدينة الزهراء .

تعاظم الانبياء أيام حكم الطوائف

خرجت دولة الأندلس العظيمة، بعد ربيع قرن من الفتن المدمرة، مقسمة مجزأة، تقوم على أرضها عشرون دولة وأمارة ومملكة... وتقوم في مواجهتها أمارات اسبانية نشيطة، استطاعت خلال سني الفتنة في الأندلس، أن تعمل حثيثاً على إعادة ثقة الناس بأنفسهم، واحكام بناء دولتهم. وساعدها في إحكام بناء قوتها، وإصلاح

وقال مؤرخ تركي يصف بناء الزهراء : (كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر لم يخطر مثل حالها في ذهن بناء منذ برأ الله هذا الكون، ولا تمثل رسم كرسما في عقل مهندس منذ وجدت العقول). وتفيض القصص بأسهاب فيما أنفق في بنائها، ووصف بحاسنها. وكان قاضي قرطبة المنذر بن سعيد يرى أن زهرة الزهراء صائرة الى ذبول، فمن الاسراف أن يستغرق الرجل العظيم أوقاته في إيجاد ما ستذهب به يد الفناء.

وبعد أن انتهى الخليفة من بناء الزهراء، اهتمك في استكمال زخرفها، حتى تعطل مرة عن ادراك صلاة الجمعة في مسجد قرطبة. فلما احتفل بالافتتاح الزهراء قام المنذر بن سعيد خطيباً في المسجد، والخليفة حاضر، فابتدأ خطابه بتلاوة الآيات التاليات :

﴿ أتنبئون بكل ربيع آية تعيثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الله الذي أمدكم بها تعلمون، أمدكم بأموال وبنين، وجنات وعيون، إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

ثم أتبع ذلك بخطاب طويل أفاض فيه وأحسن، وأمعن في ذم القصر المشيد، والاستغراق في زخرفته، والسرف في الانفاق عليه، فجرى ذلك طلقاً، فاستخذى الخليفة وبكى، وندم على ما سلف منه، واستعاذ بالله من سخطه، واستعصمه برحمته، إلا أنه وجد على المنذر بن سعيد للفظه الذي قرعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصرافه، وقال له : والله لقد تعمدني منذر بخطبته وأسرف في ترويعي، وأفرط في ترويعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، وصياني عن توبيخي، ثم استشاط وأقسم أنه لا يصلي خلفه الجمعة أبداً.

فقال له ابنه الحكيم : وما الذي يمنعك من عزل منذر بن سعيد، والاستبدال به؟ فزجره الخليفة وانتهره، وقال له :

(أمثل ابن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه، لأم لك، يُعزَلُ في إرضاء نفس ناكبة عن الرشيد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون. وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه شفيماً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وقد نفسي، وكاد يذهب بها. والله لو أجد سبيلاً الى كفارة يمضي بملكي. بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، لما أظننا نعتاض منه أبداً.

حالتها، لجوء الحكام المسلمين إليها جميعاً تقريباً في طلب العون والنصرة على إخوانهم المسلمين، وتسابقهم الى كسب ودها عن طريق التباري في النزول لها عن الحصون والمدن والقلاع والأراضي، وعن طريق تقديم مبالغ ضخمة من المال إليها ثمناً لهذا المعون الخادع.

وكان جميع الذين ظهروا بعد سكون الفتنة على رأس الإمارات الإسلامية تقريباً من نتائج هذه الفتنة، ومن تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الاحزاب والجماعات التي أوضعت فيها، وعملت على التخريب وإذكاء نيران الأحقاد بين المسلمين.

ولم يكن بينهم من عرف قبل الفتنة بسابقة مذكورة في الجهاد، أو بعصية قوية تستجيب له، أو بمنزلة رفيعة في المجتمع، أو بمقام رفيع في الدين والعلم والفضائل.

ولم يشذ عن ذلك إلا أبو الحزم بن جهور، الذي كان رجلاً فاضلاً لم يشأ أن يشارك في الفتنة، ولم يكن له مطعم في مركز أو منصب أو مال فانزوى في بيته بعد أن ألمه كثيراً ما رأى من فساد، وتكالب على المال والجاه والمناصب، كما انزوت ألوف كثيرة من أمثاله من كرام الناس وفضلائهم، لكيلا يشاركوا في زيادة الفساد، والتسبب في مزيد من الانقسام في دولة الإسلام، فجاءه أهل الرأي في قرطبة يرجونه الخروج من عزلته التي فرضها على نفسه، وأن يتولى أمر قرطبة ليضع حدا للفتن المتتالية. وقبل في آخر الامر، بعد أن رأى إجماع أهل الفضل والتقوى عليه، ولكنه اشترط أن يكون معه في الحكم أناس من وجوه الناس، يشاركونه الرأي والمشورة، وتحمل المسؤولية، لكي تستقيم الأمور في قرطبة، فكان له ذلك. وهكذا نعمت قرطبة بالأمن والاستقرار بعض الوقت نتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعتها جماعة الحكم فيها.

أما المناطق الأخرى فكان حكامها ممن شاركوا في الفتنة، وتعاونوا مع المغامرين والانتهازيين والمخربين، الذين كانوا يبحثون عن أكثر الحكام قدرة على تأمين مصالحهم الخاصة إذا وصلوا يوماً إلى الحكم. وكانت الساحة قد خلت، آخر أيام الفتنة، من كرام الناس وشرفائهم، وأهل الدين والتقوى منهم، بعد أن اضطهرهم بطش المنصور إلى الانزواء وإلى الابتعاد عن الحياة العامة، فاسرع المغامرون يملؤون الساحة، ويعملون على استغلال الفوضى التي رافقت الفتنة. وتحيرت كل من الجماعات المغامرة زعيماً لها يسير على النهج الذي يرسومونه له ليصلوا إلى غايتهم، وهي الفوز بحكم قطعة من الأرض يتمتعون فيها بخيرات الحكم دون مشاركتهم فيها.

وحينما هدأت الامور، واستقرت أوضاع الامارات الأندلسية بعض الشيء، كان من بين هذه الامارات إمارات صغيرة لا يتجاوز سلطانها حدود بلدة واحدة مع ضواحيها، بينما كان يمتد سلطان إمارات أخرى الى عدد قليل من المدن وملحقاتها، وكانت هناك إمارات واسعة الأرجاء كإمارة أشبيلية وسرقسطة.

وكانت الإمارات الصغيرة مضطرة إلى البحث عن يحميها من مطامع جيرانها المسلمين في الإمارات الأكثر قوة وأهمية. . . ولم يكن أمامها إلا خيارين :
أ - إما أن تلجأ الى إمارة إسلامية قوية قادرة على أن توفر لها الحماية من الاعتداء، والتهديد الذي يمكن أن تتعرض له من جيرانها المسلمين، ومن الاسبان على سواء ولم يكن هذا أمراً ميسوراً، فالإمارات الإسلامية الكبيرة كانت دائماً تتطلع الى ابتلاع الامارات الإسلامية الصغيرة، وكانت تعمل لذلك، وكانت الحروب لا تنقطع بين الامراء المسلمين بسبب هذه الاطماع. فلجؤ إمارة صغيرة، بطوعها واختيارها، الى إمارة كبيرة طلباً للحماية يعني أنها تقدم نفسها لقمة سائغة لذوي الاطماع ليقضوا عليها دفعة واحدة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الامارات الإسلامية لم تكن هي قادرة على حماية نفسها، ولا حماية غيرها، من طغيان الاسبان، واعتداآتهم، لاسيما بعد أن تسلطوا على الحكام المسلمين جميعاً، وأرهبوهم خلال سني الفتنة.
ب - وإما أن تلجأ الى الامارات الاسبانية تطلب منها الحماية لقاء دفع جزية سنوية، ولقاء تنازلات عن بعض الحصون والقلاع بين الحين والآخر، والمساهمة في الحروب التي تشنها الامارات الاسبانية على المسلمين، أو على الأقل الامتناع عن عون المسلمين في حروبهم مع الاسبان.

وهذا يقتضي عن محالفون الاسبان أن يبرهنوا على حسن نواياهم، واخلاصهم لحمايتهم الاسبان، وذلك عن طريق منع المتطوعة من أبناء الامارة من الخروج منها للانضمام الى أنحوائهم المسلمين في الامارة الاخرى التي يقاتلها الاسبان. وكذلك عن طريق منع المتطوعة من أبناء الامارات الإسلامية الأخرى من عبور أرض الامارة الإسلامية المتحالفة مع الاسبان للانضمام الى الجيوش الإسلامية التي تقاتل الاعداء.

وكان حكام الامارات الإسلامية الصغيرة لا يجهلون المطامع الاسبانية في انتزاع

أراضيهم من أيديهم ، ولكنهم كانوا يرون أن هذه المطامع متراخية بعيدة الأجل ،
لا تثير القلق العاجل . فالاسبان إذا فكروا بالغدر بهم ، وابتلاع إمارتهم بتامها كان
ذلك نذيراً للامارات الأخرى يحملها على التجمع ومواجهة المطامع الاسبانية صفاً
واحداً ، كما حدث يوم الزلاقة . وهذا بلا شك أمر لا يريده الاسبان ، وكان الشيء
المعقول ، الذي يمكن أن يقع من جانب الاسبان ، هو أن يتبعوا بلداً من هذه
الإمارات ، ومرة أخرى ينتزعون حصناً أو موقعاً هاماً من إمارة أخرى ، ثم ينتزعون من
إمارة أخرى اقليماً وأراضي . . . ثم بعد ذلك يطالبون برفع الجزية المفروضة على
امارات أخرى . . . الخ ومثل هذه السياسة ، المتراخية في الانزعاج ، لم تكن لتثير قلق
الحكام المسلمين ، ولم تكن لتدفعهم بضغط من شعوبهم الى الاجتماع ، والتفاهم ،
وتناسي الأحقاد القديمة ، للوقوف في وجه اطماع الاسبان ، لأن مثل هذه السياسة
لا تهدد بقاء الحكام ، ووجودهم حكماً بصورة عاجلة .

ولهذا فإن الحكام المسلمين فضلوا - بعد أن وازنوا بين مخاطر هذين الخيارين -
طلب حماية الاسبان لهم من عدوان ومخاطر إخوانهم المسلمين ، في الإمارات الكبرى ،
لأنهم اعتقدوا أن مخاطر الحماية الاسبانية أخف عليهم من مخاطر الحماية الاسلامية ،
التي يمكن أن تقضي عليهم بالكلية ، ودفعة واحدة ، فلا يستطيعون بعد ذلك التمتع
بمميزات الحكم ، وخيراته ومنافعه ، بينما تؤدي الحماية الاسبانية الى ابتلاعهم على
دفعات متباعدة وبصورة جزئية ، ومثل هذا الابتلاع المتراخي في الزمن يترك لهم مدناً
وحصوناً وأراضي يحكمونها ، ويتمتعون بخيراتها وقتاً طويلاً .

وأصبحت الامارات الاسلامية الكبيرة - وبعد أن عاشت فترة طويلة تناسب
إخوانها المسلمين العداء ، وتستنزف قواها وقواهم في الحروب والصراعات الاخوية ،
وبعد أن أرهقت نفسها في مواجهة الاسبان ، ومحاربتهم ، ورد اعتداءاتهم ،
واستطاعتهم على المسلمين - تشعر أن الامارات الاسبانية غدت أقوى منها ، بعد أن
انضم اليها حكام مسلمون كثيرون ، وملؤوا خزائنها بالجزى المفروضة عليهم ،
وبالعون الذي فرضت مفاوضات الحماية على المسلمين تقديمه للاسبان في حروبهم ،
لذلك حاول بعض الحكام المسلمين التفاهم مع اخوانه المهديين مثلهم ليقفوا ضد
الاسبان فلم يفلحوا ، فاضطروا مكرهين الى التفاهم مع الاسبان للكف عنهم لقاء
دفع الجزية . وفكر بعض الحكام المسلمين ، بالتفاهم مع حلفائه الاسبان ، في اقتسام
أراضي امارات اسلامية أخرى ، وفي ظنهم أن ضم إمارة او بعض إمارة اليهم يجعلهم

اكفيا لمواجهة الاسبان في ميدان الحروب، واقتسم المعتمد بن عباد فعلاً أراضي إمارة طليطلة مع الاذفونش ملك قشتاله، واحتل الاسبان نتيجة لهذا التحالف مدينة طليطلة عاصمة بني ذي النون، ولكن الاسبان لم يتركوا المعتمد بن عباد بما احتل من أراضي إمارة طليطلة فجاءوه في العام التالي يطلبون منه الحساب، فلم يجد المعتمد بداً من اللجوء الى يوسف بن تاشفين، وكانت معركة الزلاقة، وانتصر فيها المسلمون. ولكن المسلمين سرعان ما شعروا بخطر المرابطين، عدة نصر الزلاقة، فصاروا يتصلون سراً بالاذفونش، ويمدونه بالمال، ووسائل القوة، ليستطيع الوقوف على قدميه أمام المرابطين بعد أن هدته هزيمة الزلاقة، وأصغرت شأنه.

وهكذا بدأ التسابق بين الأمراء المسلمين جميعاً لكسب ود الاسبان، ومخالفتهم، وإعلان الولاء والخضوع لهم، وصاروا يسرفون في دفع الجزى والاتاوت إليهم ويتسابقون في النزول لهم عن المدن والحصون والأراضي بسخاء غريب، ويسارعون بجيوشهم لعون الاسبان في قتالهم لآخوانهم المسلمين.

وحينما دخلت معاهدات الحماية والتعاون بين الإمارات الإسلامية والاسبان حيز التطبيق العملي، ثارت مصاعب جديدة لم تكن في الحسبان إذ وقفت الشعوب في وجه حكامها معارضة في قبول هذه المخالفات الخطيرة لشرع الله التي تتمثل في النزول للاسبان عن المدن والحصون والأراضي الإسلامية، وفي إرسال الجيوش لعون الاسبان في قتالهم لآخوانهم المسلمين، وفي منع المتطوعة من الإمارة من الذهاب لعون الاخوة الذين يقاتلون الاسبان، أو من المرور في أرض الإمارة للوصول الى ميدان المعركة مع الاسبان.

وأصبح الشعب يرى بعينه انضمام حكام مسلمين مع جيوشهم الى الجيوش الاسبانية في هجومها على أراضي إسلامية، فيساهمون في قتل آخوانهم المسلمين، وهتك أعراضهم، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم وذرائعهم، ثم يتسلمون المدن والحصون ليسلموها طائعين تخاريين للاسبان، وبذلك تخرج الى الأبد من ملك المسلمين. وأصبح الشعب يرى تنازل الحكام المسلمين، بين الحين والحين، عن المدن والقلع والحصون للاسبان لقاء مشاركتهم للحكام المتنازلين في الهجوم على الأراضي الإسلامية الأخرى. وحينما يتحقق النصر كان الاسبان يتسلمون القسم الأعظم من الغنائم والأسارى والسبياء، كما يتسلمون بعض المدن والأراضي المفتوحة حصّة خالصة لهم من المغنم لقاء عونهم.

وأصبح الشعب يرى الحكام ، وهم يرمقون رعييتهم في طلب المال لدفع الجزى
للاسيان ، وأصبح الشعب يرى فصائل الجند الاسبان يستقرون في المدن الاسلامية
لحماية الحكام من سطوة شعوبهم . وتستطيل هذه الفصائل على المسلمين في بلدهم ،
وتعاملهم بازدراء واستخفاف ، والحكام المسلمون ساكتون على هذا الإذلال ،
ولا يفعلون شيئاً لوقف هذه الاعتداءات .

ورأى الشعب إقدام الحكام المسلمين على منع المتطوعة المسلمين من المرور في
أراضي إمارتهم لنجدة بلد مسلم ينسخ عليه الاسبان يريدون احتلاله ، لأن السماح
للمتطوعة بالمرور من أراضي الإمارة يعتبر عملاً عدائياً ضد الاسبان ، يتناقض مع
معاهدة التحالف القائمة .

ورأى الشعب أشياء أخرى كثيرة تصدر عن الحكام المسلمين ، وهي تتنافى مع
مبادئ الإسلام ، وتتناقض معها تناقضاً صارخاً ، ولا ينبغي لمسلم مخلص السكوت
عليها :

فالسكوت على حاكم ينهب مال الشعب ويذرّه وينفقه على ملاذّه وفي الوجوه
الاخرى التي لا تنفع الأمة إثم .

والسكوت على تميزّة الدولة ليحكمها أفراد حسب أهوائهم إثم .

ومشاركة الكفار في قتال الإخوة المسلمين إثم .

والسكوت على الخضوع للاعداء ودفع الجزية إليهم إثم .

ومنع المتطوعة من أداء واجب الجهاد ونصرة الإخوة المسلمين الذين يجاهدون

الأعداء إثم .

والسكوت على التنازل عن أراضي المسلمين ، وحصونهم ، وقلاعهم ،

ومدّنتهم ، للاعداء إثم .

ولذلك بدأ الشعب يتألم ، ويتذمر من الاوضاع القائمة في الامارات

الاسلامية ، ويتنقدها أشدّ الانتقاد ، ويسعى جاهداً للتخلص منها .

وشعر الحكام بالمخاطر الجسام التي يمكن أن يتعرض لها كيانهم إذا استيقظت

من جديد روح الإيمان في النفوس ، وسمح لرجال الدين بحرية قول كلمة الشرع

للسّعب حول ما يجري ، وبحرية المطالبة بعرض أعمال الحكام على أحكام الشريعة

ومبادئ الإسلام ، لاطّهار بعدها عنها .

وشعر المرتزقة والمغامرون ، الملتفون حول الحكام - وهم وحدهم المستفيدون من

الأوضاع المتردية في الامارات الإسلامية - بالخطر من عودة أهل الإيثار الى ساحة العمل، لأن الجماهير المؤمنة لا تلبث أن تلتفت حولهم، وتنسف الأوضاع القائمة، وتقضي على الحكم ومرزقتهم، وتعيد وحدة الأندلس الى ما كانت عليها، وتعود كتائب المجاهدين الأبطال الى الظهور من جديد، وهي التي اذقت الاسبان وقتاً طويلاً بأس الإسلام وأهله.

وشعر المستعربون في الداخل بالمخاطر التي تتهددهم من جراء استيقاظ الحماسة الإسلامية في الصدور، مخافة أن يؤدي ذلك إلى القضاء على الحكومات الخائفة المستدلة للاسبان، وإلى القضاء على الفساد والفوضى وأهلها، وإلى لم شعث الأندلس المتبعثر من جديد، وفي ذلك ما فيه من الخطر العظيم على الامارات الاسبانية التي يستطيلون هم على من حولهم من المسلمين بالانتساب اليها، والعمل لحسابها. والافادة من جاهها ونفوذا.

كما شعر الاسبان في الشمال بالمخاطر العظيمة التي تتهددهم من عودة المسلمين الى دينهم مرة أخرى، ومن عودة وحدة الأندلس. ومن استيقاظ روح الجهاد، وحب الموت والاستشهاد في سبيل اعلاء كلمة الله، والاسبان لا يجهلون الحقائق التالية : - إن الأندلس الموحدة أكثر قوة من الامارات الاسبانية، وأكثر مالاً ورجالاً، وأكثر تقدماً وازدهار في العلوم والصناعات والزراعة والتجارة وفي الميادين الاقتصادية والعسكرية الأخرى.

- إن كتائب المطوعة من أهل الرباط كان لهم بلاء عظيم في الحروب السابقة التي قامت بين المسلمين والاسبان، وإن عودة الوحدة الى الأندلس سيعيد بعث هذه الكتائب من جديد، وفي ذلك خطر لا تستطيع الامارات الاسبانية احتماله.

- ان عودة الوحدة للأندلس، وعودة قوتها إليها، سيقضي على الابتزاز الذي كانت تمارسه الامارات الاسبانية على المسلمين. من حلقهم على دفع الجزى والاتاوات، وحلقهم على التنازل عن المدن والحصون والقلاع.

وهذا الابتزاز هو الذي كان يمد الامارات الاسبانية بالموارد المالية، وباسباب القوة، فإذا انقطعت هذه الموارد الضخمة فإن الامارات الاسبانية ستعاني عجزاً مالياً كبيراً، وستعود الى حالة الضنك والحرمان التي كانت تعانيها قبلاً، وتعجز بالتالي عن تأمين النفقات للجيش المقاتلة فيها.

لذلك اجتمعت كلمة جميع الذين يتضررون من عودة انبعاث روح الاسلام في

نفوس الاندلسيين من جديد: (الحكام المسلمون والامارات الاسبانية، والمستعربون في الداخل، والغامرون الملتفون حول الحكام المسلمين، والمرتزة والخونة وأهل النفاق، وجميع المستفيدين من الأوضاع القائمة في الأرض الاسلامية -) على العمل على مقاومة هذا الانبعاث الجديد، الذي يهددهم جميعاً.

وتولى الحكام المسلمون مباشرة الاضطهاد لمنع استيقاظ روح الاسلام في الصدور، وقد فضلوا الاستخذاء أمام الاسبان، والتنازل لهم عن الحصون والقلاع، وتسليمهم الأرض الاسلامية قطعة قطعة، ليحولوها الى النصرانية، وليقضوا على الاسلام والمسلمين فيها قضاء تاماً، على أن يتنازلوا هم عن شيء من أنانياتهم، وأن يتناسوا أحقادهم على إخوانهم، وأن يوحدا كلمتهم مع الحكام الآخرين لمواجهة المخاطر التي يمثلها الاسبان في الشمال، فقد كان ضياع الأندلس وأهلها أهون عليهم من أن يتخلوا عن كراسي الحكم، أو يقللوا من بذخهم وانفاقهم على ملاذهم ومبازلهم، وهكذا استمر هؤلاء الحكام في غيهم وطفانهم على الشعوب، حتى دهمتهم الأحداث فتركوا كل شيء للاسبان، وانسحبوا الى أرض بعيدة يتابعون عيشهم الرغيد بما نهبوه من أموال الشعوب، وتركوا شعوبهم لمصيرها أمام الاحتلال الاسباني وهكذا تسارع بنيان الأندلس العظيمة الى الانهيار.

لقد أقام الاسلام دولة العرب حينما وحد الاسلام كلمتهم، وهذب نفوسهم، ونقاهما من أدران الفرقة والضلالة والجهالة، وجعل لهم هدفاً سامياً يسعون الى تحقيقه، ويموتون في سبيله. ألا وهونشردين الله في الأرض، وإقامة دولة العدالة والمساواة وسيادة القانون والائلاء الانساني.

وعُدَّ الحكام المسلمون في الاندلس، في اواخر أيامهم، الاسلام عدواً خطيراً لهم يهدد وجودهم بالفناء. ويقضي على مبازلهم ومفاسدهم، فحاربوه وأهله، وضيقوا على أهله، وأخرسوا السنة المؤمنين التي كانت تطالب بتصحيح المسار، وتقويم الاعوجاج، فانهارت دولتهم، ولم يجدوا حولهم من يمد اليهم يد العون في محنتهم، فقد كان أهل النجدة والشهامة والايان المخلص غائبين عن هذه النهاية المؤلمة، ولم يكن للمغامرين والمتنفعين وزعانف الناس الذين استند إليهم الحكام قضية يدافعون عنها، فقد كانوا طلاب منافع، وأرباب مصالح خسيسة، حصلوا عليها فلم يعد لهم ما يموتون من أجله وفي سبيل الدفاع عنه.

لقد نسي حكام الأندلس، في أواخر أيامهم، الله فانساهم أنفسهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الاندلسيون يرثون أنفسهم

نورد في هذا القسم قليلاً من شعر الأندلسيين في رثاء أنفسهم وأوطانهم ودينهم، ومن الصعب جداً على الانسان ان يتبع جميع ما قيل في هذه المأساة الكبرى التي امتدت قروناً طويلة.

٣٨٤ - قصيدة ابن الأبار:

ألح ملك اراغون على مدينة بلنسية في عام ١٢٣٢م (٦٣٦هـ)، فأوفد أميرها زيان بن أبي الحملات بن الحجاج بن مردنيش، الكاتب الحافظ أبا عبد الله بن الأبار القضاعي، إلى صاحب افريقيا (تونس)، أبي زكريا بن أبي حفص، يستجده، فقام ابن الأبار بين يدي أمير تونس وأنشد قصيدته السنية المشهورة:

أدرك بخيلك، خيل الله، أندلسا إن الطريق إلى منجياتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت فطالما ذلت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إمام بازقة يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة اجحاف نائبة تشي الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم، لاناالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها من حل مبتسأ جدلان وارتمل الإيمان مبتسأ
وصيرتها العوادي العاثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
يا للمساجد عادت بعدها بيعاً ولئذاء يرى أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعا غنمت أيدي الربيع بها ما شئت من حلل موشية وكسا
كانت حدائق للاحداق مونة فصوِّح النضر من أدواحيها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب يستوقف الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الضئ، وأحربها، عيث الدبا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها نضرأ وأين غصن جنيناه بها سلسا
عما محاسنها طاغ أتيج لها ما نام عن هضمها عيناً وما نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها مغادر الشمل من أعلامها خنسا

خلا له الجو وامتدت يده إلى
 حُلّ جبلها أيها المولى الرحيم فما
 وأحي ما طمست منها العدة كما
 أيام صرت لنصر الحق مستبقاً
 وقمت فيها بأمر الله منتصراً
 تمحو الذي كتب التنجيم من ظلم
 وتقنصُ الملك الجبار مهجته
 هذي رسائلها تدعوك من كتب
 وافتك جارية بالنجع راجية
 خاضت خضارة يعلوها وتخفّضها
 وربما سبحت والريح عاتية
 تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي
 ملك تقلدت الأيام طاعته
 من كل غاد على يمناه مستلماً
 مؤيداً لو رمى نجماً لاثبته
 إمارة يحمل المقدار رايتها
 يدي النهار لها من ضوئه شنباً
 كأنه البدر والعلياء هالته
 تدبيره وسع الدنيا وما وسعت
 قامت على العدل والإحسان دولته
 بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا
 فاستقبل السعد وضاحاً وأسرته
 وقبل الجود طفاحاً غواربه
 يا أيها الملك المنصور أنت لها
 وقد تواترت الأنباء انك من
 فاطمىء الفيلق الجرار أرضهم
 وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت
 هم شيعة الأمروهي الدار قد نهكت
 فاملاً هنيئاً لك التمكين ساحتها
 واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه

إدراك ما لم تطأ رجلاه غتمسا
 أبقي المراس بها حبلاً ولا مرسا
 أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
 وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
 كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
 والصبح ماحية أنواره الغلّسا
 يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
 وأنت أفضل مرجو لمن يثسا
 منك الأمير الرضا والسيد الندسا
 عابه فتعاني اللين والشرسا
 كما طلبت بأقصى شدو الفرسا
 حفص مقبلة من تربه القديسا
 دنيا ودينافغشاها الرضاليسا
 وكل صاد إلى نعماء ملتمسسا
 ولودعا أفقاً لبي وما احتبسسا
 ودولة عزها يستصحب القعسا
 ويطلع الليل من ظلماته لعسا
 تحف من حوله شهب القنا حرسا
 وعرف معروفه واسى السورى وأسا
 وأنشرت من وجوه الجود ما رمسا
 آماله ومن العذب المعين حسا
 من صفحة فاض منها النور وانعكسا
 من راحة غاض فيها البحر وانغمسا
 عليها توسع أعداء الهدى تمسا
 يحيى بقتل ملوك الصفراء ندلسا
 حتى يطاطىء رأساً كل من ركسا
 عيونهم ادمعا تبكي زكا وخسا
 داء متى لم يباشر حمله انتكسا
 جردا سلاهب أو خطية دعسا
 لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا

وفي الفترة التي ألح فيها الاسبان على بلنسية كثرت قصائد الأندلسيين في استنهاض الهمم، ومن ذلك قصيدة أبي جعفر الوقشي البلنسي الذي نزع إلى مالقة بعد سقوط بلنسية. وبما جاء في هذه القصيدة:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدي فأبصر شمل الكاشحين طريدا
وهل بعد يقضى في العدو بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبوعقوب في شنت ياقيب يعيد عميد الخارجين عميدا
ويلقي على افرنجهم عبل كلكل فيتركهم فوق الصعيد همدا
يفادرهم قتلى وجرحى مبرحاً ركوعاً على وجه الفلا وسجودا
ويفتك من أيدي الطفغة نواعيا تبدلن من نظم الخجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما سحبن من الوشي الرفيق برودا
وغير منهن التراب ترائباً وخذد منهن الهجير خدودا
فحقّ لدمعي أن يفيض لأزرق تملكها دمع المدافع سودا
ويالغ نفسي من معاصم طفلة تمحاور بالقيد الأليم نهودا
ويا أسفي ما أن يزال مردداً على شمل أعياد أعيد بذيدا
وأما بمد الصوت منتحباً على خلو ديار لو يكون مفيدا.

* *

ومن ذلك أيضاً القصيدة الطويلة التي خطب بها أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تونس، عند أخذ بلنسية. ومطلعها (نادتك أندلس فلب نداءها، ..).

وبما جاء فيها:

صرخت بدعوتك العلية فآخُبها من عاطفاتك ما بقي حواءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة ضمنت لها من نصرها إساءها

وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى سبل الضراعة يسلكون سواءها
دُفِعوا لأبكار الخطوب وعونها فهم الخواة الصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت سراءها وقضتهم ضراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لهم إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رِشْ أيها المولى الكريم جناحها واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشائشها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو يحيى المرتجى إحياءها
يا حترتي لعقائل معقولة شتم الهدى نحو الضلال هذاءها
أيه بلنسية وفي ذكراك ما يجري الشؤون دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معامد شَبِّ الأعاجم دونها هيجاءها
والى رباً، وأباطح لم تعر من حلل الربيع فصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلاها وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبي مآذن كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومنها:

مولاي هاك معادة أنباؤها لتنبيل منك معادة أبناءها
جَرَّدْ ظباك لمحو آثار العدى تقتل ضراغمها وتسبي ظباءها
واستدع طائفة الإمام لغزوها تسبق إلى أمثالها استدعاءها

- ٣٨٧ -

ومن أشهر ما رثى به الأندلسيون أنفسهم، القصيدة التي وجدت في مخطوط
أندلسي مؤرخ في شعبان ٨٩٧هـ (حزيران ١٤٩٢م) ولم يعرف شاعرها^(١).

أحقاً خبا من جو رونده نورها وقد كسفت بعد الشمس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزت منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة سقى عهدكم مزن يصبوب نميرها
أحقاً أخلاقي القضاء أبادكم؟ ودارت عليكم بالصروف دهورها؟

١ - تقع الرثية في أكثر من مئة بيت نشرها صويلح محمد نقلا عن مخطوط وجده في مكتبة الجزائر ،
أورد الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الأندلس قسماً منها (ص ٢٥٣ وما يليها) .

فقتل وأسر لا يفادى وفرقة
فواحسرتا كم من مساجد حُوت
ووالسفا كم من صوامع أوحشت
فمحارباها يشكو لمنبرها الجوى
وكم طفلة حسناء فيها مصونة
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة
لها روعة من رقعة البين، دائم
وكم من صغير مات في حجر أمه
وكم من صغير بدّل الدهر دينه

لاندلس ارتجعت لها وتضعضعت
حمازلها مصدورة وبطاحها
تهالماها مفجوعة ونجودها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
فأحياؤها تبدي الأسى وجمادها
فالملة الحسناء ثكلى أسيفة
وجُزّت نواصيها وشكّت يمينها
وقد كانت الغربية الجنن التي
وبلّش قطعت (قطّعت) رجلها يمينها
وضحّت على تلك الشنيات حجرها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر
الا ولشقف ركب الأسى بمعالم
بدار العملا حيث الصفات كأنها
محل قرار الملك شرناطة التي
تربك الأسى أعلامها وهي تُشعّ
ومأمومها سامي الحجى وإمامها
و (بسطة) ذات البسط ما شعرت بها

وحق لديها محوها وذورها
مدائن موتورة وثورها
وأحجارها مصدوعة وصخورها
ملابس حسن كان يزهو حورها
يكاد لفرط الحزن يلدو ضميرها
قد استفرغت قتلا وجرحا حجورها
وبدلت الويل المبين سرورها
تقيها فأضحى جنة الحرب سرورها
ومن سريان الداء بان قطورها^(١)
فأقفر مفاها وطاشت حجورها
فقد خف ناديا وجف نظيرها
قد ارتج باديا وضج حضورها
من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
هي الحضرة العليا زهتها زورها
ومنبرها مستعبر وسريرها
وزائرها في مأتم ومزورها
دهاها وأنى يستقيم شعورها

١ - وردت الكلمة (قطعت) في الكتاب، وبها لا يستقيم الوزن ولعلها (قطت) ومعناها قطعت.

وما أنس لا أنس (المرية) إنها قتيلة أوجال أزيل عذارها^(١)
منازل آبائي الكرام ومنشئي وأول أوطان غذتني بخيرها*

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبْلُ بها جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تنمحي إلا بمحو أصولها ولا تنجلي حتى تُحْطَ أصولها
معاشراًهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسم ظهورها
أصاب منار الدين فانهك ركنه وزعزع من اكنافه مستطيرها
ألا واستعدوا للجهاد عزائماً يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها إلى الله من تحت السيوف مصرها
تروم إلى دار السلام عرائساً على الله في ذاك النعيم مهرها

- ٣٨٨ -

في صفر من عام ٦٧٤هـ ، جاز أمير المغرب أبويعقوب إلى الأندلس لانجاد
ابن الأحمر أمير غرناطة ، وكان ابن الأحمر قد استغاث به بقصيدة من نظم كاتبه عمر
ابن المرابط ، وقد جاء في هذه الاستغاثة :

هل من معين في الهوى أو منجد من متهم في الأرض أو من منجد
يا أمل النصر العزيز على العدا أجب الهوى تسعد به وتؤيد
يا من يقول غداً أتوب ولا غد ألدبك علم أن تعيش إلى غد
لا تغتر بنسيئة الأجل الذي إن لم يحن لك نقده فكان قد
ومنها :

كم جامع فيها أعيد كنيسة فاهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفاً عليها اقفررت صلواتها من قانتين وراكعين وسجد

١ - وردت في القصيدة أسماء بعض المدن الأندلسية وهي (بلش) و (المتكب) و (بسطة) و (المرية) .
* لعلها (غذاني خيرها) وبها يستقيم الوزن . ويلاحظ ان هذا البيت والتالي له قد غيرت قافيتهما ،
وقد تكون قافية هذا البيت (عذيرها) وقافية الآخر خيرها .

كم من أسير عندهم وأسيرة فكلاهما يبغى الفداء وما فدى
 كم من وليد بينهم قد ود من ولداه رداً أنه لم يولد
 كم من تقي بالسلاسل موثق يكي لأخر في الكبول مقيد
 وشهيد معترك توزعه الردى ما بين حذئي ذابل ومهند
 ضجت ملائكة السماء لخالهم وبكى لهم من قلبه كالجلمد
 أفلا تذوب قلوبكم إخواننا بما دهانا من ردى أو من ردى
 أكذا يعيث الروم في إخوانكم وسيوفكم للثأر لم تتقلد
 أين العزائم ما لها لا تقتضي هل يقطع الهندي غير مجرد
 أبني مريم أنتم جيراننا وأحق من في صرخة بهم ابتدي
 كتب الجهاد عليكم فتبادروا أسدا إلى الغرض الأحق الأوكد
 ومنها :

الله في نصر الخليفة موعد صدق فثوروا لانتجاز الموعد
 هذي الثغور بكم إليكم تشتكي شكوى العديم إلى الغني الأوجد
 ما بال شمل المسلمين مبدد فيها وشمل الضد غير مبدد
 أنتم جيوش الله ملء فضائه تأسون للدين الغريب المنرد
 ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا العذر غير محمد
 إن قال لم فرطتم في أمي وتركتموها للعدا والمعتدي
 تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

- ٣٨٩ -

حينما اشتد الخطب على الثائرين الأندلسيين في ثورتهم الكبرى وجه بعضهم
 رسالة الى السلطان بيازيد العثماني يستصرخه لنجدة الأندلس، ويشرح له حالها، وما
 أناخ عليها من عظيم المصائب، وهي على ركافة شعرها، تعتبر أصدق تصوير لمأساة
 الشعب الأندلسي المنكود الحظ. وقد نشرها المقرئ في كتابه (أزهار الرياض) في
 الصفحة ١٠٨ وما يليها من الجزء الأول.

الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز
 أنصارها، وأذل عدائها، حضرة مولانا وعمدة ديننا وديانا، السلطان الملك الناصر،
 ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، قانع أعداء الله الكافرين، كهف
 الاسلام وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم،

ملك العرب والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا وكهفنا ، وغياثنا ، مولانا (أبو يزيد) ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، يخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف له به الأجر الجزيل في الدار الآخرة والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، مجردة على أعداء الدين من بأسها ، ما يروي صدور السمر الصفاح ، والسنية السلاح ، باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأجاير ، مفارقة الأرواح والأجساد ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد :

سلام كريم دائم متجدد أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلو ومن البس الكفار ثوب المذلة
سلام عن من وسع الله ملكه وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي في دار ملكه قسطنطينة أكرم بها من مدينة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس في الغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر وبحر عميق ذو ظلام ويلة
سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيرهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشف على خجلة الاعلاج من بعد ستره
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم (الباط) قهراً لخلوة^(١)
سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم جيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم وندعو لكم بالخير في كل ساعة

شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا من الضر والبلوى وعظم الرزية
عُدنا ونصّرنا ويُدل ديننا ظلمنا وعمولنا بكل قبيحة
وكننا على دين النبي محمد نقاتل عباد الصليب بنية
ونلقى أسوراً في الجهاد عظيمة يقتل وأسر ثم جوع وقلة

١ - الباط - وقد تكرر ورود هذه الكلمة في هذه القصيدة - تعني القيس ، وهي مأخوذة عن الكلمة الاسبانية (أبات) (ABBATE) ، وهي محرفة عن الكلمة العربية (ابتي) .

فجاءت علينا الروم من كل جانب ومالوا علينا كالجراد بجمعهم فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم وفرسانهم تزداد في كل ساعة فلما ضعفنا خيموا ببلادنا وجاؤوا بأنفساط عظام كثيرة وشدوا عليها في الحصار بقوة فلما تفانت خيلنا ورجالنا وقتل لنا الأقوات واشتد حالنا وخوفاً على أبنائنا وبناتنا على أن نكون مثل من كان قبلنا ونبقى على آذاننا وصلاتنا ومن شاء منا البحر جاز مؤمناً فقال لنا سلطانهم وكبيرهم وأبدى لنا كتاباً بعهد وموثق فكونوا على أموالكم ودياركم فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم وخان عهوداً كان قد غرنا بها وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وكل كتاب كان في أمر ديننا ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ومن صام أو صلى ويُعلمُ حاله ومن لم يجيء منا لموضع كفرهم وسلطم خديده ويأخذ ماله وفي رمضان يفسدون صيامنا وقد أمرونا أن نسب نبينا وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه وعاقبهم حكامهم وولايتهم ومن جاءهم موت ولم يحضر الذي ويترك في زبل طريقاً مجدلاً

بسيل عظيم جملة بعد جملة بجند وعزم من خيول وعدة فنقتل فيها فرقة بعد فرقة وفرساننا في حال نقص وقلة ومالوا علينا بلدة بعد بلدة تهدم أسوار البلاد المنيعمة شهوراً وأياماً بجند وعزيمة ولم نر من إخواننا من إغاثة أطعمناهم بالكرب خوف الفضيحة من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة من الدين من أهل البلاد القديمة ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة بما شاء من مال إلى أرض عدوة لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة وقال لنا هذا أماني وذمتي كما كنتم من قبل دون أذية بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة وخلطها بالزبل أو بالنجاسة ففي النار القوه بهزء وحقرة ولا مصحفاً يخلّي به للقراءة ففي النار يلقيه على أي حالة يعاقبه (اللباط) شر العقوبة ويجعله في السجن في سوء حالة بأكل وشرب مرة بعد مرة ولا نذكرنه في رخاء وشدة فادركهم منهم أليم المضرة بضرب وتغريم وسجن وذلة يذكرهم لم يدفنوههم بحيلة كمثّل حمار ميت أو بهيمة

إلى غير هذا من أمور كثيرة وقد بُدلت أسماؤنا وتحولت فأما على تبديل دين محمد وآماً على أسمائنا حين بدلت وآماً على أبنائنا وبناتنا يعلمهم كفراً وزوراً وفرية وآماً على تلك المساجد سورت وآماً على تلك الصوامع علقـت وآماً على تلك البلاد/ وحسبنا وصارت لعباد الصليب معاقلاً وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى فلر أبصرت عيناك ما صار حالنا فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا سألناك يا مولاي بالله ربنا عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا فقولك مسموع وأمرك نافذ ودين النصارى أصله تحت حكمكم فبالله يا مولاي منوا بفضلكم فسل (بابهم) يعني المقيم برومة وما لهم مالوا علينا بغدرهم وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ومن يعط عهداً ثم يغير بعهده وقد بلغ المكتوب منكم إليهم وما زادهم إلا اعتداء وجرأة وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا وساقوا عقود الزور من أطاعهم لقد كذبوا في قلوبهم وكلامهم

قباح وأفعال غزار ردية بغير رضا منا وغير إرادة بدين كلاب الروم شر البرية بأسماء أعلاج من أهل الغبابة يروحون (للباط) في كل غدوة ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة مزابيل للكفار بعد الطهارة نواقيسهم فيها نظير الشهادة لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة وقد آمنوا فيها وقوع الاغارة ولا مسلمين نطقهم بالشهادة إليه لجأت بالدموع الغزيرة من الضر والبلوى وثوب المذلة وبالمصطفى المختار خير البرية لعل إله العرش يأتي برحمة وما قلت من شيء يكون بسرعة ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة علينا برأي أو كلام بحجة لماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة^(١) بغير أذى منا وغير جريمة وأمن ملوك ذي وفاء أجلة ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة فذاك حرام السفعل في كل ملة فلم يعملوا منه جيعاً بكلمة علينا وإقداماً بكل منساء رضيـنا بدين الكفر من غير قهرة ووالله ما نرضى بتلك الشهادة علينا بهذا القول أكبر فرية

١ - (بابهم) يعني (البابا).

ولكن خوف القتل والحرق ردنا نقول كما قالوه من غير نية
 ودين رسول الله ما زال بيننا وتوحيدنا لله في كل لحظة
 ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة
 فسل (وجراً) عن أهلها كيف أصبحوا أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
 وسل (بلفيقاً) عن قضية أمرها لقد مُزقوا بالسيف من بعد حسرة
 و(منيافة) بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضاً بأهل (البشرة)
 و (أندرش) بالنار أحرق أهلها بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
 فها نحن يا مولاي نشكو اليكم فهذا الذي نلناه من شر فرقة
 عسى ديننا يبقى لنا ووصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
 وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم بأموالنا للغرب دار الأحبة
 فجلأؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر في عز على غير ملة

- ٣٩٠ -

ومن أشهر مراثي الأندلسيين أنفسهم ، قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف
 الرندي وقد أوردها المقرئ في الصفحة ٤٧ من كتابه أزهار الرياض .

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغربطيب العيش لإنسان
 هي الأمور كما شاهدها دول من سره زمن ساءته أزمان
 وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال له شان
 يمزق الدهر حتما كل سابعة إذا نبت مشرفيات وخرصان
 وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
 أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
 وأين ما شاده شداد من إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان
 وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان
 أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
 وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطرف وسنان
 دار الزمان على دارا وقاتله وأم كسرى فما أواه ايوان
 كأنها الصعب لم يسهل له سبب يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
 فجائع الدهر أنواع متنوعة وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يهونها
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
أصاها العين بالاسلام فارتزئت
فاسأل بلنسية ما شان مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد فما
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
على ديار من الاسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
يا غافلا وله في الدهر موعظة
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
يا أيها الملك البيضاء رايته
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهفة
ورائعين وراء البحر في دعة
أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم
ألا نفوس أبيات لها هم
يا من لذلة قوم بعد عزهم
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

وما لما حل بالاسلام سلوان
هوى له أحد وانهد ثهلان
حتى خلت منه أقطار وبلدان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب جياش وملآن^(١)
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكى لفراق الالف هيمان
قد أسلمت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى النابر ترثي وهي عيدان
إن كنت في سنة فالدهر يقظان
أبعد حمص تغر المرء أوطان
وما لها مع طويل الدهر نسيان
أدرك سيفك أهل الكفر لا كانوا
كأنها في مجال السبق عقبان
كأنها في ظلام النقع نيران
لهم بأوطانهم عز وسلطان
فقد سرت بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلى فما يهتز لإنسان
وأنتم يا عباد الله اخوان
أما على الخير أنصار وأعوان
أحال حالهم كفر وطغيان
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
عليهم من ثياب الذل ألوان
لهالك الأمر واستهوتك أحزان

١ - لقد ورد اسم حمص مرتين في هذه القصيدة ، وحمص الاندلس هي اشبيلية ، وسميت كذلك لأن جند حمص قد حل بها وسكنها .

يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنها هي ياقوت ومرجان
 يقودها العليج للفحشاء مكرهة والعين باكية والقلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

- ٣٩١ -

ومن القصائد المشهورة قصيدة محمد بن عبد الله العربي العقيلي وزير أبي عبد
 الله الصغير وكتابه ، التي وضعها على لسان مولاه يعتذر فيها للملوك بني مرين في المغرب
 عن النكبة التي حلت بالأندلس ، وقد أوردتها المقرئ في كتابه أزهار الرياض في
 الصفحة ٧٢ وما يليها .

وما جاء فيها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيأ لما مثله يرعى من الذمم
 بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
 حتى غدا ملكه بالرغم مستلبأ وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم
 حكم من الله حتم لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم
 وهي الليالي وقاك الله صولتها تصول حتى على الأساد في الأجم
 كنا ملوكأ لنا في أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النعم
 فأيقظتنا سهام للردى صيب يُرمى بأفجع حشف من بهن رمي
 فلا تنسم تحت ظل الملك نومتنا وأي ملك بظل الملك لم ينم
 يبيكي عليه الذي قد كان يعرفه بادمع مزجت أمواها بدم
 وجبل أواصر قد كانت لنا اشتبكت فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
 وابسط لنا الخلق المرجو باسطه واعطف ولا تنحرف واعذروا تلم
 لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم نذنب ولو كثرت أقوال ذي السوخم
 فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما أرادت أنفسنا ما حل من نقم
 المرء ما لم يعنه الله أضيع من طفل تشكى بفقد الأم في اليتم
 تعاتب على أشياء قد قدرت وخط مسطورها في اللوح بالقلم

رحمك يا راحماً ينمي الى رحما
 بكم مواقف صدق في الجهاد لنا
 والمسيف يخضب بالخضر من علق
 ولا يرى صدر عصب غير منقصف
 معنى دهننا بدهيا لا اقتدار بها
 بالله ما أضمرت غشاً ضمائرنا
 لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت
 فخاننا عنده الجد الخؤون ومن
 فاسود ما اخضر من عيش دمه عدا
 وشتت البين شملاً كان منتظماً
 قرب مبنى شديد قد أناخ به
 قمنا لديه أصيلاً نائله
 وما ظننا بأن تبقى إلى زمن
 لكن رضا بالقضا الجاري وإن طويت
 في النفس والأهل والأتباع والحشم
 والخيال علكة الأشداق باللحم
 ما ابيض من سبل واسود من لم
 ولا ترى متن لدن غير منحطم
 سوى على الصون للأطفال والحرم
 ولا طويت صحة منها على سقم
 ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
 تقعد به نكبات الدهر لم يقم
 بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخدم
 والبين أقطع للموصول من حكم
 ركب البلا فقرته أدمع الديم
 أعيأ جواباً وما بالربع من أرم
 نرى به غرر الأحباب كالخمم
 منا الضلوع على برح من الألم

ومما قاله أبو العباس أحمد بن يوسف الصنهاجي المشهور بالدقون (المتوفى عام

٩٢١هـ) قصيدة في نذب الجزيرة تذكر النفوس بشجوها، افتتحها بنثر: (١)

أمنت من عكس آمال وأحوال
 ولا ابتليت بها في القلب من نكد
 وكيف لا وبقياع الدين خالية
 عمت فقمت قلوب المسلمعين فيا
 جاشت بها من جيوش الكفر ما درست
 أهل الشجاعة أهل العلم أهل تقى
 عنهم وفيهم أحاديث النبي بدت
 رهبان ليل وفرسان النهار فمن
 لا عيب فيهم سوى أن المضاف لهم
 وعشت ما بين أعمام وأحوال
 فالجسم مشتغل من غير أشغال
 من أرض أندلس من أجل أهوال
 للمسلمين من أعداء وأنكال
 بهم معالم أخيار واقبال
 أهل النفاسة في قول وأفعال
 وهم معاقل قول الله للتالي
 يُلِمُّم بساحتهم يظفر بآمال
 يسلو عن أهل وأوطان وأموال

(١) منشور في كتاب أزهار الرياض في الصفحة ١٠٤ وما بعدها.

فهل ترى بعد هذا النفس سائلة
 تالله لا زال ما في القلب من أسف
 أو يفتح الله في نصريمن به
 قد رام لإطفاء نور الله مجتهدا
 سطا بجيش كموج البحر في عدد
 مؤيداً باجتماع المصر يتبعه
 يسبي السامع بالأنفاظ شبهته
 يبني ليهدم ما الإسلام شيده
 فهو المقاتل في الأبراج منتقل
 فاستوطن المرج لا ينوي الرحيل ولا
 والمسلمون من الاضغان قد ملثت
 والحق مختلف والحمق مؤتلف
 وهم لديه كطير وهو ينتفه

وكيف تسأل عن وصف وعن حال
 ولو أكون حليف المنزل الخالي
 فالله باق يقى من كل محال
 وباذلا كل ما قد حاز من مال
 نعم وفي عدد من رهط وأبطال
 شر الخلائق مسروراً بإقبال
 وقع الصواعق في هد وزلزال
 والوصف يعجز من يدعى بقلقال (٢)
 إلف النحوس وتغير وترحال
 يخشى المغيث بسهل أو بأجبال
 قلوبهم وأبوا تسديد إخلال
 والكل منصرف عن نصر أبطال
 والطير يرجو البقا مع كيد قتال

واحتل غرناطة الغراء قد عدت
 كأنها الشمس في أفق العلا كشفت
 وهل تعود ليال قد سلفن بها
 وهل يعود لها الدين الذي أنست
 فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
 قد فرقوا كسبا في كل منزلة
 فلا المساجد بالتوحيد عامرة
 ولا المنابر للوعاظ بارزة
 ولا المكاتب بالصبيان آنسة
 آه على الدين والدنيا وما نفعت
 إنا إلى الله والرجعى له وبه
 وكان ما كان والألطاف شاملة

حب الحصيد ونصر الله والآل
 فهل على ظلل ترمى بأبطال
 ونحن لا نشتكي تنكيد ضلال
 به وقد آيست من فتح أبدال
 كمثل عاد وما عاد بأشكال
 وقد سبا عدة من أيد أوعال
 إذ عمروها بناقوس وغمثال
 للأمر والنهي أو تذكير آجال
 تملو القرآن بأسحار وأصال
 آه إذا صدرت من قلب بطل
 تعلق القلب في تصحيح إعلال
 لاحت بنقلة نسوان وأطفال

(٢) القلقال الفصح.

فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا فالدهر ذودول فاسمع لأمثال
واذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم حق الجوار ولا نوصف باهمال
نلقاهم ولنا بشر ومعدرة ورحمة يا حماة العم والخال
ولا ندد عن ورود الحوض وارده ولا ندع قول ذي نصيح واجمال
إخوانكم رفعت أيدي الضراعة مع كسر القلوب فلا يلقوا باضحال
وقل لوال تطف في مغارمهم يطف بك الله إذ تدعى لاحمال
هذا النذير جهارا جاء ينذرنا والأذن في صمم عن قيل وعن قال
ونحن في غفلة عما يراد بنا نمشي على مهلة من طول إهمال
يا أهمل فاس أما في الغير موعظة إن السعيد لمعوظ بأمثال

كيف الحياة إذا الحيات قد نفخت على السواحل أومت بإرسال
ولا سبيل إلى الترياق غير تقى والحزم في سعة من قبل إعجال
والأخذ بالجد في جمع القلوب على بذل النصيحة أو إبراء ادخال

في صدر سبع على التسمين زائدة شمس الجزيرة غابت بعد إكمال
ويبلغ القلب ما قد شاء من أرب إذ لم يجد ذائداً عن ديننا العالي
ليقض الله أمرا كان قدره والأمر لله في قول وأفعال

القسم

٨

مراجع الكتاب والفهرس

مراجع الكتاب

أولا - مراجع عربية:

- «أزهار الرياض في أخبار عياض»، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، طبع في القاهرة عام ١٩٣٩ م.

- «نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب»، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني.

- «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، عبد الواحد المراكشي، طبع القاهرة

١٣٢٤ هـ.

- «البيان المغرب في أخبار المغرب»، ابن عذارى المراكشي، طبع ليدن

١٨٤٩ م. جزآن نشرهما دوزي وهناك جزء ثالث نشره ليفي برفنسال عام ١٩٣٠ م.

- «تاريخ افتتاح الأندلس»، ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد بن عمر بن

عبد العزيز)، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٧ م.

- «العبر وديوان المتبدأ والخبر»، ابن خلدون، طبع مطبعة النهضة بمصر عام

١٩٣٦ م.

- «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين»، محمد عبد الله عنان، مطبعة

مصر ١٩٥٨ م.

- «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير.

- «ديوان التحقيق والمحاکمات الكبرى»، محمد عبد الله عنان.

- «محاکم التفتيش»، علي مظهر.

- «المغرب في حلي المغرب»، ابن سعيد الأندلسي.

- «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، ابن الخطيب.

- «التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية»، محمد الغزالي، مطابع دار

الكتاب العربي بمصر.

- «غابر الأندلس وحاضرها»، محمد كرد علي، المكتبة الأهلية بمصر ١٩٢٣م.
 - «أحكام أهل الذمة»، شمس الدين أبوبكر، عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، مطبعة جامعة دمشق، تحقيق الدكتور صبحي الصالح ١٩٦١م.
 - «التشريع الاسلامي لغير المسلمين»، عبد الله مصطفى المراغي، مكتبة دار الآداب.

ثانياً - مراجع معربة:

- «تاريخ العرب»، فيليب حتي، طبع مصر.
 - «فضل العرب على أوروبا»، سيجريد هونكه، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤م، عربيه فؤاد حسنين علي.
 - «أهل الذمة في الاسلام»، آ.س. تريتون، ترجمة حسن حبشي، مطبعة الاعتماد بمصر عام ١٩٤٩.
 - «مدنية العرب في الأندلس»، جوزيف ماك كيب (عربيه تقي الدين الهلالي) بغداد ١٩٥٠.
 - «تاريخ الفكر الأندلسي»، أنخيل كونثاليس بالينثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.
 - «حضارة العرب»، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير ١٩٤٥م.
 - «آخر أيام بني سراج»، ترجمة الأمير شكيب أرسلان، مطبعة الأهرام بالاسكندرية، وفيه تعليق وافٍ على تاريخ الأندلس ١٨٩٧م.

ثالثاً - مراجع أجنبية:

- Historia de Espana, **Antonio Ramos. Oliveira 3v.**
- Los Moriscos del Reino de Granada, **Julo Caro BAROJA**
- La Espana Musulmana, **Claudio Sanchez ALBORNOS 2.v**
- Historia de los Musulmanes de Espana, **R.P. DOZY**
- Historia del Rebellion y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada, **Bibliotica de Autores Espanoles (V.21)**
- GUERROS Civilse de Granada, **Bibliotica de Autores Espanoles (V.3)**
- La Expulsion de los morisco Espanoles, **D. Manuel Danvilla y COLLADO**
- Condicion Social de los Moriscos de Espana, **Florencio JANER**
- Histoire des Arabes d'Espagne (ou des mors Mudejares et des Morisques sous la domination des chretiens), **COMTE de CIRCOURT Paris 1846.**

الفهرس

٥ مقدمة الكتاب
٣٧ القسم الأول - الفتح :
٣٩ الفصل الأول : الفتح الإسلامي في شمالي إفريقيا
٤٩ الفصل الثاني : إسبانيا والفتح الإسلامي
٦١ الفصل الثالث : إمارة الأندلس بعد موسى
٧٠ الفصل الرابع : حكم الأمويين في الأندلس
٨٤ الفصل الخامس : سقوط الدولة الأموية وبدء الانهيار
٨٨ الفصل السادس : سقوط الدولة العامرية والتنافس في السلطة
٩٦ الفصل السابع : قيام دول الطوائف وتعاضم الخطب على المسلمين
١٢٣ الفصل الثامن : دولة بني الأحمر في غرناطة
١٢٧ سقوط غرناطة
١٥٥ القسم الثاني - المعاملة :
١٥٧ الفصل الأول : المستعربون الإسبان في ظل الحكم العربي
١٨١ الفصل الثاني : معاملة العرب للإسبان المستعربين
١٩٨ الفصل الثالث : العرب في ظل الحكم الإسباني
٢٥٧ القسم الثالث - الثورات :
٢٥٩ الفصل الأول : ثورات متفرقة
٢٨٩ الفصل الثاني : الثورة الكبرى لعام ١٥٦٩
٣٣٧ القسم الرابع - خاتمة المحنة

٣٧١	القسم الخامس - حضارة العرب
٣٧٣	تمهيد
٣٧٨	الفصل الأول : الحضارة العربية في نظر غوستاف لوبون
٣٩٦	الفصل الثاني : الحضارة العربية في نظر سيجريد هونكه
٤٠٦	الفصل الثالث : حضارة عرب الأندلس في نظر ماك كيب
		القسم السادس - خاتمة الكتاب : العبرة وأسباب
٤١١	انهيار دولة الاسلام في الأندلس
٤٤٧	القسم السابع - الأندلسيون يرثون أنفسهم
٤٦٥	القسم الثامن
٤٦٧	مراجع الكتاب
٤٦٩	الفهرس

المؤلف

- ولد في حلب عام ١٩١٧
- درس الحقوق في معهد الحقوق العربي بدمشق وتخرج فيه عام ١٩٤٣
- حصل على شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس عام ١٩٥١
- عمل في السلك السياسي منذ عام ١٩٥٦ :
- مستشاراً في السفارة السورية في باريس .
- وزيراً مفوضاً مستشاراً في روما .
- مديراً للإدارة الاقتصادية في القاهرة في عهد الوحدة .
- سفيراً في عهد الوحدة في البرتغال .
- سفيراً لسوريا في الأرجنتين وبقي فيها حتى عام ١٩٦٤ .
- وهو يعمل الآن محامياً في دمشق .

للمؤلف

- تفسير كامل للقرآن الكريم يقع في ١٥٠٠ صفحة من القطع الكبير تحت الطبع
- وقد صدر منه (ربع يس) .
- كتاب عن اليهود وكره بني البشر قيد الطبع .
- مجموعة من القصص نشرت في الصحف الليبية والكويتية .
- عدد من البحوث الإسلامية نشرت في الصحف العربية

إن محنة العرب في الأندلس من أكثر المحن في تاريخ الإنسانية إيلاماً وتأثيراً في النفوس، فقد روت كتب التاريخ الكثير عن قهر شعب لشعب وأعن ممارسة الغالب جميع أنواع الاضطهاد والتعذيب وهتك الأعراض والتخريب، لكن ذلك لم يكن يدوم إلا أياماً معدودة تعود بعدها سيادة القانون إلى البلد وتعود الطمأنينة إلى النفوس وتبدأ الحياة سيرها الطبيعي.

أما الاسبان، وهم شعب عرف الحضارة، وله دين سماوي يأمر بالخير والرفقة، والوفاء بالمعهد، فقد عقدوا مع الاندلسيين عهوداً ومواثيق أقسموا على الوفاء بها، الا أنهم خرقوا الميثاق ولم يوفوا بالمعهد بعد أن القى الشعب العربي سلاحه، وتجرد من أسباب الدفاع عن نفسه، فراحوا يسومون العرب أنواع العذاب واستمروا في اضطهادهم لهم أكثر من مئة عام لم يتركوا خلالها نوعاً من أنواع العذاب والتكيل والقهر إلا نفذوه، وكانت النتيجة انه عند أواخر عام ١٦٦٠ م لم يبق في الأندلس كلها عربي مع ان المؤرخين يقدرون عددهم في سنة ١٠٠٠ م بما يقارب الثلاثين مليوناً!

لقد أقام العرب في الأندلس قرابة ثمانمئة عام أشاعوا فيها العدل ونادوا بالمساواة فعاملوا الاسبان معاملة الانسان للانسان فلم يدوسوا حق أحد ولم يتعدوا على ملك أحد ولم يهتكوا عرض أحد.

لكن التعصب الاسباني وما استتبعه من أنواع التعذيب والابادة والقهر والغدر والاذلال لم يستطع ان يجتث من أرض الأندلس أصول الحضارة العربية الزاهرة، التي ما زالت ماثلة لكل ذي بصر وبصيرة شاهدة على أن العرب في الأندلس كانوا بناء حضارة قل أن شهد العالم مثلها.